142 من المقالات التي كتبها الأستاذ جودت سعيد لمجلة (المجلة).

1. العقــل هو التاريـــخ

ليكون تواصل مع القارئ، لا بد من التعرف على أبجدية المبادئ التي أنطلق منها في بحوثي التي أكتب فيها، وأنا لا أطمع في إمكانية تحقيق تواصل إلا مع شريحة معينة، ولكن من المفيد أن تكون المبادئ معروضةً أمام أكبر عدد ممكن من الناس، وأنا في مقالي السابق حاولت أن أعرض أهمية مبدأ المرجعية التاريخ، ولكن تجاربي في هذا الموضوع لا تجعلني أتفاءل كثيراً في أن القارئ يتواصل معي في إقرار هذا المبدأ، فحين أطرح هذا الموضوع أواجه باستنكار، كيف تجعل التاريخ مرجعاً للفهم، والتاريخ أكاذيب ودجل والناس لايكتبون الحقائق، فأضطر إلى أن أوضح ما أقصد بالتاريخ، فالتاريخ ليس ما يكتبه الناس، سواء كانوا مؤيدين أو معارضين للأوضاع، ولكن التاريخ ما تؤول إليه الأمور والأحداث، أي ما يطلق عليه القرآن عاقبة الأمور، إن التاريخ ليس ما كتبه مناصرو الاتحاد السوفيتي أو معارضوه، ولكن التاريخ هو العاقبة التي وصل إليها الاتحاد السوفيتي، وحتى لا نكون متحاملين على دعوة الاتحاد السوفيتي في حل مشكلة الظلم، فإن هذا المطلب لا يزال قائم، وهدف إنساني، وكذلك ينطبق هذا على الدعوة الإسلامية، فليس التاريخ الذي يكتبه مناصرو الدعوة القرآنية هو التاريخ، ولكن ما آلت إليه حال حملة الدعوة الإسلامية.

لا تسخر من الذي يعثر قبلك، ولا ترم الناس وبيتك من زجاج، فإن مبدأ العدالة بين الناس مطلب بشري وهو لب ما جاء به الأنبياء (وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعمة يعظكم به).

وإن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى ولكن نحن العرب المسلمين نخاف من ذوي القربى في النسب أو الدين أكثر من الذين نسميهم اعداءنا وحرب الخليج الثانية كشفت.

لأن حرب الخليج الأولى والثانية من أيام الله ينبغي أن نتذكرها ولا ننساها أبدا لأن هذا الحدث كان تاريخيا وعاقبة لمواريث وأوزار نحملها ومبادئ لم يضئها التاريخ بعد وهذا ما نحاول إضاءتها من دون أن نحمل حقدا ولا غلا لأحد لأن الأمر بحسب المبادئ التي أريد أن أقررها "من عند أنفسنا " وليس من عند الله ولا الرسول ولا آدم وزوجه ولا الشيطان وإنما من عند أنفسنا ومن عندي بالذات، ينبغي أن أؤدي ما علي في حل عقدة الإنسان مستعيناً بالتاريخ الذي لا يرحم أحداٍّ، ولا يحابي أحداً.

وأنا لما أقول عن التاريخ مرجع ليس مرجعاً لي فقط بل الله جل وعز يتحاكم إلى التاريخ ويقبل أن يحاكم بالتاريخ فإن التاريخ صار حكماً بحسب القرآن وصار مرجعاً لفهم قوانين سلوك البشر ومبادئهم القرآن يقول لنا (قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين). هذا مبدأ وقانون وسنة قرآنية يطلب منا هذا المبدأ أن ننظر إلى الماضي الخالي من قبلنا لأن الماضي يحكمه قانون قبل نزول القرآن وقبل مجيء الأنبياء وهذا ليس غيباً وإنما شهادة يمكن النظر إليها بالعين لمشاهدة الآثار الباقية، الآثار تتحدث لغة لا يمكن أن يردها أحد لأنها مشاهدة سواء كان في آيات وسنن الأفاق أو آيات الأنفس المجتمعات البشرية وتاريخهم فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين للعدل بين الناس والقرآن حين يقول " ألم تر كيف فعل ربك بعاد، إرم ذات العماد، التي لم يخلق مثلها في البلاد، وثمود الذين جابوا الصخر بالواد، وفرعون ذي الأوتاد، الذين طغوا في البلاد، فأكثروا فيها الفساد، فصب عليهم ربك سوط عذاب، إن ربك لبالمرصاد ".

هذا قانون وسنة ومبدأ ثابت وراسخ، لن يتغير ولن يتحول، كذلك كان في الماضي، وهو لا يزال كذلك الآن، وهو سيبقى في المستقبل أيضاً كما كان ولا يزال، ونحن نستطيع أن نقول على نفس السنة والقانون والمبدأ، ألم تر كيف فعل ربك بالاتحاد السوفيتي، وألم تر كيف فعل ربك بهتلر وبنابليون ورثاء الرومان، وألم تر كيف فعل ربك بشاه إيران وريث الفرس،

ويمكن أن نعدد.

ولقد مارس القرآن هذا التعداد أحياناً بتفصيل طويل مطول وأحياناً بإيجاز شديد جداً بذكر الأسماء والعناوين فقط كما في سورة (ق) حيث يقول:" كذبت قبلهم قوم نوح(1)،وأصحاب الرس(2)، وثمود(3)، وعاد(4)، وفرعون(5)، وإخوان لوط(6)، وأصحاب الأيكة(7)، وقوم تبع(8)، كل كذب الرسل فحق وعيد".

ونحن يمكن أن نزيد القائمة ونقول ألم تر كيف فعل ربك بمسلمي هذا الزمان، الذي نعيش فيه، تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى، مستباحة أرضهم وأموالهم و... وعددهم كثير، وهم غثاء كغثاء السيل والزبد، الذي يذهب جفاءً، يفصَل لهم، فيلبسون ما يفصل لهم، ويستجيبون لما يريد الآخرون منهم من غير أن يصرح بالطلب منهم، استبطنوا وضعهم ومكانتهم، وأنا ليس همي تعداد المآسي والأحداث، ولكن همي أن اثبت مبدأ مرجعية التاريخ، الذي ربما لا قدرة لي على جلائها كمبدأ قرآني نبوي وعالمي، مرجع معرفة الصواب وخطأ البشر هو التاريخ، والله يأمرنا بالتحاكم إلى التاريخ الماضي، ويتحدانا بالمستقبل أنه سيكون كما كان في الماضي، ولن تتبدل السنن والمبادئ ولن تتحول وتتبدل وتتغير العواقب.

والرسول(ص) بكل الهدوء يقرر هذا حين يقول بلغته الخاصة حين يقرر هذا المبدأ "إنما أهلك من كان قبلكم انه إذا سرق الشريف تركوه وإذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد".

لا يقول الرسول هذا قول الله ولا يقول هذا قولي وإنما يقول: هذا قول التاريخ، وأن من يفعل ذلك من المجتمعات سيهلكون كما هلك الذين من قبلهم، وفي حديث آخر يقول عن أمور ستحدث في المستقبل لقوم ذهب عنهم " العلم"، فلم يستطع الصحابي الذي سمع من الرسول هذا الحكم الذي حكم به فاعترض عليه قائلاً: كيف يذهب العلم يا رسول الله إننا قرأنا القرآن وسنقرئه أبنائنا وسيقرئ أبناؤنا أبناءهم وهكذا، فكأنه يعترض على قول الرسول(ص)، أنه حين يذهب العلم تحدث المشكلات، فقال الرسول: ثكلتك أمك يا بن لبيد، أو ليست هذه اليهود والنصارى بأيديهم التوراة والإنجيل ولا ينتفعون مما فيهما بشيء.

إن تعليم الرسول لصاحبه كان تعليماً تاريخياً، فلم يقل لصاحبه قال الله، ولا يحق لك أن تعترض، ولم يقل أنا رسول لا يجوز لك أن تعترض علي، بل ترك الرسول قول الله بالمعنى الذي نفهمه، وترك احتجاجه بأنه رسول الله ما ينطق عن الهوى، وإنما لجأ الرسول إلى واقع اجتماعي تاريخي مشاهد أمام صاحبه وأمام كل أحد، إلى أهل الكتاب السابقين الذين فقدوا العلم ففقدوا الانتفاع بالكتاب، بل إنه من الواضح جداً أن هذا القانون والسنة التي انطبقت على أولئك ينطبق علينا وعلى من سيأتي بعدنا، فإن الذي لا يعود ينتفع بالتاريخ وآيات الله في الآفاق والأنفس، لا تعود تنفعه آيات الكتاب.

إن من لا قدرة له على الاستفادة من الواقع المشاهد، فلن يتمكن من الاستفادة من الكتاب، لأن مرجع الكتاب الواقع والتاريخ، فحين لا يصدق الإنسان التاريخ يكون وقع عليه قول ربك " إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم".

إن الحربين العالميتين أيقظ الأوربيين من عذابهما الأليم، فهم يعملون الآن وحدة أوربية بكلمة العدل والسواء، إن في ذلك لآية لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

2. التاريخ هو مرجع القرآن

لأن التاريخ صار مصدراً للمعرفة، وشاهداً للحق وشاهداً على الباطل، ومبيناً الرشد من الغي، ولينتج من ذلك أن يهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيي عن بينة، وكما في سفر التكوين، هو ذا الإنسان صار مميزاً الخير من الشر، ولما اعتمد القرآن أحداث التاريخ مرجعاً وشاهداً آن للتاريخ أن يحدث فيه تطور مدهش، وفرقان بين ماض التاريخ ومستقبله، ألا وهو إعلان القرآن ختم النبوات، حيث أغلق هذا الباب الذي كان مفتوحاً من قبل، فدخلت الإنسانية عهداً جديداً، عهد آيات الأفاق والأنفس التي ستشهد على صدق مبادئ النبوات جميعاً.

صحيحٌ إنه أغلق باب، ولكن فتحت أبواب، وبرز عهد جديد للمعرفة، ربما سيضيق صدر كثير من الناس لما قلت إن الأرض تتحدث بأخبارها بأسلوب لا يمكن أن يكذب بها أحد، إلا إذا كذب بإنسانيته قبل ذلك، نعم إن الناس جميعاً لم يكونوا يعرفون عن تاريخ الأرض شيئاً، ولا عن تاريخ الإنسان في الأرض، ولكن الأرض تحدثت بأخبارها بنوع من البيان أو قل بنوع من الوحي، لأن ربك أوحى إلى النحل وأوحى إلى الأرض بأن تحدث بأخبارها، ولقد تلى الناس القرآن في المحاريب مئات السنين وهم يتلون قول الله تعالى "قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق" فلم يكن لأحد أن يتمكن من فهم هذا الكلام الموجز والمفتوح، بحيث لا يستطيع أحد أن يغلقه، ولا أن يكذبه، بل كلما تقدم الزمن ظهر صدقه وعمقه وامتداده، وحتى أنه ليس أحد أمامه مرجع في معرفة كيف بدأ الخلق غير السير في الأرض والنظر فيها لمعرفة كيف بدأ الخلق، إن هذا المبدأ القرآني الذي لا لبس فيه ولا غموض الآن وإن كان فيما سبق لم يكن ليدل على شيء مما يدل عليه الآن، هذا الكلام مبدأ كبير سيخضع له أعناق كل الذين يسيرون في الأرض وينظرون كيف بدأ الخلق، وسيحاورون الأرض بلغتها الخاصة بها، ونحن العالم العربي والإسلامي لم نسر بعد في الأرض ولم ننظر كيف بدأ الخلق، ولم نتعلم لغة الأرض في الإعراب عن نفسها كيف بدأ خلقها بالتحديد، إنه باب انفتح ولكن نحن لم نسر في الأرض ولم ننظر كيف بدأ الخلق، بل أننا لم نقرأ ماذا رأى الذين سارو بأبصارهم وأنظارهم حين عكفوا على قراءة هذا الحديث العجيب الذي لا تنقضي عجائبه.

قلت سابقاً إن الكون بحسب القرآن ليس خلق وانتهى وإنما لا يزال يخلق ويزاد في خلقه، وخلقه يزداد إلى الأحسن، ونحن نستطيع أن نرى ذلك في مجالات معينة بوضوح فاقع، فإن القرآن حين ذكر وسائل النقل المعروفة في زمنه، لم يقف عندها وإنما أتبعها بقوله "و يخلق ما لا تعلمون" ولم يكن أحد من المفسرين الكبار أن يتخيل ماذا سيخلق الله من وسائل النقل، ولكننا نحن نرى بأم أعيننا من غير توهم ولا سحر ماذا زاد في حياة الإنسان، وكيف أنه عاش حين طويل من الدهر لم يكن استأنس الدواب أيضاً، ولم يمض إلا عشرة آلاف عام على استخدام الإنسان للحيوانات كوسائل للنقل، ولكن الإنسان بإمكاناته في جهازه العصبي الذي يستطيع أن يكشف سنن الوجود سنن الكائنات وسنن آيات الآفاق (=الوجود الكوني ما عدا الإنسان) والأنفس أي الوجود الإنساني، خليفة الله في الأرض، جعله خليفة في الأرض ولكن وهو في الأرض صار سلطانه على الوجود كله، بل صار هو نفسه مؤتمناً على مصيره ومصير الكائنات الأخرى، فهذه هي الأمانة التي حملها الإنسان وعجزت وأشفقت السماوات والأرض والجبال أن يحملنها، وأشفقن منها لم يكن الناس يعلمون كيف بدأ خلق دواب الحمل والركوب، ولكن امتداد زمان الإنسان ومكانه ليس بالفراسخ والأميال، ولكن بملايين السنين الضوئية فتداخل الزمان والمكان حين قال الإنسان بالسنيين الضوئية، فصار الزمان يعبر به عن المكان وامتداد الوجود، ولكن الكلمتين القرآنيتين ويخلق ما لا تعلمون، كما كان الناس لم يكن لهم قدرة أن يعرفوا ماذا يمكن أن يوجد من هذه الوسائل التي نراها، نحن كذلك نحن لا قدرة لنا على علم ما يمكن أن يخلق في المستقبل من هذه الوسائل، فجملة ويخلق ما لا تعلمون الآن، لا يزال كما كان من قبل مفتوح لا يمكن إغلاقه، إنني لا أمارس إستجداءً للإيمان بالقرآن ولا بالأنبياء، كلا ولا أمارس التسول لأكسب مؤيدين، إن الله ودينه والمؤمنون به أغنياء عن الذين يرفضون، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها "و من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها، ولا تزر وازرة وزر أخرى، وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا"و أنا هدفي إبراز أهمية التاريخ كمرجع للقرآن، وإن كان بياني قد لا يحدث مبتغاه من إقناع الناس بأهمية التاريخ، إلا أن العبقري ابن خلدون قد عبر عن أهمية التاريخ بإسلوب عصره المعروف حين قال: "فإن التاريخ في ظاهره لا يزيد عن أخبار الأيام والدول ......

وفي باطنه نظر وتحقيق وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق......و علم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق فهو لذلك أصيل في الحكمة عريق وجدير بأن يعد في علومها وخليق".

و يقول جون أرنولد توينبي الذي استفدت من كتابه دراسة في التاريخ أيما استفادة، يقول عن ابن خلدون "إنه أعظم عمل من نوعه، أمكن أن يبتكره عقل من العقول، في أي عصر من العصور، في أي رجأ من أرجاء الأرض"[1]

ويكتب أرنولد توينبي عن أهمية التاريخ قائلاً:"فإن كنا على حق إذ نرى في التاريخ صورة لإبداع الخالق في حركته الدائبة، فإنا لن نعجب إلا إذا وجدنا أن القوة الفعلية لتأثير التاريخ في العقول البشرية التي تتماثل – فرضاً– درجة قابليتها الداخلية لتأثير التاريخ، وفقاً للظروف التاريخية لمن يتلقاها، إذ لا مناص من إن تقوم نزعة حب الاستطلاع بتعزيز القابلية لاستيعاب التاريخ، ولكن حب الاستطلاع لن يثور إلا إذا بدت للعيان عملية التغيير الاجتماعي واضحاً وضوحاً ساطعاً قوياً، إذ بدون هذا التطلع المثير الخلاق تبقى أعظم ما نعرف من هياكل التاريخ تأثيراً في النفس خرساء، لا تحدث آثراً لأن العيون التي تنظر إليها لا ترى فيها شيئاً ...... إلى أن يقول: يتبلور دائماً حب الاستطلاع عند أي من كبار المؤرخين في بذل الجهد للرد على طائفة من الأسئلة ذات مغزى لجيله، تلخص في كيف ترتب هذا على ذاك".

والله يداول الأيام بين الناس ويقول:"وذكرهم بأيام الله" التي يظهر فيها أسباب ما يحيي الأقوام أو يهلكها.

3. هل بقي من أمر النبوات من شيء يمكن كشفه

هل غادر الشعراء من متردم أم هل عرفت الدار بعد توهم

هل غادر الربانيون شيئا من أمر النبوات؟ هل بقي شيء على السابقين من أتباع الأنبياء لم يبحثوه من أمر النبوات؟ هل ندّ على المتصوفة والعشاق شيء يمكن كشفه من أمر تراث النبوة ؟ هل يمكن أن نجد في النسخة الأخيرة ما يمكن أن يهدينا إليه مما فقدته البشرية؟ هل توقف الخالق جلّ علاه من أن يخلق شيئاً في خلقه، شيئاً جديداً لم يحلم به السابقون؟ هل الكون لا يزال يخلق ويزاد في خلقه في الزيادة في الخير والأبقى؟ أظن ذلك وإن قعد بالناس خفاء أحداث الخلق المتدفق المتفجر، إنه وعدُ الله أن يرينا آياته في الآفاق والأنفس حتى يتبين لنا أنه الحق. ولكن حب الاستطلاع لن يثور إلا إذا بدت للعيان عملية التغير الاجتماعي واضحةً وضوحاً ساطعاً قوياً، إذ بدون هذا التطلع المثير الخلاق تبقى أعظم رموز التاريخ تأثيرا خرساء لا تحدث أثرا لأن العيون التي تنظر إليها لاترى فيها شيئاً بل ترى فيها الجنون والإنكار ((كذلك ما أتى اللذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون أتواصوا به أم هم قوم طاغون فتول عنهم فما أنت بملوم وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين)) ما هذا القول؟ هل التاريخ مطبق على أن ما جاء به الأنبياء والرسل سحر وجنون؟ ما هذا القول؟ هل في هذا الكلام ما يثير حب الاستطلاع لكشف تأويل الأحداث والأحاديث؟ هل بقي من رمز يمكن تأويله أو لمّا يأت تأويله بعد؟ هل الرسل والأنبياء جاءوا بالسحر والجنون أو جاءوا بما يدعو للاستهزاء؟ هل لا نزال في موقف يدعو إلى الحسرة ؟ هل أحداث التاريخ خرساء لا تدل على تغيير وإبداع؟ هل توقف خلق الكون وترك لعوامل التّحات والتعرية أم لا يزال يخلق ويزاد في خلقه ويرينا – إن كنا قابلين للرؤية – آياته في الأفاق والأنفس، من أن الزيادة في الخلق في تفجر عجيب؟ هل من شيء يدعو للتأمل في الحسرة على العباد من أنهم ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون؟ ما هذا الذي جاء به الأنبياء والرسل مما وصفه بأنه سحر وجنون وسخف يدعو إلى الاستهزاء؟ ما هذا التوحيد الذي جاء به الأنبياء؟ ما معنى ((الله أحد))، هل بقي من قول لم يقل فيه بعد يمكن أن يبعث الحياة في الموات وينفخ الروح؟ هل يمكن أن نكشف

---

[1]- ص8 من تقديم كتاب التحرير لمقدمة بن خلدون.

النار من جديد؟ هل يمكن أن نمسك بالصاعقة لتكون الخادم الأمي ((وكأي من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون)). هل البشرية في مرحلة الطفولة التي لا تعرف فيها كيف تنظف نفسها أو يمكن أن تبلغ رشدها وتؤتى الحكمة ؟ هل لنا في أن نتساءل أم انتهى عهد التساؤل؟ هل قمع فينا حب الاستطلاع إلى هذه الدرجة؟ هل كفت الأرحام من أن تقدم مخلوقات مبدعة مبتكرة مبتدعة تلح في السؤال إلى درجة الملل والإملال، كل طفل يمر بهذه المرحلة المبدعة في حب الاستطلاع فحين يفتح عينه على هذا العالم الذي يحتاج إلى تفسير، يبدأ في السؤال والتساؤل عن كل شيء إلى أن نتمكن من قمعه بحيث لا يعود يسأل عن شيء. هل يمكن أن نتأمل هذه المرحلة في الأطفال؟ هل يمكن في ذلك الوقت أن نقدم لهم معرفة تساعدهم على أخذ فكرة عن الإنسان والكون وأن هذا الكون ليس عبثا وأن هذا الإنسان ليس باطلا إن هذا العجز الذي نمارسه أو هذه الفرصة التي لا نغتنمها هو الذي يولد السخط والنحر والانتحار ولكن هل فاقد الشيء يمكن أن يمنحه للآخرين ؟ ((إنهم ألفوا آباءهم ضالين فهم على آثارهم يهرعون)) إنه قد أغلق الباب بإحكام على إبقاء حب الاستطلاع واضحا وضوحا ساطعا وقويا. إن محاولة الأنبياء فك رموز هذا لكون والإنسان هو الذي جعلهم ينظرون إليهم على أنهم سحرة ومجانين وجدير أن يستهزأ بهم وجاءوا بشيء عجيب من الجنون ((أجعل الآلهة إلها واحدا إن هذا لشيء عجاب)) ((ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة)) ((إن هذا إلا اختلاق)) ((كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون)) ((يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون)). في النسخة الأخيرة من كتاب النبوات تلخيصات عجيبة في وحدة النبوات وأن ملة الأنبياء واحدة وأن الأمم التي واجهت الأنبياء ملة واحدة أخرى مواجهة ((كان الناس أمة واحدة (= ملة واحدة) فبعث الله النبيين)) والتاريخ يقول لنا: كان الناس أمة واحدة ولا يزالون وهذه الأمة الواحدة والملة الواحدة هي ملة المستكبرين والمستضعفين، مستكبرون يخافون من أن يفقدوا استكبارهم ومستضعفون يتمنون بتلمظ أن يحين لهم وقت يكونون فيه مستكبرين (تبادل المواقف في ملة واحدة) فبعث الله النبيين للخروج من هذه الملة إلى وضع لا يكون فيه استكبار ولا استضعاف، إن الكرة في ملعب المستضعفين وليست في ملعب المستكبرين. كيف نكشف جنون الأنبياء؟ يقول مرسلُ الأنبياء السحرة المجانين المُستهزأ بهم لآخر رسله أن يقول لنا ويبلغنا ويعظنا بشيء واحد ((قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة)) إنهم مكتشفو الطاقة المودعة في الإنسان الذي إن كشف نفسه لا يمكن أن يستهومه بجعله هائما على وجهه أو يوقعه في الوهم بل يبقى حاملا ولاءه لمبدعه الذي سخر له ما في السموات وما في الأرض جميعا منه.إن ميشيل فوكو له بحوث في العقل والجنون يقول في كتابه (نظام الخطاب): "لقد كان الأحمق ابتداء من القرون الوسطى هو ذلك الذي لا يتداول خطابه كما يتداول خطاب الآخرين فقد يعتبر حديثه فارغاً ولا قيمة له حديثاً لا يمتلك أية حقيقة ولا أية أهمية، حديثاً لا يمكن أن يكون محط ثقة من طرف العدالة، ولا يمكن أن يؤخذ كشاهد على صدق عقد أو ميثاق – ويقول في سخرية لاذعة – ولا يمكن حتى أن يسمح له بممارسة القربان في القداس وأن يجعل من الخبز جسدا وقد يحدث أيضا في مقابل ذلك أن تنسب له قدرات غريبة بالتعارض مع كل الباقي، أي القدرة على الجهر بحقيقة مخفية والقدرة على التعبير عن المستقبل وعلى الرؤية الساذجة كما لا يمكن أن تدركه حكمة الآخرين. ومن الغريب أن نلاحظ أن كلام الأحمق قد ظل لعدة قرون في أوروبا كلاما لا يسمع وفيما إذا استمع إليه فإن يستمع ككلام يعبر عن الحقيقة وإما أنه يسقط في العدم ويرفض حالما يتلفظ به وإما أن يكشف فيه عن عقل ساذج أو ذي دهاء عن عقل أكثر معقولية من عقل العقلاء".

إن العالم الغربي الآن يعتبر النبوات من كلام الحمقى لهذا لا يجرؤن بجدية أن يتناولوا الحديث عن النبوات والأنبياء والأديان فينزهون أنفسهم مثل ميشال فوكو من أن يذكروا أو يدخلوا في هذا العالم الذي اختلط فيه الجنون بكلمة الله وعمل الجنون الأعظم كما في كتاب مسيرة فلسفية.

لقد كان تعرفي على محمد إقبال لحظة أرخميدسية أو زرادشتية فهو الذي يقول:

ومزقت الجيوب وأنت خالي   جنوني لا ألومك في قصور

يعني إني أمزق جيوبي وأنت غافل، والسبب في ذلك أن جنوني لم يبلغ الكمال حتى أتمكن من أن أنقل العدوى إليك. ويقول إقبال عن جلال الدين الرومي:

صيّر الرومي طيني جوهراً   من غباري شاد كوناً آخرا

والرومي يقول في مثل هذه الحالة التي نحاول مقاربتها في أن نكشف شيئاً في النبوات لا يزال قصيا عن تناول العقول – يقول الرومي:

رأيت الشيخ بالمصباح يسعى   له في كل ناحية مجال

يقول مللت أنعاماً وبهما   وإنسان أريد فهل ينال

فقالوا قد بحثنا ذا محال   قال ومنيتي هذا المحال

وأنا أقول ومنيتي أن أقول شيئاً عن النبوات بشكل مختلف لم يفت أوانه بل ولتعلمن نبأه بعد حين..

4. صدمة الأفكار أو ما سمعنا بهذا

كيف تكون صدمة الأفكار؟ كيف تحدث يقظة الذات؟ وكيف تحدث القطيعة الفكرية؟ إننا خرجنا من بطون أمهاتنا لا نعلم شيئاً، وكل البشر هكذا، ولكن الإنسان يعيش صدمة الأفكار شاء أم أبى استجاب أم لم يستجب، ولكن في حياة الإنسان صدمات فكرية متميزة، لا يتمكن من نسيانها وتظل حاضرة، وإن كان هناك صدمات لا يحس بها.

في أواسط الخمسينات من هذا القرن الذي أوشك على الانصرام، وقع في يدي كتاب شروط النهضة لمالك بن نبي فكانت الصدمة المميزة في حياتي، كما حدث ذلك لجلال الدين الرومي حين التقى بشمس الدين التبريزي، فجرى بينهما حوار قصير كان صدمة لجلال الدين الرومي حتى أنه قال عن شمس الدين:

هذه النار فما قصتها؟   أحرقت ما عندنا وقدتها

شعر جلال الدين بالصدمة الفكرية وبالقطيعة المعرفية، سمع أو فهم شيئا لم يكن سمع أوفهم من قبل، فوقع الرومي في أسر أفكار التبريزي، حتى أن تلاميذ الرومي طردوا شمس الذي أفسد الرومي في تصورهم، فهام الرومي وترك تلاميذه وخرج ليجد التبريزي، وظل طويلاً باحثاً إلى أن استيقظ في لحظة إشراق فكري فقال: أواه أنا لم أفقد شمسا، أنا لم أكن أبحث عن شمس، وإنما كنت أبحث عن ذاتي وقد وجدتها فكف عن البحث عن شمس تبريز وعاد وألف كتابه المثنوي، مما يدل أنه فعلاً وجد الرومي ذاته، وخرج من رحم الأباء، فكان كتابه فريداً في الإبداع والسمو، حتى أنه قال محمد إقبال– وهو أحد المجتهدين الكبار في هذا العصر– قال:

صير الرومي طيني جوهراً   من غباري شاد كوناً آخرا

ومن صدمة الرومي بشمس تبريز تألق كتاب المثنوي للرومي، ومن صدمة محمد إقبال بالرومي لمع ديوان الأسرار والرموز لمحمد إقبال،الذي عنى به أسرار إثبات الذات، ورموز نفي الذات، أي العثور على جوهر الإنسان.

وأنا أعتبر نفسي شرارة من شرارات تلك التألقات في مسيرة الحركة الفكرية في العالم الإسلامي، الذي كان له دور في الحركة الإنسانية، ليتحقق علم الله في الإنسان في الخروج من الفساد وسفك الدماء.

لما قرأت شروط النهضة لمالك بن نبي في أول الأمر، لم أفهم أبعاد ما يقوله، ولكن لم يكن ليخفى عليَ أنه شيء غير الذي أعلمه وأنه شيء ذو وزن ثقيل، وكانت صدمتي بمالك بن نبي يحمل شبهاً بصدمة الرومي بالتبريزي، وفعلاً أحسست أن ما عند مالك بن نبي من نور ونار _أضاء الظلمات وأحرق الزبد بشكل لا يمكن الارتداد إلى الظلام، ولا العيش في حياة الغثاء، وإلى الآن أعيش حالة التوتر.

إن مالك بن نبي يذكر لحظة أرخميدس ولحظة زرادشت، معتبراً لحظة أرخميدس لحظة الكشف، كما كشف ارخميدس قانونه المعروف وهو في الحمام، وخرج هائماً يصيح: وجدتها.. وجدتها..!!، وأما لحظة زرادشت فهي الشعور بضرورة نشر الحقيقة، وكشف الأوهام، وأنا شعرت بلحظة أرخميدس، ولكن هل لنا أن نتمكن في حمل الشعلة لتنوير القلوب، وإضاءة الظلمات، هذا ما حاول أن يفعله الرومي في كتابه المثنوي، وهذا ما عاش من أجله إقبال وكتب ما كتب، وهذا ما عاناه مالك بن نبي إلى آخر لحظة من حياته، في سلسلة مشكلات الحضارة، وإقبال لما عبر عن لحظة أرخميدس، وزرا دشت عبر بأسلوب آخر، وذلك أن صوفياً كان يتحدث عن المعراج والسدرة المنتهى التي عندها جنة المأوى، فقال الصوفي– كما يقول محمد إقبال– أنه لو وصل إلى ذلك المكان والمقام، لما عاد أبداً إلى الدنيا، فقال إقبال معلقاً على قول الصوفي(هذا هو الفرق بين الولي والنبي، أن الولي همه نجاة الذات، ولكن هم النبي نجاة الأمة والناس جميعاً، فهو يعود ليوصل العالم إلى ما وصل إليه، لا أن يبقى هو وحده هناك) فهذا هو لحظة زرادشت عند إقبال لحظة صدمة الأفكار، ولحظة الشعور بضرورة تبيلغ الأفكار، وهو وظيفة الأنبياء " بلغ ما أنزل إليك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته". والآن سأذكر صدمة فكرية من صدمات مالك بن نبي فقد قال: عن العالم الإسلامي، أنهم لما يلتقون ويستعرضون مشكلاتهم، يعتبرون مشكلة فلسطين من أولى مشكلات العالم الإسلامي وأهمها، ولكن مالكاً لم يعتبر مشكلة فلسطين أولى مشكلات العالم الإسلامي، بل اعتبر المشكلة الأولى مشكلة تخلف المسلمين وغيابهم وعدم حضورهم، وأن فلسطين ليس هو المرض، وإنما هو عرض للمرض الأساسي، واعتبر مشكلة فلسطين مثل المنديل الأحمر، الذي يحمله مصارع الثيران الإسباني، الذي يلوح به أمام الثور الهائج الذي ينطح المنديل بدل أن ينطح المصارع الأساسي، وهذه الفكرة فكرة صادمة حقاً، وكثير من الذين يسمعون مني هذا يصدمون، وهم من كبار المفكرين في الساحة، وفعلاً إن مشكلة فلسطين قام بدور تعطيل جهد العرب والمسلمين عن مشكلتهم الحقيقية، وهذا الذي نسميه التخلف أو المرض الأساسي للعرب والمسلمين، أطلق عليه مالك بن نبي، مشكلة القابلية للاستعمار، مقابل مصطلح الاستعمار،فأبرز مشكلة القابلية للاستعمار، وأن هذه القابلية أو التخلف أو الحالة الغثائية، كما في حديث الرسول(ص):" أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل".

المشكلة ليست المصطلحات أو الأسماء التي نطلقها على الوقائع والأحداث أو الحالات النفسية، كما تقول الصوفية، إن مرض العالم الإسلامي ليس خافياً، فقد أطلق على الدولة العثمانية الرجل المريض، والحربان العالميتان كانتا من أجل التنازع على توزيع تركة هذا الرجل المريض، العبارات كثيرة ولكن المعنى واحد، إن للشمس أسماء بقدر لغات البشر، ولكن الشمس واحدة، وكذلك تخلف المسلمين، وقابليتهم للخداع، والاستعمار، وأنهم غثاء كغثاء السيل ... الخ.

إن مالك بن نبي لما صدمني بهذه التصورات، أدركت بسرعة صحتها وقوتها وعمقها، ولكن ذلك كان يتأكد على مر الوقت، إن أحداث التاريخ كانت تصدق هذا التصور، ولكن حجم هذه الصدمة تكاملت، لما رأينا حرب الخليج الثانية، حين نسينا مشكلة فلسطين لما برزت المشكلة التي بين العرب بالذات، آمنا بالمشكلة، ولكن الصدمة كانت شديدة فعقدت ألسنتنا وتبلد فكرنا، لم نستيقظ بعد من الصدمة، ولم نستطع أن نحللها، لأن الموضوع لم يصر علماً يتداول، وإنما تماراً وشناراً، اشترك فيه الجميع، فتبادلنا التهم والإدانة، ولم نكشف السبب العميق الكامن الخفي والمسيطر، أو العقدة النفسية، أو اللاشعور، حسب تعبير القرآن الذي يقول لنا " إذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون".

كيف نضيء اللاشعور المظلم الخفي المطمور تحت الأنقاض؟ الذي يفسد علينا حياتنا، كيف نفرق بين ما نحب ونكره؟ وبين ما هو علم وشعور في النور؟ وليس في الظلام. فإن مالكاً بين كثيراً من لا شعورنا، الذي يفسد علينا حياتنا، أبرزها إلى الشعور، إلى الضياء، إلى العلم والمعرفة، وليس في ظلام الحب والكراهية، لأن الحب أعمى. ورد في الحديث " إن حبك الشيء يعمي ويصم".

ونحن العرب والمسلمين نحب ونكره فقط، ولكن لا نعلم، والله يقول: عسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون، ولكن ليس معناه أن هذا لا يمكن أن يدخل في عالم العلم، الأحاسيس والمشاعر خداعة، ربما يتضح لنا هذا فيما يأكله الناس ويشربونه، إن الأحاسيس والمشاعر هي التي تتحكم فيما يأكلون ويشربون، وليس العلم وحاجة الجسد، وعالم النفس السلوكي يركز على أن سلوكنا يخضع للأحاسيس والمشاعر، وليس على العلم والمعرفة، نحن أخطأنا بحسنا البصري في فهم حركة الشمس الخادعة، أخطأنا في فهم أوضح شيء في الوجود، أخطأت أعيننا جميعاً في فهم حركة الشمس، وحتى تراجع أمام الحس البصري الخاطئ، ولكن المسيطر تراجع جاليلو عن علمه أمام الحس الخاطئ، فإذا أخطأنا في فهم أوضح شيء في الوجود، فما هذا الذي يمكن أن نقول أننا لا نخطئ فيه، فمن أجل هذا كان لا إكراه في الدين.

5. طبيعة الأفكار

أنا حين أقول أنني جئت إلى هذا العالم من بطن أمي لا أعلم شيئاً ولا أتحدث لغة ثم تعلمت لغة مجتمعي الذي ولدت فيه، واستنشقت ثقافته وأفكاره الخفية والجلية. وكما للإنسان لغة صوتية مؤلفة من الحروف الهجائية كذلك للإنسان لغة فكرية مفاهيمية غير مرتبطة بلغة الكلام التي يتكلم بها الإنسان، إن النزاع بين محمد وقريش لم يكن نزاعاً لغوياً وإنما كان نزاعاً فكرياً رؤية للعالم وتفسيراً له. كما أن النزاع بين جاليلو ونظريته الفلكية لم يكن نزاعاً لغوياً وإنما كان نزاعاً فكرياً وتصورياً لعالم الأفلاك، هذا التفريق بين اللغة والأفكار سهل؛ ولكن يحصل أن يشتبه فنظن أن الحقيقة في اللغة وليست في الأفكار وهذا موضوع ربما سنرجع إليه أو نعرج عليه لنزيل الالتباس. أما حديثنا الآن، والحدث الذي سارت به الركبان، وصار أحاديث بين الناس، هذا الحدث هو مشكلة الأفكار، مشكلة التصورات، مشكلة إمكانية الخطأ في فهم الشمس، ليس خطأ بعض الناس، وإنما العالم جميعاً. كيف اكتشفنا أن الشمس لا تدور حولنا وإنما نحن تدور أمامها وحولها أيضاً، إن كشف ذلك لم يكن سهلا أبداً إن الحركة موهمة ملتبسة. وأنا أضرب مثلاً في الوقوع في هذا الوهم من حدث عادي يحدث مع جميع الناس الآن وذلك حين يركبون الحافلات أو القطارات فإنه يحدث لهم . عند بدء الحركة . لحظة يلتبس عليهم فيها من الذي يتحرك نحن أم الحافلة أو القطار الذي بجنبنا،هذا الالتباس يحصل لنا جميعاً، ولكن نحاول أن نخرج من هذا الوهم بالنظر إلى الأرض أو إلى شيء أخر ثابت حتى نعرف أيهما المتحرك، ولكن كشف وفهم أيهما المتحرك أو أيهما الذي يدور حول الآخر أو يدور حول نفسه (الشمس أم الأرض) فإن هذا يحتاج إلى نقطة مراقبة ربما ليس في إمكاننا أن نجدها في الأرض، فلابد من خيال واسع وتصور أعمق، وخاصة أننا نرى الأرض كبيرة، والناس كانوا لا يعرفون طرفها، وكذلك نرى أن الشمس صغيرة الحجم في رؤية العين. إن هذا الانقلاب الفلكي كان صدمة كبيرة في عالم الأفلاك. والقرآن يتحدث عن حركة الظل وعدم ثباته ((ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكناً ثم جعلنا الشمس عليه دليلا)) وأنا هدفي من هذا كله كيف أن الشمس التي هي أوضح شيء في الوجود كان فهم الناس لها فهماً خاطئاً؟ وكان الناس عندهم استعداد ليموتوا هم وليموت الآخرون من أجل تعارض الأفكار حول حركة الشمس والأرض. إن الشمس دليل كبير على أننا نحن نخطئ في فهم أوضح شيء. ولكن الأمر ليس في الخطأ وإنما كيف نكتشف الخطأ؟ وكيف نفهم الصواب من الفكرتين المتنازعتين؟ هذا شيء صار تاريخاً يمكن الحديث فيه الآن من دون خوف كبير، ربما لا يزال هناك خوف إلى الآن من الحديث في هذا الموضوع في بعض الأماكن. ولكن صدمة الأفكار كيف تحدث؟ بعض الأفكار صدمتها خفيفة نضحك حين نكتشف الخطأ الذي كنا وقعنا فيه، ولكن بعضها يزلزل دنيانا ويتهدم العالم الذي نتصوره كله، هذا لا طاقة لنا على سماعه ولا الحديث فيه. وهكذا كانت الشمس والانقلاب الفلكي، لقد تزلزلت الأرض والسماوات والشمس والنجوم؛ هذا عالم آخر غير الذي نعلم،

ونحن الآن نعيش زلزلة ليست فلكية وإنما اجتماعية لا يمكن البحث فيها ولا الحوار عنها لأنها تزلزل مسلمات بدهية عندنا، فهل لي قدرة على تناول من مثل هذه الزلزلة الاجتماعية؟ لابد من مرصد، لابد من بناء مرصد لإمكانية رصد زلزلة الأفكار والتصورات. لما تاب جاليلو عن هرطقة تصوراته الفلكية ويده على الكتاب المقدس كان من الصعب أن يفهم الناس في ذلك الوقت إمكانية تصور النظام الفلكي الجديد وتفسير ظاهرة الليل والنهار.

وليس يصح في الأذهان شيء إذا احتاج النهار إلى دليل

ولكن النهار في حاجة إلى دليل، وكذلك الشمس. إن النزاع كان نزاعاً فكرياً تصورياً ولم يكن نزاعاً لغوياً ولا نزاعاً في الكلمات والجمل والعبارات. إن النزاع . أيهما المتحرك الأرض أم الشمس . ليس هو المهم الآن، لقد تجاوز الناس هذه الأزمة الفكرية ولكن المرجع في هذا النزاع لم يكن في الكتب، ولا في اللغة ولا في الكلمات وإنما كان في الفلك الدوار، في الشمس والأرض والليل والنهار، وكيف يحدث ما يحدث، لما قلت سابقاً كثيراً وسأقول لاحقاً كثيراً: إن المرجع في هذا النزاع هنا هو أيات الآفاق، أية الشمس ((وآية لهم الأرض))، المرجع كان للفلك الدوار، وإلا كنا سنظل نتقاتل لو بقينا نتعلق باللغة ونترك الموضوع الذي تبحثه اللغة. وهذه مشكلة أخرى يقع فيها الالتباس، إذ لابد من العودة إلى النظر في الموضوع بالذات. لقد أخذت فكرة دوران الأرض حول نفسها وحول الشمس زمناً طويلاً . أربع قرون . حتى زالت صدمة الفكرة الجديدة وألفها الناس؛ لأن الكنيسة منذ بضع سنوات فقط رفعت إدانة جاليلو بالهرطقة التي كشفها قبل أربع قرون، وأنا ليس هدفي إدانة الكنيسة ولكن نحن بشر وهم بشر نقع في الوهم، ولكن الذي نرجوه من هذا المثل أن لا يطول اعترافنا بالانقلاب السياسي والاجتماعي الذي حدث مثل الانقلاب الفلكي، أريد أن لا يأخذ أربع قرون حتى نعترف أنها ليست هرطقة ولا كفر ولا حاجة بمطالبته بإنزال الموت والنفي.

المهم أن نثبّت المرجعية في هذا الموضوع وهو الفلك كما أن الصدمة الاجتماعية مرجعها المجتمعات وليس اللغات، لهذا أمرنا الله أن ننظر في السماوات والأرض كيف رفعت وبسطت؟ ((وإلى الجبال كيف نصبت)) ((والى الإبل كيف خلقت)) ((وفي أنفسكم أفلا تبصرون)). الحديث ذو شجون وآلام ومآسي. في الأمثال العربية (إن يبغ عليك قومك لا يبغ عليك القمر) إذا كان الناس يمكن أن يخطئوا في فهم الشمس والقمر، ويبغي بعضهم على بعض فإن الشمس والقمر لن يتغيروا لتغير أفكار الناس عنهما، فستظل الشمس على ماهي عليه في مولدها وموتها، وتألقها وانفجارها، وفق سنة كونية لن تجد لها تبديلاً ولن تجد لها تحويلاً، لقد صدمني مالك بن نبي بأفكاره وبمفاهيمه. وكانت هذه الصدمة في تصوره للمجتمع ولحركة المجتمع ومفاهيم الناس عن هذه الحركة، ولهذا الكاتب أدين بالصدمة واليقظة. أرجو أن أكون مثل جلال الدين الرومي فأجد ذاتي لأننا ضيعنا ذاتنا ولم يعد لنا ذات وإنما نحن نسخ مشوهة لآبائنا فكيف سنتحمل صدمة أن سادتنا وكبراءنا لن يغنوا عنا شيئاً أمام سنن الله في الأفاق والأنفس. لمالك بن نبي كتاب بعنوان (مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي) يذكر في فصل من هذا الكتاب كيف يمر عالم الأطفال بثلاث عوالم حين يجيئون إلى هذا العالم ؛ يعيشون عالم الأشياء وعالم الأشخاص وعالم الأفكار، فالطفل أول ما يولد لا يتمكن من معرفة والدته وتميزها عن زجاجة الحليب فهو في عالم الأشياء ولكن بعد مدة يبدأ الطفل بتمييز وجه أمه وأخوته وربما يجد معاناة حتى يميز نفسه وأنه هو ذات فيدخل عالم الأشخاص، أما الدخول في عالم الأفكار والتجريد فقد لا يدخلها أبداً ويعيش فقط عالم الأشخاص. وكل إنسان يتكون في بطن أمه يكون في أحشائها إلى أن يتم مرحلة نموه الجنينية فلابد من معاناة المخاض والميلاد ولابد أن يحدث انفصال عن جسد الأم لتكتمل مرحلة النمو وعند ذلك لابد من الانفصال في التغذية والتنفس عن الأم، لابد من استخدام أعضاءه لأول مرة مثل الرئتين، ولابد من الغذاء بفمه ومعدته وليس من دم الأم فهذا الميلاد ضروري جداً.

وهذا في عالم الأشياء والأشخاص، المادة والحياة، الجسم للكائن الحي، ولكن الإنسان في عالم الأفكار يعيش في رحم الآباء، ولكن هل نحس أنه لابد من الولادة الفكرية أم يظل في الرحم لا يولد فكرياً، فهل نحن ولدنا فكرياً ياترى؟ هل هذا السؤال صدمة فكرية ؟ كم من الزمن يستغرق حتى نولد فكرياً ؟

6. الوقود الوهمي والوقود الاجتماعي

يقولون في دراساتهم لمشكلة الإنسان والمجتمعات، أن هناك حقائق حقيقية وحقائق اجتماعية، وقصدهم في ذلك التفريق بين نوعين من الوقائع، إن المشكلات الاجتماعية ذات طبائع خاصة ليست مثل المشكلات الفلكية أو المادية، فالسيارة لا يمكن أن تتحرك بوقود وهمي، وليس هذا من شأنها ولا يعرض لها أيضاً، ولكن المجتمعات يمكن إن تتحرك بوقود وهمي ومثل أعلى خاطئ بكل قوة وبكل عنفوان، لعل إمكانية تصور ذلك يساعدنا على فهم مصطلح الحقائق الحقيقية والحقائق الاجتماعية، ولعل المثل الفلكي يساعدنا أكثر على فهم معنى الحقيقة الحقيقية والحقيقة الاجتماعية، فالناس حين كان عندهم تصور أن الأرض ثابتة وأن الشمس تدور حولنا يمكن أن نعتبر هذا التصور تصوراً خاطئاً، ولكن الناس حين يؤمنون بهذا التصور إيماناً مطلقاً فإن الحقيقة الحقيقية هي التي تصير خرافة وهرطقة ومنافية للمنطق، والحقيقة الوهمية التي آمن بها الناس تصير حقيقة اجتماعية راسخة لا يمكن أن يعارضها أحد ومن يعارضها أو يتصور تصوراً آخر ينبغي أن يتوب ويده على أقدس ما يقدسه الناس، ويمكن أن نطرح حقيقة (حق النقض) (=الفيتو) في الأمم المتحدة. هل هذه حقيقة حقيقية أم حقيقة اجتماعية؟ وهل يمكن أن تتغير هذه الحقيقة الاجتماعية في زمن آخر؟ كما تغيرت الحقيقة الاجتماعية عن الفلك وعن حركة الشمس والأرض. الآن يمكن أن نقول إن حق النقض حقيقة اجتماعية لا يعترض عليها أحد، هي ليست حقيقة حقيقية وإنما حقيقة اجتماعية يسلم بها الناس ويسمونها الشرعية الدولية، هل حقاً يمكن أن يكون حق الفيتو شرعياً وقانونياً؟ إن حق الفيتو ينتمي إلى اللاشرعية ينتمي إلى شريعة الغاب، الحق للقوي، والقوة هي الحق وليس الحق شيئاً غير القوة، فكيف يختلط علينا هذا الموضوع؟ وكيف تصير لدينا قدرة على الفهم والتمييز بين شرعة الغاب وشرعة القانون الذي يطبق على الناس بالتساوي؟.

إن مصدر شرعية شريعة الغاب هو القوة المادية أو قوة العضلات وما ينوب عنها لا قوة الفهم، إن الإنسان بقوة الفهم الذي يملكه خرج من شريعة الغاب أو صار مؤهلا للخروج من شريعة الغاب. هل يمكن فرض نظرية في الفلك بالقوة والعضلات أو ما ينوب عنها مثل المسدس أو القنبلة النووية؟ إن الحقائق الحقيقية لا يمكن فرضها بالقوة أو إلغاؤها بالقوة إلا إذا غابت الحقيقة الحقيقية وسيطرت الحقيقة الاجتماعية، كما كان الأمر في الحقيقة الفلكية قبل أربعة قرون، كان يمكن فرضها بالقوة لعدم وضوحها وشيوع هذا الوضوح بين الناس. ولكن كيف يفرض الآن حق الفيتو؟ لو أن فهم حقيقة الفيتو صار واضحاً مثل وضوح الفلك لما أمكن فرض حق الفيتو بالقوة ولما سلم الناس به وكأنه حقيقة حقيقية، مع أنها ليست حقيقة بل وهم، آمن به الناس فإيمانهم به جعله حقاً واقعاً مفروضاً، فهل يمكن أن يبحث موضوع حق الفيتو الآن كما يبحث الفلك؟ لا ولهذا موضوع حق الفيتو، لا يتداول بين أهل العلم وكذلك لا يسمع الناس ما يمكن أن يكون حول هذا الموضع من نقاش، ربما نشبه حق الفيتو في المستوى العالمي بالضابط الذي يقوم بانقلاب في بلده ويلغي الدستور والمؤسسات ولا أحد يستطيع أن يعترض عليه، ففي نهاية الحرب العالمية الثانية الذين قاموا بالانقلاب العالمي والسيطرة العالمية فرضوا حق الفيتو وقبله الناس كما يقبل الانقلاب والأحكام العرفية التي يفرضها الذي يسيطر على السلاح أو الجيش أو يتغلب على خصمه في الحرب. لماذا العالم كله ساكت على هذا الوضع؟ ربما سبب السكوت يمكن تفسيره بأن عالم الكبار يرون أن هذا الحق يخدمهم ولو عاجلاً ولا قدرة لهم على التفكير بالمستقبل (العاقبة المؤجلة) وأما عالم الصغار أمثالنا الذين خضعوا للقوة خلال قرون متطاولة ولم يعرفوا غير شريعة الغاب فلا قدرة لهم على تتصور ذلك والاعتراض عليه. هب أن السياسيين الكبار يسكتون على حق الفيتو، ولكن لماذا يسكت مثقفو عالم الكبار عن هذا الحق؟ ولماذا لا يعترضون عليه؟ ولماذا لا يرونه انتهاكا لحقوق الإنسان ومناقضة للديمقراطية؟ لابد من الاعتراف أن المثقف إلى الآن لم يبلغ الرشد حتى يستقل في القرار أو أن يوجد لنفسه كيان مستقلا عن السياسيين اللذين جميعهم إلى الآن يعتمدون على القوة المادية وليس على القوة الفكرية يعتمدون على العسكر وليس على القانون، ولن يتخلى عالم الكبار عن شريعة الغاب وعدم المساواة وفرض الامتيازات إلا مغلوبا على أمرهم وليس للقانون ولا بحقوق الإنسان ولا بالمساواة (=الديمقراطية). إن رصيد العدل والديمقراطية ليس مكانه الاعتماد على ضمائر السياسيين وإنما في وعي الشعوب المستضعفة. بعلم الفلك والرياضات وفهمهم للآليات الاجتماعية الحقيقية وليست الوهمية المسيطرة، فكما في الأمم المتخلفة يمكن تجاهل

واجبات الناس والتخلي عنها كذلك يحدث في عالم الكبار والتخلي عن حقوق الإنسان التي بدأت تتحول إلى سلاح بيد أكبر المنتهكين لحقوق الإنسان لمطاردة المنتهكين الصغار في العلم وعلى كل حال هذا يمكن أن يكون تقدماً أيضاً لأن هؤلاء الذين يفسرون حقوق الإنسان كما يريدون سيضطر المستضعفين ليكشفوا واجبات الإنسان وليس حقوقه، لأن الإنسان لا يمكن أن يكون له حق إلا إذا أدرك الناس معنى الواجب، أي أن يدرك أنه ليس بندقية لا يميز بل إنسان قابل للفهم والتمييز وليس أداة لخدمة المستكبر.

كل الكلام الذي نقوله لا قيمة له ما دام الإنسان يرى نفسه أنه لا يمكن إلا أن يكون بندقية، من الذي يكشف نفسه أنه ليس بندقية وأنه يمكن أن ينقل هذا الفهم إلى الآخرين بشكل يقنعهم بأنهم متمكنون من أن لا يكونوا بنادق بيد المستكبرين. إن الخضوع للحقائق الاجتماعية أقصد الأوهام التي صارت تؤثر في نفوس الناس أكثر من الحقائق الحقيقية، يعتبرها القرآن مرضاً، لكن القرآن ينسب هذا المرض إلى القلب ويريد به مرضاً في الفهم وليس مرضاً جسدياً، وكما هو شائع الآن بكثرة بالمرض الذي يصيب القلب الجسدي، فلهذا لما يقول القرآن "فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة".

ولقد نسب القرآن المرض للقلب أكثر من عشرة مرات ولم يكن المراد به مرضاً جسدياً ولا في واحدة منها وإنما المراد المرض في الفهم والفكر والاعتقاد، أي الفهم الخاطئ والإيمان بالوهم حيث يظنون أنهم إن لم يسارعوا في الاستجابة لأمر الذين يملكون القوة ستدور عليهم الدائرة وستقوم قيامتهم، هذا الوهم المسيطر على العالم جميعاً وعلى أساس هذا التسليم بالوهم يقوم هيكل الأمم المتحدة، ويسمونها الشرعية الدولية وكذلك يحترم حق الفيتو ولا يمكن أن يلمسها أحد بالانتقاد، وأنه سبب الفساد الأكبر في العالم الإنساني قاطبة فيما سبق من الزمان، والآن فيما سيأتي من العصور حتى يتخلص الناس من وهم سلطان القوة والاعتراف بسلطان الفهم والفكر والقدرة المودعة في الإنسان، على أن يتمكن من تسخير ما في السماوات وما في الأرض. إذا فهمنا هذا سنفهم أن الإنسانية لا تزال في المهد وليست في عهد الشيخوخة ولا في نهاية التاريخ، بل إن تاريخ الإنسان لم يبدأ بعد الآن "كلا لما يقض ما أمره" إلى الآن لم يتحقق علم الله في الإنسان من أنه سيتخلص من عهد الفساد وسفك الدماء وذلك حين يبدأ الناس يشعرون أنهم ليسوا أرباباً، وقبل ذلك ينبغي أن يفهموا أنه لا يمكن لأحد أن يستعبدهم إلا بإرادتهم ورضاهم، فإذا رفض الإنسان ليس هناك قوة تستطيع قهره كما فعل آل ياسر وكما فعل أبو ذر فإن لأبي ذر ذكر مستقبلاً في التاريخ القادم مرتبط بالتاريخ الماضي لأننا سندرك معنى قول رسول الله عن أبي ذر من أنه يعيش وحده ويموت وحده ويبعث يوم القيامة أمة واحدة، وأنا أعيد ما قال جلال الدين الرومي:

الله هو المسؤول بالعون والإسعاف لنقتلع بهذه الإبرة جبل قاف.

7. الآمرون بالقسط ورثة الأنبياء

مهمة الأنبياء أن يقوم الناس بالقسط، يقول الله (لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط)، العدل والقسط هو الهدف الأساسي لرسالات الأنبياء جميعاً من دون استثناء، ولهذا كان الأنبياء مستهدفين من المستكبرين في الأرض ومن المترفين الذين هم ملأ المستكبرين، فهذا العدل والقسط والسواء، هو ما رفضه أقوام الأنبياء جميعاً من عهد نوح إلى محمد، يقول نوح لقومه الذين طلبوا منه أن يطرد هؤلاء الذين اتبعوه وامنوا به من الذين يزدريهم المترفون من الناس، يقول نوح (وما أنا بطارد الذين امنوا إنهم ملاقو ربهم ولكني أراكم قوماً تجهلون ويا قوم من ينصرني

من الله إن طردتم أفلا تذكرون 000 ولا أقول للذين تزدري أعينكم لن يؤتيهم الله خيراً)، وقريش طلبت من محمد أن يطرد أتباعه من المستضعفين من أمثال بلال، حتى يمكنهم أن يستمعوا إلى ما يقوله فيقول الله لمحمد (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شئ وما من حسابك عليهم من شئ فتطردهم فتكون من الظالمين) ولما كان الهدف الأساسي من رسالة الأنبياء هو أن يقوم الناس بالقسط، من أجل ذلك صار الأنبياء مستهدفين بالقتل والتصفية الجسدية، ولهذا ضم الله إلى هذا الاستهداف الآمرين بالقسط من الناس، فقال الله (إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فبشرهم بعذاب أليم أولئك الذين حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة ومالهم من ناصرين) ويقول الرسول مبيناً سبب هلاك الأمم "إنما أهلك من كان قبلكم أنه إذا سرق الشريف تركوه وإذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد" هذا قانون، وسنة ثابتة في التاريخ البشري السابق وهو لا يزال صحيحاً الآن، وسيظل كذلك في المستقبل، ولكن القسط الذي هو العدل بين الناس الذي يقول الله فيه (وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل) بين الناس وليس بين المؤمنين،رفع من العالم الذي نعيش فيه من أدنى التجمعات البشرية إلى أعلى مؤسسة دولية الأمم المتحدة، التي يسمونها الشرعية الدولية، فكيف يكون فيها القسط والعدل والسواء وهناك حق الفيتو، الذي يستمد شرعيته من القوة وليس من العدل من أول يوم أسس فيها، فهي مؤسسة على الفساد الذي قبله الجميع، ولا يعترض عليه لا الكبار ولا الصغار، وإنما يوجد من يتمنى أن يصير له هذا الحق، ويخاف الذي له هذا الحق أن يزول عنه، وإن كان لم يعد له قيمة كحق إنجلترا في النقض وكذلك فرنسا لأنها هبة أمريكية لهما، وفقدتها روسيا أيضاً حين تصدعت، وأما الصين وما أدراك ما الصين ربع العالم كذلك لا قدرة لها على استخدام هذا الحق لا للحق ولا للباطل، فهي لهذا لا تصوت على القرارات لا سلباً ولا إيجاباً، فأمريكا تهدد الصين بانتهاك حقوق الإنسان ولا يخطر في بال الصين أيضاً أن تطرح إعادة الشرعية والعدل والقسط بين الناس في المؤسسة العالمية الأمم المتحدة، فمثلاً لا تقول الصين لأمريكا التي تهدد الصين بأنها تنتهك حقوق الإنسان أن أعظم انتهاك لحقوق الإنسان أن يكون في الأمم المتحدة حق النقض الذي يعيق العالم جميعاً ويقف ضد صلاحه، لم لا تقول الصين إنني سأتنازل عن حق النقض ولنعد بناء مؤسسة الأمم المتحدة على شريعة العدل بين الناس لا أن يطبق القانون على الضعفاء ولا يطبق على الأقوياء، فهذه المؤسسة خرافية لا قيمة لها، إنها كمثقفي العالم الذين يستدعيهم الطواغيت ليشهدوا على هذه المؤسسة أنها شرعية ثم لينصرفوا وليس لهم غير هذه الوظيفة وهذا الحق.

أما النازية والفاشية فلو انتصرتا في الحرب هل كان في إمكانهم صنع مؤسسة أسواء من الأمم المتحدة، ماذا كان سيفل هتلر وموسوليني إلا أن يعطوا لأنسفهم حق النقض، ويكون ثالثهم اليابان، وما أدري إن كان يخطر أن يضيفوا إليهم آخر أو آخرين، واليوم نسمع همسات خجولة لأمكان التفكير على مهل في إعطاء مقعد دائم في مجلس الأمن لمن يثقون بهم في أفريقيا أو أمريكا الجنوبية أو الهند المهم لا بواكي لمؤسسة عالمية، وإن كانت التقنيات تفرض رفع مستوى هذه المؤسسة لتصل مفهوم الديمقراطية إليها، ويا عالم الكبار لستم على شيء حتى تقبلوا أن تصير الأمم المتحدة تجمعاً بشرياً لها سلطاتها الثلاث على الأقل كما في أي بلد ديمقراطي، وعند ذلك ربما يمكن أن نقول إن مفهوم الشرعية بدأت يلوح في الأفق وعند ذلك ستسقط القواعد القديمة التي وضعها المستكبرون، مثل عدم التدخل في الشؤون الداخلية للدول التي تغتصب إرادة شعوبها، وكذلك لابد من مراجعة قواعد حتى مثل حق الشعوب في تقرير مصيرها التي سقطت في نظر الكبار لأن الكبار هم الذين كانوا وضعوا هذا في سابق الأيام من أن الشعوب لها حق تقرير مصيرها بكل الوسائل للتخلص من المستبدين المتسلطين الداخليين أو الغزاة من بعيد، الأمن كان له أذنان للسمع فليسمع، لابد من تجديد العالم وتجديد مبادئه، لأن المبادئ والأسس التي وضعها العسكر المنتصرون في الحرب ليست هي القوانين التي تصلح للعالم الآن0 إن التاريخ يتقدم رغماً عن الأقوياء والضعفاء رغماً عن المستكبرين والمستضعفين. لقد تصدع العالم ولا يمكن رأبه بالوسائل القديمة بالتخويف بالحبال والعصي لقد بطل السحر. ونحن نجد عوناً كبيراً من تجربة الأنبياء ودعوتهم لأن التاريخ بدأ يكشف أوراق الاختبار ونتائج الأعمال ولكن علينا أن نعيد عرض هذه الأفكار التي استطاع الناس أن يتجاهلوها طويلاً باللف والدوران والتلاعب بالألفاظ مثل الهاوي الذي يلعب الألعاب السحرية.

إن الذين يذكرون أيام الله التي يداولها بين الناس سيدركون هذا. فكما العالم الغربي قام بعملية تحرير داخلية كبيرة وبمعانة شديدة مستفيداً من ثقافة العالم جميعاً، على العالم الإسلامي أن يخرج من النرجسية وأن لا يعجب بقارون وزينته ويكف عن إعادة ما قال الذين رأوا قارون حين خرج على قومه في زينته كالذين يتمنون حق الفيتو (إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتيحه لتنوء بالعصبة أولى القوة إذا قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين وابتغى في ما أتاك الله الدار الآخرة ولا تنسى نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين قال إنما أوتيته على علم عندي أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون، فخرج على قومه في زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لذو حظ عظيم، وقال الذين أتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن أمن وعمل صالحاً ولا يلقاها إلا الصابرون، فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين، وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر لولا أن من الله علينا لخسف بنا ويكأنه لا يفلح الكافرون، تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً، والعاقبة للمتقين) من جاء بالحسنة فله خير منها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون.

8. هل يمكن أن نتبين الرشد من الغي؟

أظن ذلك وأطمع فيه كما طمع جلال الدين الرومي أن يقتلع بالإبرة جبل قاف، ولكن ما هي هذه الإبرة؟ وما هو جبل قاف؟ إبرتي هي آيات الأفاق والأنفس، أما جبل قاف فهو "الفساد في الأرض وسفك الدماء". إذا غابت عنا آيات الآفاق والأنفس لن يغني عنا أي شيء، حتى آيات الكتاب لا تعود تجدي شيئاً، لأن مرجع الكتاب آيات الآفاق والأنفس، فمن أهمل آيات الآفاق والأنفس، ونفى أن تكون آيات الآفاق والأنفس تدل على الحق فلن تجدي معه آيات الكتاب، لا الذي نزل من السماء ولا الذي كُتب في الأرض، وآيات الآفاق والأنفس فيها من القوة ما يرغم الناس على الخضوع مهما تحداها الناس، وعند ذلك سيفهم الناس آيات الكتاب ويتحقق قوله تعالى (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد). آيات الآفاق بدأت تتكشف للناس بشكل لا يمكن أن ينكروه، والمسلمون يفرحون بذلك وقد ألفوا كتباً كثيرة في موضوع العلم والإيمان، ولكن آيات الأنفس –ليس المسلمون فقط بل الناس أجمعين– إلى الآن لا يتقبلونها، فقد قبل الناس جميعاً فهم آيات الآفاق في علم الفلك وأذعنوا له مهما أخذ من وقت، ولكن آيات الأنفس تتلكأ في الظهور وقبول الناس لها، ولكن آيات الآفاق أيضاً في خدمة آيات الأنفس، لأن من أكبر آيات الأنفس هذا الإنسان الملهم للفجور والتقوى، إن إمكانية المجتمع لتحويل النفوس البشرية إلى الفجور أو التقوى –فهي لا تُخلق فاجرة أو متقية– ولكن تُخلق ملهمة التحول إلى أحد الجهتين الفجور أو التقوى، ولكن تحويلها إلى فاجرة مدساة أو إلى متقية مزكاة من صنع المجتمع وسعيه، لأن فاعل إلهام القدرة على الفجور والتقوى هو الله، ولكن فاعل التزكية والتدسية هم البشر، فكل البشر يولدون وهم قادرون على تعلم القراءة والكتابة، ولكن هذه القدرة لا تتحول إلى واقع إلا بجهود كبيرة من البشر وبوقت طويل –يتسابق الناس في الاقتصاد في الزمن والجهد وكثرة المردود في هذا المجال– والبشر يتعلمون آيات الآفاق والأنفس بمعاناة وتأمل وتدبر وتفكر وتذكر وتعقل وهم في تقدم مستمر، حيث يبقى ما ينفع الناس والزبد يذهب جفاءً، ومن آيات الأنفس الكبيرة قدرة الانسان على اكتساب معارف كثيرة تعب فيها الناس الدهور في زمن قليل بواسطة الكلام المنطوق والمسطور، وقد أخذ وقتاً طويلاً حتى صار الكلام المنطوق مسطوراً، ولم يمض على هذا التحول إلا خمسة آلاف سنة فقط، ولكن الورق والطباعة بدل الكتابة باليد أقل من خمسة قرون، وأما إمكان الحصول على المعلومة فهذا شيء يظهر في آيات الآفاق حيث سيصير ممكناً لكل البشر الحصول على المعلومة إنها آتية لا ريب، فآيات الآفاق ستتغلب على سعي الناس في كتم المعلومة كتم آيات الله في الآفاق والأنفس.من طبيعة الناس الاقتصاد في الوقت والجهد والزيادة في المردود –التسخير– والكون كله مسخر للإنسان، هذه الفكرة كنظرية بالغة الاهمية، أما تحويلها إلى واقع فهذا يحقق علم الله في الإنسان في

امكان الإنسان في التغلب على الفساد في الأرض وسفك الدماء فيها، التهمتين الكبيرتين الموجهتين للإنسان حين كان الإنسان مشروعاً لم يتحقق بعد، والإنسان حين صار قابلا أن يتعلم ويختصر الزمن في تعلم أشياء كثيرة في زمن اقل، صار الإنسان أمام تحدٍ، كيف نستخرج من الانسان افضل ما فيه؟ كيف يستفاد من الطاقة بدون تبديد؟ إن سبب الفساد في الأرض وسفك الدماء هو أن يظن الانسان في هذا الانسان أن افضل أسلوب ومنهج لاستخراج افضل ما بالإنسان بتخويفه وتهديده وإكراهه وليس بإقناعه وجعله يفهم ويرى عواقب السلوك عواقب التربية، وتحويل الانسان إلى احسن تقويم أو تحوله إلى اسفل سافلين. إن سبب كل الفساد في الأرض هو عدم فهم الانسان من قبل الانسان، فلهذا تبدد الطاقة والمادة الخام العظيمة بالفساد، في تحويل الإنسان إلى التدسية والفجور والغي بدل تحويله إلى التزكية والى احسن تقويم والى الرشد، ومن لم يتمكن من هذا التحول فلا يلومن إلا نفسه لأن المشكلة عنده، وما أصابك من سيئة فمن نفسك والشيطان والبشر المفسدون في الأرض سيتبرؤون منا وسيقولون لم يكن لنا سلطان عليهم إلا أن دعوناهم فاستجابوا لنا، (و قال الشيطان لما قضي الأمر ما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما انتم بمصرخي) لا أنا يمكن أن أنقذكم ولا انتم يمكن أن تنقذوني، ويقول المفسدون في الأرض -و في لغتنا الحاضرة المستكبرون في الأرض أو المستعمرون- (إذ تبرأ الذين أُتُبِعُوا من الذين اتَبَعُوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب وقال الذين اتَبَعُوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرؤوا منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم) إن سبب الفساد في الأرض وسفك الدماء هو ظن إن استخراج افضل ما بالإنسان بإكراهه وليس بإقناعه فانتشار هذا التصور خلال التاريخ كان سبب الفساد في الأرض، حيث جهل الانسان طريق الصلاح والفلاح، إن الانسان جهل طبيعة الانسان خلال التاريخ فكان الفساد وسفك الدماء، ولم يستفد من قدرة الكلام والتسمية التي يمكن بواسطتها القضاء على الفساد وسفك الدماء، لهذا قال الله للملائكة الذين اتهموا الإنسان بأنه سيفسد في الأرض وسيسفك الدماء كان جواب الله (إني أعلم مالا تعلمون) (و علم آدم الأسماء) إن القدرة على التسمية ونقل المعلومة بالاسم بالكلام بالرمز هذا هو وسيلة الإنسان في التغلب على هذه التهمة، ويمكن أن يفهم الإنسان هذا من آيات الآفاق والأنفس ليجده بعد ذلك في آيات الكتاب بكل الوضوح والجلاء والبيان، إن ظن أن الإنسان يمكن أن يعطي بالإكراه أكثر مما يعطي بالإقناع -هذا الظن وإن كان طاغياً باغياً- يسد علينا المنافذ إلا أننا يمكن أن نكشف في آيات الأنفس ووقائع التاريخ أن الإنسان يمكن أن يعطي بالإقناع ما لا يمكن أن يتصور إمكان استخراجه من الإنسان بالإكراه، وهذا ما جاء به الأنبياء وجَهِله العالم إلى الآن من العلاقات الأسرية إلى العلاقات الدولية العالمية، إنها مبنية على التهديد والإكراه وليس على الإقناع والإرشاد، ونحن يمكن أن نفهم أن الإيمان الذي يأتي بالإكراه لا يكون إيماناً ولا الكفر الذي يأتي بالإكراه والتهديد كفراً وكذلك السياسة التي تأتي بالإكراه والقمع لا تكون رشداً وإنما غياً وبغياً وتسلطاً لهذا جاء في الكتاب (لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي) كان ذلك تعظيماً للإنسان وتكريماً لبني آدم. هل تبين الرشد من الغي؟ نعم تبين الرشد من الغي فإن الذي يأتي بالإكراه لا يمكن أن يكون رشداً وإنما غياً وبغياً يجعل الناس منافقين كذابين متملقين هل آيات الآفاق والأنفس دلت على أن الإكراه في الدين والاعتقاد لا يمكن أن يؤدي إلى دين أو اعتقاد، إن تطور آيات الآفاق في العالم اضطرهم إلى أن يعترفوا بلا إكراه في الدين في دساتيرهم، ولكن هذا التطور أدى إليه قانون أن الزبد يذهب جفاءً وما ينفع الناس يمكث في الأرض، إن لا إكراه في الدين نفى واستبعد العنف وسيلة الإكراه وكل أدواته، أن يكون له وجود في الدين وفي الاعتقاد وفي السياسة، إنه نفى الإكراه واستبعده، ونحن حين آمنا بدور الإكراه في الاعتقاد نبذنا الرشد ودخلنا في الغي ولم يعد هناك أمامنا أي طريق للرشد لأن كل الطرق سدت أمامنا إلا طريق العنف، وصرنا نخاف من الرشد ومن اللا إكراه من أنه سيأتي علينا بالخراب، ونفعل هذا باسم الله وباسم رسله وباسم كتبه وباسم التقدمية وباسم العدل وباسم حماية المقدسات فهل تبين الرشد من الغي؟ أم صرنا من الذين قال الله عنهم وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلا)

9. المنعطف الأخطر في تاريخ المسلمين

هناك في تاريخ البشر منعطفات كبيرة، سواء كان ذلك سلباً أو إيجاباً يظل أثرها فعالاً لقرون طويلة، من هذه المنعطفات في تاريخ المسلمين الانقطاع عن عهد الراشدين والعودة إلى عالم آخر، يتحكم هذا الحدث في تاريخنا إلى هذا اليوم الذي نعيش فيه، ولإلقاء أضواء على هذا التحول وهذا الامتداد الطويل الأثر لهذا التحول، ينبغي أن نلاحظ الصدمة الكبيرة التي حدثت للمسلمين بهذا التحول، فهم قد عرفوا أنه حدث تحول كبير في مسيرتهم، وأنهم أعادوا الهرقلية –إذا ذهب هرقل جاء هرقل– وأحسوا أن هذا الرشد الذي كانوا يعيشونه وفقدوه ليس ما يعيشه عالمهم المعاصر لهم المعروفين في ذلك الوقت على الأقل.

نستطيع أن نعطي ثلاث ملامح كبيرة. وَدّعوها إلى غير رجعة إلى يومنا هذا، هذه الملامح هي:

1- مجيء الحكم بغير إكراه

2- وأنه ليس وراثة

3- الحكم بالعدل بين الناس

و يمكن أن نلاحظ على هذا الحدث الذي حول العالم الإسلامي إلى ما يمكن تسميته بالغّي إن المسلمين قاطبة لم يسموا أحداً من حكام المسلمين من تاريخ ذاك التحول إلى يومنا هذا أنه من الحكام الراشدين، وما راود المسلمين من محاولة تسميته بخامس الخلفاء الراشدين لما اجتهد فيه الرجل بالحكم بالعدل، وذهب ولم يتمكن أن يغير أسلوب المجيء ولا وراثة الحكم، وميزة الخلفاء الراشدين الأربعة أنهم لم يأتوا بالإكراه والسيف، ولم يجعلوا الملك وراثة في أولادهم، وهذا شيء واضح المعالم لا يقبل الاشتباه فيه، وهذا الاسم الذي خصوا به هؤلاء الراشدين لعله من قوله تعالى (لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها) فالدين الذي يأتي بالإكراه لا يكون ديناً، والحكم الذي يأتي بالإكراه لا يكون حكماً راشداً، وإنما غياً وبغياً وقبولاً بالطاغوت وشريعة الغاب، هذا الذي قلناه إلى الآن كان واضحاً لدى السابقين واللاحقين إلى يومنا هذا، ولكن الذي بقي خفياً هو كيف يعيدون الرشد بعد أن فقدوه بالإكراه وصار الشعار "الخليفة هذا وإن هلك هذا فالخليفة هذا ويشيرون إلى ابنه ومن رفض هذا فله هذا ويرفعون السيف" وسواء صدق هذا القول وقيل ذلك فعلاً أو لم يحدث قول ذلك، فإن التاريخ سجل أن هذا المضمون ظل ساري المفعول من غير خروج عنه ولو شذوذاً، بل أطبق الجميع على هذا الأسلوب الجديد الذي أطلق عليه بعضهم "الهرقلية"، ولما كان إمكان إعادته صار خفياً والواقع صار مربكاً وأُتُخذ قرارٌ خطير جداً بإجماعٍ سُكوتي غير معلن، ولكن استبطنه الجميع بشكل أقوى من أي عقد أو عهد تعاهد عليه قوم من الأقوام، على أن من استطاع أن يعيد الرشد بالقوة وقصر في ذلك فقد بخع المسلمين، وأن هذا القرار أُودع في سويداء القلوب للأمة بأكملها، فانغرس في جيناتهم الثقافية، وربما القول السياسي الذي أطلق على مشكلة فلسطين من أنه لا يمكن أن يستعاد ما أخذ بالقوة بغير القوة، كان هذا القول استمراراً لتلك المعاهدة الضمنية التي عاهد الناس فيها أنفسهم فلهذا –حسب قانون ابن خلدون– لما مضى أربعة أجيال على حُكم الأمويين جاء العباسيون بالرايات السوداء ليرفعوا السيف، حتى لا يبقى على ظهرها أموياً، وهكذا توالت الأحداث كلما جاءت أمة لعنة أختها إلى يومنا هذا، ولا قدرة لنا على الخروج من هذا الخروج، كأنه يمكن أن يقضى على الخوارج بالخوارج، ويمكن أن نقول أن السابقين الذي حدث في عهدهم هذا الانفصال والتحول عن الرشد إلى الغي، يمكن أن نعذرهم حيث كان العالم جميعاً على أساس شريعة الغاب الحق هو القوة، من ملك القوة صار حقاً، وليس عجيباً أن يخفى عليهم هذا وخاصة أنهم فسروا الحدث النبوي تفسيراً خوارقياً وليس تغييراً سُننياً، وهذا منعطف آخر لم نستطع أن نتخلص منه إلى الآن أيضاً، إذن التفسير الخوارقي حسب نظر الذين فقدوا الرشد والذين لا يعرفون إلى يومنا هذا طريقاً للعودة إلى الرشد هو الذي سيطر علينا، ولم يعد يمكن تصور ما جاء به الأنبياء من الخروج من شريعة الغاب أو من عبادة القوة، إن هؤلاء الذين كانوا يشعرون أنهم ابتعثوا لإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة

رب العباد تحولوا إلى عبادة العباد فرجعوا إلى ما كان عليه العالم جميعاً في ذلك الوقت حيث كان الناس أمة واحدة، الناس جميعاً مستكبرين ومستضعفين، فجاء الأنبياء للقضاء على الاستكبار والاستضعاف معاً ليكون الناس أمام كلمة سواء، ولكن البشرية إلى الآن ترفض كلمة السواء بما فيه العالم الذي يمثل الحداثة، وحتى المسلمون لن يقبلوا أن يفيضوا من حيث أفاض الناس، إنهم ينبغي أن يعطوا لأنفسهم خصوصية، وهذا ربما منعطف ثالث للانهيار الذي ننحدر إليه، ولكن آيات الآفاق والأنفس أرغمت بعض المجتمعات أن يكتشفوا الرشد بشكل سنني لا خوار قي، في هذا العصر الذي نعيش فيه نرى مجتمعات هم الذين يؤتون الملك من يشاؤون وينزعون الملك ممن يشاؤون، وليس ربهم الذي يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء، وهذا بحاجة إلى تأويل وتوضيح، لعلنا نحاول أن نفعل ذلك مستقبلاً.

حتى المسلمون المعاصرون لما شاهدوا بأم أعينهم عودة الحكم الراشد أي الحكم الذي يأتي بغير إكراه ولا يصير ملكاً وراثياً في أبنائهم أو أسرهم بل حتى أنهم تمكنوا من إبقاء ملوكهم بعد أن تحولوا إلى رموز للتاريخ وهياكل للماضي وليس لهم الحكم وتحول مصدر الحكم إلى الناس حتى بعد أن رأى المسلمون هذه المشاهد التاريخية، لم يخطر في بالهم أن هذا هو الشيء الذي فقدوه ولم يعرفوا كيف يمكن إعادته فقد استعاده بعض الناس في التاريخ، وهذا من نور الله الذي يريد أن يطفئه الناس ولكن الله يأبى إلا أن يتم نوره، فإن علم الله في الإنسان من أنه سيتغلب على الفساد في الأرض وسفك الدماء الآن بدأ الإنسان يلمح شيئاً من هذا ويسير إليه مسوقاً ومضطراً بسوط العذاب الذي يؤدب به التاريخ الذين يتنكبون طريق العدل بين الناس، ليتحقق كرامة بني آدم حيث ينتسبون إلى آدم الذي تعلم من خطئه وتاب منه، فاستأهل أن يستخلف في الأرض ليتحقق علم الله في هذا الإنسان الذي يمكن أن يكشف السنن ويسخر ما في السماوات وما في الأرض جميعاً، إننا نعلم نقائص هؤلاء الذين تولد على أيديهم زوال الهرقلية، ولكن زوال الهرقلية بمعرفة سنن التاريخ وتعلم الإنسان من التاريخ، ومع كل عيوبهم فهم الذين يتحكمون في العالم غير الراشد، بل وصل بهم الأمر أن يصنعوا الآن الوحدة الأوربية بغير القوة وإنما بالإقناع وليس بالإكراه، وما يفعله هؤلاء أقرب إلى الله ورسوله وإلى العقلاء من الناس أكثر مما نفعله نحن ونعيشه من الخوف من بعضنا من خلال القرار الخطير الذي اتخذناه يوم فقدنا الرشد من أن ما أخذ بالقوة لا يمكن أن يستعاد إلا بالقوة، وإن اهتز هذا القول فأقر الجميع أن يستعيدوا ما أخذ بالقوة بغير القوة، ولكن علينا أن نتعلم أننا علينا أن نتغلب على خوفنا من بعضنا وهذا أشد من خوفنا من إسرائيل ومن أمريكا، بل إن هذين العدوين صارا مصدر أمن للعرب حتى لا يأكل بل يزدر بعضهم بعضاً، وهذا الوضع الذي لا يمكن أن ينكره أحد بل هو في أعماق سويداء القلوب، لأن من صارت له القوة ولم يوحد العرب والمسلمين يشعر بأنه خان الأمة أشد الخيانة، ولا مانع أن نستعيد هذه الوحدة ولو بالخيانة والغدر، هذا الذي تغلغل في نفوس العرب والمسلمين من ذاك اليوم الذي اتخذ فيه القرار الضمني من أن من أمكنه أن يستعيد الرشد بأي أسلوب كان ولم يفعل فقد خرج من الأمة، ولهذا نخاف من أن يصير أي بلد عربي أو مسلم قوياً لأن قوته أخطر علينا من أي قوةٍ على الأرض، وهم بالغريزة التي صُنعت بعد المنعطف الأخطر يفهمون هذا بكل الحس المرهف، ولهذا لا خوف من السلاح النووي الإسرائيلي ولا الأمريكي، وإن الخوف كل الخوف من أن يملكه أحد من العرب، إن هذا الخوف يعادل تمني الجميع أن يصلوا إليه، بل إن خوف أمريكا من إمكان اتحاد العرب بأي أسلوب كان سواء بالرشد أو بالغي يعتبرونه محك أمن مكانتهم في العالم، كيف يخرج العرب من هذه المعقدات؟ هذا ما نحاول أن نقتلعه بإبرة جلال الدين الرومي.

10. كيف نستعيد الرشد مرة أخرى؟

الرشد ومرحلة الرشد هو بلوغ الإنسان مرحلة التمييز بيّن الصفقة المربحة والخاسرة ومن هذا الباب قوله تعالى (و ابتلوا اليتامى فإذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم) أي اختبر اليتامى الذين تتولون أمورهم إذا بلغوا النضج الجسدي فإذا تبينتم من سلوكهم وتصرفاتهم الرشد وآنستم ذلك فيهم فسلموا لهم أموالهم هذا قانون اجتماعي في ولاية القاصرين واختبارهم فيما إذا تجاوزوا القصور حتى يترك لهم حرية التصرف في أموالهم:

يقال في القصص التي تروى في هذا الموضوع أن ولياً ليتيم كان يدير أموره وكان يسجل هذا الولي في سجل أموال اليتيم واستثمارها النفقات والمكاسب ومرة اطلع القاصر على هذا السجل فرأى فيه مبالغ أُنفقت على نعال للجمال فتساءل القاصر وهل الجمال توضع لها نعال؟ فقال الولي للقاصر يا بني إذا صرت تفهم هذا فخذ أموالك وتصرف بها لقد بلغت الرشد والذي أريد أن أقوله وتتغلب على الحقائق الاجتماعية أسميها هكذا بدل أن أقول عنها (=السحر والوهم والجهل) فكيف نأخذ بيد الشعوب القاصرة ونأنس منهم الرشد وكيف نختبرهم لنعرف أنهم رَشدوا أو بلغوا الرشد إن هذه الشعوب لا يمكن حمايتها إلا بالوعي وإخراجهم من ظلام الجهل إلى ضياء العلم ولكن إذا كان الذي سيخرجه من الوهم هو الذي يستفيد من عيش هذه الشعوب في الوهم فكيف يكون الخلاص أو استعادة الرشد ومن هناصرت أشعر من أن الإنسان في حاجة إلى السماء ليحرر فهم الإنسان ولهذا نجد أن الأنبياء وحدهم هم الذين جاءوا بالنظرية الاجتماعية الحقيقية وليس بالنظرية الوهمية وليس بالنظرية الوهمية والعالم إلى الآن يعيشون النظرية الوهمية ولم يعترفوا بقدرة الإنسان على الفهم فكما ولي اليتيم سلم لليتيم أمواله حين فهم أن الجمال لا حاجة لها بالنعال كالخيل فكذلك سيسلم المستكبرون في الأرض الأرض والأموال والثروات والبشر لأهلها حين يبدؤون الوعي والفهم ومن دون حروب تحرير الوعي وما أدراك ما الوعي إن العلم يرفع هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر ألوا الألباب العقائد الاجتماعية التي كانت تسيطر على الناس في سابق الأيام كانت عقيدة مخفية مسلم بها ومتواطئ ضمنا عليها دون إعلان لانها مسلمة من المسلمات أن أفضل أستخدام للإنسان يكون بتخويفه وإكراهه وتهديده وليس بإقناعه فهذه المسلمة حكمّت التاريخ الماضي ولا يزال وإن كان هناك نسمات منعشة أو ألوان زاهية بدأت تهب أو تظهر في خضم المآسي والظلمات ولكن الأنبياء جاءوا بنظرتهم بوضوح فاقع وإن لم يتمكن الناس أن يفهموا عليهم لطول عهدهم بالخضوع للإرهاب والإكراه والتخويف لا حرج من أن يخاف الإنسان ولكن أن يخاف من الخوف الحقيقي لا من الخوف الوهمي لهذا إبراهيم أبو الأنبياء كان تحرر من الخوف الوهمي وشعر أن الخوف الحقيقي شيء آخر هو أن يبيع نفسه بثمن بخس لهذا إبراهيم قال في حواره مع قومه لما خوفوه من آلهتهم أن يمسوه بسوء (و حاجة قومه قال أتحاجوني في الله وقد هدان ولا أخاف ما تشركون به... وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطان فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم) المعرفة تحرر الإنسان هكذا تحرر إبراهيم وكشف الأوهام والأصنام ولم يعد يخاف بل الخوف في أن يفقد الإنسان المعرفة والعلم ويتبع الوهم ويخضع للسحر ولسلطان القوة وليس لسلطان العلم والقوة الصحيحة من ذرية قوة العلم وسلطان العلم والآن

آخر ما يتلمس ما بعد الحداثة السلطة والمعرفة هل المعرفة هي السلطة أو السلطة نتيجة المعرفة في إنجيل يوحنا هذا الذي يقرره إبراهيم هنا يقوله إنجيل يوحنا فيقول:(تعرفون الحق والحق يحرركم) حين نعرف قانون الله ونعرف الخطأ من الصواب وتعرف أن الجمال ليس كالخيل يدق على أرجلها الحديد هذا لا يحتاج لإعلان حرب ولشهر السيف ولكن هذا الوعي كان نادراً جداً خلال التاريخ بل كان الهلاك يصيب الأمم ولم يكن هناك من ينجو من الهلاك والقرآن يستثني أمة واحدة قوم يونس يقول الله (فلو لا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين) إن تتبع أحداث التاريخ وخضوع الناس للوهم والسحر شيء يدعو إلى الأسف ولكن قلة معرفة الناس بالتاريخ ووسائل نقل المعرفة كانت تحول دون ذلك فكيف لا يكون الأمر كذلك في تلك الأيام وها نحن أولاء نعيش هذا العصر ولا قدرة لنا على أن نقرأ التاريخ ونرى الإستثناءات العجيبة التي هدمت في هذا العصر فمثلاً إذا كان الله يستشهد بقوم يونس فإننا يمكن أن نستشهد باليابان الذي استسلم بدون قيد أو شرط ووقع وثيقة الاستسلام المطلق فهذا البلد استطاع أن يتحرر وينهض ويصير فيمن في مقدمة العالم من غير قوة غير قوة العلم الذي ينبت منه كل القوى والعلم هو الذي ينسخ ما فات أوانه إن هذا البلد النائي الذي لا سعة في أرضه ولا ثروات كبيرة فيها إنهم استطاعوا أن يتحرروا من دون حرب ولا قنابل نووية وهم وحدهم دون سائر العالم الذين ذاقوا داهية القنبلة النووية قبل كل الناس وما أظن أن أحداً بعدهم سيلقى عليه مثل هذه المدمرات يكفي أن يلدغ الإنسان من جحر مرة واحدة حتى لا يكرر الخطأ مرة أخرى إذا كان الله يأمرنا أن نعتبر بالذين هلكوا ويحذرنا أن نصير إلى مثل ما صاروا إليه كذلك يذكر لنا الشواذ النادرين في التاريخ أمماً وأفراداً لقد ذكر القرآن موقف فرد واحد من آل فرعون شهد للحق "و قال رجل مؤمن من آل فرعون

يكتم إيمانه أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم وإن يكن كاذباً فعليه كذبه وإن يك صادقاً يصبكم بعض الذي يعدكم إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين في الأرض فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا قال فرعون أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد وقال الذي آمن يا قوم إني أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذي من بعدهم وما الله يريد ظلماً للعباد) إن القرآن يبرز موقف رجل واحد من أمة بأكملها ويعرض حججه التاريخية وما حدث للأمم ويتبع منهج المعرفة التاريخية ومصائر الأمم وكذلك يذكر قصة مؤمن آل ياسين (وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال يا قوم اتبعوا المرسلين...) الاستشهاد بالتاريخ مواقف الأمم ومواقف فرد معين من قضيةٍ ما.

نحن نريد أن يأتي من أقصى الأرض مرة أخرى من يقول أليس منكم رجل رشيد (يا قوم اتبعوا المرسلين اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون) إن من شأن الرسل ليس أن يأخذوا أجراً على العلم والمعرفة إنهم لم يكونوا يؤمنون بملكية الأفكار ولا بالتجارة بالأفكار. إن الذين يتاجرون بالأفكار هم الذين يتاجرون بالأسلحة فهذا هو مرض العالم كيف نستعيد الرشد من التاريخ؟ إن التاريخ هو الأستاذ الذي يردنا الله إليه (سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين). الآن انظروا أليس اليابان فقط الذي تحرر بدون قتل أمريكي واحد ولا ياباني واحد من الاستسلام المهين با___لأفكار وليس بالسلاح ولكن انظروا إلى التاريخ هناك نموذج فريد آخر متطور. أوربا التي تتحد بدون أن يخسر أحد شيئاً ويربح الجميع لا الملك ولا الرئيس ولا الأمير لا يخسرون لا أرضاً ولا مالاً ولا حدوداً ولا ثروة إنه كله إنه حدث جديد في التاريخ ولكن كما خسرنا حدث محمد (ص) بالخوارق كذلك الآن نفس الحدث الأوربي بأنه ليس أمراً بشرياً وقانوناً يمكن أن تتفهمه وإنما هو سحر وخوارق وليس من معلم إلا التاريخ وإلا الآلام إن لم يكف ما سبق انتظروا ما سيأتي ولن يغير الله قوانينه بالخوارق وإنما بأن تغيروا ما بأنفسكم.

11. إنسان ما بعد الموحدين

إن ما سميته المنعطف الأخطر في تاريخ المسلمين وفقدان الرشد إلى يومنا هذا والقرار الذي اتخذه المسلمون ضمنياً وإيحاء بغير تصريح وبغير كلام ولا حديث عنه إنه قرار صامت اتخذ من ذلك الوقت ولا يزال يتحكم فينا ولا قدرة لنا على أن نتناوله بالبحث والدرس والاستنطاق كل هذا لحدث وما نتج عنه يسميه مالك بن نبي بمصطلح _إنسان ما بعد الموحدين_ والفصل الأول من كتابه (وجهة العالم الإسلامي) بعنوان إنسان ما بعد الموحدين وإن كنا نختلف في الكلمة أو الجملة أو العبارة التي سنطلقها على القرار الذي اتخذ ولكل مصطلحه وعبارته للدلالة لكننا لا نختلف لا مع مالك بن نبي ولا مع سائر المسلمين أن ما حدث للمسلمين حين فقدوا العهد الراشدي حد فاصل ومنعطف للتراجع والانتكاس ولكن المشكلة في أمرين اثنين أننا فقدنا الرشد وهذا أدى بنا إلى توديع عهد الرشد ولا قدرة لنا على تصور استعادته إلا بنفس الطرية التي فقدنا بها إنما حدث يمكن أن نسميه بأسماء مختلفة ويمكن أن نستخدم بعض مصطلحات قرآنية. يقول القرآن: {عم يتساءلون عن النبأ العظيم الذي هم فيه مختلفون كلا سيعلمون ثم كلا سيعلمون} هذا النبأ العظيم هو ما جاء به الأنبياء واختلف فيه الناس هو التوحيد هو كلمة السواء هو كلمة التقوى هو اللاإكراه في الدين الذي تبين به الرشد من الغي هو كلمة لا إله إلا الله هو عبادة الله واجتناب الطاغوت هو أن لا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً هو أن نكون صادقين مع الله ومع أنفسنا ومع الناس وأن نكون أمينين وأن لا نكون منافقين.

إن إنسان ما بعد الموحدين فقد هذا كله وهذه المصطلحات كلها تلتقي عند الإنسان القابل للتزكية والتدسية، للفجور والتقوى ونحن من ذاك التاريخ هجرنا الرشد وقبلنا الإكراه في الدين وخرجنا من الأمانة التي حملها الإنسان وعشنا النفاق أو التقية في غير مكانها إن المنطلق من: ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها ومن ذاك التاريخ عدنا إلى الفجور وإلى إجازة الخيانة وليس فقط أجزناها بل اعتبرناها من أعظم الطاعات كيف حدث كل هذا؟ القرآن يصنف الناس إلى مؤمنين وكافرين ومنافقين، إن الأمر معقد جداً ولكن قابل للتحليل ينبغي أن نبدأ من الإنسان إن الإنسان المنفوخ فيه من روح

الله القابل للتقوى والتزكية وأن يكون في أحسن تقويم، الإنسان صار قابلاً لتمييز الخير من الشر والخطأ من الصواب والرشد من الغي وحل المشكلة من غير أن يخسر أحد شيئاً ويربح الأطراف جميعاً إن مالك بن نبي حين بحث مشكلة إنسان مما بعد الموحدين قال: إنه فقد الروح، البعد الروحي في الإنسان وحتى أنه أدان حملة أفكار النهضة من إقبال ومحمد عبده حيث يقول مالك عن هؤلاء أنهم فسروا المشكلة على أساس علم الكلام فأراد كل من محمد إقبال ومحمد عبده أن يكتب تجديد علم الكلام والإيمان بالله ومالك بن نبي لا يعتبر المشكلة مشكلة علم كلام وإيمان وإنما يقسم مالك بن نبي المشكلة إلى الجانب الروحي والجانب الزمني ويقصد من ذلك الإخلاص والصواب الأخلاق والعلم ويقول مالك إن الجانب الروحي عند المسلم سليم ولسنا في حاجة إلى تلقينه الإيمان ومالك بحث هذا في كتبه وخاصة في الافريسيوية في فصل الافريسيوية والعالم الإسلامي وتناوله في كتبه الأخرى ونرجو أن نتمكن من فهم المشكلة أو إضاءته إن عالماً ضخماً مثل العالم الإسلامي أن يعيش هذا التمزق والهوان وهو يحمل رسالة القرآن ورسالة الأنبياء جميعاً ماذا فقد المسلمون حتى صار سعيهم باطلاً،يقول إقبال ولحرف واحد ألف مقال كيف نكتشف مشكلة إنسان ما بعد الموحدين مالك بن نبي يقول الانفصال حدث في صفين ولكن التمزق الكامل من بعد دولة الموحدين وأنا يمكن أن أقول إن المشكلة في الإنسان إن رسالة محمد(ص) قابل للدراسة والتحليل الاجتماعي الذي يريده مالك بن نبي وقابل للدراسة الروحية إن كلمة روحية وإن كانت كلمة إسلامية قرآنية صارت ملتبسة لأن مصطلح الروح المستخدم في الكتابات الغربية المسيحية يمكن أن تكون سبباً للضلال والتشويش وأنا أزعم أن الروح هو قدرة الإنسان على الفهم على أساس العواقب فهذا هو الروح الذي نفخ في الإنسان ولم ينفخ في غيره من الحيوانات والإنسان قابل لأن يربط الأسباب بالنتائج ويتعلم من عاقبة أخطائه التي تؤدي إلى الخسران في هذه الدنيا قبل الآخرة وأنا أشعر بالراحة وزايلني القلق في فهم الإنسان حين وصلت إلى أن أفضل استثمار للإنسان بإقناعه وليس بإكراهه إلى مالا يؤمن به ويمكن أن يفهم الإنسان الخطأ ويتركه ويفهم الصواب ويلتزمه فهذا هو نقطة الانطلاق في بحث مشكلة الإنسان وأنا شديد الإيمان بهذا وأقول إن التاريخ يدعمني وتطور البشر يؤكد لي وكذلك القرآن الذي أجد أنه يؤيدني فقد تواطأت عندي آيات الكتاب مع آيات الآفاق والأنفس اللتين تشهدان لآيات الكتاب بأنه الحق إن القرآن حين يقسم الناس إلى المؤمنين والكافرين والمنافقين إن هؤلاء ليسوا على أساس العرق والمذهب إن المؤمنين هم الذين فهموا إمكان استثمار الإنسان بإقناعه دون إكراه والكافرون هم الذين كفروا بقدرة الإنسان على الفهم واختاروا إكراهه وحمله على اعتقاد ما لم يقتنع به والذين قبلوا الإكراه وخضعوا له وأظهروا أنهم يؤمنون به وهم غير مؤمنين به وهم طائفتان منافقون للمؤمنين ومنافقون للكافرين مذبذبين لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء وأول سورة البقرة يتحدث عن المؤمنين والكافرين ثم عن المنافقين وسورة الفاتحة تتحدث عن أصحاب الصراط المستقيم والمغضوب عليهم والضالين، ولتفهم هذا الموضوع لا بد من فهم أن الكفر ليس له عقاب دنيوي أي الكافر لا يكره على الإيمان وله حق أن يبقى كافراً مهما كانت عقيدته والقرآن يحمي كل الأفكار والأديان ما لم يلجؤوا إلى الإكراه، بحمل الناس على عقائدهم بالإكراه أنا لا أريد أن تقبل مني تفسيراتي أيها القارئ في الكفر والإيمان وإنما أريد فقط أن تفهم ما أ، عليه ثم اكفر بي ما شئت وما حلا لك وأنا يحميني الله ما لم ألجأ إلى قتل الناس لأفكارهم أو إخراجهم من ديارهم، هذا دستور واضح في القرآن ولكنه مغيب ومستبعد وغير معترف به، القرآن يحمي كل الناس الذين لا يلجأون إلى فرض أفكارهم بالإكراه، {لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين} هذه آية محكمة نزلت في آخر عهد النبوة في فتح مكة وهذه الآية دستور ومبدأ أساسي موجز ومختصر وواضح، تبين الرشد من الغي الإكراه هو الغي واللاإكراه هو الرشد فإن الذي يقبل السلم والعدل مهما كان اعتقاده فإن الله يحميه ويوجب له العدل والإحسان أو القسط والبر كما في الآية السابقة ويقول في آية أخرى {فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا} والذي لا يقبل السلم ويلجأ إلى الإكراه في الدين والذي لا يقبل العدل ويلجأ إلى فرض الامتيازات ولا يطبق القانون إلا على الضعفاء فهذا المجتمع هو موضع الجهاد من قبل مجتمع العدل والإحسان ومجتمع اللاإكراه ولو كان هذا المجتمع مسلماً أو كافراً فإن الخوارج أكثر صلاة وصياماً ويبذلون أنفسهم وأموالهم في سبيل الله، إن إنسان ما بعد الموحدين ما بعد الرشد انتكس، إن إنسان ما بعد الموحدين ما بعد الرشد انتكس إلى مجتمع الإكراه في الدين وإلى مجتمع الغي بل تحول المسلمون من غير إعلان وبتواطؤ ضمني غير معلن إلى مذهب الخوارج الذين تقربوا إلى الله بدم علي بن أبي طالب فهنا عُدنا بجدارة إلى شريعة الغاب بتواطؤ ضمني من غير إعلان أيضاً.

12. القرآن يراهن على المستقبل

كيف نعيد صلتنا بالقرآن والنبوات. بدأُ المشكلة من الإنسان وفهم الإنسان من التاريخ كيف كان وكيف صار وإلى أين يتوجه، الإنسان له قدرة على الانتحار والإنسان يلجأ إلى ذلك حين يفقد القدرة على التكيف مع المجتمع، إن المجتمع هو صانع الإنسان إنه يأتي إلى هذا الوجود وليس يملك شيئا سوى الاستعداد للتلقي فإذا كان المجتمع له القدرة على أن يجعل الإنسان ينتحر لم يبق شيء لا يقدر عليه المجتمع في تصنيع الإنسان، ولكن المجتمع من أين يأتي وكيف يتعلم وما العلاقة بين المجتمع والفرد الذي ينشأ فيه وما مقدار حرية الفرد في معارضة المجتمع، الإنسان كائن اجتماعي حتى طول مرحلة الطفولة عند الإنسان واعتماده على أبويه ومحيطه الاجتماعي الذي يمده بالخبرات التي كسبتها الأسرة والعشيرة والقوم والإنسان هذا الاعتماد ساحق وماحق، وإلا كيف نفسر المجتمع الإسلامي المسلمون على اختلاف بلدانهم كيف يخضعون لِتشابه كبير بحيث جميعهم دون شذوذ لا يتمكنون من التكيف مع العالم الجديد لا قدرة لهم على التعاون أو الوقوف وإثبات الذات أمام العالم، إذا كان الفرد مصنوع المجتمع فإن الأفراد أيضا يرفدون المجتمع، وكان يحدث ذلك ببطء شديد وعزلة والتواصل مع المجتمعات كانت محدودة حتى أن الحضارة الصينية كانت معزولة عن الحضارة الفرعونية المصرية ولم يكن بينهم تواصل حتى ظاهرة السور العظيم للصين دليل الحماية الذاتية وهذا النوع من الانغلاق كان يجعل تطور البشر واكتساب الخبرات بطيئاً مضنياً فالمصريون بنوا الأهرامات ولكن الصينيين أهراماتهم كانت مقلوبة، وإمكان استخدام النار والقدرة على إشعالها لم تدخل في حياة البشر إلا بمعاناة شديدة وطويلة وكذلك الزراعة، إن القانون الذي يحكم البشر قانون المنفعة لأن النافع يبقى والأقل نفعاً يذهب وينسخ والتواصل بين المجتمعات تقوم بتبادل الخبرات النافعة فانتقال صناعة الورق من الصين إلى العرب ثم إلى أوربا يبين أهمية التواصل وأهمية الوحدة البشرية في صيرورتها إلى النمو فإذا عرفنا الماضي وكيف كان يحدث ما يحدث سنعرف ما نحن فيه وهذا يجعلنا نتنبأ بما سيحدث، وتتسارع الأحداث والإنسان عاش طويلاً جداً قبل أن يتعلم الزراعة واستئناس الحيوان ولكن انتقال الإنسان إلى طاقة البخار والنار قلب المفاهيم وإلى الآن البشرية لم تتمكن من نقل الخبرة الإنسانية كيف تكونت إلى الأجيال فعدم وضوح هذه المسيرة البشرية هو الذي يجعل بعض الناس يستبعدون البعض الآخر وغموض التاريخ البشري هو الذي يمكن من بقاء الاستكبار والاستضعاف، وإلا كيف عدد قليل من البشر يجعلهم قادرين على أن يتحكموا في العدد الضخم من البشر!!. إن غياب المعلومة الواضحة البينة يجعل الإنسان غير قادر على التكيف إن بطء النمو في التاريخ الماضي يجعل الناس غير قادرين على تصور المستقبل وإمكان تغير الأحوال كم نحن عاجزون على نقل المعرفة بوضوح إلى الناس العاديين لنجعلهم فعالين نشيطين يتحركون بتصميم من غير أن يقعوا في الشك والحيرة في جدوى سعيهم إن إغلاق باب الأمل يعطل الجهود بل إنني أشعر بمأساة من أننا نحن لا نملك الضوء الذي نتمكن به من الخروج من ظلام الحيرة والقنوط والاستسلام إلى الأمل المشرق الحي المتألق الدؤوب بتصميم مكين إننا نفقد الفهم ونفتقد الوضوح فالأمر كما قال عيسى عليه السلام: "إذا كان النور الذي فيك ظلاماً فالظلام كم يكون".

فنحن دخلنا الظلام من يوم صفين وفقدنا الإنسان وفقدنا أنفسنا والسيطرة على مصيرنا ورجعنا خاسئين خاسرين ربما لم يكن الأمر شديد الوطأة في أول الأمر حيث كانوا لا يزالون مسيطرين على العالم المعاصر لهم بقوة الدفع الأول فقد ظلت مسيرة السيطرة مستمرة من غير انشقاق المجتمع بعد إنشقاقهم عن الرشد وعودتهم إلى الغي فلم يحدث أن انشق الجسد السياسي إلا بعد ظهور العباسيين فكان الانشقاق في الجسد السياسي فحدثت دولتان عباسية في آسيا وإفريقيا وأموية في أوربا الأندلس، ولكن النكسة الإنسانية نكسة صفين والطلاق الذي حصل مع الرشد ظل مستمراً فبدأت الإنشقاقات في العباسيين وسيطر الجند على السلاطين في المشرق والمغرب إلى أن غابت الفكرة وبزغ الصنم بشكل فاقع واستمرت الأمور مع سيطرة العسكر وانحسر الفكر حيث القانون الذي كشفه مالك بن نبي حين تغيب الفكرة يبرز الصنم صنم القوة والعسكر والأداة لأن العقل غاب وعادت شريعة الغاب يتبادلون الغدر والخيانة فلم يعد أحداً يأمن أحداً لأننا نبذنا الميثاق وراء ظهورنا بحيث لا يثق أحد بأحد ويمكن أن نقول إن الانشقاق الأعظم الذي حدث والتحول الكبير حين خرجنا من الرشد والرشاد وضيعنا السبيل إليه بحيث لا قدرة لنا على كشفه ورؤيته ولو كان أمامنا إن هذا العجز عن فهم

إمكان إعادة الوعي والرشد إلى الأمة وإمكان رؤية السبيل إليه لأننا وثقنا بعضلات الإنسان وأنكرنا عقله فنحن نعيش غيبة الفكر وسيطرة الجهل إلى درجة أننا لا نجد من يعترف بأن للعقل قدرة على مواجهة القوة وإلا فكيف يمكن لهذا العدد الضخم أن يستسلم للقوة بما فيهم من يمثل عقل الأمة وهم المثقفون بلغة هذا العصر أو المشرفون على الجامعة والجامع متى تصير لنا قدرة على أن نعترف نحن الذين نزعم أننا من أهل الفكر بأنه لا فكر لنا فكيف نحرر الإنسان من سيطرة الأقوياء أو كيف نخرج الإنسان من عبادة القوة إلى الاعتراف بأن عقل الإنسان هو القوة فإذا لم يستطع عقل الإنسان على أن يثبت ذاته فسوف يكون الصنم هو القائد لأن الفكرة غابت لهذا الأنبياء الذين راهنوا وآمنوا أن الإنسان قادر على هزيمة القوة وأن العقل يمكن أن يصنع الأمة الملة التي تخرج من عبادة القوة بدون لجوء إلى القوة الجسدية اليد والسلاح والقتل، فإن الكفاح النبوي الذي أطلق عليه كل المجتمعات المعاصرة للأنبياء أن الأنبياء سحرة ومجانين {كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون أتواصوا به أم هم قوم طاغون} هذا القول الذي أطلقه كل المجتمعات على أنبيائهم من الجنون إلى الآن متوارث في كل المجتمعات أن الأنبياء مجانين وهذه المجتمعات سبب وصفهم للأنبياء بالجنون لأنهم قوم طاغون والطاغي والطاغية والطاغوت هو الذي لا يعترف بعقل الإنسان ويلغيه بالإكراه وأدوات الإكراه والأنبياء جميعاً كفروا بالطاغوت أي لم يعترفوا له بأنه حق وبأنه قوي فالإنسان أقوى منه وقادر على الإيمان بضعف الذي يلجأ إلى الإكراه وأن الحبل الذي يتعلق به واهن فمن كشف هذا الوهن للإكراه والقوة للإقناع فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها، لهذا كل الذين يلجؤون إلى الإكراه لم يعرفوا الرشاد الذي هو العقل ولم يتعرفوا إلى أفضل استخدام للإنسان بل إلى أسوأ استخدام للإنسان فحين يتعلم الإنسان قدرته ورشده وتمييزه حين يتبين للإنسان الرشد من الغي يكون آمن بالله الذي كرم الإنسان بقدرته على تحدي الباطل المسلح ومواجهته بالفكر الأعزل المبين ويسحب الفكر الأعزل البساط من تحت أقدام الطغاة الذين لا يعرفون إلا إرهاب الإنسان وإكراهه ولكن الأنبياء وأتباعهم القادمون لا محالة إنهم سيكشفون هذه الحقيقة ويزيلون الوهم بأن الحق والباطل إذا أعطوا فرصاً متكافئة بأن الباطل سينتصر فهذا وهم وأس الضلال في العالم فهؤلاء يخافون من الباطل ولا قدرة لهم أن يستعيدوا القوة في المواجهة الفكرية فهؤلاء الذين يرهبون القوة إنهم ينسون أولا يتذكرون أن معنى الديمقراطية هو أن يؤمن جميع الفرقاء بعدم اللجوء إلى القوة في صنع السلطة وأن الديمقراطية لن تدخل إلى قوم يؤمنون بأن القوة يمكن أن تصنع الحكم فهل الديمقراطية كفر وجنون! ولكن الأنبياء راهنوا على هذا الكفر والجنون حيدوا العنف وجعلوا معركة الأفكار لا يجوز أن يدخل إليها استخدام القوة، متى سنفهم هذا إنهم يرونه بعيداً ونراه قريباً وقاب قوسين أو أدنى ويقولون متى قل عسى أن يكون قريباً.

13. من الذي يستحق البر والقسط في المجتمع القرآني

في أربعينات هذا القرن حين كنت أدرس وكان قد أوحي إلينا في بيئتنا أننا في آخر الزمان وأن الدين دائما في تراجع وأن كل يوم أسوأ من الذي قبله، خطر لي في ذلك الوقت كيف أننا نجند أنفسنا لخدمة مبدأ مستقبله هكذا! وأدى بي هذا التصور إلى بحث آخر وهو هل هذه الفكرة (فكرة آخر الزمان) موجودة في القرآن يا ترى؟ فقرأت القرآن على هذه النية فلم أجد فيه شيئا من هذا الذي أوحي إلينا من فكرة آخر الزمان وإنما وجدت فيه:{من يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره} ووجدت {من كان يظن أن ينصره الله في الدنيا والآخرة فليمدد بسبب إلى السماء ثم ليقطع فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ} ووجدت {إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد} ووجدت فيه {وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد أمنهم خوفا} إلى غير ذلك من الآيات مثل {يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون} و{أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله} وتبين لي بعد ذلك أن فكرة آخر الزمان فكرة تظهر في المجتمعات التي تشعر أنها لم يعد في مقدورها إضافة شيء جديد وأنهم قد أنهوا دورهم. ومن سبيل هذا فكرة "نهاية التاريخ" وربما فكرة آخر الزمان لم تعد تحمل الحجم والثقل الذي كان لها منذ نصف قرن حين كنت فكرت في هذا في ذاك التاريخ، ومنذ ذاك

التاريخ صرت أرجع إلى القرآن في قضايا أخرى فخطر لي مرة، أو أن الجو الذي نعيش فيه أوحى لي أن أفكر وأتمنى أن أرى من بَحَثَ في القرآن الذي هو مرجع المسلمين ودستورهم ماذا يعطي هذا الكتاب وماذا يمنع هذا الكتاب لإنسانٍ يعيش بين أهل القرآن سواء كان من المسلمين أو غير المسلمين فلم يحصل لي أن عثرتُ على مواجهة هذا الموضوع بوضوح وتقصد واعٍ فقرأت القرآن على هذه النية، فوجت فيه ما يمكن أن يطالب به أي إنسان في مجتمع القرآن وهو من غير أهل القرآن سواء كان مؤمناً أو ملحداً أو من أي دين آخر فإن من ترك أمرين أو محرمين فإن هذا الكتاب يوجب له البر والقسط، أي الإحسان والعدل وهذان المحرمان في القرآن هما: (قتل الناس وتهجيرهم أو مظاهرة من يفعل ذلك لأجل تصوراتهم)، إن كل إنسان يقبل العدل والسلام، فإن هذا المجتمع الذي يدعو إليه القرآن يحمي ذلك لإنسان من غير أن يسأل عن اعتقاده ودينه لأن هذين الذنبين هما المحرمان على المجتمع القرآني سواء كان آمن بالقرآن أو لم يؤمن، فقد جاء في القرآن في سورة الممتحنة {عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة والله قدير والله غفور رحيم، لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين، إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأُولئك هم الظالمون} وفي سورة النساء {فإن اعتزلوكم فلم يقاتلكم وألقوا إليكم السَلَمَ فما جعل الله عليكم سبيلا، ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم كل ما رُدُّوا إلى الفتنة أُركِسوا فيها فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السَلَمَ ويَكُفُّوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث ثقِفتموهم وأُولئكم جعلنا لكم عليهم سلطاناً مبيناً} وبعد هذا بثلاث آيات {ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم فتبينوا إن الله كان بما تعملون خبيرا}. هذه النصوص قد تكون واضحة لمن يفهم اتجاه التاريخ وما وصل إليه بعض البشر في حماية عقائد الناس وآرائهم ما لم يلجؤا إلى قتل وتهجير من يخالفهم وقتل وتهجير من يخالف في الاعتقاد ويدن الذين كفروا برسالة الرسل والأنبياء، والأنبياء يحرمون الدخول إلى ملة هؤلاء، في القرآن {قال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا} فكان جواب الرسل {قد افترينا على الله كذبا إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها} ملة الرسل ومجتمع الرسل وأمة الرسل هم الذين يحمون اعتقادات الناس ما لم يلحقوا إلى قتل وتهجير من يخالفهم.

وإذا تكون ملة الأنبياء وأمتهم هذه الأمة عليهم أن يحموا مجتمعهم من القتل والتهجير ويساعدوا الناس الذين يعيشون القتل والتهجير لمخالفيهم إن لم يمكن منعهم من ذلك بغير القتال فهذا هو القتال الجائز أو الواجب على ملة الأنبياء أو هذا هو الجهاد في سبيل الله وأنا أعلم جيداً أن هذا المفهوم صار غائباً جداً عند المسلمين بل قد وجِد فيهم من أباح دم على ابن أبي طالب وقتلوه فعلاً وهم يحسبون أنهم يتقربون بذلك إلى الله.

وقد اختلط –بعد المنعطف الأخطر في تاريخ المسلمين منذ أن فقدوا الرشد– جهاد الأنبياء بجهاد الخوارج، كان هذا المفهوم واضحا للراشدين لهذا لما خرج على علي ابن أبي طالب الخوارج قال علي لأصحابه: "لا تقاتلوهم حتى يسفكوا دماً حراماً". أي بدؤوا بقتل الذين يخالفوهم في الاعتقاد فعند ذلك قاتَلهم ولكن بعد أن قُتل علي ابن أبي طالب تحول العالم الإسلامي من ذاك التاريخ إلى مذهب الخوارج، وهذا الذي نعيشه الآن من ذاك التاريخ، وهذا الذي يجعلنا نكثر من محاولة صنع السلام بين العرب والمسلمين مع إسرائيل ولا يستطيعون أن يفكروا لماذا لا يتمكنون من صنع السلام بين العرب والمسلمين، فالصراع الفكري مباح وواجب كذلك واجب عدم كتمان المعرفة وواجب عليّ أن أبين ولا أكتم ما أنزل الله وأنا لا أريد أن أفرض فهمي على أحد وما دمت لا ألجأ إلى فرض ما أفهم بالقتل والتهجير وإنما فقط أُبين للناس أنهم يمكنهم العيش متعاونين على البر والتقوى حين لا يُدخِلونَ في الدين الإكراه بالقوة، وهذا هو الرشد وهذا هو عروة الله الوثقى التي لا انفصام لها ومن لا يقبل هذا فلينظر إلى التاريخ الماضي ماذا فعل الله للذين آمنوا بالإكراه في الدين وإن لم يكف ما حدث في الماضي فانظروا ماذا سيحدث في المستقبل وأصل هذه التصورات هو إبعاد الإكراه في مجال الأفكار والاعتقادات وابعاد العنف والإكراه في صنع الاعتقاد وكذلك في صنع السياسة فإن السياسة التي تأتي بالإكراه لا يمكن أن تكون رشداً وهداية وتعاوناً على البر والتقوى وإنما هو غي وبغي وتعاون على الإثم والعدوان إن تحييد الإكراه والعنف وابعاده عن مجال الأفكار هو الرشد فإن جنس الإكراه لا يوجد في عالم الأفكار ولكن حين يدخلون الإكراه في صنع الاعتقاد وبضرب الأجساد وقتل النفس التي حرم الله فكأنما قتل الناس جميعا، لهذا الأنفس كلها معرضة للقتل ولا يمكن أن يحمي الانسان نفسه من القتل والتهجير إن لم يعرف ما هو الذنب الذي عليه أن يجتنبه حتى يكون في أمن وحماية

فبمجرد أن يدخل الإكراه في الدين لم يعد أحد في أمان، فمن هنا فكأنما قتل الناس جميعا فإذا أجزت قتل الانسان لأفكاره فإن هذا الذي أجزته يرجع عليك أيضاً لأن الآخر يراك كما تراه فلم يعد أحد في أمان حيث لا يجوز الاختلاف في الرأي والدين لأن كل المختلفين يجيزون قتل بعضهم فلهذا لا بد من أن يوجد من يحمي عالم الأفكار حتى يمكن البدء بحماية الناس وإلا لا حماية لأحد، لهذا لا حماية لأحد من العرب الآن، فهم يخافون من أن يصير أحد منهم قوياً فيبيح إزالتهم بالقوة. هذا موضوع خفي جداً وواضح جداً وسيضطر الناس جميعاً أن يقبلوا الاختلاف في الآراء والعقائد والمذاهب والقادر على الإقناع هو الذي يكسب الرهان والرهان الحقيقي هو أن تأتي بما ينفع الناس لأن قانون الله أن الزبد يذهب جفاء من المعتقدات والمذاهب ويمكث في الأرض ما ينفع الناس جميعا، ومن هنا يمكن أن نقول أن العبادة التقليدية التي تقال كثيراً "من أنكر شيئا معروفاً من الدين بالضرورة يستتاب فإن تاب وإلا قتل".إن هذه الفكرة جبن في الإيمان وظن سيئ في الله ودينه، وإلى هذا تحولنا يوم أن ودعنا الرشد وليس فقط بل وصلنا إلى حالة حتى إن رأينا سبيل الرشد لا يمكن لنا أن نتخذه سبيلا {سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق وإن يروا كل آية لا يؤمنون بها وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلا}.

14. حالة الطوارئ والدستور

المجتمعات لها دساتيرها وتتعرض لحالة الطوارئ ومصطلح حالة الطوارئ والدستور مصطلحات جديدة معروفة إلى حدٍ ما في هذا العصر حيث نسمع أن دولة ما أعلنت حالة الطوارئ العامة أو الجزئية لزمن معين أو لمنطقة معينة كما حدث منذ بضع سنوات حين أعلنت حالة الطوارئ في مدينة (لوس أنجلوس) في كاليفورنيا في الولايات المتحدة لما فشلت الشرطة في السيطرة على الوضع في حادثة ضرب الشرطة للسائق الأسود فثار الناس واضطربت الأمور وعجزت الشرطة استدعي الجيش وأعلنت حالة الطوارئ وأيامها شاهدنا كيف فلتت الأمور ونهبت المحلات ورأينا الذين يحملون التلفزيونات المحمولة على ظهور الناهبين من المحلات التجارية وربما أنا نفسي لا أعلم بدقة معنى حالة الطوارئ لأننا نعيش في حالة طوارئ مستمرة نحن في العالم الإسلامي وأنا هاجسي العالم الإسلامي عالم القرآن الذين دستورهم القرآن ولكن أعلم أن حالة الطوارئ هي حالة الحرب والفوضى وتعطل القوانين وحالة قد يصل إلى قتل الناس واعتقالهم بدون قوانين لإزالة حالة الطوارئ لهذا الذين عندهم مصطلح حالة الطوارئ يهتمون جداً بزمان ومكان الوضع الذي يقتضي فيه إعلان حالة الطوارئ وربما يعين شخص عسكري مخول لإنهاء حالة الطوارئ باتخاذ الإجراءات غير الدستورية وغير القانونية لإزالة حالة الطوارئ بأقل التكاليف وأقل الأزمنة لرفع وإزالة الحالة التي دعت إلى اتخاذ إعلان الطوارئ وبما أن القرآن دستور المسلمين فكل شيء فيه اعتبره المسلمون دستوراً ولم يفصلوا بين الحالة الدستورية وحالة الطوارئ فلهذا لما اختلطت الحالة الدستورية بحالة الطوارئ واعتبرت حالة الطوارئ دستوراً دائماً لأنه في القرآن فصار حالة العالم الإسلامي حالة طوارئ دائمة دون أن يكون عندهم حالة دستورية واحدة في العالم الإسلامي كله حتى العالم الإسلامي تكيف مع هذا الوضع وهذا الخلط فصار شيئاً طبيعياً في حياتهم وفي الواقع حين اختلطت حالة الطوارئ بالحالة الدستورية لأن حالة الطوارئ كحدث لكل مجتمع ممكن أن يحدث وكل شيء حدث أو جرى في القرآن يعتبر دستوراً فصارت حالات الطوارئ دستوراً لهذا لم يعد للمسلمين حالات دستورية وإنما حالات طوارئ عامة طامة شاملة لم يعد الفرد المسلم يعرف التمييز وإن كان البعض يقولون برفع حالة الطوارئ حسب المصطلحات الغربية إلا أننا في أعماقنا لا نعرف معنى الحالة الدستورية وهذا الوضع نتيجة للانعطاف الأخطر الذي حدث بعد عهد الراشدين وبعد معركة صفين وبعد مقتل الخليفة الراشد علي بن أبي طالب لأن هذا الحدث كان زوالاً لعهد الرشد المبني على اللاإكراه وعودة للهرقلية المبنية على الإكراه والمعتمدة على العسكر أداة الحرب وأداة حفظ المجتمع من الخارج لا في الداخل لهذا حين قسم الأرض إلى دار الحرب ودار السلام فإن المجتمعات التي تعتمد على الإكراه والقوة العسكرية لحماية المجتمع في الداخل هي دار الحرب بل تحولت المشكلة الخارجية إلى الداخل حيث لم يعد دار الحرب خارج المجتمع بل تحول المجتمع إلى الغي والخوارج حيث الملوك هم الدستور والحكم المطلق فإذا قيدت صلاحيات الملك أو المعتمدين

في وجودهم على العسكر أطلق عليهم الملكية الدستورية لأن الملوك لم يكن يقيدهم قانون ولا دستور لأنهم هم القانون والدستور ولهذا الذي حاج إبراهيم في ربه أن آتاه الملك لما قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت قال النمرود الذي حاج إبراهيم في ربه أنا أحيي وأميت لهذا المشكلة وحالة الطوارئ كانت مستمرة في أمة الإكراه لأنه جاء بالإكراه وسن قانون الإكراه فهو في خوف دائم من أن يملك أحد قوة أو يمكنه أن يستقطب الناس فيكون هدف التصفية حتى لا يبقى منازع ولكن حين تكون القوة والعسكر هي العمدة في الملك ودستور المجتمع فتتحول السيطرة إلى العسكر تودع حالة الدستور والحالة المدنية إلى العسكرة وحالة الطوارئ المستمرة والمجتمع لا يمكن أن يتحول إلى الحالة المدنية ما لم يعترف الفرقاء جميعاً إلى الاتفاق على عدم اللجوء إلى القوة في حسم شرعية السلطة لأن السلطة التي تأتي بالقوة والعسكر لا يمكن أن تكون شرعية أو أن تتحول إلى شرعية ومن لم يصدق هذا فليسر في الأرض ولينظر ماذا حدث في تاريخ المسلمين من بعد الراشدين فقد فقدوا الشرعية حتى في التصور أي مجرد تصور إمكانية إعادة الرشد والمنطق والقانون والحالة المدنية المقابلة للحالة العسكرية أداة الحرب فهم أي المجتمع الإسلامي يحنون بغموض إلى عودة الرشد وعودة الخلافة وإن كانوا لا يعرفون كيف يمكن صنع الخلافة الراشدة لهذا استخدمت كلمة الخلافة بدون كلمة الرشد لأن الرشد في الخلافة لا يمكن أن يكون بالإكراه بل باللاإكراه ولكن تصور صنع أو إعادة الخلافة الراشدة غاب عن ذهن المسلمين إلا بالإكراه فمن هنا دخلنا إلى الغي والبغي والطغيان بدون قدرة على تصور إمكان صنع الرشد بدون إكراه ونسينا أو تناسينا أو عجزنا عن الحدث الأكبر في حياة المسلمين حين هاجروا إلى المدينة وصنعوا مجتمعهم اللاإكراهي بدون إكراه وبالإقناع فقط وبدون أن يقتل شخص واحد حتى في بادرة نزعة جاهلية حيث كانوا مضبوطين ضبطا محكما لم يشذ منه فرد في ممارسة عنف يؤدي إلى قتل أي إنسان من غير المسلمين من قبل المسلمين حيث ظهر لأول مرة في التاريخ المجتمع المدني والمجتمع الراشد والأمة الراشدة وأمة اللاإكراه وأمة الدستور حيث عقد الرسول (ص) معاهدة المدينة ودستور المدينة على تكامل كل المتعاهدين على حماية المجتمع وعدم الخروج على القانون وهذا الدستور الذي كان يحمي كل المنتمين إلى هذا المجتمع مع اختلاف أديانهم –من بنود دستور المدينة – (وأن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم أو أثم فإنه لا يُوقِعُ إلا نفسه وأهل بيته وأن المؤمنين المتقين على كل من بغى منهم أو ابتغى دسيمة ظلم أو إثما أو عدوان أو فساداً بين المؤمنين وأن أيديهم عليه جميعاً ولو كان وَلَدَ أحدهم) وحالة الحرب وحدوث الهرج القتل والنهب هو الذي يجعل الحرب شرعية ولكن الذي يمارس الحرب الشرعية هو الذي يمثل الأمة الراشدة أمة اللاإكراه التي تفرز الحكم الشرعي اللاإكراهي وكل الحروب بدون هذا الشرط حروب غير شرعية حروب شريعة الغاب أمرنا المنهج الإسلامي أن لا نشرك فيها لأنها حروب بغي وحروب طغيان المشاركون فيه من صنف واحد إنتصار أحدهم لايزيل حالة البغي إلى حالة الرشد ومن لم يقنع فلينظر في تاريخ المسلمين من بعد الراشدين كم مرة حدث تغير بالبغي على باغٍ آخر ولكن لم يتحول البغي إلى يومنا هذا إلى رشد وإنما بغي يتبع بغياً وطاغوت يخلُف طاغوتاً لهذا أدعو إلى الكف عن هذه اللعبة التي استمرت من بعد صفين إلى يومنا هذا تكفي هذه التجارب التي شهد لها التاريخ بأنها لاتؤدي إلى رشد ولا حالة رشد لأن الرشد في الأمة وليس في الحكم والحاكم فإذا فقدت الأمة الرشد لم ينفعها الحاكم الراشد لهذا لما فقدت الأمة الرشد وانشقت وعادت إلى المغالبة بالقوة لم تنتفع بالخليفة الراشد بإجماع المذاهب أنه كان راشداً ولكن المعاصرين له لم يروه راشداً بل كافراً وضالاً فلم يطيعوه في المعركة التي كانت المعركة الشرعية الوحيدة التي ودع المسلمون فيها شرعية الحرب ولم يكتفوا بعصيانه وخذلانه في المعركة بل إغتاله الخوارج الذي يحقر أنقى المسلمين صلاتهم مع صلاته وصيامهم مع صيامه إن هذا الحدث الذي حدث في العالم الإسلامي بعد الراشدين أفسد وضع المجتمع الإسلامي إلى أن وصل الآن إلى ما وصل إليه من أنهم يمكن أن يعملوا سلام مع من قاتلهم في الدين وأخرجوهم من ديارهم ولا يمكنهم أن يعملوا بينهم سلاماً ولا تطبيعاً للعلاقات بينهم ليس فقط أنهم لا يعملون سلاماً بل لا قدرة لهم على الدعوة إليه لأنهم لا يمكنهم أن يفعلوا ذلك إلا إذا خرجوا من الإكراه إلى اللاإكراه ومن الغي والبغي إلى الرشد ومن الخيانة التي تستيقظ كالمارد مع توفر القوة وعدم وجود المانع من إستخدامه ولكن العالم يتوجه إلى جعل استخدام القوة غير ممكن أنا لست اختصاصيا كأساطين علمائنا في الدستور والشرعية واللاشرعية ولكن فقط آمنت أن الشرعية لا تأتي بالإكراه ومن كان يظن أن الشرعية لا تأتي بغير إكراه فليمدد بسبب إلى السماء ثم ليقطع ولينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ

15. فيزياء ورياضيات واقتصاد

هدفي من هذا العنوان أن تكون دراسة الدين مثل دراسة الفيزياء والرياضيات والاقتصاد وهذا الفصل بين علوم الطبيعة والعلوم الإنسانية فصل متعسف وظن الناس أن العلوم الإنسانية ليست علوماً دقيقة أو ليس مثل العلوم الطبيعية علينا أن نتذكر كيف كان الكيمياء شبيها بالسحر والشعوذة وما كان يقال عن تحويل المعادن العادية إلى معادن نفيسة من الخرافات ثم كيف تحول هذا إلى علم دقيق والقرآن حين يتحدث عن السنن يتحدث عن العلوم الإنسانية والاجتماعية والتاريخ وليس عن الطبيعة حين يقول (سنة الله في الذين خلو من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا) فإذا كان العلم يقول الآن سنة ضوئية فإن هذه العبارة دمجت الزمان بالمكان فصارت العبارة الواحدة تدل على الاثنين معاً وبشكل متداخل وأنا لما أقول الدين وعلم المجتمع فيزياء ورياضيات واقتصاد أعني ما أقول فإذا كانوا يقولون قانون أنشتاين الطاقة= الكتلة ضرب مربع السرعة فهذا فيزياء ورياضيات في آن واحد ونحن حين ننظر إلى الآية التي ضمنها رسول الله (ص) الكتاب الذي راسل به زعماء العالم المعاصر له من قوله تعالى (تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا أشهدوا بأنا مسلمون)فإن كلمة السواء هي علامة المعادلة في الرياضيات في أية عملية رياضية مثل كلمة يساوي التي يرمز لها ب (=) ففي هذه المعادلة في هذه الآية لدعوة العالم لقبول هذه المعادلة أي نحن وأنتم العلاقة بيننا التسوية المساواة تساوي الطرفين في المعادلة بين الأفراد والجماعات ولا ننقض هذه المساواة بل نلتزمها حتى من طرف واحد أي أننا نعطيكم من الحق مثل الذي نعطيه لأنفسنا ولا ننقض هذا الميثاق والقانون وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ما هو محرم محرم على الأطراف جميعاً وما هو حق حق للجميع هذه هي كلمة السواء وشرحها القرآن بثلاث جمل. 1 _ أن لا نعبد إلا الله 2 _ وأن لا نشرك به شيئا 3 _ وأن لا يتخذ بعضنا بعضا أربابا. معنى هذه الجمل كلها أن لا يكون هناك أصحاب امتيازات واستثناءات أن لا يكون أحد فوق المعادلة المساواة لأن العلاقة علاقة المساواة علاقة بين طرفين فإن أعطي لأحد الأطراف ما لم يعط للأخر فهذا فساد المعادلة وهو الظلم وهو الشرك وهو عبادة غير الله وهو أن يتخذ بعضنا بعضا أربابا، مثلاً مثل حق الفيتو لبعض الناس فإذا كان لكل الناس فسد المجتمع وبطل القانون وبطلت كلمة السواء وحلت شريعة الغاب فلهذا الأنبياء وضعوا القانون والتزموه من طرف واحد، وهذا يجعل المعادلة من نوع معين الالتزام من طرف واحد والآخر حر إن أراد أن ينطح الجدار فليفعل ونحن نضع القانون ونلتزم به فكلمة السواء هي كلمة التقوى وكلمة لا إله إلا الله وفي الحديث (أفضل كلمة قلتها أنا والنبيون من قبلي) ولهذا يقول الله (ألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها) ويقال من سواك بنفسه فما ظلمك فمن وضع قانون المساواة والتزم بها وأعطاك من الحق مثلما يعطي لنفسه فقد التزم كلمة المساواة والعدل والمعادلة. فإذا كان القانون المادي هو المساواة بين الطاقة وبين الكتلة مضروباً بمربع السرعة في كل ما خلق الله من عناصر الوجود فإن القانون الاجتماعي هو التوحيد أو عبادة الله واجتناب الطاغوت والخروج من عبادة العباد. لأن الخلل الذي يحدث في هذه المعادلة أن لا يقبل بعض الأطراف كلمة السواء أو التوحيد أو أن يتخذ بعضهم بعضا أربابا وهنا لم يقل أن يتخذ بعضهم بعضا عبيداً لأن الذين يرفضون كلمة السواء هم المستكبرون في الأرض وهم قلة دائماً وهم لا يمكنهم أن يكونوا أربابا إن لم يقبل الأكثرية هذه الربوبية. والأنبياء جاءوا ليطبقوا هذه المعادلة ويلتزموا بها ومن طرف واحد وإذا كان العالم لم يتفهم هذا جيدا ولهذا يقبلون أن يعبدوا بشراً مثلهم ويكسروا المعادلة فيكونوا هم أيضا نقضوا المعادلة أي الطرفان نقضوا المعادلة الذين جعلوا أنفسهم أرباباً والذين قبلوا هذا كلاهما نقضا المعادلة وكلمة السواء فلم يلتزم أحد الأطراف بالمعادلة فقبل الجميع عدم المساواة الذي فوق والذي تحت ولكن الأنبياء التزموا المساواة من طرف واحد والمساواة في الخير وليس في الشر. فإذا رفضت أنت فلن أرفض البقاء في قانون المساواة ولن أخطئ في التزام المعادلة في أن أبيح لنفسي بالخطأ إن أنت أخطأت وخرجت عن المساواة وحاولت أن تفرض امتيازاتك وربوبيتك فلن أقبل هذه الامتيازات لا لك ولا لنفسي ولن أقبل الربوبية فسأظل عبدا لله الذي من أسمائه الحسنى العدل، لهذا توحيد الله هو العدل بين الناس ولن يمكن أن يعدل بين الناس من يرفض أن يكون مساويا للآخرين من البشر فكل الذين يرفضون المعادلة، كلمة السواء، هم ملة واحدة سواء كانوا أربابا أو عبيدا للعباد فهم يتبادلون الربوبية فهذا هو ملة الأقوام المعارضين للأنبياء الذين لا يعطون للآخرين مثل الحق الذي يعطونه لأنفسهم، لهذا العالم كله إلى الآن لم يقبلوا المعادلة الاجتماعية أو التوحيد الكل قبلوا الشرك وعبادة

وطاعة العباد في معصية الله لهذا لا يوجد في العالم من ينكر حق الفيتو وإنما يوجد من يتمنى أن يصير له هذا الحق لا بد من أن يظهر ما دعى إليه الأنبياء وأمر الله به الناس لأن رفض كلمة السواء رفض للعدل وقبول للظلم، والظلم هو سبب فساد الناس والمجتمعات. والتاريخ ربما لم يترسخ فيه العدل والسواء وربما يدعوا التاريخ الماضي إلى اليأس من المستقبل ولكن هذا اليأس يحصل من الذين لا يعرفون التاريخ الماضي جيداً وكيف حصل تقدم البشرية خلال التاريخ كيف كان الناس يأكلون لحوم البشر وكيف كانوا يقربون القرابين البشرية حتى برضى القربان. ولكن الناس تجاوزوا هذا بشكله الفظ أو شكله الفج وإن كانوا لا يزالون يمارسون هذا استمراراً للتقليد القديم حيث لم يعد يجدي تقديم القرابين لحل المشكلات الاجتماعية. وأحياناً أضرب مثلا لأقرب للناس إمكانية رؤية التاريخ بامتداده لأننا بقدر ما نعرف التاريخ السابق يساعدنا على معرفة التاريخ اللاحق والمثل الذي أريد أن أضربه هو تاريخ الإنسان الفرد في أول نشوئه وطفولته، إنه يظل عاجزا عن أن ينظف نفسه سنتين وأكثر ولكن الانسان الذي يكون في هذا العجز في مطلع حياته فإن بضع سنوات في مقتبل عمره يكون فيه عاجزاً ليس معناه أنه سيبقى في مستقبل أيامه كذلك بل سيبلغ رشده ويأمر بالعدل ويقبل كلمة السواء. إن البشرية لا تزال في مرحلة الطفولة لم تبلغ الرشد ولكنها تتقدم إليه بخطىً حثيثة إن من لا يدرك حالة البشر خلال التاريخ يحل التشاؤم واليأس في تصوره للمستقبل. واليأس قرين الكفر وقرين إخفاء دلالة التاريخ وعدم قدرة على ملاحظة النمو الذي يحدث في التاريخ فإنك لو جلست تراقب نمو شجرة أو نمو نبات قد يكون متعباً ومضنياً إمكانية رؤية النمو الذي يحدث ببطء من غير إمكان ملاحظة ذلك ولكن النمو مستمر والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون. لا بد من المعرفة التاريخية ولا بد من معرفة كيف بدأ الخلق لنتمكن من معرفة مصير الخلق. لهذا فإن فهم الدين على أنه في فيزياء ورياضيات واقتصاد فإن ما جاء به الأنبياء قانون مثل أي قانون في الوجود بل أوضح، فكما الفيزياء والكيمياء لها قوانينها الثابتة والراسخة كذلك المجتمع له قانونه الثابت الراسخ سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلاً. فهو قانون ورياضيات واقتصاد أي أن التزام هذه المعادلة هو الذي يأتي بأفضل العواقب وأكثرها وأعلاها من غير خسارة أحد وإنما يربح الجميع وبزمن قياسي وهذا ما قام به خاتم النبيين من الاعتراف بالقانون والالتزام به من طرف واحد وانتصار بزمن قياسي وبدون خسارة من الطرف الآخر بل استقبله فتيات المدينة بطلع البدر علينا وهو لم يخرم كلمة السواء والتزم بها من طرف واحد وأطلع على العالم مجتمع العدل والسواء ولو لمدة وجيزة. إلا أن إصرار المسلمين على العودة إلى النموذج الأول يبشر بالخير والخروج من الإجماع الذي دخلوا إليه بعد أن فقدوا الرشد وسنستعيد الرشد، إنهم يرونه بعيداً ونراه قريباً.

16. ما لم يسمع به أو لم يفكر فيه

المجتمعات تنتج ثقافة تغيب أشياء بحيث لا يسمع أحد بها، وهذه التقنية تقنية تغييب أفكار، أو أحداث أو قرارات اتخذت سراً بحيث لا يشعر بها أحد، ولكنها تؤثر في حياة المجتمعات والأفراد أكثر من كل الأشياء المطروحة للبحث، والتداول إلى درجة الإملال، فكيف يمكن الدخول إلى هذا العالم المظلم المستبد؟، المحاط بكل السدود والجدران العالية التي تحمي هذه المواضيع؛ ولتقريب هذا الموضوع، ربما نستطيع أن نضرب مثلاً: كيف أن الأفراد يخفون ويستبعدون من تاريخهم بعض الأحداث التي لا يريدون أن يعرفها الناس من حياتهم، وكيف يتحدثون بالأحداث المشرقة أو الناجحة من تاريخ حياتهم؟ ويعلونها إلى درجة الإملال، بحيث قيل إن شخصاً كان يتحدث إلى صاحب له عن نجاحه في معركة من المعارك، ثم أوصى لصاحبه هذا بمال كثير من تركته، فلما سئل لم فعل هذا ؟قال: إنه قد قص على صاحبه مرات عديدة عن المعركة التي نجح فيها، وكان صاحبه هذا يستمع إليه كل مرة كأنه لم يسمع بها أبدا من قبل، ربما نستطيع أن نفهم كيف أن الأفراد يتحدثون عن نصف تاريخهم فقط؟ وأن تاريخا آخر في الظلام، ومغيب وأنه لا يتحدث عنه إلا أعداؤه. لكن يمكن أن ننقل هذا الوضع الفردي إلى الأقوام والمجتمعات والحضارات؛ فإنها تكتب تاريخها بهذا الشكل أيضا، فهناك مواضيع محذوفة من التاريخ، ومواضيع أخرى بارزة مضاءة، ويمكن أن يظهر مثل هذا الإبراز والإخفاء في أحداث معينة، والدراسات الحديثة بدأت تكشف مثل هذه الأمور، وربما في عصر آخر يتحول الموضوع إلى أحد الطرفين. فمثلا: كانت الحضارات القديمة في لقائها بعضها ببعض وتبادلها المعرفة كان معترفا بها فيما سبق في عهد اليونان القديم، كيف

لم يكونوا يخفون صلتهم بالحضارات الشرقية والاستفادة منها؟، كانوا يذكرون ذلك بدون غضاضة،ولا شعور بالنقص. ولكن الحضارة الحديثة التي حاولت أن تبرز نظافة نسبها الحضاريَّ ينكرون هذا الذي كان يعترف بها الأسبقون من غير أي شعور بالنقص، بينما يحس البشر الحاليون الذين ينتسبون إليها بضرورة تغييب هذه الصلة، وهذا التبادل، ويبدأ التغيير بشيء من الاستحياء، مثلما يحاول أحفاد الحروب الصليبية الاعتذار عما فعله الآباء قبل عشرة قرون. أو إصدار لرفع تهمة الهرطقة عن جاليليو بعد أربعة قرون على اتهامه بالمروق من قبل الكنيسة،أو اعتذار أمريكا عن سلوكها في دولة التشيلي قبل ثلاثين سنة، وكيف أن أسرار الدولة أو الاطلاع على الأحداث التي قامت بها، يفرج عنها بعد مدة من الزمن، ويصير الاطلاع عليها مباحا ويرفع عنها المنع من الاطلاع عليها، وكيف أن السير الذاتية الجريئة التي تتحدث أصحابها عن حياتهم الخاصة تعتبر جرأة أدبية يغبط عليها أصحابها الأقدمون؟، إن القدرة على الاعتراف يعتبر نموا في شخصية الفرد ودلالة على الرشد في مستوى الثقافة والحضارة، وأن الشخص لا يصل إلى هذا وكذلك الحضارة إلا بعد النضج،وأن يعترفوا ببشريتهم وأنهم بشر تاريخيون عاشوا مراحل تنزيه الذات أو تنزيه الآخر، وأنهم أبناء الله وأحباؤه،ولكن هؤلاء الذين ليس لهم قدرة على النضج في مرحلة معينة لا يكون هذا من ميزاتهم بل من نقصهم، لأن هذا الوضع القاصر يحول بينهم وبين التخلص من تزييف التاريخ وينزهون التاريخ الماضي والآباء فيقعون في العجز عن التخلص من النقائص التي تكون سببا في عجزهم عن التكيف، ويطول بهم زمن المعاناة والخروج من القصور إلى الرشد والوعي، ومن سبيل هذا الموضوع في الإبراز والإخفاء، من أن رجلا جاء للرسول (ص) ومعه شخص من زعماء القبائل، فعَّرف هذا الرجل رسول الله بزعيم القبيلة،وذكر من صفاته الحميدة كماً كبيراً، ولكن زعيم القبيلة رأى أن في هذا التعريف قصوراً وإخفاءً لمحامد يتميز بها ولم يذكرها المعرف، فقال زعيم القبيلة لرسول الله يا رسول الله: إن هذا الرجل يعرف مني من الصفات الحميدة أكثر من هذا ولكنه يحسدني فلم يتحدث إلا بما قاله فهنا عز على الرجل الذي عرف زعيم القبيلة هذا الموقف المغرور، فبدأ بتعريفه مرة أخرى لا بمحامده وإنما بنقائصه فذكر أشياء من مذمات هذا الزعيم فظهر للرجل أن الرسول (ص) كأنه كره هذا التقلب بالمدح والذم، فقال الرجل: يا رسول الله،والله إني صدقت في الأولى، وما كذبت في الثانية، رضيت عنه فذكرت أحسن ما أعرفه فيه، ثم سخطت عليه فذكرت أسوأ ما أعرفه فيه، فقال رسول الله: إن من البيان لسحرا، إننا في حاجة إلى نوع من البيان الساحر، لتناول تاريخنا دون أن نشعر أننا أجرمنا بحقه، ودون أن نشعر بأننا لن نكون أسوياء إلا إذا تبرّأنا من ذاتنا، وإلا فلماذا نكثر من الحديث عن السلام مع إسرائيل إلى درجة الغثيان، ولا قدرة لنا على تناول الحديث في السلام بين العرب أنفسهم، لم هذا الموضوع مستبعد عن التفكير فيه؟. لماذا لا قدرة لنا على الكشف وتناول الموضوع في أعماقه؟ وما هو الجدار المسدود الذي نصل إليه، والحد الفاصل الذي تعجز قدرات مفكرينا عن إمكانية علاجه؟ ما هو نوع الأشعة التي تكشف المخبأ في أعماقنا؟، حتى إن الذين ينتقدون الذين يسارعون إلى السلام مع إسرائيل ليس عندهم بديل حتى انهم لا يطرحون بجدية أن يكون البديل هو الدعوة إلى السلام بين العرب، لماذا السلام بين العرب مستبعد ومحير وصعب بحثه وتناوله سبب ذلك أن هناك قراراً آخر صعباً اتخذه العرب والمسلمون حين فقدوا الرشد، وهذا القرار الضمني غير المعلن عنه في معاهدة أو وثيقة أقوى وأرسخ من أي معاهدة يوقع عليها جميع الأطراف، ثم لا يكون لهذه المعاهدة أي شعور بالالتزام بها، لأن القرار الضمني الذي اتخذ منذ تاريخ طويل؛ ترسخ في أعماق الثقافة والالتزام به، هو أن تكون الاستعادة بالقوة وليس غير القوة، وسدت أمامهم كل السبل والطرق لالتزام أي معاهدة، فكل المعاهدات لا قيمة لها ولكن الذي له قيمة هو أن تملك القوة التي تمكنك من نقض العهد، فنقض العهد لا غضاضة فيه. لإزالة الغي، فهذا راسخ رسوخاً لم يتزلزل أركانه بعد، بل يتمتع بمصداقية فالذين يجيزون أن لا يكون هناك عهد في مهادنة الباطل، لا يمكن أن يكون عندهم عهد، كيف يكون للمشركين عهد؟. إلى الآن لم نتمكن من كشف خريطة التيه الذي دخلنا إليه حين أجزنا الإكراه في الدين والإكراه في السياسة، وأن لا محرم على القوة، لأن الحق هو القوة، وليس غير القوة، ومثلما الآن لا قدرة لنا على تصور إمكان معاهدة يوثق بها بين العرب، كذلك ليس عندنا قدرة على تصور العهد النبوي والراشدي الذي لم تكن فيه القوة هي الحكم الأخير، بل إن القوة والإكراه هو الذي له الصدارة في التصور ولا قدرة لنا على تصور غير ذلك، فكيف يمكن للحمل أن يعيش في عالم الذئاب؟ لهذا فسرنا النهي النبوي عن الدفاع عن النفس في عدوان المشركين على المؤمنين، بأن ذلك بسبب ضعفهم وعجزهم، لا أنهم كانوا يضعون إستراتيجية المجتمع الإنساني الذي يُصنع بدون إكراه البتة. فهل يمكن أن نتصور ذلك؟ لا. لا يمكن أن نتصور ذلك! وأنا لم أر من يمكنه أن يتصور ذلك! فمن هنا لا يمكن أن نتصور السلام بين العرب، لأن أساس السلام مفقود منذ زمن بعيد، نحن نعرف ونعرض العدوان الذي صدر من قريش على الرسول وأصحابه، وأن الرسول وأصحابه لم يدافعوا عن أنفسهم عن قصد، وأمر من الرسول والتزام صارم به بحيث لم يشذ أحد من أصحابه عن ذلك، وذهب إلى

المدينة ولم يكن معه جيش ولكن استقبله الناس المسيطرون على الحل والعقد والشعب العادي والنساء والبنات استقبلوه طلع البدر علينا، ولم يكن مارس احد من المسلمين عدواناً على معتدٍ فحين نفهم هذا، ونفسر ذلك نستطيع أن نفسر، لماذا السلام بين العرب لا يتصور إمكانه أحد!. ولكن الذي أريد أن أطرحه الآن هنا فكما لا يمكن أن يكون سلام بين العرب، لا يمكن أن يكون في العالم العربي ديمقراطية! لماذا هذا؟ في العلاقة بين السلام والديمقراطية لأن الديمقراطية أيضاً قبول بالحل السلمي للسياسة لأن الديمقراطية لا تدخل بلداً يكون فيه من يمكنه أن يتصور إمكان صنع السياسة بالإكراه، فهل يمكن أن نفكر في هذا؟ أنا اعتقد ذلك.

17. لماذا اللاعنف؟

عام 1965 في ظروف معينة أعلنت في المسجد في يوم جمعة في رمضان أنني على مذهب أبن آدم (لأن بسطت إلي يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك إني أخاف الله رب العالمين) وإثر ذلك حدثت أحداث ولكن أحداً لم يهتم بموقف ابن آدم وخشيت أن أضيع بين النفوس المهتاجة فبادرت إلى كتابة كتاب بعنوان (مذهب ابن آدم الأول أو مشكلة العنف في العمل الإسلامي)، في ذلك الوقت لم أجد من يطبع لي الكتاب فلم يكن في مقدور دار للنشر أن تتبنى مثل هذا الرأي. فتبرع شابان بالإنفاق عليه وأشرفا على إخراجه مطبوعاً فتنفست الصعداء أن صار هذا الكتاب وثيقة منشورة، ولكن ما قيمة مثل هذه الوثيقة الخافتة التي لم يسمع بها أحد بل وكثير من أصدقائي المخلصين أنكروا على أن أكتب في هذا الموضوع. إن لهذا الكتاب قصص عجيبة من ردود الأفعال بدأً ممن اعتبرني خادماً للقوى المعادية للإسلام في العالم وانتهاءً إلى شيوخ أجلاء لم يعتبروا الكتاب خطأً ولا معارضاً للإسلام ولكن ليس هذا هو المهم في ذلك الوقت على حسب تعبيرهم وثالث قال من الذين لا أشك في إخلاصهم وجرأتهم أن هذا صحيح ولكن لا يمكن أن نواجه حماس الشباب الآن بهذا. أين تولد عندي جذور هذا الكتاب؟ كنت طالبا في مصر في الأزهر حين تدافع الطلاب إلى الصف في ضحى ذلك اليوم من فترة الراحة ما بين الدروس وهم يقولون قُتِلَ النقراشي. وربما كانوا يقولون ذلك وهم مبتهجون، إلا أنني لم أشعر بالابتهاج وبشكل من الغموض شعرت بالانقباض على أن حل المشكلات ليس بهذا الأسلوب. وبعد مدة أشهر قليلة استيقظنا صبيحة يوم أُعلن فيه أن حسن البنا اغتيل وفي عام قيام الثورة المصرية كنت صباحاً في دار الكتب في شارع الخليج المصري في القاهرة لما سمعت أن انقلاباً حدث على الملك في قصر عابدين، كان موظفو المكتبة يتهامسون بذلك وكانت الأمور غامضة والمصير مجهولاً ثم تتابعت الأحداث وانقضى شهر العسل بسرعة بين الثورة التي كتب عنها في حينها سيد قطب مقالة بعنوان قوة الكلمة ويقارن بين قوة الكلمة وقوة المسدس وأن هذه الثورة نتيجة قوة الكلمة ولكن لم يكن يشعر في ذلك الوقت بأنه سيكون من ضحايا الثورة في سلسلة من المآسي التي كان يحيط بها الغموض ولا يزال الغموض قائما مع كل العبر التي مر بها العالم الإسلامي وإلى الآن. والخلاصة أنني كنت أعيش هذه الأجواء إلى أن عدت إلى سوريا وكانت سوريا في عافية من العنف والعنف المضاد. فحين أطلعت على الأوضاع وصار لي رأي خاص في الحكم على الأحداث شعرت بضرورة أن أكتب كتاب مذهب ابن آدم الأول ولم أكن لأطمع في تقبل هذا الكتاب لهذا كان من ضمن العناوين في ذاك الكتاب أن هذا الكتاب للإعلان وليس للإقناع لأني كنت أشعر أن الأجواء الملتهبة والمحيط الخشن الذي كان يسود الأوضاع ما كان ليسمح بتقبل مثل الموقف الانهزامي الذي قال لي بعضهم أننا سنميت هذه الفكرة بالإعراض عنها وبتجاهلها وكنت أتمنى أن لا تتكرر المآسي التي عشتها في القاهرة مرة أخرى في دمشق ولكن كما قال الآخر واستشهد به الأمام علي رضي الله عنه في وضع مشابه (أمرتهم أمري بمنعرج اللوى فلم يستبينوا النصح إلا ضحى الغد) لم يكن لمثل هذا الصوت الخافت الذي أدعو إليه أن بلفت انتباه الناس إلى هذا الموضوع وينظروا إليه بشكل إيجابي. إن الغرام السقيم بالقوة لم تكن لتسمع إلى هذه الأصوات التي وصفتها جريدة المستقلة التي هي أمثلهم طريقة منذ قريب بأن هذا الاتجاه ضد التيار، نعم إنه ضد التيار مع كل الاحترام الذي نكنه للحامدي الهاشمي الذي يصدر المستقلة في لندن وله مواقفه الداعية بقوة إلى فك الاشتباك وإمكانية التواصل. إن التاريخ يتقدم إلى هذا بتسارع بطئ راسخ. وأنا حين أعلنت مذهب ابن آدم لم أعلنه تحت عنوان اللاعنف

حيث يحيط الغموض عند المسلمين بدعوات اللاعنف. كيف يدعوا داع إلى اللاعنف والقرآن ملئ بالحث على القتال والقتل، ما هذا اللاعنف المقيت ويقول لي أحدهم: أريد دخول الجنة شاهراً سيفي. والأحاديث التي ترغب في الجهاد، كل هذا سد منافذ الفهم عند المسلمين، حين ظنوا كل قتل يقوم به المسلم "قتل نفس بحق" فكل ذبح يقوم به المسلم حلال. لم يعد يفكر المسلمون في الأساس الذي بني عليه الإسلام وينسون الفرق بين الجهاد والجريمة ولا يذكرون أبداً أن للجهاد شروطا بدونها يتحول القتل والقتال والجهاد إلى سفك للدماء التي حرمها الله وهذا قرين التوحيد(والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق) وينسى المسلمون الخوارج، فكما في كتب الحديث أبواب الجهاد وفضل الجهاد كذلك في كتب الحديث أبواب الفتن. والخوارج الذين لا ينقصهم الإخلاص لله في الصلاة والصيام ويصفهم الرسول أنهم على حالة من العبادة والخشوع بحيث أحدكم يحقر صلاته مع صلاته وصيامه مع صيامه ويمرقون من الدين كما تمرق السهم من الرمية. هذا كله تجاهله المسلمون بإجماع عجيب حتى الذي يؤمن به لا يجرؤ على الجهر به من كثرة سيطرة الغطرسة والاستكبار، وأنهم أبناء الله وأحبائه لا بد من التعاطف معهم، ليس هذا فقط بل الأحاديث والآيات القرآنية التي تتحدث عن هذه المواضيع غيبت ونسخت وصار تجاوزها سهلا يسيرا لأن التيار يتجاهل هذا ولا يعرف المسلمون أن الرسول (ص) أمر بالتخلص من السلاح حين يفقد شروطه. لم أر من فكر من المسلمين بجدية في المقارنة بين قول الرسول (ص) أن الله يدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة، صانعه ومنبله والرامي به، وهذا تمجيد للسلاح لا شك فيه، ولكن ينبغي أن نفهم هذا في ضوء الحديث الآخر الذي أمر فيه بكسر القوس وقطع وتره وضرب السيف بالحجارة وإتلافه وأن يلزم الإنسان بيته وإن دخل الذي يريد القتل عليه في بيته أن يكون مثل ابن آدم الذي قال: لإن بسطت إلي يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك إني أخاف الله رب العالمين. ولم يقف عند هذا بل قال الرسول (ص) لصاحبه الذي تحدث إليه بهذا فإن خشيت أن يبهرك شعاع السيف فألق ثوبك على وجهك يبؤ بإثمك وإثمه. إن الرسول (ص) لم يكن متناقضا في تقديس السلاح وكل أدوات القتال وكذلك لم يكن متناقضا حين أمر بكسر القوس وقطع وتره وضرب السيف بالحجارة والتزام مذهب ابن آدم والتزام بيته وإن دخل عليه المهاجم بيته أن يكون مثل ابن آدم، وإن خشي أن يبهره شعاع السيف يلقي على وجهه ثوبه. لم أر ولم أقرأ من شرح وفسر وبين حالة واحدة يكون فيها أمر الرسول (ص) صحيحا، كسر القوس وقطع الوتر والتخلص من السلاح بإتلافه. هل كان يقول هجرًا حين قال هذا!، فكأن السلاح لا يمكن أن يكون سببا للتسلط بل السلاح دائما سبيلا للتحرر فكأنه ليس هناك قتل منكر وقتل بحق وليس عند المسلمين تمييز، ولهذا غيبت هذه الأحاديث من التداول وإن كانت واردة بنفس الشروط التي وضعها المسلمون لقبول الأحاديث ولكن مثل هذا التخلص من مثل هذا التناقض وارد كثيراً أرجو أن أتمكن من عرضها وأنا حين قلت مذهب ابن آدم لم أخرجه من تخيلاتي، فقصة ابن آدم في القرآن نبأ حق سيتألق هذا النبأ عند المسلمين لما يصيرون يبحثون عن شرعية القتل ومتى يصير القتل مباحا أو جائزًا، وسيفهم المسلمون العهد الذي منع فيه الرسول (ص) من الرد على العدوان وهذا غير وارد أبداً لا عند المسلمين ولا عند غير المسلمين. العالم جميعاً يقر حق الدفاع عن النفس عند الاعتداء ما عدا الأنبياء المغفلين المجانين في رأي البعض. لأن الأنبياء هم وحدهم الذين قالوا بإجماع غريب، ولنصبرن على ما آذيتمونا. ولهذا السبب أيضا قالت كل الأقوام بأن الرسل والأنبياء مجانين كذلك ما آتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون. إنها وصية مستمرة ونحن نغيب هذه الأحاديث والآيات لأنها لا تليق بالرسول، إن ما استخففنا به طويلا سيعود هو الخلاص وعيسى عليه السلام يقول في الإنجيل، الحجر الذي رفضه البناءون سيصير حجر الزاوية.

18. اللاعنف هو اللاإكراه

اللاعنف هو اللاإكراه وهو الرشد وهو الديمقراطية.

كلمة الـ"لاإكراه" كلمة قرآنية وكذلك الرشد كلمة قرآنية مهما كان متألقاً أو باهتاً في المعنى المراد بدقة ولكن كلمة اللاعنف وكلمة الديمقراطية كلمات حضارية أو عصرية معاصرة مهما كان موغلاً في القدم إلا أن كلمة الديمقراطية كأي معنى يرمز له برمز فإن المعنى قابل للزيادة لأن نظام الكون كله

يزداد يتوسع ويتعمق وإلى الأحسن والأنفع لأن الكون كله يحكمه قانون (الزبد يذهب جفاءً وما ينفع الناس يمكث في الأرض) والنسخ دائماً يكون للأكثر نفعاً والأدوم زمناً والأقل كلفة لأن قانون الزبد يمكن التعبير عنه بأسلوب آخر حسب المصطلحات القرآنية "الخير والأبقى" ما دام هو أكثر نفعاً أو أكثر خيراً وأدوم زمناً فهو الذي سيبقى ويمكث في الأرض والأخر يذهب وهو جفاء وينسخ لأن قانون (ما ننسخ من آية أو ننسها نأتي بخير منها أو مثلها) إذا كان الأكثر خيراً فهو حتماً سينسخ الأقل خيراً ونفعاً ولكن المماثل له حق البقاء. والخيار بينهما يرجع إلى الأذواق وإذا كانت كلمة الديمقراطية يتطور معناها رسوخاً في العمق وامتداداً في السعة فإنها كذلك زيادة في النفع والخير ويمكن أن تساعدنا الكلمات الثلاثة الأخرى في إضاءة معنى الديمقراطية كيف ولدت وتطورت وكيف لا يزال لها مستقبل في التطور في النفع الأعم والأوسع والأعمق فإذا كانت كلمتا الـ"لاإكراه" و"الرشد" كلمات قرآنية راسخة إلا أن كلمة العنف واللاعنف لها رسوخ في ما نقل عن الرسول (ص) من "أن العنف ما كان في شيء إلا شانه ومن أن الرفق ما كان في شيء إلا زانه وإن الله ليعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف" وبهذا الاستخدام للعنف وتعميم أنه شائن في كل شيء وأن عكسه الرفق مزن لكل شيء يتصل به فعلى هذا الأساس نفى العنف ونفى الإكراه وإثبات الرشد معاني قرآنية وإسلامية وراسخة كالطود يتحدى الزمان والمكان التاريخ والجغرافيا. وهذا الربط بين هذه الكلمات وربط معانيها بالإنسان وطبيعة الإنسان ومن أن استخراج أفضل ما بالإنسان يكون باللاإكراه باللاعنف وبالرشد لهذا يمكن أن نربط إلى هذه الكلمات الأربع الكلمة الخامسة التي عبر عنها ابن آدم في موقفه من أخيه الذي لجأ إلى العنف بموقفه الرافض للدخول إلى مواجهة العنف بالعنف فكأن لسان حاله يقول أنا خلق آخر أنا قابل للفهم والتفهيم وقابل للرؤية عواقب السلوك فإنه لما قال لأخيه العنيف (لئن بسطت إلي يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي لأقتلك) كأنه بموقفه هذا يرد على تهمة الملائكة بان الانسان ليس مستأهلاً لأن يستخلف في الأرض لأنه مفسد فيها وسافك للدماء فهو رفض الفساد وسفك الدماء فكأنه رفض المواجه بالعضلات وما ناب عنها مهما صغر أو كبر إنه يقول أنا خرجت من ملة شريعة الغاب التي تحل فيها المشكلات بالعنف ودخلت إلى شريعة الإنسان التي يختار بها الإنسان الأسلوب الأنفع والحل بدون خسائر وكأنه يقول أبن آدم لأخيه: يمكن أن تقتلني ولكن لا يمكن أن تجعل مني قاتلاً. وينبغي أن نفهم منه شيئاً أعمق أيضاً وهو يريد أن يجعل موته الذي هو لا محال قادم موتاً يساعد أخاه على أن يخرج من العنف ويكشف أنه ما كان في شيء إلا شانه وهو ما حدث فعلاً لأن خرافة الدفاع عن النفس لا يجعل العنيف نادماً وخاسراً بل يشعر انه أفهم وأقوى وأولى بالبقاء هذا حين يدافع عن نفسه أما حين لا يدخل في هذه اللعبة فسيشعر القاتل أو العنيف أنه وحده في الميدان وأنه ليس هناك منافس على له على العنف وهذا غامض في ثقافتنا وبعيد إدراكه وهذا الذي جعل الأنبياء في موقف الجنون واللاعقل والسحر ولكن تطور جنون العنف جعل جنون الرفق المرفوض قابلاً للفهم في هذا العصر الذي لم يعد يستطيع فيه الكبار الدخول إلى تبادل العنف وإذا دخل الصغار إلى العنف يحوله الكبار غير الراشدين الذين لا يتعاونون على الخير وإنما يتعاونون على الإثم فهذا اللامفكر فيه واللامعلن صار واقعاً عملياً وإن كان الناس لا يتحدثون عنه إلا لماماً وبشكل خجول وكأنه كشف الإنسان خطيئته ولكن ليست له الجرأة الكافية للاعتراف علنناً به ولكن لماذا نحن لا نعلن عن وفاة العنف وكيف أنه تفسخ وصار منتناً وقبيحاً ومرفوضاً رفضاً كلياً إن اللاإكراه والرشد واللاعنف بدأت تضرب أطنابها يتحقق علم الله في الإنسان الذي لم تستطع الملائكة أن تعلم مستقبل الإنسان ولا الجن أمكنهم أن يدركوا ذلك بل ترددوا وقالوا (وأنا لا ندري أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا) نعم باللاإكراه وباللاعنف "تبين الرشد من الغي" هذه هي كلمات القرآن ومثلهم في الإنجيل "من كان له أذنان للسمع فليسمع".

ولكن ما شأن الديمقراطية وهل لها صلة باللاعنف واللاإكراه والرشد وموقف ابن آدم في رفض الدخول في العنف وأنا هنا أشعر بامتعاض القارئ الذي لا يرى حلاً للمشكلات إلا بالعنف وانسداد الطرق الأخرى والحلول الأخرى التي لا يمكن أن يتصورها ولكن سأظل أقول له إن انحصار فهم العرب والمسلمين في البقاء في الحالة المنسوخة وعدم قدرتهم على فهم الوسائل والسبل الأخرى الأقرب والأسهل والأربح أنا لا أتحدث عن اللاعنف واللاإكراه والرشد والديمقراطية التي عند الآخرين ولكن حديثي كله أن يكون بين العرب لاعنف ولاإكراه ورشد وديمقراطية أريد فقط أن نولي وجوهنا إلى واقعنا العربي الإسلامي والمستضعفين في الأرض أن نصنع السلام فيما بيننا قبل أن نفكر في صنع السلام مع الذين نسميهم أعدائنا لماذا لا نتحدث بجدية

عن هذا الموضوع المشكلة ليست عند الاستعمار ولا الشيطان ولا إسرائيل ولا أمريكة المشكلة عندنا لا بل المشكلة عندي أنا بالذات الذي ينبغي أن أعلن كما أعلن القرآن (وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا) (وقل جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد) (بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل بما تصفون) وكما أعلن يحيى عليه السلام في الإنجيل "صوت صارخ في البرية ملكوت الله قادم هيئوا دروب الرب اجعلوا سبله مستقيمة لقد وضع الفأس في جذع الشجرةِ فكل شجرةٍ لا تعطي ثمراً تقطع وتقذف بها في النار" والله حين يقول في القرآن (أتى أمر الله فلا تستعجلوه سبحانه وتعالى عما يشركون) أتى علم الله في الإنسان فمن لم يصدق فليستخدم القنبلة النووية لن يتمكن أحد من استخدامها لقد استخدمت مرة واحدة ثم ماتت ومهما كانت جثته منتفخة يخيل إليهم أنها حية وباكستان والهند يمثلان خرشوف وكنيدي في كوبا كيف تراجعوا وكذلك ما يحدث الآن في كشمير على كل حال فمن لم يصدق ما أقوله فليستخدم القنبلة الذرية أو الهيدروجينية أوالنترونية أو أو... إلخ أو فليعد حرب الخليج الأولى التي استمرت ثماني سنوات عجاف لم يستفد إلا الذين نقول عنهم أعداؤنا وكان كيسنجر يقول: لمن قال ينبغي أن لا تكسب إيران الحرب يقول لا بل ينبغي أن يخسر الطرفان ولا يكون فيهم منتصر وقد كان. وإن كان في هذه الحرب من فائدة واعتبار فهي أن لا نعيدها ومن لم يكتفي بالحرب العالمية الإسلامية الأولى التي هي حرب الخليج الأولى فيعد الحرب العالمية العربية الثانية الحرب الخليجية الثانية ومن لم يصدق ويستفد من أن الحروب لا تفعل شيء إلا الخسران للأطراف جميعاً ومن لم يصدق فل يفعل مثلما يفعل الجزائر وكما يفعل الأفغان. يا ناس يا عالم يا بشر الله لا يريد ذبائح لا تفتروا على الله.

اصنع السلام مع أخيك. مَن مِن العرب سيقول لأخيه لإن بسط إلي يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك وبذلك يكون قد قطع تسلسل العنف لأن الذي يمتنع عن الدفاع عن نفسه بالعنف سوف لن يكون أداة لأحد لا للقديم المغزو ولا للجديد الغازي فحين نكون مثل ابن آدم نكون قد حللنا المشكلة العربية وأخيراً ولن يكون أخيراً إذ سأعيد أتشبث بالسلام بين العرب أولاً وليس مع إسرائيل المنديل الأحمر الذي يحمله مصارع الثيران وهل أستطيع أن أختم مقالي هذا بالكشف أو البوح بسر أن الديمقراطية هو اللاعنف وهو اللاإكراه حيث لن تدخل الديمقراطية إلى قوم يؤمنون بأن العنف يحل المشكلات السياسية لا بد من دخول جميع الفرقاء في البلد الذي يمكن أن تولد فيه الديمقراطية إلى مذهب اللاعنف واللاإكراه من كان له أذنان للسمع فليسمع إن في ذلك ذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

قراءة إلهية وقراءة بشرية للقرآن

زارني مرة إنسان طيب مؤمن فلما تناول الطعام قال: سبحان الذي قسم الأرزاق. فقلت له: أظن أننا نفهم خطأً قسمة الأرزاق. فقال: ألم يقل رسول الله (ص) أنه إذا اجتمع ابن آدم في رحم أمه يكون علقة أربعين يوما ومضغة أربعين وبعد ذلك يأمر الله فينفخ الروح، وتكتب أربع كلمات، رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد؟ قلت له: جزاك الله خيرا، أنت تذكر حديث رسول الله (ص) جيدا ولكن أريد أن أسألك، هل هذا الملَك الذي يأمره الله بكتابة رزق الجنين يذهب إلى نساء المسلمين فقط، أم يذهب إلى نساء غير المسلمين؟ فوجئ الرجل بالسؤال، وبعد تفكير قصير، قال: ينبغي أن يذهب هناك أيضا ويكتب. فقلت له: لماذا إذا يذهب هذا الملك إلى اليابانيين أو الألمان، ويكتب لهم رزقا موسعا وأجلا طويلا وأن يعيشوا بأمن من غير رعب، حسب الإحصاءات العالمية، وإذا جاء هذا الملك إلى أرواح المسلمين، يكتب أرزاقهم مقترة وأعمارهم مبتورة وأن يعيشوا في رعب من غير أمن. يا أخي الكريم! هذا قانون الله، وعلينا أن نتذكر قانونه وسنته التي لا تتغير ولا تتبدل. والرسول (ص) يقول في حديث قدسي طويل: "يا عبادي، إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها من وجد خيرا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه". كان الناس يهلكون بالأمراض ويعيشون معلولين، وكان الوباء يأتي ويحصد الناس، لأنهم كانوا يجهلون أسباب هذه العلل. بل كان ينقل إليك المرض من يحبك وهو يقبّلك من غير أن يشعر، ويبكي عليك حين تموت أيضا. ولكن لما علم الناس أسباب الأمراض وكشفوا الجراثيم التي لا يمكن رؤيتها بالعين المجردة، كشفوا سننها واستطاعوا أن يقضوا على

كثير منها، بل أعطوا الإنسان مناعة، بحيث إذا جاء الوباء الآن لا يتأثر الناس. من هنا نفهم أن البشر إذا تغير ما بأنفسهم يتغير ما بهم من النعم والنقم. بالعلم يتمتعون بنعم الله، وبالجهل يشقون.

ونقرأ قوله تعالى: "قل الله مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير". في هذه الآية لا يُذكر إلا عمل الله وفعل الله، وأنه هو وحده الذي يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء، ولكن في العالم الذي نعيش توجد مجتمعات تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء. وهناك مجتمعات لا قدرة لها على فعل شيء.

علينا أن نرتفع لفهم كتاب الله. علينا أن نكشف أنه من عند الله، وأنه نور وأنه يهدي لصلاح المعاش والمعاد. وأنا أريد أن ألقي شعاعا –مهما كان باهتا– على جانب من كتاب الله. فنحن يمكن أن نقرأ الكتاب الكريم على وجهين. مرة على أن أحداث التاريخ فاعلها الله ومرة أخرى على أن فاعلها الإنسان. لقد شغلني هذا الموضوع حقبة من الدهر حتى شعرت بضرورة بحثه، فألفت كتاب بعنوان "حتى يغيروا ما بأنفسهم". وآية "إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم" يمكن أن نعتبرها آية مفتاحية لفهم كتاب الله تعالى. وهي وردت مرتين في القرآن. مرة في سورة الرعد، ومرة في سورة الأنفال. وهناك آية تكرر نفس المعنى: "ذلك أن الله لم يكن مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم". أشعر أنه علينا أن نعيد القول ونكرره، فقد اختلط الموضوع، وسُلب من الناس إمكانية التفكير في أبعاد هاتين الآيتين. في كل آية تغييران، ولكل تغيير فاعلان، ومفعولان. فاعل التغييرين الأولين هو الله تعالى، وفاعل التغييرين الأخيرين هم البشر. ولكن المفعولين للتغييرين الأوليين جاءا مرة بكلمة "ما بقوم" ومرة بكلمة "نعمة". وكلمة "ما" أعم لأنها تشمل النعم والنقم، وهي لا نهائية في تعدادها. ومفعول التغييرين الأخيرين يتعلق بما بالأنفس، وهذا وظيفة البشر، لأن الله لا يغير نعمة ونقمة حتى يغير الأقوام ما بأنفسهم.

19. الإيمان والإسلام والشريعة

يقال عن الدين أنه يشمل الاعتقادات والعبادات والمعاملات وكتب الفقه مبنيةً على هذا الأساس، واعتبار العقائد على انه الفقه الأكبر هو الإيمان والتوحيد، وأنا أريد أن أتناول هذا الموضوع أو هذه المباحث من زاوية ما لعلها تساعد فهم أشياء في العمق، ويمكن أن نقول بإيجاز أن: العقائد تحصل بالاقتناع، وان العبادات تتحقق بالاتباع، وأما المعاملات فشريعة الله هو العدل. هذا الذي يقال عنه أركان الإيمان أن تؤمن بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر.

وأركان الإسلام الشهادة بالوحدانية لله والصلاة والزكاة والصيام والحج. وأما شريعة الله والمعاملات فالأصل فيه وركنه الأعمق هو العدل بين الناس (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل). فهذه الأقسام الثلاثة إذا فهمناها بوضوح يساعد ذلك على تحقيق الأمن في الحياة الإنسانية، لان العقائد بالإقناع ولا إكراه فيها فللناس الحق في أن يعتقدوا ما يشاءون إيمانا وكفراً لان العقائد أمور قلبية وتصورات فكرية ولا عقاب على الكفر في الدنيا. ولا يمنع الانسان من الكفر بالقوة لان الإيمان لا يتحقق بالإكراه ولا عقوبة على الكفر بالله واليوم الآخر في الدنيا، وللإنسان الذي يقبل العدل بين الناس وينبذ الإكراه في الدين فهذا له البر والقسط، وأي فتح ثغرات في هذا الموضوع وسن شرائع وعقوبات دنيوية ينتج عنه فساد في الأرض وسفك للدماء، ولهذا يخاف الناس من كلمة الكفر وتعتبر سباً أو تهديداً مبطناً، فإذا فهمنا أن الكفر له حق أن يعيش ما لم يحاول أن يفرض كقوة بالإكراه بالقتل والتهجير، فكما الكفر له حق أن يعيش كذلك الإيمان له حق أن يعيش لكن ذلك بشرط أن لا يحاول فرض إيمانه بالإكراه فلا يقبل منه. إذَن للكفر والإيمان حق أن يتعايشا ما لم يلجآ كلاهما إلى فرض عقائدهما بالقتل والتهجير (أي بالإكراه). وسيحكم بينهما قانون الزبد فسيبقى ما ينفع الناس من العقائد ويذهب جفاءً ما يكون غثاءً من العقائد فهذا هو العدل وكلمة السواء، ولكن أهل الإيمان ضيعوا هذا الأصل

فنتج عنه فسادٌ كبير ولكن علم الله في الانسان سيتحقق وسيضطر الناس إلى إعطاء الحق للكفر بالبقاء، والشيء الوحيد الذي يمارس فيه الإكراه هو منع الناس من إكراه بعضهم على بعض في الدين وهذا بشرط أن تصنع مجتمع اللااكراه فإذا تحقق مجتمع اللااكراه الذي تتعايش فيه كل العقائد فلهذا المجتمع مساعدة المجتمعات الأخرى التي يمارس الإكراه عليها فان لم يمكن رفع الإكراه عنهم بغير إكراه فهذا هو الإكراه الجائز الذي هو الجهاد أو الحرب المشروعة وبدون هذا الشرط لا تكون الحرب جهاداً وإنما بغياً وعدواناً وطغياناً وفرض لعبادة البشر بعضهم بعض. وحتى بعد الانتصار عليهم في الحرب لهم حق أن يبقوا كفاراً جهاراً ونهاراً حيث الكفر لا يزال بالإكراه كما لا يزال الإيمان باالاكراه. ويمكن أن نقول إن القرآن يضع للحرب الشرعية شرطان شرط في المجاهِد وشرط في المجاهَد ضده، وما لم يتحقق هذان الشرطان فشريعة غاب وليس شريعة عدل ولا شريعة إنسان، أما شرط المجاهِد فهو أن يكون صنع مجتمع اللااكراه وأمة اللااكراه أي المجتمع الذي يتمتع فيه الناس بحق اتباع أي عقيدة شاء الإنسان، أما إن خرج الإنسان عن قبول اللااكراه في الدين وبدأ يمارس الإكراه العملي وليس الإقناع فهذا الذي خرج من ملة الأنبياء وملة إبراهيم ودخل في ملة أعداء الأنبياء وملة آزر الذين لا يقبلون أن يعيش معهم من ليس على اعتقادهم، حيث قال جميع الأقوام الذين عارضوا الرسل (وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من قريتنا أو لتعودن في ملتنا) وجواب النبيين (قد افترينا على الله كذبا إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها) فهذا شرط المجتمع الذي يمكن أن يمارس الحرب الشرعية. أما الشرط الذي يرجع إلى المجاهَد ضده فهو الذي يمارس القتل والتهجير للذين ليسوا على ملتهم فمن فعل هذا يكون من حق مجتمع اللااكراه ومجتمع تعدد الأديان والحكم بينهم بالقسط، فهذا المجتمع هو الذي يجوز له أو تجب عليه الحرب ضد الذين يقتلون الناس ويهجرونهم من ديارهم لأديانهم وأفكارهم والكافر الذي لا يَقتُلُ ولا يُهَجِرُ ويقبلُ السلم والعدل في المجتمع يكون حمى نفسه وماله في مجتمع الأنبياء، وليس لأحد حق في إيذائه أو العدوان عليه والقضاء هو الذي يعطي للمجتمع العدل، فهذا فهمه يسير وهو العدل. وإلا لا يكون لك أيها المؤمن الحق في إنكار القتل والتهجير لأجل الأفكار إن كنت أنت تمارس القتل والتهجير (فان القوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا)و(لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين) والمخاطب هنا هو أمة الرشد ولكن العالم الإسلامي الآن يلتف على هذا الموضوع فيجعل من الكفر سبباً للعدوان بل حين يقال عن أحد انه كفر فكأنه قال انه ينبغي أن يقتل، فمجتمعنا مؤمنه وكافره لا يؤمنون بحق المخالفة في الاعتقاد فهذا بدل أن يقولوا "يقتل" يقال كفر هذا عند المتدينين لمن خالفهم في الرأي والاعتقاد أما معارضوا أهل الدين من القوميين والعلمانيين وسائر أصناف الناس فان المخالف لهم في الرأي عميل للأعداء، أي معناه أيضا عندهم يقتل لأنه خائن ومع الأعداء فلهذا كلمة الكفر عند المتدينين وكلمة العميل عند العلمانيين للمخالف لهم في الرأي، فعندما تحاسب الناس على أفكارهم ولا تصدر عقوبة الإعدام عليهم لا يعود كلمة الكفر والعمالة مرعباً لان المخالفة في الرأي لا عقوبة عليها. لكن متى نصير مُقتدرين على تفهم هذه المواضيع؟ فحتى ذلك الحين سيكون خوفنا من بعضنا مسلمين مع مسلمين وقوميين عرب مع قوميين عرب اشد من خوفنا من الذين نقول عنهم أعدائنا الإمبرياليين أو الكافرين أو ... الخ. وما دامت الأمور ملتبسة في هذه المواضيع فلا مخرج لنا من المهانة. ويمكن أن نعيد حربي الخليج ولا تكون لدينا قدرة على كشف أخطائنا لأننا لا نكون غيرنا ما بأنفسنا فلابد لنا من تكرار هذا القول حتى يتبين الرشد من الغي وحتى يتبين الفهم من القهر والعلم من الجهل والإيمان من النفاق. فهذا مسألة العقيدة التي هي أساس الدين وأرضه الذي ينبت فيه فما لم يكن الأساس متيناً ومبيناً فكل ما يبنى عليه فاسد فلهذا كل أعمالنا محبطة وخاسرة ومن لم يقتنع فليعد حرب الخليج. هذا في الاعتقادات.

أما العبادات فبالإتباع فلهذا قال الرسول صلوا كما رأيتموني أصلي وخذوا عني مناسككم وهكذا الصيام وليعبد كل ربه بما يعتقد أنه عبد به الرسول ربه وأمر به فإن كان الإكراه في الإيمان فلا إكراه في العبادة.

أما الشريعة التي هي المعاملات بين العباد في الأنفس والأموال والعلاقات الاجتماعية في السلم والحرب في الزواج والطلاق والحقوق والواجبات فشريعة الله العدل بين الناس. هذا هو لب العلاقات البشرية.

العدل بين الناس وليس بين المؤمنين فقط (وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله يأمر بالعدل والإحسان) في العلاقات بين الناس. لكن القاضي والحاكم بين الناس عليه أن يحكم بالعدل وليس له أن يحسن، إحسانه في الحكم هو أن يعدل، لكن الناس في تعاملهم مع بعض فالإحسان هو الأفضل لأن العدل هو التساوي والظلم هو أخذ ما ليس لك والإحسان أن تعطي أكثر مما يجب عليك والإحسان هو الذي يحول العدو إلى ولي حميم (ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها الا ذو حظ عظيم) هذا الذي يندب الله إليه عباده.

الظلم ظلمات والجملة التي قبل آية الكرسي (والكافرون هم الظالمون).

والعدل به قامت السماوات والأرض ومجتمع السواء هو مجتمع العدل أما مجتمع الإحسان فهذا لا يلقاها الا الذين صبروا وما يلقاها الا ذو حظ عظيم.

ولكن إذا اختلفنا في ما هو العدل؟ فكيف يكون الحل بين المختلفين؟ هذا ما نسعى لبيانه!!!.

20. ميلاد المجتمع النبوي (المدني) والديمقراطي

ما هذا العنوان؟ وماذا أقصد به؟ وكيف سأوصل ما أريد إلى القارئ؟، العالم الإسلامي عالم ممزق، كيف نجمع هذا العالم؟ وكيف نكشف عوامل تمزقه؟ بحسب تصوري عامل تمزقه إيمانه بان العنف هو الذي يحل المشكلات، ولا يحتاج لحل المشكلات وإزالة التمزق الا أن يكون قوياً فيزيل بالعنف عوامل التمزق. هذا المرض وهذا التصور هو الذي يحول بين المسلمين وبين حل مشاكلهم، ولكن كيف سأضعه تحت المجهر؟ وكيف سأبين بوضوح بيّن واضح أن العنف لا يحل المشكلات؟. فهو لم يحل المشكلات في الماضي ولن يحل في المستقبل لان البشر ليس من طبيعتهم حل المشكلات بالعنف وإنما بالفكر والإقناع بالعدل والإحسان ومن طرف واحد، والالتزام به سيحل المشكلات بدون عنف واكبر تغيير حدث ويحدث في العالم هو حل المشكلات بالعدل وبدون عنف وهذا ينبغي أن يتم بالإقناع وليس بالإكراه والعنف، وما دمنا نحمل شكاً وما دمنا لا يمكن أن نفهم هذا الموضوع، لن ندخل إلى السلام ولن يدخل السلام فيما بين البشر وكل الذين يدخلون إلى السلام يدخلون بدون عنف وبقبول العدل وهذا يحدث بفهم الإنسان الفرد ثم يوصل هذا الإنسان الفرد هذا الفكر إلى الآخرين فيكون مجتمع اللاعنف ومجتمع اللاكراه وينبغي أن يتكون هذا المجتمع بدون إكراه وينبغي أن يساعد المجتمعات الأخرى لأن يدخلوا إلى مجتمع اللاكراه حتى يزول الإكراه من العالم الإنساني.

وربما يساعدني على تفهم هذا الموضوع حدثان 1-الحدث النبوي وخاصة الحدث الإسلامي الذي قاده محمد(ص) 2- الحدث الديمقراطي الذي استحدثه العالم الغربي والحضارة الغربية.

ولكن ينبغي أن نوضح نقاط التلاقي ونقاط الاشتباه في هذين الحدثين. أظن انه ليس من الصعب أن نفهم أن الحدث الديمقراطي لا يمكن أن يحدث الا بترك العنف من جميع الفرقاء للوصول إلى صنع المجتمع الديمقراطي أظن أن هذا واضح ويمكن فهمه حسب تصوري، فإذا لم استطع أن اقرب هذا إلى الفهم فهو يرجع اليّ أنا لأني لا قدرة لي على شرح الواقع الذي نراه أمامنا. هل يمكن أن يكون هذا مثل الشمس في الوضوح والخفاء؟ إنها واضحة أمامنا هذه الشمس الساطعة مصدر الضياء ولكن هي خفية، كانت خفية في حركتها لأننا نحن البشر أخطأنا جميعاً في فهم حركتها.
والديمقراطية هي كالشمس أمامنا ولكن لا قدرة لنا على فهم حركتها ووجودها ومسيرتها. لا بد من الفهم بان الظاهرة الديمقراطية لن تحدث الا بترك العنف والتخلي عن العنف من قبل الفرقاء كلهم في المجتمع ليتكون مجتمع اللاعنف في صنع الحكم بل صنع المجتمع الذي يفرز مؤسساته السياسة بدون عنف وبدون إكراه ولكن الديمقراطية مع وضوحها فيها جوانب خفية. الديمقراطية ولدت من العنف حين وصل العنف إلى انه خسران مبين وعذاب

أليم، حتى حين ذكر توينبي هذا الموضوع اللاعنف والتسامح كيف تكوَّن لينتج عنه الديمقراطية بعد أن شعر الملوك أن الحروب الدينية لم تعد مربحة وإنما مستنفذة للطاقة ومؤدية إلى الخسران والعذاب اضطروا أن يتخلصوا من التعصب الديني الذي يؤدي إلى الحرب فصاروا يبشرون بالتسامح وان لا يتقاتلوا من اجل الدين ولكن لا ينسى توينبي أن يعلق على هذا التعليق الساخر على أن هذا التوجه كان نتيجة للتخلي عن الدين لا انه اقتراب من الدين فمن هنا كان هذا الحل نتيجة عن ابتعادهم عن الدين لا باقترابهم له فهم دخلوا إلى اللاعنف الذي هو لب دعوة المسيح ولكن كان ذلك تخلياً عن المسيح لا إحياءً لدعوة المسيح، ولاختلاط هذا الموضوع حين تخلوا عن العنف الديني برز العنف القومي الشيطان الأكبر، ولكن هم تخلوا عن العنف الديني كأن المسيح كان عنيفاً وتخلوا عنه، ولكن الآن يتخلون عن العنف القومي فتحدث الوحدة الأوربية بدون عنف وبالإقناع وينبغي أن لا ننسى أن التسامح واللاعنف ولد في رحم العنف الثوري الملتهب إن الثورة الفرنسية وبقية الثورات ولدت من أتون العنف والدماء فلهذا لا نتمكن من فهم أن الديمقراطية هي اللاعنف وحلت اصعب المشكلات باللا عنف وبالاقتراع وتقديس هذا اللا عنف وهذا الاقتراع الذي به نتبين الإقناع وان الحل يكون بإقناع الناس بأدوات الإقناع لا بأدوات الإكراه بان يعبر الناس عن قناعاتهم لا أن يفرض عليهم القناعات فلهذا لا قدرة لنا أن نفهم بوضوح كيف ولدت الديمقراطية لأنها ولدت من رحم العنف لهذا إلى الآن لا نفهم أن الديمقراطية لا عنف، والسبب انه ولد من العنف وربما يمكن أن نقول أيضا انهم لا يريدون نشر الديمقراطية، بل مع تخليهم عن العنف في المجتمع الديمقراطي، الا أن تصدير هذه البضاعة ليس من أهدافهم ولا يزالون يمارسون العنف وبمجرد أن يخرج الأمر من مجتمعهم الداخلي يكون تعاملهم مع الآخرين بالعنف فهذا يجعل الديمقراطية عسيرة التكون.

أما الحَدَثُ النبوي لم يكن تبنيهم لـ اللاعنف نتيجة مللهم من العنف وإنما نتيجة فهم طبيعة الانسان من أن افضل استخدام للانسان واستخراج افضل ما فيه لا يكون بالعنف والإكراه وإنما بالإقناع، لهذا كان بدء حركة النبوة كلها باللاإكراه وباللاعنف وبالامتناع عن العنف بحيث لا يقبل أن يمارس العنف ولو أكره بالعنف أي لا يكون أداة للعنف هو مُكْرَهٌ ولا أداة للإكراه لمن يريد أن يستخدمه ليمارس العنف ولا يدافع عن نفسه إذا مورس معه العنف يريدون الخروج من ملة الإكراه كلياً ويقولون {قد افترينا على الله كذباً إن عدنا في ملتكم} ولهذا كان خاتم النبيين وممثل الأنبياء جميعاً بوضوح بليغ انه بدأ من الصفر في مجتمع الإكراه بالامتناع عن الإكراه وعن العنف وعن الدخول إلى ملة العنف وإنما دعا الناس إلى الخروج من ملة العنف والإكراه لصنع مجتمع اللاإكراه واللاعنف والإقناع وصبر إلى أن صنع المجتمع مجتمع اللاإكراه بدون إكراه وبدون دفاع عن النفس كان القرآن يتنزل عليهم بالصبر على الأذى من غير رد الأذى بالأذى في القرآن على لسان الأنبياء جميعاً {و لنصبرن على ما آذيتمونا} حتى نصنع مجتمع اللاإكراه فإذا وجد مجتمع اللاإكراه ورآه الناس واقعاً عملياً فانه هو وحده يكون الذي جاء بالشرعية وهو الذي له الحق أن يقول إن استطعت أن تصنع مجتمع اللا عنف بالإقناع تكون صرت معنا وان حاولت أن تزيل مجتمع الإقناع بالإكراه وان تزيل مجتمع اللاإكراه واللاعنف ومجتمع الإقناع بالإكراه والعنف فَحُقَّ لهذا المجتمع الدفاع عن نفسه وليس هذا فقط بل واجب عليه أن يزيل طواغيت الإكراه من العالم فهذا هو الميلاد الشرعي الذي نسخه المسلمون ولا قدرة لهم على تصوره وبكل سذاجة يظنون أنه يمكنهم أن يصنعوا مجتمع اللاإكراه بالإكراه وهذا ما ظل المسلمون يمارسونه من بعد عهد الراشدين إلى يومنا هذا ومع ذلك لم تتحقق حالة الرشد ولا حالة الديمقراطية ولم يقبلوا كلمة السواء وإنما أنا أقوى أنا الحق أنا الشرعي ومن لم يقبل فلينازل هذا هو الواقع ولسان الحال الراسخ رسوخ الراسيات. فولادة الديمقراطية كانت عسيرة ولم يتبينوا بوضوح إمكانية صنع الديمقراطية بدون عنف مع أن الديمقراطية لن تدخل إلى قوم يؤمنون بالعنف وهذا الشيء تكوَّن عند الذين ولدت الديمقراطية عندهم، وعند المسلمين إن الديمقراطية واللاإكراه هو الهدف الأساسي من أول لحظة وتحقق بوضوح وبزمن قياسي من غير ممارسة لأدنى عنف ومن غير أن يقتل أي شخص من المجتمع الجاهلي من قبل أتباع الرسول؛ ياله من التزام صارم نقي نظيف واضح مبهر لا يمكن أن ينكره أحد بيضاء للناظرين ليست ملوثة ولا حمراء فتكوَّن مجتمع اللاإكراه باللا إكراه. ينزل عليهم القرآن {لا تطعه واسجد}، ويزيد ويقول {كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة}، ويمر عليهم الرسول (ص) ويقول للمعذبين "صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة" ولم يقل لهم دافعوا عن أنفسكم أو خذ يا عمار بثأر أبيك وأمك. لماذا ؟ لأنهم يريدون أن يسنوا للعالم أجمع طريقة بناء الشرعية وبناء مجتمع اللاإكراه لأن المجتمع معناه أن يحمي الأفراد الذين ينتمون إليه فإذا كان المجتمع لا يحمي الأفراد الذين ينتمون إليه لا يحاولون أن يحموا أنفسهم حيث بذلك يتحول

المجتمع إلى شريعة الغاب وهم يريدون أن يقضوا على شريعة الغاب بأن يرسوا قواعد الشرعية بالإقناع والامتناع عن الدفاع عن النفس فهذا معنى "ما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه" ولا نأمر الناس بالبر وننسى أنفسنا إنه الالتزام الصعب ولكنه الحتمي.

21. مقارنة بين المجتمع النبوي الديني والديمقراطية

هذه المقارنة ضرورية وينبغي أن تكون المقارنة معمقة وخاصة في الظروف البشرية الحاضرة. ويمكن أن نقول: إن الكائنات الحية تتوجت بالإنسان الكائن المبدع الذي نُفِخ فيه من روح الله واستخلف في الأرض ليقضي على الفساد وسفك الدماء. ولكن أبدع ما وصل إليه هذا الإنسان في تاريخه بأن توج أعماله بابتكار الديمقراطية التي لبها وجوهرها حرية العقيدة حرية الانسان في اختياره عقيدته في الحياة الاجتماعية وخاصة نظام الحكم والسياسة في المجتمع الإنساني كان هذا إبداعا وانعطافا في تاريخ الانسان الذي ظل مستلبا خلال التاريخ مهما نادت الحضارات والحكماء بالعدل والرحمة وينبغي أن لا ننسى أن رصيد الديمقراطية وعي الناس بمعاناة البشر.

وظاهرة الديمقراطية حديثة العهد في التاريخ الإنساني مع كل النقص في عمقه وامتداده في حياة البشر إلا أنها جاءت مع معاناة البشر وفرضته الظروف المتطورة وهي لم تنبت من فراغ وإنما من معاناة البشر ومن أصل كبير كان الأنبياء قد بشروا به من وقت مبكر من عهد نوح الأب الثاني للبشرية بعد آدم فبعد أن تحمل آدم وزوجه مسؤولية وأمانة المعرفة وربط الأسباب بالنتائج والاعتراف بالخطأ الذي هو بدء طريق التغيير والإصلاح والنقد الذاتي الذي هو "التوبة" بالمصطلح الديني بدل أن يلقي التبعة على إغراء الشيطان وبدل أن يسوغ خطأه بأمور خارجية، إن هذا التصور الديني للانسان فاتحة استخدام الاستفادة من الخبرة التاريخية وتأصل هذا بموقف ابن آدم في نزاع أخيه معه في رفض اللجوء إلى رد العنف بالعنف حيث كان هذا إيذانا بأن الانسان قابل للمعرفة والاستفادة من الخطأ وكيفية حل المشكلة كأنه يعلن قائلاً: إنني خلق جديد ومزود بقابلية اكتساب المعرفة من التاريخ ونقل هذه المعرفة بالحوار وتأمل الوقائع وتحليلها وليس باللجوء إلى العنف والتدمير. والشيء الرائع الموجود في هذا الموقف الذي بذرت فيه بذرة الديمقراطية بذرة اللاإكراه في المعرفة والسلطة لأن السلطة مولود المعرفة ونتيجتها لأن الديمقراطية هي قبول الفرقاء جميعا للاإكراه واللاعنف في المعرفة والسلطة إن ظاهرة الديمقراطية ولدت في غموض ولم تكن واضحة ومبسطة ومضاءة مثل قصة ابن آدم حيث أوضح بجلاء من الذي بدأ من الفرقاء بنبذ العنف والإكراه وتحدى العنف والإكراه باللاعنف واللاإكراه، فهذا هو البلاء المبين والموقف الصعب بل وإضاءة ميلاد اللاإكراه واللاعنف والديمقراطية في بذرتها الأولى وكينونتها الميلادية إنه ظهور إبداع الله بوضوح أن الكون خلق من الأزواج ولكن الزوجية ولدت من فرد واحد، خلق الله منه زوجه "خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها". "ومن كل شيء خلقنا زوجين" الحياة في البدء لم تكن من الأزواج وإنما من الانقسام ولكن الزوجية طرأت على الحياة فبعد أن كانت بالانقسام صارت بالالتحام وفي هذا الالتحام وجدت فرصة التطور إلى الأفضل والزيادة في الخلق وبقاء الأنفع وما ينفع يمكث والزبد يذهب جفاء إن الفكرة الدينية النبوية واضحة المعالم وجلية في موضوع من الذي خرج من لعبة الإكراه أولا ومن لعبة العنف. الأنبياء جميعا كانوا مثل ابن آدم الذي رفض العنف بكل الوسائل وقبل التحدي تحدي العنف الصارخ باللاعنف المبين، والله تعالى يأمرنا أن ننظر كيف بدأ الخلق، يأمرنا أن نسير في الأرض لأن بدء الخلق والزيادة فيه مبثوثة في أرجاء الأرض فلابد من السير فيها وتتبع كيف بدأ الخلق، بدء الحياة والزيادة في نموذج الحياة وظهور الانسان القابل للمعرفة، ونمو المعرفة وأطوار المعرفة في التاريخ وتاريخ المعرفة تاريخ العلم كيف بدأ خلقه وكيف زاد خلقه وأين تحققت الإضافات والزيادات فحين نعترف بولادة الديمقراطية وظهور أول مجتمع ديمقراطي لاإكراهي لاعنفي إننا بهذا العرض الموجز السريع كالبرق الخاطف نلقي شعاعا من الضوء على بدء الخلق حتى في ظهور الالتزام الأخلاقي من طرف واحد ولم يكن له زوج ليبث منهما سلالات محسنة "خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً" كانت المواقف المعرفية العلمية الأخلاقية تتولد عند الأفراد إن المعرفة كانت تستغل كأداة للعنف والإكراه والتسلط فبدأت المعرفة في الزيادة فنشأت الأفراد الذين خرجوا من هذا الموقف الاستغلالي الاستكباري

الاستلابي ولكن لم يكن ليتكون مجتمع على هذا الأساس خلال التاريخ الماضي فكان الأفراد يناجون أنفسهم أنبياء يتلقون، ولكن الرسالات تطورت في الخروج من المناجاة الذاتية إلى الدعوة لإحداث ملة جديدة وعلاقات جديدة تليق بالقدرات لهذا يأتي يوم القيامة النبي وليس معه أحد ويأتي النبي ومعه شخص واحد والنبي معه شخصان إلى أن يأتي النبي ومعه ما يسد الأفق. بعد موقف ابن آدم المتحدي للعنف باللاعنف الفردي، يأتي مع نوح معاناة شديدة ولمدة طويلة تدعو إلى الملل إن ابن آدم كان يريد أن يثبت ذاته ولكن نوحا كان يريد أن يصنع ملة جديدة ومجتمعا جديدا لهذا كانت معاناته شديدة فكما اللبسم الله الرحمن الرحيم أوحى إلى محمد (ص) قصةابني آدم بقوله تعالى: "واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق" كذلك أمره أن يتلو علينا نبأ نوح فقال:"واتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه يا قوم إن كان كبر عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا إلي ولا تنظرون فإن توليتم فما سألتكم من أجر" نبأ ابني آدم حوار شخصي يحمل بذرة ميلاد ملة جديدة أو أمة جديدة أو مجتمع جديد فرد يحاور فردا ولكن نبأ نوح فرد مع أتباعه يحاور ملة وأمة ومشروع مجتمع جديد في رحم الغيب وهكذا يقص الله علينا في القرآن مسيرة وبدأ خلق إخراج الناس من عبودية العباد من المستكبرين في الأرض إلى الإنابة إلى الواحد الأحد الصمد الرحمن الرحيم في نبأ إبراهيم الأواه الحليم، فيأمر الله نبيه محمدا (ص) أن يتلو علينا نبأ إبراهيم:"واتل عليهم نبأ إبراهيم إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين " وهو الذي حاور أباه وقومه والنمرود الذي آتاه الله الملك، وإبراهيم الذي هاجر إلى ربه وهو الذي قال: "إني مهاجر إلى ربي إنه هو العزيز الحكيم ووهبنا له اسحق ويعقوب وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب" إنه هاجر وقطع الفيافي ما بين دجلة والنيل وتوضحت معالم ملة إبراهيم. "وتركنا عليه في الآخرين سلام على إبراهيم كذلك نجزي المحسنين إنه من عبادنا المؤمنين". ثم جاء موسى الذي نشأ في بيت فرعون أعظم حضارة في وقته ليحمل دعوة ملة إبراهيم في إخراج الناس من عبادة الطاغوت ليتحقق التوحيد ويترسخ وتتضح معالمه، وحيث أن رسالة الأنبياء جميعا هو الخروج من عبادة الطاغوت. "ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت" وقيل لموسى: "اذهب إلى فرعون إنه طغى" ولما ذكر عادا وثمود و"فرعون ذي الأوتاد" قال عنهم "الذين طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد فصب عليهم ربك سوط عذاب إن ربك لبالمرصاد" وليس في القرآن حوار أطول من الحوار الذي دار بين موسى وفرعون حيث ذكر اسم موسى أكثر من مائة مرة وفرعون أكثر من سبعين مرة هذا الحوار الطويل المكرر ليتبين معالم مشكلة الطاغوت والطغيان وأساليب الطغاة ومشاعرهم الدقيقة بتفصيل كأنه معاصر لنا يصف الطبيعة البشرية بتفاصيله الدقيقة ودخائله المخبأة من الترغيب والترهيب والتخيل إن فرعون ذي الأوتاد لا يزال يتحدى بأهراماته وما كان مقتدرا عليه من إبداع قبره أكثر من القصر الذي كان يسكنه في حياته. ثم بعث محمدا (ص) في مهجر إبراهيم الذي بنى بيتا متواضعا تحول إلى مثابة للناس وأمناً فأمته (ص) اليوم هو الشغل الشاغل للعالم أجمع إن مهجر رسالة المسيح الذي انتقل حواريوه إلى روما ملتزمين اللاعنف لمدة أربعة قرون حولوا الإمبراطورية الرومانية بدون عنف وأهل روما مندهشون في تحول أبناء الأرستقراطيين إلى دعوة المسيح فاضطر قسطنطين أن يعلن تنصره ليكون دليلا على أن الملوك على دين شعوبهم وليس العكس. فهذا الحدث اللاعنفي الذي استغرق أربعة قرون قطعه محمد (ص) في عشر سنوات فقط من البعثة إلى الهجرة، فإذا كانت أوربا تتحد على كلمة سواء، فإنا نأمل بيقظة المسلمين أن يتحقق اتحاد الإنسانية على كلمة سواء فيتم نور الله الموعود وهذا ما نعمل من أجله وقد تهيأ العالم لذلك فهو كما يقول إقبال:

والعشق فياض وأمة أحمد يتحفز التاريخ لاستقبالها.

22. مصفاة أهل الذكر

أريد أن أتقدم بالأفكار إلى مناطق أبعد مما كنت أتناولها عندها، وإلا فإن الأفكار التي تظل في مكانها لن تعطي لنا مردوداً أفضل، والفكرة التي أريد لها الحركة هي فكرة الشريعة، وأقصد بها المعاملات بين الناس وسبق أن ذكرت أن شريعة الله وحكم الله هو العدل بين الناس (وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل)، ولكن إذا اختلف الفقهاء أو أهل الذكر أو المجتهدون ... الخ في تصورهم للعدل فإنهم إذا اختلفوا في تحديد ما هو العدل في

قضية من القضايا فليس اجتهاد أحدهم هو الذي ينبغي أن يفرض على الناس، فبعد أن يحدد الحكم العدل ويصير قانوناً فهناك القضاة ينفذون ذلك العدل، من ها نشعر بالحاجة إلى تحديد أهل الذكر أو الاجتهاد، فإن أهل الذكر الذين يأمرنا الله بسؤالهم حيث يقول (فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون)، وأهل الذكر هم الاختصاصيون كُل في مجاله والمجالات تتعدد، ولكل مجتمع أهل ذكره مهما كان مستواهم، المهم أن المجتمعات تعرف أهل ذكرها مهما كانت معرفتهم نسبية، فإذا تداول أهل الذكر أي موضوع بالدرس والبحث فما يختاره جمهورهم –أي أغلبيتهم– على أنه هو العدل أو الأقرب إلى العدل هو الذي يصاغ في قانون يحكم به في المحاكم، إلا أن رأي جمهور أهل الذكر لا يبقى كماً جامداً خلال التاريخ، فالعدل يترقى ويزداد بدون توقف في معادلة ديناميكية صاعدة. فقد كان حكم قتل الأسرى واسترقاقهم وارداً في عصر من العصور، ولكن ذلك تجاوزه الناس. ولما نقول جمهور أهل الذكر أو أغلبيتهم مهما كانت هذه الأغلبية، فما اتفق عليه جمهور أهل الذكر هو الذي يصير قانوناً ولو كان سيتجاوزه الذين سيأتون من بعدهم، وقد يكون هذا الذي سيأتي ويوافق عليه الجمهور في المستقبل رأياً فردياً أو رأي الأقلية، فإذا كان الإجماع مصدراً من مصادر التشريع عند كثير من المسلمين فإن ما هو أقرب للإجماع يأخذ حكم التشريع الذي يعمل به. إلى هنا ربما تكون الأمور واضحة ومقبولة ولكن الشيء الخفي هنا هو أن هذا الأمر ليس الذي كان يحدث خلال التاريخ، وإنما كان يُفرض على الناس من قبل السلطات الإكراهية أراء بعض الفقهاء المجتهدين، ولم يحدث بعد الحكم الراشدي أن كان هناك أهل ذكر أو أهل شورى للبت في القضايا، ولقد غُيب أهل الذكر فصار فقيه السلطان هو الذي يفرض رأيه على الناس، وحسبك قصة أحمد بن حنبل شاهداً، وحتى كان لا يولى القضاء إلا من كان على مذهب السلطان، وقد استمر هذا الأمر وحذف من تاريخ المسلمين مؤسسة أهل الذكر أو أهل الشورى أو العلماء الذين تثق بهم الأمة وتختارهم لهذه المهمة. إن مؤسسة أهل الذكر والشورى وئدت في وقت مبكر بعد أن صار الحكم في العالم الإسلامي حكماً جبرياً هرقلياً وكانت مؤسسة السلطان والمقربون إليه هم الذين يفعلون ما يريدون، ولم تترسخ مؤسسة أهل الذكر والشورى في العالم الإسلامي ولم يكن للعالم الإسلامي إلا أن يخضع لحكم القاهر ومؤسساته المصنوعة على المقاس الذي يريده السلطان. واليوم حين يعرض المسلمون فكرة الشورى وان الأمور ينبغي أن تكون شورى بين الأمة وبين أهل الذكر والاختصاص والشورى من الأمة يقال لهم: ما هذه الشورى التي لم يكن لها وجود في يوم من الأيام؟! لاشك أن اختيار السلطان ينبغي أن يكون من قبل الأمة وما يثق به جمهورهم الأعظم هو الذي يصير سلطانا، فإن هذا الأمر لم يكن معروفاً في التاريخ ولا عند الأمم ولقد جاء الإسلام بهذا بوضوحٍ فاقع ناصع، مهما كان زمن تطبيقه قصيراً، فإن فكرة أن السلطان إنما يختاره البشر وليس يولد سلطانا ولا هو وراثة في ذريته أو أسرته هذا راسخ في الفكر الإسلامي لا يمكن أن يمحوه أحد كفكرة ولكن تطور البشر أبرز هذا الجانب في العالم فصار التوجه العام للبشرية قاطبة أن الحكم لا يأتي بالإكراه، وأنها ليست وراثة، مهما بقي في أطراف الأرض من لا يزال يعيش العهد القديم ولم يتمكنوا من تفهم العهد الجديد أو العهد الحديث في تاريخ الإنسان، فهذه النقطة هي التي أريد أن أدفع البحث فيه وإليه وأن الوصول إلى هذا أيضا لا يشترط له ممارسة العنف والإكراه والحرب بل يمكن أن يحدث هذا سلمياً، وبشكل لا يخسر فيه أحد شيئاً لا مالاً ولا سلطاناً ولا أرضاً بل يربح الجميع ويزدادون، والآن يحدث هذا في الأرض وأمام أعيننا فإن الأوربيين يتحدون على هذه الطريقة بحيث لا يخسر أحد منهم شيئاً لا نفساً ولا مالاً ولا قرابين بشرية ولا أتاوات مالية وإنما يزدادون غنىً وأمناً وسلاماً فيما بينهم، وهذا ممكن عندنا نحن في العالم العربي، والمهم في الموضوع أن يحصل عندي تصور صحيح راسخ في نفسي أنا بالذات ولقد وصلت إلى ذلك ولكن لا أشعر أني وصلت إلى الوضوح لأنقل هذه القناعة إلى الآخرين، لا أعني السلاطين، ولكن إلى الناس العاديين الذين يعنيهم هذا الموضوع، فإذا تمكنت من نقل هذه الفكرة إلى الناس وأقنعتهم بها فإنها ستتحقق فعلاً في واقع الأرض، المهم أن تتحقق هذه الفكرة في جماجمنا أولا قبل أن تتحقق على واقع الأرض، وأنا موقن أن الفكرة حين تصح في أذهاننا كبديهة لاشك فيها ويصير لنا قدرة على نقلها إلى الآخرين لا أحد يستطيع أن يمنعنا من الحديث فيها، لأنها لا خسارة لأحد في العالم من هذا الذي نريده، إن علاقات الناس وتبادلهم المصالح يكون لصالح الطرفين، فمن أيام بدء الزراعة وتقسيم العمل اضطر الناس إلى تبادل إنتاجهم وهذا التبادل لصالح الطرفين، إلا إذا أراد أحدهم البغي في الأرض والسلب والنهب، وأنا لا أريد أن أسلب أحداً شيئاً وإنما أريد أن أكشف امكان تبادل المصالح لصالح الجميع وليس لأحدهم فقط، ومن رفض هذا فأنا لا أنزعج منه أيضا لأنه لا قدرة له على أن يفعل ما يريد إلا إذا وافقته عليه، وأنا لي الحق على عدم الموافقة على الخطأ، أنا أقبل التعاون على البر والتقوى وارفض أن أتعاون على الإثم والعدوان، والآخر لا يتمكن من تنفيذ إثمه

وعدوانه إلا إذا تعاونت معه، فمن هذه الفكرة يظهر لنا أن الإنسان لا يمكن أن يظلم إلا برضاه . وهذا الذي ينبغي أن يقال فيه ألف مقال حتى يتوضح . ونكون بهذه الرحلة الموجزة المخلة في الإيجاز وصلنا إلى الفكرة الأساسية القرآنية، وهي أن المشكلات التي تضرنا ترجع إلى أنفسنا وليس إلى الذين نعتبرهم أعداءنا، لأن الله والرسول وآدم وزوجه وإبليس الشيطان الجميع اتفقوا على أن المشكلة عندنا نحن البشر الذين نعتبر أنفسنا مظلومين، وليست المشكلة عند الله ولا رسوله ولا عند الشيطان ولا عند الظالمين من استعمار ويهودية وصليبية وماسونية وما وما.. الخ وما خلق الله وما سوف سيخلق. إن المشكلة عندي أنا بالذات الذي صرت ألمح هذا وأعجز عن توضيحه وكذلك عند كل المظلومين الذين ينبغي أن تبلغ إليهم رسالة الله ورسالة المرسلين ورسالة آدم وزوجه واعتراف الشيطان، هذا الموضوع ألح عليه ولن يقر لي عين حتى أؤسسه وأوضحه وأجليه، يقول الله (هو من عند أنفسكم)، (ما أصابك من سيئة فمن نفسك). والرسول (ص) يقول (من وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه) ونحن عندنا استعداد أن نلوم كل أحد ما عدا أنفسنا. وآدم وحواء قالا لله رب العالمين لما قال لهما (ألم أنهكما عن تلكما الشجرة) قالا (ربنا ظلمنا أنفسنا) ومع أن الله يقص علينا في القرآن أن الشيطان أغراهما وأغواهما، ولكن آدم وحواء لم يذكرا أبدا دور الشيطان وإنما اعترفا بدورهما فقط، ولهذا استخلفهما في الأرض. أما الشيطان إبليس فيقول الله عنه أنه يوم القيامة سيقول الشيطان لنا:(ما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم) إن هذه فكرة عملاقة محكمة الأطراف، على أن الإنسان المستخلف في الأرض لن يتمكن الشيطان من أن يحمله على قبول الخطأ والوقوع فيه إلا برضاه. ربما هذه الفكرة واضحة من ناحية القرآن والسنة والتاريخ والغيب، ولكن علينا أن نراها واقعاً بجلاء في ممارسة البشر في واقع الأرض في آيات الآفاق والأنفس ليتواطأ علم الغيب مع عالم الشهادة، فهذا الذي أريده وأدندن حوله وسأظل أدندن حوله بلساني وقلمي مادما يقدران على الحركة فلهذا نريد أن نخرج من مِلَلِ الإكراه على كثرتهم إلى ملة الإقناع على قلة أتباعهم، فإن لهم المستقبل ولن يصح إلا الصحيح، وسيذهب الزبد جفاءً وسيبقى ويترسخ ما ينفع الناس وسيكشفُ الناس هذا تحت ضغط التاريخ الذي يعاقب المغفلين كما يعاقب المجرمين، فإذا تعلمنا دروس التاريخ فسوف لن نكون من المغفلين كلا ولن نكون من المجرمين.

23. الفقيه المستبد

يقولون عن اجتهادات الفقيه أنه مصيب ويحتمل الخطأ، ولكن الآخر مخطئ ويحتمل الصواب ولكن لا يخطر في بالنا أن الخطأ والصواب في حد ذاته ليس هو المهم، ولكن أن يوضع الخطأ والصواب في الميزان والاختبار ليميز الخبيث من الطيب، والذي يجعلني أقول هذا وأتناول الموضوع من هذا الجانب، هو أننا لا يخطر في بالنا أن آراءنا لا قيمة لها موضوعية إلا إذا وضعت في مصفاة أهل الذكر وأهل الفقه، فإذا سمحت لها هذه المصفاة بالمرور صار لها الفوز ولو كانت خطأً، وإذا لم تقبل هذه المصفاة الفكرة فقد سقطت ولو كانت صواباً. هل خطر في بالنا أن آراءنا ينبغي أن تمر على صراط الاختبار للعبور إلى الجنة أو النار؟، أريد أن أتساءل لماذا الله جل وعز قَبِل أن يوضع دينه في مصفاة الاختبار، لماذا قال لاإكراه في الدين؟ لماذا لا يجوز فرض الدين الحق بالإكراه وإنما بالإقناع؟ لماذا ينبغي أن يزول من قلوبنا أن الصواب لا يجوز فرضه بالإكراه؟ وإنما بقبول مصفاة أهل الذكر بالقبول فكما ضمير الفرد مصان لا يجوز لأحد انتهاكه كذلك ممثلوا المجتمع ينبغي أن يكونوا مصونين غير منتهكين، ثم إن قبول هذه الفكرة الإختبارية يحرر الفرد ويحرر المجتمع من المستبد ولو كان عادلاًَ ومصيباً ومن الفقيه المستبد الذي يذيل فتاواه بقوله هذا هو الحكم فمن أنكر يستتاب فإن لم يتب قتل، من أين هذا القول وكيف تسرب إلينا، لا حرج فمن هنا قلت مرة من الذي يستحق البر والقسط في المجتمع القرآني فرأيت في البحث في القرآن أن من لم يقتل الناس لأجل أديانهم أو أفكارهم أو عقائدهم ولم يخرجهم من ديارهم لأجل ذلك فإن ألتزم هذا استحق البر والقسط ولم يجعل الله للمجتمع القرآني سبيلاً إليهم، ومن لم يلتزم ذلك فهو المدان ولو كان مسلماً ومؤمناً وأكثر صلاة وصياماً من كل المؤمنين، ليتنا نتمكن من إخراج هذه الفكرة من أعماق الضياع، فإذا أنا استطعت أن أبعث هذا الموات أو أضيء هذا الكلام لأشعر بالأمن، هو ذلك الذي آمن ولم يلبس إيمانه بظلم، يفرض إيمانه بالقوة على الآخرين (الذين أمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم

الأمن وهم مهتدون) كيف سأخرج من الالتباس بالظلم؟ وكيف سأكسب الأمن والهداية؟، إذا تركت الاستبداد الذي هو فرض الرأي بالقوة، من دون الرجوع إلى مصفاة الضمائر الفردية، أومن دون مبالاة وإلغاء لمصفاة أهل الذكر، فأنا أشعر بالأمن بالاجتهاد حين أقبل تحرير ضمير الفرد من أن يلحقه إكراه في فرض دين عليه لا يؤمن به، أي ممارسة الإكراه في الدين، وأنا أشعر بالأمن والهداية حين أقبل أن تعرض أفكاري على مجلس أهل الذكر، الذين هم ضمير الأمة، فإذا أجمعوا عليه فلا حرج وإذا كان هو أقرب للإجماع بقبول أغلبيتهم فذاك حسن جميل، وإذا رفض بالإجماع أو بالأغلبية مع ذلك يبقى لي حق الدعوة إلى فكرتي ولا يفرض على الناس إلا إذا قبله ضمائر الإفراد وأهل الحل والعقد من الأمة الراشدة التي تحمي أفكار الناس من الاستلاب بأسلوب الإكراه بأحد الحُكمين المؤكدين في القرآن (القتل والتهجير) بأسلوب دائم لا يمكن التلاعب فيه حماية أفكار الإنسان الخاطئة من القتل والتهجير من الديار الذي هو جدير بالبحث والتركيز والإعادة وإعادة فحصه مرة بعد مرة حتى لا يصيبه التآكل أو العطالة أو يجد التسرب إلى هذين الحكمين أي إعدام الناس وتهجيرهم من أجل أفكارهم. ونحن حين مارسنا اللف والدوران حتى ألغينا مجلس أهل الذكر من الوجود بحيث لا يعود أحد يشعر بإمكان إعادته فمنذ فقدنا الرشد فقد لا إكراه في الدين وصرنا نقول يستتاب وإلا قتل ولا نكتفي حتى بإخراجه من دياره بالنفي الذي يمكن أن يحكم به قاطع الطريق. لما فقدنا لا إكراه في الدين فقدنا الرشد لأن لا إكراه في الدين به تبين الرشد من الغي وبه تميز الإيمان بالله والكفر بالطاغوت بالاستبداد. لا حرج أن تفقد كل شيء ولكن أن نفقد كرامة الإنسان التي كرم الله بها بني آدم فهذه الإهانة تحبط كل الأعمال، لأن القبول بلا إكراه في الدين في المذهب في السياسة هو الرشد والأمان وحرية الاختبار أما اللف والدوران عليه بالتلاعب هو الغي وهو الطاغوت. إن الذنب الذي يحبط كل الأعمال هو سلب حرية الاختيار في الدين وممارسة الإكراه فيه وإن التوحيد والرشد هو ممارسة اللاإكراه الذي كل الذنوب قابلة للغفران إذا لم تنتهك حرمة لاإكراه في الدين ومن لم يصدق فليقرأ قوله تعالى (لقد أوحي إليك وإلى الذين مكن قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين) ومن لم يكتف بهذا فليقرأ (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) ومن لم يقتنع بهذا ولا ذاك ولا بالقرآن ولا بالكتب الموحاة من قبل فليرجع إلى مرجع الجميع وليتفرس في التاريخ هل لهذه الأحكام من وقائع تاريخية كيف وماذا حل بالذين يمارسون الإكراه في الدين كيف فقدوا الأمن والاهتداء إلى كشف مرضهم وبقدر ما يقترب الإنسان من اللاإكراه في الدين يكسب الأمن وبقدر ما يبتعد الإنسان من اللاإكراه في الدين يقترب من اللا أمن لهذا الذين يفرضون سياساتهم بالإكراه بالاستبداد وبدون مبالاة إلى مصفاة أهل الذكر فإنهم لا يشعرون بالأمن بل هم في خوف دائم لأنهم يشعرون أن أمنهم لا رصيد له وأمنهم سحابة صيف مهدد بالنتيجة في كل حين وأنا لا أخاف أن تُنكَر كل أفكاري وتعرض على محاكمة مجلس أهل الذكر فإن قبلت فليس لي الفضل في ذلك بل هم لهم الفضل إن كان صواباً وعليهم الوزر إن كان خطأً وكذلك لا أخاف أن يعرض على ضمائر الأفراد ليتأملوها فإن استطعت أن أجلي وأزيل كل الغموضات وقبلت أيضاً فلهم الفضل في ذلك.

وينبغي أن أُذكِّر بفكرة قرآنية كبيرة يا أيها الإنسان القارئ أريد أن أنتشلها من أعماق الجب الذي وضعه فيه المسلمون ومن سبقهم من أتباع الأنبياء السابقين بأن محكمة رب العالمين يوم القيامة لا يقبل فيها حجة (إنا أطعنا سادتنا وكبرائنا فأضلونا السبيلا) يا أخي القارىء لن يقبل منك أفكاري هذه أن تحتج بها في تلك المحكمة وحين تقول هناك: أرنا فلاناً وفلاناً. وأنا أقول لك لن يغني عنك أن تقول إن هذا رأي جودت سعيد أو فلان شيخ الإسلام في زمانه إذا كنت لا تحمل مثل هذا المعدن النفيس الذي يحرر الأفراد من الآباء والسادة والكبراء فأعد اكتشافه في نفسك ولنتعاون جميعاً وأنا ضعيف الحجة وأنا أعترف بذلك وأجد في نفسي الإنقطاعات التي يحس بها القارىء في أفكاري والذي أريد في مقالاتي كلها أن أبين كيف ولماذا نُفرغ الآيات من معانيها؟ ولماذا تفقد الكلمات المعاني والأهداف؟ فلا ينتفع منها بشيء. كنت أتحدث كيف فقد المسلمون كلمة الشورى وكيف ضاع معناه حتى صار المحتج يحتج بأن الشورى لا معنى لها ولاوجود... لا حرج ولكنني سأقول كيف أننا في غاية البراعة في تفريغ الكلمات من معانيها وتحريفها عن أهدافها، فإذا كنت لا تعرف كيف فقدنا مجلس أهل الذكر ومجلس الشورى منذ فقدنا الرشد وكرامة السواء والصدق وصرنا نعيش النفاق والشقاق فادخل إلى مملكة الفرزدق التي وصفها للحسين (قلوب الناس معك وألسنتهم عليك)، هو لم يقل هكذا ولكن أقول يا شباب المسلمين: بعد أن فقدنا الرشد صارت قلوبنا في واد وألسنتنا وأيدينا في واد آخر كلما أردت أن أُقرب من لب المشكلة تفلت مني وأنا أشعر أني لم أقرب إليك الموضوع ولكن لعلي اقتربت بك أن تفهم أن لا نفتري على الله وكتابه وسبيل الرشد، وكيف وصلنا إلى درجةٍ إن رأينا سبيل الرشد لا نتخذه سبيلا وإن رأينا سبيل الغي نتخذه سبيلا.

أقول بعد لف ودوران كيف افترينا على الديمقراطية أيضاً وكيف فرغناها من معناها إن كنت آدمياً مكرماً فأمسك بها وتمكن من إحياء معناها في البلاد العربية والإسلامية إننا لبسنا ثوب الديمقراطية وأجرينا الانتخابات وبنينا البرلمانات وأتينا بالنواب وزينا مجالس الديمقراطية بالنواب المنتخبين من الشعب وانتخبنا الزعماء بالإجماع أو ما هو قريب من الإجماع. كل ذلك لم يجدنا شيء ولم تقبل أن تغادر الديمقراطية مناخها ومواطن كرامتها هناك.

يمكن خداع الناس ولكن لا يمكن أن نزور الكلمات والمجالس والأبنية والسكان ونزور الأفكار فهل تعجب بعد ذلك إن فقدنا الحكم الراشد ومجلس أهل الذكر الراشدين هل اقتربت قليلاً من كشف سبب المشكلات أن الفقيه والمثقف الذي يعيش الحداثة فقد الفقه والثقافة؟.

24. القلب السليم

كيف نحقق سلامة القلب؟ كيف نخرج المرض من قلبنا؟ يفيدنا في هذا الموضوع المقاربة بين المرض الجسدي والمرض الفكري، ونحن أحوج ما نكون لإجراء هذه المقاربة، حيث إن الطب الجسدي تقدم بشكل سريع وسابق وتوسع وتعمق، ولايزال حتى صار عندنا اختصاصيين في أمراض القلب وكشف عللها، بإرسال المريض إلى فحص القلب وتخطيطه، وكشف الخلل الذي يمكن أن يكون حدث له، وملاحظة بوادر المرض أو تقدمه، فهل عندنا علم متقدم مقابل ذلك لأمراض القلب الفكرية، خاصة القرآن حين يتحدث عن مرض القلب لا يقصد أبداً المرض الجسدي، وإنما المرض الفكري، غياب المعرفة أو المعرفة الخاطئة، إن الأمراض الجسدية حين كانت مجهولة الأسباب، كانت الأمراض تأتي وتحصد الناس، والناس ليس عندهم معرفة بأسبابها، وإنما كان عليهم أن يتقبلوا النتائج المريعة بالصبر والتسليم، ولكن لما كشف الناس أسباب الأمراض من الجراثيم الناقلة للمرض، عرف الناس كيف يواجهون الأخطار على نور وبينة، ولا يزالون يتقدمون بخطىً واسعةً في تحقيق الصحة الجسدية، التي تمنح الشخص عمراً مديداً حيوياً منتجاً، فيا ليتني أتمكن من نقل هذا الكسب الذي حصل في فهم عوامل الصحة الجسدية، إلى فهم عوامل الصحة النفسية أو الصحة القلبية، إن القرآن استخدم المرض القلبي فيقول: (في قلوبهم مرض).

ويفيدنا في هذا الموضوع أن نعرف كيف بدأ الخلق؟ خلق المرض أو بدء خلق المعرفة للأمراض الجسدية أو النفسية، وفوكو انطلق في نقد الحداثة، بدراسة تاريخ الجنون وولادة العيادة، إنه لشيء ممتع متابعة كيف بدأ الخلق، وكيف نما ببطء شديد، يقول: في بداية القرن التاسع عشر ظهر الاستنكار الشجاع عن إدراكنا فجأة بأن المجانين والمجرمين حبسوا بلا تمييز معاً... وهذا التمييز يرجع إلى مئات الصرخات الاحتجاجية المتعثرة.

أولاً احتج أهل الفكر المسجونون لجرم ما على الخلط بين المجرم والمجنون، وطالبوا لمصلحتهم بالفصل لم يطالبوا بالإفراج عن المجانين، طالبوا بالفصل خشية أن يفقدوا هم أيضاً صوابهم، إن استراتيجية العلاج كانت تقوم على جعل كل مسجون أو مريض يقر بذنبه ومسؤليته، ويستلزم ذلك مجموعة كاملة من الأجهزة المؤسسية، إن المريض يعتبر مسؤولاً عن مرضه، والتدخل العلاجي على شكل عقوبات، هدفه حمل المريض على أن يعي وضعه كفرد مسؤول عن أعماله، إلى أن يراقب نفسه بنفسه، وما أن يتم سياق الاستيطان هذا حتى يشفى المريض، هذا على الأقل ما تزعمه النظرية... ثم ينتقل فوكو من المؤسسة إلى مستوى من التحليل يقع في أسفل المؤسسة، يحاول أن يثبت بأن مفاهيم المجتمع والثقافة كنظرة إلى العالم والفرد، تنجم عن تغيير واسع يتهيأ منذ وقت طويل في العلاقات بين الخطايا والسلطة.

يشدد فوكو على الاستقامة الخلقية لشخصية الطبيب، أكثر منه على الكفاية العلمية، ولم يكن يتدخل الطبيب باسم علم ومعارف موضوعية، وإنما بوصفه حكيماً، ويدافع عن فكرة أن العلوم الإنسانية لم تيسر إلا قليلاً قيام معرفة موضوعية للكائن البشري... لماذا وكيف انتهى هذا الضعف العلمي إلى أن يكون عنصراً أساسياً من عناصر السلطة الحديثة؟

إذا كان بوسع الشخصية الطبية أن تحيط بالجنون فليس لأنها تعرفه بل لأنها تسيطر عليه.

" يمكن أن يراجع ذلك من مسيرة فلسفية 13 . 16 "

إن الصحة النفسية يمكن أن تفهم من القرآن، يمكن أن تكون بعملية تغيير ما بالأنفس، أي التصورات والأفكار العميقة والسطحية الشعورية واللاشعورية، وهذا التغيير وظيفة البشر، (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) ويتحدث القرآن عن طبيعة النفس فيقول: (ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها) طبيعة النفس من صنع الله، فهي ملهمة للفجور والتقوى (إنها إمكانية)، ولكن تحويلها إلى تزكية أو تدسية، فهي عملية اجتماعية بشرية وتاريخية.

25. كلمة السواء

كنت جعلت عنوان إحدى مقالاتي (فيزياء ورياضيات واقتصاد) وكنت أقصد به أن قوانين الدين مثل قوانين الفيزياء والرياضيات والاقتصاد، وكنت ضربت مثل العلاقة بين الطاقة والمادة (ط=كتلة ×سرعة) وأن كل معادلة رياضية فيها إشارة (=) والاقتصاد (المادة الخام + الجهد =المردود) وكل من استطاع أن يستخرج من المادة + الجهد = مردوداً أعلى. هو قصد السبيل أي الوصول بأقصر الطرق إلى الهدف، وكل مَن رفع المردود بأقل مادة وأقل جهد فهو الأنفع. وهو الذي يبقى وهو الذي يحكم قانون النسخ؛ أي كل ما جاء الأنفع والأبقى ينسخ ما هو أقل نفعاً وأقل بقاءً، ويقولون المكان له ثلاثة أبعاد، ثم أضافوا إليه بعد الزمان حيث اختلط الزمان والمكان الزمان ومكان المادة، ولما أرادوا أن يعرفوا النسبية قالوا: إن الناس يظنون أن المكان والزمان سيبقيان بعد أن تفنى المادة، فإذا فهم الناس أن لا بقاء للزمان والمكان بدون مادة، يكونون فهموا النسبية، ويقال أنه سئل الإمام علي رضي الله عنه {أين الله؟ فقال: أين سؤال عن مكان، وكان الله ولا مكان} والذي يدعونا إلى هذا هو متابعة الأبعاد، تداخل بعد الزمان والمكان، وتوينبي أضاف بعدين آخرين إلى بعد الزمان والمكان فقال: البعد الخامس هو الحياة، أما البعد السادس هو الإنسان، والقرآن يقول أنه يخرج الحي من الميت فهذا هو البعد الخامس، أما البعد السادس فهو الذي قال الله عنه أنه (ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين) وأن هذا البعد السادس هو خليفة الله في كونه (وهو الذي تسخر له ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون) وأن الكون على قوانين والإنسان قادر على كشف القوانين وتسخيرها وأحاول الآن أن أكشف قانون الإنسان مع الكون ومع الإنسان.

إن الإنسان قطع مسافات تدلنا على تزايد التسخير وكشف القوانين وسلطان الإنسان وهو في تسارع مستمر، وهذا سيضطر الإنسان على كشف قانون الإنسان مع الإنسان لأن هذا هو المشكلة، الإنسان يحكمه قانون الاقتصاد ولكن قانون الاقتصاد في التعايش بين البشر يوجد فيه أوهام خادعة تعرقل السير، إلا أن القانون غلاب فسوف لن يصل الإنسان إلى كشف القانون السليم، إلا إذا اعترف أن أفضل تعامل مع الإنسان بالإقناع وليس بالإكراه، والاقتصاد تابع لذلك فهذا الذي يعاني منه الإنسان منذ أن اكتشف الزراعة منذ عشرة آلاف عام، إنه لا يريد أن يعترف أن أفضل أسلوب لاستخراج أفضل ما في الإنسان بإقناعه وليس بإكراهه وتخويفه والإنسان يخدع نفسه بأنه إلى الآن يمكن أن يستغل البشر بإخافتهم وإكراههم وإرهابهم، لماذا هذا الوضع إلى الآن هكذا؟ السبب حسب ما يخيل إلي من مواجهة الناس لي بأن هذا يحتاج إلى وقت طويل ولكن هل لي أن أذكر الناس أن هذا الوقت الطويل هو القصير ولكن ما يريدون أن يغيروا به الواقع هو الذي تسير عليه البشرية من عهدهم بالزراعة من أكثر من عشرة آلاف عام ثم هل يقبل مني أن أهمس في أذنه قائلاً له: أليس ما تريده أو تختاره هو الذي يعيد إنتاج الخطأ وإنتاج إعادة الإكراه، بدل معاناة الإقناع ونشر الوعي الذي نراه بطيئاً مضنياً، إني أعتبر أن الوضع المأساوي المستعصي على الحل في العالم العربي والإسلامي والعالم المستضعف كله أنهم إلى الآن العالم جميعاً كلهم أمة واحدة، أي يؤمنون جميعاً الكبار والصغار أن الذي يحكم العالم القوة الإكراه وليس الإقناع حين يقول الله (كان الناس أمة واحدة) وأنا أقول: ولا يزالون، فبعث الله النبيين بالخروج من ملة الاستكبار والاستضعاف إلى ملة السواء ملة تعالوا إلى كلمة سواء أن لا يكون مستكبر فوق القانون ومستضعف تحت القانون، هذا هو سبب فساد المجتمعات وهلاكها هل من رجل رشيد يتفهم هذا ؟

هل من رجل واحد يكتم إيمانه بهذا يمكن أن يعلن إيمانه كما فعل مؤمن آل فرعون؟ (وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله)؟

ربي الله: هي قبول كلمة السواء، لأن القرآن يشرح كلمة السواء (بأن لا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأناً مسلمون) وأن ربنا الله الذي هو العدل وشريعته العدل وأن لا يكون مخلوق بشري فوق القانون، لأن هذا هو الشرك وهو الذنب الذي لا يغتفر، وهو الظلم العظيم، وهو الذي يحبط كل الأعمال، وهو الذي إن صحت تهون معه بقية المعاصي، وإن ضاعت فلا تنفع معه بقية الطاعات كلها، فهي التي تجعل الأعمال الصالحة هباءً منثورا، المسألة ليست مسألة مواعظ ورجاء، المسألة مسألة تاريخ وأمم بادت وهلكت.

(إنما أهلك من كان قبلكم أنه إذا سرق الشريف –المستكبر وأعوانه– تركوه، وإذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد) حتى إن المشكلة ليست في شدة القانون أو لينه، وإنما المشكلة التي توغر الصدور، وتمرض القلوب حتى لا يكون هناك صاحب قلب سليم، أن يكون هناك من هو فوق القانون، أن يولد إنسان وهو فوق القانون، أو أن يتحول إنسان مثل مُشرّف الباكستاني في ليلة ليس فيها ضوء إلى إنسان يلغي كل شيء في الأمة حتى القانون الأعلى الدستور ولا يبقى إلا هو، وبعبارة أخرى إذا قام إنسان بتدبير مؤامرة في الليل ونجح يتحول إلى كلمة الذي حاجّ إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك (أنا أحيي وأميت) أنا الحي فقط والكل موتى إلا أنا وإلا من آمن بي وإذا لم ينجح وفشل في ذلك يكون خائناً يستحق الموت، إن مجتمعاً يختلط فيه الحق والباطل إلى هذه الدرجة مجتمع منسوخ يباع المجتمع كله ومالكه لأمة خرجت من هذه الملة حيث القطب الواحد الذي ملك العالم، كان محمد إقبال يقول عن الغرب أنه حقق نصف لا إله إلا الله، فهم خرجوا من عبادة غير الله ولكن لم يدخلوا في عبادة الله وإنما تحولوا إلى طاغوت في العالم، ولكن إقبال الذي بشر بباكستان لم تستطع باكستانه أن تخرج من عبادة الآلهة الكاذبة، كان إقبال يقول إنك لن تدخل إلى ملة إبراهيم ومحمد إلا إذا خرجت من ملة أبي جهل وأبي لهب، ولكن لم يعلمنا إقبال السر الذي ملكه بلال حين تمكن من ذلك! حتى بدون قنبلة باكستان النووية! كيف نكشف هذا السر؟ قالوا محال، لكن أقول: كما قال جلال الدين، ومنيتي هذا المحال.

26. هل إلى خروج من سبيل؟

هل يمكن أن نخرج من المأزق الذي نعيش فيه؟ هل هناك سبيل أو باب للخروج من الإستعصاء إلى الحل للمأساة التي نعيشها؟ كيف ولماذا نبتعد عنها كلما حاولنا الإقتراب منها؟! لماذا لا قدرة لنا على التوبة (النقد الذاتي) وتغير السلوك والموقف؟ هل لأننا غير مخطئين وغير مذنبين وأننا براء؟ أم أننا لاقدرة لنا على إبصار وفهم الخطأ الذي وقعنا فيه! أم نبصر الخطأ الذي وقعنا فيه ولم يبلغ بنا الوعي إلى درجة رؤية السبيل للخروج من المأزق! متى يتمكن الإنسان من الخروج من الوضع السيئ؟.

أولاً: حسب تصوري لابد من أن نشعر أن الوضع سيئ للغاية، ولكن هل هو معقد أيضاً للغاية؟ ولا حل له. أظن أن الذين يشاركوننا أن الوضع سيئ للغاية أكثرية، ولكن الذين يرونه معقداً جداً ولا نعرف الحل أكثر من الأكثرية السابقة، وإذا أضفنا إليهم الذين يشعرون أن هناك حلاً ولكنه صعب جداً ويحتاج إلى عمليات انتحارية وليس لها حل غير ذلك. فهؤلاء وصلوا إلى طريق مسدود. ولكن هل يمكن أن ندل على حل سهل لا يحتاج إلى الانتحار ولانحر الآخر، وأنه يمكن الحل بدون تصفية بعضنا. أكرر وأعيد أن المسألة لها حل وبدون تصفيات ولاخسائر، وإنما يحتاج إلى كشف قوانين وسنن الوجود، كان الناس يهلكون بالصواعق الرعدية! كم كان صعباً كشف القوانين التي تحكم الصواعق؟ وكم تحول إلى سهولة بعد معرفة سننها وصار في الإمكان الإمساك بها وإنزالها بأمان!. وكم كانت الجراثيم مشكلات؟ نرى أثارها وأسبابها خفية غير مرئية! فلما كشفت وعرفت كيف، أمكن السيطرة عليها. وكيف أن مالم يكشف بعد سننه كذلك خاضع للسنن ينبغي أن نبذل جهداً لكشفه وتحديد

طريقة عمله حتى نتمكن من السيطرة عليه. كم كانت الشمس خادعة حين خيل بادئ الرأي أنها تركض حولنا! وكنا نحن البشر عندنا استعداد أن نُقتَل من أجلها ونَقتل الآخرين بسببها كذلك!. ثم كيف تخلصنا من ذلك فلم يعد ممكناً أن نتنازع من أجلها. ما هي المشكلة التي نتنازع الآن من أجلها؟ وكيف نكشف أسبابها؟ لتصير أسبابها واضحة بحيث لا نعود نتنازع فيها، إن الشمس كانت خفية. إن أوضح شيء كانت أخفى من كل شيء. هل يمكن أن نفهم من هذا أن مشكلاتنا الأخرى مثلها! ويمكن أن نصل بها إلى درجة الوضوح بحيث لانتنازع فيها ولا ينازعنا فيها أحد. إن ميزة الإنسان أنه قادر على كشف الأسباب بتدقيق النظر. وحين يكشف الإنسان الأسباب يتمكن من تسخيرها والتحكم فيها ودفع مضارها وتسخير منافعها أو على الأقل إن لم يتمكن من السيطرة عليها يتنبأ بها ويستعد لملاقاتها بأقل الخسائر. ونحن في العالم الإسلامي درجات، بعضهم وصل به الأمر إلى أن يفهم مثل هذه الأمور بسهولة مهما كان عددهم قليلاً، وبعضهم يرونها خروجاً من الإسلام وعلمانية كافرة أسير الحضارة الكافرة، وبين هؤلاء درجات. ونحن حين نكتب يسيطر علينا محاولة إرضاء أكبر عدد ممكن، قد يحملنا ذلك على أن نطيل البحث ونلف وندور لرفع مستواهم للفهم، وهذا يجعل أسلوبنا طويلاً، ونحن لسنا بارعين في تبسيط المواضيع بحيث يفهمها جميع المستويات، نحن شئنا أم أبينا نعيش عصر الخوارق الذي جاء القرآن ليتجاوزه إلى عصر السننية التاريخية في الآفاق والأنفس وتسخير الكون المادي وتوجيه الكون الأنفسي القابل للتزكية والتدسية. ونحن الذين ندعوا إلى الله قد تكون نياتنا طيبة ولكن تصوراتنا خاطئة، إن التصورات الخاطئة لا يمكن أن تعطي نتائج وعواقب سليمة، إن الذي يفهم جيداً يصير متمكناً كالذي يمشي على الحبل ولا يفقد توازنه، وربما فكرة الصراط الممدود على جهنم أحد من السيف وأدق من الشعرة رمز لهذه الإشكالية على صعوبة العقبات أمام تغيير ما بالأنفس، والناس عندهم استعداد أن يدافعوا عن أسباب تخلفهم وهَوَائِهِم إلى درجة الموت، ونحن قد نخطئ تصورنا لله، ليس كل تصور لله هو الله الذي ليس كمثله شيء، ولم يكن له كفواً أحد، لهذا يقول الله: (يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية) ويقول: (ذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين) ويقول: (هل أنبئكم بالأخسرين أعمالاً الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً) ويقول: (وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون) ويقول: (ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم كذلك زينا لكل أمة عملهم) والمشكلة تصير معقدة حين يكون الطرفان المتنازعان يوقن كل واحد منهم أنه على الحق. ولهذا كشف الحق وجعله مفهوماً من أهم وسائل تغيير ما بالأنفس وخاصة تغيير ما بالأعماق، ففرق كبير بين نزاع مع طرف يعلم أنه مبطل ولكن عن عمد ينازع الحق مثلما ورد في القرآن (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً) فهؤلاء الذين يسميهم الله في سورة الفاتحة (المغضوب عليهم) فهم غير الضالين الذين عن غير علم وإنما بالثقة بآبائهم يتبعون الضلالة، وأما الصنف الثالث فهم الذين علموا الحق المبين واتبعوه وهم أصحاب الصراط المستقيم، والنزاع إنما يكون بين أصحاب الصراط المستقيم والمغضوب عليهم أما الضالون فهم موضع النزاع فمن استطاع أن يهديهم ويخرجهم من الضلال ويكون ذلك بالعلم والفهم وليس بالقتال لأن القتال ليكون حلاً للمشكلة. ينبغي أن يهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيي عن بينة.

وحتى صنف المغضوب عليهم الذين يجرئهم على الإصرار على إنكار الحق عن علم، وجود كثرة من الضالين الذين ليسوا على معرفة وعلى أهل الصراط المستقيم أن يكونوا حريصين على البلاغ المبين الذي يخرج الناس من ضلالهم، فالذين يخرجون من الضلال ويكشفون الحق سينضمون إلى أهل الصراط المستقيم ولا ينضمون إلى المغضوب عليهم أو على الأقل أكثر الضالين بعد معرفة الحق سينضمون بغير حرب وطواعية مع أهل الصراط المستقيم، ويقول الله في هذا: (بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون) هذه آية مفتاحيه، حين تنتشر المعرفة أكثر الناس لا يعرضون عن الحق، فمن بَيّنَ آيات الله في الآفاق والأنفس بوضوح يغيير المجتمع أي حين يغير ما بأنفس المجتمع يتغير بعد ذلك واقع المجتمع ويتغير موقفه ويحدد الذين سينضم إليهم.

وكثيراً ما أفكر بالموضوع وأقول أهل الصراط المستقيم في غيبوبة، وهم أقلية متناثرون هذا إن وجدوا ولم يشكلوا ملة واضحة المعالم فقد اختلطت الأمور. لهذا فإن مشكلة الخوارج في العالم الإسلامي مشكلة كبيرة فهم ليسوا من أهل الصراط المستقيم بل ويقاتلون أهل الصراط المستقيم قبل أن يقاتلوا

المغضوب عليهم ولهذا لما سئل علي رضي الله عنه عن الخوارج أهُم كفار قال: لا من الكفر فروا ولما سئل أهم منافقون قال: لا. ثم قال: ليس من طلب الحق فأخطأه كمن طلب الباطل فأدركه. ولهذا في الدعاء اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه والباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه ولا تجعله ملتبساً علينا فنضل فمشكلتنا التباس الحق بالباطل لهذا نظن أن الحق يفرض بالإكراه. والله يقول: لاإكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي. فالإكراه هو الغي واللاإكراه هو الرشد.

27. المثقف المختبئ والمنسحب!

كل مرة أريد أن أبحث الموضوع يفلت مني فأحوم حوله ولا أسلط الضوء عليه ولا أجعله في البؤرة. نستطيع أن نقول بادئ ذي بدء: 1– المجتمع: شعوب ومثقفون وحكام. 2– الدين النصيحة: لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم. النصيحة لله ورسوله بفهم ما يطلبونه من الناس. أما أئمة المسلمين: فهم أصحاب السلطة. وعامتهم: فهم بقية الشعب. فالناصحون: هم الذين يفهمون الله ورسوله، وينبغي أن يكون فهمهم لله ورسوله على أساس آيات الآفاق والأنفس. لأن الله يقول (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد). أي إن الذي سيدل على صدق الله ورسله أي صدق رسله وكتبه التي أنزلها هي شهادة آيات الآفاق والأنفس. والعالم يتقدم بسرعة في فهم آيات الله في الآفاق = الكون المادي الذي يتطور بسرعة. وآيات الله في الأنفس = أي المجتمعات وكشف قوانينها وسننها في تزكية المجتمع أو تدسيته، لأن الأنفس قابلة للتزكية بكشف سننها، وتدسيتها بعدم معرفة سننها أو مخالفة سننها.

في الواقع إن العالم الإسلامي كان قد تخلف من وقت صفين إلى ابن خلدون، ثم ليس تخلف عن فهم الله ورسوله بل بدأ ينحدر إلى الأسفل.

إن كشف أو رؤية آيات الله في الآفاق والأنفس تحول إلى عالم آخر، وكتاب الله وآياته في الآفاق والأنفس يصدق بعضهما البعض، أن الذي خلق الكون والأنفس هو الذي أنزل الكتاب. ولا بد من كشف العلاقة بين الكتاب المنزل وآيات الآفاق والأنفس، ونحن إلى الآن لم نهتد إلى العلاقة بين آيات الآفاق والأنفس وآيات الكتاب، فبعضهم يعرف الكتاب قبل أن يعرف الناس آيات الآفاق والأنفس، وبعضهم يعرف شيئاً ما من آيات الآفاق والأنفس ولا يعلم آيات الكتاب، وقلّ أن تجد الذي يتمكن من أن يأتلف عنده الشاهد والمشهود له، فلهذا المشكلة في حملة آيات الكتاب وآيات الآفاق والأنفس هؤلاء هم معلموا الجوامع ومعلموا الجامعات وكلاهما العالم والمثقف لا قدرة لهم على النصيحة لعامة الناس وللسلطة.

إن أستاذ الجامع والجامعة تخليا عن دور النصيحة وكشف إصلاح العلاقة بين عامة الناس وأئمة الناس، وإن كلمة أئمة الناس قد تجمع بين المثقف والسلطة ولكن السلطة تضخمت وتقلص دور المثقف، وأنا حين جعلت العنوان: المثقف المختبئ والمنسحب!. كنت أريد، كيف أن العالم والمثقف أوحى إلى العامة أنه ليس بيدهم شئ؟ وأن السلاطين هم الذين يملكون كل شيء! وصدّق هذا عامة الناس فوقعوا ضحية سهلة لا حول لهم ولا قوة ولا قدرة لهم أن يفتحوا أفواههم إلا بكلمة (لا حول ولا قوة إلا بالله) والمثقف استراح لهذا الاقتناع من عامة الناس، أن المثقفين مساكين ليس لهم حول ولا قوة، وربما يستشهدون بالاضطهاد الذي يقع على العلماء والمثقفين، لكن المشكلة ليست بهذه السهولة فالأمر أعمق وأعقد، فالأمر يتعلق بالإنسان هل ميزة الإنسان بعقله وفهمه أم بعضلاته؟ هناك ينبغي أن يبحث الموضوع بروية وصفاء ووضوح، هل قوة الإنسان في عضلاته أو في رأسه ودماغه وفكره؟ وما لم نحدد موقفنا من هذا السؤال بوضوحٍ وجلاء فإننا لا يمكن أن نحسم المشكلة الإنسانية عامة ولا المشكلة الإسلامية خاصة، في ظاهرة أولية بسيطة ربما احترامنا للإنسان يكون بفكره، فاحترام العلماء والمثقفين والأساتذة والمفكرين لا يخطر في بالنا أن يكون لجثتهم وعضلاتهم أو أسلحتهم وإن كان كثير من الشباب الذين أغرموا بالرياضة مثلهم الأعلى الذين يستخدمون عضلاتهم!.

أولا وبادئ ذي بدء إن لم نحسم الموضوع في المشكلة الإنسانية أن كرامة الإنسان في دماغه في عقله في جهازه العصبي الفكري وليس في جسمه وقوة عضلاته لأن كثيراً من الحيوانات تفوق الإنسان في قوة العضلات، فالطفل على رقبة الفيل منظر يحدد تماما كرامة الإنسان أنه وبوعيه ومالك بن نبي ضرب هذا المثل حين يقود الطفل الجمل، وجلال الدين الرومي حين يسوق القصص يقول خذ من هذه القصة حصة، فحين يسوق قصة الأسد مع الأرنب الذي كان دوره أن يكون فطور ملك الغابة حين تأخر الأرنب وغضب الملك قال الأرنب: سبب تأخري أن أسداً آخر تعرض لي وإن شئت أريتك فقبل الأسد ومشى وراء الأرنب فقال جلال الدين الرومي: من أراد أن يعرف قيمة العقل على الجسد فلينظر إلى الأسد الذي يمشي وراء الأرنب!. والأمثلة عند الأقدمين على هذا كثيرة. ولكن آيات الآفاق والأنفس أرانا أمثلة تاريخية. فمالك بن نبي حين يذكر مثل الطفل والجمل لا ينسى أن يذكر هولاندا كيف كان يقود اندونيسيا؟ هذا هو الذي أصغر من حجم الطفل يقود ما هو أضخم من حجم الجمل! وذلك بفضل تزكية النفس أو تدسيتها، والآن حين نرى تشبيه مالك بن نبي لإسرائيل بأنه المنديل الأحمر في يد مصارع الثيران، فإنه ينقل لنا مثل مصارعة الثيران الإسبانية التي صارت مشاهدة بوسائل الاتصالات الحديثة فهل السياسي الذي يمكن أن يفهم هذا؟ أو عامة الناس؟ أم الذي ينبغي أن يفهم هذا؟ المثقف المختبئ المنسحب الذي هو عقل الأمة الذي هو وأسلافه هم الذين صنعوا البلازما الذي يعيش أئمة الأمة وعامتهم فيه. فهذا المختبئ المنسحب الذي يطمئن إلى أنه لايدينه أحد لأنه لا سلطة له، ولأن عامة الناس لم يكشفوا سلطة العقل والعلم إن المثقف أيضاً يشارك عامة الناس في الوهم من عدم إمكان مواجهة السلطان! إلا من قبل عامة الناس لأنهم ضحايا السحر الذي يكتبه المثقفون والسلطة يخاف من الاثنين خوفاً شديداً ولكنه يحرص على الاحتفاظ على بقاء سحر الجهل واستقالة العقل فإن العلم والعقل مخلوقات قاصرة لم تبلغ الرشد يستدعيهم السلطان ليشهدا له شهادة الزور ثم يأمرهم بالانصراف لأن دورهم هو هذا!. فمتى يبلغ العقل والعلم عندنا الرشد؟ ليعرفوا مكانتهم فيخرجوا من الاعتماد على قوة الصنم! ليعتمدوا على قوة الفكر، فمالم يفصل المثقف قوة الفكر عن قوة العنف فسيظل ضحية العنف لأنه لم يستطع بعد أن يستقل فكره عن الإيمان بقوة العنف، إن العنف وأدواته أصنام هذا العصر فمالم نفكر بها ونجتنبها ونخرج من طاعتها ستظل الأمور معقدة حتى غير قابلة للتحليل والتفكيك لكشف آليات الاضطهاد والسحر بالوهم، لكن التاريخ يقدم لنا نماذج في لحظات معينة من أن عامة الناس حين يفقدون السلطة وأدواتها فإنهم يستطيعون أن يتغلبوا على أعدائهم بوسائلهم الخاصة، فلبنان البلد الصغير الممزق طائفياً في ظرف عجيب جاءت أمريكا وفرنسا واسرائيل بقواتهم لكن هذا الشعب الأعزل الممزق وهو في حرب أهلية مأساوية استطاعت أن تطرد قوات المار ينز الأمريكية وجنود فرنسا وقوات إسرائيل التي حاصرت بيروت بدون حاجة للأمم المتحدة ومعاهدات؟! وهكذا حدث في الصومال وأطفال الحجارة؟! ولكن السياسي والمثقف وإيمانهم بقوة العنف يجعلهم حيارى فيظنون أن قنبلة باكستان وثورتها اللتان تدعوان إلى الاشمئزاز يمكن أن يغير شيئاً! لقد مات العنف وتعفن وصار منتناً ولكن إيماننا به يجعل مثقفنا ينسحب ويختبئ ويقول: المشكلة عند السياسي وليس عندي! ولكن المصائب تنبه أحياناً إلى مكان المشكلة فكان مما قيل في هزيمة حزيران 1967 من أن هزيمتنا ثقافية. من المنسحب المختبئ الذي لم يقم بواجبه فصدق عليه قول عيسى عليه السلام في الإنجيل: إذا كان النور الذي فيك ظلاماً فالظلام كم يكون ؟!

28. التاريخ قبل الفلسفة الواقع قبل العلم والمسمى قبل الاسم

ويمكن أن يعبر عن الجملة الأولى بأن التاريخ قبل الفلسفة. إن العلم والفلسفة متعلقان بالإنسان، ويمكن أن نقول عبارة أخرى: الحكمة من التجارب، ولكلمة الفلسفة صلة بالحكمة، ونحن نسمي الأشياء بعد وجودها وكشفها، لأن الأشياء التي لا تراها ولا تكشفها له اسم واحد غيب مجهول عدم النجوم والمجرات بعد أن يكتشفوها يسمونها بأسماء والأطفال يسمون ويبحث لهم عن اسم بعد الولادة أو قبله، حين يتوقع مجيؤهم هكذا الأمور في أول الأمر عند ولادة الأحداث أو عند التعرف عليها، والإنسان هو الكائن الوحيد الذي يحصل العلم من مراقبة الواقع، ويسمي الأشياء بعد التعرف عليها، في كل اللغات اسم للشمس والقمر والليل والنهار وللموت والحياة والإنسان هو الحيوان الناطق الذي يسمي الأشياء. "وعلم آدم الأسماء" بهذه القدرة صار

الإنسان إنساناً يتعرف بالأسماء والقراءة على الأشياء، وهنا يبدأ الموضوع يتغير حين يبدأ الإنسان بالقراءة، فإن الواقع لا يأخذ القبلية والأولية فيصر الإنسان في حياته العملية، العلم قبل الواقع الاسم قبل المسمى فحين يقرأ يبحث عن معاني الكلمات التي لا يعرفها وهنا يمكن أن نلاحظ إن الذين يحصلون العلم من الوقائع قلة والذين يبتكرون الأسماء ويولدون مصطلحات نادرين. ولكن تجمع هذه الأشياء النادرة والقليلة صار من الكثرة عدم قدرة الإنسان على التحصيل، فبدأ التخصص كما بدأ تقسيم العمل في حياة الناس حيث كان الناس في حياتهم الأولى: جامعين للثمار والنباتات القابلة للأكل بل أن يتعلم الناس الزراعة وكذلك كانوا صيادين قبل أن يستأنسوا الحيوان. وكان سابقاً الإنسان يكون جامعاً للعلوم: لغوياً وفيلسوفاً وطبيباً وفلكياً. فحدث التخصص بتوسع المعارف فلابد من إيجاد العلاقة بين التخصصات وتبادل نتائج الصناعات والخدمات ومع ذلك كله فلابد لكل فرد أن يكون عنده من اللغة ما يمكنه من التفاهم مع الآخرين وأن يكون له مدخل إلى القراءة ليدخل إلى هذا العالم من هذا الباب. بل إن الإنسان بعد الزراعة والصناعة واجه مشكلة المعلومات مشكلة الفلسفة والتاريخ المتسارع والمتوسع وانفجار المعلومات وأدوات نقل المعلومات فاجأتنا إلى درجة أن يتوقف الإنسان ليستعيد توازنه وأن انفجار المعلومات فرض على الناس قيماً جديدة أو على الأقل صار يفهم القيم القديمة بشكل جيد ليست أحلاماً، أو لم تعد أمنيات غير قابلة للتحقيق بل وقائع لابد من تفهمها والتكيف معها. كان الزمن يسبر ببطء حيث الإضافات كانت قليلة جداً ولا يشعر بها الإنسان ويتغيرون بدون شعور منهم وقد لاحظ ذلك ابن خلدون واعتبره داءً دوياً لا يفطن إليه إلا آحاد الناس، لم أسق هذه المقدمة الباردة الطويلة الخالية من الإثارة أو التي تفتقد الإثارة لخلوها من جاذبية العرض والتسلسل فمثلاً: أنا أعرف التاريخ من أربعينات هذا القرن، وخاصة لقرب مولدي جغرافياً من فلسطين فبعد عام 1948 بدأت الانقلابات وخاصة في سوريا وعمت البلاد العربية وكانت دوافعهم تحميل أوزار الأوضاع السيئة التي حدثت في فلسطين للعهود التي كانوا ينعتونها بالبائدة الذين فرطوا في فلسطين وضيعوا الأرض المقدسة. أشياء كثيرة قيلت انقلابات واعدامات واغتيالات وعذابات في السجون وتشريد ومطاردات، آلام تلاحق آلاماً، فتن يرقق بعضها بعضاً، ثم لما حدث بعد عقدين من ذاك التاريخ 1967 ليس فلسطين فقط وإنما نحن صرنا مشردين أيضاً، هناك برزت أصوات مع محاولة تفسيرات للحدث بأنها نصر وليست هزيمة. فعلاً يمكن أن يكون نصراً إذا كان السبب سبباً لليقظة وكان من جملة التفسيرات التي قيلت في تحليل ذلك من أن الهزيمة، هزيمة ثقافية، وليست عسكرية. ولا حُكام وإنما مجتمع بأكمله وكان هناك رجل من الجزائر يكتب عن تخلف الأمة وفكرة القابلية للاستعمار، إلا أن هذا ليس الذي أريده، أريد أن أعرف كيف أن التاريخ يسبق الفلسفة وأن الفلسفة والفهم تتكون ببطء شديد من خلال المعاناة المآسي، أو أن الناس العاديين يتغيرون قبل الفلاسفة أو أن الفلاسفة لا يقودون المجتمع وإنما يتبعونه. كما أن وضع الأسماء يأتي بعد تحقق الأشياء والأمور. الزراعة كانت تتحقق في الواقع قبل أن يمارسها الناس.

إن الانقلابات توقفت في العالم العربي وإيمان الناس بها انخفض رصيدها، وهذا شيء يعيشه الناس ولكن لم يسم بعد هذا الواقع إلا في صورة عودة الملكيات ووراثة الملك، هل حقاً هذا هو التفسير الصحيح للوضع الراكد في العالم العربي، أم أن هناك تغير جذري في النفوس يتكون في الواقع العملي، أم أن هناك حدثاً كبيراً مثل الانقلاب الفلكي الذي حدث في الرؤية الفلكية ليحدث في المجتمع تفسير جديد للظاهرة الاجتماعية بل للظاهرة الإنسانية التي توقعتها الملائكة للإنسان في مطلع الخليقة من الفساد في الأرض وسفك الدماء فكأن علم الله في الإنسان بأن يكشف دوره في تحقيق علم الله بأن الإنسان سيخرج من الفساد وسفك الدماء إلى العدل وكلمة السواء والاحسان والتعاون على البر والتقوى وعدم التعاون على الإثم والعدوان. إن كشف ذلك سيخرج الناس من الظلمات إلى النور أكثر مما أخرجهم معرفة سنة تسخير الكهرباء. لأن روح الإنسان المنفوخ من الله هو العلم والمعرفة وكشف الرؤية القرآنية وهي الرؤية النبوية. إن هذه القدرة هي الروح ومن هنا كان القرآن روحاً فقال في هذا "أوحينا إليك روحاً من أمرنا" إن هذا الوحي هو الروح وهو الحياة فبهذا يتسخر الكون كله للإنسان ويحقق علم الله.

نعم إن انقلاباً حدث وصار واقعاً ومولوداً وموجوداً. ولكن لاقدرة على شرح ذلك أو على وضع اسم له إنه يلفنا جميعاً. إنه مولود جديد. ولكن كيف يمكن فهمه؟ وكيف يمكن أن نعترف به؟ لماذا اعترفنا بإسرائيل؟ لماذا توقفت الانقلابات؟. إن الهنود الحمر حين وصل الأسبان إليهم توقفت آلهتهم عن الكلام، والعالم توقف عندهم إنهم لم يستطيعوا فهم الشيء الذي جاء إليهم. إن القائد الأسباني كورتيس كان يدفن الخيول التي كانت تنفق حتى لا يفهم

الهنود أن الخيل يمكن أن تموت وتقتل، ليظل إيمانهم وعجزهم عن تفسير ما يرون، يمكن أن نقول إننا نشبه في أن مشكلتنا فهم الواقع وتفسيره الصحيح إن الظاهرة الغربية شيء جديد على العالم لم نتكيف معه إننا نشتري أسلحة ميته كان الأسبان يخفون أن خيلهم تموت. ولكن هل يمكن إخفاء أن حل المشكلات بالعنف مات؟ من خمسين عاماً ونحن لاقدرة لنا على فهم هذا الواقع الذي يلفنا ماذا يمكن أن يطلق عليه إن السلام مع إسرائيل تسليم بهذا الواقع دون فهمه ومعرفة كيفية تجاوزه، إن الاتحاد السوفيتي لم يتهشم بفقره من أسلحة التدمير، ولم يأت إليهم عدو مثل إسرائيل التي صنعت لنا! إن إسرائيل ولدت وهي ميتة، دماغها متوقف، ويحقن ليخيل إلينا أنها تسعى، وأن فيها حياة إنها لعبة كبيرة، إنهم جاؤوا بسحر عظيم إننا نعيش ما قبل التاريخ ما قبل القراءة، لأننا لا نقدر أن نقرأ الأحداث ولا نسمي الأحداث، لأنها فوق تصورنا! إن حل المشكلات المعقدة سهلة ولكنها مستحيلة عندنا! لأننا لا نفهم آلياتها وسننها وأسلوب تسخيرها!.

إن الذين يثقون بآبائهم ثقة مطلقة ولا يقدرون أن يتأملوا آيات الآفاق والأنفس، لا يقدرون على الفهم إن سنة الله في البشر أنهم يمكن أن يصلوا إلى درجة الإغلاق لثقتهم بالآباء وإعراضهم عن آيات الله. (وكأيٍ من آيةٍ في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون) (وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذا أبدا) (قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا) (وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون) (سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلا ذلك بأنهم كذبوا بآيات الله وكانوا عنها غافلين) (إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم) هذه سنن اجتماعية كل المجتمعات قابلة لأن تصاب بها والعقوبات التي تعقب هذه التصورات تأتيهم بالعذابات الأليمة التي تكون سبباً للاستيقاظ. إن حربي الخليج من هذا النوع من العذابات، ومن لم يصدق فليكرر الحرب وشراء الأسلحة بدل أن نتمكن من فهم العوامل التي جعلت أوروبا تتحد بدون حروب هذا معنى الاعتبار بالتاريخ.

29. د. عبد الحميد أبو سليمان تحية لك

قرأت في العدد (17) صيف 1999 في مجلة أسلمة المعرفة التي يصدرها المعهد العالمي للفكر الإسلامي تقريراً عن ندوة "العنف في الإسلام بين المبدأ والخيار"، من أن محاضرة د. عبد الحميد تركز على أهمية الموضوع، وخاصة في المرحلة الراهنة، وأكد على ضرورة التفريق بين العنف السياسي داخل المجتمع الواحد والعنف بين مجتمعات مختلفة ... وبالرجوع إلى سيرة الرسول (ص) وجد المحاضر أنه لا ينبغي استعمال العنف لحل المشكلات السياسية في المجتمع الواحد مهما كان الأمر، لقد منع الرسول الصحابة منعاً باتاً من استعمال أي شكل من أشكال العنف في المرحلة المكية وعياً منه (ص) بسلبيات العنف وما يتمخض عنه داخل المجتمع الواحد، ووعياً منه بعدم جدوى العنف في تلك المرحلة ... أما في مرحلة المدنية فقد استعمل رسول الله (ص) كل أشكال وأنواع العنف بما فيها الاغتيالات السياسية مثل مما حدث لكعب بن الأشرف أحد زعماء اليهود، وذكر المحاضر تحول روما إلى النصرانية وثورة إيران وحرب الخليج بين العراق وإيران والعنف الجزائري الحاضر ... من خلال هذه الأمثلة وغيرها وصل المحاضر إلى قناعة هي أن عدم استعمال العنف داخل المجتمع الواحد في الإسلام قضية مبدأ وليست قضية خيار. فهي قضية إلزامية، ودعا المحاضر إلى ضرورة تطبيق الشورى كحل أوحد لا ثاني له لكل الخلافات والصراعات السياسية داخل الأمة الإسلامية.

نقلت ما سبق من التقرير عن الندوة ثم أشار التقرير عن ثمان مداخلات كانت المداخلة الرابعة هي الوحيدة التي وافقت وأيدت المحاضر والمداخلات الأخرى كلها كانت متشككة وغير قادرة على اتخاذ موقف صارم كما كان يريد المحاضر وكانت الأمور مختلطة لديهم:

المداخلة الأولى: كانت تسأل عن تعريف الأمة التي سماها المحاضر المجتمع الواحد واعتبرت العنف في الجزائر حقاً مشروعاً للدفاع عن اختيارات الشعب الجزائري المسلم.

المداخلة الثانية: أن موضوع العنف بين المسلمين غاب في المحاضرة وأن الإسلام ينظم استعمال القوة حتى داخل المجتمع الواحد أو حتى على صعيد أصغر، ضد الشعب أو الرعية.

والثالثة: إن أفكار هذه المحاضر إن كان كرجل سياسة فأنا أوافقه على الكثير فهو في حاجة إلى استخدام الدبلوماسية، أما كعالم سياسة أو مؤرخ كان ينبغي أن يكون أكثر دقة، وأن مصطلح العنف غريب عن القرآن وعن اللغة العربية الخ

والرابعة: هي التي وافقت المحاضر وتمنى أن تنتشر وتوضح أكثر وأكد على عدم وجود أي مشروعية لذلك مهما كانت الظروف موافقاً بذلك المحاضر.

والخامسة: استشهاده بالدستور الأمريكي بحق الشعب في تأسيس مليشيات إذا صارت الدولة غير شرعية وإذا كان لا يجوز لمسلم أن يقتل مسلماً مهما كانت الظروف فما الداعي لمثل هذه المناقشات ويرى أنه إذا صارت الحكومة غير شرعية فلا بد للمجتمع أن يثور ضدها، وابن خلدون من الذين قالوا بإمكانية استعمال العنف من طرف الدولة ضد فئات دون الحديث عن شرعية الدولة.

والمداخلة السادسة: اعتمدت على حديث تغيير المنكر باليد وحديث الأخذ على يد الظالم وأخذه على الحق وتساءل كيف يمكن تغيير النظام عندما يكون ظالماً وغير شرعي؟ وحيثما وجد الظلم لابد أن يتواجد الجهاد.

والسابعة: اعترض على استخدام انتقائي لبعض الآيات والأحاديث تحت عنوان صراع الحضارات وهي تتعلق بصراع الأديان وليس الحضارات.

والمداخلة الأخيرة: الأديان جاءت لضبط العنف لا لتصنيف العنف.

وعقب المحاضر موضحاً بعض الأفكار وأن الدرس الأساسي الذي نستلهمه مما سبق هو أنه لا يصح استخدام العنف داخل كيان المجتمع الواحد مهما كانت الأحوال بغية تحقيق أهداف سياسية وأن الإصلاح في هذه الحالة لا يتم السعي إليه إلا بالأساليب السياسية المدنية، وإن صبر الفئات المظلومة مجلبة لتضامن الأمة ضد المعتدي الباغي. هكذا انتهى التقرير عن الندوة.

شكراً لـ د. عبد الحميد رئيس المعهد العالمي للفكر الإسلامي يسرنا أن يكون رئيس المعهد العالمي للفكر الإسلامي على هذا الفهم لمشكلة العنف وشكراً لكل الأجناد المجهولين الذين يكافحون في تبيين الأفكار وتبليغها وإيقاظ الأمة إلى أهميتها، هذا التوجه إلى نور الله الذي سيتم مهما كره الكارهون وتشكك المتشككون، طبعاً هذه المحاضرة إعلان عن مبدأ، ومن كثرة وطول معايشتي لهذا الموضوع شعرت بالواجب على أن أشكر وأؤيد وأدعم ونشد من عضد الـ د. عبد الحميد الذي أخذ الكتاب بقوة في الدخول بقوة إلى ملة الأنبياء، مع الأسف الشديد إن قادة الفكر الإسلامي، هذا الموضوع ليس واضحاً لديهم، وكل الحركات الإسلامية وقادتها يتركون العنف عجزاً لا إيماناً وتربصاً لتهيئة القوة العنفية لا دخولاً إلى ملة اللاإكراه، وهذا الموضوع ينبغي أن يكون الشغل الشاغل لنا لأننا ما لم نحل هذه المشكلة فلن تحل مشكلة العالم الإسلامي بأجمعه، إن هذا الموضوع هو موضوع التوحيد والشرك وموضوع اللاإكراه في الدين والإكراه في الدين وموضوع الاعتراف بعقل الإنسان بجوهر الفهم عند الإنسان وإلغاء الإنسان وإلغاء قواه الواعية التي على أساسها أستخلف الإنسان في الأرض وأن موضوع العنف والإكراه هو الكفر بالروح الذي نفخ الله في الإنسان وبالقرآن الذي هو الروح أوحينا إليك روحاً من أمرنا، وأن البشرية بعد أن شبعت من العنف اضطر أن يخرج من العنف في المجتمع الواحد حسب مصطلح د. عبد الحميد وهذا ما حدث في الديمقراطيات. ونحن ننسى كثيراً ولا ننتبه أن الديمقراطية هي نبذ العنف في صنع السياسة من جميع الفرقاء في المجتمع

الواحد، ومادام هناك من يؤمن بالعنف فلن تحل الديمقراطية في بلد يؤمن أهله بإمكان صنع الحكم بالعنف، وأن العنف هو الإكراه وهو وسيلة الإكراه ولا إكراه في الدين لأن الدين الذي يأتي بالإكراه ليس بدين وكذلك الكفر الذي يفرض بالإكراه ليس بكفر، لهذا لما قال الله لاإكراه في الدين شرحها بـ"قد تبين الرشد من الغي" لأن الإكراه هو الغي واللاإكراه هو الرشد، لهذا سمي الخلفاء الذين جاؤوا بدون إكراه بالخلفاء الراشدين ولم يسموا بعد ذلك أحد من الحكام الذين جاؤوا بالإكراه راشداً، وهذا مَعْلَمٌ واضحٌ في فهم أن اللاإكراه هو اللاعنف، ولهذا كنت جعلت عنوان بعض مقالاتي اللاعنف هو اللاإكراه ونتابع أن لاإكراه في الدين بأنه الإيمان بالله والإكراه في الدين وفي السياسة هو الكفر والطاغوت، لهذا قال الله بعد "قد تبين الرشد من الغي" قال "فمن يكفر بالطاغوت" الذي هو الإكراه في الدين "ويؤمن بالله" الذي لاإكراه في دينه "فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها". وهذا هو التوحيد وهو الكفر بالطاغوت والإيمان بالله باللاإكراه. والشرك هو الطاغوت والإيمان بالطاغوت بدل الكفر به والشرك بالله الذي قال بأن الشرك يحبط الأعمال كلها إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء، وقال الله "لقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكو نن من الخاسرين" هذا دين الأنبياء جميعاً وملتهم، هناك ملتان فقط مجتمعان فقط وأمتان فقط أمة الإكراه مهما تعددت أشكالها وأمة اللاإكراه مهما اختلف طرق تحقيقها فاللاإكراهيون يتحدون الآن في أوربا لأنهم حققوا اللاإكراه في الدين واللاإكراه في السياسة.

تحية للدكتور عبد الحميد علينا جميعاً الذين لا نؤمن بالعنف أن نتعاون ونتواصل فكل الذين لا يؤمنون بالإكراه في الدين وقتل الناس من أجل أفكارهم يمكن أن يكّون مجتمعاً واحداً مهما اختلفت أشكاله وألوانهم أما آن لنا أن نفهم ونتأمل. شكراً لك يا عبد الحميد إننا معك في إحياء فكرة الأنبياء جميعاً في صنع مجتمع اللاإكراه باللاإكراه، وإنك بدعوتك هذه تحيي دعوة الأنبياء جميعاً والآمرين بالقسط من الناس ولن يكون الإنسان مؤمناً بالقسط وداعياً إليه وهو يؤمن بصنع مجتمع اللاإكراه بالإكراه وسنظل ندعوا بكل قوة إلى فهم الإنسان والتاريخ وأن نور الله في احترام روح الإنسان والقرآن الذي هو الروح للبشرية يا أيها الذين آمنوا يا عرب ادخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان فلندخل في السلم بيننا ونترك العنف فيما بيننا فستحل كل المشكلات من غير أن يخسر أحد شيئاً ويربح الجميع إنهم يرونه بعيداً ونراه قريباً.

30. يمكن أن تقتلني ولكن لا يمكنك أن تجعل مني قاتلاً

ينقل محمد أركون في مقدمة كتابه (قضايا في نقد العقل الديني) عن عالم الاجتماع (بيير بورديو) أنه قال: "إذا ما حصل لي أن ركزت على الموضوعات ذاتها وعدت إليها مراراً وتكراراً، وإذا ما حصل لي أكثر من مرة أن درست المسائل نفسها وأشبعتها تمحيصاً وتحليلاً، فإن ذلك عائد ليس إلى رغبة في الاجترار المجاني أو الهوس المرضي وإنما أريد عن طريق هذه الحركة اللولبية في الدراسة (الالتفاف على الموضوعات). أن أصل في كل مرة إلى درجة أعلى وأدق من الفهم للمسائل المطروحة كما أن ذلك يتيح لي في كل مرة أن أكتشف علاقات خفية، علاقات جديدة لم ألمحها سابقاً وبالتالي فإني لا أفعل ذلك من أجل التكرار أو حباً في الاجترار وإنما من أجل شئ آخر" إن العنف مرض الإنسان وهو الأسلوب الذي لا يليق بالإنسان وأن إنسانيته هو خروجه من العنف واني حين ألح على هذا الموضوع، دينياً وتاريخياً وإنسانياً، أفعل ذلك لأن سلامة فكر الإنسان تكون على قدر ما توصل إليه من براءة عن العنف وخروجٍ منه إن الإنسان صار قابلاً للفهم هذا هو الأساس لبحث هذا الموضوع: إن العنف يبدأ أول ما يبدأ في القلب في الفكر في التصور، ثم ينتقل ذلك إلى اللسان وسيلة نقل الفكر والتصور إلى إنسان آخر، ثم ينتقل ذلك إلى اليد، ليفرض تصوره على الآخر بالعنف والإكراه وإن يد الإنسان وقوة عضلاته تضخمت إلى العصا والحجارة والسيف والسلاح الناري ثم القنبلة النووية التي شهدت للإنسان وعلى الإنسان أن يخرج من هذا الأسلوب ليرجع إلى أسلوب آخر أسلوب نقل التصور على أساس العواقب للتصورات فالتصور والفهم الذي يعطي عواقب مفيدة للبشرية لا يحتاج إلا إلى البيان والتبليغ للإيصال إلى الآخرين والعنف في القلب أي في الفكر ينشأ من التصور الخاطئ للإنسان في أن أفضل استخدام للإنسان يكون بإكراهه، إن هذا التصور هو الذي يؤدي إلى إعطاء الأولوية للعنف وأدواته حتى إن الإيمان بهذا التصور أدى إلى الاستخفاف

بالعلم والكتاب والقلم كما هو مبثوث في الثقافات البشرية خلال التاريخ إلى يومنا هذا فإن الأولوية لهذا الإيمان في التعامل مع الإنسان وهذا الموضوع ليس صعباً، فهو واقع عملي أمامنا ولكن ما أسرع ما نتراجع عن هذا عند اشتداد الأزمات نرجع إلى القيم الأولية التي ترسخت خلال التاريخ والبطولات والتبجيلات الخيالية للبطولات العنفية إن الناس يحترمون العالِم ولا يخطر في بالهم حين يفعلون ذلك أنه صاحب عضلات قوية ومصارع يقضي على خصمه بالضربة القاضية هذا له مكان آخر لا يتصل بالعلم والإنسان وقدراته، إن عظمة الإنسان ليس على قدر بطشه "وليس الشديد بالصرعة وإنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب" والقدرة على كظم الغيظ درجة ثانية والأوْلى أن لا يحدث في قلبنا غيظ بل سرور أننا خرجنا من شريعة الغاب إلى شريعة الفهم بالعواقب وحل المشكلات من غير أن يخسر أحد شيئاً ويربح الجميع والذي عنده مثل هذا الحل لا يَحْدث ولا يتكون الغيظ والكراهية في قلبه وتصوره وأنا أجد أساس هذا كله في قوله تعالى: "سخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون" فحين نفهم قدرة الإنسان على كشف القوانين فإذا كشف القوانين والسنن تمكن من التسخير، إن الإنسان سخر الحيوانات التي خُلِقت قبل الإنسان فاستأنسها وسخرها وزاد من قوة عضلاته. ولكن قدرة الإنسان على كشف السنن جعله يستنبط من مشاهداته وسنن هذه المشاهدات طاقة البخار والمحرك البخاري والانفجاري والكهربائي إن الله حين قال بعد ذكر الخيل والبغال والحمير لما قال: (ويخلق مالا تعلمون) فقد رأينا ما خلق الله! ومعنى خلق الله هنا ليس أنه خلق المحرك البخاري ولكن خلق السنن كلها وقدرة الإنسان على تسخير هذه السنن فهذه السنن الآفاقية المادية مع السنن الأنفسية وكلا السنتين الآفاقية والأنفسية من منحة الله المجانية وقدرة الإنسان على التعامل مع هذه السنن وتسخيرها هو الرأسمال الموهوب من الله للإنسان والإنسان يعمل في هذا الرأسمال الذي لا نفاذ له الشموس والمجرات كلها طاقات وكلها مسخرة للإنسان، القادر على كشف السنن وتسخيره ولما قال ويخلق مالا تعلمون ونحن نقول كما قال ذلك الصوفي (والآن كما كان) يخلق مالا نعلم في المستقبل إن مثل هذا التصور في الكون وعن الكون وللكون ينزع الغل والكراهية من القلب من تصور الإنسان فيتصور الكون كله مسخراً له كله رحمة كله مبني على فضل القيمة من الرأسمال المجاني، لأن سخر بمعنى كلفه عملاً بغير أجرة فتصور الكون والإنسان بهذا الفهم يجعل في القلب صفاء ونقاء وتفاؤلاً لا كدر فيه ولا ظلام ولا يأس وإنما صبر على الكشف والتسخير فلا قلبه يحتوي على الغل والحقد لآيات الآفاق والأنفس حيث التسخير يأتي بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف بغير حساب "كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء" ونحن في هذا العصر رأينا من مظاهر قدرة الإنسان على التسخير ما لم يتيسر للذين من قبلنا ولم يكن ليخطر لهم على بال فلهذا نحن لنا قدرة على فهم (وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعاً) أكثر من الذين كانوا قبلنا وسيكون للذين يأتون من بعدنا قدرة أكبر منا حتى يتحقق علم الله في الإنسان وعلم الله لانهاية له فحين يخرج من قلبنا الغل والحقد والكراهية نكون حصلنا على القلب السليم وعلى النفس المطمئنة وعلى التصور الصحيح لهذا العالم، فيحل عند ذلك في القلب الطمأنينة، ألا بذكر الله تطمئن القلوب. إن ذكر الله ذكر سننه وذكر نعمه اذكروا نعمة الله واذكروا أيامه اذكروا النعم واشكروه يزده لكم واذكروا نِقَمه والتصورات الخاطئة لخلقه ولسنن خلقه كانت الكهرباء صاعقة تقتل وتدمر فأمسك بها الإنسان وحولها إلى نعمة ما ورائها نعمة حولها إلى نور ودفء وخدمة ولم تنته بعد تسخيراتها ومن هنا نستطيع أن نقول أن الإنسان لا يحصل على السعادة التي هي الرضوان والنفس المطمئنة إلا إذا سَلِمَ تصوره للكون ولنفسه فمن هنا تبرز أهمية العقيدة والتصور الصحيح والتفسير السليم في الحياة الإنسانية فإن التصورات الخاطئة هي التي تصنع النفس الأمارة بالسوء، وتصنع المجتمعات السقيمة والحضارات الحاقدة المغلولة والإنسانية المعذبة"يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم" إن التصورات الصحيحة تورث الحياة الطيبة والتصورات السقيمة توجِد الحياة المعقدة المتشائمة المظلمة إن العالم مريض بالعنف ومليء بالحقد وليس في العالم إلا مذهبان، مذهب العنف والتدمير، ومذهب اللاعنف واللاإكراه، المؤمنون بالإنسان أنه يعطي بالرفق مالا يعطي على العنف والإكراه لهذا كان (لا إكراه في الدين) وبهذا تبين الرشد من الغي تبين الدين الصحيح من الخطأ وتبين الكفر بالطاغوت الذي هو الإكراه والمعجون من طينة الكراهية والخوف وتبين الإيمان بالله الذي ليس في دينه إكراه وبهذا تبين أيضاً الذي استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها. ومن هنا نعلم أن الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور وأن الذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات وأن ابن آدم الذي تُقُبل عمله ونجح تسخيره، قال لأخيه الذي لم يتقبل عمله ولجأ إلى القتل: لأقتلنك! فقال أخوه له:إنما يتقبل الله من المتقين لئن بسطت إلي يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك إني أخاف الله رب العالمين.

أخاف الله الذي سخر لي ما في السماوات وما في الأرض ووهب لي قدرة التسخير بدون عنف وبدون تدمير، أنا صرت خلقاً آخر لن أرجع إلى شريعة الغاب كلنا سنموت ولكن ينبغي أن أموت وأنا أشهد أن لا إله إلا الله كلنا سنموت سواء من شهد لله الذي كرم بني آدم ومن كفر وتراجع فكأن ابن آدم يقول: (يمكن أن تقتلني ولكن لا يمكنك أن تجعل مني قاتلاً)!.

31. ويحيى القتل حين يموت العقل

حقائق للحياة تحدٍ إعلامي

هذا اسم كتاب في حدود تسعين صفحة وضعه بيتر أدامسون لليونيسف ومنظمة الصحة العالمية واليونسكو وبالتشاور مع خبراء أكثر من (41) شخصية مختصة. ونشر الكتاب بمشاركة (104) مؤسسات متخصصة: يقول في المقدمة: في كل أسبوع يموت ربع مليون طفل في العالم النامي... الفقر من الأسباب... بيد أن المعارف الحديثة لم توضع في متناول غالبية الأسر... وهذه المعارف تستطيع غالبية الآباء والأمهات تطبيقها... والطرق العلمية والقليلة الكلفة المتاحة لحماية الأرواح... بيد أن السؤال الصعب هو كيف يمكن إيصال هذه المعلومات إلى الناس؟ وكيف تصبح جزءً من المعارف الأساسية. لقد أثبتت تجارب بلدان العالم أجمع أن التكرار المتواصل والمتنوع للمعلومات الجديدة من قبل جميع الأطراف وعلى مدى سنوات كثيرة هو الذي يكفل فعلاً نجاح الجهود لإيصال المعلومات إلى غالبية الناس والكتاب يذكر عشر موضوعات أنها المسببة للوفيات المذكورة ويقدم كل موضوع مع الصور الداعمة في صفحتين صفحة مصورة وصفحة فيها تعريف موجز للموضوع ثم صفحتين بتقديم المعلومات الرئيسية ثم صفحتين أو أكثر للمعلومات المساندة وعلى الغلاف الأخير يقول: هلا ساعدت في نشر المعلومات البالغة الأهمية الواردة في هذا الكتاب على أوسع نطاق ممكن.

هذا الكلام أقتبسه أملاً واستجداءً ليساعدني على إضاءة موضوع آخر يهمني منذ نحو نصف قرن وهو أن هذا العالم الذي نعيش فيه بين المستكبرين، يشكلون أقل من خمس العالم، والمستضعفين الذين هم أربعة أخماس العالم ومنهم المسلمون والعرب قاطبة يُسْتَهلكون بالحروب وشراء أدواتها وهم غارقون في الديون ويدفعون فوائدها ويعجزون عن الوفاء فيتراكم عليهم، وتستخدم هذه أدوات ضغط عليهم حتى لا يتخذوا مواقف لصالح العالم المستضعف، وبينما مثل هذا الدَيْن الذي عليهم وأكثر من أموالهم في بنوك المستكبرين يستثمرونها لصالحهم ويجمدونها فوراً بمجرد اتخاذ موقف لصالح المستضعفين، يحدث هذا كله ضمن آلية لا شعورية وعدم تكيف مع العالم الجديد فكما كتاب (حقائق للحياة تحدٍ إعلامي) يقول عن مشكلة واحدة من مشكلات هذا العالم النامي المستضعف من أن ربع مليون طفل يموتون كل أسبوع في العالم النامي (المستضعف) إن موت الأطفال وقتل الشباب وتشردهم.

ففي الصفحة الأول من هذا الكتاب: (إن الوسائل الصحية الأساسية الأربع التي يتضمنها هذا الفصل الأول تستطيع المساعدة على منع وفيات أكثر من ثلاثة ملايين طفل ومئتي ألف امرأة) هذا فيما يتعلق بالصحة الجسدية في جانب واحد فما هو حالنا في الصحة الفكرية؟. إن غياب المعارف الحديثة المتعلقة بهذا الموضوع يؤدي إلى هذه الخسائر، فكيف بغيابنا نحن مستضعفي العالم عن المعارف الحديثة! هذا هو الذي خلق مشكلة الإنسانية في شقيه الشمالي والجنوبي إن أكثر من نصف هذا القرن المنصرم انشغلنا –بشبح وخيال مصطنع يقال له إسرائيل– عن فهم المعارف الحديثة والتطورات الجديدة التي حدثت في الشمال فلم يكن ممكناً أن يكون لنا تصور صحيح للوضع الجديد والتغيرات التي حدثت منذ أربعة قرون وأكثر، فمعرفة هذه المستجدات وهضمها شيء أساسي لاتخاذ موقف سليم. إن العالم العربي المغرم جداً إلى حد الهوس بالوحدة العربية لا يرى إليها طريقاً غير طريق القوة والبطش وإزالة الآخر كما كان ممارساً من أكثر من ألف عام! نعم كان ذلك ممكناً في تلك القرون الماضية، فكان يجري تبادل السلطة بالأسلوب الدموي ضمن الأسرة الواحدة أو إنشاء إمبراطورية بإزالة ممثلي الدول المجاورة! هكذا كان التاريخ وترسخ في أعماقنا ذلك كأنها

الحقيقة الواحدة الوحيدة لتوحيد القوى للأمة العربية والإسلامية، هكذا ترسخت جذور ثقافة العالم الإسلامي ولكن منذ أن غير الشماليون تصورهم عن العالم عن الأرض والشمس والنجوم وحملهم هذا التصور الجديد إلى الدوران حول الأرض واستطاعوا أن يستحدثوا تصوراً جديداً للعالم وثقافة جديدة لم يحدث من قبل للبشر وهذا التصور الجديد يتوسع فكان الدخول في عالم الصناعة فلم يكن نابليون في مصر مثل الصليبيين من عشرة قرون، إنه يمكن مقارنة معركة إنبابة بين المماليك والفرنسيين بحرب عام 1967 بعد مئتي سنة ما عرفنا ماذا حدث في العالم؟، وإن احتلال الكويت كان مثل احتلال سوريا إلى جنوب تركيا من قبل إبراهيم باشا فمن ذاك التاريخ كانت العلاقات غير متكافئة معرفياً إن اليونسيف ومنظمة الصحة العالمية واليونسكو يهتمون بتوفير المعلومات عن الإسهال الذي يؤدي إلى موت الأطفال في العالم النامي ولكن من سيهتم بالإسهال الفكري الذي عندنا نحن مثقفي العالم العربي الذي لا قدرة لنا على التفكير لحظة واحدة في مرضنا الأساسي الذي لا يمكننا من أن نفكر فيه لحظة واحدة في تطبيع العلاقات العربية العربية أو السلام العربي العربي بينما منذ ربع قرن أو من حرب 67 ليس لنا حديث ولا فكر ولا صوت إلا السلام مع إسرائيل لم هذا الإسهال والتسهيل الواسع والعريض للسلام العربي الإسرائيلي والتطبيع للعلاقات معها؟ وأنه لا قدرة لنا للحديث عن السلام بين العرب وتطبيع علاقاتهم مع بعض إن هذا الموضوع يدعوا إلى التأمل الكبير لماذا أمة في تعداد ثلث مليار من البشر لاقدرة لهم على فتح حوار أو حديث نفسي مناجاة ذاتية بين المسلمين المؤمنين بالرسالة المحمدية؟ ولماذا لا يتحدث الليبراليون المعجبون بالثقافة الغربية والحريات العامة لا يتحدثون عن هذا الموضوع؟ لماذا اليساريون الثوريون لا يبحثون عن هذا الموضوع؟ ولماذا القوميون المحترقون شوقاً إلى نهضة أمتهم لا ينبسون ببنت شفة فيماذا ينبغي أن نفعل؟لم هذا السكوت عن هذا الموضوع؟ لم هذا اليأس المبين في الاهتداء إلى السلام العربي أو الوئام العربي مثل الوئام الجزائري؟ لم الأمور متعثرة ومستبعدة وغير قابلة للخوض فيها؟ ماذا يمكن أن يسمى في عالم الفكر هذا الشيء الذي لا يخضع للتصور والإدراك؟ إن الجميع في يأس صحيح إنهم قد يتنازعون في السلام والتطبيع مع إسرائيل. ولكن لِمَ لاقدرة لهم على التنازع في السلام والتطبيع بين العرب؟ إنه حدث جديد على العالم الذي نعيشه نحن العرب إن تاريخنا المجيد يحول بيننا وبين أن نصنع السلام فيما بيننا. كيف تصنع سلاماً مع السادات؟ ينبغي أن يموت لنصنع السلام، ينبغي أن يُمَتون العقل ويحيى القتل !!!

إذن ينبغي أن نحيي القتل لنصنع السلام. إذن فلنكف عن صنع السلام فيما بيننا ولنتحدث عن السلام مع إسرائيل لعلها تحول دون أن نلتهم بعضنا !!!

32. يا أيها العرب ادخلوا في السلم العربي العربي مثنى وفرادى

إلى متى سنظل عاجزين عن قراءة آيات الآفاق والأنفس حتى يتبين لهم أنه الحق، وهناك قواعد أساسية ينبغي كشفها ليتحقق التسخير فإن شروط تحقق التسخير لآيات الآفاق والأنفس كشف سننها، والآية النفسية الكبيرة هي كشف طبيعة النفس. فإن مشكلة النفس هي المشكلة الأساسية الخادعة أمام الإنسان. فإن سورة الشمس هذه الشمس المبهرة الساطعة رمز الوضوح والدفء فإن هذه السورة تقرر حقيقة نفسية كبيرة حين تقول (ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها) فإن هذه الكلمات تقرر حقيقتين كبيرتين الأولى أن النفس ملهمة الفجور والتقوى وهذا الإلهام من قبل الخالق والثانية أن تحويل الإنسان القابل لأن يكون فاجراً أو متقياً هذه العملية عملية ووظيفة بشرية، قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها. كل طفل في العالم يندفع من رحم أمه لا يعلم شيئاً لايعلم أية لغة ولكن المجتمع قابل أن يعلمه أية لغة وهو قابل أن يتعلم ذلك. فكذلك الطفل له قدرة على أن يتعلم الفجور أو التقوى فالطفل ملهم أن يتعلم أية لغة كذلك ملهم أن يتعلم الفجور أو التقوى أن يتعلم ويتشرب مفاهيم ثقافة الإكراه والخضوع له وملهم أن يتعلم مفاهيم ثقافة اللاإكراه ثقافة الرشد والهداية والمجتمع هو الذي يغرس في الطفل الذي ينشأ فيه هذه الأفكار حقائق

فاقئة للعين سواء كانت في آيات الكتاب أو آيات الواقع الأنفسي الاجتماعية، فإن الطفل يصب في قالب المجتمع صباً محكماً عميقاً سواء للفجور أو التقوى والإكراه واللاإكراه وفي سورة التين والزيتون تقرير لهذه الحقيقة (ولقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين) هذا الإنسان أبدع ما خلق الله هذا الخلق الآخر الذي ظهر فيه إبداع الخالق فتبارك الله أحسن الخالقين. هذا الذي نفخ فيه من روح الله ثم سواه فنفخ فيه من روحه. إن هذا الإنسان المبدع المبتكر يمكن أن يرتد إلى أسفل السافلين ويتردى إلى ما دون الأنعام بل هم أضل. ما بين هاتين الإمكانيتين في تصنيع الإنسان وتحويله وتغييره يقف تاريخ الثقافات البشرية كمنارات للسير إلى الفجور أو التقوى إلى التدسية أو التزكية إلى أحسن تقويم أو أسفل سافلين. إن آيات الآفاق تحكمها قوانين الجذب والنبذ في الأفلاك المنطلقة وقانون الحياة تحكمه الوراثة الجينية وقانون الأنفس البشرية تحكمه الوراثة الثقافية ومصدر تطور هذا القانون التاريخ حيث أتى على هذا الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكورا فكان كسائر الحيوانات لا ينتج غذاءه ولا يتدخل في مسيرة حياته إن الاستعدادات الكامنة في الإنسان في التزكية والتدسية لم تكن متراكمة فقبل اكتشاف الإنسان للنار كان الإنسان خلواً من رصيد التسخير والسيطرة ثم لما تقدم إلى تسخير الحيوان وتسخير الأرض والنبات في الزراعة دخل عالماً من عالم الإمكان لا نهائية فظهر إمكان فهم (وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون) وكل مولود يولد على الفطرة أي ملهم للفجور والتقوى وقابل للتزكية والتدسية وقابل لأن يكون في أحسن تقويم أو أسفل سافلين. إن هذه الأسس ينبغي أن تصير متينة وواضحة وإلا فإن البناء الذي يبنى عليه يكون ثباته على قدر متانة الأساس. فإن الشوق الأبدي في الإنسان لحب الاستطلاع والمعرفة لـ كيف يسير الخلق؟ ولكن حب الاستطلاع هذا فإن كان هو النار المقدسة المشتعلة في أعمال كل مولود الملهم للفجور والتقوى قابل قمع هذا الدافع لطريق التزكية فيموت حب الاستطلاع في النفوس. وكنا نقلنا عن توينبي قوله (ولكن حب الاستطلاع لن يثور إلا إذا بدت للعيان عملية التغيير الاجتماعي واضحة وضوحاً ساطعاً قوياً إذ بدون هذا التطلع المثير الخلاق تبقى أعظم ما نعرف من هياكل التاريخ تأثيراً في النفس خرساء لا تحدث أثراً لأن العيون التي تنظر إليها لا ترى فيها شيئاً ويتبلور حب الاستطلاع عند أي من كبار المؤرخين في بذل الجهد للرد على طائفة من الأسئلة ذات مغزى لجيله تتلخص في كيف ترتب هذا على ذاك؟

والآن وفي هذه الظروف العالمية التي تحدث فيها أحداث كبيرة أمامنا من عمليات التغير الهائلة في التاريخ كيف لاقدرة لنا على استطلاع الأسئلة التي تدور حول كُبَّار الأحداث؟ تمزق الاتحاد السوفييتي. والاتحاد الأوروبي الراسخ الذي تقدم بثبات. واليابان التي استيقظت تحت وطأة القنبلة النووية فصارت إحدى الدول العظمى في التاريخ البشري. ثم العجز الفاضح الناضح للعجز العربي الإسلامي في قراءة الأحداث وتفسير الموارد والمصادر. ماذا حدث في العالم؟ وماذا يحدث؟ وكيف يحدث ما يحدث؟ وما هي العوامل التي تفعل هذه الخوارق والتجاوزات؟ إن دخول العالم إلى الزراعة كانت نعمة من نعم الله على قدرة الإنسان لاستطلاع سنن النبات فتمكن من حدوث تقسيم العمل وولادة التخصصات بل وولادة الفساد وسفك الدماء الفساد في استغلال البشر بعضهم بعضاً ونتيجة ذلك حدث سفك الدماء ثم وصل العالم إلى حالة جديدة لم يحدث قط في التاريخ مثلها ألا وهي حالة أن المشكلات لا يمكن حلها بالقوة والحرب والعالم الآن مدفوع للتكيف مع هذه الحقيقة الكبرى وهي نعمة عظيمة ولكن لم نفهمها ولم نستطع أن نتمتع بها فمتى نتمكن من فهم هذا الموضوع ومتى نتمكن من تفهيمها للناس وهذا الواقع يلفنا جميعاً ولكن التكيف معه يحدث بالتقسيط منجماً وببطء شديد ومن غير إعلان إن سبب هذا السلام الإسرائيلي العربي الذي سد علينا كل الآفاق فبالتقسيط نعمل السلام والتطبيع مع إسرائيل ولكن متى تصير لنا قدرة على فهم أن العرب لن يستطيعوا أن يحلوا المشكلات التي بينهم بالحرب أيضاً ومن لم يصدق فليعد تلك الحروب أو لنستمر في تقبل نتائجها المرة التي نتجرعها ولا نكاد نسيغها إن العالم الجديد الجديد جداً يحكمه قوانين جديدة ومن أبدع ما خلق الله ونحن العرب والمسلمين لنا إمكانات لا نهائية في التعامل مع هذا العالم الجديد متى سيتمكن المثقف من إعلان هذا العصر وكيف سيتكيف السياسي بعد ذلك في التكيف مع عصر السلام متى سنتخلص من جثة الحرب المنتنة لندخل في السلم كافة فيما بيننا نحن العرب.

33. اعملوا على مكانتكم إنا عاملون وانتظروا إنا منتظرون.

لماذا حياتنا معقدة ومختلة؟ وكيف نجعلها ميسرة ومتوازنة؟ وكيف نجعل تصورات (=ما بأنفسنا) تصوراً صحيحاً؟ بحيث ينتج عن تصورنا هذا تسخير هذا الوجود وتسهيل الحلول وتعادل الأطراف بطريق العدل والرضى والإقناع. كيف نكشف أن الإنسان يعطى على الإقناع أكثر مما يعطى على الإكراه والتخويف؟. وما لم نعترف بحقيقة أن أحسن استثمار للإنسان ليس بإكراهه وتخويفه وتهديده فلن نخرج من الظلام. إن هذين التصورين تصوران متضادان متناقضان، وملتان متقابلتان، ويقال في اللغة الدينية صحة العقيدة، الشرك والتوحيد، العقيدة الفاسدة والعقيدة الصحيحة، الظلم والعدل. ينبغي أن نعيد تأسيس هذا الموضوع على أساس من الوضوح والبيان واليقين الذي يجعل القلوب مطمئنة ومنشرحة، ولا يتراجع عنها الإنسان وينخلع عنها وأن يكره أن يعود إليها كما يكره أن يلقى به في النار وما يكون لنا أن نعود فيها أبدا، ولئن عدتم إلى ملتهم ولن تفلحوا إذا أبداً. إن هذا الخلط ينبغي أن يزول إن هذا الريب يعطل حياة الإنسان ويصفهم الله (بأنهم في شك منه مريب) ويقول عنهم (ارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون) ويقول عنهم (كانوا بآياتنا لا يوقنون) وما دام الأمر مختلطاً علينا فهو ظلام والتباس وقطع من الليل المظلم لا بد من الخروج من الظلام والشك والريبة والتردد وينبغي أن نشعر بحلاوة الإيمان وطمأنة النفس ونشعر بتواطؤ آيات الأفاق والأنفس مع آيات الكتاب. إنه رياضيات واضحة بينة (1+1=2) وإنه اقتصاد أي يعطي فضل قيمة عليا إنتاج أكثر وأفضل وبجهد أقل وزمن أقل وكلفة أقل، فهذا معنى الربح والخسارة في القرآن. إن هذا المنطلق وهذه السنة ينبغي إن يصير واضحاً وساطعاً لا لبس فيه ولا اشتباه. فهذا ما يقول الله عنه (ليلبسوا عليهم دينهم) وما يقول عنه (وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين) إنهم في حيرة اليأس وظلامه وغموضه.

هل يمكن أن نتبين الرشد من الغي؟ هل يمكن أن نفهم أن رسول الله تركنا على المحجة البيضاء ليلها كنهارها في الوضوح والبيان؟ هل نحن على هذا الوضوح أم نحن في الحيرة والظلام الدامس؟ كيف ضاع منا هذا الوضوح؟ كيف أفلت من أيدينا هذا الحق؟ كيف التبس علينا الحق بالباطل؟ وكيف ظننا أن الحق والباطل إذا أعطيا فرصا متكافئة ينتصر الباطل؟ يمكن أن أقول هناك بدأ خلق قوة الباطل، هناك ضللنا الطريق وتفرقت بنا السبل، إنه ضاع منا. إن مجرد مجيء الحق وظهوره بوضوح كافٍ لموت الباطل تلقائياً. هل يمكن أن نراجع أنفسنا وأن نكشف الفرقان ونتبين الرشد من الغي، هل يمكن أن نكشف العقل؟ وكيف صارت عقولنا يمكن أن تقبل أن شخصا أو جماعة إذا دبروا انقلاباً في الليل ونجحوا يتحول هذا الذي نجح إلى إله منقذ مزيل للباطل وإذا فشل يكون خائناً يصدر عليه وعلى أعوانه حكم الإعدام! كيف سأعقل هذا؟ أما أنا فلا أعقل ذلك ولا أرى أن هذا الانقلاب بهذا النجاح صار شرعياً عند الناس وعند الله، بل أراه هو والذي قبله أنهم من ملة واحدة ونموذج واحد مهما لبس من لبوس ومهما أدعى الإسلام أو أدعى حرية الفكر أو عدالة التوزيع للثروات. هذا كله مذهب واحد، إن الذي جاء مثل الذي ذهب والذي قَتَل مثل الذي قُتِل كلاهما من مصدر واحد وإلى مصير واحد ومن لم يصدق فليقرأ التاريخ كيف هلك من هلك. إن هذا التحول من القمة إلى الحضيض من الملك إلى قعر القبور أو السجون كيف يمكن أن تكون الشرعية في هذا. الشرعية هي التي تأتي بالشرعية، بالقبول وليس بالإكراه، إن الذي يأتي بالإكراه لا يمكن أن يكون شرعياً ولا رشداً ومتى يكون القتال شرعياً ومتى يكون المتقاتلان من طينة واحدة وملة واحدة ومتى يزول الضلال بالضلال وهل يمكن إزالة الخطأ بالخطأ وإزالة الضرر بالضرر الأشد رسوخاً وهل تكرار الخطأ يحول الخطأ إلى مشروع والباطل يتحول إلى حق، وهؤلاء الشباب الذين نوحي إليهم أنهم على حق فيندفعون إلى القتل والاغتيال أو الانقلاب فإذا فشلوا نتبرأ منهم ونحكم عليهم بالإعدام وإذا نجحوا نقدم لهم الولاء الذي كنا نقدمه للذين ذهب بهم الانقلاب. إلا أن هذه الأوضاع ليست شرعية ولكن من المهم أن نعرف أن تحويل غير الشرعي إلى شرعي لا يكون بالقوة والإزالة وإنما بالتحول الفكري، لا يزال الخطأ بالخطأ ومن فعل هذا كرر الخطأ ورسخ الخطأ. ألا يا مسلمون أعلموا أن الذي يأتي بالإكراه لا يمكن أن يكون راشداً ولا شرعياً وما دمنا نظن أن الذي يأتي بالإكراه ويحتفظ بوجوده باستمرار الإكراه لا يمكن أن يتحول إلى شرعي ولا إلى رشد، ومن لم يصدق هذا وتشكك فيه فليلق نظرة واحدة ثم فليرجع النظر كرات أخرى على تاريخ المسلمين وتاريخ البشرية، منذ كم نزيل الإكراه بالإكراه فيزول الشخوص ولكن الإكراه لا يزول ولا يتزحزح. إن من يؤمن

بإمكان صنع الرشد بالإكراه كالذي يؤمن بصنع الديمقراطية بالانقلاب والعسكر والقوة. إن الديمقراطية لن تدخل إلى بلد يؤمن أهله أو أحد أطرافه بالقوة في صنع الحكم ولا بد أن يعلن جميع الفرقاء إيمانهم بأن اللجوء إلى القوة في صنع الحكم غي وبغي واستبداد وطاغوت واستلاب واستعباد وإدخال العباد في عبادة العباد ولتتحقق الديمقراطية لا بد من أن يكفر الجميع بالطاغوت وبالذي يأتي بالقوة ويؤمنوا بالإقناع واللجوء إلى الإقناع بالأفكار لا بالجنود ووسائل الإكراه.

إن الانقلابات التي يفرح بها المسلمون مثل الانقلابات التي يفرح بها القوميون. متى سنتبرأ من الانقلابات كلها مهما لبسوا من لبوس أحمر أو أبيض أو أخضر كلهم لون واحد متى سنبدأ بالبحث عن الطرق الشرعية التي تأتي بالشرعية بالكفاح السلمي وبالشهادة الحق وبالتعاون على البر وعدم التعاون على الإثم. متى نصير نعلن ما نؤمن به من أن يكون المجتمع يخضع للإقناع لا يخضع للإكراه ويتحدى الإكراه باللاإكراه ومتى سيصير الحاكم المستبد المعتمد على الإكراه يثق بك أكثر مما يثق بحرسه الخاص أنك لن تغدر به ولن تفرح إذا غدر به أحد وأنه يمكن تغيير أفكاره بالثقة والأمانة والصدق وأن لا تقبل أن تكون أداة للطغيان بيده فسوف يحترمك أكثر من المتملقين له. لكن ينبغي أن يخرج من قلبك التربص به فهذا التغيير الذي يغير الواقع لأن ما بأنفسنا تغير إن ظن أن الإكراه يؤسس ديناً أو سياسة أو مجتمعاً راشداً سوء ظن بالله وسوء ظن بدين الله وسوء ظن بالإنسان فبعد أن تفقد ثقتك بأفكارك ودينك وربك وإخوانك من البشر فماذا بقي لك من الثقة؟ أنت مهزوم في أعماقك، لا بد من عرض هذا المنطق في تسلسله بالوضوح والبيان حتى لا يبقى شئ منه غامضاً أو خفياً ولا ملتبساً لأن الالتباس يؤدي إلى اللبس واليأس والحيرة والظلام فهذا هو الذي نعيشه في العالم العربي بل إننا لا يمكن أن نقترب من الأسس الراسخة والخفية لانتشالها من الخفاء ولسان حالنا يقول: كيف بغير القوة أن نغير الأوضاع؟ إن هذا لشيء عجاب، أجعل العقل وحده قادرا على التسخير والانتصار؟ ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة. إن هذا إلا اختلاق وإن هذا لشيء عجاب. الفكر وحده من غير أن نشرك به القوة.

نعم، إني أدعو إلى هذا الشيء العجيب العجاب أمام الذين يريدون ليطفئوا نور الله، نور العقل، نور روح الإنسان الذي نفخه الله فيه ويأبى الله إلا أن يتم نوره وينتصر دينه، اعملوا على مكانتكم إنا عاملون وانتظروا إنا منتظرون.

34. ما قصة إيران؟

طالما احتج عليَّ المحتجون بالجزائر حين كنت أدعو إلى الأسلوب السلمي في تغيير الفكر والحكم وكانوا يقولون لي ها هو الجزائر مثلٌ كبير نجحوا في الانتخابات ثم حرموا منها بالقوة فلهذا لا بد من مواجهة القوة بالقوة ولا يفل الحديد إلا الحديد وهم حين يقولون هذا كأنهم أووا إلى ركن شديد وقوي في تأييد أن الفكر والحكم لا يمكن تغييره بغير القوة فهذا الأساس الراسخ في تاريخ البشرية منذ زمن طويل هو الذي يريق الدماء في الجزائر بدأ من دم بوضياف إلى عبد القادر حشاني كل الأطراف يؤمنون بالقوة كنت أقول إلى الآن في العالم العربي لا يوجد من يعترف بأن الفكر قوة غالبة في صنع المجتمع وإلى الآن ألف وأدور وأبدأ وأعيد لخدمة هذه الفكرة لا يوجد عندنا لا مؤمن ولا قومي ولا ليبرالي ولا يساري يقبل التحاكم إلى المنطق حيث الجميع لا يثقون بأفكارهم أن الأغلبية ستقبلها وهذا الموقف من الفكر خذلان للذات بالذات وهذا الذي حدث أن انتخابات الجزائر كانت مناسبة لبروز مقدار إيماننا بالانتخابات ومخاطبة الناس فالقوى التي ألغت الانتخابات الشفافة الزجاجية في الجزائر كانت حجتهم أن هؤلاء الذين نجحوا في الانتخابات كافرون بالانتخابات ويتخذونها مطية فقط إلى الحكم حتى الرئيس الأمريكي في حينه ردد هذه الحجة وشاعت حينها فكرة الانتخابات لمرة واحدة ثم تلغى ولكن كما شحذوا ذكاءهم في إدانة الذين نجحوا في الانتخابات وانحاز إلى الذين أدانوا هذا القوة الأوحد في العالم أمريكا ولكن أنا لي حق أيضا في تأويل هذا الحدث الذي تحول إلى أحاديث في حينها كأن لسان حال الذين قالوا بأن الإسلاميين سيغتالون الديمقراطية فهم لا يؤمنون بها ولكن هؤلاء الذين اغتالوا الديمقراطية لأن الآخرين كانوا سيغتالون الديمقراطية.

إن هذا النزاع ليس له معنى لأن الضحية الحقيقية عند الجميع هي الديمقراطية لأن الذين اغتالوا نتائج الانتخابات كأنهم يقولون معتذرين للديمقراطية يا سيدتنا العزيزة إننا مضطرون إلى اغتيالك وذبحك وتدميرك لأن هؤلاء الذين استغلوك كانوا سيقتلونك في المستقبل القريب أو البعيد فلهذا يا سيدتنا المبجلة إننا مضطرون إلى اغتيالك ومحوك من الوجود على كل كان هذا هو المنطق الذي على أساسه اغتيلت السيدة الديمقراطية في الجزائر على كل في عمق هذه الأفكار الاعتماد على القوة واللجوء إليها عند الأزمات سواء حين نفقد الديمقراطية فالديمقراطية ليست شيئا يستحق المساندة والحرص عليها فما دامت القوة موجودة فهذا هو الملجأ والملاذ ولا يوجد أحد يثق بالديمقراطية أنها لها وسائلها الخاصة بدون لجوء إلى القوة لإمكان إثبات ذاتها وكأن الديمقراطية لا تستطيع أن تثبت ذاتها إلا بالقوة لهذا لجأ المعارضون لنجاح الانتخابات إلى القوة وكذلك لجأ الذي استلب منهم نتائج الانتخابات إلى القوة فالركن الأخير هو اللجوء إلى القوة بأقبح أشكالها وأسمدها مما يدعو إلى الخجل وينكس الرأس إن هذا الوضع المأساوي المحزن في بلد كان يتوقع منه أن يكون رائد المسلمين والعرب في الاقتراب من الديمقراطية رأينا كم هم بعيدون عن الديمقراطية مع قربهم من فرنسا واطلاعهم على الثقافة الفرنسية فإن ذلك لم يساعدهم قلامة ظفر في احترام الديمقراطية والتزام سبلها ودعمها وترسيخها ماذا هذا الكلام الطويل الممل المزعج الذي يدعو إلى الاكتئاب الطويل الشاق لماذا أسوقه؟

إنني أسوق هذا لأذكر كيف كنت أجيب عن السؤال المحير الموجه إلى اللاعنفي اللاإكراهي فكيف تجد لنا مخرجا بإسلوب اللاعنفي اللاإكراهي من المأزق هذا هو الجزائر كيف اختطفت من الذين نجحوا نتائج الانتخابات بالدبابة والمدفع وبالجيش والقوات المسلحة فماذا كنت تريد أن يفعل الجزائريون الذين كسبوا الانتخابات سلميا جهارا نهارا ثم استلب منهم جهارا ونهارا بالقوة فما هذه الدعوة اللاعنفية القميئة الممجوجة التي تدعو إليها كأن لسان حالهم يردد:

السيف أصدق أنباء من الكتب — في حده الحد بين الجد واللعب

قول آخر:

حتى رجعت وأقلامي قوائل لي — المجد للسيف ليس المجد للقلم

كنت أقول لهؤلاء الشباب والشيوخ الذين يحتجون علي بالثقافة الشعرية والأحداث التاريخية التي تقول:

محى السيف أسطار البلاغة وانتحى — عليك ليوث الغاب فانظر ما أنت صانع

كنت أقول مهلاً يا إخواني الكرام إن الله لم يتركنا بدون قائمين بالحجة في التاريخ إن المرجع الذي أمرنا الله أن نرجع إليه يحتوي على سنن الله وقوانينه التي لن تجد لها تبديلا ولن تجد لها تحويلا، كنت أقول لهم نعم أنكم تحتجون علي بالجزائر وأحداثها وانتخاباتها في صناديق زجاجية شفافة ولكنكم تنسون حدثاً آخر هناك في المشرق في إيران هناك أيضاً حدث علينا أن نحسن قراءتها وتأويلها أيضاً علينا أن نتعلم تأويل الأحاديث علينا أن نتعلم قراءة الأحداث هناك حدث جديد كل الجدة لاعهد لنا بمثله في التاريخ شيء جديد كل الجدة حدث تاريخي واقعي حي (وكأي من آية في السماوات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون) إنني كنت أتأمل أحداث إيران من وقت كان الخميني في فرنسا إلى يومنا هذا وهو يوم مهم جداً في آخر الألفية الماضية بل أول الألفية القادمة، إن الانتخابات التي ستجري في إيران جديرة بالتأمل ورؤية تسلسلها وكيف خلقت الديمقراطية الإيرانية، كنت أقول للذين يعترضون على دعوتي اللاعنفي أقول إن إيران لم تأخذ أو لم تصل إلى الحكم بالانتخابات في صناديق زجاجية ولكنها وصلت إلى الحكم وطردت أعظم قوة يعتمد عليها أمريكا وهو شاه إيران والسافاك وبدون عنف نعم وبدون عنف وخرج الشاه من غير أن يطلق عليه رصاصة واحدة، إن حدث إيران وما أدراك ما حدث إيران انه حدث جديد في تاريخ البشرية ولكن حدث الحدث باسم الإسلام وبدون عنف وباللاعنف وعلى كل يمكن مناقشة هذا وأنا مستعد للنقاش فيه إلى أدق التفاصيل ولكن الشيء المهم والبالغ الأهمية أن هذا النبأ العظيم جدير بالدراسة والتحليل والتفكيك والتركيب

إن اللاعنف الذي كان فيه ولد الديمقراطية في العالم الإسلامي لأول مرة وهذا تغير عميق وجذري في البنى الفكرية للعالم الإسلامي جميعاً لمن يستطيع أن بتأملها في صيرورتها وتمكنها وتجاوزها الأزمات إن هذا الرجل الخميني اهتدى إلى القوة التي تحملها الشعوب القوة التي تحملها النساء انه جدد الفكرة الأولى دعوة محمد(ص) في مكة حين كان هناك يعذب آل ياسر وحيث قتلت سمية تحت التعذيب إن قوة سمية لم تكن في عضلاتها وانما كان في دماغها في الروح التي نفخها الله في الإنسان بهذه الروح كانت سمية تتحدى قريشاً وزعماءها إن الشعب الإيراني واجه القوة العسكرية والمخابرات بقوة الإيمان لأول مرة في التاريخ يتواجه قوة الإيمان الأعزل قوة الكلمة وقوة الفكرة مع قوة السلاح فيتغلب قوة الفكرة على قوة السلاح إنني لسعيد بهذا الحدث لأنه جاء كفلق الصبح فرأيت في الواقع ما كنت رأيته في التصور للفكرة النبوية التي عشت من أجلها وسأعيش من أجلها وإن كنت لم أصل بالوضوح والبيان إلى توضيح الفكرة وأنا أتوجه إلى الشعب الإيراني وهو مقدم على الإنتخابات القادمة وأريد أن أقول لهم إن الحرية في الاختيار أهم من أن تختار الصحيح إذا بقيت لديكم القبول بإرادة الشعب فهذا أهم من انتصار المحافظين أو الإصلاحيين المهم أن لايحكم حذاء العسكر وأنتم انتصرتم على قوة العسكر بصدوركم المفتوحة فلن يخشى عليكم بإذن الله.

35. ما شأن الخميني ؟

ما قصة ولاية الفقيه دعوني أتخيل هل علي من حرج أن أتخيل؟ إن مشكلة علاقة المثقف والسلطة مشكلة قديمة وحديثة قديمة جداً وحديثة جداً أيضاً لأن مشكلة المعرفة والسلطة في بؤرة ما بعد الحداثة الآن وأنا أعيش في هذا التخيل. الإنسان هو المعرفة هو التمييز هو القدرة على اختيار المميز كانت السلطة خلال التاريخ للقوة ولم يكن للعلم، والعلم كان تابعاً للقوة: أي كأن العقل تابعاً للجسد! وكأن العضلات هي التي تسيطر على الجهاز العصبي وليس العكس ! كأن الخميني سيطر عليه هاجس هذا الموضوع وعز عليه أن يسيطر الجهل على العلم والعضلات على العقل، وأنف أن يقبل هذا الوضع الثانوي للعالِم وأن يكون العالِم في خدمة السلطان أو بعض أدواته قد يكون هذا الشيء واضحاً أو غامضاً قابلاً للملاحظة. إن بذور هذه المشكلة سيطر على هذا الرجل ولأنه متدين ومسلم وفقيه اختار العبارة الدينية الإسلامية الفقهية فطرح موضوع ولاية الفقيه: أي السلطة للفقه وللعلم وللعقل، فمن هذه الأرضية انطلق الخميني وعزّ عليه أن يكون الفقيه أداة للسلطة، بل ينبغي أن يكون العكس وسار في هذا الدرب ربما لأول مرة يخرج الفقيه على السلطان ليس كخروج الخوارج المعتمدين على العنف والقتل وإنما خرج الخميني على سلطة الجهل بسلطة العلم ولهذا كانت معارضته علمية سلمية لاعنفية على الأقل التزم هذا إلى أن نجح فيه وهو ملتزم عدم اللجوء إلى العنف وبذلك لأول مرة في التاريخ ينجح إنسان غير نبي بدون عنف في قيادة المجتمع وتحويل الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد إن هذا الحدث الجديد ليس له نظير في التاريخ حتى غاندي لم يتمكن أن يبلغ بدعوته السلمية اللاعنفية ما بلغه الخميني من النجاح فيه إذ أنه لما كان غاندي يقود الهنود إلى المواجهة اللاعنفية كان لا يتمكن من ضبط أصحابه فيلجؤون إلى العنف ولا يستطيعون أن يضبطوا أنفسهم فكان يسخط غاندي على ما وقع ويعلن الغضب على نفسه فيعلن الصوم حزناً وأسفاً على أن سعيه لم ينجح بينما استطاع الخميني أن يضبط الناس فقدموا الورود للجنود ومن غير أن يفلت منهم زمام الانضباط فإن من يواجه العنف باللاعنف المنضبط هنا انتصر الفقه والعقل لأن قوة العلم والعقل ينبغي أن ينتصر على الجهل والقوة التي تدعم الجهل وان لم يتمكن من ذلك فلا يكون عقلاً ولا علماً ولا فقهاً هنا الأمة تحررت من الخوف من العسكر ومن السلاح وتحرر الإنسان من ثقافة السلاح والعسكر والإكراه وكل أدوات الإكراه،لم يكن هذا الأمر واضحاً جلياً أثناء الأحداث ولكن الاستمرار والثبات والنجاح تؤكد هذا وليس كل الناس لهم القدرة على تحليل هذا الحدث فأرى واجباً علي إزالة الشبهات التي تحيط بالموضوع ليظهر القانون النبوي الذي جاء به الأنبياء جميعاً وكفر الناس به جميعاً "كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون" والى الآن العالم جميعاً ومعهم العالم الإسلامي لا يعرفون كيف ينتصر العلم والعقل وعدم الإكراه وبدون لجوء إلى السلاح كيف تصنع الأمة بدون عنف وبدون دماء هذا الذي جاء به الأنبياء وهذا ما أحياه الخميني وهذه هي القوة الحقيقية قوة اللاإكراه وقوة انتصار

الإنسان على ضمير الإنسان وليس على جسده هذا هو الشيء الجديد الذي ظهر في إيران واستمر أيضاً إن الخميني انتصر على جبال من المواريث الخاطئة لأنه تمسك بالإيمان بقدرة العقل والعلم على التغلب على الجهل والإكراه لما آمن الخميني بولاية الفقيه بسلطة العلم شعر بأن الفقه والعلم هو الإمام الذي ينبغي أن يتبع فخرج من انتظار الإمام أو المهدي الذي ينتظره المسلمون جميعاً ولم يكن هذا شيئاً سهلاً ولكن لم يكن ذلك مستحيلاً ولهذا نجح واستطاع أن يتمسك بوحي الكتاب ويتفهم التاريخ وآيات الآفاق والأنفس ولم يكن ماضوياً يشد إلى الوراء ولكن كان يرى آيات الله في الآفاق والأنفس فهو استطاع أن ينقي الأصالة مما علق بها وأن يتفهم المعاصرة فاتبع أحسن ما فيها فلهذا استطاع أن ينتصر وأن يعلن الجمهورية الإسلامية إنها قمة الأصالة والمعاصرة قمة التمسك بآيات الكتاب والتفهم لآيات الآفاق والأنفس فإذا كان هناك بعض العقبات علينا أن نتذكر أن الله لم يخلق العالم في لحظة واحدة وإنما في أيام وعلينا أن نتذكر أن الكهرباء أول ما اكتشفه الإنسان لم يتحول إلى مصباح وهاتف ولاسلكي، ولكن الذين يأتون من بعدهم الذين يحسنون ويتجاوزن العقبات ويكون أداؤهم أحسن وأوضح وأقل معاناة وأقل زمناً وأكثر مردوداً وأنا أفهم هذا وأتوقعه فإن التغييرات التي ستحدث ستكون تغييرات سلمية لا دماء فيها صحيح أن جنود الشاه قتلوا المتظاهرين ولكن لم يقتل المتظاهرون أحداً من جنود الشاه يا أيها الناس اقرؤوا سورة الشعراء وانتبهوا إلى اللازمة التي تتكرر في هذه السورة مرات عديدة بعد عرض كل مشهد يكرر الله قوله: "إن في ذلك لآية، وما كان أكثرهم مؤمنين، وان ربك لهو العزيز الرحيم" وأنا أقول إن التزام كلمة التقوى وكلمة السواء من قبل المتظاهرين الإيرانيين أقول إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم ليفهموا ويؤمنوا بهذا الأسلوب وهذا الموقف. ولكن العزيز الرحيم هو الذي يهب عباده العزة والرحمة فإذا كان الخميني تمكن باللاعنف واللاإكراه وبالتزام اللاإكراه من طرف واحد تمكن من تفوق المرأة والشيخ والطفل بإيمانهم وصدورهم المكشوفة على الجنود المدججين بالسلاح وانتصارهم "إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم" وكأي من آية في السماوات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون علينا أن لا نعرض عن هذا الحدث علينا أن نحدق فيه وأن نسلط الأضواء على الأمور الخفية التي أنجحت هذا الحدث وأنا متأكد أن الذين سيدرسون هذا في المستقبل ستكون لهم قدرة أكبر على تحليلها وإزالة الغشاوات عنها وأن الذين سيأتون من بعد سيقولون بعد انتصارهم أو مجيء النصر إليهم من غير أن يقاتلوا من أجلها لهذا يقول الله عن الأنبياء وأتباعهم آتاهم نصرنا إنهم لم يقاتلوا إن الذين سيأتيهم النصر سيقولون للذين ذهب عنهم النصر لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم، اذهبوا فأنتم الطلقاء، أنا أكتب هذا بعد مرور أكثر من عشرين عاماً على الحدث وهم مقبلون على انتخابات في غاية الأهمية للعالم جميعاً نرجوا لهم أن يلتزموا كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها وإن فشلتم وتنازعتم فلن نيأس لأن الذي يأتي بعد هو الذي سيقتحم العقبة الجديدة وأرجوا أن تتواصوا بالصبر وبالحق وتتواصوا بالمرحمة.

36. إصلاح ذات البين

يذكر المفسرون عند تفسير قوله تعالى "فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم" حديثاً عن أنس (رض): قال: بينا رسول الله (ص) جالس إذا رأيناه ضحك حتى بدت ثناياه، فقال عمر: ما أضحكك يا رسول الله بأبي أنت وأمي. فقال: رجلان من أمتي جثيا بين يدي رب العزة تبارك وتعالى، فقال أحدهما: يارب خذ لي مظلمتي من أخي، فقال الله تعالى: أعط أخاك مظلمته قال يارب لم يبق من حسناتي شيء. قال رب: فليحمل عني أوزاري قال ففاضت عينا رسول الله بالبكاء، ثم قال: إن ذلك ليوم عظيم، يوم يحتاج الناس إلى من يتحمل عنهم من أوزارهم. فقال الله تعالى للطالب: ارفع بصرك وانظر في الجنان، فرفع رأسه فقال يا رب أرى مدائن من فضة وقصوراً من ذهب مكللة باللؤلؤ! لأي نبي هذا!؟ لأي صديق هذا!؟ قال: هذا لمن يدفع ثمنه قال: رب ومن يملك ثمنه.قال: أنت تملك، قال ماذا يا رب؟ قال: تعفوا عن أخيك قال يا رب فإني قد عفوت عنه. قال الله تعالى: خذ بيد أخيك فادخلا الجنة. ثم قال رسول الله (ص): (فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم فإن الله تعالى يصلح بين المؤمنين يوم القيامة). هذا المشهد الأخروي الذي جاء بلغة دينية يمكن التعبير عنها بلغة اجتماعية واقتصادية، حيث أن كل الأعمال التي لها ثواب كبير في الآخرة لها جزاؤها الدنيوي الذي يماثلها، فهذا الذي

يعبر عنه الله من العلاقة بين آيات الكتاب الذي يتحدث عنه في الآخرة من الثواب والعقاب. والعلاقة بين آيات الآفاق والأنفس لأن ما في الكتاب الكريم والأحاديث النبوية من التبشير والإنذار الأخروي له ما يماثله من التبشير والإنذار الدنيوي لأن قوله تعالى (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد) لهذا لما يأمرنا الله تعالى. بأن نسير في الأرض فننظر كيف كان عاقبة الذين من قبلنا لأن عواقب أوامره ونواهيه تتجلى في الدنيا في تاريخ الناس المشاهد وفي الآخرة، ولم يأمرنا بما لا يشهد له آيات الآفاق والأنفس في هذه الدنيا بأنه الحق وهذه الرؤية المادية الدنيوية والرؤية الأنفسية في هذه الدنيا والآن نرى في تسخير المادة مالم يكن امكان رؤيته فيما سبق من الزمان. كما بدأنا نرى في عالم الأنفس من إمكانية حل المشاكل من دون إفساد في الأرض وسفك للدماء وإن هذا الموضوع شيء كبير ينبغي أن نبذل لإظهاره كل الجهود وهذا واجب العلماء علماء الآفاق وعلماء الأنفس وإن سبب انقطاع الوحي وختم النبوات يمكن أن يفهم من رؤية آيات الله المشاهدة المرئية في الآفاق والأنفس بشكل لا يستطيع عاقل أن يرفضه، على أن آيات الكتاب حق مبين لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

والآن حين ننظر إلى واقعنا العربي العربي ومطالبة جميع الفرقاء بأخذ المظالم التي أوقعها بعضهم ببعض بمواجهة الخطأ بخطأ أكبر منه في تسلسل متصاعد مهلك للحرث والنسل للكبار والصغار، فإنه يمكن لعلماء الاقتصاد والاجتماع أن يبينوا الخسائر المادية الكبيرة التي خسرناها ولا نزال نخسرها وكذلك الآلام النفسية التي نعيشها من القلق والخوف والشعور بالهوان مما يعتصر قلوبنا مهما حاولنا أن نجد المبررات لمواقفنا المتشددة في الانتصاف من المظالم التي ارتكبناها بعضنا لبعض، إن هذه الخسائر من الأمراض النفسية التي نعانيها أكبر من الخسائر الاقتصادية الكبيرة حيث هذه الخسائر المادية جزء صغير من نتائج الأمراض النفسية والعقبات النفسية التي تمنعنا من أخذ المبادرة والمجازفة في طريق الإصلاح بدل المجازفة في مقابلة السيئة بالسيئة، إن العلماء علماء آيات الآفاق والأنفس هم الذين يستطيعون الآن رفع أبصارنا لنرى المكاسب العظيمة التي لا يقدر أحد أن يتصور قيمتها وإمكان تحصيلها من التجارات الرابحة والمساكن الفارهة والتخلص من الأمراض المؤلمة والمميتة وتوفير الطيبات من الرزق عدا المشاعر النفسية المطمئنة الراضية المرضية التي هي أعظم من كل ما في الدنيا والآخرة من النعم حيث يقول الله: ورضوان من الله أكبر رضي الله عنهم ورضوا. أنا لا أتوجه بهذا إلى الذين نرى أنهم هم سبب هذه المآسي التي نعيش فيها وإنما أتوجه إلى نفسي لإصلاح علاقتي مع الناس الذين نتعايش معهم من الأفراد العاديين من الخروج من التكبر في كيف نبدأ مع فلان من الناس بالزيارة أو بالسلام عليه؟ كيف نتدرب على العفو والمغفرة؟ وكيف نتدرب على كشف صدق قول رسول الله: يا أيها الناس اتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم فإن الله تعالى يصلح بين ذات المؤمنين يوم القيامة؟ كيف نتدرب على كشف حلاوة العفو واغتنام الفرصة الذهبية الآن قبل أن يفوت الأوان؟ ونكشف صدق قول الرسول (ص) في الدنيا قبل الآخرة حين يقول: وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزا. وكيف نكشف أبعاد دلالات آياته في الآفاق والأنفس حين يقول لنا رسول الله: إذا اختصم عبداه يعرض هذا ويعرض هذا وخيرهما الذي يبدأ بالسلام وخيرهما الذي يبدأ بالزيارة أين المتزاورون فيَّ وعزتي وجلالي لاظلنهم يوم لا ظل. إنك حين تخطوا الخطوات في طريقك إلى الزيارة والسلام تخطوا إلى عالم أعظم من مدائن الفضة والقصور من الذهب المكللة باللؤلؤ. يا أخي يا عبد الله يا إنسان يا عربي أسمع (أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم) انظر إلى تاريخ فرنسا وألمانيا إنني أتذكر يوم احتل الألمان باريس، والآن أرى كيف يغفر بعضهم لبعض إنهم يرون في ذلك العفو والغفران وعدم التشنج، ما يحصلون عليه من المكاسب المادية والنفسية هذا الذي يجعلهم ينسون الأيام المظلمة التي لم يكونوا يستطيعون أن ينظروا في وجوه بعض ولا أن يسمعوا أسماء بعض كيف سنتعلم بسرعة واستباق أن نرى آيات كتاب الله وأحاديث رسوله في آيات الآفاق والأنفس ليتواطأ السمع والبصر. كيف نفهم كذلك الفهم السمعي البصري قول الرسول (ص)ينادي الله يوم القيامة ألا فليقم من كان أجره على الله: فلا يقوم إلا من عفا وأصلح؟ فإن شئتم فاقرؤوا قوله تعالى (فمن عفا وأصلح فأجره على الله).

37. هل يولد الإنسان مذنباً

لم أقل هل يولد العربي مذنباً؟ أو هل يولد المسلم مذنباً مداناً؟ لم هذا السؤال عن المشكلة الإنسانية؟ يقال عند بعض الناس أن آدم لما عصى وأكل من الشجرة فقد حمل الإثم وأورث ذريته هذا الذنب فبعث الله عيسى ليفدي بنفسه عن هذا الذنب فيخلص البشرية مما لحق بها فمن آمن بهذا يخلص ويبرأ من الذنب أو هكذا يُقال والله أعلم. ولكن الذي أريد أن أبحثه هل نحن العرب والمسلمين لحقنا شيء من هذا الذنب ومن يمكن أن يخلصنا من هذا الذنب الوراثي؟ وبأي معنى صار هذا الذنب وراثياً؟ أنا أريد أن أفسر هذه المشكلة بحسب معاناتي وتفكيري الدائم في المشكلة المستعصية العربية الإسلامية، هذا التفكير الدائم وهذا الهاجس المقيم بالتفكير في المشكلة الإنسانية والتفسير النبوي لهذه المشكلة البشرية وأن من ديدني العودة إلى القرآن ليساعدني في حل وتفسير المشكلات يقول الله في القرآن (قل أرأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به من أضل فمن هو في شقاق بعيد؟ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد) من منهج القرآن أن نبحث عن صدق أحكامه في واقع الكون (=الآفاق) وفي واقع الإنسان (=الأنفس) وأنا لتتبعي هذا الموضوع إلى جذوره وصلت في النهاية بمساعدة القرآن والتحديق في آيات الأنفس، عين على آيات الكتاب وعين على آيات الأنفس وبما أن فهمي لآيات الآفاق والأنفس يتعلق بالواقع الأفقي والنفسي فإن أهل الاختصاص بالآفاق وصلوا في نهاية بحوثهم إلى مطمح الوصول إلى كشف الموصلات الفائقة من غير تبديد وفي هذا يتنافس الفيزيائيون وأنا أيضا كنت أفكر في الأنفس كيف نستخرج من هذا الانسان أفضل ما فيه أو أقصى مردود باستخدام الانسان فانتهى بي التفكير بعد ملاحظة التاريخ (=مرآة آيات الأنفس) وملاحظة آيات الكتاب ففي حوارات الأنبياء مع أقوامهم فإذا كان الأنبياء حقاً جاؤوا من عند الله عليهم أن يأتوا بحل المشكلة الإنسانية والطريقة التي يتعامل بها مع الانسان لاستخراج أفضل مردود فوجدت في حوارات الأنبياء وأقوامهم الوصول بتتبع الحوارات إلى نقطة البدء في حل المشكلة ولا سيما عند أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام مع أبيه (واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقاً نبيا إذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً يا أبت اني قد جاءني من العلم مالم يأتك فاتبعني أهدك صراطا سويا… قال أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم لئن لم تنتهي لأرجمنك واهجرني مليا قال سلام عليك سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفيا…) إن جوهر الخلاف هو اللجوء إلى القتل والتهجير للمخالف وأنه لن يعيش معهم من يختلف عنهم في تفسير الآفاق والأنفس وهذه النقطة في النزاع بين الأنبياء وأقوامهم هي المنطلق الأساسي في النزاع بينهم، إبراهيم يقول لأبيه الذي يهدده بالرجم والتهجير :سلام عليك سأستغفر لك ربي.

وهكذا الأنبياء جميعاً والأقوام جميعاً، يقول القرآن عن الأنبياء الذين لا يعلم عددهم إلا الله: ألم يأتكم نبؤ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم في أفواههم وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به… إلى أن قال: وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا) وهكذا قال فتية الكهف عن أقوامهم (إنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم في ملتهم ولن تفلحوا إذن أبدا) ويقول القرآن معيداً ومكرراً رسالة الأنبياء ومواجهة الأقوام (لقد عثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين) فمن هنا كان لا إكراه في الدين ولا في الأنبياء وليس استخراج أفضل مردود من الانسان بإكراهه هذه بدهية وبنية من البينات التي بعث الله بها الأنبياء فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة على فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين اللاإكراه –هو الرشد– والإكراه –هو الغي– فمن هنا يقول الله: لاإكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت –الذي هو الإكراه– ويؤمن بالله –الذي ليس في دينه إكراه– فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها. ولكن هل يولد الإنسان مذنباً؟ لا ولكن الذنب يطرأ عليه المبدأ الأساسي في القرآن (أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً) لا تعلمون الفجور ولا التقوى ولكن ملهمون الفجور كما التقوى أيضاً هذه هي التسوية العجيبة في النفس الإنسانية التي أخطأنا في فهمها فأصابتنا الخيبة حيث دسيناها وكان سيصيبنا الفلاح لو أننا زكيناها حيث يقول الله (ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها) والحديث الشريف يبين لنا ما نزل إلينا حين

يقول: كل مولود يولد على الفطرة التي فطر الله عليها ملهمة الفجور والتقوى فأبواه والمجتمع يحولانه إلى طرائق قدداً وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله فالآباء والمجتمع وثقافة القوم تنصره وتجعله يؤمن بأنه خلق مذنباً أو خلق قاتلاً لأن يكون مذنبا مدساة، وقابل أن يكون بريئاً مزكاة في أحسن تقويم وهذا من عمل الآباء والمجتمع والثقافة التي تلقن للأطفال أو يتشربها بدون شعور منه كما أشرب العجل في قلوب قوم حين أخرج لهم السامري عجلاً جسداً له خوار ومع الأسف فإن البشر خلال التاريخ كان تفسيرهم للإنسان بأن أفضل استخدام للإنسان بتهديده وإكراهه ودون ترشيده وإقناعه لأن الإقناع يحتاج إلى علم ومعرفة بطبيعة الإنسان والتعامل معه ولكن إكراهه لا يحتاج إلا إلى قوة العضلات أمام ضعف عضلات الطفل ولكن هذا التعامل مع الطفل يدسيه وينتزع عنه نور الله المودعة فيه فيجعل في أسفل سافلين حيث ينشأ مؤمنا بالقوة وأن صاحب القوة ليس في حاجة إلى أن يبين حجة سلوكه أو رشاد تصرفه حبه أنه قوي لا يحق لأحد أن يسأله فهذا ينعقد في رحم الثقافة الصنعة الألوهية التي لا يسأل عما يفعل وهم يسألون وتصطبغ الثقافة كلها بهذه الصبغة الوثنية من الوالدين في تعاملهما مع بعض ومع الطفل ومع الذكورة والأنوثة إلى أن يصل الأمر إلى الأمم المتحدة فترهب الأمم جميعا القوة ويتقربون إليه ولا يجوز مساءلته وهكذا تبدأ الوثنية من المهد في عش الزوجين إلى أكبر مؤسسة عالمية في الألف الثالثة بعد المسيح فكيف بمن يولد في هذه الثقافة العالمية أن يتمكن من تمييز الذنب من غير الذنب؟ الذنب هو الضعف والعجز وإن لم يكن حقيقة وإن كان هذا وهما وسحراً فمن هذا كل الأقوام قالت لكل الرسل أنهم سحرة ومجانين كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون) كيف تخاطب هؤلاء الذين طال عليهم الأمد فقست قلوبهم؟ كيف نفك هذا السحر العظيم الذي سحروا به أعين الناس واسترهبوهم؟ أريد فقط أن أضع قاعدة لمعرفة ما هو الذنب وما هو البريء فما دمنا نؤمن بالقوة والإكراه والعنف فلن يولد فينا إلا من هو مذنب وجوده كله ذنب! فمن هنا كفرت بطاغوت القوة وآمنت بالرشد فهل من معين على ذلك؟!

38. لوم الضحية

أنا لما أكتب عن القابلية للاستعمار وأتكئ على مالك بن نبي في هذا الموضوع – إلا أني وحسب منهجي لفهم آيات الكتاب – أرجع إلى آيات الآفاق والأنفس وبالعكس لما أفهم آيات الآفاق والأنفس أرجع إلى آيات الكتاب، وعلى هذا الأساس لما كنت أقرأ تفاصيل فكرة القابلية للاستعمار عند مالك بن نبي كنت أرجع لأرى مصداق ذلك في آيات الكتاب. العادة عند الناس من قديم الزمان إلى يومنا هذا لوم الظالم ولكن قلب الموضوع في هذا وصب اللوم على المظلوم وليس على الظالم هذا فكر جديد مثل فكرة الانقلاب الفلكي حيث كان الناس يظنون أن الشمس هي التي تدور حولنا فإذا الموضوع الفلكي قلب كامل للفكرة التي كان التعارف عليها فنحن الذي ندور حول الشمس وأمامها، والقرآن يضرب المثل في تعقيد فهم الحركة والتغيير والنمو بامتداد الظل وحركة الشمس مبعث الظل يقول: ثم جعلنا الشمس عليه دليلا فكرة الانقلاب في المفاهيم والأفكار حتى في مستوى الفلك فقد انتقل الانقلاب الفلكي إلى الانقلاب النفسي، إن القرآن هو الكتاب الذي كان منفرداً في لوم نفس المظلوم نفس الضحية، وحتى كلمة "ظالمي أنفسهم" مصطلح قرآني بارز لا خفاء فيه وإن كان أمر الشمس كذلك في الوضوح جداً والخفاء جداً للظاهرة الواحدة فلوم النفس هو كشف الخطأ وهو طريق التوبة وطريق النقد الذاتي والعودة إلى الصواب، وإبراهيم عليه السلام هو إمام نظرية قلب المفاهيم حين قال لقومه: (وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الآمن وهو مهتدون) فكما يستخدم القرآن (ظالمي أنفسهم) هذا المصطلح العجيب الخفي هو البارز أو الأبرز في القرآن حيث يقول القرآن (إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم) ويقول (وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) (ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه) (ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه) (ولو أن لكل نفس ظلمت ما في الأرض) ونسب الظلم إلى النفس في القرآن شائع بشكل عجيب ربما يزيد على خمسين مرة، ولما طرح مالك فكرة القابلية للاستعمار وجدت أن هذه الفكرة فكرة قرآنية في الصحيح، فكرة ظلم النفس وإدانة النفس المظلومة وإدانة الضحية وهذه الفكرة راجعة إلى فكرة أعمق وأبعد غوراً وهو راجع إلى ما نفخ الله في

الانسان من روح (روح المعرفة) والفهم للسنن والقدرة التسخيرية للوجود كله لهذا الانسان. فلا يظلم الانسان إلا وهو يظلم نفسه وبدون ذلك لا يمكن ان ينزل عليه الظلم وإدانة الضحية منهج قرآني ففي غزوة أحد لما أصيب المسلمون احتجوا على الله كيف أصيبوا فقال الله عنهم: (أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم).

1- فلهذا نجد هناك إدانة النفس من الله في كتابه وكتبه وهذا منهج علم نفسي مختلف.

2- وكذلك نجد آدم أبو البشر يقر ويعترف بهذا المبدأ ويلتزمه في سلوكه وإقراره. إذا كان مالك بن نبي يقول: حين نصير نتكلم عن الاستعمار قليلاً ونتكلم عن القابلية للاستعمار أكثر نكون بدأنا نسلك الطريق الصحيح لحل المشكلات لأن التفسير الخاطئ لحل المشكلة لا يقرب من الحل بل يبعد عن الحل هكذا يقول مالك ولكن نجد آدم عليه السلام كما نهاه الله هو وزوجه عن شجرة الجنة ولما أكل من الشجرة وبدت لهما سوأتهما وقال الله لهما (ألم أنهكما عن تلكما الشجرة) قالا: آدم وحواء أيضاً (ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكوناً من القوم الخاسرين) مع أن الله يقول عن أن الشيطان أغراهما وقال لهما: (ما نهاكما ربكما عن تلكما الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين) وقال لهما (هل أدلكما على شجرة الخلد وملك لا يبلا) (وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين) وهذه الإغراءات والممارسات التي قام بها الشيطان لإغراء آدم وزوجه فحين المواجهة لم يشيرا مطلقاً إلى إغراء الشيطان وإغواءه ودوره في الوقوع في الخطأ، فمالك في بحثه السنني وكشفه لقانون مُعامِل الاستعمار قال: حين نقلل من ذكر الاستعمار ونكثر في البحث في القابلية للاستعمار نكون بدأنا نسلك الطريق الصحيح. ولكن آدم هنا لم يذكر قط شيئاً عن الشيطان وإنما قالا: ربنا ظلمنا أنفسنا. هذا الاعتراف المبين بارتكاب الخطأ وعدم ذكر الشيطان هذا الموقف هو ما يتميز به الإنسان القادر على كشف الأسباب الحقيقية والصحيحة للأخطاء وعدم الوقوع في الوهم والاشتباه بأسباب وهمية ومن هذا الموقف أستحق آدم وزوجه إن يستخلفا في الأرض وأن يتقبل الله منهما التوبة لأن الوقوع في الخطأ نتيجة جهل السبب وهذا لا يظهر إلا بالوقوع في الخطأ لهذا الخطأ الأول مغفور ومثاب عليه إذا أخطأ له أجر وإذا أصاب له أجران ولهذا لا يلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين لأن الخطأ يدعوا للبحث عن الأسباب التي أدت غلى الخطأ حتى لا يقع مرة أخرى وكل أبن آدم خطاء وخير الخطاءين التوابين هم الذين يبحثون عن الخطأ ولا يقعون فيها مرة أخرى فهذه مكافئة الخطأ حين يكون الموقف سليماً من الأخطاء أما رد سبب الأخطاء إلى سبب وهمي فهذا هو الضلال البعيد الذي يحرم الإنسان من اكتشاف الصواب وإعادة الخطأ مرات كثيرة والله تعالى لا يغير قوانينه وسننه من أجل الجاهلين (سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلا) وكذلك يقول الله (وإن عدتم عدنا) إن عدتم إلى الخطأ عدنا إلا إعطاء نتيجة الخطأ إن الخطأ لا يحل المشكلة وعلى هذا الأساس حين نرجع إلى مشكلاتنا المزمنة التي نكرر ارتكابها ونعرض عن سننها الصحيحة فحين نصير مثل آدم لا نذكر الشيطان الذي أغوانا وحين نصير الآن لا نذكر الاستعمار أبداً ونحذفه من قاموسنا اللغوي والفكري والسياسي ونصير نذكر القابلية للاستعمار والغفلة عن السنن الصحيحة والقوانين التي تحل المشكلات على أساسها نكون بدأنا طريق الشفاء وطريق التغير حين نكف عن ذكر إسرائيل وأمريكا والذين يتعاونون معهما ونصير نذكر عوامل الفرقة بين الأشقاء العرب الذي لم يعد لكلمة الشقيق ولا لقانون ظلم النفس من معنى لا نلوم الاستعمار ولا نلوم الشيطان كذلك لا نلوم الأشقاء العرب الذين نحملهم سبب كل المصائب التي أصابتنا متى نصير لا نصدق الاتهامات للآخرين ونرجع لنسلك طريق أبينا آدم وأمنا حواء متى نصير نشمئز من لعن الأعداء والشيطان ونصير نلوم أنفسنا ونصير نبحث عن الأخطاء التي نرتكبها وحذفها من قواميسنا متى نفهم سنن الله وسنن الوجود السنة الثانية التي لا تتغير وإنما نحن الذين ينبغي أن نغير ما بأنفسنا.

39. على مذهب من نحن؟

هل نحن على مذهب آدم الذي اعترف بذنبه وعلى مذهب حواء التي اعترفت بذنبها أم نحن على مذهب إبليس الذي رفض أن يسجد وتحدى الله وقال لربه: (بما أغويتني) نسب غوايته إلى الله خالق كل شيء. إن الحوار الذي يجري في القرآن بين الله وبين آدم وبين إبليس وبين الملائكة إذا نظرنا إليها وفق آيات الآفاق والأنفس ستتحول إلى منارات للهداية والإرشاد والخروج من الضلالة والتيه، ما كان حديثاً يفترى، ولا ما جاء في هذا الكتاب قول كاهن ولا شاعر ولا أساطير الأولين، وإن في ذلك لعبرة وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم. وإن الله بالغ أمره وسَيُرِ الله البشرَ آياته في الآفاق وفي أنفس البشر حتى يتبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد. إن من يرى تاريخ العالم سيعلم أن هذا العالم ليس باطلاً ولا عبثاً بل إن الحق هو الذي يحكمه (وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق) ومن يعلم كيف بدأ الله الخلق وكيف الخلق لا يزال مستمراً إلى الآن وسيخلق في المستقبل مالا نعلم الآن كما نرى نحن مما خلق وسخر مالم يكن قبلنا أن يراه إنه يزيد في الخلق ما يشاء ويخلق ما لا تعلمون إن من يعرف كيف بدأ الخلق وكيف يستمر الخلق وكيف يتحول إلى الأحسن والأفضل، وآخر مخلوقاته من الأحياء الانسان الذي خلق في أحسن تقويم سيعلم من علم ذلك أن الانسان سيخرج من الفساد وسفك الدماء ومن تهمة الملائكة للانسان ومن رد الله عليهم أنه يعلم ما لا يعلمون وأن علم الله في الانسان سيتحقق قضاء حتم (ليظهره على الدين كله) وسيرى الناس مصداق ذلك في آيات الله في الآفاق والأنفس بحيث لا يقدر أن يرفضه لا مؤمن ولا كافر وسنفهم دين الله من جديد وفق آيات الآفاق والأنفس إن آدم أبو البشر قال: ظلمنا أنفسنا. متى سنتعلم من موقف أبينا وأمنا آدم وحواء أن نقول بعد أن نفهم أننا نحن ظلمنا أنفسنا؟ إن هذه القدرة على تغيير ما بأنفسنا هو الذي جعلنا الله خلفاء الأرض وسخر لنا ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون.

إن الله قال لنا: (من عند أنفسكم) يعيد الأمر إلينا، وإن آدم وزوجه قالا (ربنا ظلمنا أنفسنا) وإن الرسول(ص) قال: من وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه. إنه لوم موجه إلى الذي لم يجد الخير في هذا العالم إلى الضحية لأن الله خلقك لنفسه ولن يستطيع أحد أن يخرجك من مملكة الخير إلا إذا أنت خرجت بإرادتك، والشيطان هو الذي خرج من أمر الله واعترض ولم يعترف كما أعترف آدم وزوجه بل على العكس تماماً برأ الشيطان نفسه ونسب غوايته إلى ربه وأنه لم ير من اللائق به الذي هو من النار إنه افتخر بنسبه المادي ونسبه الفكري وهما المشكلتان أمام البشر أيضاً فهم يتبعون مذهب إبليس في هذا الموضوع حيث يفتخر الناس بأعراقهم وأصولهم المادية ويفتخرون بمذاهبهم الفكرية وتفسيرهم للعالم أنه هو التفسير الصحيح دون النظر إلى العواقب إنه التحدي المبين وعيسى عليه السلام في الإنجيل يواجه الذين يفتخرون بأبيهم إبراهيم والانتساب إليه يوبخهم عيسى عليه السلام ويقول لهم:إنكم لستم أولاد إبراهيم ولكن أولاد إبليس وأعمال أبيكم تعلمون. فجميع أهل الأرض مثل إبليس يفتخرون بأنسابهم ويفتخرون بمذاهبهم وأديانهم والانتساب إليها دون أن ينظروا إلى عواقب أعمالهم ويرون جميعاً أنهم أبناء الله الوحيدين وأن الآخرين ليسوا على شيء وأنه لن يدخل الجنة إلا هم وليس هناك من ينظر إلى الأعمال كما قال عيسى عليه السلام: أنتم أبناء أعمالكم. والقرآن يقول: (ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب من يعمل سوء يجزيه ولا يجدله من دون الله ولياً ولا نصيرا) هاهو ذا القرآن إن نسبتكم إلى أعمالكم السيئة، وليس إلى الله ولن تجدوا ولياً ولا نصيرا. لما كنت أقرأ دراسة في التاريخ لتوينبي رأيه يقول عن الحضارة الأوربية أنها هي وحدها محمد الحضارات التي لا تزال تردد أغنية نحن أبناء الله وأحباؤه لأن هذا ديدن الحضارات ويرون أنفسهم محمد طينة أخرى بل لا يقبلون أن يكونوا من الطين فهم من النار مثل إبليس وأن بقية الحضارات صارت متواضعة أكثر وأنها كفت عن الافتخار، لما قرأت هذا النقد من توينبي لحضارته قلت في نفسي إن توينبي لم يستطع أن يتعمق في فهم ما بأنفس الحضارات الأخرى وأنا بالذات الذي أنتسب إلى مجال العالم الإسلامي أجد أننا ليس كما ظن مؤرخ الحضارات أنهم هم وحدهم الباقون على الفخر بأنفسهم إلى يوم القيامة مثل إبليس بل نحن المسلمين صوتنا أعلى في إنشاد هذه الأغنية نحن أبناء الله والآخرون ليسوا على شيء ولن يدخل الجنة أحد غيرنا. إن الذين يسيرون في الأرض وينظرون كيف بدأ الخلق – يرون العالم بشكل مختلف فالذي لا يعلم تاريخ الإنسان لا يمكن أن يكون

حكمه على الإنسان سليماً ولا صحيحاً إن معرفة التاريخ تدلنا على حسب ما أفهم إن الانسان ليطغى أن رآه استغنى وسيظل يفسد في الأرض مادام يظن أو يتوهم أنه ينجو من العقاب وسيظل يخوض الحرب ما دام يتخيل أنه يخرج منها منتصراً ولن يوقف طغيان الانسان وطموحه إلا حين يرى أنه لن يجد نجاة ولا ملجأً ولا مهرباً من تفادي العقاب لن يراجع نفسه إلا إذا رأى وفهم أن العذاب الأليم لا محيص عنه عند ذلك يرجع إلى الله ويقل بعبوديته للحق وسوف لن يؤله نفسه ويعتبر بقية العالم من ممتلكاته عند ذلك سيعترفون جميعاً كل الحضارات التي سقطت وكل الحضارات التي طغت سيعترفون بقانون الله في البشر أن الضحية هي التي يقع عليها اللوم وليس الطاغي الباغي سواء كان فرداً أو مجموعة أو حضارة.

فكما قرر الله أن الناس كانوا أنفسهم يظلمون ولما أكد الرسول أن من وجد غير الخير فلا يلومن إلا نفسه وكما تشبث آدم بالاعتراف أنه ظلم نفسه وليس الشيطان الذي خدعه إن الشيطان نفسه حين يكون هناك يوم الدينونة ويوم الحساب هناك سيعترف أيضاً أنه لم يكن له سلطان ولا قدرة على الإغواء إلا الدعاية التي قام بها واستجاب لها الناس (وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم) وأخيراً الذين يتأملون التاريخ تاريخ البشر هذا التاريخ الذي جعله الله مرجع كتابه في شهادة هذا التاريخ بالصدق لهذا الكتاب حجته أمام الخلق وهكذا يشهد مؤرخ القرن الذي مضى توينبي أن الحضارات لا تهلك بعدوان عليها وإنما تصير طعمة للحيوانات الكاسرة والطيور الجارحة حين يلفها الموت البارد ولا تموت شهيدة وإنما انتحاراً وهكذا شهادة التاريخ تقرر وتصدق وتشهد لشهادة الله وشهادة أهل العلم بالتاريخ وها نحن على عتبه تطور جديد. الحضارات كانت تهلك إلا قوم يونس وفي عالمنا هذا لن تهلك الحضارة الغربية لأنها صارت مقتدرة على الاعتراف بنا إذا نحن لم نستجب لدعوته وهذا في إمكاننا إذا أمكننا أن نفهم أن المخرج من الأزمة أن نترك الاستجابة للحضارة الغربية في استخدام بعضنا ضد بعض وسيقول بعد ذلك ما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم لعل وعسى أن نتمكن من الفهم.

40. وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا

كتبت سابقاً مقالاً بعنوان هل يولد الإنسان مذنباً وكان قصدي إلقاء بعض الضوء على المشكلة الإنسانية أو مشكلة المسلمين والعرب خاصة وكيف نحدد الذنب وهل في قوله تعالى "وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد" صلة بهذا الموضوع ؟ فحينما يقول على لسان المؤمنين هل تنقمون منا إلا أن آمنا ما هذا الإيمان الذي يجلب النقمة خلال التاريخ الماضي هل لنا قدرة على القول الفصل الذي ليس هو بالهزل والخداع والوهم ما هذا الإيمان هل هو غامض ملتبس غير قابل للتوضيح هل كان الأنبياء غامضين وغير قادرين على البيان والبلاغ المبين ولم يؤكد الله على الرسل والمؤمنين أنه لم يكن عندهم ولم يأتوا بشيء يدعوا إلى النقمة إلا إيمانهم بالله، وهل النزاع لا يزال قائماً والالتباس فاشياً ؟ وكيف نزيل الالتباس ونحدد الموضوع ؟ أنا أعتقد أن البلاء المبين الذي نعيشه والعذاب الذي تنوء بحمله والخسائر التي نتكبدها إنما هو من جراء الالتباس في جوهر الإيمان، يقول الله بعد حوار إبراهيم لقومه في تحديد من الذي ينبغي أن يخاف هل المؤمن أو الذي اختلط عليه الإيمان بما يفسد الإيمان، هل مجرد الإيمان ذنب ؟ وما هو الإيمان ؟ إني أُلحّ وسأظل ألح لأنني أتعامل مع سنن الله في كونه الذي خلقه في الكون المادي والكون النفسي إذ بمعرفة سنن الله في الخلق يمكن تسخير ما في السماوات وما في الأرض "الله الذي سخر لكم البحر لتجري الفلك فيه بأمره ولتبتغوا فضلاً من ربكم ولعلكم تشكرون، وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون، قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله ليجزي قوماً بما كانوا يكسبون" ودين الله يسر كما يسر بالتسخير الصاعقة وذللها الله للناس إذا كان البحر والفلك مسخرات والرعد والبرق مسخر فإن ما في السماوات وما في الأرض كلها مسخرات جميعاً للإنسان المكرم فكما تسخر البرق للإنسان بعد أن عرف سننه سيتسخر الإنسان حين نعرف سننه ومن سننه تحديد الذنب أو الخطأ في التعامل مع الإنسان، ألا إن الإيمان بأن الإنسان يعطي على الإكراه مالا يعطي على الإقناع هو الذنب الذي يفسد الإيمان ويجعله

ملتبساً، ألا من كان له أذنان للسمع فليسمع "هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا أنما هو إله واحد" ألا إن الإيمان بالإكراه يفسد حياة الإنسان ويخرجه من الرشد ويجعله لا يهتدي إلى سبيل الرشاد وحتى يصير غير قادر على سلوك سبيل الرشاد إذا رآه ألا أيها الناس أيها المسلمون تأملوا قول الله تعالى: (سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلاً ذلك بأنهم كذّبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين) هذا لم يعد إيماناً بالغيب وإنما صار إيماناً بعالم الشهادة انظروا إلى التاريخ ماذا حدث للذين كانوا يكرهون الناس على الدين على الفهم على الفكرة بدون إقناع إن تسخير مادة الإنسان وروحه التي نفخ فيه من روح الله تعالى جعله لا يصلح أمره إلا بالإيمان بالعواقب إن لم تصدقوا انظروا كيف كان عاقبة المكذبين انظروا في هذا العصر الطازج ماذا فعل الله بالاتحاد السوفيتي الذي كان يكره الناس ولكن الذين لا يؤمنون بالعواقب أنها هي التي تصحح الأفكار هم الذين يقول الله عنهم سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق نعم إنهم يتكبرون بغير الحق وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون ولن يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم ولن يمل الله حتى يمل الذين يفسدون في الأرض بدون شعور منهم وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً إن هذه الحالة التي يصفها الله تعالى في القرآن بوضوح بليغ من أن الإنسان يزين له سوء عمله فيراه حسناً ويفسد في الأرض وهو يظن أنه يصلح أو سيد المصلحين ولكن عواقب التاريخ لن تتغير ولن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلاً "وإن عدتم عدنا" ولن تتغير سنن الله ألا إن الفساد وسفك الدماء في الأرض سببه أن يكون بعض البشر فوق القانون وفوق سنن الله ألا إنهم لن يصيروا فوق القانون لأن الله سيأخذهم أخذ عزيز مقتدر، وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد. إن البشرية لا تزال في مرحلة الطفولة إن تجارب التاريخ لم تترسخ بعد إن الظلم الذي طال أمده جعلت القلوب قاسية لا تفهم إمكان إصلاح الناس بغير الإكراه إن هؤلاء كفروا بأفضل ما في الإنسان وتمسكوا بالعروة الواهية التي لا دوام لها هذا الوهم هو الذي نعيشه والتاريخ وعواقبه لا قيمة لها عندنا لا عبرة في عاد وثمود ولا عبرة في اليابان والاتحاد السوفيتي والاتحاد الأوربي الذي يتحقق أمام أسماعنا وأبصارنا إن كنا نسمع ونبصر ألا إنه لا يتحقق بالإكراه وإنما بالإقناع بأنه فائدة للجميع ألا إن مغازلة القوة والعنف والعسكر يفسد الحياة إن العسكر إلغاء للعقل وتنفيذ لما يقال له بدون تفكير وجاء الأنبياء جميعاً لإخراج الناس من أن يكونوا أدوات بيد من يمسك بها من لم يصدق أن بقاء الحنين إلى القوة العسكرية يفسد الحياة البشرية فلينظر إلى الباكستان التي دخلت في عبادة القوة بصنع القنبلة النووية التي لا يخاف منها ولا يريدها إلا من يجهل الإنسان وأفضل تعامل مع الإنسان أو الذي يستغل جهل الناس فيلوح لهم بالحبال والعصي التي يخيل للجاهلين بأنها تسعى أولا يرى المسلمون أنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين أو عشر مرات ثم لا ينوبون ولا هم يذكرون إذا كانت باكستان غير كافية في معرفة دأب العسكر في إلغاء الدستور والبرلمان وإدامة الأحكام العرفية كما في مصر من مقتل السادات إلى يومنا هذا وبضربة واحدة مددت الأحكام العرفية في مصر بثلاث سنوات فقط ما هذه الأشياء التي تحدث في العالم العربي والإسلامي ما هذا الذي حدث في السودان ماذا حدث للذين يعتمد على العسكر كيف انقلب العسكر في الليل وألغى كل شيء إنه هو الذي قام سابقاً بالانقلاب بدعوى الإسلام والإنقاذ وهو الذي قام الآن بالانقلاب مرة أخرى يا ناس يا عالم يا عقلاء يا من يعتبر بالتاريخ إن الأمم المقهورة التي تخاف من العصا والحبل والعسكر ولا تخاف من إهانة الفكر والعقل إن هذه الأمة ليست أمة راشدة لابد من ترشيد الأمة من دون تواطؤ مع القوة والإكراه إن الحنين الباقي في القلب للإكراه هو الذي يجعل اختلاط الغي بالرشد إن الغرب وأمريكا كما يقول إقبال سيطروا على العالم بنصف لا إله إلا الله لأن لا إله إلا الله هو الكفر بالطاغوت والإيمان بالله إنهم كفروا بالطاغوت في بلادهم ولكن لم يؤمنوا بالله الذي يمنعهم من أن يجعلوا أنفسهم طواغيت على العالم الآخر ألا ما أيسر فهم هذا الشيء وما أصعبه إن ما تؤمن به سيكون ربك إذا آمنت بالإكراه والعنف ستكون عبد الإكراه والعنف وأدوات الإكراه، ألا إن محمد بن عبدالله والأنبياء من قبله لم يأتوا إلا لإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد لا إكراه في الدين معناه لا يوجد جنس الإكراه في الدين والذين يظنون أنه لا يمكن أن ينتصر دين الله بدون إكراه لم يفهموا الله ولا دينه ولا الإنسان ومن خسر هذه كلها فهو الخسران المبين ذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم فأصبحتم من الخاسرين يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم كيف يتغير واقعنا من غير أن يتغير فهمنا لله ولدينه ولرسوله الذي أحيا رسالة كل الرسل والأنبياء إن المستقبل وآلامه سيرشد العالم كله وسيفهم المسلمون عند ذلك وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد.

41. أمنيتي السلام العربي العربي

هل علي من حرج إن أعلنت عن أمنيتي في أن يحل السلام بين العرب أنفسهم أم أن هذه الأمنية ممنوع ومحرم وخيانة وزندقة وإعلان حرب بين العرب بعضهم مع بعض وأنا منذ بدأت الكتابة قبل نحو أربعين سنة هاجسي اللاعنف ومذهب ابن آدم الأول الذي قال لأخيه (لئن بسطت إلي يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك إني أخاف الله رب العالمين) وكذلك هاجسي ما علم الله في الإنسان الذي جعله الله خليفة في الأرض ولما اتهمت الملائكة هذا الخليفة بأنه سيفسد في الأرض ويسفك الدماء قال الله لهم إني أعلم ما لا تعلمون ما تعلمونه هو الفساد وسفك الدماء وأنا أعلم في الإنسان غير هذا الذي تعلمون وأنه سيخرج من الفساد وسفك الدماء. وأنا لما أبحث هذا الموضوع من غير ملل يواجهني كثير من الناس هل هذا السلام الذي تدعو إليه يتصل أو ينفذ إلى السلام الدائر والداعي إلى السلام بين العرب وإسرائيل هذا الذي يكون متسائلا على الأغلب لا يفهم إلا السلام مع إسرائيل ولا يقتنع أن يكون هناك سلام آخر لقد حشيت الأدمغة بالسلام مع إسرائيل بحيث لم يبق حديث وفكر غير السلام مع إسرائيل وإن السلام بين العرب غير وارد بل يوجد نوع من اليأس من أن يكون هناك إمكان للسلام بين العرب وكنت مدعوا إلى محافظة دير الزور في سوريا لألقي محاضرة بعنوان (كيف نصنع السلام بين العرب) وكان هناك على جدار المركز الثقافي هذا العنوان بخط كبير وكان شاب مراهق على دراجة يمر من هناك فلما قرأ العنوان قال هذا غير ممكن. هذا شاب مراهق ولكن هناك أطباء ومهندسون لا قدرة لهم على إمكان فهم أن يكون سلام بين العرب وللشعوب أمثلة ونكت طريفة في هذا الموضوع لما هذا الإمكان والضجيج في السلام بين الصهيونية والعرب وهذا اليأس في أن يحل السلام بين العرب ولما قال مالك بن نبي (إن العرب إذا اجتمعوا يعتبرون أكبر مشكلة عندهم مشكلة إسرائيل وهذا فهم خاطئ لأن مرض العرب ليس هو إسرائيل بل إسرائيل عرض للمرض وكذلك سائر مشكلات العرب والمسلمين ومالك بن نبي ابتكر مصطلح (القابلية للاستعمار) لمرض العرب والمسلمين وأنا هل علي من حرج أن تكون لي أمنية في أن يحل السلام بين العرب من غير أن يخسر أحد منهم شيئا ويربح الجميع.كيف نحيي هذه الأمنية ؟

أنا في رأيي يمكن إحياء هذه الأمنية إذا غيرنا نحن الناس العاديين ما بأنفسنا من مواريث التاريخ في أن الاتحادات العربية كانت تحدث بأن يظهر حاكم قوي يوحد الأمة العربية بالقوة هذا الشيء الذي كان يحدث فيما سبق من الزمان وكأن خيالنا ولا شعورنا يستحضر هذا التاريخ وربما يكون هناك حنين إلى ذلك كما يداعب خيال بعض من يملك القوة كما حدث في الحرب الثانية في الخليج.

إن هذا الأسلوب في الاتحاد لم يغير من المشكلة الحقيقية وهي القابلية للاستعمار بحسب مصطلح مالك وأنا يمكن أن أستخدم مصطلحاً غير هذا وهو مصطلح الرشد لأن الرشد هو الذي يأتي بغير إكراه وبغير تدخل القوة لهذا في الإسلام لا إكراه في الدين ولا إكراه في السياسة لأن السياسة التي تأتي بالإكراه لا تكون رشدا كما سجل تاريخ المسلمين ذلك حيث لم يسموا الذين جاؤوا بالإكراه راشدين وبالإكراه واللاإكراه تبين الرشد من الغي ونحن نريد أن نعلن أمنيتنا في السلام والتعاون العربي أن لا يكون بالإكراه ويكون بالرشد وهذا ما يحدث في أوربة الآن يتحدون من غير إجبار ولا إكراه وبالقناعة والتفاهم من غير أن يخسر أحد شيئا ويربح الجميع بل إن علم الله في الخليفة بدأ يتحقق حيث تطورت التقنيات التدميرية إلى إمكان تدمير الأرض كلها فلهذا الكبار لا يستطيعون أن يتقاتلوا وينجح من ينجح بدون حرب وسلاح مثل اليابان ويسقط من يسقط بدون حرب وسلاح مثل الاتحاد السوفيتي المتخم بالأسلحة تمزق من الداخل وليس من هجوم عدو خارج عنه وأوربة التي جربت كل الحروب الأهلية والقومية والدينية والعالمية تتحد الآن بدون قوة السلاح والحرب بالإقناع وكلمة السواء للكل حقوق متساوية. هذه الوقائع هي التي تجعل أمنيتي في السلام العربي العربي له أرضية دينية ودنيوية وتاريخية وإنما فقط أن نعقل الأحداث ونبلغ الرشد والوعي في فهم الأمور وأن لا نفرح بالذي يريد أن يوحد العرب بالقوة فإذا صرنا نؤمن بهذا ونغير ما بأنفسنا في أسلوب حل المشكلات فإن الله سيغير ما بنا من التفرق والخوف من بعضنا إن الصوفية كانوا يقولون كلمة لها مغزى كانوا يقولون ألسنة الخلق أقلام الحق إذا غير الأفراد ما بأنفسهم باسلوب حل المشكلات فسيغير الله ما بالأقوام من التمزق والخوف والريبة وسيأمن الجار جاره لا أن يخاف من جاره أكثر مما يخاف من أعدائه إذا تغير ما بأنفسنا علينا أن نظهر ما بأنفسنا بألسنتنا عندما نغير ما بأنفسنا من تعليق الأمل بالقوة والإكراه

ليتحد العرب فإن العرب سيتحدون وسيصنعون السلام بينهم ولكن ما دمنا سنفرح ونصفق للذي يريد أن يوحد العرب بالقوة فإن هذا الذي بأنفسنا سيخلق الله منه المغامرين الذين يرعبون إخوانهم بالسحق والمحق وفي سبيل الوحدة المقدسة أجزنا الغدر بإخواننا أو فرحنا بالذي سيوحد العرب بالقوة فإذا غيرنا هذا الفهم فيمكن أن يحل فهم آخر وتغيير ما بالأنفس يغير الواقع يغير النقم إلى نعم والعكس صحيح ذلك بأن الله لم يكن مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وأنا متأكد من أننا إذا صرنا ننظر بمقت وازدراء إلى الذين يريدون أن يوحدوا العرب بالإكراه فسوف لن يظهر من يحاول أن يفعل ذلك وإذا صرنا بوعي ويقين واضح أننا سنفرح بالذي يبدأ بصنع السلام بين العرب من غير أن يضمر خداعاً فإن هذا الوعي الذي حدث في أنفسنا سيحقق في الواقع الذي يبدأ بصنع السلام بين العرب، وقانون الله لن يتبدل ولن يتحول ولن يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ونحن نبذل جهداً لتغيير ما بالأنفس فإني قد غيرت ما بنفسي من أن السلام لن يحل بيننا نحن العرب ما دمنا نَحِنُّ إلى القوة لتوحيد العرب لأن هذا الحنين إلى القوة والإكراه والإرغام هو الذي يفسد العلاقات من الطمأنينة إلى التوجس والريبة والخوف من بعضنا وإذا كان جارنا لا يثق بنا لا يكون عندنا إيمان ولا أمان وهذا ما يقوله رسول الله (لا يؤمن من لا يأمن جاره بوائقه) ويقول (لا إيمان لمن لا أمانة له) وهذا ما صاغه محمد إقبال شعراً فقال:

إذا الإيمان ضاع فلا أمان   ولا دنيا لمن لم يحيي دينـا

وأنا أعلن أمنيتي في السلام بين العرب وأمنيتي في السلام العربي العربي وأنا مستعد لتحمل ما ينتج عن هذه الأمنية وإني لعلى يقين إذا غيرنا ما بأنفسنا أن هناك كثيرين يحنون إلى هذا ولكن المشكلة ليست واضحة لديهم ونحن نسعى لتوضيح ذلك وعلينا أن لا نكتم سنن الله في الأقوام والمجتمعات وأن الذين لا يؤمنون بإمكان انتصار الحق بدون قوة وبدون إكراه يجهلون سنن الله.

42. التاريخ مرة أخرى

التاريخ هو معرفة كيف بدأ الخلق كيف كان وكيف صار إذا كان التاريخ هو معرفة فإن الإنسان هو معرفة أيضاً والإنسان بدون معرفة صفر وحجم الإنسان هو حجم معرفته المعرفة المركزة المتواصلة الذي ليس له انقطاع لأن انقطاع المعرفة يذهب بقيمة المعرفة لأن المعرفة المتواصلة هو استمرار النور والانقطاع هو الظلام والذي ينقطع عن المعرفة مدة من الزمن يدخل في الظلام وخاصة في هذا الزمن المتسارع إن المعرفة التاريخية صحة نفسية كما أن صحة الأجساد تاج على رؤوس الأصحاء كذلك الصحة النفسية المبنية على الصحة المعرفية هو الإنسان السليم إن انقطاع الوحي (ختم النبوات) حدث لأنه أوصل الوحي النبوي إلى معرفة غير قابلة للانقطاع لأن الوحي النبوي أمرنا أن نسير في الأرض وننظر كيف بدأ الخلق إن معرفة كيف بدأ الخلق يوحي بمصير الخلق في المستقبل إن امتداد معرفة كيف بدأ الخلق في الماضي يجعل امتداد معرفة كيف سيصير الخلق في المستقبل على قدر امتداد الماضي المعرفي يجعل المستقبل المعرفي ممتداً أيضاً ولعل هذا هو الذي جعل آية سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق متبوعاً بقوله تعالى (ثم الله ينشئ النشأ الآخرة) وهو الذي يستدعي أن نتذكر قوله تعالى (ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون) إن معرفة النشأة الأولى هو الذي يفتح الباب لمعرفة النشأة الآخرة والإنسان في مرحلة الطفولة إن المعرفة التاريخية المستقبلية نتيجة المعرفة التاريخية الماضية الإنسان يعيش بغموض ولا شعور المعرفة التاريخية لأنه هو الإنسان نفسه اختزال للتاريخ لأنه انطوى فيه تطور التاريخ وإيضاح هذا الغموض ونقل اللاشعور إلى الشعور والوعي هو الذي يجعل الإنسان في النور نور المعرفة نعم تعلمنا جملة (العلم نور) أول ما تعلمنا معرفة تكون الجملة الاسمية والفعلية ومعرفة المبتدأ والخبر إن الذي فتح أمامي امتداد النور التاريخي هو مالك بن نبي يفضله قرأت توينبي وويلز إن ويلز يبدأ معالم تاريخ الإنسان بامتداد المعرفة الإنسانية إلى الزمن الماضي تاريخياً وامتداده مكانياً جغرافياً إلى الأبعاد الفلكية إنه تفكر في خلق السماوات والأرض (ويتفكرون في خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً فقنا عذاب النار) النار فيه العذاب وفيه النور والعذاب الذي فيه يؤدي إلى النور (الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات) وهذا الموضوع كان يشغلني كثيراً فكيف نخرج من الظلمات إلى

النور كيف نغير نحن العالم كيف سنخرج من الظلمات إلى النور كيف نصير نفهم التاريخ كيف نكسب المعرفة كيف نكسب الصحة النفسية لما كان هذا الهاجس مسيطراً علي وكنت أقرا القرآن لأجد فيه حل المشكلة ولكن كنت في الظلام ولا نزال في الظلام واتصلت بي أخت من السعودية تتطلع إلى النور ولكن استشفيت من حديثها الحيرة والظلام كيف نعرف الصواب من هذه الكثرة في التصورات فأحسست لأول مرة بارتفاع درجة الاهتمام بإخراج الناس من الظلمات إلى النور والحاجة إلى الأخذ بيد الناس للخروج من الظلمات إلى النور وخاصة لما كنت أقرأ القرآن وأجد فيه وصول الناس لدرجة الإغلاق في الفهم وأن الآيات لا تغني عنهم (وكأي من أية في السماوات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون) وقوله تعالى (وإن تدعهم للهدى فلن يهتدوا إذن أبداً) وكلمة أبدا توحي باليأس إن لم نفهم الموضوع خلال التاريخ من أن الناس يصلون إلى درجة الإغلاق ويزين لهم سوء عملهم ويرونه حسناً وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون الإنسان إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون ثم أخيراً اهتديت في القرآن إلى آية تقول (إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم) فأمسكت بالمخرج والخلاص إن العذاب الأليم عذاب النار هو الذي يخرجنا من النار إلى النور من الظلمات إلى النور هذا هو أسلوب القرآن (الله ولي الذي آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور) من ظلمات وآلام الجهل والحروب والأحقاد والكراهيات والخوف المتبادل وإغلاق أبواب الخروج من المآسي التي نحن فيها ولكن أسوء العذابات التي أخرست الألسنة وحيرت العقول والأفئدة مأساة الحرب الخليجية الأخيرة التي لا نجد لها مخرجاً لأنها كانت فضيحة معرفية فضيحة تاريخية بكل معانيها ومأساة وعذاب وليس عذاب أليم فقط بل عذاب مهين لنا جميعاً وشعور الإنسان بالهوان إغلاق أبواب المخرج منها هذا الذي يشعر الإنسان بالهوان الذي هو موت الفكر ولعل القائل من يهن يسهل الهوان عليه   ما الجرح بميت إيلام كان قد لمح شيئاً من مشكلة الهوان والعذاب المهين وأنا لما قرأت تاريخ ويلز وتاريخ توينبي لأن مالك بن نبي نقل سطراً واحداً مشيراً إلى فكرة توينبي في نشأة الحضارات لما بحث مالك في شروط النهضة الأفكار المتعلقة بنشأة المجتمعات وعوامل ميلاد الحضارات وذكر فكرة التحدي لتوينبي فهذا جعلني أقرأ بتأمل وتحدي صعوبة الفهم والقراءة بعناد قراءة الملخص الذي طبعته جامعة الدول العربية وليت الجامعة العربية تركت السياسة وتوجهت إلى نشر المعرفة التاريخية إذاً لأفادت كثيراً ماذا سأقول في نفسي كلام كثير ولكن أشعر أننا نفقد القول الفصل الذي ليس بالهزل من توينبي فهمت مأساة الحرب في التاريخ البشري وهو الذي قرأت له من أن أميراً أو ملكاً انتصر في معركة فجاءه مهنئ على انتصاره فقال هذا المنتصر للمهنئ الكلام بيني وبينك إن نصراً أخر مثله يكفي لأن يقضى علي نهائياً ولكن البشرية لن تنتهي بأخطاء عصر ما أو بقعة ما إن البشرية لها هدف لم يبلغها بعد وسيبلغ مما قرأت لتوينبي أنه كان علق تعليقاً على حدث أثناء الحرب الباردة بين الغرب بزعامة أمريكا وبين الاتحاد السوفيتي واخترقت أجواءها وأظن أنها كانت أسقطت وكان من تعليق توينبي على هذا الحدث أنه استنكر هذا الحدث وهذا التحدي المتبادل وقال كنت سأفرح لو أن أمريكا اخترقت الأجواء السوفيتية بالطائرات لتلقي شحنات من كتاب برنارد راسل الذي بعنوان (هل للإنسان من مستقبل) وكان راسل من أعداء الحرب ومع كل علاته إلا أنه كان معادياً للحرب بعناد وتشبث والآن ماذا يوجد في هذا الكلام من عبرة والآن وأنا استمع إلى الأخبار صفقة شراء طيارات إف 16 بأرقام فلكية من الدولارات يشتريها بلد عربي وأنا أرى مثل توينبي وراسل أنه لو أن هذا البلد العربي بدل أن يشتري هذه الطائرات الحديثة والقديمة في آن واحد كان ساهم بثمن طائرة واحدة في ترجمة كتاب التاريخ الذي كتب بطلب من مؤسسة اليونسكو وطبعها وتوزيعها في البلاد العربية والإسلامية لكان أفضل لبناء أرضية الوعي في العالم الإسلامي إ سلسلة عالم المعرفة التي تطبع في الكويت وتوزع في البلاد العربية بثمن يستطيع طلاب المعرفة الفقراء أن يشتروه بدون أن يهدم ميزانياتهم الفقيرة لها قيمة وللحديث عن التاريخ قصص لا تنتهي حيث عواقب التاريخ هو مرجع كتاب الله الذي ختمت به الكتب السماوية لأن عواقب التاريخ هو الذي سيبين إن هذا الكتاب حق (ستريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد).

43. حقوق الإنسان في مأزق (مقال كأنه ناقص)

كيف يمكن أن نفهم هذا، لنفهم هذا أولاً لابد من معرفة التاريخ البشري وماذا حصل له من تطور خلال التاريخ ثانياً أن نفهم ماجاء به الأنبياء في هذا الموضوع مفهوم حقوق الإنسان مفهوم حضاري غربي يقابله عند الأنبياء واجبات الإنسان يشير إلى هذا الموضوع مالك بن نبي حتى أنه قال في علاقة جدلية من أننا إذا أدينا واجباتنا سنجد حقوقنا إن لم يكن في الأرض فستنزل من السماء وكان يقول: إن الحضارة عند أفولها تبدأ تبحث عن الحقوق أما عند بدئها تبدأ بأداء الواجبات لهذا الأنبياء جميعاً تمسكوا بأداء الواجبات وبها بدؤوا وشأن الواجب أنه لايجوز لك أن تتنازل عنه ولكن حقك يمكن أن تتنازل عنه وهو إحسانٌ أما واجبك فلابد من أدائه ويمكن أن نقول الحق هو واجب الآخر نحوك ولكن الواجب هو حق الآخر عليك وكان الصحابة يسألون عن الحق الذي عليهم للآخرين ما حق الزوجة على الأزواج ما حق الفقراء على الأغنياء؟ الخ... ويقال إن غاندي دُعي إلى لقاء لبحث حقوق الإنسان فقال: إذا التقيتم لبحث واجبات الإنسان سأحضر هذا الموضوع موضوع فلسفي في طبيعة الإنسان وتطوره وحديث الرسول عن طاعة الأمراء أعطوا الذي لهم واسألوا الله الذي لكم واسمع وأطع وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك مالم يأمر بمعصية فإن أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة والتباس هذه الأمور يوقع في مشكلات كبيرة فمن هنا كان حقوق الإنسان في مأزق لأن تطور التاريخ بدأ يُظهر أن الإنسان الذي يؤدي واجباته سيجد حقوقه أما الذي يطالب بحقوقه ولا يؤدي واجباته فمن سيعطيه حقوقه لقد برز حقوق الإنسان في الحضارة الغربية وخاصة مع الثورة الفرنسية حيث البدء بالحقوق وهذا ما أدى إلى حق الشعوب في تقرير مصيرها بكل الوسائل بما فيها العنف وهم مارسوا هذا حيث أجازوا للشعوب قتل المستبدين

44. البنى التحتية المتحكمة

تأسيس البنيان غالباً ما يكون تحت الأرض وغير مشاهد. وعلى قدر عمق ومتانة هذا الأساس المخفي يكون البناء راسخاً. إذا كان هذا في عالم الأشياء ومواد البناء فإن الأفكار الأساسية العميقة المتينة وغير المشاهدة أو غير المستحضرة في الوعي تكون قوية ومتحكمة ولا شعورية وفوق أو تحت ما يمكن أن يدخل إلى عالم الوعي. ولكن تحكم الأفكار في الإنسان تكون قوية وصعبة التغيير، وآثارها وعواقبها وما يترتب عليها في واقع الحياة تكون مشاهدة وفاقعة إلى درجة تفقأ العين وتتسلط على الناس، ولا قدرة لهم على تغييرها لأن أسسها المنتجة خافية عميقة غير مدركة وغير متداولة في البحث. هكذا شأن الأفكار.

خلال فترات طويلة تتعمق الأفكار وترسل إلى اللاوعي المتحكم فتصبح مثل الأعضاء في الجسد التي تعمل تلقائيا خارج الوعي كالقلب والرئتين والجهاز الهضمي. كذلك في عالم الأفكار تتحول الأمور التي كانت في الوعي إلى اللاوعي. هذا قد يكون مفيداً كما في الجسد والأعضاء التي تعمل خارج وعي الإنسان حتى وهو نائم حتى لا ينشغل الإنسان في إرادته الواعية ليتخصص الوعي في أشياء أخرى. ومع كثرة تداول أفكار معينة تتحول إلى اللاوعي مثل عمليات الأعضاء اللاإرادية. ولكن ينتج عن هذا مشكلات كصعوبة التخلص من الأفكار الضارة إلى درجة العجز، إلا إذا وصلت إلى درجة غير قابلة للإحتمال. يتحدث القرآن عن هذه المراحل بأشكال مختلفة: "إذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون". هنا يقرر القرآن حالة اللاوعي واللاشعور وعدم الإدراك على أن هذا الذي يقوم به الناس فساد وضرر. وكذلك يقول: "وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذاً أبداً". وهذا يدل على صعوبة الانتقال من الضلال المترسخ في اللاوعي إلى الهدى الذي لم تتضح بعد معالم نفعه وفائدته. والقرآن يقول: "إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم". في هذه الآية يتحدث القرآن عن الصعوبة في التغيير لا عن الاستحالة لأنه هنا يضع نهاية للعجز عن الإدراك واستمرار العمى والصمم عندما تبلغ النتائج الضارة درجة غير قابلة للاحتمال. هنا يفتح القرآن الباب الذي كان مغلقاً، أي يضطر الإنسان إلى التخلي عن الضلال بعد عذابات وخسائر لا تطاق، فيضطر الفرد والمجتمع تحت وطأة العواقب غير المحتملة إلى تغيير الموقف. والعلم الآن يبحث هذه المشكلات تحت عناوين مختلفة. فمثلاً يبحث علماء الدراسات الاجتماعية مشكلة الإنسان الذي عنده إيمان بمسلمات لا يشك فيها ولا يقدر فيه

على تقبل الصواب. هذا الذي استشهدنا له بقوله تعالى: "وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذاً أبداً". وكذلك قوله تعالى "ومن يضلل الله فلن تجد له ولياً مرشدا". هذه الأحكام ليست مطلقة ولا نهائية ولكنها نسبية وفي مرحلة معينة وزمن معين. نفهم هذا أيضاً من موقف الرسول (ص) من أهل الطائف عندما دعى الله أن لا يهلكهم لعله يخرج من أصلابهم من يعبد الله ولا يشرك به. وهذه نظرة غير مغلقة عن الإنسان. فقد يغلق التفكير على جيل وجيلين وأكثر، فيعجزون عن الاهتداء وترك الخطأ والضلال وما وجدوا عليهم آباءهم، ولكن ليس وضعهم حكم مطلق.

هكذا كان الأمر في مطلع البشرية، لأن بطء عمليات التغيير وبطء وسائل الاتصال وعدم معرفة أخبار وأحداث الأمم الأخرى كان يجعل الاهتداء أكثر صعوبة وأطول مدى. ويمكن أن نفهم هذا من دعوة نوح عليه السلام على قومه بأن لا يذر منهم على الأرض دياراً "رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفارا". ولكن عيسى عليه السلام كان مختلفاً عن نوح: "وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق ..." إلى أن قال:"إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت الغفور الرحيم".

هكذا يتطور التاريخ وهكذا تتراكم التجارب خلال الزمن ليحدث للناس الاعتبار ولا يكرروا الأخطاء. ماذا أقصد من هذا الحديث؟ حين يبحث المصلحون في تغيير أحوال المجتمعات وما يجدون من صعوبة في تغيير ما بأنفس الناس من المفاهيم والأفكار والتقاليد يطلقون أسماء مختلفة على عجز الإنسان عن التكيف مع الظروف المتغيرة. المشكلة ليست في تسمية هذه الحالة الإنسانية لأن كل المجتمعات تصاب بمثل هذا، ولكن المشكلة أن بعض الناس يتسرعون في الحكم على البشر في حالة معينة وعلى عدم إمكان صلاحهم وتغييرهم. هذه هي العنصرية اللاتاريخية التي تشوه الإنسان وتحكم على بعض البشر بأنهم غير قابلين للتحضر. إنه لمأساة أن تظل هذه الأمور خفية وأكثر الناس يحدث لهم يأس من التغيير وآخرون يستغلون هذا لاستمرار تسلطهم. كيف نضيء هذه الظلمات المدلهمة؟ وكيف نجعل الناس على ضياء؟ إن آخر الأسماء التي تطلق على حالة الإغلاق الآن هي كلمة "الأصولية" بعد "الصرامة العقلية" و"الدوغمائية". وكان من تعريفهم لهذه الحالة قولهم أيضاً إن الإنسان الذي يعجز عن أن يغير موقفه حين تتطلب الظروف الموضوعية التغير عنده عقلية عاجزة عن التكيف مع التطورات الجديدة.

لماذا يعجز العالم مثلاً عن إلغاء حق الفيتو في الأمم المتحدة؟ أو أن يكون هذا مطلباً إنسانياً كما يطالب بحقوق الإنسان؟ ما هي الأسس التي تحول دون المطالبة بإلغاء الفيتو؟ إن ممارسة الخروج عن الخضوع لحق الفيتو أو باطل الفيتو الذي خيل إلينا أنه حق وهو باطل الأباطيل هو مطلب إنساني الآن. إن الأنبياء جميعاً جاؤوا بالتوحيد وإدانة الشرك واعتباره الذنب الذي لا يغتفر ما لم يتخلى الإنسان عنه. ما هي البنى التحتية التي تجعل مثل هذه الأمور قائمة وراسخة ومحتملة ولا ينتقدها أحد، بل يتمناها الذين يفقدونها؟

الأنبياء جاؤوا لتغيير هذه البنى التحتية التي تحمل مثل هذه السخافات. هذه البنى هي أصنام هذا العصر والتي لا نجد من يفضحها مثل ما قال موسى عن عجل السامري: "انظر إلى إلهك الذي ظلت عليه عاكفاً لنحرقنه ولننسفنه في اليم نسفا". ما هي البنى التحتية المتحكمة فينا في العالم العربي والتي لا نشعر بها ولا قدرة لأحد على إعادة النظر فيها؟

إن مشكلتنا هي مشكلة اكتشاف الإنسان والقدرات الكامنة فيه والمكبوتة. الأنبياء جاؤوا لرفع الآصار والأغلال عن الناس المتعبين من الأحمال الثقيلة التي على ظهورهم والقيود المعيقة على أيديهم وأرجلهم المغلولة إلى أعناقهم. هذا هو التوحيد الذي يحرر الإنسان من السلطات الأرضية كلها، من آزر إلى الشرعية الدولية. ولكن العالم كله لا يزال يقول عن الأنبياء أنهم سحرة ومجانين: "كذلك ما آتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون أتواصوا به بل هم قوم طاغون فتول عنهم فما أنت بملوم وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين". "ولتعلمن نبأه بعد حين".

45. ظاهرة جديدة نشيد لها

إن رؤية مثقف بمستوى الدكتور عبد الله النفيسي يجلس في قناة فضائية وعلى صدره لافتة مكتوب عليها "لا للتطبيع مع الكيان الصهيوني" لمنظر جديد، على الأقل علي أنا، وله مغزى عندي بصرف النظر عن المحتوى لهذا الإعلان. إن مجرد الإعلان ظاهرة صحية وخاصة في موضوع يتبناه العالم السياسي، ليس محلياً فقط وإنما عالمياً، وإن كانت الشعوب العربية والإسلامية في ريبة منه، حيث لا يعرض البديل بوضوح يُخرج الناس من الحيرة والتردد. إلا أن إعلان د. عبد الله النفيسي عن رأيه في لوحة تتدلى على صدره مكتوبة بلون أحمر وبالخط العريض تعرض بديلا.

ماذا يعني هذا في عالمنا العربي؟ إن حركة مثل هذه تعني الخروج من الصمت في اتخاذ المواقف وفي الإعلان عن الرأي. وهذا معناه أن النفيسي أعطى لنفسه حق "حرية الرأي" ورفض الإيحاء بأن التطبيع رأي مجمع عليه، وأرانا أن هناك صوت يقول: "لا!" وأرانا أيضا أن صوته مخالف للتوجه الإجماعي في السياسة في موضوع التطبيع. وهذا الموقف له مغزاه العميق، لأن التطبيع يُفرض على السياسيين أو يشعرون أنه مفروض عليهم ويفرضونه على شعوبهم كخيار وحيد لا بديل له.

ما معنى هذا الإعلان من المثقف؟ وما هي الأرضية التي ينطلق منها هذا الإعلان، والى من يتوجه هذا الإعلان؟ هل هو إلى الشعوب أم القادة السياسيين، أم للعالم جميعاً؟ إن التطبيع الذي يحيط به الضجيج يُفرض على السياسة دون أن يكون معها خيار آخر. ولكن الشيء الخبيء في عرض كهذا هو التسليم الذي يفرضه، لأنه مبني على فقدان البديل عنه. لقد آمن الكل بأنهم لا يستطيعون حل المشكلة بالقوة المتوفرة لديهم، وأوحوا إلينا أنه لا بديل عن هذا الموقع.

ولكن نرى في موقف النفيسي أن المثقف خرج من الصمت وأعلن رفضه مبدئياً لهذا الحل للمشكلة المستعصية التي ملأت الأسماع والأبصار بالرعود والبروق، وسيقت إليها الشعوب بدون أن يطرح الموضوع للاستهام (للاستفتاء) (أي بدون أن يكون هناك خيار)، كأنه طريق ذو اتجاه واحد لا محيص عنه. فمن هنا كان لإعلان د.النفيسي مغزاه، فقد ظهر من يقول "لا" بدل "نعم". كأن المعارضة بدأت تعلن عن نفسها في صوت المفكر والمثقف الذي له قدرة على المناورة، لأن دور المفكر والمثقف هو تقديم أرضية لحلول بديلة.

إن الذي ليس عنده تصور إلا العنف يستسلم للتطبيع. ولكن الذي ينطلق من الثقافة والفكر وليس من سيطرة القوة يقول "لا" للتطبيع. ومن طبيعة المفكر والمثقف أنه لا يواجه المشكلات بالعنف وإنما يواجهها بالآراء البديلة. إن الفكر عالم أعزل مختلف يقدم شيئا آخر غير القوة، أو هكذا الفكر الذي يؤمن بقوة الفكر. أما الفكر الذي يؤمن بالقوة فهو فكر ألغى نفسه.

ينبغي أن ننظر إلى الأرضيات والأسس التي تبنى عليها المواقف. والنفيسي قام بإعلان موقفه بأسلوب جديد متطور. إن موقف التطبيع مبني على أساس القوة، أي ليس هناك من حل إلا بالقوة والقوة غير متوفرة فلا مجال لغير التطبيع إذاً. هذه هي مسلمة اتجاه التطبيع. وفوق هذا لا يطرح الذين يركضون وراء التطبيع (لا تصريحا ولا تلميحاً) عودة اللاجئين قبل التطبيع. أما مسلمة الاتجاه الذي يرفض التطبيع فهي مبنية على أساس آخر غير القوة، لأن كل واحد منهم يوحي بأرضيته وأسس منطلقاته صراحة أو ضمنا وأنا أشعر أن د. عبد الله النفيسي المثقف والمفكر غير وارد عنده أن يستخدم القوة أو العنف ضد الذين ديدنهم التبشير بالتطبيع.

حين نقول لا للتطبيع، فما هو البديل؟ البديل المقابل هو(نعم للتطبيع العربي–العربي). إذن، لم لا نبحث مسألة السلام العربي– العربي والتطبيع العربي– العربي والتعاون العربي–العربي؟ ولم لا نبحث أيضاً مسألة (لا للعنف العربي–العربي)؟ إن المشكلة الأساسية المسكوت عنها هي هذا البديل الذي ينبغي للعرب أن يتأملوه جيداً ولاسيما المثقفون وأهل الفكر منهم ليضعوا الفكر البديل بعبارات مختارة معبرة يؤمنون بها عن بينة في عقولهم

وقلوبهم ويتكلمون بها بألسنتهم ويضعونها شعاراً على صدورهم مثلما فعل د. عبد الله النفيسي. وأنا أشك أنه يمكن أن يجتمع الإكراه واللاإكراه في الدين فهما متناقضان كما تتناقض حرية الرأي مع فرض الرأي والإكراه. ونحن نريد رفع الإكراه في الرأي ورفض الإكراه في الرأي، لأننا إذا أزلنا الإكراه فيمكن أن يزيد وعي الناس فيرفضون الإكراه في الرأي.

إن هذا الموضوع ينبغي أن نبحثه من غير ملل لنصل إلى الوضوح في الرأي والموقف، وينبغي أن نضع في فم الإنسان العادي الكلمة التي يمكن أن يقولها بثبات ويتبناها من غير تردد. وأنا أفكر في هذا الموضوع من زمن بعيد ووصلت إلى نتيجة أنه لا نستطيع الكلام لأننا لا نقدم الحل. فإذا كان لدينا بديل ذو حل فإننا عند ذلك نستطيع الكلام. والحل يكمن في أن لا يخسر أحد شيئاً، لا مالاً ولا ملكاً ولا أرضاً وإنما يربح الجميع وترضى عنهم شعوبهم وتحترمهم خصومهم. عندما نقدم حلا بهذا الشكل نستطيع أن نرفع الشعارات وننطق بالكلمات التي تعبر عن هذا البديل. أما إذا كان الحل الذي نريده يؤدي إلى نزع الأموال والأرواح والأراضي وإعطاؤها لآخر، وفيه خسارة لبعض الأطراف وفناء لهم –ما دام هذا التصور في قلوبنا في حل المشكلة العربية العربية– فلا يمكن أن نقوله ولا نستطيع أن نرفع شعاراته، ولا يمكن أن نكتب كلماته بخط عريض ونضعها على صدورنا وظهورنا. ولكن عندما يكون حلنا للمشكلة العربية– العربية من غير أن يخسر أحد ويربح الجميع، فإننا نستطيع أن نعلن هذا في كل زمان ومكان ونرفع الشعارات المعبرة عنه والكلمات التي تدل عليه ونكتبها ونضعها على صدورنا وجباهنا وحقائبنا، ونبرزها في كل مكان من غير تردد ولا ارتياب، حتى لا نكون من الذين في ريبهم يترددون.

الحل من غير أن يخسر أحد شيئاً ويربح الجميع ممكن، وليس مستحيلاً، ولا صعباً. عندما نتفهم ونتأمل هذا الحل ندرك ما تفعله أوروبا الآن بعد أن شيعت حروباً ودماراً. فالأوربيون يعملون اتحاداً من غير أن يخسر أحد شيئاً. وهذا أقرب إلى الله ورسوله والعقلاء من الناس. إن المثل الأوروبي لا يحدث في مجرة أخرى وإنما أمام أسماعنا وأبصارنا، وعلينا أن نحدق في هذه الظاهرة المعاصرة. إن بعض الناس يرونه بعيداً، أما أنا فأراه قريباً. إن رسالة الأنبياء جميعاً هي أن يقوم الناس بالقسط، وإذا تعلمنا ذلك ستحل مشكلاتنا.

ما هي العبارة التي نستطيع أن نصوغها لنعبر عن الحل للمشكلة العربية–العربية من غير أن يخسر أحد شيئاً ويربح الجميع؟ إني أرى الأرضية التي يمكن أن تُنبِتَ مثل هذا الحل، وهي تتطلب أن نُخرِجَ من قلوبنا فكرة توحيد العرب بالقوة. إن قلباً فيه هذا التصور لا يمكن أن يجد الحل البديل، وإذا كنا لن نفرح بالذي يريد توحيد العرب بالقوة فلن يخرج من بيننا المغامر الذي سيكرر أخطاء القرون ويخلف المآسي.

وقف مفكر أمام تمثال لهتلر وقال: إن الرحم الذي أنتج هذا لا يزال يتمتع بخصوبة. ونحن علينا أن نغير تصوراتنا لأنها هي التي تتحكم فينا، وصدق الله: "إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم".

46. النص والواقع

حين ينطق الإنسان بجملة "السلام عليكم" يمكن أن تفهم منها بواسطة لحن القول وكيفية النطق أنه سعيد جدا لرؤيتك؛ كما يمكن أن تفهم من لحن قوله أنه تعيس جدا لرؤيتك. ولكن حين نكتب عبارة "السلام عليكم" على الورقة تفقد كل هذه الإيحاءات. الكلام المكتوب هو ما يسمى بالنصوص، وهو بطبيعته يفتقد لحن القول بخلاف الكلام المنطوق. ولهذا تعد اللغة المكتوبة مرحلة مختلفة عن الكلام.

وقسم العلماء في تراثنا الفكري مراتب الوجود، ووضعوا النص المكتوب كآخر مرتبة للوجود، فقد تناول محي الدين بن عربي وكذلك أبو حامد الغزالي في كتابه مقدمة المستصفى –التي اعتبرها مقدمة جميع العلوم– مراتب الوجود. يقسم الغزالي مراتب الوجود إلى أربع: المرتبة الأولى هي الوجود العيني

أي الوجود الواقعي المشاهد، والمرتبة الثانية هي الوجود الذهني أي الصورة التي تتكون في أذهان الناس عن الوجود العيني. ثم الثالثة وهي الوجود اللفظي أي اللفظ المنطوق. وتأتي المرتبة الرابعة وهي الوجود الخطي الذي يرسم على الورق ويتحول إلى نص محفوظ في الألواح والأوراق.

نجد في أول سورة نزلت في آخر رسالة من السماء "اقرأ بسم ربك الذي خلق". ويشرح ابن تيمية هذه الآية ويقول إن عبارتي "اقرأ" و"الذي خلق"، تجمع مراتب الوجود. فهو يشير إلى كلمة "اقرأ" بأنها الرتبة الرسمية (أي المرسومة)، ويشير إلى عبارة "الذي خلق" بأنها المرتبة العينية، ويقول أن المخلوقات كلها في المرتبة العينية. ثم تتكون الصورة في الأذهان عن هذا الوجود العيني، وبعده يأتي الوجود اللفظي الذي بواسطته ينقل الإنسان صوره الذهنية عن الوجود العيني إلى ذهن إنسان آخر. وينقل هذا إلى الوجود الكتابي الذي يُوضع رمزا للنطق الكلامي.

وهناك إشارات كثيرة إلى أهمية النطق في القرآن. فالله تعالى حين يتحدث عن الخلق في هذا الكون وعن الرياح والسحاب والسماء ذات الحبك واختلاف الناس وتفاوت تصوراتهم يقول الله، بعد ذلك كله، "فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما تنطقون". يستعمل القرآن النطق لأن الإنسان لا يتشكك في الشخص الذي ينطق أمامه. والإنسان حيوان ناطق. وتنقسم أركان النطق كذلك إلى أجزاء مختلفة: ناطق ومنطوق عنه ومنطوق إليه ومنطوق به. والإنسان هو الكائن المتفرد في قدرته على نقل صوره الذهنية إلى الإنسان الآخر بواسطة ذبذبات الصوت وموجات الضوء.

كل الكائنات عدا الإنسان تخرج من بطون أمهاتها وهي تحمل سلوكها غريزيا لأن الجينات تنقل الوظائف. ولذا فالحيوانات تُخلَق وتسلك سبل ربها مثل النمل والنحل، بينما الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يخرج من بطن أمه وهو لا يعلم شيئاً: "أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً". فالإنسان لا يعرف اللغة غريزيا ولكنه يولد وعنده استعداد لتعلم أي لغة، ولذا يتعلم الإنسان لغة قومه ومفاهيمهم سيميائيا. فالطفل قبل أن يتكلم وقبل أن يفهم الكلام تنتقل إليه القيم والمفاهيم الفكرية العميقة وحتى اللاشعور بواسطة لغة السيمياء أي بسحنة الوجه وحركات الجسد ممن حوله. ووجه الأم ونغمة صوتها هي اللغة الأولى العميقة التي يتعلم الطفل منها القيم الأساسية. فالأم تكون أحيانا مستبشرة سعيدة أو غاضبة مكفهرة أو حزينة باكية والطفل، عند تكرر هذه الأوضاع، يربطها بالحوادث والظروف التي تولد سيمياء الوجوه ونغمات الصوت. وكل هذه لغات وأدوات تنتقل بواسطتها أعلى القيم وأسوأها تلقائياً قبل أن يبدأ الطفل بتعلم النطق والكلام. ولغة السيمياء ولحن القول أصدق من لغة الكلام، حيث لا يسيطر الإنسان على المشاعر وتأتي عفويا، بينما الكلام أكثر إمكانية للسيطرة على مضامينه. ويكشف الطفل في وقت مبكر أننا نقول أشياء لا نفعلها ولا نؤمن بها.

يقول الله تعالى عن اللغة السيميائية: "ولتعرفنهم بسيماهم ولتعرفنهم في لحن القول". فمن هنا علينا أن نكشف الحق في هذا النطق الذي نمارسه وأن يطابق كلامنا سلوكنا وأن لا نكون من الذين يقولون ما لا يفعلون، وهو من أكبر المقت عند الله وهو من أكبر ما يفسد الإنسان ويحوله إلى أسفل سافلين بدون أن يتحول إلى أحسن تقويم. وهذه مواضيع علينا أن نتعلم تضاريسها ودروبها، لأن الإنسان لا يتعلم أو ينقل المعرفة إلا من خلاله حواسه والرموز التي يضعها. فالرؤية العينية للشيء أقرب للتعرف عليه حيث هو واقع مشاهد أمامنا. وحين ينتقل هذا الواقع المشاهد إلى الذهن يمكن أن ينتقل بصورة خاطئة. فالمرتبة الأولى في الوجود هي الواقع المرئي الواضح، ورغم ذلك لا يمكن أن نثق بمشاهداتنا لها لأن الحواس خادعة، وأكبر دليل على ذلك الشمس التي يضرب بها المثل في الوضوح والظهور البيّن. فقد كان هذا الواضح خفياً وفُهم بشكل خاطئ حين ظننا أن الشمس تدور حولنا. عاشت البشرية حياتها إلى وقت متأخر جدا وهي تفهم سير الشمس بشكل خاطئ. وكانت حركة الشمس يقينية وعينية وخادعة جدا في نفس الوقت. ثم كشف الإنسان هذه المشاهدة الخاطئة فتبين بعد حين من الدهر أن هذا الذي كنا نشاهده فسرناه تفسيرا خاطئا. وكشفنا أن الشمس لا تدور حولنا وإنما نحن الذين ندور حولها. وكان هذا انقلاب في فهم العالم حيث كان الناس مستعدين للموت في سبيل هذا التصور ومستعدين لأن يميتوا الآخرين من أجله ببرودة أعصاب ويقين مطمئن. والله تعالى حين يقول "وجعلنا الشمس عليه دليلا" للإشارة على الخطأ في تفسير الظاهرة المشاهدة. فإذا كان يمكن للناس أن يخطئوا في فهم هذا الواضح أمامهم، فما الشيء الذي يمكن أن نقول عنه أنه لا يمكن الخطأ فيه؟ ومن هنا كان "لا إكراه في الدين". ومن المؤسف أن النصوص الدينية استخدمت ضد الكشوفات. وهذا يرغمنا على الرجوع إلى تأمل الواقع الذي هو المرجع عند الاختلاف. إن الشمس لم

تتغير ولن تغير سلوكها، وإن أخطأنا في فهم سلوكها. ولهذا وضع الله لنا آيات الآفاق والأنفس على أنها المرجع للنص. فسنن الله في آيات الآفاق والأنفس لن تتغير "ولن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا" ومع مرور التاريخ أصبحنا نرى أنه يمكن أن تنخدع حواسنا عند الانتقال من مرتبة الوجود الأولى فتصير لدينا صور أو تصورات غير صحيحة في الذهن. ويمكن أن يحدث الخداع كذلك عند الانتقال من الصورة الذهنية التي هي في المرتبة الثانية إلى الكلمات التي ننطق بها وهي المرتبة الثالثة. ويحدث تبديد وتقصير وعجز عند نقل تصوراتنا بواسطة الكلمات إلى الآخرين. وكم من نزاعات تنشأ من اختلاف النطق والكلمات عن التصورات الذهنية. ويحدث تبديد أيضا عند انتقال الكلمة المسموعة إلى رسم وصورة في الورقة. فالكلمة تبدأ في رحلتها بالتبديد والتبذير في كل انتقال من مرحلة إلى مرحلة. والنص، مع عيوبه وضعفه في نقل الواقع، شيء ضروري لا يستغنى عنه لأن الإنسان، قبل اختراع الكتابة، لم يكن يحافظ على تصوراته لأنها كانت تموت معه. وبعد اختراع الكتابة صارت أفكاره خالدة غير قابلة للفناء.

كلما رجعنا إلى الواقع وجدناه كما هو، ولن تتبدل سنن الله ولن تتغير. في مجتمعات أخرى صارت آيات الآفاق والأنفس هي مصدر المعرفة بدل النصوص. ونحن إن رجعنا إلى آيات الآفاق والأنفس –أي الواقع– فستشهد بصدق مفاهيمنا عن الكتاب وخطئها. ومن هنا انقطع الوحي لأن التاريخ سيدل المجتمع إلى الحق. أيها القارئ الكريم إن تذكر هذه الأمور والعودة إليها ذكرى لتصحيح أوهامنا. وهي منهج للتعامل مع الواقع والنص ومعرفة العلاقة بينهما.

47. كيف نحقق سلامة القلب (الصحة النفسية)؟

إن القلب السليم، القلب الذي ليس فيه مرض الحقد والكراهية، ويسميه القرآن أحياناً الغل (ولا تجعل في قلوبنا غلاً) إذا كان المجتمع هو الذي يزكي النفس ويدسيها، والنفس في الأساس قابلة للتزكية والتدسية، قابلة لأن تكون فاجرة أو متقية، ويمكن أن نقول إن المعرفة الخاطئة أو بالأحرى التصورات الخاطئة هي الفجور هي التدسية.

وبما أن الكون خلق مسخراً للإنسان الكون كله يقول الله (سخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون)

هذه الآية اعتبرها من الآيات المفتاحية لفهم الوجود والمشكلة الإنسانية، وتحقق معناها يمكن أن يحصل القلب السليم والصحة النفسية، ربما كان هذا في ما سبق من الزمان فهمه صعباً ولكن كلما تقدم الزمن صار الإيمان به وفهمه قريباً وكل مرة يكون أسهل.

الكون كله مسخر للإنسان، وإذا لم يتسخر فلا يرجع ذلك لاالى الكون ولا إلى خالق الكون والإنسان، وإنما يرجع إلى الإنسان الذي ينبغي أن يبذل الجهد ليحقق ذلك، في واقع الأمر ونحن من غير أن نشعر نرجع إلى أفكار أساسية كلما بحثنا فكرة أساسية تعيدنا إلى أخرى، ونحن علينا أن نظهر الآن العلاقة بين آية (سخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون) هذه الآية مرتبطة بآية (من عند أنفسكم) (وما أصابك من سيئة فمن نفسك) وهذه الفكرة هي التي نكررها كثيراً، وهي الرجوع إلى الذات لإدانتها، لا إدانة الله ولا الشيطان ولا الأعداء، وإنما إدانة فكر الإنسان، وأن يستفيد الإنسان من سمعه وبصره وفؤاده، وينبغي أن نعيد القول ونبدأ به لنتمكن من فهم الوجود والإنسان، وكيفية تحصيل سلامة الإنسان وتزكيته بالنظر وكشف السنن والقوانين التي تحكم الوجود، الكون كله مسخر للإنسان بما فيه الإنسان بالذات، فالذي يكشف القانون الصحيح يتسخر له الكون والإنسان رغماً عنه، فإذا لم يتحقق له ذلك فليعد النظر إلى قدراته ومفاهيمه، ولا حرج أن أكرر من أن الله ورسوله محمد وآدم والشيطان كلهم اتفقوا على أن المشكلة راجعة إلى الإنسان المالك (السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا) الله يقول من عند أنفسكم، والرسول يقول من وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه، وآدم وزوجه قالا لرب العالمين لما أغواهما الشيطان: (ربنا ظلمنا

أنفسنا) ولم يذكرا إغواء الشيطان، والشيطان نفسه يقول: (ما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم) إذن إن آية (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) وآية (ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها) وآية (سخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون) إذا فهمنا هذه الآيات وتفهمناها، نحصل على سلامة القلب على الأقل الموقف السليم، ونضع المشكلة على طريق الحل، بدل أن نشوه الموضوع ونبرئ الذات وندين الآخر الذي يجعل الموضوع غير قابل للحل، وعندها يغادر القلب سلامة الموقف وتظلم الحياة، وكل مرة يحدث ظلام فوق ظلام، وحتى هذا الموقف التربوي للأطفال يجعلهم سليمي القلب، يكشفون كل مرة مصداقيته، حين نقول لهم عن صدق وإيمان تامين، من أن الكون مسخر للإنسان، والإنسان بتفكيره كشف قوانين الكون، والإنسان يتمكن من حل المشكلات وتسخير المعضلات، إن الدين يُسر وتفاؤل ورحمة وحافز على التفكر والتدبر، شأن كل العلماء الذين يتفكرون في خلق السماوات والأرض(ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك)

لعل الله أن يهدينا لأقرب من هذا رشدا.

48. الإيمان والإسلام والشريعة

يقال عن الدين أنه يشمل الاعتقادات والعبادات والمعاملات وكتب الفقه مبنيةً على هذا الأساس، واعتبار العقائد على انه الفقه الأكبر هو الإيمان والتوحيد، وأنا أريد أن أتناول هذا الموضوع أو هذه المباحث من زاوية ما لعلها تساعد فهم أشياء في العمق، ويمكن أن نقول بإيجاز أن: العقائد تحصل بالاقتناع، وان العبادات تتحقق بالاتباع، وأما المعاملات فشريعة الله هو العدل. هذا الذي يقال عنه أركان الإيمان أن تؤمن بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر.

وأركان الإسلام الشهادة بالوحدانية لله والصلاة والزكاة والصيام والحج. وأما شريعة الله والمعاملات فالأصل فيه وركنه الأعمق هو العدل بين الناس (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل). فهذه الأقسام الثلاثة إذا فهمناها بوضوح يساعد ذلك على تحقيق الأمن في الحياة الإنسانية، لان العقائد بالإقناع ولا إكراه فيها فللناس الحق في أن يعتقدوا ما يشاءون إيمانا وكفراً لان العقائد أمور قلبية وتصورات فكرية ولا عقاب على الكفر في الدنيا. ولا يمنع الانسان من الكفر بالقوة لان الإيمان لا يتحقق بالإكراه ولا عقوبة على الكفر بالله واليوم الآخر في الدنيا، وللإنسان الذي يقبل العدل بين الناس وينبذ الإكراه في الدين فهذا له البر والقسط، وأي فتح ثغرات في هذا الموضوع وسن شرائع وعقوبات دنيوية ينتج عنه فساد في الأرض وسفك للدماء، ولهذا يخاف الناس من كلمة الكفر وتعتبر سباً أو تهديداً مبطناً، فإذا فهمنا أن الكفر له حق أن يعيش ما لم يحاول أن يفرض كقوة بالإكراه بالقتل والتهجير، فكما الكفر له حق أن يعيش كذلك الإيمان له حق أن يعيش لكن ذلك بشرط أن لا يحاول فرض إيمانه بالإكراه فلا يقبل منه. إذَن للكفر والإيمان حق أن يتعايشا ما لم يلجآ كلاهما إلى فرض عقائدهما بالقتل والتهجير (أي بالإكراه). وسيحكم بينهما قانون الزبد فسيبقى ما ينفع الناس من العقائد ويذهب جفاءً ما يكون غثاءً من العقائد فهذا هو العدل وكلمة السواء، ولكن أهل الإيمان ضيعوا هذا الأصل فنتج عنه فسادٌ كبير ولكن علم الله في الانسان سيتحقق وسيضطر الناس إلى إعطاء الحق للكفر بالبقاء، والشيء الوحيد الذي يمارس فيه الإكراه هو منع الناس من إكراه بعضهم على بعض في الدين وهذا بشرط أن تصنع مجتمع اللااكراه فإذا تحقق مجتمع اللااكراه الذي تتعايش فيه كل العقائد فلهذا المجتمع مساعدة المجتمعات الأخرى التي يمارس الإكراه عليها فان لم يمكن رفع الإكراه عنهم بغير إكراه فهذا هو الإكراه الجائز الذي هو الجهاد أو الحرب المشروعة وبدون هذا الشرط لا تكون الحرب جهاداً وإنما بغياً وعدواناً وطغياناً وفرض لعبادة البشر بعضهم بعض. وحتى بعد الانتصار عليهم في الحرب لهم حق أن يبقوا كفاراً جهاراً ونهاراً حيث الكفر لا يزال بالإكراه كما لا يزال الإيمان باالاكراه. ويمكن أن نقول إن القرآن يضع للحرب الشرعية شرطان شرط في المجاهِد وشرط في المجاهَد ضده، وما لم يتحقق هذان الشرطان فشريعة غاب وليس شريعة عدل ولا شريعة إنسان، أما شرط

المجاهِد فهو أن يكون صنع مجتمع اللاكراه وأمة اللاكراه أي المجتمع الذي يتمتع فيه الناس بحق اتباع أي عقيدة شاء الإنسان، أما إن خرج الإنسان عن قبول اللاكراه في الدين وبدأ يمارس الإكراه العملي وليس الإقناع فهذا الذي خرج من ملة الأنبياء وملة إبراهيم ودخل في ملة أعداء الأنبياء وملة آزر الذين لا يقبلون أن يعيش معهم من ليس على اعتقادهم، حيث قال جميع الأقوام الذين عارضوا الرسل (وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من قريتنا أو لتعودن في ملتنا) وجواب النبيين (قد افترينا على الله كذبا إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها) فهذا شرط المجتمع الذي يمكن أن يمارس الحرب الشرعية. أما الشرط الذي يرجع إلى المجاهَد ضده فهو الذي يمارس القتل والتهجير للذين ليسوا على ملتهم فمن فعل هذا يكون من حق مجتمع اللاكراه ومجتمع تعدد الأديان والحكم بينهم بالقسط، فهذا المجتمع هو الذي يجوز له أو تجب عليه الحرب ضد الذين يقتلون الناس ويهجرونهم من ديارهم لأديانهم وأفكارهم والكافر الذي لا يَقتُلُ ولا يُهَجِرُ ويقبلُ السلم والعدل في المجتمع يكون حمى نفسه وماله في مجتمع الأنبياء، وليس لأحد حق في إيذائه أو العدوان عليه والقضاء هو الذي يعطي للمجتمع العدل، فهذا فهمه يسير وهو العدل. وإلا لا يكون لك أيها المؤمن الحق في إنكار القتل والتهجير لأجل الأفكار إن كنت أنت تمارس القتل والتهجير (فان القوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا)و(لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين) والمخاطب هنا هو أمة الرشد ولكن العالم الإسلامي الآن يلتف على هذا الموضوع فيجعل من الكفر سبباً للعدوان بل حين يقال عن أحد انه كفر فكأنه قال انه ينبغي أن يقتل، فمجتمعنا مؤمنه وكافره لا يؤمنون بحق المخالفة في الاعتقاد فهذا بدل أن يقولوا "يقتل" يقال كفر هذا عند المتدينين لمن خالفهم في الرأي والاعتقاد أما معارضوا أهل الدين من القوميين والعلمانيين وسائر أصناف الناس فان المخالف لهم في الرأي عميل للأعداء، أي معناه أيضا عندهم يقتل لأنه خائن ومع الأعداء فلهذا كلمة الكفر عند المتدينين وكلمة العميل عند العلمانيين للمخالف لهم في الرأي، فعندما تحاسب الناس على أفكارهم ولا تصدر عقوبة الإعدام عليهم لا يعود كلمة الكفر والعمالة مرعباً لان المخالفة في الرأي لا عقوبة عليها. لكن متى نصير مُقتدرين على تفهم هذه المواضيع؟ فحتى ذلك الحين سيكون خوفنا من بعضنا مسلمين مع مسلمين وقوميين عرب مع قوميين عرب اشد من خوفنا من الذين نقول عنهم أعدائنا الإمبرياليين أو الكافرين أو ... الخ. وما دامت الأمور ملتبسة في هذه المواضيع فلا مخرج لنا من المهانة. ويمكن أن نعيد حربي الخليج ولا تكون لدينا قدرة على كشف أخطائنا لأننا لا نكون غيرنا ما بأنفسنا فلابد لنا من تكرار هذا القول حتى يتبين الرشد من الغي وحتى يتبين الفهم من القهر والعلم من الجهل والإيمان من النفاق. فهذا مسألة العقيدة التي هي أساس الدين وأرضه الذي ينبت فيه فما لم يكن الأساس متيناً ومبيناً فكل ما يبنى عليه فاسد فلهذا كل أعمالنا محبطة وخاسرة ومن لم يقتنع فليعد حرب الخليج. هذا في الاعتقادات.

أما العبادات فبالإتباع فلهذا قال الرسول صلوا كما رأيتموني أصلي وخذوا عني مناسككم وهكذا الصيام وليعبد كل ربه بما يعتقد أنه عبد به الرسول ربه وأمر به فإن كان الإكراه في الإيمان فلا إكراه في العبادة.

أما الشريعة التي هي المعاملات بين العباد في الأنفس والأموال والعلاقات الاجتماعية في السلم والحرب في الزواج والطلاق والحقوق والواجبات فشريعة الله العدل بين الناس. هذا هو لب العلاقات البشرية.

العدل بين الناس وليس بين المؤمنين فقط (وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله يأمر بالعدل والإحسان) في العلاقات بين الناس. لكن القاضي والحاكم بين الناس عليه أن يحكم بالعدل وليس له أن يحسن، إحسانه في الحكم هو أن يعدل، لكن الناس في تعاملهم مع بعض فالإحسان هو الأفضل لأن العدل هو التساوي والظلم هو أخذ ما ليس لك والإحسان أن تعطي أكثر مما يجب عليك والإحسان هو الذي يحول العدو إلى ولي حميم (ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها الا ذو حظ عظيم) هذا الذي يندب الله إليه عباده.

الظلم ظلمات والجملة التي قبل آية الكرسي (والكافرون هم الظالمون).

والعدل به قامت السماوات والأرض ومجتمع السواء هو مجتمع العدل أما مجتمع الإحسان فهذا لا يلقاها الا الذين صبروا وما يلقاها الا ذو حظ عظيم.

ولكن إذا اختلفنا في ما هو العدل؟ فكيف يكون الحل بين المختلفين؟ هذا ما نسعى لبيانه!!!.

20

49. كيف نعيد كشف هذا القرآن؟ وكيف نُظهر أنه يهدي إلى صراط مستقيم؟

إن هذه الأفكار تشغلني، ولقد انفتحت لي فيها روزنة، كما قال الصوفي: "فتنازعت أقدار الحق بالحق للحق". إن الله هو الذي خلق الأسباب وخلق النتائج وجعل الإنسان قادرا على كسب المعرفة. يقول الله: "ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها". فاعل "ألهمها فجورها وتقواها" هو الله وفاعل "أفلح" و"خاب" هم البشر. وهذا القانون ساري في القرآن، ولكن أحيانا لا يُذكر إلا أحد الفعلين والفاعلين والمفعولين. فحين يقول "أنعم" و"أعطى" و"وسع" و"ضيق" فإن فاعله الله تعالى. ولا يذكر في كل الآيات الفاعل الثاني، لأنه لا يتحقق فعل الفاعل الأول إلا إذا تحقق أولا فعل الفاعل الثاني الذي هو الإنسان. إذن، عمل الإنسان ينبغي أن يتحقق أولا، وبعدها يتحقق عمل الله.

خلق الله التربة والماء والنخيل والأعناب، ولكن الإنسان هو الذي صنع البستان والجنان. فقبل الزراعة كان عدد الناس قليلا وكانت مصادر رزقهم تلقائية في زمن الجمع والالتقاط. ولما كشف الإنسان الزراعة حدث تغير كبير لأن الشجرة صار لها معنى مرتبطا بعلم الإنسان، أي ما بنفسه. وهذا الإنسان المكرم الذي خلقه الله ونفخ فيه من روحه لن يستمر خلقه إلا إذا تزاوج البشر، ولكن الله هو الذي يخلق. ولقد ذكر الله ذلك في القرآن فقال: "أفرأيتم ما تمنون أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون". وهكذا الزراعة أيضا، فنحن نضع البذرة والله هو الذي يخرج منها الثمرة. نحن نعمل شيئا يسيرا جدا في الزواج والزرع، ولكن الله يخلق من ذلك الشيء الوفير حسب قوانينه. ونحن دائما نقول أن الأرزاق والآجال بيد الله، ولكن علينا أن نعيد النظر في عمل الإنسان وعمل الله في هذا القول. يجب أن نفهم دور الإنسان في صناعة ظروفه ضمن قوانين الله التي بموجبها ينال الإنسان ما كسبت يداه.

نحن في حاجة إلى ذكر هذا كثيرا. فعندما يسير الناس في الأرض وينظروا كيف بدأ الخلق ويكونوا شهداء على الناس ويطلبوا العلم ستتغير النقم إلى نعم. والله يقول: "هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولو الألباب". إنما يعطي الله المجتمعات على حسب ما بأنفسها. "أليس الله بأحكم الحاكمين". والله لا يحابي أحدا. "ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب من يعمل سوءا يجز به ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا". هذا الترابط صار غامضا في العالم الإسلامي ويكرر على كل منبر من أنه لا يرفع ولا يضع إلا الله. ولا يخطر في بالهم أنه لا يحدث لنا شيء إلا من عند أنفسنا وبما كسبت أيدينا. عند فهم هذا لن نصد عن سبيل الله ولن نفتري على الله الكذب ونلومه على نقمنا، ولن نقول كما قال الذين أشركوا: "لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون". سيتألق هذا في المستقبل وسيكشف الناس فلسفة الوجود حسب القرآن وحسبي أني أصرخ في البرية أن ملكوت الله قادم، نعم إنه قادم. "أتى أمر الله فلا تستعجلوه سبحانه وتعالى عما يشركون". "إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم."

50. المنظومة الفكرية

إن العالم مريض في منظومته الفكرية، في عقيدته الوجودية، وتصوره لقوانين الوجود والإنسان. لما أقول العالم مريض لا أقصد مرض الجسد وإنما أقصد مرض النفس، ومرض المنطلقات الفكرية بسبب الخطأ في فهم قوانين الوجود وقوانين الإنسان. إذا كان العالم يهتم بالصحة الجسدية والأمراض الجسدية للإنسان وبإيجاد اللقاحات ويجدّ ويجتهد في كشف علاج الأمراض المستعصية، فإن سعيه في كشف الأمراض النفسية الفكرية سعي حزين ومؤسف. لم يكشف الإنسان قوانين النفس الإنسانية ولا أسلم الطرق لتسويتها وعلاج أمراضها إلى الآن. البشرية في حاجة إلى كشف المنظومة الفكرية أو العقيدة التي حكمت –وما تزال– تصوراتها الوجودية المبنية على أسس خاطئة. وما جاء به الأنبياء من منظومة فكرية ما يزال غائبا عن العالم.

لكل لغة قواعد مهما كثر عدد اللغات، ولكن الذي أريد الحديث عنه هنا ليس اللغة الكلامية أو اللغة اللسانية بل أريد التحدث عن اللغة الفكرية. حين يقول الله "وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه" علينا أن نستعمل القواعد اللغوية ليكون الكلام مستقيما. إن التزام القواعد اللغوية والتمكن منها يعطي الكلام متانة وبهاء وانسجاما ولكن الذي أتحدث عنه هنا هو القواعد الفكرية. فكما تحتاج اللغة إلى قواعد تحتاج حياتنا إلى منظومة فكرية.

ولأضع للقواعد الفكرية أساسا متينا ومنطلقا راسخا علي أن أذكر بأن النزاع بين محمد (ص) وقومه لم يكن نزاعا لغويا ولا تفسيرا للكلمات المنطوقة وإنما كان عن التصورات الوجودية والقوانين التي تحكم الوجود. إن الأهمية الكبيرة لرسالة الأنبياء لم تكن في قوانين المادة من الذرة إلى المجرة ولا قوانين الحياة العضوية، وإنما اهتمام الأنبياء كان منصباً على قوانين الفكر في تصور الوجود والمادة والحياة والإنسان وإمكاناته. إن ميزة الإنسان عن المخلوقات الأخرى هي قدرته على كشف سنن المادة والحياة والفكر. والشيء الذي ألح عليه القرآن هو صحة المنظومة الفكرية. إن كل خطأ يعرض للمنظومة الفكرية يفسد حياة الإنسان وما يحيط بالإنسان. فالأوهام والخيالات الخاطئة التي تعرض لهذه المنظومة الفكرية تفسد حياة الإنسان، ويتجاوز الفساد حياته إلى البر والبحر، بما تكسبه أيدي الناس. والأوهام المريضة والخيالات الخاطئة تفسد نفس الإنسان وتدسيها بدل أن تزكيها وتضللها بدل أن تهديها، وتقلقها بدل طمأنتها. هذه المنظومة الفكرية التي تطلق عليها العقيدة أو الإيمان لها أركان كبيرة لا بد من إعادة كشفها وإنارتها وتسويتها كلما عرض لها خلل أو ضلال أو تسرب إليها الوهم اليقين، لأن الإيمان واليقين يكون بالخطأ كما يكون بالصواب. وأؤكد أن الإيمان واليقين يكون بالحق وبالباطل إذ ليس كل إيمان حق مهما كان راسخا ويقينا. قد يكون الإيمان بالجبت والطاغوت يقينا وراسخا. يقول الله: "ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت يقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا". ويقول الله: "أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون". ويقول الله: "والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون".

والتوحيد لا يقبله الناس خالصا، ولا يؤمنون بالتوحيد الخالص. "وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون"، أي أن التوحيد ليس هو المسيطر على العالم البشري وإنما هو الشرك. وصار كشف هذا الشيء صعبا وخفيا ولا نزال نكرر ما قالته قريش لمحمد (ص) "أجعل الآلهة إلها واحدا إن هذا لشيء عجاب وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشيء يراد ما سمعنا هذا في الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق أَنَزَلَ عليه الذكر من بيننا بل هم في شك من ذكري بل لما يذوقوا عذاب".

إن الأمم المتحدة تكرر ما قالته قريش لمحمد (ص) في هذا العصر، وإن كان أشد خفاءا، حيث لا يوجد أحد يذكر بأن الله واحد. ولهذا لا يشعر الناس بحاجة إلى نقد فكرة التوحيد، لأن الجميع يؤمنون بالجبت والطاغوت وأنهم أبناء الله وحدهم. ولا يقول أحد للمستكبرين، أنتم لستم آلهة ولا أبناء الله بل أنتم بشر. وأنا صرت أحس بهذا وأريد أن أكشف رسالة التوحيد ورسالة الأنبياء المهجورة التي لا يدعوا إليها أحد بوضوح. إن الشرك الذي دخل إلى فكر الناس يحول بينهم وبين انتقاد الشرك الأكبر والصنم الكبير الذي قال عنه إبراهيم عليه السلام "هذا كبيرهم" أي كبير الأصنام، فاسألوه! من يمكن

أن يسأل السؤال الإبراهيمي لحق الفيتو؟ إن هذا الذي هو الشرك الأكبر، والإله الأكبر في العالم وفرعون هذا العصر الذي يقول: "أنا ربكم الأعلى"! "وما علمت لكم من إله غيري" "لئن اتخذت إلها غيري لأجعلنك من المسجونين" "لأقطعن أيديكم وأرجلكم ولأصلبنكم... ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى".

لا يوجد في العالم من ينكر حق الفيتو، الشرك الأكبر والظلم الأكبر في العالم. فنحن لا قدرة لنا على كشف التوحيد، ولهذا نعبد الصنم الأكبر، الذي أصنامنا الصغار تبع له، لأن العالم مصاب بمرض الكبر وحب التأله وإنكار أن نكون جميعا من البشر.

كان إقبال مهتما بالتوحيد ولكن ينبغي أن أقول أنه لم يوضح فكرة التوحيد في عصرنا الحاضر بشيء من الوضوح. وفي المقابل استطاع محمد أركون أن يلامس فكرة التوحيد. لما أقول يلامس أعني ما أقول، لأن أركون شعر بالحاجة إلى ثيولوجيا جديدة، هذا الذي لم يلمسه أحد ولم يفكر فيه أحد، ولكن رغم أن بال أركون مشغول في هذا الموضوع إلا أن انغماسه في الفكر الغربي المتأله لم يمكّنه من عرض الثيولوجيا الجديدة والقديمة في آن واحد. وفكرة التوحيد في عصرنا ليست واقعة فقط في مجال اللامفكر فيه بل في مجال المستحيل التفكير فيه. يشعر أركون بوجود قوة في القرآن لا يمكن تحديدها أو ملامستها كما ختم كتابه، (تاريخية الفكر العربي الإسلامي). وأنا أقول بتبسيط مخل إن العدل الموجود في القرآن هو الثيولوجيا الجديدة، وكون العالم لا يقبل العدالة هو نقض لرسالة السماء وكلمة السواء وكلمة التقوى. والمشكلة أن التوحيد ليست مشكلة سماوية وإنما اجتماعية بشرية، وأرضية وسياسية، ما دام هناك أصحاب امتيازات، فلا توحيد ولا سلام، ولا حقن دماء، كلا ولا صحة نفسية، بل مرض وخوف من أن يفقد أصحاب الامتيازات امتيازاتهم والذين لا امتيازات لهم يتمنون أن يصيروا هم أصحاب الامتيازات. وكلمة السواء لا تسمع إلا همسا، "هل تحس من أحد منهم أو تسمع له ركزا". ولكن نور الله سيتم وسيدخل الناس رغما عنهم إلى كلمة السواء وإن كان البعض يفهم كلمة السواء بأن يدخل العالم في عبادته وليس عبادة الله، وسيذهب هذا جفاء وسيمكث في الأرض ما ينفع الناس. هل أستطيع أن أفتح ثقبا يمكن أن يبصر به بعض الناس سعادة وصحة وسلامة نعمة التوحيد؟ لعل وعسى. إنهم يرونهم بعيدا ونراه قريبا، وقد جاء أشراطها!

51. كيف نعيد كشف هذا القرآن؟ وكيف نُظهر أنه يهدي إلى صراط مستقيم؟

52.

إن هذه الأفكار تشغلني، ولقد انفتحت لي فيها روزنة، كما قال الصوفي: "فتنازعت أقدار الحق بالحق للحق". إن الله هو الذي خلق الأسباب وخلق النتائج وجعل الإنسان قادرا على كسب المعرفة. يقول الله: "ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها". فاعل "ألهمها فجورها وتقواها" هو الله وفاعل "أفلح" و"خاب" هم البشر. وهذا القانون ساري في القرآن، ولكن أحيانا لا يُذكر إلا أحد الفعلين والفاعلين والمفعولين. فحين يقول "أنعم" و"أعطى" و"وسع" و"ضيق" فإن فاعله الله تعالى. ولا يذكر في كل الآيات الفاعل الثاني، لأنه لا يتحقق فعل الفاعل الأول إلا إذا تحقق أولا فعل الفاعل الثاني الذي هو الإنسان. إذن، عمل الإنسان ينبغي أن يتحقق أولا، وبعدها يتحقق عمل الله.

خلق الله التربة والماء والنخيل والأعناب، ولكن الإنسان هو الذي صنع البستان والجنان. فقبل الزراعة كان عدد الناس قليلا وكانت مصادر رزقهم تلقائية في زمن الجمع والالتقاط. ولما كشف الإنسان الزراعة حدث تغير كبير لأن الشجرة صار لها معنى مرتبطا بعلم الإنسان، أي ما بنفسه. وهذا الإنسان المكرم الذي خلقه الله ونفخ فيه من روحه لن يستمر خلقه إلا إذا تزاوج البشر، ولكن الله هو الذي يخلق. ولقد ذكر الله ذلك في القرآن فقال:

"أفرأيتم ما تمنون أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون". وهكذا الزراعة أيضا، فنحن نضع البذرة والله هو الذي يخرج منها الثمرة. نحن نعمل شيئا يسيرا جدا في الزواج والزرع، ولكن الله يخلق من ذلك الشيء الوفير حسب قوانينه. ونحن دائما نقول أن الأرزاق والآجال بيد الله، ولكن علينا أن نعيد النظر في عمل الإنسان وعمل الله في هذا القول. يجب أن نفهم دور الإنسان في صناعة ظروفه ضمن قوانين الله التي بموجبها ينال الإنسان ما كسبت يداه.

نحن في حاجة إلى ذكر هذا كثيرا. فعندما يسير الناس في الأرض وينظروا كيف بدأ الخلق ويكونوا شهداء على الناس ويطلبوا العلم ستتغير النقم إلى نعم. والله يقول: "هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولو الألباب". إنما يعطي الله المجتمعات على حسب ما بأنفسها. "أليس الله بأحكم الحاكمين". والله لا يحابي أحدا. "ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب من يعمل سوءا يجز به ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا". هذا الترابط صار غامضا في العالم الإسلامي ويكرر على كل منبر من أنه لا يرفع ولا يضع إلا الله. ولا يخطر في بالهم أنه لا يحدث لنا شيء إلا من عند أنفسنا وبما كسبت أيدينا. عند فهم هذا لن نصد عن سبيل الله ولن نفتري على الله الكذب ونلومه على نقمنا، ولن نقول كما قال الذين أشركوا: "لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون". سيتألق هذا في المستقبل وسيكشف الناس فلسفة الوجود حسب القرآن وحسبي أني أصرخ في البرية أن ملكوت الله قادم، نعم إنه قادم. "أتى أمر الله فلا تستعجلوه سبحانه وتعالى عما يشركون". "إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم."

53. لو كان الدين بالعقل60

لماذا مشكلة العالم الإسلامي معقدة إلى هذا الدرجة وكيف لا نجد مخرجا من أزماتنا وكيف لا قدرة لنا على فهم المشكلات إني أحاول أن أحوم حول الموضوع ولكن لا أتمكن جيدا بالإمساك بالمشكلة إننا في العالم الإسلامي نقوم بالمواعظ الجليلة في تقديس العلم ومدح العلم وتعظيمه واحترامه ونسوق الآيات والأحاديث والحكم والأشعار في رفع شأن العلم ثم مع ذلك وفي الوقت نفسه تجدنا ندين العلم بينما نرفع أصواتنا ونحن نقول الإسلام دين العلم والعقل ثم في مجال آخر نحتقر العلم والعقل ونستبعدهما وكأن العلم والعقل عدوان للدين والإيمان وينبغي أن يتخلى عن العقل والعلم حتى نكون مؤمنين في مقال سابق حاولت أن أضع بعض الملاحظات في الإيمان والإسلام والشريعة وكنت قصدت من ذلك أركان الإيمان والإسلام من الإيمان بالله واليوم الآخر والرسل والكتب والإسلام الشهادة بوحدانية الله والصلاة والزكاة والصوم والحج أما الشريعة وقصدت بها المعاملات بين الناس فكنت قلت أن الإيمان بالإقناع والإسلام بالإتباع والحكم بين الناس فيما بينهم بالعدل وأننا إذا تنازعنا في تحديد ما هو العدل نأخذ برأي جمهور أهل الذكر والاستنباط وأهل الاختصاص وهذه القضايا الثلاث لا بد من إظهار حكمها العميقة في طبائع البشر ونحن لما نقول إن الإسلام (أعني العبادات من صلاة وصوم وحج) إن هذه الأمور بالاتباع أي نفعل كما فعل الرسول حيث قال صلوا كما رأيتموني أصلي وخذوا عني مناسككم ونصوم كما صام هذه الأمور العبادية بالإتباع لأنها رموز كل قد علم صلاته وجعلنا لكل أمة منسكا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم هذه الرموز قد تختلف شكلها شكل الحركات من قيام وركوع وسجود وقعود وعدد الركعات والسجدات وأنواع التلاوات والأوقات والاتجاهات التي يتوجه إليها الناس وأماكن الحج وأزمنتها ...إلخ وأنواع الطهارات هذه هي الشعائر والشعارات لكل أمة شعائرها كما لكل دولة أعلامها وأشكال أعلامها وألوانها وأنواع عملاتها

وخاصة الورقية إن حياة الإنسان رموز واللغة التي يتحدثون بها رموز ولكن كونها رموز ليس معناها أنها تستند إلى معقولية فهذه العبادات الإسلامية التي لا يراها البعض أمورا عقلية قد يكون لها جانبها العقلاني العميق جدا وقد يكون لها جانبها الرمزي وفي اختلاف اللغات آية ولكن حين يساق الكلام لنفي العقلانية عن الدين فيقال مثلا لو كان الدين بالعقل لكان مسح أسفل الخف أولى من أعلى الخف فهذا الخلط يراد به إغلاق باب الفهم والفكر وملاحظة العواقب بهذا الأسلوب السهل ننفي العقل عن الدين ليفرض من يريد أن يفرض اللامعقولات باسم الدين وكذلك لما يتمسك بعض الناس بشريعة الله في إسكات الناس ليس ألسنتهم وإنما إسكات عقولهم أيضا حين يقولون نريد شريعة الله نعم نريد جميعا طاعة الله وقبول شريعته ولكن علينا أن نعلم من غير تردد من أن شريعة الله هو العدل بين الناس ولكن تفاصيل العدل بين الناس تختلف من زمن إلى زمن وإذا اختلفنا فيما هو العدل نرجع إلى أهل الذكر وأهل الذكر قد يختلفون ولكن حين تتعدد الآراء نأخذ برأي جمهور أهل الذكر ويبقى لأصحاب الآراء الحق بالدعوة إلى وجهات نظرهم ولكنها لا تصير نافذة إلا إذا صار جمهور أهل الذكر يقبلون به ومن وقت أن فقد المسلمون الشورى والأخذ برأي الجمهور في اتخاذ القرارات فقد المسلمون الرشد والرشاد ولم يعد للعقل والمعقولية مكان في حياتهم بينما الرسول (ص) لم يتخذ قرار الحرب في غزوة بدر إلا بعد أن أوضح اللذين معه موقفهم في اتخاذ القرار إن الرسول لم يفرض عليهم الحرب باسم الله بل كانوا يسألونه في اتخاذ القرار وما يرجع إلى الرأي والفكر ليناقشوا بمعقولية وينزل الرسول على رأيهم وفي غزوة أحد عارض الأكثرية في جعل المعركة في المدينة وتنازل عن رأيه موافقة لرأي الأغلبية وفي غزوة الخندق مواقف عدة حين نرجع نحن إلى مناقشة الأمور من قبل أهل الذكر واتخاذ القرار بالرأي الذي يوافق عليه الجمهور وبذلك نكون سلكنا طريق الرشد وما دام هذا الموضوع مختلطا ويكون القرار من دون موافقة الجمهور ومن دون تقليب وجهات النظر بالخضوع لرأي معين دون أن يمر بمصفاة أهل الذكر فيكون الاحتكام إلى القوة لا إلى الفكر والعلم وما لم يتحرر الفكر من الإكراه وما دام الإنسان يذعن للإكراه والقوة ولا يشهد للفكر ولا للذي يراه صوابا فهنا يكون العالم الذي لا منطق فيه ولا عقل وعند ذلك يتحول الدين والحكم إلى قضايا غير قابلة للتفكير فيه ويكون ذلك بعزل العقل والعلم والخضوع للقوة ولكن العلم والعقل الذي يخضع للقوة لا يجد وسيلة لتقييد القوة بالعلم والعقل فهذا ليس بعلم ولا بعقل لأن جوهر الإنسان وما نفخ الله فيه من الروح يتسحر له ما في السماوات وما في الأرض والإنسان الذي يسمع ويعقل لا يمكن أن يذل في هذا العالم الذي نعيش فيه الآن ولا في العالم الآخر الذي لا يخذى فيه أهل السمع والتعقل لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير إن الجنة والنار في الآخرة مشكلة عقلية علمية سننيه إن ضياع العقل والعلم والسنة ضياع للإنسان لهذا ليس عجيبا أن يكون العالم الإسلامي في ضياع في هذا العالم إن الهوان والضياع للإنسان كل إنسان يرجع إلى التخلي عن السمع والبصر والقرآن حين يكثر من ذكر وصول الإنسان إلى درجة العجز عن السمع والبصر ما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم إذ كانوا يجحدون بآيات الله حينما يترك الإنسان الرجوع إلى آيات الله يحق عليهم القول فيذلون ويخزون ولا بد من فهم آيات الله في الآفاق والأنفس عالم الأشياء هو عالم الآفاق وعالم الأنفس هو عالم الأفكار لهذا لا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ونحن العالم الإسلامي عظمنا الآباء وعظمنا الأشياء وألغينا آيات الله في الآفاق والأنفس قانون الأشياء المادية وقانون الوعي الإنساني سنة الله في الوجود المادي المسخر وسنة الله في الوجود النفسي نحن عندنا استعداد للتمسك بما ألفينا عليه آباءنا بدون الرجوع إلى سنة الله في الآفاق والأنفس نحن أعطينا القداسة لفهم عصر معين فألغيت دلالة آيات الكتاب لأننا ألغينا آيات الآفاق والأنفس إن الكتاب لا يجدي ولا ينفع حين لا تدعم بآيات الأفاق والأنفس فمن هناك قال الرسول لزياد بن لبيد ثكلتك أمك يا ابن لبيد كنت أظنك أفقه أهل المدينة أو ليست اليهود والنصارى بأيديهم التوراة والإنجيل ولا ينتفعون منهما بشيء متى نصير نفهم معنى لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير أصاب الهوان والذل والخذي في الحياة والرسول يقول ولا يذل من واليت ويقول الله وليس له ولي من الذل هذه الآيات والأحاديث لا معنى لها عندنا لأننا ألغينا آيات الآفاق والأنفس التي تشهد لآيات الكتاب متى سنتعلم تغيير ما بالأنفس ومتى نصير نفهم آيات الآفاق والأنفس لن نفهم ذلك إلا إذا دفعنا ثمن ذلك من العذابات الأليمة إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يرو العذاب الأليم إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم.

54. التباس الحق بالباطل

هناك قصة شائعة بين الناس، أريد أن أسلط عليها بعض الأضواء، لأن الأساس الذي تنطلق منه ملتبس علينا. فكم مرة سمعنا من على المنابر بتبجح وبصوت متهدج قول الأعرابي لعمر بن الخطاب: "لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا"؟ ويقال أن عمر رد على الأعرابي: "الحمد لله الذي جعل في الأمة من يقوم اعوجاج عمر بسيفه". ما هذا الكلام الذي يصم الآذان، ويعتبر فخرا للإسلام والمسلمين؟ إن إشاعة مثل هذه الحكاية وعدم الفصل فيها وتوضيحها هي التي جعلت حالنا على ما هي عليه الآن. لقد فهمنا ديننا من هذا الأعرابي، ولهذا غيرنا اعوجاج عثمان بسيوفنا، وغيرنا اعوجاج علي في سبيل الله بسيف عبد الرحمن بن ملجم ولا نزال ممتشقين سيف الأعرابي نقّوم به اعوجاج السياسيين والحكام بسيوف الأعراب. ولكن لا يستقيم العوج بل يزداد العوج عوجا. هب أن عمرا قال مثل هذا القول تشجيعا للنقد، لكن هل ينبغي أن نجعل ديننا ملتبسا ونفهم تغيير العوج بالسيف؟ أما تكفي تجربة القرون ونحن نغير بالسيف الأشخاص ولا يتغير شيء من الواقع؟

كم نعيش في إلتباسات، وإلا فإن لعمر مواقف مختلفة ومضيئة في موضوع تغيير الحاكم خالية من اللبس الذي أدخلناه فيها. لقد قال لنا الرسول (ص) معلما الناس الوضوح الذي جاء به: "تركتكم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يضل عنها إلا زائغ"، أي أن الطريق واضح لا غموض ولا ظلام فيه، ولكن كيف حدث الظلام وكيف حدث الالتباس؟

حدث الالتباس حين ظننا أن الناس لا يقبلون الحق إلا بالإكراه وظننا ظن السوء بالحق، لأننا اعتقدنا بأنه لو ترك للحق وللباطل فرص متكافئة فسينتصر الباطل، بينما القرآن يقول: "جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا". ونحن التبست علينا علاقة الحق بالباطل، فظننا أن الباطل إذا جاء سيزهق الحق. هذا الفهم اللاشعوري المتغلغل في أعماقنا جعل الحق ملتبسا بالباطل والله تعالى يقول لنا "ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون". ويقول للناس: "لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون". هذا الالتباس ينبغي أن يزول من نفوسنا وما لم يتغير ما بأنفسنا فلن يتغير ما بواقعنا. نحن نظن أن الله سيخسر الانتخابات إذا أعطيت الحرية للناس. إننا نحن الذين سنخسر الانتخابات وليس الله، ولكن التبس علينا الحق بالباطل وظننا بالله ظن السوء وافترينا على الله الكذب، وصددنا عن سبيل الله. يقول الله: "ذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين". من أخسر منا أعمالا في العالم كله؟ وهل ظلمنا الله أم ظلمنا أنفسنا؟ إن الله ليس بظلام للعبيد. ينبغي أن لا نفتري على الله الكذب. والأمور الواضحة أصبحت ملتبسة إلى درجة لا قدرة لنا على الفصل فيها وإضاءتها

ينشأ الالتباس من قلة المعرفة ويحدث غموض بسب الظلام الذي يحيط الجو الثقافي، ويؤدي هذا إلى فقدان النور والضياء فمن هنا يقول الله تعالى: "الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياءهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات". هذه الآية جاءت بعد آية الرشد التي تلت آية الكرسي. وآية الكرسي جاءت في تعظيم الله عز وجل بينما جاءت آية الرشد في تعظيم الإنسان وتكريمه من قبل الله. قال تعالى: "لا إكراه في الدين" وهذا تكريم للإنسان ولبني آدم جميعا، "ولقد كرمنا بني آدم". ينبغي أن نبرز هذا التكريم للإنسان حتى لا يلتبس التكريم بالإهانة، حتى لا يلتبس الأحسن تقويما بالأسفل سافلين، وحتى لا تختلط التزكية بالتدسية، ولا يشتبه الحق بالباطل، والرشد بالغي.

المبدأ الأول في المشكلة الإنسانية أن لا يختلط علينا القانون الإنساني الأول، وهو أن الإنسان يعطي على الإقناع ما لا يعطي على الإكراه. إن الإنسان لا يعطي على الإكراه إلا أقل ما يمكن أن يعطيه، ويعطي الإنسان بالإقناع أكثر ما يمكن أن يعطيه، فيعطي ماله ونفسه وهو راضٍ ويتمنى أن يعطي أكثر. أي يتمنى الإنسان أن يكون مالكا أكثر ليعطي أكثر مما أعطى، ويتمنى أن يحيى من جديد بعد أن بذل نفسه ليبذل نفسه مرة أخرى. أين هذا من ذاك؟ وكيف يمكن أن يلتبس هذا بذاك؟ "إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادا ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة".

جاء الرسول (ص) بالدين الذي لا إكراه فيه ولا التباس فيه وطبق هذا نظريا وعمليا وقدم خير أمة أخرجت للناس. ينبغي أن نكتشف الإنسان من جديد، وأن نكتشف دين الله من جديد. وإذا كان هناك من يريد أن يطفئ نور الله فإن الله يأبى إلا أن يتم نوره. يقول الله: "يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون". ويقول الله: "يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون". يكرر القرآن أن هذا النور سيتم والله متم نوره ويأبى الله إلا أن يتم نوره وسيتحقق هذا في التاريخ، ولو كره الكافرون، ولو كره المشركون. والناس يتقدمون إلى قبول هذا رغما عنهم. فإذا كان الله يقول "لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي"، فإن الرشد هو اللاإكراه والغي هو الإكراه، وهو الطاغوت الذي من ذرية الإكراه، وضد الرشد. جميع دول العالم تضع في دساتيرها مفهوم "لا إكراه في الدين" وتشير إليها بعبارة "حرية العقيدة"، لأن الدين الذي يأتي بالإكراه لا يكون دينا. والإيمان الذي يأتي بالإكراه لا يكون إيمانا، والسياسة والحكم اللذين يأتيان بالإكراه لا يكونان رشدا. ينبغي أن يكون هذا الموضوع واضحا، وخاليا من الالتباس بحيث لا يحيط به غموض ولا ظلام.

إن الرسول (ص) قال لأعرابي شبيه بأعرابي عمر إنه سيخرج من ضئ ضئ هذا قوم يمرقون من الإسلام كما تمرق السهم من الرمية. والرسول (ص) لم يقل عن الذي يقّوم بالسيف بأنه سيد الشهداء، وإنما عن الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويُقتل لإظهاره العلم، لا للذي يخفي العلم ويلجأ إلى السيف. فالذي جاء به الأنبياء هو أن يكون السيف محكوما بالكتاب والعلم، لا أن يكون الكتاب والعلم محكومين بالسيف. فالحق يجب أن يكون فوق القوة لا أن تكون القوة فوق الحق، أو أن يكون الحق ذليلا للقوة. نحن لا قدرة لنا على إعادة الحق إلى مكانه، لأننا خذلنا الحق وعظمنا القوة، فخذلنا الحق وتُركنا أذلاء للقوة محليا وعالميا. لا نشعر لحظة واحدة بعزة الحق، بل نحن مسحوقين تحت وهم وتخيل أن القوة تصنع الحق. وعمر كان يشجع على النقد وعلى نصح الأمراء بتقوى الله، "لا خير فيكم إن لم تقولوها ولا خير فينا إن لم نقبلها".

سنستيقظ رغما عنا وستشهد آيات الآفاق والأنفس على صدق آيات الكتاب. "أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد."

55. عندما تتعطل المدافع62

في نهاية الثلاثينيات من القرن الماضي كنا أطفالا نستمع لأحاديث الكبار وأتذكر أنني سمعت من عمي وهو كان طالب علم شرعي يوما ما وإن لم يتابع كان يقول في آخر الزمان تتعطل الأسلحة النارية وتعود الأمور كما كانت من قبل حين كانوا يقاتلون بالسيوف والرماح هناك أو عند ذلك سينتصر المسلمون على أعدائهم من أين جاء هذا التصور للعالم وكيف يفسر هذا التصور الساذج ومتى وأين كانت ولادة هذا التصور، كان ذلك في آخر الثلاثينيات من القرن الماضي حين كان الفرنسيون يستعمرون في ذلك الزمان جغرافية سوريا الحالية. لفهم هذا التصور لابد من التمييز الذي ألح عليه كثيرا بين الخارق والسنني وأن الخارق كان في زمن قبل أن يصير للعلم السنني تصور واضح وهذا أمر ضروري كما يقول محمد إقبال. الإسلام وإن كان نشأ في عصر ما قبل العلم إلا أن الإسلام بشر بعصر العلم وأنا أفهم هذا الموضوع على أساس الخارق والسنني وهذا واضح في القرآن وينبغي أن نلح عليه ونبحثه ونستوضحه إن العصر كان عصر خوارق عصر معجزات وكان الأنبياء يأتون بالخوارق والمعجزات فيؤمن الناس على أساس الخوارق والقرشيون الذين عارضوا الرسول (ص) ذهبوا إلى أهل الكتاب وطلبوا منهما إستيضاحات في هذا الموضوع فذكروا لهم معجزات عيسى وموسى فجاءوا بذلك وطلبوا من الرسول (ص) معجزة خارقة مثل إزالة الجبال وتفجير الأنهار في الحجاز أو يكون معه حرس من الملائكة ونحو هذا سجل القرآن هذا الطلب بوضوح لما قال: "فليأتنا بآية كما أرسل الأولون " " وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون" وكان يخطر في بالي في أول طلبي للعلم في الأزهر حين أقرأ قصة موسى وفرعون وقصة عصى موسى التي وردت في القرآن بالتفصيل مثل سؤال الله لموسى في جبل الطور ما تلك بيمينك وتدريب موسى على التعامل مع الخارق الذي حتى موسى كان يرتعب، قصة عجيبة، خوارق. كان يخطر في بالي أني لو كنت أحمل مثل هذه العصا كنت أنا أيضا

أذهب إلى فرعون وملئه ولكن كان يخطر بعد ذلك في بالي فأقول لنفسي ولكن محمد (ص) لم يأتي بمثل هذه الخوارق وإنما جاء بالكتاب وهذه هي معجزته وهذا الكتاب معي أنا أيضا مثل ما كان مع محمد (ص) ولم يذهب بذهابه كما ذهبت عصى والميت الذي أحياه عيسى إن هذا القرآن لا تنقص عجائبه وهو حجة علمية سننية وهو انتقال من الخوارق إلى السننية وانتقال من الخارقية للأنبياء السابقين إلى آيات الآفاق والأنفس فهذا الكتاب قابل للفهم والدرس والاستشهاد على صدق ما فيه بآيات الآفاق التي نسمى في عصرنا تكنولوجيا وهو تسخير المادة بسننها والتقنية من الإتقان في صنع الشيء وإن الله يحب من العبد إذا عمل عملا أن يتقنه هذا في آيات الأفاق أما آيات الأنفس فهي سنة الأنفس البشرية وقوانينها التي تحكمها ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من ذكاها وقد خاب من دساها والإنسان من سنن المادة حول وظيفة الخيل والبغال إلى وظيفة السيارات والطائرات وقابل أن يخلق ما لم لا نعلم نحن وكما كشف الناس الآن ما لم يكن ليعلمه الذين من قبلنا كذلك سيكشف الذين من بعدنا ما لا يمكن أن نعلمه نحن الآن هذا في آيات الأفاق أم آيات الأنفس فتأتي متأخرة أكثر لأن قوانينها ذو اتجاهين وليس اتجاهاً واحداً كما في قوانين الأفاق المادة الذرة والمجرة "لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار فهذا هو الاتجاه الواحد ولكن آيات الأنفس ذو اتجاهين ألهمها فجورها وتقواها أي قابلية واستعداد لذا وهذا ولكن تحويله إلى الفجور والتقوى من وظيفة البشر ومقال سابق كتبته عن موضوع قراءة القران على وجهين قراءة إلهية وقراءة بشرية يحسن أن تعود إليها لأنني أضع قواعد وقوانين وسنن يمكن التدريب عليها ويكون الإنسان بذلك حل مشكلات كثيرة ودخل إلى عالم آخر ويخرج من عالم الخوارق إلى عالم العلم والسنن والقوانين الذي على أساسه يتسخر الكون والمجتمع للإنسان الذي نفخ الله فيه من روحه القدرة على كشف السنن وتسخير السنن الأفاقية والأنفسية وهذا عالم جديد عالم أهداف وغايات ولها وسائل وسنن وقوانين فكما كان علما المسلمين حين يذكرون القواعد والقوانين أو السنن كانوا يقولون التزم هذا فإنه ينقذك عند الشبهات وعند ما يدلهم الظلام وتلتبس الأمور ويحتار الذي يفقد النور نور ثبات السنن سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا هذا نسخ للخوارق ودخول إلى عالم الأسباب والمسببات وعالم الأحداث وارتباطها بعواقبها لأن السنن تأتي فإذا أخطأنا نحن وجهلنا فأن السنن لا تخطئ في إحداث العواقب فإذا توفرت الشروط جاءت العواقب طبقاً لقوانينها ولما أقول إنتقال القرآن من التصور الخوارقي إلى التصور السنني نجد مثلاً في القرن الخامس الهجري أبو حامد الغزال يحس بهذا الانتقال فيذكر في كتابه المنقذ من الضلال أن العلم لا ينسخ بالخوارق فلو أن إنسان قال أن الواحد أكثر من الثلاثة ودليلي على ذلك أنني سأقلب هذه العصا حية فلو فعل ذلك لما تغير يقيني بأن الواحد أقل من الثلاثة ولكن سأتعجب كيف قلب العصا حية فهذا الفهم خروج من الخوارق وخروج من انفصال الأسباب عن العواقب فالدليل ينبغي أن يكون ضمن الدعوى لا خارجه النبي حين يقول أنا جئت بنظام للمجتمع إذا تمسك به يسعد في الدنيا والآخرة فيكون دليل النبي الحق أن يأتي المجتمع السعيد بتطبيق القواعد التي أتى بها والوصايا التي نقلها عن الله لا أن يقلب العصا حية فآيات الآفاق والأنفس وعواقب التاريخ غير من مفهوم الناس عن الله والكون والإنسان ومن غير أن نفهم هذا لن نخرج من التيه ولن ندخل العصر الحديث على علم وبصيرة إلا إذا تحول الناس إلى عالمين ومبصرين "قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني" وحين أكتب في هذه المواضيع لأغير ما بأنفس الناس لأنه لن يحدث تغيير إلا إذا غيرنا نحن ما بأنفسنا من الإيمان بالخوارق وجهل قوانين الله وسننه التي لا تتغير ولا تتبدل ولا تتحول حين أكتب في هذا الإتجاه أجد أقواماً يرتعبون من هذا الإتجاه الفكري والتصور لله والعالم والإنسان لأن ما ورثوه هو الخارق وعجز الإنسان وعدم قدرته على التسخير وعجزه عن التغير ما بالأنفس نعم بعض الناس يرتعبون ويتصورون من يريد أن يفهم آيات الله في الآفاق والأنفس خارج عن الإيمان وتعودوا أن يطلقوا عليه أنه مادي لا يؤمن بالدين وإلى جانب هؤلاء أجد آخرين يزدادون عدداً على الزمن يشعرون بالطمأنينة حيث يفهمون دينهم على أساس العلم والعقل وليس الخارق الذي يقمع العقل وعلى هؤلاء أن يجتهدوا ليوسعوا مداركهم ويكونوا على بصيرة في دينهم وليخرجوا من الخوارق والمعجزات إلى التسخير والسننية والعلم بالعواقب وبالاعتبار بسنن الله في الدين خلوا من قبل وسيتم نور الله ويظهر دينه الحق على الدين كله ومن يعرف التاريخ يعرف هذا والعالم رغما عنه مسوق ليستجيبوا لسنن الله لأن عواقب مخالفة سنن الله من العذابات ترغم الناس على الإيمان بآيات الله في الآفاق والأنفس حتى يتبين لهم أنه الحق فهذا شهادة الله والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط.

56. السبب والنتيجة 63

تعلمت من مالك بن نبي طريقة بحثه لمشكلات الحضارة في العلاقة بين السبب والنتيجة، فلا تختلط علينا منتجات الحضارة بعوامل الحضارة، وإن اختلاط السبب بالنتيجة يضع العربة أمام الحصان. فلا نظن أننا إن اشترينا منتجات الحضارة نكون اقتنينا الحضارة!

كان يكثر الحديث حول هذه المواضيع ويتحدث عن التكريس والبناء، وكان من جملة ما يتحدث به عن مشكلات الحضارة: إن كل حدث نتيجة لما قبله ويكون سببا لما بعده. كان يقول يمكن أن نشتري سلة المهملات ولكن السلة تبقى فارغة والمهملات مبعثرة.

كان توينبي يتحدث عن هذا الموضوع مفرقا بين منتجات الحضارة وبين القيم الحضارية، وأن أشياء من منتجات الحضارة تسبق الحضارة في الإنتقال إلى أبعد من مكان الحضارة، فكما منتجات الحضارة في هذا العصر يمكن أن تعم العالم ولكن هذا ليس معناه هذا أن الحضارة عمت العالم. وكان يقول أن بعض منتجات الحضارة متنقلة وبعضها تولد عند كل المجتمعات. مثلا القوس: هل ولدت في مكان واحد وانتقلت بعد ذلك إلى بقية أنحاء العالم؟ أم المجتمعات كل واحدة منها ابتكرت هذا المنتج الحضاري منفصلا عن بقية المجتمعات؟ كل مجتمع ابتكر المحراث. وفي هذا الموضوع إنني أجد الآية المفتاحية في القرآن "سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة". والبشرية وفق هذه الآية لما ساروا في الارض ونظروا بدأ يتبين لهم كيف بدء الخلق من الذرة إلى المجرة ومن أولى الكائنات الحية إلى الإنسان، وأن هذا الخلق جاء متسلسلا حيث كانت الحياة كلها تحت الماء.

كان الكون يبدأ بالسحب الهيدروجينية ومنها تتكون كل العناصر الفيزيائية ومن الارتباطات الكيميائية بين العناصر تولد المنتجات الكيميائية، ومن الأوكسجين والهيدروجين يتولد الماء وعند هذا الارتباط تتولد وظائف جديدة للماء. هذه الوظائف الجديدة ليست مادة ولكن تنبثق عنها. فكل أنواع الحياة من الماء (وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون). ارتباط الهيدروجين بالأوكسجين ينتج الماء، والماء سبب لنشأة الحياة وتنوعها وتطورها، وفي النهاية تولّد من الحياة الجهاز العصبي للإنسان الذي صار له وظيفة فهم ارتباط الأسباب بالنتائج. فرأى كيف تشعل النار أو تولد وتنشأ من مواد الطبيعة.

عند الإنسان الذي هو قمة تطور الخلق أو تكون الخلق وارتباط وظائف الماء بالمادة ارتبطت وظيفة الجهاز العصبي بظهور وظيفة الفكر ورؤية الأسباب والنتائج، وصار التدخل فيها لتسخير الأسباب في التحكم بالنتائج أمرا يسيراً. عند فقد الإنسان لتسلسل الأسباب والنتائج وتطورها يفقد القدرة على تحديد السبب الذي يحدث النتيجة، وهنا تبرز الخيالات لملئ الفراغ.

والإنسان كما يمكن أن يلاحظ مغرم بالبحث عن الأسباب للأحداث، فهو دائم البحث عن الأسباب وبفرض قانون وسبب لكل الأحداث، ولكن أحيانا لا يظهر بشكل جلي ارتباط الأسباب بالنتائج فتأتي الفرضيات لملئ هذا الفراغ، وهكذا يفترض الإنسان أسبابا غير واقعية وهي بدورها تخفي الأسباب الواقعية فيضل الإنسان ويقع في الحيرة. وبما أن ارتباط الأسباب بالنتائج ليس عقلياً، أي أن العقل الإنساني لا يستطيع أن يكشف السبب الحقيقي لأن العقل بعدي وليس قبلي، بمعنى أن العقل يفهم ارتباط السبب بالنتيجة بعد المشاهدة فيعلم أن النار تحرق بعد الحرق. فهذا معنى البعدي. ولكن الإنسان بممارساته ومشاهداته يؤمن بالأسباب وأن لكل شيء سبب بمعنى أن الإنسان بالمشاهدة عرف ارتباط النتائج بالأسباب. لكن تحديد السبب وإزالة الأسباب الحقيقية عن الأسباب الوهمية يحتاج إلى دقة ملاحظة وتعمق أكثر. الإنسان يسلم بالأسباب ويفهم أن لكل شيء سبب في المتغيرات التي تحدث ويبحث ويكد في البحث لإزالة وإبعاد الأسباب الخادعة ليقرر ويحدد بدقة الأسباب الحقيقية.

فمثلاً وظيفة الماء تتولد من الأوكسجين والهيدروجين وليس من غيرهما وهذا القانون ثابت لا تبديل له ولا تحويل، فلم يكن أو يخلق وظيفة للماء بدون هاتين المادتين. هنا عقل الإنسان يقف ويقول لا أعلم لماذا ولكن هو الواقع الذي أراه، حتى أرى في الواقع ما يفرض علي تغيير فهمي بظهور شيء غير الذي أعرفه.

هنا ينبغي أن نعلم المجال الذي تعمل فيه إرادة نظام الكون، هذا النظام الثابت الذي لا يتغير ولايتبدل وأن مبدعه كلي القدرة قادر على أن يجعل الماء ينتج من تركيب آخر لأن العقل بدون ثبات النواميس يفقد فعاليته.

عند عدم فهم القوانين يحدث شيء من الاختلاط الذي يجعل الإنسان يفقد ميزة عقله أي ربطه الأسباب بالنتائج، وإذا حدث أن لاحظ الإنسان شيئا جديدا لا يكون تغير السنن الثابتة ولكن نكون اكتشفنا سنة جديدة ثابتة في هذا الكون الذي نكشف فيه أشياء لم تكن معلومة لدينا. هنا يمكن أن نقول إن ظهور وظيفة الماء والملح من تراكب المواد سنة وقانون ثابت لا يتغير ولا يتبدل ولكن ظهور وظيفة الماء في المادتين وظهور وظيفة الجهاز العصبي من التراكيب المادية المعروفة خارق من الخالق وليس من صنع البشر ولا من وضعهم، ولكن لهم قدرة على تسخيرها. هذا الخارق هو خارق من حيث العقل لا نعلم لم ينتج هذا عن هذا ولكن الارتباط بين الحدث وأسبابه ثابت. ونحن في العالم الإسلامي ايماننا بكلية القدرة الإلهية تجعلنا ننسب إلى الله الخوارق أي تبديل السنن وتحويلها. هذا غير وارد لا في واقع الكون ولا في منطق العقل الذين كلاهما من نظام الكون الثابت الذي لا يتغير ولا يتبدل، وبهذا القانون وبهذا التفصيل صار الإنسان قادرا على تسخير كل هذا الكون لأنه كله سنن والإنسان قادر على أن يسخر السنن. القدرة التسخيرية كامنة في الإنسان مثل القدرة الكتابية قابلة لإبرازها وتنميتها وقابلة لإهمالها وتدسيتها، فمشكلاتنا الاجتماعية من هذا النوع المركب الثابت الذي إذا كشفنا قوانينه سخرناها وشكرنا الذي أبدع الكون والإنسان، وعلى قدر التسخير والعلم يكون الشكر والطمأنينة وزوال الحيرة والتردد، ويكون التسخير ككشف السبب وكشف الغمة والحيرة وهذا الذي نعكف عليه أي ارتباط الأسباب بالنتائج والمشكلة عندنا أن نحول القدرة الكامنة إلى قدرات علمية متراكمة حتى نعلم أنه لا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون.

57. الأمن والخوف الصواب والخطأ 64

يا ليتني أتمكن من إزالة الالتباس في هذه المزدوجات وأتمكن من توضيح ذلك وجعله مبينا يمكن أن نضع مزدوجات الرشد والغي العلم والجهل لأن الصواب والرشد والعلم يولد الأمن والأمان ولأن الخطأ والجهل والغي يولد الخوف يا ليتنا نتمكن من السير مع هذه المزدوجات حتى نكشف التسلسل بسن كل طرف من المزدوجتين لأن العلم والصواب والرشد يؤدي إلى الأمن والسلام والطمأنينة واليقين ولأن الجهل والخطأ والغي والظلم يؤدي إلى الخوف والقلق وعدم الطمأنينة أريد أن أقدم المثل وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ويوصف عيسى عليه السلام بأنه كان يكلمهم بالأمثال ولم يكن يكلمهم بغير أمثال وإذا تمكن الإنسان من تقديم المثال أو الأمثلة المتسلسلة بحيث يبدأ من أمثلة أولية بديهية إلى الأعلى فالأعلى يكون الإنسان لم يقطع ما أمر الله به أن يوصل وبمجرد أن ينقطع تسلسل الوعي يبدأ تسلسل الخطأ والجهل والظلام والخسائر والمثل الذي أريد أن أقدمه الكهرباء شيء جديد في حياة الناس وآية من آيات الله الخفية والجلية في آن واحد وهي ظاهرة موجودة قبل الإنسان والإنسان شاهد هذه الظاهرة في البرق والرعد بالسمع والبصر والبشر الخلق الذي كرمه الله ونفخ فيه من روحه تعرف على هذه الظاهرة ببطء وبعد أن كان مصدر رعب وفزع وخوف تحول إلى مصدر أمن وطمأنينة وسعادة وتمكن من وضع ترتيبات أمن لإزالة أخطاره وجعله آمنا تاما فأنزل الصاعقة بأمن وأمان واستخدم الإنسان هذه الطاقة أنظر كيف يفرح الناس حين يعود التيار بعد انقطاع في ليلهم بل صار لا ينقطع وربما الأجيال القادمة سوف لا يعلمون أنه يمكن أن ينقطع وعلينا أن نعلم كيف يوضع الهيكل العظمي شعار الموت على أماكن التوتر العالي تحذيرا من الخطر فيه لأن الخطأ فيه فورية النتائج والعواقب فمن هنا نعلم كيف أن العلم يحل المشكلات ويحول الخوف إلى أمن كامل بزيادة العلم يزداد الأمان لأن هذه الطاقة مضبوطة بسنن لا تتغير

ولا تتبدل الخوف يكون من الجهل والأمن يكون مع العلم ولكن الذي نريد أن يساعدنا فيه هذا المثل في هذه الطاقة التي كانت صاعقة حارقة كيف ذلت للإنسان وتحولت إلى الخادم الأمين الذي لا يغدر ولا يخون لأنه يسلك سبل ربه زللا وهذه الطاقة لا تكذب ولا تخون ولا تغدر ولكن الإنسان هو الذي يخطئ في التعامل معه ومن أخطأ فلا يلومن إلا نفسه الخطأ منا وليس منه فلنحمد الله الذي سخر لنا بالسنن الثابتة هذه الطاقة وجعلها ذللا لنا ولنلم أنفسنا إذا أخطأنا ومن وجد خيرا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه وعلينا أن لا نكتم قوانين الله أو نجهلها وأن نضاعف من وسائل الأمان وذلك بانتشار المعرفة وعدم كتم العلم وجعله ملكا مشاعا للجميع وسبله ميسرة للجميع حتى لا يبقى من يجهل فيؤذي نفسه ويؤذي الآخرين فهل يمكن أن ننتقل بهذا المثل إلى الإنسان الكهرباء طاقة كبرى وعظمى وربما تصير مجانية بمعرفة قوانين الطاقة المادية في الكون فهي كل الكون طاقة وقابل للتحول إلى طاقة وبيسر ونظافة وأمن هناك يكون الإنسان بدأ يحقق ما خلق له من أن الكون كله مسخر له والإنسان هو أعظم الطاقة الذي يسخر الكون والوجود وللإنسان قانونه الأعلى لأنه الطاقة العليا الإنسان هو الكائن الوحيد الذي نفخ الله فيه من روحه روح العلم والمعرفة والقدرة على التسخير الكون مسخر (اسم مفعول) والإنسان مسخر (اسم فاعل) ولكن ميزة الإنسان أنه قابل للسير في طريقين ولكن الكون الآخر يسير في طريق واحد فقط الكهرباء ذو اتجاه واحد الكهرباء لا قدرة له على الكذب ولا الغدر والخيانة ولكن الإنسان هو الكائن ذو اتجاهين يقدر الإنسان أن يصدق وأن يكذب أن يكون أمينا وأن يكون خائنا وبقدرته على العلم سيتعلم أن حياته لن تصلح إلا إذا صدق وسيتعلم الإنسان هذا بالعواقب عواقب الصدق والكذب فسيكشف الإنسان طاقته كما كشف طاقة المادة وكهرباء سيكشف طاقة الإنسان وأن أفضل استخدام وتعامل مع الإنسان ليس بتخويفه وإذلاله وإكراهه بل بإقناعه بالعلم والتعليم والتعريف بحيث لا يبقى إنسان لا يتاح له وسائل الوصول إلى العلم بحيث لا يبقى جاهل بالتعامل مع الكهرباء والتعامل مع الإنسان فإذا كان تعرفنا على سنن الكهرباء تأخر إلى هذا القرن المنصرم ولم يتوسع بعد إلى جميع الناس فإن معرفتنا بسنن الإنسان لم نكشف بعد إلا احتمالا وتخيلا ومثلا عليا غير قابل للتطبيق ولكن الآلام والعواقب تفرض على الناس فرض سنن التعامل مع الإنسان.

الإنسان عنده استعداد ليقدم نفسه وماله مسترخصا وذلك بإقناعه وتعليمه وكشف قوانين التسخير له وهذا بدأ يظهر ويمكن أن يفهمه الناس كما أزين لنفسي أن ذلك صار ممكنا فهمه وإن لم يصر بعد سهلا تحويل الإنسان إلى ذلك وسبب ذلك التاريخ الطويل الذي عاش فيه الإنسان في الظلام حيث كان يجهل سنن توفير النور الكهربائي المادي الضوئي وسنن جعل هذه الطاقة وسيلة لتوفير المعرفة عند الإنسان بواسطة العلم الجديد في وسائل الوصول إلى المعرفة في اللحظة التي تريدها وأنا أفهم أن ذلك سهل وصعب كما كان الإمساك بسنن الكهرباء صعب وإن كان صار ذلك الآن سهلا كذلك توجيه طاقة الإنسان وتحويلها إلى الإيجاب دون السلب والقرآن يتحدث عن نفس الإنسان العجيبة الخلق الآخر أبدع ما خلق الله تبارك الله أحسن الخالقين "ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها" لا بد من كشف سنن تسخير طاقة الإنسان للتقوى لأن ذلك في مقدوره أو في إمكانه ولكن ذلك ليس حتما لأنه متعلق بالإنسان الإمكانية المزدوجة من الله الملهم ولكن تحويل هذه الإمكانية من وظيفة البشر هذا الذي كنت أشرت إليه في مقال سابق بعنوان القراءة الإلهية والقراءة البشرية للقرآن الله قدم الإمكانات ورأس المال والإنسان هو الذي يخلق وإذا كانت هذه الكلمة صعبة لا حرج استعمل أخرى يكشف كيف خلق لا بل كشف وسائل نقل غير الخيل والبغال من سنن المادة فإذا كان يمكن أن نفهم هذا من قوله تعالى والخيل والبغال لتركبوها ويخلق مالا تعلمون كيف كشف الإنسان من سنن الله المسخرة للإنسان ما لم يخطر في بال كذلك يخلق الله من سنن تسخير الإنسان ليكون في أحسن تقويم ولكن لن يصبر الإنسان في أحسن تقويم ما دام يظن أنه استخراج أفضل ما في الإنسان بتخويفه فإن الإنسان مصنوع أنه لا يعطي بإكراهه إلا أقل ما يمكن أن يعطيه هل يمكن أن نفهم هذا يمكن أن نفهم هذا ولكن الذي يصعب علينا أن نفهمه كيف نفهم الإنسان هذا وهذا سهل أيضا ولكن نرى أسهل منه أن نخوفه ونأخذ منه أقل ما يمكن ولكن إذا تعلمنا قانون الله في أن الإنسان بالإحسان إليه وأعظم الإحسان أن تقدم له المعرفة وبهذا يتحول الإنسان الذي نراه عدوا ينبغي قتله يتحول إلى ولي حميم أيها القارئ الكريم إني أحاول أن أقرب إليك البعيد أريد أن أجعل الذي يراه الناس بعيدا أريد أن أجعلهم يرونه قريبا وقريبا جدا وأقرب من حبل الوريد وأسهل وأقل كلفة على الذي يسلك هذا الطريق أقل كلفة على المعلم وعلى المتعلم ولكن لأن بياني قاصر وتسلسل علمي غير مبين لهذا لا أقدر على الدخول إلى الحوار معه فهل بعض القراء يمكن أن يتلمسوا حقا وصدقا وأمنا وإيمانا كل مرة أبدأ المقال وفي نفسي شيء ثم أشعر أنني انتهيت ولم أنته إلى الذي أريد ولكن سيأتي الذي ليس الذي

ينظف بالماء ولكن الذي ينظف القلب بالعلم ويخرج الغل والخوف ليحل الأمن والسلام والطمأنينة ألا بذكر الله تطمئن القلوب لأنه كونه وإنسانه مكون على أساس الحق ما خلقنا السماوات والأرض إلا بالحق لعلنا نتذكر ولعلنا نتدبر ونشكر وما يأتي أكثر نورا وسلاما وأمنا وربما بدون خسارة وذلك الفوز المبين.

58. كيف بدأ الخلق[65]

ـ تصورات مسلمات ترسخت منذ زمن بعيد تتحكم في سير الإنسان هذه التصورات تكون في البدء هشة غير راسخة وتترسخ ببطء خلال الزمن وينساها المرء ولا يتذكر
في سلوك الإنسان وهذه المسلمات الراسخة يمكن أن تكون خاطئة فإذا كانت صحيحة تجعل للإنسان سلطانا وحلولا يسيرة غير مكلفة وعواقب جيدة وكذلك يمكن أن تكو
ورات الراسخة أفكاراً خاطئة تجعل مسيرة الإنسان في مشقة وخسارة ومردود قليل ويحدث هذا ببطء وبشكل غير واع ولهذا قدرة التخلص من الأخطاء واكتساب التصورا
ة ويأخذ وقتاً طويلا وجهداً كبيراً وخسائر جسيمة وبدون وضوح التاريخ كيف يسير في الوجود لا يمكن أن يحدث لنا تصور صحيح لحركة التاريخ. وحركة التاريخ هو
لخلق وكيف كان وكيف صار وكيف يمكن أن يصير هذا في الوجود كله الوجود المادي ثم وجود الحياة العضوية ثم ولادة الحياة الفكرية (= القدرة الإنسانية في التسخير
لهيدروجين أول عناصر المادة التي منها تتكون بقية العناصر من خلال الضغط والحرارة ولكل عنصر وظيفة وكيف كان الناس يجهلون تركيب الكون إلى وقت قريب
ناصر الكون هو التراب والماء والهواء والنار إن معرفة كيف زاد علم الإنسان بالوجود المادي للكون وكذلك كيف زاد علم الإنسان بكيف بدأ وجود الحياة من الكون الما
ـ الحياة وتطور إلى أن وجد الإنسان ثم كيف تاريخ الإنسان بدأ ضعيفاً. إن تصوراً أولياً لكيف بدأ الخلق وكيف نمى وكيف لا يزال ينمو يعطي تصوراً إيجابياً وتفاؤلاً وأ
ور ينتج تصوراً سلبياً وتشاؤماً ويأساً مقعداً لهذا يمكن أن نقول إن معرفة كيف بدأ الخلق بسيطاً متجانساً ثم كيف تركب هذا الخلق البسيط المتجانس من نوعية واحدة إ
ور خلق جديد ولا يزال يخلق أشياء جديدة ومن هنا يمكن أن نقول إن معرفة كيف بدأ الخلق نقطة أساسية على قدر وضوح هذا يفتح أمام الإنسان أفاقاً وفعالية بدل الع
جز السلوكي لأن الإنسان الخلق الأخر المكرم الذي أودعت فيه قدرة الفهم في ارتباط الأسباب بالنتائج وقدرة على فهم ارتباط الأسباب بالنتائج تعطيه القدرة التسخيرية ا
اهمة في صنع الأفضل وفهم هذا التصور البسيط في كيف بدأ الكون إن العنصر البسيط الأول وكيف بدأت الحياة من الطحالب ثم كيف وصل إلى الإنسان الأول الذ
يزرع ولا كيف يتعامل مع الحيوان وكيف أن الإمكانات المودعة في الإنسان لا تزال في بدئها كما كانت العناصر المختلفة كانت كامنة في العنصر الأول وكيف كانت
ات الحية الأولى ثم كيف أن إبداع مبدع الوجود انتهى إلى الإنسان الذي صار له سلطان بالقدرة المعرفية إن معرفة كيف بدأ الخلق وتسلسل الخلق من المادة الميتة إل
ـ وصل الوجود الحي إلى الإنسان المفكر القادر على ربط الأسباب بالنتائج وكيف أن هذه القدرة في زيادة مستمرة وكيف أن الذي لا يعرف كيف بدأ الخلق الذي هو ت
ق هو الاستمرار في النمو وهذا النمو إن كان بطيئاً فيما سبق فإن النمو بدأ يتسارع والقدرة المعرفية كانت بسيطة فتراكمت ونمت من هنا يمكن أن نصنع تصوراً جديداً
ل عنصر الزمن الذي يجري خلاله الخلق المستمر هذه المعرفة تحدث عندنا تصوراً للكون ليس على أنه شيء بطيء ممل يدعو إلى اليأس والحيرة فيمكن أن نعلم من
ور الخاطئ يدعو إلى اليأس الذي هو الكفر إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون الكافر هو الذي خفي عليه كيف بدأ الخلق ومن هنا نعلم كيف يلتقي الجهل با
م وكيف يلتقي العلم بكيف بدأ الخلق بالوضوح والنور والعدل والسواء إن قدرة المعرفة مصدر النور بالجهل والخفاء والظلام والظلم يحل اليأس والتشاؤم الذي يؤدي إلى
جار اليائس المنتحر الذي يريد أن يتخلص من الضيق والظلام حين يقول الله (الذين يقطعون ما أمر الله أن يوصل) لأن الكون سنن وقوانين متصلة متدرجة فالانقطاع
فة وانقطاع المعرفة يؤدي إلى الضياع والخواء والتيه إن التائه يفقد التوازن كأنه تهوى به الريح في مكان سحيق ولهذا فإن الإنقاذ من التيه بالمعرفة أين أنت وكيف كنت
عرفة كيف بدأ الخلق نور وبيان وطمأنينة لهذا إن نتيجة تراكم المعرفة عند الإنسان يعلمه كيف بدأ الخلق ومعرفة كيف بدأ الخلق يعلمه السنن والقوانين التي تتحكم في
ـ الإنسان قوانين الوجود صار له القدرة على أن يتحرك على بينة وكلما ترسخت هذه المعرفة تحصن الإنسان من أمراض الجهل والحيرة والظلام واليأس بل والكفر لأن
اب وخفاء وعدم وضوح ولأن الإيمان كشف ووضوح فعالية لهذا الجهل والعلم مقابل الكفر والإيمان ولهذا الخروج من الجهل خروج من الجاهلية والدخول إلى العلم دخول
نين التسخيرية ومعرفة نظام الكون القابل للتسخير والقدرة المعرفية الإيجابية عند الإنسان الذي هو قادر على القيام بالوظيفة التسخيرية للكون المادي في مظاهر الطاق

معرفة قوانين سلامة الحياة الجسدي من الأمراض. والمعرفة الكبرى والميلاد الأكبر ولادة العقل البشري حين استخلف حامل هذه الإمكانية آدم حين استخلف في يوم مش
ليتمكن من فهم القدرات الكامنة في هذا الخلق والآن ربما نعلم أن الإنسان هو العلم هو علم الله في الإنسان الذي لم يتمكن الإنسان بعد من تقدير مكانته بهذه القدرة ال
ج من الظلمات إلى النور وسيخرج من الفساد سيخرج من محاولة الخداع والأنانية وسيكشف الجهالات التي يتمرغ فيها وبمجرد أن نعرف هذه المعارف الأولية بوضوح و
العرب المستضعفين من الذل والهوان والظلام واليأس من إصلاح أحوالنا يا أيها الناس إن قوماً كانوا مثلنا وأسوأ منا فهموا بعلم وسنن إمكانية حل المشكلات بدون قذار
ان أعطي عقلاً واعتباراً وقدرة لمعرفة كيف بدأ الخلق ليزكي نفسه ألا من كان له أذنان للسمع فليسمع قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها إن من يزيد المعرفة ويوص
رج من الظلمات إلى النور وهذا النور سيتحقق ولو كره الكافرون الذين لم يتبين لهم كيف بدأ الخلق.

---

59. يأبى الله إلا أن يتم نوره 66

إن رؤية تسلسل التنوير الذي حدث للإنسان وكيف خرج من الظلمات إلى النور (الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات) إن فهم الكون على أنه ليس خلق وانتهى وإنما هذا الكون خلق ينمو ويزيد في النمو وإلى الأفضل دائما ويحكمه قانون أن الأنفع يمكث وأن الذي لم يعد ينفع يذهب جفاء ولتصور هذا الكون وكيف يتم فيه نظام سير حركة الحق والباطل أثر كبير في تنوير الإنسان وإخراجه من الظلمات إلى النور من الحيرة والخوف والجبن إلى برد اليقين والبصيرة النافذة وإلى الأمن فهذا الكون يحكمه هذا القانون الإلهي الراسخ فلما يقول الله (كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض) هذا حكم الله ينبغي أن نبصره في واقع الخلق _ أي أدلة هذا التصور من الآفاق والأنفس _ لأن العلاقة بين آيات الآفاق والأنفس مع آيات الكتاب علاقة محكمة هو الذي يعطي التنوير لفهم آيات الكتاب وفهم آيات الكتاب يعطي قوة زائدة لأن تواطؤ آيات الآفاق والأنفس مع آيات الكتاب ليزداد الذين أوتوا الكتاب طمأنينة وأمنا وتفاؤلا بل إن الذي لا يفهم نظام الكون بما فيه الإنسان إنه يتقدم إلى الأفضل فالذي لا يفهم هذا هو الذي يصاب باليأس والإحباط والكتاب القرآن الذي يصدق كل الكتب ويحمل رسالة جميع كتب الله وجميع ما جاء به السابقون من أنبياء يحكم على اليأس بأنه شيمة الكافرين (إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون) لما نقرأ هذه الآية في الكتاب يحصل عند الإنسان أمل وثقة بصدق الله ولكن الذي يزيل اليأس حقا هو أن يضيف إلى إيمانه بكلمات الله هذه رؤية واقعية في تاريخ الوجود من أن نور الله سيتحقق لأنه يشاهد في واقع الحياة من أن الإنسان خليفة الله في الأرض الإنسان كل الإنسان وليس صنفا معينا من الناس يتقدمون إلى الأفضل وخلال التاريخ البعيد والقريب يظهر هذا ونحن نلتقي مع معظم الناس ونراهم حيارى فاقدين للأمل لا يرون بصيصا من النور الذي يبعث فيهم الحياة لأن هؤلاء لا يستطيعون أن يتصوروا الإنسان كيف كان عريانا ويعيش في الطبيعة ولم يكن بنا البيوت ولا تعلم الزراعة وكيف ببطء شديد تعلم الإنسان التكيف مع الطبيعة إن كشف إمكانية الحفاظ على النار أو إعادة إيقادها بعد انطفائها وتعلم الإنسان للزراعة هذه أحداث كبيرة ففهمها جيدا يعلمنا كيف أنه يمكن للإنسان الآن أن يتجاوز المشكلات الحالية كما تجاوز المشكلات الماضية إن تقديم وصف صادق ودقيق للمشكلات التي عانى منها الإنسان بأمثلة قريبة ومبسطة يجعل الإنسان مبتهجا منشرحا لأنه يكشف الزيادة في الخلق وأن الخلق ليس توقف وانتهى وإلى الانحدار وإنما إلى النمو وحل المشكلات وتقليل المعاناة كيف لما كشف الزراعة توسعت حياة الإنسان وبنا القرى وبدأ التخصيص في الأعمال يزيد من مهارة الإنسان وإتقان عمله وإتقان أدواته التي يستخدمها والآن الإنسانية تزيد من نمو الإنسان وقدرته على حل المشكلات لأن الاكتشافات تكون من أفراد ولكن تعم الناس هذه الاكتشافات ويتفهمون كيفية صنعها وشروطها مثلا الآن لما نرى الاتحاد الأوربي هذا الحدث حدث جديد في تاريخ البشرية لم يحدث من قبل مثل هذا الحدث نعم قد وجدت سابقا إمبراطوريات واسعة حتى أن البحر الأبيض المتوسط كان بمثابة بحيرة رومانية في الشمال والجنوب ولكن المفاهيم التي كانت مسيطرة على الناس والأدوات التي كانت تصنع مثل هذه الإمبراطوريات مختلفة

نوعيا حيث كانت القوات المسلحة هي التي تفتح البلاد والناس فيها طبقات السادة والعبيد ولكن الوحدة الأوربية التي تحدث الآن مختلفة كليا لأن الذين يخططون لهذه الوحدة منذ نصف قرن يتقدمون بخطى ثابتة وتخطيط دقيق وليس الذي يفرض هذه الوحدة قوة دولة معينة نعم إن أوربة قامت بحربين عالميتين في النصف الأول من القرن الماضي ووصل الألمان في الحرب الثانية إلى روسية وإلى غربي أفريقية ولكن لم يكن لينتج عنه توحيد أوربة بالقوة والفتح كما كان فعل ذلك أيضا فرنسا نابليون قبل قرنين من الزمان ولكن نابليون مات منفيا ومات الألماني هتلر منتحرا مدحورا ولكن الألمان والفرنسيون العدوين اللدودين يتحدون الآن بدون حروب وبدون انتصارات عسكرية وبدون ألمانيا فوق الجميع وفرنسا فوق الجميع إنهم يتحدون على كلمة السواء على المساواة وفق الآية التي بعثها رسول الله إلى العالم المعاصر له حين بعث الكتب إليهم ووضع قوله تعالى:(تعالوا إلى كلمة سواء) أي ليس أن يكون بعضنا لبعض أربابا أي ليس على أساس مستكبرين ومستضعفين وإنما على أساس قانون واتفاق على شروط الاتحاد ليس الزعماء فقط وإنما الزعماء ليس لهم حق اتخاذ القرارات بدون تفويض وموافقة أغلبية الشعوب فهذا الذي يجعل هذه الوحدة حدثا جديدا في تاريخ البشرية قاطبة إن هذا الاتحاد يستفيد من كل التاريخ البشري ويضيف إليه أشياء جديدة وجديدة جدا لم يحدث من قبل أنهم لا يوسعون اتحادهم بفتح وضم عسكري وإنما بموافقة الأطراف جميعا وليس هناك ضغط من أحد على أحد إلا بيان الفوائد والمكاسب التي سيكسبها الذي ينضم إليهم من هذا الانضمام إنه ليس فتحا عسكريا بل إنه فتح طوعي كأن البلاد المجاورة تقول اقبلوني عضوا معكم وسألتزم بكل شروطكم يحدث هذا بدون حرب وبدون فتح عسكري هذا هو الفتح المبين وهذا الاتحاد فيه أحداث جديدة وتطورات كثيرة إن هؤلاء الأقوام هم الذين ابتدعوا القوميات التي لا تعترف بإنسانية الأقوام الأخرى ولكن هؤلاء الذين ولدت عندهم العنصريات الفرعونية التي تجعل تعلو في الأرض وتجعل الناس شيعا تذبح أبناءهم وتستحيي نساؤهم هؤلاء الذين تاريخهم كان هكذا الآن يتحدون وقد تجاوزوا القوميات فهم أثر من عشر قوميات ولكل قومية لغتها ومع ذلك يتحدون بحقوق متساوية للنساء والرجال والقوميات وهذا في طريقه إلى الترسخ لأنهم يستفيدون من سنن الله في الأقوام ومن سنن الله في تغيير ما بالأنفس صحيح أنهم لم يوحدوا العالم ولكن يضعون أساسات يمكن أن يتحد على أساسها العالم وهذا الاتحاد على كلمة السواء وعلى أن لا يكون هناك مستكبر ومستضعف شيء جديد وهذا النوع من الاتحاد أقرب إلى الإنسانية وإلى ما جاء به الرسل وإلى ما أنزل الله من كتاب إنهم خرجوا من عبادة الطاغوت ويهيئون أنفسهم لما أمر الله من العدل فيما بينهم لا شك في أن هذا أفضل بما لا يقارن بما عليه وضعنا نحن العرب والمسلمون علينا أن نفكر سريعا وباستنفار وبالحديث الدائم المكرر لنعمل اتحاد عربي إسلامي استضعافي على كلمة السواء وعلى كل المفكرين أن يوقظوا في نفوس الناس الأمل واليقين بأن هذا ممكن وممكن جدا وبقدر الجهد الذي نبذله في توعية الناس والإكثار من هذه المواضيع التي لا يتحدث عنها الناس وهذا ما سندأب عليه وكل يوم نزداد إيمانا ويقينا أن علم الله في الإنسان سيتم للخروج من الفساد في الأرض وسفك الدماء وعند إذ تنفتح أبواب لا نهائية من الآمال المشرقة التي تبعث الحياة في النفوس.

60. فإن يكفر بها هؤلاء 67

فقد وكلنا بها قوماً

ليسوا بها بكافرين

أذكر التاريخ كثيراً لأن التاريخ مرجع القرآن ولأن التاريخ هو آيات الله في الآفاق والأنفس وآيات الله في الآفاق هو تاريخ الخلق الكوني آيات الله في الأنفس وتاريخ الإنسان والله يري الناس آياته في الآفاق في الكون وآياته في الأنفس في تاريخ الإنسان وآيات الله في الكتاب تقول لنا سيروا في الأرض انظروا كيف بدأ الخلق لأن معرفة كيف بدأ الخلق في الأرض فإذا سار الإنسان في الأرض ونظر سيرى كيف بدأ الخلق من الذرة إلى المجرة ومن ما قبل خلق الكون لى الإنفجار الأعظم الذي انتشر منه الكون وإن السبب في انقطاع النبوات لأن الله أرشد إلى آيات الآفاق والأنفس وسننها التي لا تجد لها تبديلا ولا تجد لها تحويلا

كل مرة يري الخلق من آياته مالم يكن يرونه وحين نقول من أن الكون بحسب القرآن ليس خلق وانتها وإنما لا يزال يخلق ويخلق مالا تعلمون ويزيد في الخلق ما يشاء يعلم في الإنسان مالم يكن يعلمه أحد من خلقه في أنه سيخرج الإنسان من الفساد في الأرض وسفك الدماء وأن آيات ذلك بدأت ملامحه تظهر ويمكن أن يدركه من صير له أدنى إلمام بكيف بدأ الخلق وكيف نمى ونموه إلى الأحسن لأن القانون الذي يحكم الوجود الإنساني أن الزبد يذهب جفاء ويمكث في الأرض ما ينفع الناس معرفة كيف بدأ الخلق ونما إلى ما نما إليه يرشد الإنسان إلى ما يمكن أن يصير إليه في المستقبل وفعلاً لما صار الإنسان يعلم الماضي من تاريخ الأرض وكيف كانت الأرض يوماً ما ليس فيها حياة ثم كيف تولدت الحياة ثم كيف صارت الحياة إلى الإنسان وكيف أن الإنسان الذي كان عرياناً ولا ينتج غذاءه كيف صار الإنسان لآن الذي هو الخلق الآخر بدأ يخرج من الفساد وسفك الدماء ولو في بقع من الأرض لأن الناس جميعاً يوماً ما لم يكونوا يعرفون الزراعة فتعلم البعض الزراعة وانتشرت إن كان لا يزال بعض الناس في بعض بقاع الأرض بعد هذا الإنفجار المعرفي للإنسان في معرفة سنن آيات الآفاق وتسخيرها وسنن الحياة الجسدي وتحسينها ودخول لإنسان إلى علم عالم الانفس فبدأ يبحث كيف يتعلم صناعة صحة عالم الأنفس كما تقدم في علم صحة عالم الأجساد ومن هنا كان تفكير الإنسان في علم المستقل الله تعالى قال لنا أنه سيخلق مالا نعلم بعد أن ذكر الخيل والبغال لتركبوها وزينة ويخلق مالا تعلمون فقد رأينا نحن الذين نعيش في هذا العصر مالم يكن ليخطر على ال إنسان من وسائل النقل والآن كما كان لم يغلق باب الخلق ونحن بالنسبة لمن يأتي بعدنا كالذين سبقونا بالنسبة إلينا والله تعالى لما خلق مالا نعلم من سننه في لكون صنع الإنسان هذه الوسائل في النقل بما أعطي من عقل بالنظر إللى العواقب والذين اهتدوا إلى هذا الإستثمار هم الذين تحرروا من عبادة الماضي المغلق إلى لدخول إلى العالم المفتوح المستمر في الخلق والإبداع فإن خليفة الله في الأرض يقوم بما أعطي من رأس مال العقل والقدرة على العلم وكشف سنن الكون وتسخيرها إلى لأنفع والأفضل وإن هذا الإنسان الذي كشف هذه السنن وسخرها في وسائل النقل هذه لم يتوقفوا ولا يزالون يبحثون ليس في آيات الآفاق فقط وإنما في آيات الأنفس فإنه م يبتكروا أساليب للتنقل جديدة في البر والبحر والجو في آيات الآفاق فقط بل ابتكروا أساليب ووسائل جديدة في إنتقال السلطة غير القتل والحرب وإبادة الآخر وهذا لابتكار أكبر وأعظم من ابتكارات آيات الآفاق ولكن ابتكار آيات الآفاق أيضاً ساعدت على زيادة معرفة الإنسان وسرعة الحصول على المعرفة والمعلومات بابتكار الورق الطباعة والآن عصر المعلومات والإنسان يخرج من بطن أمه لا يعلم شيئاً وإنما يصير الإنسان إنساناً بما يتعلمه من المجتمع وما يقدم المجتمع إليه وقيمة الإنسان على قدر علمه سعةً وعمقاً والله يداول الأيام بين الناس في نمو هذا الكون ونمو الإنسان المعرفي كان يتم هذا التداول تلقائياً بزيادة العلم والمهارات في إنتاج الغذاء الأدوات بزيادة المعرفة بالسنن فالأمم كانت تهلك ليس هلاكاً جسدياً وإنما هلاكاً معرفياً فالفراعنة انقرضوا ليس أشخاصاً وأجساداً وإنما تصوراً للحياة ومعرفة للعلاقات لإنسانية وحضارات كثيرة بادت بقيت آثارها وهم لم يبيدوا أجساداً وأشخاصاً وإنما تحولوا إلى إدراك جديد للعالم والقرآن حين يكثر من ذكر الفراعنة ونوع العلاقات التي كان يحكمهم لأن آثارهم بادية للعيان بارزة وظاهرة أوتاداً غرست في الأرض شامخة أهرامات ومعابد كم تركوا من جنات وعيون وأورثناها قوماً آخرين فما بكت عليهم لسماء والأرض إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم ولكن أسلوب التداول للحضارات تغيرت بظهور النبوات وخاصةً من عهد إبراهيم بي الأنبياء فالحضارات كانت تموت وخاصة بأقوام معينين ولكن الحضارة والنمو المعرفي بلغت درجة عالية تجاوزت الفناء وإنما انخرط الناس في مسيرة واحدة وختمت لنبوات حين صارت النبوة عالمية وللناس كافة إن الناس بدأوا يلتمسون نور الله الذي جاء به الأنبياء نور التوحيد فإن الأنبياء جاؤوا ليتنافس الناس في فعل الخيرات (واستبقوا الخيرات) ويسارعون في تعميمها والناس يتقدمون إلى ذلك بتسارع في هذا العصر إن الجيل الواحد قد يراه بطيئاً ولكن الذي يعرف التاريخ يؤمن بالمسارعة التسابق هناك أحداث عجيبة لها دلالات عميقة إن الوحدة الأوربية تقدم نموذجاً فريداً في تاريخ الإنسان صحيح أنهم استعمروا العالم ونهبوا ثرواتها ولكنهم يقدمون مثلاً جديداً فريداً للعالم في الوحدة والتوحيد فإذا كفرنا نحن بالوحدة والتوحيد فإنهم يقدمون نموذجاً عملياً للوحدة والتوحيد إنهم يتحدون على كلمةٍ سواء إنهم هم الذين يقدمون موذجاً جديداً إنهم لا يفتحون جيرانهم بالعسكر والقوات إن تركيا العلمانية التي اقتبست القومية من الغرب تتنازل عن عنجهيتها القومية وتكيف نفسها لتقبل عضواً مساو كما أن المغرب كذلك تهيء نفسها إن هذا الفتح هو الفتح المبين ليس بالقوة والإكراه وإنما بالطوع والتسليم إن تطور التاريخ أحدث وأوجد هذا النوع الجديد من التوحيد لبشر من غير إكراه إنه نوع من الرشد ونموذج يجب على العرب والمسلمين أن يعرفوا كيف تحقق هذا وأنا أقول إن هذا يتحقق إذا خرج من قلوبنا روح الهيمنة وقبلنا رو لمساواة وقبلنا التعاون على البر والتقوى وإذا صرنا نثق ببعضنا وإذا خرج من قلبنا جذور العدوان أو الأمل الكاذب بتوحيد العرب بالقوة هذا الذي فقد رصيده عالمياً محلياً إلى الآن لا يزال في قلوبنا الحنين إلى البطل الذي سيوحد العرب إن البطل لن يوحد العرب بل هو الذي يبعد أمل الوحدة إن الحنين إلى القوة البطولية هي التي عجز العقل العربي من أن يتخلص منها فلهذا الكل ساكتون متى سينكسر هذا الصمت لقد فات أوان حل المشكلات بالعسكر وهذا صار واقعاً ولكن إلى الآن لا نجرؤ

على الإعتراف به صراحةً فهذا العجز عن الإعتراف بالواقع هو الذي يعقد مشكلاتنا بحيث أنها غير قابلة على طرحها وبحثها علناً فلهذا أوكل الله تحقيق ذلك إلى قومٍ غيرنا يستطيعون أن يتكيفوا مع تغيرات الحياة.

61. بدأ موعد التحول الكبير68

إن العالم العربي يمر بمرحلة تغييرية كبيرة ولكن بدون وعي وإدراك لهذا التغيير يحدث التغيير لا شعورياً وهذا يجعله راسخاً إن التغيير يترسخ في الجذور وخاصةً في الأخير من القرن الماضي إنه كان بدأ هذا التغيير في العالم الإنساني منذ بدأت الأسلحة النارية تتطور بسرعة وبدأ هذا الشعور الإنساني في نفوس بعض الناس من د فكان إرازموس يدرك ذلك في تحليله بالإصلاح الديني وكان ذلك دخل في وعي الفيلسوف "كانت" حين عرف الثورة بأنها ليست بالأشخاص الذين قاموا بالثورة وإنما ة هي إيمان الناس بضرورة تغيير الأوضاع فإن هذا الشعور نزل قبل أن يكون له أسم وقبل أن يحدث له وضوح وإنما تغير يتسرب سراً ولا شعورياً في نفوس الناس اللاشعور هو الذي انتبه إليه إبن خلدون وسماه داءً دوياً لا يفطن إليه إلا آحاد الناس لأنه يتكون ببطئ وبدون شعور وهكذا اليوم يتسرب إلى نفوس العرب تغير في ر إلى الأحداث بشكل مختلف فإن هذا النظر الجديد الذي تسرب إلى النفوس هو أن العنف صار قبيحاً ومنفراً ومجرداً من أي كسب وبدأ هذا النظر يتغلغل في أعماق س من الأحداث التي حدثت في الربع الأخير من القرن الماضي مثلاً إن العنف اللبناني الذي استمر أكثر من عقد ونصف العقد كان بلاءً عظيماً نزل كوباء يأكل ضر واليابس بأشنع ما يمكن أن يكون البلاء والوباء ثم إن هذا الوباء العنيف اشتغل في الجزائر واستمر العقد الأخير كله من القرن الماضي ولا يزال لما يتخلص منه شاهدة الناس لهذه الأحداث بالوسائل المرئية والمسموعة فاق أثره في نفوسهم بحيث تغلغلت في الأعماق وقبل ذلك حرب العراق وايران استمرت ثماني سنوات عجاف ق خضراء ولا صفراء لهيب أتت على النفوس والأموال وامتدت آثارها خارج المتحاربين فإن فرحة الناس بالثورة الإيرانية تجللها القتام وبهت الناس فلم يعرفوا كيف رون ما يرون ولم يعقب من فائدة لأحد من المشاركين والمشاهدين إلا أن يشمئزوا مما حدث وأن كل ما يتمنونه أن ينسوا هذه المآسي وأن لا يتكرر مرة أخرى مثل لدمار الشامل ثم كانت الطاقة الكبرى والزلزال الذي أذهلت كل مرضعة عما أرضعت في الحرب الخليجية الثانية التي كانت صاعقة احتلال الكويت فأشعلت المنطقة رك العالم جميعاً فكانت مأساة عظيمة من أحداث التاريخ البشري الكبرى في الفضيحة فإنه لم يكن عذاباً أليماً فقط بل عذاباً مهيناً في القبح والفظاعة وما جر من إلى الآن لا يقدر الناس على بحثها وتحليلها وعجزنا نحن العرب جميعاً عن تجاوزها وتلافيها ولم يتمكن أحد بعد ممن شارك فيها من التخلص من مآسيها ولم يتمكن أن يمارس النقد الذاتي أو التوبة بالمصطلح الديني أن لا يعود لمثلها وكان أولى الناس بالمبادرة إلى النقد الذاتي والتوبة مما حدث المثقف قبل كل أحد حيث أن كل ز عن التكيف مع العالم الذي تغير نتيجة عجز المثقف (استاذ الجامع والجامعة) لأن هذه الأحداث من غرس يديه وكسب لسانه فمن هنا كان الإعلان الذي ولد ن في حرب 1967م من أن الهزيمة أكبر من أن يتحمله طرف واحد إنها كانت هزيمة الثقافة والمناخ الفكري والآن في هذا الزمن نرى في هذه الظلمات نرى بصيص ى في أن العنف صار قبيحاً في نفوس الناس وأن هذه الأرضية التي بدأت تتكون وتترسخ في نفوس الناس هي التي يمكن أن تنبت البدائل والحلول إن العنف والقتل ب باتت لا تجلب الإعجاب والسعادة وقد يأخذ بعض الوقت في ولادة البدائل ولكن لن تنبت البدائل ما دام الحنين إلى العنف والبطولات والنزاعات الدموية حقاً إن أي داخل قطر عربي أو بين قطر وآخر بالعنف بات قبيحاً ومؤذياً ومحيراً وبدأت ملامح التوجهات الجديدة لتفادي العنف والدماء وله أمثلة مشجعة تترسخ يوماً بعد يوم ى تتراجع لغة العنف والحرب ستبدأ لغة العقل والحوار وعند ذلك سينسحب من الساحة مشاعر الهيمنة والعلو والإستكبار لأن هذه المشاعر هي التي تتحدث بلغة ف والبطولات الكاذبة والنظرات القصيرة ولا بد من التحول إلى التصرفات الراشدة فإن الكبر والإستكبار تفسد العلاقات فإن سكوت لغة العنف يولد لغة العقل بدل هيات عبادة الذات الفانية ويولد لغة التواضع بدل لغة التعالي علينا أن نستبشر بكل تقدم في هذا المجال لقد كانت مفاجأة تشرح صدور الناس أن عادت إلى نفوس ى الثقة في المثقفين أن تكون لهم الكلمة واللغة التي تمثل العدالة والمعرفة في المحكمة الدستورية المصرية في إدانة أساليب الإنحراف وإدانة القوانين التي لا تساعد تحقيق إرادة الناس في التمثيل وكان من نتيجة ذلك التوجه إلى الإرتفاع في احترام إرادة الإنسان الفرد وحقه في المشاركة في صنع القرار إن هذا التوجه نتيجة

ور الوعي العام في نفوس الناس وينبغي أن يحدث هذا بوعي ومباركة في التحول إلى الأساليب الشرعية النقية لتحقيق الأهداف الكبيرة وعلى كل الذين يحترمون
ان أن يستقبلوا هذا التوجه بكل الأمل والخشوع لأن هذا سيكون له دوره الكبير في العالم العربي الذي ينظر إلى يقظة دور المثقف والثقافة ودور الإنسان العربي إلى
ر التغيير بالنضج وتحكيم المعرفة فهذه ظاهرة جديرة بالتقدير للتحول من الشرود إلى الرشاد فكما أن الديمقراطية نتيجة لإجماع عام بنبذ العنف وإن كان حدث هذا من
إعلان فإن أساس ولب وجوهر الديمقراطية هو الخروج من العنف من كل الفرقاء ليتحاكموا إلى إقناع الناس لا إكراههم وهكذا يتولد في العالم العربي كله عقد
اعي صامت ولكن راسخ وانتقال من لغة الإكراه إلى لغة العقل والإقناع والرشد والرشاد ليعود الرشد مرة أخرى أزكى وأزهى مما كان من قبل لقد ولدت الديمقراطية في
م الإسلامي لأول مرة من جديد عاد الرشد وإن ما حدث في إيران لعبرة وتطور في تاريخ المسلمين إلى الرشد وتحسن العلاقات المصرية الإيرانية ضرورة وكل الأحداث
إلى ضرورة الدخول إلى عالم حل المشكلات من دون أن يخسر أحد شيئاً ويربح الجميع وهذا ما يحدث في أوربا وهذا ما سيحدث في العالم العربي والإسلامي وعلينا
كون المبشرين والمستبشرين بهذا الذي يتقدم إلينا دون أن نشعر به علينا أن نكون واعيين مدركين بكل الوضوح لنعيد الثقة في نفوس الناس ويومئذٍ يفرح العرب قاطبةً
لمون كلهم والمستضعفين في الأرض لنتخلص من الفساد وسفك الدماء نهائياً تحقيقاً لعلم الله في الإنسان .

---

62. ألا بذكر الله تطمئن القلوب 69

يقول الله تعالى:(إذكروا نعمة الله عليكم) مرات كثيرة في القرآن، ويقول إذكر نعمتي عليك ويقول واذكر آخا عاد ويقصد بذلك أحداث التاريخ ولما يقص الله القص
نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤاد إذن تذكر أحداث التاريخ وما حدث من قبل يثبت القلوب ويطمئن القلوب ولما يقول: (وسخر لكم ما في السماوات
جميعاً منه إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون) إنما الله ليس كمثله شيء ولا تدركه الأبصار وإنما يعرف الله بالنظر إلى خلقه وأن هذا الكون ليس باطلاً ولا عبثاً إ
تفكر في بدائع صنع الله الذي أتقن كل شيء هذا الذي يجعلك تسبح كما ذكر الله ذلك في القرآن (إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات
ولأولي النهى ولقوم يتدبرون) ويقول الذين يتفكرون في خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك إن الذي يتدبر الكون هو الذي يصل إلى ادراك
الذي يتعرف على نعم الله فيشكر الله ويحمده والإنسان حين يتفاعل مع الكون المسخر له بكل ما فيه إنه لمقام كبير علاقة الإنسان باكون هذا الكون اللانهائي
والكون كله رمز وآية وعلاقة على القوة العظمى الذي لا يمكن أن يكون للكون معنى بدون معرفة الابداع في الكون الذي يخشع عقل الإنسان كلما تعمق الإنسا
الكون ويشعر الإنسان بالخشوع ويدرك معنى الحق ومغزى الوجود ويشعر بمعنى العلو ورفع الدرجات إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الروح الذي نفخ الله ف
القادر على فهم نظام الكون وعظيم الابداع فالكون والإنسان القادر على الفهم والله الذي أوجد الكون وأوجد الإنسان الذي سُخِر له الكون والإنسان يمكن أن يدر
مستوى المادة ومستوى الحياة وهذا الإدراك الإنساني مستوى أعلى وخلق آخر من آخر المستويات لمغزى هذا الكون، كيف كان الإنسان ضعيفاً وكيف بما نفخ
استطاع هذا الإنسان أن يكشف سنن الله في هذا الكون كيف تعلم الزراعة وكيف استأنس الحيوان وكيف سخر الطاقات المبثوثة في الكون كيف سخر البرق وال
كان يبث الرعب في القلوب صواعق يصيب بها من يشاء ويخطف الأبصار يدمر ويحرق، كيف تمكن الإنسان بما أعطي من قدرة الفهم والتسخير أمسك بهذا ا
بأمن وأمان إلى الأرض بدون أن يدمر ويحرق وقد يصل إلى تعبئته في بطارية يعيد استخدامها إن هذه الطاقة المتمردة أمسكها الإنسان بمعرفة قوانينها وسننها
تسخيرات لا نهائية إن الرعد مرعب ولكن الذي يعرف سننه يشعر بالأمن والطمأنينة إذن نحن لما نعلم سنة الله في خلقه وكيف سخر الله للإنسان ما في السماو
الأرض جميعاً منه إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون إن هذه الطاقة المدمرة الآن تخدم الإنسان في الإضاءة فكيف إذا انقطعت تتوقف الأعمال وإذا عادت كيف
استبشاراً وكيف هذه الطاقة لا يقدر الإنسان أن ينقطع عنها لحظة إن دخولها إلى حياة الإنسان من النعم إذا كان الإنسان رفع من قوة عضلاته بأنواع الطاقات
بطاقة الرعد قوة عقله حيث الإنسان الآلات التي تخزن المعلومات وتقدمها بسرعة ساعد عقل الإنسان وتذكره بسنن الله أضعافاً مضاعفة حيث هذه الآلات تعال

تعد بالملايين والبلايين بسرعة لا يمكن لعقل الإنسان الذي أبدع هذا أن يتمكن مثل هذه الآلة في سرعة استحضار المعلومات فبواسطتها أبصر الخفايا في الس
الإنسان الذي كان يعيش في الظلام في الكهف الذي كان طاقة النار وسيلته في الإضاءة إن هذه الطاقة الجديدة التي كشفها منذ قرن فقط فكيف يمكن أن نفهم
السنين التي قضاها الإنسان وهو لا يتمكن من هذه النعم التي تقدمها هذه الطاقة هذا في مجال المادة حين كشف الإنسان سنن تسخير المادة ولكن كذلك لما ك
سنن ونظام الجسد الحي كيف تخلص من كثير من الأمراض كيف كان الناس يموتون بأنواع الوباء وبالأعداد الكبيرة ولا يعرفون كيف جاء الوباء ولا كيف ذهب
أسباب الأمراض ورأى الكائنات الدقيقة التي كانت تسبب هذه الأمرض فقضى على كثير منها وأراح الناس من الآلام وأطال الأعمار وتعلم كيف ينتج غذاءه وه
بتسارع ليسخر أكثر وأكثر وليرتاح من الجوع والألم ولكن حديثي هذا كله ليس لهذا وإنما لشيء آخر. وهو كيف سيتعافى الإنسان من مرض آخر ليس مرض ا
الاجساد من الكائنات الحية الدقيقة ولكن من مرض آخر ومن مشكلة أخرى إنه تعرف على سنن إنتاج الغذاء وسنن المحافظة على صحة جسد الإنسان ولكن
كشف صحة عقله وقلبه ونفسه إن الله لما يتحدث عن مرض القلب لا يقصد القرآن المرض الجسدي الذي يصيب القلب ويقضي على كثير من الناس بدون أن
يقضي على الإنسان والذين يشتغلون في هذا الموضوع مستنفرون لكي يجدوا حلاً ولكن المراد حين يذكر مرض القلب إنما يريد مرض الفهم مرض العقائد والتص
تتصورها للكون والإنسان والله إننا نؤمن بالله ولكن لا نعرف الله وما عندنا من تصورات عن الله ظنون خاطئة يقول الله في هذا (يظنون بالله غير الحق ظن الج
(ذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين) ومن غير أن نشعر نفتري على الله الكذب ونصد عن سبيل الله لأننا لا نعرف سننه في نفس الإن
سنن الله في الوجود تطمئن قلوبنا بعد أن عرفنا سنة طاقة الكهرباء اطمأنت قلوبنا وتوضع الجمجمة على التوتر العالي ليحذر الناس إذ حين يقترب الإنسان من
يجهل سننها وما فطر الله عليها هذه الطاقة يصعق الإنسان أو يتلف الآلة أو يشعل الحرائق لهذا الناس يتفننون على وضع الأمانات التي تحول دون تحول الن
فكما إذا غفلنا عن سنة الله في الطاقة كيف تتحول النعمة إلى نقمة كذلك حين نجهل سنن النفس الإنسانية نحول هذه الطاقة التي لا توجد طاقة مثلها إلى دمار
بدل تزكيتها " ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار جهنم يصلونها وبئس القرار " وأنا قصدي في كل ما أكتب أن نكشف سنن النفس الإ
وكيفية التعامل معها ولأجل هذا بعث الله الرسل وأنزل الكتب وقدم العظات وأمر بالنظر إلى العواقب الآن كل همي هذا وإذا كنت عاجزاً عن تفصيل هذا الموض
أقرب إمكانية فهم أهمية هذا الموضوع إلى الشباب الإسلامي المتحرق والمحترق والذي ينطح الجدار يرى أنه أريد أن يدرك أن هذا الكون كله بما فيه الإنسان م
كن فيكون وخاصة هذا الإنسان آه لقد فرغت من المقالة وأنا أبحث في المقدمات التي أريد منها أن نشعر بها أن هذا الذي أريد أن أقول ليس هجراً وإنما هو الن
العظمى والسلام الأكبر والقلب السليم حين نعرف أن الكون كله مسخر لنا بما فيه الإنسان سوف لن يبقى في قلوبنا غل لأحد من البشر فهل يكون في قلبنا غل
أصبنا منها بضرر فنحن الذين أخطأنا في سنن التعامل كذلك الإنسان يقدم لك نفسه وماله وهو يستقلهما هذا ما جاء به الأنبياء وهذا ما نعجز عن فهمه وكشف
الكون الذي خلق على أساس الرحمة والهداية طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى.

63. شرعية الدولة 71

كيف تكون بحسب الأنبياء

في كل الدوريات التي يكتب فيها أشخاص متعددون ترصع هذه الدورية في مكان بارز (آراء الكتاب لا تعبر بالضرورة عن اتجاهات تتبناها هذه الدورية). هذا تقليد شائع ولكن هل لهذه الملاحظة معنى، وهل معنى هذا أن الكتاب لهم الحق فيما يشاءون، أم أن هناك خطوطا يسمونها حمراء لا يجوز لأحد أن يتجاوزها مهما كان؟ هل كل شخص له حق أن يتحدث في أي موضوع شاء أم أن هناك موضوعات لا يجوز لأحد أن يتناولها أو أن يقترب منه؟ من هذه المواضيع الحساسة جدا شرعية الدولة. وبحسب تصوري للموضوع أن العلم ليس عنده محرمات غير قابلة للتناول. العلم يتناول

كل شيء لكن ما هو هذا العلم الذي له حق في تناول أي موضوع لتحليله وبحثه بحيث لا يبقى عليه جانب أو زاوية في الأرض ولا في السماء لا يجوز تناولها؟ إني أحسب أن البحث العلمي له حصانة في تناول كل شيء حتى الأمراض الخطيرة مثل وباء نقص المناعة. إن العلماء احتاروا في هذا المرض أول ما ظهر منذ عقدين من الزمن ثم تناول العلماء هذا المرض وكشفوا كيف ينتقل هذا المرض وكيف يحمي الإنسان نفسه. فالعلماء لم يكتشفوا بعد العلاج الناجع لهذا المرض ولا كيف يعطون المناعة للإنسان بحيث لا يتمكن هذا الفيروس من إمراض هذا الشخص. ولما تكلم العلماء عن مسار هذا المرض قالوا في حينه نحن لا نريد أن ندعم لا دينا ولا أخلاقا ولا عنصرا معينا إنما نقول فقط بكل دقة كيف ينتقل هذا المرض وهذا ليس من عندنا وإنما هذا هو الذي نشاهده في واقع هذا المرض. كأن هؤلاء العلماء يقولون نحن لا نتحمل تبعة قانون هذا المرض وإنما نحن فقط نصف هذا المرض، لماذا كان هذا الحرج في تناول هذا الموضوع، ولماذا هذه الحيادية في وصف هذا المرض فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر.
ولكن معرفة الذي وصل إليه العلماء في هذا المرض يساعد كثيرا على تجنب الإصابة بهذا المرض والجهلة الذين ليس عندهم علم بهذا هم المعرضون للإصابة. لهذا فإن أفريقيا تعاني، والإحصاءات مرعبة. وأسوق هذا كله لأدخل إلى مشكلة شرعية الدولة. وكما أن العلماء قالوا في وصف مرض نقص المناعة أنهم لا دخل لهم في مشكلة نقص المناعة وإنما يصفون سنة وقانون انتقال هذا المرض فكأنهم ينقلون للناس هذا الواقع من غير تدخل من عندهم ليبرؤوا ذمتهم. وفي الواقع إن موقف الأنبياء من وباء المجتمعات التي تصاب بمرض عدم شرعية الدولة يشبه موقف علماء وباء نقص المناعة. فالأنبياء يقولون إن مرض فساد المجتمعات لا دخل لنا نحن فيه وإنما نصف نحن هذا المرض ومسيرة هذا المرض وكيفية استمراره. لهذا الأنبياء لا يدعون أنهم هم الذين صنعوا سنة وقانون هذا الوباء وإنما قالوا هذا الذي أتينا به من عند الله خالق سنن وقوانين السماوات والأرض ونحن لا دخل لنا في صنع هذه السنن فمن شاء فليصدق ومن شاء فليكذب ونحن علينا فقط البلاغ وهل على الرسل إلا البلاغ المبين. هل لنا أن نكشف فيروس نقص المناعة في نظام حكم المجتمعات كما جاء الأنبياء لا يدعون أنهم هم الذين كشفوا وإنما هم يقولون أوحي إلينا أن مرض نقص المناعة في المجتمعات البشرية في الشرك وعدم التوحيد. أي أن نعتقد أن نظام المجتمعات البشرية يمكن أن يسلم من آلام وتدمير هذه السنن والقوانين ونحن لا نمارس الحماية لأنفسنا ومجتمعاتنا. هذه المقارنة ينبغي أن تصبح واضحة وجلية ليدخل الموضوع إلى عالم العلم الذي لا يخضع لنزعات وأهواء العلماء، فإن للعلم استقلاله الخاص. الأمر ليس أمنيات ولا محسوبيات فكما أن مرض نقص المناعة لا يفرق بين الناس كذلك فإن مرض نقص المناعة في شرعية الدولة لا يفرق بين الناس والمجتمعات. يصاب الجميع كل على حسب علمه واحتياطات الأمن التي يتخذها وأساس كل هذا الوعي بالسنن والقوانين ونشر المعرفة بوضوح مهما كانت هذه المعرفة مؤلمة فإن الجهل بها أشد ألما ويكون أكبر تدميرا. إن المعرفة هي التي تحل المشكلات ومن يكتمها فإنه آثم قلبه لا يكون قلبه سليما وإنما مريض مرضا خطيرا. كأن الصدق ملازم للعلم وكأن الكذب ملازم للجهل. إن العلماء الذين تحدثوا عن نقص المناعة كانوا حياديين صادقين وأمناء لا يكتمون جانبا من جوانب الحقيقة. وكذلك كان الأنبياء في تشخيصهم لنقص مناعة شرعية الدولة أو شرعية النظام الإجتماعي في المجتمعات البشرية. إن من يتصف بصفة العلم من الصدق والأمانة يمكن أن يوثق به، فأطباء الجسد بلغوا من المعرفة والعلم إلى درجة أن الناس يثقون بهم ويسلمون أنفسهم للعمليات الخطيرة للأمانة والصدق الذي يتصف به الأطباء. فهل وصل علماء الطب الإجتماعي إلى درجة الصدق والأمانة حتى يسلم لهم الناس أنفسهم عن علم وهم واعون تماما لما يقومون به؟ نعم سيحدث ذلك لما تزول الإلتباسات وتتضح الأمور بجلاء تام. والأنبياء جاءوا بالبلاغ المبين في صنع الشرعية، ومكان الالتباس في الموضوع هو ظن الناس أن استخراج أفضل ما بالإنسان يكون بإكراهه والأنبياء أعتبروا الإكراه الإنساني ليس هو الذي يخرج أفضل ما في الإنسان وإنما بالإكراه لا يعطي الإنسان إلا أقل ما يمكن أن يعطي.

في مبادئ الانبياء: 1–الشرعية لا تأتي بالإكراه وإنما بالعلم والإقناع والإيمان وهذا شرط أساسي لا محيد عنه. 2– اللاشرعية لا تزال باللاشرعية ومن لم يصدق هذا فليكرر أخطاء العالم الإسلامي حين ظنوا إمكان تغيير اللاشرعية باللاشرعية وهذا هو ما يعيق نمو العالم الإسلامي وهذا الذي يجعلنا نخطئ ونقع في الوهم فكل الفتن نتجت عن هذا الالتباس. 3– وحتى النظام اللاشرعي ينبغي أن يثق بالمؤمنين أكثر من ثقة اللاشرعي بأقرب المقربين

إليه لأن الشرعية لا تأتي بالإكراه. فهذه الثقة هي الانتصار الأول والأرضية للإنطلاق إلى الإصلاح وهذا ما جاء به الأنبياء وأوضح ما يكون في سيرة الرسول (ص) حيث منعهم حتى من الدفاع عن النفس لأنهم يريدون أن يصنعوا مجتمعا يحمي الأفراد الذين ينتمون إليه من العدوان عليهم لأن الفرد في المجتمع الشرعي يحميه المجتمع ومؤسسات المجتمع. أما إذا كان كل فرد سيحمي نفسه فهذه هي شريعة الغاب. فالمجتمع الشرعي هو المجتمع الذي ليس فيه امتيازات لأحد أمام القانون وأمام المعرفة والعلم بل إن الذي يتفهم معنى الشرعية لا يغير موقفه من الذي يأتي بطريق إكراهي غير شرعي لأن الذي ذهب مثل الذي جاء وهكذا نؤسس للمجتمع الشرعي بالإنسان الذي يتفهم الشرعية والذي هو الرصيد الدائم والأبدي وعلينا أن نوضح هذا الفرد الذي هو هدف الأنبياء.

64. بلال نموذجاً73

لدراسة الإسلام يمكن البدء بدراسته وتفهمه من أركان الإيمان والإسلام ويمكن ذلك بدراسة حياة الرسول محمد (ص)ويمكن ذلك بدراسة القرآن أو الكتب السماوية الأخرى أو بدراسة التاريخ البشري أو بدراسة المجتمع المكي أو المجتمعات العربية في الجزيرة أو بدراسة فرد مسلم من السابقين في إسلامهم وأنا أشعر أننا في العالم الإسلامي كله نعاني معاناة حقيقية في أننا لا نتمكن من التكيف مع العالم الذي نعيشه والعالم الإسلامي عالم ضخم من ناحية الرأسمال البشري والمساحة الجغرافية ومن ناحية التراث الديني فما العلة وأين النقص وكيف نكشف الخطأ ونبعث الحياة وأنا أشعر بالمعاناة في إيضاح ما يخيل إلي أنه مكان العلة. هل المشكلة لغوية مفاهيمية تاريخية. كل ذلك له دخل إلا أن الدخول إلى تحديد ذلك ينطلق من كلمة واحدة موحدة وهي التوحيد وهي قل هو الله أحد وهي لا إله إلا الله وهي كلمة السواء وهي كلمة التقوى ولكن ما مفهوم التوحيد، ماذا كان فهم بلال بن رباح العبد الحبشي المملوك الذي يباع ويشترى في مكة حين كان يقول أحد أحد وهو يعذب من قبل قريش لأنه صبأ إلى دين محمد. أظن أنه يمكن تحليل الأفكار إلى أجزاء كما يمكن تحليل الكائن الحي إلى خلايا وكما يمكن تحليل المادة إلى هيدروجين ثم إلى طاقة قابلة إلى التجسد (ذو القوة المتين) المنطلق كيف بدأ الخلق، كيف تولد الوجود وكيف هو في صيرورة، الوجود كله سنن 1- الوجود الواقعي الخارجي العيني اللمسي. 2- الوجود الذهني التصوري. 3- الوجود اللفظي الكلامي الصوتي. 4- الوجود الرسمي المرسوم بالرموز. وقبل كل هذا 5- الوجود السنني. والسنة موجودة حتى قبل أن يتحقق في الواقع فإن العلاقة بين هذه الوجودات يتولد منها سلطان الإنسان والقدرة على التسخير لسنن الوجود الكون كل مسخر للإنسان لقد توج القرآن هذا التسخير ولم يستثن شيئا فقال: (سخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعا منه إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون) والتسخير في اللغة هي الخدمة مجانا. انظروا إلى الكهرباء المارد كيف تسخر للإنسان ولا يزال يتسخر والإنسان الذي سخر هذا المارد يتسخر أيضا بالإحسان بالإقناع ينبغي أن نكشف السنة الأولى في الإنسان إنه يعطي بالإقناع ما لا يعطي على الإكراه. إن من طبع الإنسان أن لا يعطي بالإكراه إلا أقل ما يمكنه ويتربص ويظل يتربص للانتقام وبالإقناع يعطي نفسه وماله وهو (ينقلهما؟) بلال بن رباح نموذجا للإنسان الذي أعطى بالإقناع نفسه وماله ولكن كسب إنسانيته ولم يزيف ذاته ولم يسفه نفسه (ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه) بلال كشف نفسه ولم يسفها والذي أريد من قصة بلال أن أزيل عنها التزييف الذي لحق بقصة بلال وقصة آل ياسر وقصة محمد وقصة الأنبياء جميعا الذين قال الله حكاية عنهم جميعا (ولنصبرن على ما آذيتمونا) صبرهم على الأذى لقد فسر المسلمون هذا الصبر نتيجة ضعف قوتهم أو أنهم قليلون هنا تشوه أقدس ما في الإنسان إلى أسوأ ما يمكن أن يكون عليه الإنسان، الإنسان أكرم ما خلقه الله (ولقد كرمنا بني آدم) للإمكانات التي عند هذا الإنسان للقانون الذي يحكم هذا الإنسان (الامكان؟ السواء) (ونفس وما سواها) سواها على السواء على العدل على الاستقامة لا يستقيم إلا بالعدل ولكن بالإحسان إليه يؤثرك على نفسه وتأبى التشويه الذي أودع فيه وتأبى التشويه التي أودع فيه أن يترك الآخرين يسبقونه أو يكونون أسرع منه في استباق الخيرات وسارعوا إلى مغفرة من ربكم واستبقوا الخيرات وفي

ذلك التنافس الحق وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ولمثل هذا فليعمل العاملون وإني أريد أن أرفع التشويه الذي لحق بقصة بلال وإخوانه وآل ياسر من أنهم لم يكونوا يدافعون عن أنفسهم لأنهم ضعاف لا قوة لهم في المقامة إني أرى أعظم التشويه لهذا التفسير الذي لا قدرة له على الشجاعة المعرفية كما المسلمون لما خسروا الرشد والرشاد وتقبلوا الغي والبغي ولم يعرفوا الخروج من الغي إلا بالغي والبغي فلهذا أقول أن المسلمين كلهم تحولوا إلى الخوارج الذين يجيزون تغيير الحكم وصنعه بالإكراه والذي حبس المسلمون فيه إلى يومنا هذا فلا يقدون على الخروج من الإكراه والبغي والغي إلى الرشد والرشاد والإقناع بدل الإرغام والإكراه إلا أني أعلن أن ظن استخراج أفضل ما في الإنسان يكون بإكراهه فقد خرج من الدين الذي لا إكراه فيه ودخل في الغي والبغي الذي دينه الإكراه هذا الموضوع ينبغي أن يطرح مجددا إن الثقافة التي فسرت القرآن والحديث وسيرة الرسول حذفت المواقف الراشدة وقبلوا رهان الغي والبغي وهذه الثقافة كتبت بعد أن فقد المسلمون الرشد وتكيفوا مع الغي فلهذا يسهل عليهم أن يفسر أعظم ما في السيرة بالضعف والعجز ألا أيها الشباب المسلم اكشفوا لقد آن الأوان للتخلص من الخضوع للقوة إن بلالاً كان لا يدافع عن نفسه ولكن كان يدافع عن عقيدته بأعظم ما يمكن أن يدافع إنسان عن إنسانيته لأن إنسانيته عقيدته. والذي أريد أن أنبه إليه لأفتح ثقبا على تفسير موقف بلال إنه كان ناشئا عن ضعف قوة المسلمين وقوة بلال وأصحابه إن هذا التفسير إخفاء للتفسير الصحيح وجعله مستبعدا إلى درجة أنه لا قدرة لأن يتصور الإنسان المسلم غير الضعف في عدم دفاع المسلمين على رأسهم بلال بن رباح العبد الذي ضرب المثل الأعلى في حريته لأحرار العالم إلى يوم الدين من أن بلال مارس الحرية الفكرية ولم يطلب من قريش أن يعطوه الحرية في أن يختار ما يشاء من عقيدة وإنما قال وشهد أن ما جاء به محمد هو الحق وما أنتم عليه يا قريش هو الباطل وأنا لا أكتم هذه الحقيقة ولا هذه الشهادة، يمكن أن تعذبوني وتقتلني ولكن لا يمكنكم أن أشهد شهادة زور في الشيء الذي أشهد أن باطل بأنه حق. هكذا شوهنا حقيقة بلال وحقيقة الإسلام وحقيقة الحرية ونحن نستخدم كلمة الحرية ولكن مصطلح القرآن العدل وكلمة السواء نحن نلتزم العدل وكلمة السواء ولن نتراجع عنهم يمكنك أن ترفض العدل ولكن لا يمكنك أن تجعلني أرفض العدل وأقبل الظلم والاستكبار إن بلالاً لم يكن خائفا ولا جبانا ولا ضعيفا بل كان قويا يحسده أمية بي خلف وأبو جهل على قوته واستعلائه عليهم إنه يشعر بلال بالعلو وهو يعذب ومعذبوه يشعرون بالذل والهوان كيف يتمرد عليهم هذا العبد والذي أريد أن أختم به هذه المقالة ما روي عن ابن عباس من أنه جاء رجال منهم عبد الرحمن بن عوف وأصحاب له أتوا النبي (ص) بمكة فقالوا يا نبي الله: كنا في عزة ونحن مشركون فلما آمنا صرنا أذلة. قال: إني أمرت بالعفو فلا تقاتلوا القوم. فماذا نقول عن موقف عبد الرحمن بن عوف؟ هل كان عدم دفاعه عن نفسه ناشئا عن ضعفه أم أن هذا الموقف موقف استراتيجي في ضرورة تحييد عالم الأفكار عن عالم الأجساد لا إكراه في الدين لا إكراه في الأفكار لا إكراه في السياسة لا إكراه في الرأي لا إكراه في المذهب وإذا كان لا إكراه في الدين ففي أي شئ يكون الإكراه؟ نعم يكون الإكراه للذي يمارس الإكراه ولكن بعد أن تصنع مجتمع اللاإكراه بدون إكراه وإن لم تتمكنوا من فهم هذا انظروا إلى التاريخ كله بما فيه تاريخ المسلمين هل أمكن صنع مجتمع اللاإكراه ومجتمع الرشد بالإكراه أليس كل الذين أرادوا أن يصنعوا مجتمع الرشد بالإكراه باءوا بالفشل الذريع وآخر الأحداث السودان انظروا ماذا حدث للذين اعتمدوا على العسكر فهل يتمكن الشباب أن يفهموا هذا ويكفوا عن الإكراه ويفهموا أن مجتمع الرشد لا يصنع بالإكراه ومن لم يقتنع فليكرر الأخطاء لقد صار الإكراه قبيحا إلا عند الذين لا قيمة عندهم للأفكار.

---

65. أبو ذر شاهداً على الديمقراطية 75

الشرعية الإسلامية حسب ما أرى تعالوا إلى كلمة سواء ما يجوز لي يجوز لك من الحق مثل مالي ولاأعطي لنفسي حقاً لاإعطيه لك هذه كلمة السواء وكلمة التقوى ولكن تتقدم الشرعية الإسلامية التي هي الشرعية النبوية إلى درجة أعلى وهي أنك إذا أعطيت لنفسك حق نقض كلمة السواء لاأعطي لنفسي نقض كلمة السواء في الأمور السلبية (ما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه) وكذلك (أتأمرون الناس بالبر وتنسون

أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلاتعقلون) والقرآن شرح لنا كلمة السواء بأن لايتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله. فإذا قبل المجتمع أن يتخذ من بعض أفراد المجتمع أرباباً فإنا لانشاركهم لافي الربوبية ولافي العبودية للناس ونبقى على كلمة السواء من طرف واحد أقبل التعاون على البر وأرفض التعاون على الإثم هذا ما فعله بلال مع مجتمع قريش وهذا ما فعله أبوذر لما بدأ المجتمع يخرج من كلمة السواء فأنكر أبو ذر هذه الظاهرة التي بدأ يتحول إليها المجتمع والتي فعلاً وصل إليها المجتمع فلم يتمكن المجتمع من حل المشكلة بالعودة إلى كلمة السواء وإنما فتح باب القتل وإستخدم العنف للتفكير وهذا التوجه الذي حدث وكان ينكر أبوذر الطرفين ينكر الإنحراف وينكر مواجه الإنحراف بالإنحراف والدخول إلى هذا الأسلوب عودة إلى الوراء وخروج من نهج النبوة وخروج من الرشد إلى الغي وإلى تحكيم القوة ويمكن أن نقول أنه كان فتحاً لباب جهنم الذي إلى الآن نتلظى بناره ولاقدرة لنا للعودة إلى الرشد فهذا هو نموذج أبو ذر وشهادة أبوذر إنه كان واضحاً لديه منهج الشرعية النبوية فهم البر وإلتزامه وفهم الإثم وإجتنابه وإنكاره إنه معارضة مشروعه (واجبة) معارضة إظهار الحق وعدم الجوء إلى العنف هذه شهادة أبي ذر للشرعية النبوية ولكن ماشأن أبي ذر والديقراطية إن تطور البشر في إدراك أسلوب حل المشكلة بالعنف توصل بالعواقب والنتائج الخاسرة إلى الإعتراف من قبل الأطراف التي تبادلت اللجوء للعنف والعنف المضاد الملة الواحدة ملة ممارسة الإستكبار والإستضعاف إن البشرية التي ذاقت العذابات الألمية عذابات تبادل السلطة بالعنف إلى أن شيعوا عنفاً وكان أخر هذا العنف عنف الحرب العالمية الثانية التي دفع البشر 54 مليون من البشر القتلى عدا الخسائر إن تتطور الحرب وتطور العذاب في التسلط المتبادل أقنع الناس إلى إبتكار أسلوب يمكن أن نفهم منه أنه هو الذي دعى إليه الأنبياء من أولهم إلى أخرهم وهو أنهم (أي الأنبياء) يلتزمون عدم اللجوء إلى العنف في تعير أفكار المجتمع وإنما يلتزمون الدعوة والخطاب إلى الناس ويعطون للناس الحق أن يستمعوا إلى القول وقبول القول الذي يرونه حسناً (الذين يسمعون القول فيتبعون أحسنه) هذا في سورة الزمر التي هي سورة مكية تقول هذه الآية (والذين إجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأنابوا إلى الله لهم البشرى فبشر عبادك الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب) هذا ما جاء به الأنبياء من دعوة نوح (واتل عليهم نبأ نوح إذا قال لقومه ياقوم إن كان كبر عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله فعلى الله توكلت فاجمعوا أمركم وشركاءكم ثم أقضوا إلي ولاتيظرون) وهذا ما أوحي إلى أخر الأنبياء فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين إن التطور البشري دفع رغماً عنه إلى هذا الموقف الذي يسمونه الديمقراطية ولبها التحاكم إلى العقل والإقناع وعدم اللجوء إلى الإكراه إن المجتمع لن تدخل إليه الديمقراطية مالم يعترف الجميع بأن يقبلوا نتائج إختيار الناس لما يريدونه الأفضل من الأقوال فأولئك هم الذين هداهم الله وهؤلاء هم أولوا الألباب هم الذين تحاكموا إلى ألباب الناس ووجهوا خطابهم إلى الناس ومن قبله الناس بدون إكراه فهو الرشد وهو الشرعية وهو التقوى وهو كلمة السواء وهم أولوا الألباب أي يثقون بأن أفكارهم حسنة وأن الناس يمكن أن يتتبعوا هذا الحسن وأن قبول هذا يحتوي ضمنها على ثقة الإنسان بأفكاره أنها ستقبل إذا كانت حسنة لأن الحق لايفرض بالقوة وإنما يتقبله الناس بالفهم الراشد ويمكن أن نقول أنه لايوجد عندنا نحن المسلمون من يقبل تحدي الرشد الذي هواللإكراه ولامن يقبل تحدي الديمقراطية أي قبول ما يقبله الناس بدون إكراه وبدون اللجوء إلى الإكراه أو التزوير إلى الآن لايوجد في الساحة الإسلامية لا متدينين ولا علمانيين يقبلون الحكم بالإقناع فالكل يثقون بالعنف والإكراه ولايثقون بالرشد وإقناع الناس وفي إيران ظاهرة جديدة في العالم الإسلامي لايتناول بما يكفي من التحليل والتحديق فسوف لن يبقى في العالم الإسلامي حين يرفع عنهم الإكراه والإرغام والقسر إلا النزاع بين الذين يرون العالم جامداً لايزداد إلى الأفضل وبين الذين يرون التاريخ حركة إلى الأفضل وأنه يزيد الله في الخلق مايشاء ويخلق مالا تعلمون وأن القانون الذي يحكم حركة التاريخ هو أن الزبد يذهب جفاءً وما ينفع الناس يمكث في الأرض وأن الحق إذا جاء وظهر بوضوح يزهق الباطل مذهوقاً مدحوراً ً وأن رياح كلمة السواء تهب على العالم في كل أنحاء بحيث أن كلمة السواء تترسخ جذورها عمقاً وتتمدد فروعها علواً وتتسع ظلالها إنتشاراً (نأتي الأرض ننقصها من أطرافها) هذا هو علم الله في أن الفساد وسفك الدماء يتقلص وإن كان المستكبرون يريدون إستمرار دوام الإستكبار والإستضعاف إلا أن وعي المستضعفين هو رصيد النمو والحركة لمن شاء أن يتقدم أو يتأخر هذا الوعي الذي ينبغي أن لايسكت عليه الربانيون بل يصدعون بها ويعلنونها ولايكتمونها وهذا ما فعله بلال وأبو ذر وهذا ما ينبغي أن يفعله في كل مكان وزمان المهاجرون إلى ربهم وإلتزام كلمة السواء وكلمة التقوى فهؤلاء الذين لايزالون يتمنون أستمرار الظلام الذي يمكنهم من كتم وإعاقة ما يحدث من انبثاق الفجر الصادق وانتشار النور الذي سيمكن المستضعفين من الإبصار والرؤية إن الشعوب المستضعفة تستطيع أن تحمي نفسها وتتحمل كل تبعات يقظتها فعلى الآمرين بالقسط وكلمة السواء من الناس أن يوقدوا وينشروا ضياء المعرفة ويبرزوا تطور التاريخ وتيس المعلومات التي صارت متوفرة ووسائل انتقالها في نمو متسارع لم يسبق له مثيل خلال تاريخ البشرية كله ملكوت الله قادم وأتى أمر الله فلا

تستعجلوه وكان الإنسان عجولاً وقنوطاً حين يجهل سنة الله التي لن تجد لها تبديلاً ولن تجد لها تحويلاً ولن يتراجع نظام الكون إلى جعل الغثاء المر يمكث ولن يتحول ما ينفع الناس إلى الغثاء الزائل هذا ما ينبغي ان نبشر به المستضعفين في الأرض وهذا ما ينبغي ان ننزل به قوماً لداً ان الأوهام تتهاوى شيئاً فشيئاً وان السحر الذي يخيل إلى الناس أن الباطل ليس زهوقاً إن هذا السحر سيبطل من الوجود إن السحر الذي يمارس في حماية حق الفيتو سيبطل مهما حاول المحاولون من اعطائه صفة الشرعية وفي العالم الأن اكابر المفسدين وكبيرهم الذي تفرد بالإعاقة للإنسانية في الإنفراد بحق إعاقة النمو في العالم ولكن هذا الموضوع بدأ يثار في كل تجمع عالمي من أن النظام العالمي لم يعد مناسباً ولكن لا أحد يقدر ان يتفوه بزوال فكرة الحق للقوة إن القرأن لما يقول بكل صراحة (وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفا) إن غنى الأموال وإن كثرة عتاد الحرب ليس المقرب إلى الحق لقد كان عيسى عليه السلام الوديع يغضب ويقول بكل قوة ايها القادة العميان وكان يقصد بالقادة العميان الكتبة والفريسيون وكان يعني بالكتبة المثقفين الموظفين الذين يوحون ان لا مخرج للعقل من اعتقال القوة وان لا قوة للروح في مواجهة من يحصدون الجسد إن ممثلي العقل والروح الذين هم الكتبة والفريسيون مستقبلون ساكتون ولا يصرخون مثل يحيى عليه السلام الذي أوحي إليه بأخذ الكتاب بقوة والذي كان يصرخ مبكراً بأن ملكوت الله قادم.

جودت سعيد

.66 أبو ذر شاهداً على الشرعية76

لابدمن البدء من الأساس الذي تبنى عليه الشرعية ولا قيام لشرعية ولابنيان إلا على أساس واضح متين تتحمل كل الضغوط لأن البنيان الظاهر قاعدته هي الأساس ولما يقول الله تعالى(أفمن أسس بنيانه على تقوى الله ورضوان خيراً من أسس بنيانه على

شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم والله لايهدي القوم الظالمين) الأساس هنا تقوى الله ورضوانه وتقوى الله ليكون واضحاً لابد من تذكره من نقطة واضحة وأنا ألم على فهم تقوى الله بإتقاء الخطأ في التعامل مع سنن الله في المادة والحياة والفكر وأنا أضرب المثل بسنن الكهرباء وقوانينه وكيف يضعون شعار الجمجمة مع العظام على أماكن التوتر العالي للكهرباء ويقصد به تحذير الناس من الإقتراب من الخطر عن جهالة لأن الكهرباء طاقة صاعقة مدمرة إذا أخطاء الإنسان في التعامل مع هذه الطاقة بأسلوب خارج عن سنن هذه الطاقة التي فطر الله عليها يكون التدمير جزاءه كذلك التعامل مع جسد الكائن الحي أما التعامل مع سنن طاقة الإنسان الذي سخر مافي السماوات وما في الإرض يكون مدمراً أكبر يقول الله(وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد) ويوضح القرآن كثيراً كيف يدمر القرى (وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح) هكذا قانون الله سنة الله وعلى الإنسان أن يتعرف على سنة الله في الأمم كيف تهلك فيتفاداها فهذا هو معنى التقوى(ياأيها الناس اتقوا ربكم) أي احذروا من مخالفة قوانينه هذا معنى التقوى ومعنى الإعتبار فاعتبروا ياأولي الأبصار إن الذين لايتفهمون معنى التقوى وأبعادها هم الذين يؤول أمرهم إلى أن يكونوا عبرة لأولي الأبصار وأولي الألباب وسنن الله وتقوى الله في تأسيس الأمم من أكبر سننه فلهذا إن بناء الأمم إن لم يتأسس على تقوى من الله على القوانين المتينة فتنهار به في نار جهنم في الأخرة وفي الدنيا يتحولون إلى عبرة لأولي النهى كيف نفهم شهادة أبي ذر على الشرعية شرعية نشأة الأمة من الصفر وكيفية مقابلة الأخطاء بأسلوب شرعي في البدء وفي الإستمرار وفي اعادة البدء بتأسيس الشرعية بعد أن تفقد اعادة التأسيس من جديد أنفاً فهذا ما كان قيل من أن آخر هذه الأمة لايصلح إلابما صلح به أولها الكلام كلام يمكن تأويله والتلاعب به ولكن سنة الله في الوجود لايمكن التلاعب بها إن الذين يتلاعبون بسنن الله هم الذين يخسرون والمسلمون فقدوا الرشد والشرعية في الحكم أوفي صنع الأمة الراشدة كما أتمنى أن يفهمه المسلمون لأن

الحكم الراشد نتيجة تكون الأمة الراشدة وليس العكس بدليل علي بن أبي طالب وأبو ذر هو الذي فهم الشرعية في نشأة الأمة والحفاظ على استمرارها ونحن حين نفهم هذا القانون وسنة الله في نشأة الأمم وفسادها وهلاكها واعادة بناء الأمة الراشدة قانون لن تجدلها تبديلاً ولاتحويلاً ولالفاً ولادوراناً أرجوا من الشباب أن يتمكنوا من تأمل هذا وتفهمه فإذا فهم هذا يكون اعادته أهون من صنعه أنفاً لهذا يقول الله عن إعادة الله لخلق الناس في الآخرة من أنه أهون عليه كما بدأنا أول خلق نعيده لايكون صنع الشرعية بالعنف لايكون التعامل مع الكهرباء بالعنف وإنما بالسنة وبالقانون يتسخر وكذلك الإنسان ونحن ظننا بالله وبالإنسان الذي خلق الله في أحسن تقويم ظن السوء وظننا أنه يمكن أن نتعامل مع الإنسان بالاكراه لننال منه أفضل مردود ومالم نكشف سنة الله في الإنسان من أنه يعطي على الإقناع والإرشاد مالايعطي على الإكراه والتهديد ونكون وقعنا في الخطأ الذي لاخروج منه إلابتغيير ما بأنفسنا من هذا التصور الخاطئ وأبو ذر شاهد على الالتزام بالشرعية في البدء وفي الإستمرار لهذا لما نكشف السنة نفهم الرجال لأننا إذا عرفنا الحق نعرف من الذي على الحق وكان رجلاً واحداً أو اسرة واحدة يقول الله في مثل هذا (فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين) وهنا نكشف القانون الذي تكلم به علي بن أبي طالب حين رأى الناس يختلط عليهم الحق بالرجال الحق سنة الله ولكن الرجال يمكن أن يصيبوا ويخطئوا ولكن سنة الله لن تخطئ كما الكهرباء لاتخطئ ولن تخطئ ولكن الناس هم الذين يخطئون هذا معنى قول علي بن أبي طالب (ويلك لاتعرف الحق بالرجال إعرف الحق تعرف أهله) ونحن حين نكتشف سنن الله في بناء شرعية الأمة الراشدة فهذه السنن هي التي تكشف لنا من هم الرجال الذين كانوا مع سنة الله إن أباذر كان مع سنة الله ولكن الذين قتلوا عثمان وإن كانوا أكثر عدداً لم يكونوا هم الذين مع سنة الله ويلكم لاتعرفوا الحق بالرجال اعرفوا الحق تعرفوا أهله حين نقرأ في سنن أبي داوود من أن أباذر قال قال رسول الله (ص) يا أباذر قلت لبيك يا رسول الله وسعديك قال في الحديث كيف أنت إذا أحباب الناس موت يكون البيت فيه بالوصيف؟ قلت الله ورسوله أعلم أو قال ماخار الله لي ورسوله قال عليك بالصبر أوقال تصبر ثم قال يا أباذر قلت لبيك وسعديك قال كيف أتت إذا رأيت أحجار الزيت قد غرقت بالدم؟ قلت ما خار الله لي ورسوله قال: عليك بمن أنت منه قلنا يارسول الله أفلا آخذ سيفي فأضعه على عاتقي؟ قال شاركت القوم إذن فقلت: فماتأمرني قال: تلزم بيتك قلت: فإن دخل علي لبيتي قال: فإن خشيت أن يبهرك شعاع السيف فألق ثوبك على وجهك يبؤ باثمك وأثمه. لما يروي أبو ذر هذا التوجيه النبوي كثيراً جداً من المسلمين لايقدرون على أن يفهموا هذا الحديث بل ويسخرون منه لأن سنة صنع شرعية الأمة قد ضاعت في الأمة الإسلامية منذ وقت مبكر وهذا في حاجة إلى شرح وإضاءة وسنظل ننحت فيه حتى نكشف سنة الله في إظهار دين الله على الدين كله هذا الحديث وأمثاله كثير في عدم اللجوء إلى العنف في بدء الدعوة مثل حال عبد الرحمن بن عوف الذي سبق أن أشرنا إليه في مقال سابق وكذلك عدم اللجوء إلى العنف حين يبدء الرشد ينحرف وإنما واجب المسلم في الحالتين أن يقول الحق ويبين الصواب ويبين الخطأ الذي يحدث ويكون التغيير في نفوس الناس بتوضيح الحق والباطل وليس باللجوء إلى العنف لهذا أبو ذر الذي شهد له الرسول بأنه ماتحت أديم السماء أصدق لهجة من أبي ذر ولم يسكت حين بدأ الرشد ينحرف وإنما أنكر المنكر وأمر بالمعروف حتى نفي وابعد ولم يكف لاقبل أن يلغى ولا بعد أن نفي عن إلتزام قول الحق فإذا قرأنا رواية تقول مثلاً من أن أباذر لما كان منفياً إلى الربذة في زمن عثمان: إذا آتاه نفر من العراق فقالوا ياأباذر فعل بك هذا وفعل فهل أنت ناصب لنا راية؟ فلنكمل برجال ماشئت(يعرضون عليه المعارضة المسلحة) فقال لهم ياأهل الإسلام وتعرضوا علي ذاكم والله لو أن عثمان صلبني لسمعت وأطعت وصبرت واحتسبت ورأيت أن ذلك خير لي

إن الروايات التي في التاريخ حين نعرف نحن سنة تغير الأقوام الذي جاء به القرآن وأساسه الذي يبنى عليه المجتمع هو التعاون على البر والتقوى وليس التعاون على الأثم والعدوان الطاعة في المعروف وعدم الطاعة في المنكر أن ننفذ المعروف ولاتنفذ ولاتطيع في المنكر والمسلمون الآن يظنون أنه واجب الطاعة في كل ما يقوله الحاكم ألامن كان له أذنان للسمع فليسمع

لاطاعة لمخلوق في معصية الخالق إنما الطاعة في المعروف وحتى في المنكر لاتخرج عليه بالسيف كما حدث فعلاً بعد ذلك وإنما بعدم طاعته والناس يظنون الآن أنه يجب طاعته في المنكر أيضاً لهذا ما جاء في الصحيح من الحديث من أنه تسمع وتطيع وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك ولكن ليس معنى هذا أنك لاتبين الحق لأن عهد الله وعهد رسوله أن نقول بالحق حيثما كنا لا نخاف في الله لومة لائم ولكن لانخرج بالسيف هذا هو أبوا وهذه هي شهادة أبي ذر اللهم إني أشهد أن أبى ذر كان على الحق وبالحق وليس الخوارج الذين قتلوا عثمان وعلي.

---

67. تركتكم على المحجة البيضاء81

ليلها كنهارها لايضل عنها إلا زائغ

حين نمرر المغناطيس على برادة الحديد تنتظم هذه البرادات بشكل منتظم دقيق كما إبرة المغناطيس تتجه إلى الشمال مفاهيم النبوات ينبغي أن تكون واضحة وإني لأحس أنها واضحة المعالم تضيؤها آيات الآفاق والأنفس ليلها كنهارها في الوضوح اليوم وأنا أكتب هذه المقالة سمعت أن رئيس يوغوسلافيا غادر مع أسرته إلى موسكو وسمعت مع هذا الخبر أن كلينتون أمر أن ينفض مجلس الأمن ولا يتخذ قراراً في شأن إنتفاضة القدس حتى لايضطر إلى ممارسة حق الفيتو قوانين الكهرباء والمغناطيس بهما نسمع ونرى الأحداث وأنا أزعم أني أرى وأسمع الأحداث بالقانون الذي جاء به الأنبياء إن إحتجاجات المعارضة اليوغوسلافية وإنتخاباتها يمكن فهمها على أساس قانون الأنبياء كلمة السواء وكلمة الله وكلمة التقوى وكلمة أن لايتخذ بعضنا بعضاً أرباباً ولم يقل أن لايتخذ بعضنا بعضاً عبيداً حتى لايلتبس علينا حتى لايصير النهار ليلاً في الظلام والعجز عن الرؤية إن قانون المجتمع قانون الأقوام مثل قانون الفلك كم خدع إلتباس فهم سير الفلك كم خدع الناس إن قانون الفلك ليس هو الذي تغير إن الشمس لم تدر حولنا كما ظننا بل الأرض كما إنكشف للناس أنا لما أقول إن قانون الفلك مثل قانون المجتمعات مثل قانون الأقوام إن الله لايغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم إن الفلك ليس الذي يغير نظامه وإنما ما بنفس البشر هي التي تتغير ما كنت أفهم الحوار الإبراهيمي ولم أكن أتمكن من فهم الحوار بين إبراهيم وأبيه وبين إبراهيم والذي آتاه الله الملك إذ قال ربي الذي يحيي ويميت قال الملك قال النمرود أنا أحيي وأميت قال إبراهيم إن الله يأتي بالشمس من المشرق فأتي بها من المغرب فبهت الذي كفر. إن قانون الله واحد في الفلك في حركة الفلك في الشمس والأرض كذلك قانون المجتمع واحد سواء إعترفنا أم لم نعترف يأيها الإنسان إن كنت لاتعترف بقانون الفلك فأتي بالشمس من المغرب وإن كنت لاتعترف بقانون الأقوام غير الواقع البشري من غير أن تغير ما بأنفس البشر من تصورات من إيمان من فكر هذا الإلتباس العظيم في الخطأ في فهم الفلك بشبه الإلتباس في فهم المجتمع من أن ميلوزوفيتش لم يتنازل عن طيب خاطر من نفسه كما أن كلينتون لن يتنازل عن حق الفيتو بل الأعجب مطلب كلينتون (ينبغي أن لاتقرروا شيئاً من دون موافقتي ولاتضطروني لإستعمال حقي في إلغاء الرأي العالمي بحقي) إن كلينتون الآن في مكان الكنيسة التي حكمت على برونو وجاليلو بالهرطقة إن الله لايغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم إن ميلوزوفيتش لن يغيير ما بنفسه حتى تغير الشارع اليوغوسلافي ولن يغيير كلينتون حتى تغير الشارع شارع الكرة الأرضية ما بأنفسهم من أن حق الفيتو عار على البشرية كما أن ميلوزوفيش عار على يوغوسلافيا وكما كان الشاه شاه إيران عار على إيران حتى غير الشارع الإيراني ما بنفسه أريد أن أقارن بين شارع بلغراد وشارع إيران وشارع الجزائر لنكشف قانون الفلك الذي يحرك هذه الشوارع أوحركها ونحن ننظر إلى هذه الأحداث كأنه لاتنتظمها قوانين كأن الظلام يحيط بها كأن نهارها ليل دامس لاقدرة لنا على فهم سنة الله التي لاتتغير ولاتتبدل إن سنة الله في الليل والنهار قانون ثابت كذلك قانون وعي الناس وتغيير ما بأنفسهم هو الثابت لما أدندن حول بلال كنموذج وحول أبو ذر

الغفاري وعلي بن أبي طالب هدفي كشف القوانين الذي يجعل نظام المجتمع يخضع لقانون كما الفلك يخضع لقانون في الشهر الأول من عام 1978 م نشر الشاه مقالاً يستحف فيه بعلماء الإسلام بعنوان (إيران والإستعماران الأسود والأحمر) يعني الشيوعية والإسلام كما قال فرعون أمريكا لما سقط الإتحاد السوفيتي وتنبأ بزوال التحدي الإسلامي في ذلك اليوم قامت مظاهرات في مدينة قم في إيران قتل فيها 200 شخص وبعد أربعين يوم من ذاك التاريخ قامت مظاهرات في مدن إيران على أثر ذكرى الأربعين وشهداء قم وقتل في تبريز 500 شخص وتصاعدت المظاهرات حتى كان يوم 8–9–1978 في طهران فقتل مايزيد على 4000 شخص وكان ذلك بعد رمضان في ساحة الإجتماع التي سميت بعد ذلك ساحة الشهداء حتى إذا جاء شهر محرم إمتلأت شوارع طهران ومدن آخرى بالجماهير المصممة على الشهادة لأنهم يشهدون للحق لايخافون في أداء الشهادة لومة لائم فخرج الناس وهم يرتدون الأكفان إستعداداً للموت في سبيل الشهادة للحق بالحق فتقدم الناس رجالاً ونساءً في صفوف متراصة نحو فوهات البنادق الرشاشة الموجهة نحوهم فكانت مذبحة ذكر الناس بمذبحة الجمعة السوداء التي حدثت في 8\9\1978م ثم في التاسع والعاشر من شهر محرم تحدوا منع التجول وأعلن المتظاهرون إلغاء الملكية وإقامة الجمهورية الإسلامية وبعد مرور عام على مظاهرات مدينة قم إضطر الشاه أن يغادر البلاد في منتصف الشهر الأول في عام 1979م وإستقبل الخميني في الشهر الثاني من قبل جموع محتشدة يبلغ طولها 33كم. من أول الستينات إلى آخر السبعينات قتل في إيران خلال عشرين سنة نحو ستين ألف من الشهداء في الحق دون أن يلجؤوا إلى مواجهة العنف بالعنف إن هذه المواجهة السلمية العجيبة التي تذكر بقصة السحرة الذين تحدوا فرعون الذي هددهم بقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف وصلبهم في جزوع النخل حيث إتخذوا قرار الإيمان بالحق دون إذن فرعون (أمنتم له قبل أن آذن لكم ......قالوا لاضير إنا إلى ربنا منقلبون إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا إن كنا أول المؤمنين) إن ما حدث في إيران من آيات الله في الآفاق والأنفس ومن آيات الله في إنتصار اللاعنف على العنف إن هذه المواجهة السلمية من طرف واحد إيران الجمهورية ليس إسماً ليس له مسمى وليس إسماً ما أنزل الله به من سلطان بل إسماً له مسمى وإنه شورى وإنتخابات نزيهة، إضطرت أمريكا إلى الإعتذار من لهذا الشعب الإيراني وبعد عشرين عام من دعمهم للشاه وبعد إعدام مصدق وبعد مرور عشرين عام على نجاح إيران أيقنت أمريكا على أن معنى إرادة الأمة هي التي تحكم هناك فيأست أمريكا من إمكان القضاء على التحولات في إيران كما كانت تفعل من قبل والذي أريد أن أقول أن الجزائر الجريحة دفعت ما يزيد على 100 ألف من الضحايا من الطرفين ولم يلح في الأفق الخروج من المأزق بعد إن رصيد إيران في الخروج من عبادة الإستكبار هو تحدي العنف باللاعنف إن خروج أحد الطرفين من لعبة العنف المتبادل يهيئ لميلاد الشرعية في الحكم ولكن لن يترسخ الحكم الشرعي والشرعية في الحكم إلابتسليم الأطراف جميعاً أن لايلجأوا إلى العنف وإنما إلى إقناع الناس لاإلى إكراههم إن الله يعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف إن القانون الفلكي الأول في الحياة الإنسانية أن البشر يعطون على الإقناع ما لا يعطون على الإكراه ومن لايفهم هذا لايمكن أن يدخل إلى إستثمار الإنسان ياعالم عربي إعتبروا بأحداث العالم إعتبروا باليابان الذي تحرر بدون حرب تحرير لطرد المستعمر المحتل وبدون مواجهة مسلح بأعزل أو أعزل على مسلح صارت قوة عظمى في العالم تحت سمعنا وبصرنا وكل الذين من جيلي يذكرون إستسلام اليابان ثم كيف صارت قوة عظمى ليس بقوة الإكراه وإنما بقوة الفهم والتفاهم وإن في إتحاد أوربا لعبرة ياعرب يمكن إختزال التاريخ أوربا تتحد من غير أن يخسر أحد شيئ ويربح الجميع ونحن يمكن أن نفعل هذا إذا فهمنا أنه ليس من الضروري أن ندفع قرابين بشرية ولاخسائر في الأموال إذا فهم المثقف إمكان ذلك وأنه يحدث في الأرض أمام أعيننا علينا أن لانفرح بالذي سيوحد العرب بالقوة والإكراه والإبتلاع عند ذلك نستطيع أن نبدأ بالحل لأن الحل في تصوراتنا لافي أمريكا ولا فلسطين ألاإن الحل في الدماغ وليس في العضلات.

68. أحبوا أعداءكم

هذه الجملة من الإنجيل من موعظة الجبل التي يقول فيها عيسى عليه السلام لحوارييه " سمعتم أنه قيل للقدماء لا تقتل ... وسمعتم أنه قيل تحب قريبك وتبغض عدوك أما أنا فأقول لكم أحبوا أعداءكم وباركوا لاعينيكم وأحسنوا إلى مبغضيكم ... فإن الله يشرق شمسه على الأشرار والصالحين ويمطر على الأبرار والظالمين لأنه إن أحببتم الذين يحبونكم فأي أجر لكم أليس العشارون أيضاً يفعلون ذلك ... فكونوا أنتم كاملين كما أن الذي في السموات هو كامل ... " كثير من الناس يظنون أن هذه الموعظة غير منطقية ولا يمكن أن يستقيم عليه أمر الناس اليوم ولعله من هنا قالت كل الأقوام لكل الرسل أنهم مجانين كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون وأن الإحسان إلى المسيء يزيده علواً وعتواً وسوءً هكذا يفهم معظم الناس فكيف نفهم هذا كيف نتمكن من أن هذا ليس مناقضا للعقل والمنطق وكيف نرتفع لنعرف أن هذا هو الصواب بل سنضطر أن نتحول إليه هذا الذي قال عنه عيسى عليه السلام الحجر الذي رفضه البناءون صار حجر الزاوية والفكرة التي استهزأ بها الناس صارت الفكرة المقدسة ولكن لا يصل إليها ولا يرتفع إلى مستواها إلا الصابرون على رؤية العواقب.والمسلمون لما يسمعون مثل هذه المواعظ لا يمكنهم أن يتصوروا أن يكون في الإسلام مثل هذه المواعظ ولا يتذكرون قول الله(ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم) ومثل هذا كثير في القرآن ولكن لانفهم القرآن وفق آيات الأفاق والأنفس ولكن وفق ما كان عليه القدماء أليس الله قال في القرآن مستنكراً على القدماء(وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أو يدسه في التراب أل أساء ما يحكمون) إلى الآن نظرتنا إلى الموضوع لم تتحسن مع كثرة ما يقال في هذا الموضوع في هذا العصر في شأن الأنثى حتى أني قرأت من أسابيع في كتاب مترجم عن العنف العائلي في سلسلة العلم للمبتدئين من أنه وجه إلى فتيان وفتيات في المرحلة الابتدائية سو أل كيف يكون شعورك إذا استيقظت في اليوم التالي وأنت من الجنس الأخر معظم الفتيان أجابوا أنهم سيقتلون أنفسهم بينما الفتيات استبشرن من أنهن سيتسير لهن فرص لمراكز ووظائف جديدة. كنت أقرأ مثنوي جلال الدين الرومي فإذا يقول: إذا أردت أن تعرف الفرق بين موسى ومحمد اقرأ قوله تعالى عن دعاء موسى(رب اشرح لي صدري) وقول الله لمحمد(ألم نشرح لك صدرك) الموضوع ليس مفاخرة ولاكن تطور البشرية فمن هنا كان يقول الرسول(ص) رحم الله أخي موسى فإنه أوذي أكثر من هذا فصبر وهو (ص) لما جاء أصحابه يشكون إليه ما يلقونه من آذى قريش قال لهم إن من كان قبلكم من كشط لحمه عن عظمه بأمشاط من حديد ولم يكن ذلك يرده عن دينه إن وسائل التعذيب قد تتطور ولكن أخبار التعذيب والقتل صار مقززاً أكثر في هذا العصر والبشرية في سعي حثيث لتحويل ذلك إلى منكر لا يصبر عليه الذين يسمعون من دون أن يبذلوا جهوداً لرفع العنت عن الناس لما قال جلال الدين الرومي في المقارنة ما قال خطر لي أيضاً قول عيسى في الإنجيل للحواريين أحبوا أعدائكم وقول الله في القرآن عن أصحاب الرسول محمد موجهاً الخطاب إليهم (ها أنتم أولا تحبونهم ولا يحبونكم) فإذا كان يطلب عيسى من أصحابه أن يتحولوا إلى حب أعدائهم فإن الله يقول لأصحاب محمد هاأنتم أولا تحبونهم ولا يحبونكم) إن نسبة هذا الكلام للأنبياء يخرج عند إتباع الأنبياء هذا الكلام مخرج مدح الأنبياء والرفع من شأنهم لا على أنه مطلوب من أتباع الأنبياء أن يحققوا ذلك في حياتهم ولكن علينا أن ننظر إلى الموضوع على غير ذلك الأنبياء جاءوا ليحولوا الناس بالعلم والفهم لا بالخوارق والمغالطات ونحن يمكن ما فهمه الأقدمون على أنه خوارق نفهمه نحن على أساس سنن قوانين وعلم وعلينا أيضاً أن نفهم الحب لا على أنه أمر إلهي خارق يأتي بدون أن يكون لنا دخل ويذهب دون أن يكون لنا سيطرة، الحب هو المصلحة وتبادل الخدمات ولا يوجد حبني مجانا ولاحبني غصب حيث مصلحتك يميل قلبك ويتولد الحب وأعظم الحب بين الزوجين حيث المصالح المتبادلة حين يكون بالعدل والإحسان يكون أعظم الحب والحب الدائم المستمر ومن يوم أن بدأ الاختصاص في الأعمال بدأ الناس يتبادلون المصالح حين يتبادلون منتجاتهم الاختصاصية يربح الطرفان هذا قانون الله لهذا في الزمان الغابر يتبادلون السلع. والبشر ابتكروا النقود المعدنية والورقية لتسهيل التبادل فإذا حيل بين الظلم في تبادل السلع فإن الجميع يربحون كذلك كل العلاقات البشرية فإذا فهمنا هذه القاعدة التي هي متولد من (من سخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه) وإن معنى سخر خدمة مجاناً حين يتبادل السلع ينتج خدمة مجاناً كلاهما يربحان ولكن حين يدخل الخداع والغش يدخل الفساد في العلاقات بين الناس وهذا يرجع

إلى الناس لانهم هم الذين يمكنهم ان يزيلوا الظلم ويحكموا بالعدل وبالإحسان ونحن نفرق بين المريض والمرض فنحب المريض ونكره المرض ونبذل كل الرفق ونزيد في حبنا للمريض وحو يستأهل ذلك ونكره مرضه ونبذل كل ما يمكننا لإزالة مرضه فهذا ممكن ومعقول وليس صعباً فهمه عند الإنسان ولكن الذي يشيه هذا ويصعب فهمه هو كراهية الإنسان المريض فكرياً وليس جسدياً هذا صعب بدرجات ولكن ليس مستحيلاً فهمه كذلك ينبغي أن نحب المريض فكرياً ونكره افكاره وينبغي أن نبذل كل الجهد لإزالة مرضه الفكري علينا أن نتمكن من فهم هذا حتى نتمكن من فهم الإنبياء لأنهم هم الذين تمكنوا من رؤية الإنسان إنساناً ورؤية المرض مرضاً ولم يختلط عليهم الإنسان بالمرض فيكرهو الإنسان أيها القارئ العزيز الكريم أبذل معي جهداً لفهم هذا ورؤية إمكانية ذلك حتى نخرج من الذين يكرهون الإنسان المريض إن الجهل هو المرض الفكري والعلم هو الصحة الفكرية إذاً علينا أن نطلب العلم في الصحة الجسدية ونطلب العلم في الصحة الفكرية عند ذلك ندخل عالماً مختلفاً كلياً عالم القلب السليم عالم النفوس التي لا تحمل ضغينة ولا حقداً ولا كراهيةً ولا حملاً للناس على ما يكرهون علينا أن نسارع في الدخول إلى هذا العالم الجديد الذي بشر به الأنبياء وبدا الآن صار يمكن فهمه علمياً وفق آياة الآفاق والنفس علينا أن نتحدث في هذا كثيراً وأن نزيد من معارفنا ونزيل من أفكارنا الخاطئة الناس في حاجة للحب والحنان والرفق كل الناس والخطوة الأولى إلى ذلك التعاون مع كل الناس على البر والتقوى وأن لاتتعاون على الخطأ هذه مرحلة مهمة وطريق إلى الاخوة العالمية للسلام والعدل والإحسان الكون والناس ينتظرون أبدا قبلهم وكن السابق أليس في رئيس فنزويلا عبرى لكم يا عرب يا مسلمون يل مستضعفون في العالم "رب إشرح لي صدري وأحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي"

69. وعلمتني من تأويل الأحاديث

نتمنى أن نتعلم تأويل الأحداث التي أمامنا والتأويل هو فهم الحدث أي ربط الحدث بسببه الحقيقى لأن الحدث الآن نتيجة لما قبلها وسبب لما بعدها هذا هو التأويل الذي يسعني التفسير ولكن التأويل بمعنى ما ستؤول إليه الأمور أي بفهم العاقبة والمصير بفهم السنة لأن فهم السنة يخرج من الجهل إلى العلم ومن الظن إلى اليقين والسنة ثابتة لا تتغير سنن الله ولا تتبدل (ولن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلاً) ويقصد الله سنة التاريخ وسنة المجتمعات البشرية لما يقول: (سنة الله في الذين خلوا من قبله) يريد أن يفهم الناس سنن المجتمعات وقوانينها والإنسان خلقه الله وصنعه على قدرة معينة أن يتأمل الأسباب والنتائج وإنه يتمكن من تسخير السنن للمادة والحياة وقدرة الإنسان على التسخير بالعلم ولأن الإنسان عنده هذه القدرة صار الكون كله مسخراً للإنسان إن لم يتسخر له الكون فلا يلومن إلا نفسه الكون مسخر والكهرباء مسخرة طاقة قابلة للتسخير والتوجيه إلى خدمة الإنسان وكذلك الإنسان هو أعظم الطاقات التي خلقها الله حيث طاقات الكون كلها مسخرة له ونحن نرى بأعيننا في هذا العصر كيف أن باب التسخير انفتح بشكل لم يسبق له مثيل فيما سبق من التاريخ وليس انفتح الباب فقط بل تدفق إمكان التسخير ونحن نرى هذه الأمور ولكن لا نحسن تأويلها ولا نعرف مصيرها والأمر ملتبس وضبابي ولا بد من الوصول إلى وضوح بحيث لا يستطيع أحد أن يضحك علينا ويشككنا ويصرفنا عن الصواب إلى الضلال وتأويل الحركة الإجتماعية وأن يكون مثلاً المجتمع أقل من 20% منه يملكون أكثر من 80% من دخل العالم, و20%الأدنى دخلاً لا ينالهم إلا 1% إن الذين يقودون العالم ويهيمنون عليه كان عاقبة سعيهم هذا العالم الذي جزء صغير منه مترف ومستكبر (وهؤلاء هم الذين كذبوا الإنبياء في كل العصور وفي عصرنا هذا) ومواجهة هذا الوضع لا يكون بالحرب وإنما بالعلم ليس المهم أن نطردهم من بلدنا لقد طردناهم بالحرب من الجزائر وطردنا الأمم المتحدة والولايات المتحدة من الصومال وطردوا من حصار بيروت هناك حقيقة كبيرة الشعوب تستطيع أن تحرر نفسها من الاستعمار بالقوة المادية ويمكنهم أن يكتشفوا الوسائل المتاحة على ذلك وقد طردوا من الشعوب ولم تكن لهم حكومات وجيوش وأسلحة متطورة ولكن هؤلاء

الشعوب لم تكن لديها العلم في كيفية صنع مجتمع لا أرباب فيه أي ليس فيه مستكبرون ومترفون.

المشكلة أن العالم جميعاً علىمذهب واحد على مجتمع واحد مجتمع الاستكبار والاستضعاف فهذا مجتمع واحد إن كان بعضه مستكبراً وبعضه مستضعفاَ ً لأن المستكبر يخاف أن يصير مستضعفاً والمستضعف يتمنى أن يصير مستكبراً فهما نموذج واحد لا يتغير شيء يتبادل المواقف ولهذا لما أقول كثيراً جداً وسأظل أقول ليس هناك من ينتقد حق الفيتو بإيمان وجدية في العالم ليتخلص العالم منه وليس عند الشعوب وعي واضح في إمكان صنع مجتمع ليس فيه حق الفيتو لهذا لا يوجد من ينكر حق الفيتو كما لا يوجد بالأولى من يتنازل عن حق الفيتو وإن كان ملك هذا الحق لم يعد له قيمة كما هو الحال في فرنسا وبريطانيا وقد لحقت بهم روسيا أيضاً كما الصين أيضاً ولكن يفكر الناس في أن يصير لبعض المستضعفين أو يتمنى أن يصير له أيضاً حق الفيتو ومن هنا لما أقول إن ما جاء به الأنبياء لم ينزل بعد إلى الأرض كفكرة واضحة واعية شفافة إنهم لا يستطيعون فهم (تعالوا إل نكلمة سواء...أن لا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً) ولا يفهمون (ما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكن عنه) ولا يفهمون أيضاً (أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم...أفلا تعقلون) ولا يفهمون أيضاً (لم تقولون ما لا تفعلون كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون) بل ويظن البعض أن الأنبياء قالوا ما لم يفعلوا لأنهم ليس عندهم سلطة وقوة –حسب الذين لم يفهموا ولم يتذوقوا دعوة النبوات– كانوا سلميين ولما صار لهم قوة تحولوا إلى جبابرة هكذا كتّاب كبار يقيمون الموضوع وهكذا فهم أتباعهم أيضاً الموضوع حيث تحول أتباع الأنبياء في وقت مبكر جداً إلى مستكبرين وضاع الرشد منهم ولم يعرفوا كيف يمكن إعادة الرشد بالرشد وليس بالغي وظنوا أنه يمكن إعادة الرشد بالغي فمن هنا ضاع الرشد وظن من ظن أن وضع الرسول وصنعه للرشد بدون أن يلجأ إلى الغي والبطش كان هذا معجزة وإكراماً للنبي ولم يفهموه أنه سنة إن لم يكن البشر قدرين على كشف سنة الأنبياء ويتبعوا سبيلهم فإن الأنبياء لا يكونون قدوة. وما جاء به الأنبياء إن كان لم يكشفه الناس بعد فإن التاريخ وما ينتج عن مجتمع الاستكبار والاستضعاف من فساد وعذاب ودمار سيرغم الناس على اكتشاف ما جاء به الأنبياء من مجتمع السواء الذين تتكافؤ دماؤهم فمجتمع الأنبياء يعيش فيه كل الذين يقبلون العدل والسلم ويتركون القتل والتهجير للاختلاف في الفهم مجتمع الأنبياء لا يحاسب الناس على فهمهم ولكن يحاسبون الناس على القتل والتهجير لمخالفيهم فسيكشف البشر في المستقبل ما جاء به الأنبياء رغماً عنهم بعد أن يذوقوا العذاب الأليم وسوف يدركون معنى قوله تعالى (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون) وأول ظاهرة في التاريخ البشري ظاهرة الإتحاد الأوربي فإنهم يتحدثون على كلمة السواء وليس على أساس الاستكبار والاستضعاف وإنما على إساس السوء على الأقل فيما بينهم فهذا تقدم في التاريخ أي في آيات الأنفس ظاهرة جديدة قد لا نستطيع فهم ذلك وقد يحملنا بغضنا لهم وعلاقاتنا القديمة والتنافس الكبير بيننا وبينهم أن نبخس قيمة ما يعملون ونحقر ما يعملون ولكنني أتمنى من كل أعماق قلبي أن يتمكن العرب والمسلمون أن يعملوا مثل ما يعمل الناس في أوربا من اتحاد دون إكراه وعلى كلمة السواء على الأقل لا تذهب أموالنا ومصالحنا سدىً كثير من المسلمين لا قدرة لهم على تأويل الوحدة الأوربية كأن اتحادهم يعيبونه ويقولون أنهم يتحدون على المصالح فهل عيب الاتحاد على المصالح يا ليت العرب والمسلمون يتحدون على مصالحهم وعلى كلمة السواء فيخرجون من الذلة والصغار الذي يعيشون فيه.

إن الذي أريد أن يتمكن منه العربي والمسلم أن يتمكن من تأويل الأحداث ويفهم ما فيها من سنن ومن اعتبار ويكشفوا هذه السنن ويستعينوا بها على حل مشكلاتهم ونزاعاتهم وتدابرهم وتخاصمهم، أتمنى أن نتمكن من فهم هذه السنن بشكل واضح مبين بحيث نتمكن من إيصال فهم وتأويل الأحداث الكثيرة التي تحدث أمامنا وتحت أسماعنا وأبصارنا ليس حديثاً يفترى ولا شيئاً حدث في القرون الغابرة وإنما أمام أعيننا إن الله لما يقص في سور القرآن أخبار القرون الماضية وخاصة في سورة الشعراء كيف يذكر مآل الأمم التي كذّبت الأنبياء وكذّبت المساواة بين الناس والعدل بين الناس لأن وظيفة الأنبياء والرسل والآمرين بالقسط من الناس هو شيء واحد يقول الله: (ولقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط) أي مهمة الأنبياء العدل وهو القسط أن يقوم الناس بالقسط إن الله يقول في نهاية كل قصة في سورة الشعراء (إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم) وإني لأقول إن في اليابان آية في أنهم صاروا قوة من نوع فريد إنهم في مقدمة العالم الصناعي وإن في الاتحاد السوفييتي لعبرة أنهم كانوا يقولون من أشد منا قوة فأتى بنياهم من القواعد فخروا وتمزق اتحادهم لأنه كان على أساس الاستكبار وإن في الاتحاد الأوربي لآية في أنهم

يتحدون على كلمة سواء من غير أن يخسر أحد منهم شيئاً ويربح الجميع وليسوا في حاجة إلى أن يفتحوا جيرانهم بالعسكر والحرب بل يقولون ضمّونا إليكم وإن في العالم الإسلامي لآية في عجزهم عن فهم وتأويل ما يحدث في العالم وحتى أننا لا قدرة لنا على تأويل ما حدث في إيران كيف دخلوا إلى عالم الديمقراطية قبل كل المسلمين (وكأين من آية في السماوات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضين)
اللهم علمنا تأويل الأحداث وعلمنا كيف نعلم الناس تأويل الأحداث.

---

70. المظاهرات الغاضبة

ينبغي أن لا تشككني الانفعالات الهائجة عن قوانين الله في سنن المجتمعات حتى تحول بيني وبين رؤية سنن التسخير في آيات الأفاق والأنفس في سنة 1956م لما أممت قناة السويس عند الإعداد للعدوان الثلاثي كانت الإنفعالات في أوجها في العالم العربي وربما كنت في موقف متأمل بارد لمراقبة الأحداث وقد لاحظ أحد أصدقائي رحمه الله أنني غير متفاعل مع الأحداث الكبار التي تتعرض لها الأمة العربية فقلت له: إن هذه الأحداث من كثرة ما مررنا بمثلها لم تعد تشغلني عن تأمل المشكلات بشكل آخر حتى قلت له إن شخصاً يبحث في مكان ناء يكشف ما جاء به الإسلام والأنبياء من قبل وفق آيات الآفاق والأنفس يقوم بمهمة أكبر من أن ينشغل بالأحداث المأساوية التي نكررها ويكررها العالم أجمع لقد قال أحد المراقبين لسيرة الرسول: من أن شخصين خرجا في الليل في مكان ناء من هذا العالم (ربما من مكان يملئه الغبار كما يصفه الكاتب البريطاني بريان بيدهام المنشور في الإكونوميست 1994/8/6م) قال المراقب لسيرة الرسول من أن هذين الشخصين الذين خرجا في تلك الليلة قلبا نظام العالم من ذاك التاريخ إلى يومنا هذا وكان يعني هجرة الرسول من مكة إلى المدينة مع أبي بكر وكان عالم النفس السلوكي الروسي بافلوف يقوم في مخبره بمراقبة إمكان إستبدال المثير الطبيعي بمثير صناعي عند الحيوانات وأثناء الحرب تأخر أحد مساعديه في وصوله إلى المخبر فسأله عن سبب تأخره فقال له الذي تأخر في الوصول إنني كنت أسمع خبراً مهماً عن جبهة القتال فقال له بافلوف هل هناك ما هو أهم مما نعمل فيه: كأنه يقول نحن نبحث عن عوامل سلوك الإنسان وكشف قوانينه لأننا إن كشفنا ذلك فبإمكاننا أن نجعل سلوك الإنسان خاضعاً للعلم ويمكن أن نقضي على سلوك الحرب عند البشر.
ولما كان باستور الفرنسي يبحث في مخبره عن كشف قانون التخمر وكيفية عمل وإنتقال الكائنات الدقيقة كان الناس يموتون بداء الكلب والجدري ولم يخرج في مظاهرة غاضبة ويترك مخبره ولكن العالم جميعاًً تعافى من الموت من داء الكلب وقضي على جرثومة الجدري في العالم كله إلا في المخابر المحمية جيداً بجهود باستور والآن لما قامت إنتفاضة القدس هب العالم العربي ومن وراءه العالم الإسلامي ومن ورائهم وإن كانوا لايشعرون وإن كانوا يتعاطفون، مستضعفوا الأرض جميعاً وإن هذه الإنتفاضة لها ميزاتها من نقل الأحداث بالصوت والصورة إلى جميع أنحاء العالم الذين يهمهم هذا الموضوع فخرجت المظاهرات الغاضبة المطالبين بالجهاد والسلاح ... إلخ وربما هناك أصوات تقول: إن لم توقف هذه الإنتفاضة هناك خشية كبيرة في تعاظمها وأن لايقتصر في غزة والضفة الغربية فربما تحدث إنتفاضة لايمكن التكهن بعواقبها إن المظاهرات الغاضبة المظاهرات التي تلجأ إلى الكسر والحرق والقتل لن يغييروا الواقع لأنها شبيه بإنقلابات الليل وإن كان حدث في النهار إعتمادهم على القوة وإزالة الآخر بدون إزالة تصورهم للمشكلة الإجتماعية الإنسانية فإن الذي يأتي بالإنقلاب يعتمد على قوة التغيير بالكسر والحرق والقتل يكون على ملة الأقوام المعارضين للأنبياء وهم خلال التاريخ يتبادلون السلطة ولايتغير شيأ لأن الأمر مبني على الإعتماد على عضلات الإنسان وليس على عقله في فهم سنن الكون فيظن أن

أفضل إستخدام للإنسان بتخويفه وإكراهه وليس بإقناعه بالسنن التي تسخر المادة والإنسان بدون تدميره وقتله وبدون تلويث البر والبحر وبدون تعريض الكائنات الحية للموت والفناء وبدون تعريض الإنسان للمسخ بإخضاعه للوهم والسحر والتخيل بأن الحبال والعصي أنها تسعى إن التخيل بأن سبب الفساد كله هم زعماء العرب وهم الذين يحولون دون توجيه طاقة الشعوب إلى الأعداء وأنه بإزالتهم تزول المشكلات العربية من الوجود رحم الله مالك بن نبي الذي قال إن الكفاح ضد الأجنبي المستعمر يمكن أن يساهم فيه كل الأفراد والأدوات حتى القش ولكن بناء الأمة لايمكن أن يكون من القش والغضب والكراهية لايمكن أن يكون بالإنتفاضات الغاضبة والإغتيالات وإنما بالفهم العميق للمشكلة ألامن كان له أذنان للسمع فليسمع إن الإنتصار بالحرب والسلاح وبالإكراه والإذلال ليس إنتصاراً وإنما تبادل للمواقع المبنية على نموذج واحد من الإيمان والتصور لنظام العالم المادي والإنساني إن الذين لايستطيعون أن يفهموا الواقع العالمي وحق الفيتو للقوي إن هؤلاء لم يدخلوا العالم الإنساني الذي ينظر إلى الإنسان على أساس الإستعداد جهازه العصبي المعجز وإنما على أساس ما يملك من أموال وقوة (جند وعتاد) لقد نسينا"وما أموالكم ولاأولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى" وإنما آمنا بالذي قال لصاحبه وهو يحاوره:"أنا أكثر منك مالاً وأعز نفرا" إن بلالاً وسمية وعمارً كانوا متظاهرين ولكن لم يكسروا ولم يحرقوا شيئاً ولم يغتالوا رجلاً ولا إمرأة وإنما كانوا يتظاهرون وهم يحملون فكرة للعالم يقولون إننا نحمل فكرة أتى بها إبن عبد الله فكرة إن فهمناها وقبلناها نملك بها العرب وتدين لنا بها العجم فكرة,كلمة,ليس سيفاً ولاقوساً إن المظاهرة الفكرية ليس فيها بطش باليد ولابالحديد وإنما فيها فكرة تصدع قلب الإنسان فمتى سنتعلم إمكان القيام بمظاهرة لاصياح فيها ولاتنويح بقبضة الأيدي لاكسر ولاحرق ولابسط لليد بالبطش ولااللسان بالإيذاء هنا أشعر أننا ضعنا عن معنى الكلمة وشردت الكلمة عن معناها عندنا إن الفكرة الجديدة إن فكرة السواء فكرة الله أكبر فكرة أن لا يكون السيف فوق القانون واليد فوق العقل والإيمان بقوة الأيمان تسرب من بين جوانحنا إن سيد الشهداء ليس سيد المعركة وإنما شهيد الفكرة إن قريش كانت تنكر أن بلال مثل سادة قريش إن هذا الإزدراء للإنسان من جنسه ومذهبه إن رفض هذا الإزدراء للإنسان خارجاً عما يحمل من فكر عن الإنسان تصور له هو ماأنكر على نوح في قديم الزمان (فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر) إن فكرة التوحيد ليست مشكلة سماوية الهية وإنما مشكلة أرضية إجتماعية مشكلة البشر أن يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً تعالوا إلى كلمة سواء... إن لايتخذ بعضنا بعضاً أرباباً أن لايطاع غير الله في معصية الله (ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه إني لكم نذير مبين أن لاتعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم فقال الملأ الذين كفروا من قومه مانراك إلا بشراً مثلنا وما نراك إتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي ...قال ياقوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وإنتم لها كارهون).إن الأنبياء جاؤوا بالرحمة نوح يقول لقومه:"أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده فعميت عليكم " ويقول الله لمحمد "وماأرسلناك إلا رحمة للعالمين" للمؤمنين والكافرين الذين عميت عليهم الرحمة إننا عميت علينا الرحمة نحن فلانستطيع أن نظهر إيماننا على أساس الرحمة بل بالكسر والإحراق والبطش متى سنفهم ونتمكن من ضبط الناس بحيث لايكسرون ولايحرقون ولا يقتلون وانما يقبلون التحدي مثل بلال وسمية وأبو ذر الذين قال الله عنهم وعن أمثالهم " وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد " " هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله " فإذا كسرنا وحرقنا وقتلنا لانكون أوذينا لأجل ايماننا فمتى يتمكن العالم أو المثقف من ضبط الناس الغاضبين الذين ضاع صوابهم من الغل والكراهية ولايرون حلاً إلا البطش والكسر والإحراق، فمتى سنخرج بمظاهرات سلمية لانبطش فيها بل نمسك بالذي يريد أن يبطش ونأخذ على يده فهذا هو انكار المنكر باليد إن لم نتمكن من تعليمهم وإقناعهم أن لا يلجؤا إلى البطش أولم يتذكروا حين تذكرهم أن لا يلجؤا إلى البطش نحن نريد هذا النموذج من المثقف الذي يضبط الناس ويقودهم بحيث يدربهم على قبول الموت ببرودة أعصاب المشكلة ليس الاستعمار ولا أدواته المشكلة فينا نحن لما نحل المشكلة التي بيننا ستحل المشكلات كلها وليس الانتصار على الاستعمار إن الجزائر انتصرت على الاستعمار ولكن لم تنتصر على نفسها في قبول كلمة السواء والصبر على كلمة السواء بدون قتل ولكن ايران نفذت المواجهات بدون كسر ولاحرق ولبسوا الأكفان وتقدموا إلى فوهات البنادق الرشاشة لهذا استطاعوا أن يستقبلوا مولود الديمقراطية وشموا رائحة الرشد أمنيتنا أن يثبتوا وأن نتعلم ما فعلوا.

71. 89 هارون الرشيد

هارون الرشيد وقصة ألف ليلة وليلة ما يزال يتحكم فينا بدون رشد، هارون الرشيد وبلد الرشيد وبغدادالرشيد تغلغل في أعماقنا متلبسا بكل الأ بهة الأسطورية، إنه لم يعد اسما عَلَمَاً لشخص وإنما اسطورة عصر وحُكم يخاطب السحاب غير مبالٍ أنى ينزل المطر فإن الخراج سيأتي إليه. ويتحدى فرعون ويعطي ملك مصر الذي كان يفخر به فرعون لبعض عبيده، ملكه ما بين الصين وبحر الظلمات إنه لم يعدملكا ولاخليفة وإنما اختلط بالخيال والترف والتنسك بدون وعي، تراث شعبي تجسد في قصص ألف ليلة وليلة ، القصور الخدم الحشم الجواري المغنيات وما شئت من خيالات من الحج سنة والغزو سنة أخرى. ما شأن هذا كله وارتباطه بمؤتمرات القمم العربية والإسلامية، وما العلاقة بين هذه الأحداث الخالية والمآسي الحالية ، وبما أن قصة هارون الرشيد تحول إلى خيال شعبي في قصة ألف ليلة وليلة فقد صار هارون الرشيد في خيال وأعماق كل عربي ومسلم وعنوان المجد التليد الغابر والحنين الدائم، كنا ونحن أطفال نتغنى ببغداد يابلد الرشيد ومنارة المجد التليد. مدينة السلام، إن هارون الرشيد الخيال يقبع في قلب كل مسلم سواء شعر بذلك أم لم يشعر وسواء سمع باسمه أولم يسمع، ولكن هذه البذرة والجينة حاملة الوراثة الثقافية في تخيل العز والمجد، والوفاء والغدر وكل الأحلام، ولما بلغ يحيى البرمكي خبر إعدام جعفر بن يحيى بأمر هارون ، وقع القلم من يده وقال: هكذا تقوم الساعة. إن بغداد ودمشق تحملان خيالات المجد والغنى والسلطة والسعة والبسط.. لأن هذين البلدين كانا عاصمة العصر الذهبي في خيال المسلمين – وإن كان هذا العصر الذهبي عصرا قد فقد الرشد وإن كانوا يتمسحون به ويتسمون بالرشيد – حيث بدأ الانكسار للذمم وضياع الوفاء بالعهود من بعد معركة صفين إن كل هذا المجد المتخيل الذي طال خلال أجيال طويلة كان نتيجة جيل واحد من الذين استناروا بالرشد والأمانة وبقي عهد الرشد مقصورا عليهم حيث لم يضيع المسلمون معنى الرشد وإن فقدوا إلى يومنا هذا سبيل إعادة الرشد إن هذا الذي يقال عنه العصر الذهبي كان فاقد الرشد وعلى سنة هرقل ولم يكن على سنة الرشد . وأنا لما أقول إن سنة هرقل تتحكم فينا من خلال أبهة هارون الرشيد فإن كل حاكم في العالم العربي والإسلامي يحمل أمنية أن يكون مثل هارون الرشيد يخاطب السحاب ويوحد الأمة فإن وحدة الأمة أمل عميق ولكن وحدة الأمة لايمكن أن يتحقق على اليوم على سنة هارن الرشيد، ولابابل هاروت وماروت، إنني أفهم هذه الأمور المختلطة الخفية والجلية الواضحة

، ومن شدة الوضوح الخفاء، إن كل بلدٍ عربي يخاطب زعيمه بأنه زعيم العرب وقائد الأمة ومعقد آمالها وخاصة إن المثقف هو الذي يبتدع هذه الألقاب في كل بلد للأمير أو الملك أو الرئيس أو ... كان هذا مفهوما في ذلك الوقت السالف حيث لم يكن الحضور السمعي والبصري يصل إلى كل مكان

أما الآ ن والناس يسمعون ويرون لايستطيع الناس أن يفسروا هذا الفخر والعجز لابد من تحليل الأمور وتسمية الأفكار الخفية غير المنطوقة ولكن الأحداث والمواقف برزت إلى السطح وإلى العلن فوزير خارجية قطر أثناء حواره لم يبال أن يوضح أن معاهدتهم مع أمريكا سببه أنه من الممكن إذا تغيرت الظروف أن يحدث لهم مثل ماحدث للكويت لقد طفح الكيل ليس من أحد يمكن أن يستثني نفسه إن من يشرب المسكر يسكر ماتدري ماذا يحدث حين تتمكن بالقوة من إزالة هذا الذل والعاروالتمزق العربي العربي والإسلامي الإسلامي بكل الصراحة يعلن وزير خارجية قطر أنه يخاف من إخوانه العرب والمسلمين وان أمريكا هي التي يمكنها ان تحميهم وهذه الحقيقة الجلية الخفية التي لم يكن يمكن التفوه بها

طف وبرز إلى السطح ، إن وزير خارجية قطر عرف هذا وأعلنها على الملأ وكل العرب يعرفون هذا وإلا لماذا حدثت حرب الخليج الثانية، إن الفهم يتقدم ببطء ولكنه يتقدم إننا نعيش عصر هارون الرشيد ولكن تلك أمة قد خلت علينا أن نخرج من الأحلام ونفهم الأوضاع، إن أمريكا تفهمنا، كتب رئيس أمريكي في مذكراته : لما ضربنا بيت القذافي أعلن بعض العرب استنكارهم ولكن فيما بينهم يقولون إن القذافي يستحق هذا، إن كل هذا الاختلاط سببه أننا لانعيش هذا العصر، وأن هذه المشكلة الكبيرة هي التي تجعلنا نتصرف تصرف ما قبل الرشد وبعد الرشد، واننا نعيش مفاهيم غير راشدة وأننا

إذا تمكننا بالقوة – بناء على عصرسابق – لاقيمة لشيئ ولايقف أمامنا أحد إنه يمكن أن نزيل آباءنا ونستعدي على أبنائنا ونقتل أصهارنا إن أيدينا لا تستقبح أي دم ولايحول بيننا وبين مانريد لا الله ولاالبشر ولاإلّ

ولا ذمة ، أنا قوي أنا ربكم الأعلى لايوجد إلا البتر، فكرت في هذا الموضوع طويلا وكثيرا وفكرت في التاريخ وفكرت في القرآن فوجدت في أول سورة نزلت الحل للمشكلة " إ ن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى " فتبين لي أن الإنسان ما دام الذين حوله يطيعونه ويرونه سيد الأقدار إنه سيتحوا إلى فرعون إلى طاغوت هذا الذي جعل فرعون " فحشر فنادى فقال أنا ربكم الأعلى " وقال: " ماعلمت لكم من إله غيري " وقال: " لئن اتخذت إلها غيري لأجعلنك من المسجونين " وقال للذين آمنوا بموسى:

" آمنتم له قبل أن آذن لكم000 لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم في جذوع النخل ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى " إن الإنسان ليطغى بسرعة مادام الناس يطيعونه، وحينما ألح كثيرا على ماجاء به الأنبياء وأنه لم يتفهمه الناس إلى يومنا هذا، فإني أجد الخلاص من ربوبية وألوهية البشر أن نخرج من طاعتهم ربما لايكون هذا واضحا ولكن يمكن توضيحه مهما كان ملتبسا وهو أن نتعاون معه على البر والتقوى وأن لانتعاون معه على الإثم والعدوان فهذا معنى قوله تعالى لموسى وأخيه: " وقولا له قولا لينا " هذا هو القول اللين والهين ، وهذا هو معنى قول موسى لفرعون: " هل لك إلى أن تزكى وأهديك إلى ربك فتخشى " إن التزكي وإن الهداية وإن الخشية في قوله تعالى : وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان " إن المثل الشعبي الشائع الذي يقول: قيل لفرعون ما الذي فرعنك، قال: إنه لم يردني أحد . وربما يمكن فهم وشرح كلمة يردني ، بالتعاون على البر والتقوى وعدم التعاون على الإثم والعدوان، إن هذا الموقف هو الموقف اللين الذي فيه التزكية والهداية

والخشية كلمات لينة، ولإمكان تقريب هذا إلى نفس الإنسان العادي الشعبي، وأنه يمكن التغيير بموقف

لين وبقول لين وهين أيضا، ودين الله يسر ونحن الذي نجعله عسيرا ولابد من شرح هذا وتوضيحه، لأنه صار خفيا ، إ ن كلمة الله في التعاون على البر والتقوى وعدم التعاون معه على الأثم والعدوان سيحل المشكلة الانسانية كلها لاالعربية والإسلامية فقط وذلك حين نخرج من أن نكون أداة بيد هذا الذي يريد أن يوحد العرب أوالبشرية بالقوة، فإذا خرجنا أن نكون أداة بيده فإنه لايستطيع أن يفعل شيئا لأن الذين يرفضون أن يتعاونوا على الإثم والعدوان لايمكن أن يكونوا أداة بيد الآثم المعتدي وأنا أومن وأطمع أن أنقل إيماني إلى آخرين أنه إذاوجد هذا النوع من البشر –وهو ماأراداالأنبياء إيجاده – يمكن لهذاالنموذج أن يحولوا الأمة إلى الرشد وإن الأمة الراشدة والبلد الراشد لايوحد الأمة بالقوة والإكراه وإنما بالإقناع والترشيد وإن بلدا واحدا من العرب يبلغون الرشد ويتعاونون على البر والتقوى

لايمكن أن يهجم على جاره وإنما يقول لجاره خذ بلدي فإن بلدا لا يطيع أفراده على المعصية لايمكن أن

يتحول حاكمهم إلى رب يعبد من دون الله، وقد بدأنا نرى في واقع الحياة أمثلة عجيبة في الدعوة إلى

كلمة السواء وأن لايكون هناك أحد فوق القانون إن مثل هذا المجتمع بدأ يتكون في العالم وهم لايحتاجون أن يرسلوا قوات إلى جيرانهم ليضموهم وإنما جارهم يقول خذوني وضموني إليكم أليس هذا الذي تتمناه تركيا ويتمناه المغرب أن يقبلوا في الاتحاد الأوربي على كلمة سواء وأليس، وأليس خوف

ياسرعرفات من إمكان رفض الشعب الفلسطيني له إن تنازل عن القدس هو الذي جعله يرفض ذلك وأنه

استقبله الفلسطينيون وإن من يمثل رغبة شعبه لن يهزم ولن يفشل إن العالم يتغير وإن بلدا عربيا واحدا

يتحول إلى بلد راشد يمثل من يحكمهم بقناعة سيكون سببا لتحول جميع العرب، وإن غدا لناظره قريب ولعل من مأساة فلسطين يتولد تضامن حقيقي بين الشعب وممثليه فتحل مشكلة العرب ونصير نتعجب كيف لم نكن نفهم ذلك إنهم يرونه بعيدا ونراه قريبا .

72. 93 سنة الله وسنة التاريخ

سأظل ألح وأدور حول هذا الموضوع وسأظل أعيد النظر فيه استوضحه أتأكد منه ارسخه وأزداد إيمانا ووضوحاً وأظل استحضره وأخاف أن أغفل عنه بصف الله سنته في القرآن بأنها لا تتغير ولاتتبدل ولا تتحول فكما قوانين الله وسننه في الوجود المادي ثابتة كما في الوجود الحياتي (الكائنات الحية) كذلك سنة الله في الوجود الإنساني هذا الكائن الآخر الذي فيه من روح اللخ إنه صار قريباً من الله والله قريب منه بهذه الروح (وإذا سألك عبادي عني فإني قريب) وهذا القرب من الله الخالق للوجود على أساس السنن الثابتة تظهر بوضوح في قدرة الإنسان على فهم السنن وتسخيرها مجانا وهذا التفويض الإلهي حين يقول له. (سخر لكم مافي السماوات وما في الأرض جميعاً منه إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون) الإنسان دخل عالم التسخير حين تعرف على النار إنها كانت ظاهرة طبيعية فرآها وتأملها الإنسان وعرف سننها وسخرها وأمسك بها إنها كانت ظاهرة طبيعية مثل الرعد والبرق فأمسك بها الإنسان العتبتة الأولى للروح التي نفخها الله فيه بالنظر يفهم الإنسان سنن الظواهر الطبيعية ويفهم كيف يتعامل معها كيف يتفادى شرورها وكيف يستفيد من منافعها وتاريخ الإنسان في التعامل مع الكون وبطور هذا التعامل واضح ولكن ليس بالقدر الكافي لابد من توضيحه وإعادة النظر فيه لهذا لما فكر المسلمون في أول الواجبات على الإنسانٍ إنهم قالوا إن أول الواجبات هو النظر الرؤية إن النظر والرؤية ليس مجرد صورة بل ينطوي على التفكير والفهم لهذا تحول النظر إلى الفكر والتفكر في ما ينطوي عليه الوجود من سنن وقوانين فتحول النظر والرؤية إلى االتفكر والتدبر والتعنقل والقرآن أعتبر النظر الذي ليس وراءه تفكر وتدبر ليس نظراً ولا رؤية (لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور) فمن هنا كان مدح التفكر والتدبر والتعقل والحث عليه وعدم الوقوف عند الظواهر لأن هذا الكون خلق من أجل الإنسان خلق مسخراًَ للإنسان ذي النجدين الخير والشر والخطأ والصواب النافع والضار الفجور والتقوى القابلية للتحول وقد جقل الله في الإنسان قدرة كشف الضار والنافع الخير والشر بالعواقب الضارة والنافعة فمن هنا إمتحان قدرة الإنسان على الإختيار الصحيح وفي كل مرة يرتقي الإنسان إلى توسيع قدراته في تحقيق المصالح النافعة العامة وتجنب المضار ويزداد الإنسان رشاداًَ ورشداًَ وترشيداً وإن في سورة الجن آية تقول (سمعنا قرآنا عجباًَ يهدي إلى الرشد) هذا الأنسان الخلق الآخر الذي يسعى إليه بجهد لا يتوقف كيف سيخرج الإنسان من نفسه الإمكانات اللانهائية غير القابلة للإحصاء والعد (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها) إن الإنسان مشروع في سنة الكون مشروع كوني بمعنى مشروع معنى الوجود من الجلال والجمال إنه إرادة معنى الخلق الظاهر والباطن المحتجب الطاهر والباطن ذي الجلال والإكرام إن هذا الكون لا معنى له بدون فهم مغزاه إن هذا الكون كله يسبح بحمد مبدعه بديع السماوات والأرض إن الإنسان يتعرف على جوانب الكون ويتعرف على جوانب من مبدع الكون فهذه القدرة في الإنسان هي التي نسعى لتوسيعها في أنفسنا وفي الآخرين ولهذا أمانه في عنق كل إنسان أقتحم العقبات أن يبذل جهده ليأخذ بيد الآخرين إن كشف سنة الله التي تتجلى في التاريخ أمانة في أعناق البشر الآمرين بالقسط من الناس الفلاسفة الباحثين عن مغزى الكون المتصوفة الذين يكدحون إلى ربهم كدحاًَ المؤرخون الذين يريدون أن يكشفوا سنة الله في الإنسان والمجتمعات البشرية إنظروا تأملوا نظام سير البشر أكشفوا القانون إكشفوا سنة الله، توينبي جعل جهده في تأمل الحضارات الحركات الكبرى البشرية وتساءل ما الذي يحمل مجموعة بشرية على التعاون في إبداع حضارة عمران محاولة تسخير جهد الإنسان في إبراز أمكانيات التعاون لهدف هذا الإنسان مودع فيه الشوق إلى درجة الفناء والإنتحار حين يشعر أه فشل في إبراز إمكاناته إن الرسل جاءت وإن الكتب مزلت ليأخذوا بيد الإنسان في مسيرته وكدحه إلى الله إلى من يسبح الرعد بحمده فهذا الكدح الإنساني إلى الله هو روح الله في الإنسان للتقرب من بارئه ولن يهدأ أو يرتاح وسيظل

يكدح لأن روحه لاتشبع من كدحه وكلما إقترب إزداد شوقا وإزداد تصميماً وكلما إقترب صار كدحه أيسر وأسهل لأنه يتعلم من العواقب والنجاحات والإخفاقات وإلى الآن ينشد الرؤية الواصحة وتختلط عليه الأمور ولا يتمكن من التغلب عنلى العقبات من الإغراءات التي تحتاج إلى نظرات عميقة ونافذه تلنيس عليه الأمور فيغتر وتشتبه عليه السبل فيؤخره التردد إنه إمتحان صعب لذكائه في إقتحام العقبات والعقبة الكبرى التي أضلته أنه لم يتأكد بعد من كشف وفهم سنة النفس الإنسانية إنه كشف وتفهم سنة النار وماترتب بعد معاناة من كشف سنة النار إلى أن كشف البخار وسخر بعقله المكتشف بالعلم إلى أن كبر قوة عضلاته وكشف سنة القراءة والكتابة ورفع من قدرة الإنسان في معرفة تاريخه كيف كان وكيف صار وسخر النار والكهرباء ألا أن كشفه لقانون نفسه وقف أمامه محتاراًَ إنه إلى الآن لم يعرف كيف يستخدم الإنسان بأعلى طاقة للإنسان إن الإنسان هو مسخر الطاقات بقي أمام ذاته عاجزاًَ منغلقاًَ محتاراًَ خائفا حاقداً مراوغاً يفتقر إلى اليقين في كشف طبيعة الإنسان أنه يعطي على الإقناع مالا يعطي على الإكراه إن الإكراه المغري الذي يستيقظ في الإنسان حين يعلق عقله في الحوار معه فيفقد صبره فيلجأ إلأى الإكراه في لحظة غيبة عن الوعي فينتج عنه الفساد في الأرض وسفك الدماء إن الإكراه والعنف لا يكون في شيء إلا أساء إليه وأفسده وإن الرفق لايكون في شيء إلا زينه وأحسن إليه وإن السر الأعظم والضلال الأبعد في الإنسان وهو تحويل الإنسان إلى ولي حميم بمقابلة السيئة بالحسنة إن الظلام الموجود في العالم كله من غيبه هذا الإكتشاف لطبيعة الإنسان إنه تخدعنا إن قوانا الفكرية والتأملية تفقد حدتها فتنقلب حسيراً كئيبا عند هذه العقبة إنه ينشغل بالأشياء البعيدة تخدعه الأعداء الأباعد عنن المشكلات القريبة عند الأقارب فنقف عاجزين ملومين محسورين كأننا من عالم آخر نعم إننا لم نختبر أيماننا ولم نجرب عليه التجارب الدقيقة وما دمنا لم نتوضح باقتناع فاضح بأن الإنسان يعطي على الأقناع ما لا يعطى على الإكراه ومادمنا مترددين في هذا والأمر مشتبه علينا فإننا لن ندخل إل سنة تغيير الإنسان ولانكون عرفنا معنى تزكية الإنسان ولا دخلنا عالم التربية ولا فتحنا باب العلم والمعرفة لأننا خنسرنا الراسمال الأولي في العالم كله ألا إنه الإنسان المودع فيه سر الله في العطاء والكرم ومن خسر هذا خسر كل سيء ونحن في العالم العربي الإسلامي لا قدرة لنا عنلى فهم هذا الموضوع وتناوله ولا مجرد إمكان فهمه وإني إعناني من محاولة لفت الأنظار إلى عالم آخر غير الإكراه فأبوء بالفشل والإستنكار والريبة فأنقلب وكأنني المخطئ الجاهل العاجز الذي لا يكاد يبين وأحسنهم طريقة ينظر بأني لا أفهم سنة الله ولا قانون الوجود وأن الأمر مشتبه على إن الإكراه ثمرة الكراهية وأنت تكره الإنسان لا يمكن أن بدخل إليه إن الكراهية عقيدة وتصور لشيئ مكروه مضر لا نفع فيه ولا يمكن تغيره. يا أخي العزيز القارئ إن التغيير ليس عند الآخر التغيير عندي نعنم إنه عندي فهذه السنة والقانون البشري هو الذي نعجز عنن كشفه والتعامل معه وكأنني بالقارئ ينظر إلي مشفقاً علي في عدم فهم الأولويات ونحن مشغولون بالقدس وفلسطين قلب العرب والإنتفاضة والعدو الذي لا يرحم ويقابل الكراهية بكراهية أكبر يقابل (النقيفة) بالصاروخ المدمر يخرجنا من ديارنا ويشردنا فيم تفكر أنت وأين تشرد عن الرشاد عن الجهاد المقدس في القدس الأقداس.

نعم يا أخي نعم معك كل الحق ولكن صرت أفكر في المشكلة من زاوية أخرى ومنطلق آخر هب أننا حررنا الأرض كما تحررت أراض أخرى كثيرة فماذا نفعل بعد ذلك المشكلة عندنا العقبة الكبرى ليس هلاك العدو (عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون) إن روح الكراهية يوالإستكبار هي المشكلة مشكلتنا ومشكلة أمريكا ومشكلة إسرائيل ومشكلة العالم جميعاًَ الكراهية والخوف المتبادل لأننا لم نخرج بعد من ملة الإستكبار والإستضعاف إن هذه الملة لها عقائدها وتصوراتها وتبادل المواقع لايغير من نظام هذه الملة ظهور مستضعف ليستكبر لم يغير شيئاً. هناك ملة أخرى ملة الأنبياء وملة الرحمة ملة السواء لا إستكبار ولا إستضعاف وحين أخرج من ملة الإستضعاف بفهم أصنع مجمتع اللاإكراه بدون إكراه بلد عربي واحد يفهم هذا ويصنع مجتمع اللاإكراه يمكن أن يصل إلى قمة العالم فيصنع عالماً لا إكراه فيه يتنافسون على الإحسان وعلى أيهم أحسن عملاً عالم آخر أحلم به إن ملكوت الله لا يصنعها ملة الإستكبار والإستضعاف وقد أفترينا على الله كذبا إن عدنا في ملتهم.

73. 96 مالك بن نبي والقابلية للإستعمار

مالك بن نبي لما تعرفت على أفكاره في أواسط الخمسينات من القرن الماضي في كتابه شروط النهضة أصابني بصدمة فكرية لما طرح فكرة القابلية للإستعمار وسبب أن هذه الفكرة صدمة لأنها تحمل فكرة القلب والإنعطاف مئة وثمانين درجة في تفسيرالأحداث كنا غارقين في العداء للإستعمار وكراهية الإستعمار ووتحميله لكل المصائب التي نعانيها فجاء هذا الرجل وطرح تصوراً آخر للمشكلات وسماه مصلح (القابلية للإستعمار) حيث كان المصطلح المقابل هو الإستعمار والإحتلال الذي شغل الناس كلهم وأنا لما إطلعت على كتابه شروط النهضة لم أفهم جيداً أبعاد أفكاره ولكن أطلعني على تفسير مخالف لما هو دارج وبما أنني مرتبط بالقرآن فلم أستغرب فكرة الأستاذ مالك وإن كان جديداً على كل الجدة الأسلوب الذي يبحث يه المشكلات فصار معي الأمر كما صار مع جلال الدين الرومي حين التقى بشمس الدين التبريزي كيف قلب هذا الأخير أفكار الرومي فقال الرومي: هذه النار فما قصتها أحرقت ما عندنا وقدتها هكذا تعلقت بأفكار مالك ووجدت منطلقاته الفكرية في غاية العمق والإنسجام مع القرآن وإن كانت المصطلحات مختلفة. والآن حين يعاد تقييم أفكار مالك بن نبي بعد خمسين سنة كنا نتمنى أن يتجاوز العالم العربي والإسلامي أفكار مالك بن نبي ولكن لم يحدث بعد هذا التجاوز وكل ما حصل أن بعض الرجالات المتعمقين بدأو يطرحون فكرة القابلية للإستعمار بأساليب جديدة فمثلاً لما أسمع الدكتور عبد الوهاب المسيري في حوار معه في أحدى الفضائيات وهو المتخصص في مشكلة اليهود والصهيونية لما يقول الدكتور المسيري بكل الثقة وبكل الأدانة لمن لا يتمكن من تفسير الظاهرة الصهيونية منفصلاً عن الظاهرة الأمبريالية الإستعمارية لايكون مدركاً أبعاد المشكلة والذي يجعل المسيري المطلع جيداً وبعمق على هذا الموضوع يؤكد تبعية الصهيونية للإمبريالية الإستعمارية، وإن كان هناك أناسً لا يتمكنون من هذه الرؤية ويظنون أن الصهيونية هي التي تسخر الإستعمار وليس العكس ولكن مما يدعوا إلى التفاؤل أن أمثال الدكتور المسيري بدؤوا يظهرون ويتحدثون بأن المشكلة ليست اليهود ولا الإستعمار المشكلة عندنا والذين يطرحون الموضوع بهذا الشكل أشخاص متمكنون واصواتهم صارت تسمع مهما كانت مستغربة أو لا يدركها عليهم الا أفراد قليلون ولكن مهما يكن فقد بدأ الموضوع يطرح فهذا الذي نراه الآن سواء كانوا يعرفون شخص مالك بن نبي أولا يعرفونه إلا أن الفكرة الانقلابية التي طرحها مالك بن نبي بدأت تبرز إلى الساحة وتتداولها الأقلام وبكل الإعتداد يطرحون الفكرة التي تزداد قوة على مر الزمن وكان مالك بن نبي يتحدث عن الأفكارالمجردة والأفكار المشخصنة وكان مالك يتمنى أن تتجرد الأفكار من أصحابها لأن الأفكار تظل ضعيفة ما دامت متعلقة بالأشخاص كأن الفكرة تستمد قوتها من الشخص لامن الموضوع فكأنها تحتاج إلى سند شخصي ومتكأ لاستمداد القوة ، والآن أنا أشعر أن أفكار مالك مالك بن نبي بدأت تتجرد حتى من شخص مالك بن نبي ومن الدائرة الأولية التي تفهمت أفكار مالك بن نبي لتكتسب قوة الأفكار المجردة التي تحولت إلى قوانين اجتماعية وسنن تاريخية، سنة الله في الذ ين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا ، ومالك بن نبي كان يربالإنسان لايمكن أن يُذل ولايمكن أن يُستعمر إلابخضوعه الذاتي وليس من قوة أعدائه. لقد وضع في مقدمة كتاب شروط النهضة انشودة رمزية، " إن آدم لماأهبط إلى الأرض وجدها عامرة بالحيوانات الكاسرة ذوات الأنياب والمخالب وجاء هو إلى الأرض عريانا ضعيفا يدب على الأرض بينما يرى النسور والعقبان في جو السماء والحيتان في المياه العميقة والوحوش المفترسة في الغابات الكثيفة فرأى آدم نفسه أعزل عريانا أمام هذه الكائنات التي سبقت الإنسان في العيش على هذه الأرض فشكى أمره إلى ربه، فقال له ربه: لقد أعطيتك عقلا يمكن أن تطيربه في السماء وتغوص به إلى الأعماق وتحد من قوة الوحوش الكاسرة ، إن مالك بن نبي مثل محمد إقبال في قصيدته الشكوى وجواب الشكوى حيث شكى محمد إقبال إلى رب العالمين حال المسلمين في هذه الأرض كيف سخرت منهم الأعداء وإن سخرية الأعداء مريرة وأين وعدك يارب وأنت أهل الوفاء ونحن الذين حملنا أرواحنا على أكفنا ليكون اسمك الأعلى في هذا الوجود،فكانت القصيدة الأخرى جواب الشكوى جواب رب العالمين على شكوى إقبال: ياهذالقد أثبت شكواك فأثبت قدرة الخالق فيك، كل هذه الأفكار العمقية هي إثبات لسلطان الإنسان وخلافته على هذه الأرض وأنه ليس لقوى الشر سلطان على الإنسان إن لم يستسلم الإنسان لقوى الشر إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إنما سلطانه على الذين يتبعونه , وفي الواقع حينما كنت أطرب واشعر بالسعادة من أفكار إقبال ومالك مهما كان المعجبون بها والفاهمون لأفكارهم قليلين وأمثلهم طريقة يحذرهُم ويرون أفكارهم شطحات من

إقبال وغموض في تحليلات مالك إلاأن أفكار مالك وإقبال صارت ألآن مدعومة بآيات الآفاق والأنفس وسنن التاريخ من قبل الذين يدرسون التاريخ البشري يرون الكون ينطق ووعد الله يظهر في أكثر من مجال وهي إرهاصات لمستقبل الإنسان على هذه الأرض، وبدأت تلوح للمفكرين الذين يكثرون كل يوم ويبرزون بثبات قدم وعلوهمم وشموخ يقين بأن الروح الذي نفخ الله في آدم لن يستسلم للذل إن الله لم يكن له ولي من الذل، ولايذل من واليت ولايعزمن عاديت إن الفكرة التي أبرزها مالك بن نبي وبشربها محمد إقبال وتنبأبها جلال نوري هذه الفكرة هي التي رأيتهاتمثل لب القرآن،إن القرآن يقلب تصورالناس بفكرة (ظالمي أنفسهم) إن القرآن يهتم بالظلم الذي يلحقه الإنسان بنفسه أكثر من اهتمام القرآن بالظلم الذي يلحق الإنسان من الآخرين فهذا ماكان عمر يفهمه جيدا وذلك حين كتب إلى المجاهدين قائلا لهم: وأنا أخوف عليكم من ذنوبكم أكثر من قوة أعدائكم عليكم. إن القرآن لما أطلق فكرة (ظلم النفس) و(ظالمي أنفسهم) و(ماظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) وقد قال لأهل أحد حين أصابهم القرح وقالوا: أنى هذا فقال الله لهم : قل هو من عند انفسكم ، ولم يقل لهم إن ماأصابكم من قوة أعدائكم وحذقهم وإنما قال لهم: من خطئكم هذا قانون الله الذي يؤكده كثير من المفكرين حين يبدؤون حديثهم ويختتمونه بهذه الفكرة القرآنية بشعورمنهم أوبدون شعور، وهذا تقدم في العالم الإسلامي والعرب وكل مستضعفي الأرض والرسول (ص) يؤكد هذا في الحديث القد سي حين يقول: ياعبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيرا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلايلومن إلانفسه. هذا قانون الله وقول خاتم الأنبياء والمبشر بآيات الآفاق والأنفس في تحقيق علم الله في الإنسان بالتخلص من الفساد في الأرض، وإن كنا نحن لانزال نلوم كل أحد ما عدا أنفسنا فمن هنا استبشر حين نسمع ونرى بروز المفكرين الذين يؤكدون هذه الظاهرة القرآنية والنبوية والتاريخية التي غفل عنها بنوآدم عموما، إن آدم أبو البشر جميعا لم يقل خدعني الشيطان حين أخطأ وأكل من الشجرة وإنما قال آدم وزوجه: ربنا ظلمنا أنفسنا، وبهذا الاعتراف المبين استأهلا الخلافة في الأرض والاجتباء لآدم زوجه واستحق ابليس الذي لم يعترف بعصيانه الطرد والدحر وسيتبرأهذا الشيطان يوم القيامة من الناس وسيقول لهم: ماكان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلاتلوموني ولوموا أنفسكم إذن ما المشكلة ؟ إن المشكلة أن روح الله الغلاب في الإنسان سيتغلب على كل الصعوبات وسيعترف الناس بالعقل الذي يميزالخير من الشر ويكشف الأسباب والعواقب وسيدرك أن المشكلة ليست في الاستعمار ولا اليهود ولاأمريكا ولا الشيطان، المشكلة أننا نحن العرب والمسلمين لا نزال نؤمن بقوة الشر والباطل والإكراه وليس بقوة الخير والحق واللاإكراه ولانزال نظن أن الإكراه هو قانون الله هذا الوهم هو الذي يفسد علينا الحياة إن المصطلحات والأسماء لاتغني شيئا ولكن الرجوع إلى الوقائع هي التي تنير الطريق، إن القابلية للا ستعمار والخداع والإيمان بالسحر سيتخلص الإنسان من هذا كله وسنكشف قدرة الإنسان وسلطانه وقدرته على العلم والتسخير وعند ذلك فسوف لن يتمكن أحد من أن يذلنا لا الاستعمار ولا المستكبرين في الأرض وسنكتشف التوحيد من جديدوسوف لن يتمكن أحد من أن يفرض علينا عبادته من دون الله رب العالمين

74. 97 االديمقراطية أصعب من التحرر من الإستعمار

الديمقراطية أبعد منالاً من دحر الإستعمار لما أقول هذا فإن آيات الأنفس تدعمني في أكثر من موقع وأحداث التاريخ تؤيدني ومعنى عهذال أنه يمكن التغلب على الإستعمار ولكن التغلب على القابلية للإستعمار يحتاج إلى وعي أكبر ويحتاج إل مراجعة الذات وعندها يشعر الإنسان أنه إنتقل إلى عالم آخر وموقع متقدم في التطور البشري ولما نقول أحداث التاريخ تؤيدني أقصد بذلك تاريخ المسلمين بالذات فإن الجزائر البلد الإسلامي والعربي العريق الذي إبتلي لأكثر من مئة عام بأشد أنواع الإستعمار الإستيطاني والإستلحاق بفرنسا ومع ذلك قاوم هذا الشعب الإستعمار وتخلص منه بتضحيات جسام مليون ونصف مليون شهيد ولكن ظاهرة الدمقراطية أبعد منالاً من طرد إستعمار فقد مضى على أستقلالهم نحو أربعين عاماً ولكن لايبدو أنهم أقتربوا إلى الدخول إلى عالم الديمقراطية ومأساتهم منذ عشر سنوات يدمى قلوبنا في مذابح مأساوية ولا تلوح في الأفق أي مبشرات لتثبت أن الأطراف

في طريقها إلى الأقتراب لقبول الديمقراطية حيث كل الأطراف يرى الطرف الآخر أخطر من قبول الديمقراطية ومع أني كنت أنا بالذات أتوقع من الجزائر أن تسبق العالم العربي والإسلامي في الدخول إلى عالم الديمقراطية ومع ذلك فإني أشعر أيضاً في الجزائر مع كل المآسي أملاً واعداً فهناك رجالات وكوادر ديمقراطية تترسخ جذورها في أ رض الجزائر ولن أنسى الكلمة الجزائرية التي جعلتها عوانا لبعض مقالاتي الكلمة التي قالها جزائري حيث لم تبرز مثل هذه الجملة الواعدة من أي بلد آخر وذلك حين خسر الحزب الحاكم الإنتخابات قال: خسرنا الإنتخابات ولكن كسبنا الديمقراطية وينبغي أن نذكر هنا في مجال عسر ولادة الديمقراطية في العالم الإسلامي ظاهرة إيران البلد الإسلامي الذي دخل عالم الديمقراطية من باب واسع وخطا فيها خطوات مبشرة في إنتخابات الرئاسة والبرلمان إلا أن الديمقراطية كلمة مرعبة يحمل العالم الإسلامي لها عداءاً كبيراً إلى الأعماق فلهذا ايران أيضاً أستطاع أن يلف على الديمقراطية مستعملاً حق الفيتو على البرلمان أو مجلس الشورى فإن النظام الإستبدادي له أيد كثيرة لسلب الديمقراطية روحها أو البلوغ بها إلى مداها الأبعد أليس ملفتاً للنظر أن العالم الإسلامي مع كل تبادل الأطراف من اليمين إلى اليسار والقومية والإسلامية كل هؤلاء لم يتمكن أحد منهم من الدخول إلأى الديمقراطية من بابها الواسع لأن الجميع تراجعوا أمام الديمقراطية حيث لم يقبل أحد في العالم الإسلامي الثقة بالديمقراطية وهذا معناه كبير يمكن أن نقول إن أحداً من هؤلاء جميعاً لا يثق بأختيار الشعب بل يرون أن شعوبهم لا رأي لهم ولايمكن أن يعرفوا مصلحتهم فلهذا لابد من أن يفكر عنهم ويحدد لهم مواقفهم مع أن وقائع التاريخ تثبت أن الشعوب لها قدرة على المبادرة وإبتكار وسائل جديدة وناجعة لحل مشكلاتها بل بل وكأن الشعوب تسبق مثقفيها في فهم القضايا وأن الشعوب تستطيع أن تحمي نفسها ولكن الذين يتولون التفكير بدلاً من شعوبهم لا قدرة لهم علىحماية شعوبهم وموضوع الديمقراطية أبعد غوراً مما نتصور نعم يمكن أن تصير الديمقراطية أعمق وأشمل ويمكن أن يعم العالم وعند ذلك لن يبقى حق الفيتو لأحد في العالم إن الديمقراطية مدخل كبير للكفر بالطاغوت فمن هنا كان محمد إقبال يقول إن العاللم الغربي كفر بالطواغيت ولكن بقي أن يؤمن بالله لأنهم في داخل ديارهم كفروا بالطاغوت ولن يتمكن طاغوت من أن يسيطر عليهم ولكن مع ذلك فإنهم جعلوا من أنفسهم طاغوتاً على سائر البشر ومع ذلك إن هذه الميزة التي حصلوا عليها بها تمكنوا من السيطرة على الناس إن الديمقراطية ليس أنها إحترام للإنسان العادي ورفع لكرامته بل إعتراف بالعقل البشري إن الديمقراطية مصارحةووضوح على الأقل فيما بينهم لهذا فإن الذين لا يقبلون الديمقراطية إنهم لا يثقون بأفكارهم ولا يشعرون أنهم يتمكنون من إقناع الناس إن الديمقراطية تصوف وإعطاء الآخر مثل الحق الذي لك بل أكثر حيث تتمكن من إعطاء الآخر حق إظهار نقائصنا وهذا شيء لا يمكن أن تتحمله النفوس إلا النفوس الكبيرة بل أن هذه النفوس تكون متواضعة وموقنة أن الخروج من الإكراه إلى الإقناع بالادلة التي تدل على الرشادو موقنة بأن مثل هذا المجتمع جدير بالعيش فيه لأنه هو الذي يعطي الكرامة لمن ينتمي إليه إن الله منح الكرامة لبني آدم إلا أن تحقيق ذلك في حياة الناس من جهد البشر الذين تمكنوا من رفض الإكراه إن المسلمين يضيقون ذرعا بكلمة الديمقراطية ولايستطيعون أن يكشفوا أن الديمقراطية هي كلمة السواء أي ان يكون الجميع أمام القانون سواء، وأن لايكون أحدفوق القانون والأعمق من هذا أن الديمقراطية لايمكن أن تتحقق إلا برفض الناس جميعا حل مشكلاتهم بالعنف فإن ظاهرة الديمراطية ظاهرة حديثة في تاريخ البشر بل إنها الرشد الذي جاء به الإسلام وفقدوه مبكرا ، إن الديمقراطية هي نبذ العنف والإكراه، لهذا لن تدخل الديمراطية ولاالحكم الراشد إلى مجتمع يؤمنون بالعنف كأسلوب لحل المشكلات وخاصة السياسية ، وينبغي أن نفهم أن نبذالعنف دخول إلى عالم الرشادوالوعي ودخول إلى عالم العقل وعالم ربط النتائج بالأسباب وخروج من عالم الإكراه والعنف لأن الأرضية التي تنبت فيها الديمقراطية ينبغي أن تخلو من الإكراه والعنف والغي في فرض الآراء، والذي يجعل المسلمين يخافون من الديمقراطية هو انهم يظنون أنهم سيفقدون الشريعة الإسلامية إذا أخذوا بالديمقراطية وهذا وهم كبير يقع فيه المسلمون غالبا ولا يفهم المسلمون أن الشريعة الإسلامية ستتألق أكثر لأن الشريعة الإسلامية هي شريعة الله وهي العدل بين الناس، والغالبية العظمى من الناس يحنون إلى العدل والمساواة ولايخاف من العدل والمساواة إلا أصحاب الا متيازات الذين هم فوق القانون وفوق العدل والمساواة وهم قلة من الناس المترفين، لهذا إذا فهم الناس شريعة العدل فسوف لن يعادوا الديمقراطية وسوف لن يتمكن أحدمن خداع الناس إذا انتشر الوعي بين الناس وصدق الله حيث يقول: " بل أكثرهم لايعلمون الحق فهم معرضون " ولهذا كان كتم العلم والهدى والبينات من الكبائر في القرآن " إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد مابيناه للنا في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللا عنون ... ولايأكلون في بطونهم الإ النار " ومن انتشار هذه الاوهام يترسخ الاستبدا وحكم

الفرد وتستلب إرادة الأمة التي تتوق إلى الوحدة والتضامن والعدل ويتمكن عالم الاستكبا ر من التسلط على العالم الإسلامي، وهكذا يلغى العقل والمنطق ويقبل الناس العيش في التمزق والاستلاب إنه لمأساة كبرى هذه الأوهام التي يعيشها العالم الإسلامي ، ورأس كل الخطايا في العالم الإسلامي الإيما ن بالعنف والإكراه والخوف من العقل والمنطق وعواقب التاريخ إن الذي يؤمن بالعنف والقوة يكون إلهه العنف وشريعته العنف وحياته العنف ولن يقف امام من يؤمن بالعنف شيئ محرم أو منكر إذا صارمتمكنا ومالم نغير مفهوم الحنين إلى البطل الذي سيوحد العالم الاسلامي بالقوة لن يتغير شيئ في عالمنا العربي والإسلامي، ولهذا تحول الحنين إلى القرد البطل والذي أثبت التاريخ أنه وهم كبير وهو مناقض لقانون التغيير وسنة الله قي المجتمعات إن الله لايغير مابقوم حتى يغيروا مابأنفسهم وعلينا أن نتوجه إلى وعي الشعوب ولابد من كشف هذه الحقيقة الخفية والجلية معا إنها جلية في وقائعها وعواقبها وخفية جدا أيضا في بعدها عن وعينا لأن الإنسان لاقدرة له على التفكير ضد مايؤمن به ونحن آمنا بالعنف والإكراه واستخففنا بالعقل السنني آمنا بالخوارق التي هي ضد المنطق وسنة التاريخ ، والأيمان بأن الإكراه بالقوة له الدور الأول في التغيير ينتج عنه فقدان الثقة بالعقل وينتج عن هذا أن لايثق أحد بأحد، وإلا لماذا كانت حرب الخليج الأولى والثانية التي دوخت عقولنا وزلزلت كياننا في أعماقه علينا أن نتمكن من التحليل وتغيير الأولويات وأن نعتبر بسنن التاريخ إننا لانعيش هذا العصر الذي أظهر الله فيه الآيا ت البينات ألم تروا كيف تتحد أوربا بالعلم والمنطق والتفاهم والتشاور بعد أن شبعت حروبا دينية وقومية إنهم غيروا أولوياتهم ونبذوا البطولات الحربية ولجؤوا إلى البطولات العقلية لهذا اهتدوا إلى حلول لايخسر فيها أحد ويربح الجميع وهذا الحدث ليس في مجرة غير مجرتنا التي نعيش فيها إنهم جيراننا فاعتبروا ياأولي الأبصار إنهم يتحدون أمام أعيننا خطوة خطوة كل سنة يحدثون تضامنا وتعاونا جديدا ويقتربون من الاتحاد الكامل بعمل ثابت راسخ في نموه وازدياد إمكاناته وذلك بفضل الديمقراطية التي كفرت باللجوء إلى القوة والاكرا وآمنت بالعقل والإقناع وآمنت بنبذ العنف في الحكم والسياسة وتفهمت المصالح والأهداف الكبيرة والسبل الرشيدة إلى الخروج من المآسي ألا فليفهم العرب والمسلمون أن لانجاة في هذا العالم إذالم نؤمن بالعقل الذي ميز الله به الإنسان وان لانخاف من العقل ومن الديمقراطية التي هي الاعتراف بالعقل والإقناع وان لانخاف من الأوهام وأن لانضاعف من الخسائر، إن العالم الغربي اعتبر بالحربين العالميتين وتعلموا كيف يحلون مشكلاتهم من غير أن يخسر أحد شيئا ويربح الجميع وعلينا نحن أن نتعلم من حربي الخليج العالميتين درسا مفيدا وذلك بأن نتعلم أن نحل مشكلاتنا بالأسلوت الجديد من غير أن يخسر أحد شيئا ويربح الجميع وقد ظهر هذا في آيات الآقاق والأنفس وفي أوربا بالذات وهذا ماجاء به الأنبيناء قديما حين دعوا العالم جميعا حين أعلنوا إلى العالم " تعالوا إلى كلمة سواء " اما آن لنا أن نفهم ، ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر " نعم إننا سنكشف القرآن من جديد وستفهم أيضا قوله تعالى " وذكر بالقرآن من يخاف وعيد " وسنفهم أن وعدالله حق وأن الله سيتم هذا النور، كتاب انزل إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور إن هذا النور سيتم وسيعم ولله الحمد والمنة.

75. توقعات عام ألفين

ينبغي أن تكون توقعاتنا مثل توقعات شركات التأمين فإن نظامهم في أعمالهم على أساس التوقعات المبنية على المعلومات التي عندهم عن الماضي والحاضر، فالإحصاءات التي عندهم عن الأعوام الماضية هي التي تجعلهم يتحكمون في قيمة الاشتراكات وهذا علم قائم بذاته والمسلمون يبحثون موضوع التأمينات وحصة الغارمين من بيت مال المسلمين. ينبغي أن يكون مبنيا على الإحصاءات ونحن حين نذكر توقعاتنا عن العام القادم أو العقد القادم ربما يمكن أن نفهم. أما القرن القادم فهذا لا يضبطه الماضي لأن القرن الماضي كيف دخل الناس إليه وكيف يخرجون منه فهذا لم يكن في إمكان أحد أن يتنبأ به وكذلك نحن الذين ندخل عام ألفين أي العام الأول من الألف الثالثة، يحكمنا قانون الكون الذي نؤمن به ودلت عليه آيات الأفاق والأنفس. إن النافع يبقى ويعم وأن الذي فقد النفع ينسخ وينتهي. وتوقعي للأيام القادمة منطلق من قصة استخلاف الانسان وإعلان الله لهذا الاستخلاف

واعتراض الملائكة وتشكك الجن ويأس الناس. إن الملائكة قالوا: أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء. ويبين الله لهم طبيعة الانسان وقدرته على التعلم واعترفوا بجهلهم وأما الجن الذين تشككوا وقالوا: وأنّا لا ندري أشراً أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا. ومع ذلك قالوا: إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدي إلى الرشد. ولكن ما رأي البشر في البشر وما هي توقعاتهم؟ إنهم في تشاؤم، إن معظم البشر ليسوا على نور ولا على بينة، الجميع متخوف والسبب في ذلك أننا لا نحسن فهم الماضي، وتصور الانسان للمستقبل من فهمه للماضي وعلى المدى الأطول أيضا. ولكن العالم يمكن أن نشبهه بالصاروخ الذي يبدأ سيره ببطء ثم يتسارع ونحن يمكن أن نرى سير الكون والوجود الانساني بدأ بطيئا مضنيا مأساويا ولكن العصر الذي نعيش فيه يتسارع والمسافة بين كشف قوانين أو سنن الأفاق والأنفس وبين تطبيقها تتضاءل. وحين نعلم أن الانسان أتى عليه حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا، عاش ولا يعلم كيفية إيقاد النار ولم يمض على استئناسه للحيوان وتعلمه الزراعة إلا عشرة آلاف عام، ولم يمض على تعلمه تقنية الكتابة والقراءة إلا خمسة آلاف سنة، أما الطباعة فمنذ أربعة قرون، أما الكتابة على الرقائق فمنذ عقود قليلة فقط. والانسان عاش آلاف السنين في الكهوف عريانا ويأكل لحم الانسان ويقدم القرابين البشرية. إن من يعرف تاريخ الانسان مهما كان موجزا فسيعرف أن مستقبله كبير. وأنا أجد الدعم الكبير من قصة خلق الانسان كما في الأديان، ومن دلالة آيات الأفاق والأنفس أنه سيكون حقا خليفة للخالق للكون على السنن والواهب للانسان قدرة على تسخير السنن ونحن نمر في مرحلة عجيبة مدهشة حين يمكننا أن ننظر من خلال تاريخه كيف كان وأين وصل وماذا يمكن أن يحقق وخاصة في تهمة الملائكة للانسان بأنه مفسد في الأرض وسافك للدماء ورد الله عليهم بأنه يعلم في الانسان غير ذلك. والآن نحن نرى ورأينا في القرن الذي ينصرم آيات الله في الأفاق والأنفس. إن الانسان سيخرج من الفساد في الأرض وسفك الدماء وليس هذا إيمانا بالغيب فقط وإنما إيمانا بعالم الشهادة، وأيماننا بالغيب دليله من عالم الشهادة وإنما فقط علينا كشف قانون الكون وأنه يزداد فيه وزيادته إلى الأفضل. وحين تحدث إلينا القرآن عن الخيل والبغال قال ويخلق ما لا تعلمون. إن الذين من قبلنا لم يكن عندهم القدرة على تصور ما نرى نحن عيانا ونحن بالنسبة لمن سيأتي بعد كما نحن بالنسبة للذين من قبلنا. إن هذا القرن شهد حربين عالميتين وختمت الثانية بالقنبلة النووية ولم يدرك معظم الناس على أي شئ صارت هذه القنبلة آية، إنها من آيات الله الكبرى على ظهور علم الانسان من أنه سيخرج من الفساد وسفك الدماء وهذا ربما خفي علينا نحن ولكن الذين صنعوها وفجروها لم يعد في إمكانهم أن يتقاتلوا وهذا خلق جديد وحدث جديد في تاريخ الانسان علينا أن نستوعبه ونتكيف معه فالذين وصلوا إلى هذا لا يمكنهم أن يتقاتلوا لا بالقنبلة النووية ولا بالبنادق ولا بالسيوف حتى ولا بالحجارة وإنما حل المشكلات بالعدل والإحسان فيما بينهم وإن كانت مفاهيم العلاقات التي عاش عليها الناس من العنف تضطرم في قلوبهم إلا أنهم عاجزون عجزا تاما عن استخدام العنف فيما بينهم إذ يسقط من سقط من غير عنف ويصعد من صعد بغير عنف وبغير سلاح وبغير بطش، إن الإتحاد السوفيتي الذي عبد القوة سبعين عاما وصنع ما يمكن أن يدمر به الأرض عدة مرات سقط، ولم يسقط من عدوا خارجي وإنما من الداخل ولم تغني عنه آلهته شيئا وصعد اليابان الضحية الأولى للقنبلة النووية الذي استسلم بدون قيد أو شرط. إنه صعد بدون حرب تحرير وبدون قتل ياباني واحد ولا أمريكي واحد فهو أحد القوى العظمى في العالم وانسحاب خرشوف من كوبا ليس هزيمة لروسيا ولا نصرا لأمريكا إلا بالموازين القديمة يجب الخروج من هذا فورا، هذا في عالم الكبار أما عالم الصغار أمثالنا كذلك وقفت الحرب ووضعت أوزارها وإن كنا لا نزال نصنع مثل حرب الخليج الأولى والثانية فإن العالم الذي لم يفهم بعد ماذا حدث في العالم هكذا يقدم رقبته للكبار بكل الغباء. كانت الحروب من قبل تؤدي دورا في نصر أحد الأطراف ولكن الآن لا منتصر لأي حرب فلهذا وقفت الحرب عند الكبار وستقف حتما وقد وقفت عمليا. فمهما كان هناك من متلمظ فقد سقط العنف والحرب بل مات العنف وذبحت الحرب ومن لم يصدق فليعد حرب الخليج الأولى والثانية وليعد الحرب الأهلية التي حدثت في لبنان نحو عشرين سنة قتل الجميع الجميع، ووقفت كما بدأت ولم يخسر إلا الذين تقاتلوا وأنا حين أتنبأ وأتوقع فإن الحرب ماتت منذ زمن وإنما بقي الإعلان على وفاتها من غير أسف عليها وهاأنا أعلن موت الحرب فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ومن لم يقبل فليعد حربي الخليج.

76. الجواب الواحد

رأيت في إحدى القنوات الفضائية حواراً مع شخصية تمثل الاتجاه الإسلامي وفي قناة أخرى حوار آخر مع شخصية تمثل الاتجاه الشيوعي، ووجه لكل واحد منهما سؤال محدد، ولكن الجواب كان واحدا من كلا الشخصين. والسؤال كان: "هل مارستم العنف ضد الحكم في سعيكم؟" فكان جواب الإسلامي والشيوعي واحداً: "نعم استخدمناه ولكن كان ذلك دفاعاً عن النفس". إن هذا الحوار وهذا الجواب يعرض على الناس جميعاً تشابه الإشكالية التي تقع فيها جميع الحركات، ويحتوي هذا الجواب على محاولة إعطاء مشروعية للدفاع عن النفس من الممثلين للاتجاه الإسلامي والاتجاه الشيوعي، وهذا يوحي إلى المشاهد والمستمع أن هذه الحجة حجة قوية، ويوحي بأن هذا السلوك هو السلوك البشري الوحيد الذي لا بد من اللجوء إليه. إن هذا المفهوم الشائع عند الاتجاهات المختلفة هي التي تحول دون تولد فكرة الديمقراطية في البلاد الإسلامية، ويبقى تبادل السلطة بالأسلوب التقليدي، ويبقى تبادل السلطة بالقوة والوراثة. فكيف نضيء هذا الظلام وكيف نرفع صوتا ثالثاً فوق هذا الإسلامي والشيوعي الذي منطلقهما واحد؟ إن مناصري هذين الاتجاهين لا يفهمون ولا يفكرون في المعاني التي يقررونها حين يقررون أن الدفاع عن النفس شرعي عند الاعتداء. إن هذه المرجعية والمسلمة العميقة للعنف خلال التاريخ هي التي أفسدت الحياة وأعطت القيادة للأقوياء لأن لهم القدرة دائماً على جر الآخرين إلى ساحتهم، إلى المعركة بالقوة التي هي غير متكافئة. إن محتوى الجوابين تدل أن القوة هي التي لها القيادة. إن دخولنا إلى العنف سببه هو هذا الفهم الذي يرسخ شريعة الغاب وشريعة القوة، ويلغي شريعة العقل والعلم، ويلغي القدرة البشرية على الفهم والتفهم وإمكانية إقناع الناس. لهذا كل من الإسلامي والشيوعي لا يقبل الديمقراطية، لأن الديمقراطية في أعماقها العميقة هي ترك الوسائل العنيفة من الفرقاء جميعاً واللجوء إلى العقل والإقناع. هذا الأساس لم يترسخ عند المسلمين، أي الذين يعيشون الثقافة التقليدية الإسلامية، سواء كان من يعيشها مسلماً أو شيوعياً، لأن أحداً منهم لا يثق بالعقل ولا يعتقد أنه يمكن أن يربح معركة الديمقراطية.

ليس المهم الأسماء ولكن التصور الذي في أنفس جميع الجهات سواء، وإيمانهم بالديمقراطية ليس فهما لمحتواه وإنما هو نوع من التكتيك والمغالطة لإدانة الآخر فقط. وتستفيد جميع الأطراف من تكتيك الإدانة. فالمعارضون للمسلمين يخشون الثقل الإسلامي الذي لم يتحرر الناس بعد منه وبالتالي سيجعلهم يكسبون المعركة الانتخابية ويغتالون الديمقراطية، وأنهم سيستخدمونها لمرة واحدة ––حتى رئيس أمريكي سابق استخدم هذا العبارة "لمرة واحدة"––، ولكن يجب أن ندرك أيضا أن المسلم يتهم بأنه يستخدم الديمقراطية لمرة واحدة لأنه إذا صار بيده القوة فلن يتركها للآخرين عن طريق صناديق الاقتراع، لأنه لا يريد أن تسقط شريعة الله في الانتخابات حسب فهمه. ويظنون أنه هكذا يصنع الحق، بالإكراه. ولذا يستمر الخطأ والباطل.

ليس هناك من يثق بالعقل الإنساني، حتى أمريكا لن تقبل أن يطرح حق الفيتو للاستفتاء على البشر، وتحمي هذا الحق بالقوة. في حوار تلفزيوني عن الفلسطينيين الذين يقتلون على أساس أنهم إرهابيون سأل مدير الحلقة الشخص الأوربي المشارك في الندوة، كيف تسمون الفلسطيني الذي سلبت منه أرضه ودياره إرهابياً حين يضرب بالحجارة عن بعد إلى ذاك الذي ينزع الأرض ويخرج الناس من بيوتهم ويدمرها أمام أعينهم؟ هل كان الفرنسي الذي احتلت أرضه من قبل الألمان إرهابياً حين كان يقاوم الألمان لإخراجهم من فرنسا؟ أجاب الأوربي الذي شارك في الندوة بكل برود: نعم، كان إرهابياً في نظر الألمان الذين استولوا على فرنسا. ما معنى هذا الكلام؟ في زمن سقراط كان هناك السوفسطائيون الذين يقولون ليس هناك من حق لأن الحق عند هذا باطل وحق عند ذاك الآخر. هذا انسلاخ من الإنسانية، وما يقال عنه حقوق الإنسان إذن كلام فارغ، وبنظر مثل هذا الإنسان فإن المرجعية هي للقوة أيضا.

وأنا أقول إن الأنبياء وحدهم هم الذين آمنوا بالعقل البشري، وأنه هو المرجع، وأن العلم هو الوسيلة. علينا أن نفهم أن هذا هو ما جاء به الأنبياء علناً حين قالوا (لا إكراه في الدين) وأن الديمقراطية قالت هذا ولكن سراً ومن دون إعلان. إن الديمقراطية لن تدخل إلى بلد تحول فيه الإيمان من العقل إلى القوة.

تقوم الأقنية الفضائية بدور كبير في موضوع الإنسان وطبيعة الإنسان المزدوجة في ألهمها فجورها وتقواها. هذه هي الإمكانية المودعة في الإنسان. ولكن هذا خلق الله، هذا هو الواقع الذي أمامنا لأن الإنسان يخرج من بطن أمه لا يعلم لغة يتكلم بها ولكن هذه القدرة الكامنة يحولها المجتمع إلى واقع فيقوم كل من المجتمع والفرد الذي يولد فيه كل منهم بدوره. فالمجتمع يمطر الفرد الذي يولد فيه باللغة التي تخص المجتمع، والفرد يتلقى ويمتص هذا بكل إمكاناته المودعة فيه

إن الأقنية الفضائية تتطور لإيصال المعلومات. ولأعطي للمعلومات معنى أكبر أقول "هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون". لما يقول الله هذا يحدد معنى الإنسانية بكمية المعلومات التي يحصل عليها الإنسان، ونجد نفس المعني في "أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً". وصار المجتمع هو الذي يقدم المعلومات للإنسان. لقد تطورت الأقنية الفضائية في إيصال المعلومة بسهولة ويسر وسرعة هائلة لجميع سكان الأرض وبقي تبسيط المعلومة وتوفير الأدوات للتلقي والإرسال. في مؤتمر القمة الإسلامي السابق، عام 2000، اتخذ الأعضاء قرار إنشاء محطة فضائية إسلامية وحصل نقاش على القنوات الفضائية الأخرى في جدوى هذا القرار.

إن المدارس ضرورية، ولا بد من مدارس مهما كانت مستويات المناهج هابطة. لا بد من نقل المعلومات مهما كان فات أوانها، ومهما كان سيئاً، لأن قانون "الزبد يذهب وما ينفع الناس يمكث في الأرض" سيفرز النافع. ولولا هذا القانون لحصل اليأس عند الناس ولتقاعسوا عن بذل الجهود. وربما هذا الذي جعل جلال الدين الرومي يقول: ويحب الحق هاتيك الجهود | جهدك الخائب خير من قعود. ومن هنا كان للاجتهاد أجر وإن كان خاطئا، لأن الاجتهاد هو الذي يصحح الخطأ مهما تأخر. والزمن صار ويصير قصيراً بين التقنيات وتعميم استخدامها، لهذا فإن فتح المدارس وتهيئة كل وسائل إيصال المعلومة شيء سيؤدي إلى تحسين المناهج أيضا. إن المدارس لا تتمكن من نقل المعلومات الحديثة ولكن ليس معنى هذا أن نبطل المدارس أو الكتاب أو الأقنية الفضائية، وإنما أن نعمل على تحسينها.

التقنيات الجديدة تتمتع بها الطبقات المترفة في العالم أولاً ولكن في النهاية تصل إلى المسحوقين من الناس أيضاً، فكما المترفون يستخدمون التقنيات الجديدة لصالحهم وصالح طبقتهم كذلك حين تصل هذه التقنيات إلى المسحوقين سيستخدمونها لصالحهم أيضاً فيعم الخير بين الناس. هذا القانون ضروري فهمه جيداً حتى لا يحصل اليأس من التغيير لأن توفير المعلومات وإيصالها إلى الناس بشكل مبين وواضح هو واجب الأنبياء والمرسلين، وكذلك واجب الآمرين بالقسط من الناس. بعد انقطاع النبوات بقي الناس الذين يحملون رسالات الأنبياء من إشاعة القسط بين الناس وكانت حجة بعض اليائسين من الإصلاح أن هذه التقنيات لا تنقل إلا الخرافات والانغلاق، وكأن القراءة تستخدم ضد القراءة والعلم يستخدم ضد العلم. نعم ولكن الغلبة للحق وللعلم وللقراءة وللنافع الذي ينفع جميع الناس لا الذي ينفع بعض الناس.

77. أنشودة رمزية

لقد وضع مالك بن نبي، الكاتب الجزائري الراحل، في مقدمة كتابه، *شروط النهضة*، أنشودة رمزية: إن آدم لما أهبط إلى الأرض وجدها عامرة بالحيوانات الكاسرة ذوات الأنياب والمخالب وجاء هو إلى الأرض عريانا ضعيفا يدب على الأرض بينما يرى النسور والعقبان في جو السماء والحيتان

في المياه العميقة والوحوش المفترسة في الغابات الكثيفة فرأى آدم نفسه أعزل عريانا أمام هذه الكائنات التي سبقت الإنسان في العيش على هذه الأرض فشكى أمره إلى ربه، فقال له ربه: لقد أعطيتك عقلا يمكن أن تطير به في السماء وتغوص به إلى الأعماق وتحد من قوة الوحوش الكاسرة.

كان البشر يوما ما محصورين في زمان ومكان محددين بحيث لم يكن لهم القدرة على فهم كروية الأرض وكانوا محصورين في جزء منه، يبحثون عن نهاية العالم. وكذلك في الزمان، فلم يكن البشر يعرفون عمر الأرض وكم صار للإنسان على الأرض. ولكن الذي علم بالقلم فتح أمام الناس قدرة معرفية لا نهاية لها. وقدرة الإنسان على فهم نظام الكون وكشفه تكبر على مر الزمان. أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا، وأتى على الكون حين من الدهر لم يكن مسخرا بوعي يكشف قانونه ويتدخل في تسخيره.

وليفهم الإنسان تاريخه بدأ يحفر عن آثار الإنسان التي انطمرت. فهناك الناس المختصون الذين يحفرون في الأرض ليستخرجوا البقايا العضوية –سواء الإنسان أو غيره من المخلوقات– وليعرفوا تاريخها والزمن الذي كانت تعيش فيه. ومن عهد قريب بدأ الإنسان يحفر عن المعرفة أيضا، كيف بدأ الوعي في الحياة البشرية، وكيف أوقد الإنسان النار، وكيف زرع الأرض، وكيف استأنس الحيوان، وكيف تعلم الكتابة، ثم كيف سخر الإنسان الطاقة وكبر عضلاته في خدمة الإنسان بواسطة الآلات التي اخترعها إلى درجة أنه اخترع أيضا الآلات التي تكبر معرفته وتحسب بدلا عنه.

إن تطور وسائل نقل المعلومات شيء مهم. ولم يزد على دخول القراءة والكتابة في حياة الإنسان خمسة آلاف سنة. والكتابة كانت لصالح الحكام أو الطبقات والأقليات المهيمنة فقط، ولم تكن تصل إلى عامة الناس. لقد كانت ولادة الإنسان مع ولادة اللغة، الوسيلة الأولى لنقل الأفكار من شخص إلى شخص. كانت الملائكة توجه الاتهامات إلى آدم وزوجه في الاحتفال بميلاد الإنسان واستخلافهما، ولكن كان الشاهد على صدق الاستخلاف لآدم وزوجه وأهلية الإنسان لهذا الاستخلاف وإمكانية الخروج من الفساد وسفك الدماء أن آدم صار قادراً على وضع الأسماء ووضع العلامات والرموز. إن قدرة الإنسان على الكلام تزامنت مع نمو جهازه العصبي، وقدرته على ربط الأسباب بالنتائج، ومقارنة النتائج النافعة بالنتائج الضارة، وإمكانية نقل نتيجة هذه القدرة في ربط الأسباب بالنتائج والمقارنة بين النتائج. لما تحققت هذه الإمكانية صار عند الإنسان قدرة التسمية والترميز، أي أن الإنسان أصبح قادرا على تسمية ما يراه ومن ثم نقل هذا من جهازه العصبي إلى الجهاز العصبي عند الآخر. بهذا الأسلوب وبهذه الإمكانية تتطور الحياة الإنسانية. وصارت التجارب تتراكم بسرعة وتعددت الاختصاصات. إن التسمية والقدرة على النطق والكلام وسائل عجيبة عند الإنسان. إن الحيوانات تملك أشياء بدائية من هذا النوع. نرى مثلا أن طيرا يحدث أصواتا تحذيرية حين يظهر طائر مفترس ليدركه الجميع، وهذا شيء وراثي عندهم. ولكن عند الإنسان انتقلت الوراثة إلى إمكانية الإنسان على الترميز وينقلها بالتعليم إلى الآخرين. إن تقنيات القراءة والكتابة قدرات كامنة عند الإنسان ولكن تحويلها إلى واقع بالفعل يحتاج إلى جهد كبير. وجميع المدارس في العالم يهتمون بتسهيل اكتساب تقنية القراءة. وهذا ما يعانيه العالم الإسلامي ولا يوفر لكل مولود اكتساب هذه التقنية. وهذا مرتبط بالإحصاءات في نسبة الأميين. وعلى المجتمع الإسلامي أن يقوم بتعميم هذه التقنية، أي إتقان إمكانية القراءة. إن وضع العالم الإسلامي السيء المهين المذل لم يحدث عبثاً ولا يتغير إلا ببطء شديد إلا لأن المشرفين على ثقافة العالم الإسلامي لم يؤدوا دورهم.

لا تزال الإنسانية إلى الآن في مرحلة الطفولة لا تتمكن من ترشيد نفسها ولا تنظيف حياتها، ولا نزال نعيش ما توقعه الذين شهدوا ميلاد الإنسان من أنه مفسد في الأرض وسافك للدماء، ولم نحقق علم الله، وأنه يمكن لهذا الإنسان أن يسند إليه الاستخلاف في الأرض ليتغلب على الفساد وسفك الدماء، الفساد العالمي في توزيع المعرفة وتحصيلها والاستخفاف بالدماء وسفكها. ولكن سنكتشف نظام الكون وأنه لم يخلق بالباطل والعبث، وإنما خلق الله السماوات والأرض بالحق. ذلك ظن الذين كفروا. إن الذين كفروا هم الذين يخفون الحق في الوجود. ولهذا سمي الفلاحون في اللغة كفارا لأنهم يخفون البذور في التربة حين يزرعون. ويقال الكفر لقرية الفلاحين المزارعين.

لقد جد في حياة الناس من رؤية لآيات الله في الآفاق والأنفس ترك الأساليب التي تعيق النمو وتهدر الإمكانات إلى وسائل في ترشيد الاقتصاد وبناء الإنسان الذي بدونه تتحول كل الإمكانات إلى غثاء يذهب جفاء. الطاقات اللانهائية، المليئة في الكون، لا تساوي شيئا بدون بناء الإنسان وبدون تكون المجتمع، وبدون بناء المعرفة التاريخية، كيف بدأ الخلق وكيف نما الخلق، وكيف كشف الإنسان السنن الكونية والسنن الاجتماعية. كأن المعرفة التاريخية لما حدث ليست متوفرة لنا. هناك قطيعة معرفية، ولم نتمكن من سد الثغرة التي قطعت التواصل المعرفي. كيف حدث ما حدث؟ هذا الموضوع هو الذي يصفه القرآن بنقض العهد، عهد الله من بعد ميثاقه، وقطع ما أمر الله به أن يوصل، فيقول في سورة البقرة: "يضل به كثيرا ويهدي به كثيرا وما يضل به إلا الفاسقين الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون". وفي سورة الرعد آية في نفس الموضوع عن "الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار". إن الانقطاع في معرفة كيف بدأ الخلق وانقطاع تسلسل الخلق من الذرة الأولى إلى بقية العناصر الأخرى ومن أولى الكائنات الحية إلى الإنسان يؤدي إلى نظرة مبتورة للتاريخ. إن الذي يفقد التواصل يحدث عنده الانقطاع ويؤدي به ذلك إلى ضياع السننية وبروز الخوارق وعدم النظام والفوضى الذي يؤدي في النهاية إلى العبثية والعدمية. ولابد من المحافظة على عدم الانقطاع فيما أمر الله به أن يوصل، وعهد الله وميثاقه أن لا نتخذ أربابا من دون الله فننسب سنن الله إلى غيره فتفسد كل حياتنا وتحبط كل أعمالنا. ولتجنب ذلك علينا أن نكشف سنن الله ونسخر الوجود للأنفع ولما هو خير وأبقى، ولابد أن يكون هذا واضحا وضوحا ساطعا لا لبس فيه ونكون على نهج سوي ومحجة بيضاء ليلها كنهارها.

إن الوعي الصحي ينتج من معرفة قوانين الصحة الجسدية. فكما أن الوعي النفسي ينتج من معرفة قوانين الصحة النفسية والتزكية النفسية علينا أيضا أن نكشف ذلك في واقع آيات الآفاق والأنفس ومن دلالات آيات الكتاب وبلاغ الرسل. علينا أن نحافظ على هذا الميثاق الذي أخذ الله العهد علينا وأن لا نكون من الغافلين بل من الذاكرين المذكرين والمبشرين المنذرين وأن لا نكتم آيات الله ونكون من الذين يبلغون رسالات الله.

78. الخروج من ظلمات التخريب إلى نور السواء

أجلس اليوم وأكتب هذه الكلمات والأفغان يدمرون تماثيل بوذا بالمدفعية والصواريخ والمتفجرات التي ابتكرها الغرب، الذي هو الشيطان بالنسبة للمسلمين وخاصة للمسيطرين على الأفغان من جماعة طالبان. يحملون الأسلحة التي صنعها الغرب ويدمر بها بعضهم بعضاً كما يدمرون بها تماثيل بوذا. لقد قرروا في عيد الأضحى هذا أن يضحوا بكلمة السواء، وبآية "لا إكراه في الدين". نسمع بعض الاحتجاجات على تكسير تماثيل بوذا من قبل مراكز إسلامية وأنه ليس من الضروري كسر هذه التماثيل لأن المعنى الذي تحملها هذه التماثيل لم يعد خطراً، ولكن تكسير التماثيل له نظائر كثيرة في العالم الإسلامي، مثل حرص المسلمين على ضرورة التمسك بقتل المرتد. متى سيفهم المسلمون أن هذا مثل ذاك؟ إن الآلية الفكرية التي تحكم هذين المثلين واحدة. متى نصير نفهم هذا ومتى ستتسع حوصلتنا الفكرية لنكشف أن هذا مثل ذاك بل أشد؟ بل ولم يجف بعد دم محمود طه الذي أعدم في السودان حين حكموا بالإسلام.

كنت ذكرت في مناسبة سابقة من أن برونو أعدم حرقاً بالنار في إيطاليا يوم 17 فبراير عام 1600 وبعد بأربعمائة عام في 17 فبراير عام 2000 احتفلت إيطاليا كلها لهذه الذكرى الحزينة إعادة لشأن برونو كما احتفلت قبل أربعمائة عام إبتهاجاً بحرقه. إن الأنبياء خلال التاريخ قُتلوا وأُلقوا في النيران لأسباب تشبه الإشكالية التي تحدث الآن في الأفغان. إن لغة الحوار مختلفة والمنطلقات والمراجع مختلفة. فلا حوار الآن بين الأفغان ومعارضيهم حتى من المسلمين أو المراكز الإسلامية التي تدين مثل هذا العمل.

بعد أربعمائة سنة برأت الكنيسة المسيحية جاليلو من الهرطقة وأن هذا الذي وصل إليه المفكرون في علم الفلك ليس محرماً دينياً. إنه لمثل عجيب مهما كان مؤلماً، ولقد تطلب فهمه عناء كبيراً وزمناً طويلاً. يسهل علينا الآن أن ندين الكنيسة ونقول إن دينهم هكذا ولكن من الصعب أن يكشف المسلم ما يفعله هو الآن باسم الدين وما يرتكبه من أخطاء. إن تطور المفاهيم هي التي تمكنني من أن أكتب مثل هذه المقالة التي أحاول فيها تحليل المشكلة. إن أسلوب التلقي ومراجع التلقي والمفاهيم التي ينطلق منها الناس في فهمهم للنبوة والكتاب المنزل وآيات الآفاق والأنفس هي التي تجعلهم يتصرفون بشكل أو آخر. إن فهمنا للتاريخ وما يحدث فيه من تغيرات هو الذي يصيغ أفعالنا. وأنا حين أقول وأكرر القول من أن مرجع القرآن هو التاريخ يتعجب الناس مني ويقولون لي التاريخ كله أكاذيب وما يكتب عن التاريخ أكاذيب. فأقول لهم بشيء من الأسف والأسى أن التاريخ ليس ما يكتبه الناس عن أنفسهم ولا ما يكتبه أعدائهم عنهم، بل هو المآل الذي يؤول إليه مصير الناس. وحين أقول إن تاريخ الاتحاد السوفيتي ليس هو ما كتبه الروس عن أنفسهم ولا ما كتبه أعدائهم عنهم، وإنما التاريخ هو مصير الاتحاد السوفيتي، وكيف لم يأت إليهم عدو وسقطوا من الداخل، أتى الله بنيانهم من القواعد. ولكن حين أتحدث عن الاتحاد السوفيتي علي أن لا أنسى أن أتحدث عن العالم الإسلامي. هذا العالم الضخم بشرياً وجغرافياً، والعالم القزم علمياً. إن العالم يتغير ببطء بحيث لا يمكننا أن نكشف ماذا حدث وماذا يحدث ولا أن نرى العالم الإسلامي يستيقظ ببطء شديد وتحت وطأة الآلام والخسائر والسلوكيات الغبية والعجز عن التراجع. عشت زمناً طويلاً وأنا أطلب الرشد في أماكن مختلفة إلى أن أدركت بعد طول عناء من أن "لا إكراه في الدين" هو الرشد الذي ضيعناه من زمن بعيد. "لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها". ضيعناه ولم يدخل إلى النور والوعي كسنة وقانون ينتج عنه مؤسسة تحميه وتعيد إنتاجه. وهذا الشيء نفسه حدث في فهم الطاغوت. ولكن ستعم فكرة "لا إكراه في الدين". فلقد أتى الله بنيان الإكراه من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم، وسيعم هذا الأرض وسيظهر على الدين كله، لأن الإكراه لا يصنع إلا الباطل، ومن لم يصدق فلينظر إلى الماضي وليتأمل الحاضر ولينتظر المستقبل. فمن هنا كان الإعلان القرآني "لا إكراه في الدين" تصورا جديدا للدين ولله وللإنسان، لأن الإكراه في الدين مسخ للدين ولله وللإنسان وهو الفساد الأكبر الذي يحبط كل الأعمال وهو الذنب الذي لا يغتفر. إن علم الله في الإنسان هو الذي سينتصر على الفساد في الأرض وسفك الدماء آت لا محال، وقد جاءت أشراطها، وسيعلمه الذين يتدبرون القرآن وستزول الأقفال وستسقط الأصار والأغلال التي ترسخت وتحكمت.

إن الأفغان يكسرون التماثيل ولا يقبلون تدخلات الناس في هذا العمل. ولكن كيف ومتى سنكشف سنن الله وسنن المجتمعات وكيف يكون جهل الناس نقمة عليهم وكيف يختلط الدنس بالمقدس؟ إن الأفغان يقولون أن الغرب يهتم بالتماثيل أكثر من اهتمامه بالبشر، ولكن الأفغان يتناسون أنه ليس هناك عداوات تاريخية بين الحضارة البوذية والحضارة الإسلامية، وهم الآن بجهلهم يخلقون نزاعات جديدة. أقول وأكرر وأعيد أن العالم جميعاً لم يبلغوا الرشد وأنهم على شريعة الغاب من أدنى المجتمعات التي تسمى دولة إلى قمة الأمم المتحدة. وعلى مذهب أمريكا التي تحول دون نمو العالم باسم حق الفيتو الروماني: أنا قوي، أنا ربكم الأعلى. متى نصير نفهم الإيمان والتوحيد بأنه هو كلمة السواء و"أن لايتخذ بعضنا بعضا أربابا". عندما نفهم هذا سنعرف أن تقدير رموز الأديان الأخرى هو تقدير لرموزنا أيضا، وإلا فإن الذي تتاح له الفرصة سيضع نفسه ربا على الآخرين ويدمرهم. ولكن بمعاناة شديدة ولدت عند بعض البشر محلياً، نعم محلياً فقط، ضرورة الاعتراف بالآخرين وبالمساواة. وهذا تقدم كبير وكبير جداً، وبفضل هذا التطور المحلي بالقبول بالمساواة تتحد أوربا الآن. حين نفهم هذا ونفهم أن الكون كله مسخر للإنسان ونفهم أن القرآن هو القول الفصل وليس بالهزل عند ذلك سيظهر الله دينه على الدين كله ويتم نوره.

علينا أن نتوجه إلى وعي الشعوب، لأن الإنسان لا قدرة له على التفكير ضد ما يؤمن به. ونحن آمنا بالعنف والإكراه واستخففنا بالعقل السنني. آمنا بالخوارق التي هي ضد المنطق وسنة التاريخ. وإيماننا بأن الإكراه بالقوة له الدور الأول في التغيير ينتج عنه فقدان الثقة بالعقل، وينتج عن هذا أن لا يثق أحد بأحد، وإلا لماذا نكرر أخطاءنا يوما بعد يوم. نقتل بعضنا ونغزو دول بعضنا البعض ونكسر رموز الأديان الأخرى ونعمل أنفسنا طواغيت

على النساء. إن رفضنا لكلمة السواء وإيماننا بالإكراه دوخ عقولنا وزلزل كياننا من أعماقه. علينا أن نتمكن من التحليل وتغيير الأولويات وأن نعتبر بسنن التاريخ. إننا لا نعيش هذا العصر الذي أظهر الله فيه الآيات البينات. إننا نتصرف وكأننا لا نقرأ القرآن.

إن بعض البوذيين أظهر مواقف إنسانية تجاه جهل وعنجهية الطالبان عندما بدءوا بتحطيم التماثيل، فمثلا، هافان بولا شانتي، أحد رجال الدين العاملين في مركز بوذي في مدينة لوس أنجلس، قال لصحيفة أمريكية: "نحن حزينون ولسنا غاضبين"، وقال: "إن البوذية تعلمنا اللاعنف وأن كل شيء فان، فلماذا سنقلق على هذه التماثيل". متى ستحمل النسمات رائحة التسامح وكلمة السواء إلى العالم الإسلامي. يرونه بعيداً ونراه قريباً.

79. موسى وفرعون وإبراهيم وآزر

كنت أهيم في فهم الطاغوت في مجالات غير واضحة وغير بينة، إلا أن فهمت معناه من القرآن الذي يوضح الطاغوت بأطول القصص وأكثر الشخصيات ذكراً في القرآن، حيث يقول الله لموسى: "اذهب إلى فرعون إنه طغى" ويقول: "ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد وثمود الذين جابوا الصخر بالواد وفرعون ذو الأوتاد الذين طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد فصب عليهم ربك سوط عذاب إن ربك لبا لمرصاد". وصف الله عاد وثمود وفرعون وما تركوا من أثار خالدة بأنهم طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد فصب عليهم ربك سوط عذاب. إن ربك لب المرصاد لإهلاك الطغاة كما هلكت عاد وثمود وفرعون، وإن ذلك لسنة. والله يقول عن الإنسان: "إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى". وهذه مسألة إنسانية كبيرة. إن البشر حين يعظمون إنسانا يتحول إلى طاغوت، وإلا فلماذا ترسخت الطاغوتية في العالم من أمريكا إلى أصغر دكتاتور؟ السبب يعود إلى الذين حولهم يعظمونهم ويرونهم فوق البشر. ولقد كانت رسالة الأنبياء جميعاً أن: "اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت"، أي ليملككم الله وليس الطاغوت. هذه الجملة رسالة الأنبياء جميعاً. يقول الله: "ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن عبدوا الله واجتنبوا الطاغوت".

ولفهم الطاغوت قص الله علينا قصة أكبر الطواغيت في التاريخ، الذي ترك الأهرامات، أكبر الآثار في الدنيا، كل منها قبر لشخص واحد بهذا الحجم. والفراعنة لم يبنوا هذه القبور كفراً بالله، ولكن لينجوا في اليوم الآخر. وقصة فرعون مع موسى من أطول قصص القرآن وأكثرها تكراراً حتى لا يبقى شيء من أمر فرعون خفياً، حتى يكون الطاغوت مجسداً مشخصاً يمكن أن نرى نموذجه في هذا العصر. ذكر في القرآن اسم فرعون أكثر من سبعين مرة وذكر اسم موسى الذي أمره الله أن يذهب إلى الطاغية أكثر من مائة مرة، أكثر من أي نبي آخر. في القرآن، يذكر اسم موسى من قبل أن يولد وكيف اصطنعه لنفسه وكيف دربه على الذهاب لمقابلة فرعون وكيف خاف موسى. إنها تفاصيل دقيقة مهمة يمكن تحليلها، خطابه الشعوري واللاشعوري وما وراء الكلمات من مسلمات وأسس يبنى عليها وهي ليست ظاهرة بل خفية تحت الأبنية التي أقيمت عليها، حيث يقول الله: "آتى الله بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم وآتاهم العذاب من حيث لا يشعرون". وسيكون هذا موضوعاً شيقاً للدراسة والمقارنة ومعرفة طبيعة الإنسان، وعلى علماء الإنسانيات أن يقارنوا بين آيات الأنفس البشرية وقصة فرعون في القرآن وامرأة فرعون وحوارات فرعون مع موسى وهارون ومع ملئه ومع السحرة وكيف وقع هامان. يمكن دراسة ثقافة ودين فرعون ووسائله في الترغيب والترهيب لمعرفة ملة الكفر وملة الإيمان.

هناك حوار طويل بين موسى وفرعون وهناك حوار هام بين إبراهيم وأبيه آزر، يوجز فيها قصة الطغيان والنفس الإنسانية القابلة للطغيان. في هذا الحوار الإبراهيمي نقرأ: "واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقاً نبياً إذ قال لأبيه يا أبت لما تعبد ما لا يسمع ولا يبصر". ويطيل النقاش وهو يقول في كل مرة: "يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فتبعني أهدك صراط سويا ..." وكان أبوه يجيب: "أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم لئن لم تنتهي لأرجمنك وهجرني مليا قال سلام عليك سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفيا". هذا الحوار الإبراهيمي مع أبيه ومع النمرود الذي آتاه الملك هو نفس حوار موسى مع فرعون، ومحمد مع قريش، وكل النبيين مع أقوامهم. وفي سورة إبراهيم يجري الحوار ليس مع نبي معين وإنما مع جميع الأنبياء في

مواجهة جميع الأقوام، فيقول الله: "ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم في أفواههم وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم وإنا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب. قالت رسلهم أفي الله شك فاطر السماوات والأرض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما يعبدون آباؤنا فأتونا بسلطان مبين قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده..." وهكذا يطول الحوار إلى أن يقول الرسل: "نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون". فيقول الذين كفروا لرسلهم في موقف حاسم. "لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا". هذه هي الملة الفاصلة والقول الفصل بين الرشد والغي، بين الرسل والأقوام. "فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين ونسكنكم الأرض من بعدهم ذاك لمن خاف مقامي وخاف وعيد". هكذا قانون الله ووعد الله للرسل الذين يحملون رسالة "لا إكراه في الدين"، التي ستعم الأرض. وهذا علم الله في الإنسان، لأن الأنبياء مبدأهم "لا إكراه في الدين" بينما مبدأ الأقوام "لنرجمنك واهجرني". إنها جملة آزر، يرددها الأقوام خلال التاريخ. "ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم ولا يحصيهم إلا الله"،

ونحن في هذا العصر علينا أن نفهم هذا الحوار وكل الحوارات التي قيلت في القرآن مثل قول فرعون "آمنتم له قبل أن آذن لكم لأقطعن أيدكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم في جذوع النخل ولتعلمن أينا أشد عذاب وأبقى". هذه الحوارات التي نشعر الآن أن لا معنى لها هي التي ستزلزل العالم القادم، وقد زلزلت فعلاً في بعض الأرض، وسيعم هذا الحوار الأرض. إن الذين من قبلنا لم يتمكنوا أن يروا ما نرى، وكثير من الناس يعاصروننا ولا يستطيعون أن يفهموا ماذا حدث. وسيذهب الطاغوت كله جفاء وسيتحقق ما تحقق من قبل "انظر إلى إلهك الذي ظللت عليه عاكفاً لنحرقنه ثم لننسفنه في اليم نسفا". وقال الرسول (ص): رحم الله أخي موسى أوذي أكثر من هذا فصبر. "ولما جاوز موسى البحر ببني إسرائيل أتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا يا موسى أجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال أنكم قوم تجهلون أن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون". وفي مثل هذا الموقف قال محمد ويلكم قلتم كما قالت بنوا إسرائيل اجعل لنا آلهة كما لهم آلهة. ولما ذهب موسى عجلاً لميقات ربه أخرج لهم السامري عجلاً جسد له خوار فقالوا هذا إلهكم وإله موسى قال موسى لهارون يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا أن لا تتبعني وقال هارون يا ابن أم لا تأخذ بلحيتي ولا برأيي إني خشيت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل.

هذه مشكلة التاريخ البشري في عبادة الأوثان والطواغيت. إننا نرى الآن كيف يتخلص البشر من الأوثان البشرية. رأيناه يحدث في روسيا وأوربا الشرقية وأمريكا الجنوبية. ونراه يحدث في أفريقيا والعرب الآن في آلام المخاض والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

80. أن تكون أمة هي أربى من أمة

هذه الجملة جزء من آية في سورة النحل، وهي مكية في ترسيخ مبادئ الإيمان الأساسية في معرفة نظام الكون. وهذا يستلزم استبعاد العبث واستنباط الغاية من الوجود الذي يتحرك إلى الأنفع والأرحم. والقرآن منظومة فكرية تصورية للكون والإنسان، يدور حول الإنسان وتأويل ومآل الإنسان في هذا الوجود الذي لم تظهر لنا إلا مقدماته، وما رأينا يضيء لنا ما يأتي. فإذا فهمنا النظام الذي يبثه القرآن سنشعر بالرحمة والود والحياة الطيبة، وسنخرج من الظلمات إلى النور، الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من النور إلى الظلمات، ومن القسوة والعذاب إلى الرحمة، ومن الكراهية إلى الود، ومن الحياة المعقدة التي ينتشر فيها الخبث إلى الحياة المطمئنة الطيبة. هذا ممكن وضروري وعلينا أن نكدح لكشفه. الناس سخروا المادة وسخروا الحياة الجسدية بمعرفة قوانينها، ولكن بقيت الحياة النفسية خفية علينا. ما زلنا لا نعرف الحياة المطمئنة السوية المبنية على الرحمة والود والسلام والصراط المسقيم إلى تحقيق الرحمة. وهذه كانت مهمة الرسل، "وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين"، عالمية الرحمة وعالمية الرسالة ووحدة البشرية.

ما معنى أن تكون أمة هي أربى من أمة؟ كيف سنكشف أن هذا المعنى متصل بأركان الإيمان والتوحيد وكلمة السواء وكلمة التقوى؟ كيف سنكشف معنى "كرمنا بني آدم"؟ وكيف سنعرف معنى الخلق الآخر في الإنسان، والروح التي نفخها الله في الإنسان، هذه الميزة الإنسانية العامة في البشرية كلها والتي تميز الإنسانية عن سائر المخلوقات "ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين". إن لم نبن تصورنا للكون والإنسان على أسس متينة راسخة فسيفسد كل شيء لأن الأساس الخرب يوهن البنيان كله، وهذا ما قال الله عنه: "فأتى الله بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم". إنني كثيراً ما أضرب المثل بالفساد في قمة العالم بحق الفيتو، الفساد الأكبر في العالم والأساس الموهن لكل البناء البشري. وعدم سماع الناس بإنكار هذا الأساس، الخبث الجاهلي، وسكوت الناس وإعراضهم عنه نوع من الفساد. وهناك نوع آخر من المقياس الفاسد في العالم: الافتخار بالقوة البشرية والمالية، المعبر عنه في القرآن بالأموال والأولاد. إن كثرة السكان وزيادة الدخل ليس هو الهدف الأساسي. فلم تأت على الأرض فترة أكثر سكانا وأعلى اقتصادا من الوقت الحالي، ولكن المشكلة ليست هنا وإنما في الفساد، وفي عدم المساواة بين السكان وعدم العدل في توزيع الأموال. ويكرر القرآن "وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحاً". الناس يفتخرون بارتفاع الدخل ولكن يخادعون في التوزيع ويخادعون في إهمال بحث هذا الموضوع، وسبب الفساد الذي ينتج عنه أن تكون أمة هي أربى من أمة هو نوع من الابتلاء والاختبار. لهذا يقول الله بعد هذه الجملة مباشرة "إنما يبلوكم الله به". هذا امتحان واختبار للقوة البشرية وقوة الإنتاج، أين ستوجه، وكيف ستستخدم، وهذا متصل بالمشلكة الإنسانية التي تزل عندها الأقدام ويسقط الناس صرعى لليدين وللجنب ويصيرون أحاديث لمن بعدهم. لهذا قال الله عن قوم موسى الذي قالوا: "يا موسى أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا". فأجابهم موسى: "عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون". وقال الله لأصحاب محمد (ص) في سورة محمد: "فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها". يقول لهم إن صرتم أقوياء وكثرت أموالكم وعزت أنفاركم كما قال الذي يحاور صاحبه: "أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا". إنه الفخر القديم، الفخر الزائف، الافتخار بالقوة والمال الجيش والأموال.

لهذا ألح وأكرر إن محمداً (ص) لم يأت ومعه المال والجند، وإنما جاء ومعه كلمة السواء وكلمة التقوى، أن لا يتخذ بعضنا بعضا أربابا. جاء ومعه كلمة الأمانة وكلمة الصدق فصنع بهذا الجند المنصورين، والأمة السواء المتساوين، وحفظ العهد والميثاق والأمانة والإيمان، لأن الإيمان بالله والإيمان بالأمانة هو العهد الذي أخذه الله على الإنسان حين نفخ فيه من روحه وكرمه. وهذا العهد والميثاق بيولوجي في الإنسان، يولد معه مع "ألهمها فجورها وتقواها". هذه القدرة في الجينات التي تصنع الجهاز العصبي للإنسان الذي لا يكرر الخطأ ولا يمد يده إلى النار ثانية، يكفي أن يخطئ مرة واحدة. يخلق الله الأطفال ومعهم هذا، وهذا هو العهد والميثاق والإيمان والأمانة التي قال الله عنها: "وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين". هذا الميثاق ميثاق العهد والأمانة والمحافظة عليها هو لب القرآن ولب الرسالات ولب المشاكل الإنسانية. كيف ينقضون العهد! إن جملة "أن تكون أمة هي أربى من أمة" جاءت ضمن الوفاء بعهد الله، هذا العهد المبثوث في القرآن كثيراً، عَهْدُ أن لا نعبد الشيطان والشر وأن لا يتخذ بعضنا بعضا أربابا. هذه الآية التي تتحدث في سورة النحل مع آية الأمر بالعد والإحسان وآية الوفاء بعهد الله الأزلي في عالم الذرة والجينات والوفاء بعهد الله الذي نقطعه على أنفسنا حينما نعقد المعاهدات، لهذا يقول الله: "وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا إن الله يعلم ما تفعلون ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم أن تكون أمة هي أربى من أمة إنما يبلوكم الله به". هذا هو البلاء العظيم والمبين. لا تخربوا ما بنيتم من عهد فيما بينكم اعتمادا على القوة، أن تكون أمة أربى من أمة. هذا هو الاختيار القاسي أمام العالم جميعاً. لهذا يقول الله في الآية التي بعدها مؤكداً هذا، أن لا نخادع ولا نعطي الوعود والعهود والمواثيق ونحن نضمر إمكان النقض اعتمادا على قوتنا، فيقول لنا: "ولا تتخذوا أيمانكم دخلاً بينكم فتزل قدم بعد ثبوتها وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله ولكم عذاب عظيم لا تشتروا بعهد الله ثمنا قليلا إنما عند الله خير لكم إن كنتم تعلمون ما عندكم ينفد وما عند الله باق ولنجزين الذي صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون". هذا الكلام ما كان حديثاً يفترى، وليس بالهزل، ونحن حين نقلل من قيمة العهود

والمواثيق اعتماداً على قوتنا أو قوة غيرنا وننقض الميثاق ونفقد الثقة فإننا نفقد الإنسان ونصير عباد الأوثان بعنجهية. حين نستخف بالأمانة فإنما نستخف بأنفسنا، ويستخف بنا الآخرون أيما استخفاف. أنا أريد من القارئ العادي، من المرأة العادية، والإنسان العربي العادي أن نبلغه الإيمان حتى لا يفرح بالغادرين والناكثين العهد، الذين ينقضون الأيمان بعد توكيدها. أين المواثيق العربية الإسلامية؟! أين المعاهدات؟ إنها تتبخر عند الاعتماد على القوة، سواء القوة الذاتية أو قوة الغير. إن الاعتماد على ذلك أول التخريب للإنسان في أعمق أعماقه. كيف سأوصل هذا إلى الإنسان العربي والمسلم؟ كيف أعيد إليه الإيمان بالصدق والأمانة وعدم النفاق؟ كيف سنعلم المثقف والمتدين أن يخرج من هذه الملل مهما كثرت وتنازعت لنفهم ملة إبراهيم فنعتصم بحبل الله وميثاق الرشد والعروة الوثقى، لا نفرح بالذي ينقضون العهد والميثاق ويشترون به ثمناً قليلا بل دمارا مؤلما نتجرعه ولا نكاد نسيغه.

81. فتية أهل الكهف

تدور قصص القرآن حول المشكلة الإنسانية، مشكلة الهداية والضلال، مشكلة "ألهمها فجورها"، مشكلة صناعة الإنسان وتربيته من قبل المجتمع. قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها. هذا لأن عملية التغيير وظيفة بشرية حسب القرآن، وظيفة الجهاز العصبي القابل للتعلم بالنظر إلى العواقب. ومعرفتنا لهذا يدلنا على كيفية أفضل استخدام لطاقة الإنسان وتحويله إلى أحسن تقويم بدل أن يتحول إلى أسفل سافلين.

وفتية أهل الكهف هربوا من فتنة المجتمع الذي يعيشون فيه. كانوا يطلبون الرشد والرحمة، كانوا يفرون من العذاب. لهذا لما آووا إلى الكهف قالوا، ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشدا. الرحمة حل المشكلة من دون آلام وخسائر. وهذا نتيجة فلسفة فهم العالم بأنه مسخر للإنسان، خدمة مجانية بفضل ما أعطي للإنسان من قدرة على الفهم وكشف السنن. إن الرحمة لا تتم إلا بفهم طبيعة الإنسان بأنه يعطي على الإقناع ما لا يعطي على الإكراه، وهذا هو الفرق بين ملة إبراهيم وملة آزر الذي لجأ إلى الرجم والتهجير للمخالف في فهم الإنسان ونظام الكون.

إن الإنسان في حاجة تراكم معرفي، وأن لا تضيع تجارب الأمم ولا تتكرر الأخطاء فيدفع الإنسان الأثمان الغالية هباءا. لهذا كان مطلب فتية أهل الكهف الرحمة والرشد، الرحمة بدل العذاب، والرشد بدل الغي والكراهية والحقد، لأن الغي والكراهية والحقد نتيجة جهل التسخير، ونتيجة جهل سنن الكون والإنسان. لا بد من إدراك هذا التسلسل البين والأصيل في القرآن وفي آيات الأفاق والأنفس التي هي مرجع القرآن والتي ستشهد أن القرآن حق، لأن الواقع هو الذي سيصحح فهمنا للقرآن، وعدم فهم هذه العلاقة بين الكتاب والواقع من أعقد المشكلات في الفهم الإنساني عامة والفهم الإسلامي خاصة.

والله يقول "نحن نقص عليك نبأهم بالحق إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى". آمنوا بربهم أي عرفوا قانون الله في الوجود فآمنوا عن علم بثبات السنن. فهذا هو أصل الإيمان، أن الكون ليس باطل الأباطيل وأنه تعالى لم يخلقه باطلاً، ذلك ظن الذين كفروا. هذه الأصول ينبغي أن نحييها بوعي عميق ويقين صادق لا تصرفنا عنها قصص الخوارق. ندخل إلى سننية القرآن ونخرج من خارقية الأولين. هذا ما جاء به القرآن وألح عليه ولن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا. هؤلاء فتية أهل الكهف توضح لهم هذا واطمأنت قلوبهم فأعلنوا إيمانهم بعد أن ترسخ لديهم هذا الفهم لربهم. يقول في القصة، "وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السماوات والأرض لن ندعو من دونه إلهاً لقد قلنا إذا شططى". هذا تسلسل في الفهم والربط لمعرفة نظام الكون والإيمان بخالقه، وعلى هذا الأساس تكون معرفة وقدرة الإنسان وإمكاناته. هذا معنى لن ندعو من دونه إلهاً آخر لقد قلنا إذا شططى.

ومن دون فهم هذا النظام يكون فهمنا لله فهم الجاهلين. نحن الآن لا نكفر بالله ولكن الله الذي نؤمن به ليس هو الله الحكيم الرحيم الذي سوى النفس الإنسانية القادرة على الفجور والتقوى. ما زلنا نظن بالله ظن الجاهلية. إن قدرة تحويل الإنسان إلى التزكية والتدسية بيده هو. لهذا قال أهل الكهف هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة لو لا يأتونا عليهم بسلطان بين فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً. هذا هو الفهم الخاطئ لرب العالمين، وافتراء على

الله الكذب. وهذا هو الذي يفسد عقول الناس وخاصة في هذا العصر الذي حدث فيه الإعراض عن الله بسبب الافتراء على الله وانتشار التصور الجاهلي لله. لا بد من تصحيح فهمنا لله وهذا سبب مجيء الأنبياء. أتوا ليحيوا هذا الأساس ويجددوا فهمنا، وخاصة التوحيد، المحور الأساسي الذي هو مشكلة اجتماعية. فالتوحيد منظومة متكاملة تظهر عواقبها في المجتمع وتخلق نظامه السياسي على أساس كلمة السواء بين البشر.

والشاهد الذي أريد من هذه القصة الأصلية في القرآن والتي تدعم القصص الأخرى هو ما يكرره القرآن دائماً وأبداً: أن لا يتخذ البشر آلهة من دون الله، لأن نظام الكون من خالق واحد، يكون الفساد حين تخرج على قوانينه، وإن لم تصدقوا "فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين". هؤلاء فتية أهل الكهف لما استيقظوا وهم فهموا المشكلة جيداً وبوضوح، أدركوا مكان النزاع بينهم وبين قومهم في الحوار الذي جرى بينهم، ولما بعثوا أحدهم إلى المدينة ليتزودوا بالطعام، نصحوه أن يكون لطيفاً وأن لا ينازع أحداً حتى لا ينكشفوا. قالوا لبعضهم: لأنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم في ملتهم ولن تفلحوا إذا أبدا. هؤلاء الفتية فهموا هذه الملة التي انفصلوا منها فهماً جيداً. نجدهم يكررون حوار إبراهيم وآزر حتى بنفس الألفاظ. يكررها المؤمنون في وصف الكافرين، ويكررها الفتية الذين آمنوا بربهم وزادهم هدى، وهناك في قصة إبراهيم، آزر أبو إبراهيم هو الذي يقول لإبراهيم: أر اغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم لئن لم تنتهي لارجمنك واهجرني مليا. وهؤلاء فتية أهل الكهف فهموا جيداً ملة آزر كما فهموا ملة إبراهيم، لهذا كرروا الكلمات الثلاث، الملة، والرجم والتهجير. والملة هي المجموعة البشرية التي لها تصور خاص يتمحور حول رفض التصورات المخالفة لها وأسلوبها الرفض والرجم والتهجير. لهذا قال فتية أهل الكهف "إنهم أن يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم في ملتهم ولن تفلحوا إذاً أبدا".

هذا الحوار أبدي بين الأنبياء وأقوامهم في رفض المخالف فكرياً، وينبغي أن نؤكده هذا الاختلاف فكرياً فقط وأن لا نخلط الأمور لأن الخطأ يفسد. ينبغي أن لا نجعل الفكر يلتبس بغيره إلى العدوان والسبب في ذلك، "ليهلك من هلك عن بينة ويحيي من حيي عن بينة"، أي أن لا يكون موت الأفكار وحياتها بالقتل، لأن تغير الأفكار ممكن بالعلم ولا ينبغي أن يختلط علينا هذا، ويجب أن نعرف قانون الأفكار "الزبد يذهب جفاء وما ينفع الناس يمكث في الأرض" أنه قانون الله، يحمي الأفكار النافعة ويذهب بالضارة. وسبب بقاء الأفكار الغثة هو نوع من ضرب الحصار على الفكر ومقتضى العدل وكلمة السواء أن تُعطي الأفكار جميعا فرص الحياة والسماع ليتخلى الناس عن الأفكار الخاطئة طوعاً لا كرهاً. إن عدم وضوح هذه النقطة هي التي تجعل الأفكار الصائبة بطيئة النمو وتبقي الأفكار الخاطئة لمدد طويلة.

ينبغي أن نزيل من الأنفس الخوف من الأفكار الخاطئة. وسأظل أقول بأني لا أخاف من أن تنتصر الأفكار الخاطئة، وبأني لن أحول بينها وبين أن يسمعها الناس، لأن قانون الله في هذا هو أن الزبد يذهب جفاء وما ينفع الناس يمكث في الأرض. والخوف من الخطأ هو بسبب وهم الناس بأن الحق ضعيف والباطل قوي، وهو ظن سيء بالحق وبالباطل أيضاً، لأن القانون في هذا "بل أكثرهم لا يعلموا الحق فهم معرضون". ليس الباطل قويا، وليس الحق ضعيفا. إذا علم الناس الحق ووصل إليهم لن يبقى أكثر الناس مع الباطل، بل مع الحق. وهذا قانون نغفله وعلينا أن نحييه. وفي ختام هذه المقالة ينبغي أن نعيد تأكيد الحق المهجور في قوله تعالى: "وقد جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا". ونحن إنما نعكس هذا ونظن في أعماقنا، جاء الباطل وزهق الحق. ولكن لم يأت الحق بعد، ولهذا انتصر الباطل الأقوى على الباطل الأضعف وليس الحق على الباطل. وسبب الفساد في الكون هو هذا الظن السيء بالحق وبالإنسان.

82. "إن الله يدافع عن الذين آمنوا"

سأحاول تطبيق القراءتين، القراءة الإلهية والقراءة البشرية، على هذه الآية. علينا أن نكشف قوانين القرآن كما اكتشف الإنسان قارات الأرض والمجرات. علينا أن نكتشف قارة القارات، النفس الإنسانية، أبدع ما خلق الله، والخلق الآخر الذي سجدت له الملائكة، وسخر له ما في السماوات وما في الأرض جميعاً لخدمته مجاناً.

ما هذا الإنسان؟ وكيف يدافع عنه الله؟ وكيف يدافع هو عن نفسه؟ إن الله خلق الإنسان ولكن على الإنسان أن يؤمن ويكتشف ما هو الإيمان. هذا قلب للأمور. علينا أن نكشف النفس الإنسانية، النفس المسواة، المبدعة من الله بديع السماوات والأرض. علينا أن نكتشف مركزية الإنسان ونتخلى عن مركزية الإنسان، ونتخلى عن مركزية الآخر لنكشف عن مركزية الأنا، لنكشف قانون "من عند أنفسكم" ونلوم أنفسنا بدل الآخر عند المصيبة. إن النصر من عند الله وإن الهزيمة من عند الله. والنصر من عند الإنسان والهزيمة من عند الإنسان كما هما من عند الله. النصر له سننه والهزيمة لها سننها. إنهما ثمرة الأشجار التي نزرعها. هل يمكن أن تجني من الشوك عنباً ومن الحسك تيناً. فما لهؤلاء القوم لا يكاد يفقهون حديثاً. لا بد من كشف هذا التوافق. إن قوانين الإنسان خفية الآن مثل ما كانت قوانين حركة الشمس والأرض. فكما انخدع الناس بالحركة الفلكية فإنهم مخدوعون الآن بالحركة البشرية. لو اتبع الحق أهوائهم لفسدت السماوات والأرض. لو كانت الشمس هي التي تدور حولنا لفسد نظام الكون، لأن أهواءنا كانت تظن ذلك. واليوم تظن أهواءنا أننا يجب أن ندافع عن أنفسنا ولا قدرة لنا على الاستغناء عن الدفاع عن النفس.

لن تكون في أمان مادمت تدافع عن نفسك بالأسلوب الذي أشتبه علينا.

كيف سأعلم الناس هذا الجنون؟ ولماذا كل الرسل وصفوا بالجنون، "كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون أتواصوا به بل هم قوم طاغون". الجميع ينكرون ما جاء به الرسل كأنهم تواصوا به واتفقوا على رفضه. الأمر ليس كذلك، بل هم قوم طاغون. إنهم نقضوا الميثاق، وعبدوا الطغيان، وآمنوا بالطغيان، وعبدوا الطاغوت في ذاتهم قبل أن يعبدوا الطاغوت الذي أمروا أن يكفروا به، يتحاكمون إلى الطاغوت، وإلى الإكراه، الذي هو شأن الطاغوت. لو أنني طوال حياتي ما كشفت إلا هذه الفكرة لكانت كافية. وأنا قضيت أكثر من نصف عمري في إبراز أن الأنبياء ليسوا مجانين وأن ابن آدم الأول لما قال لأخيه: "لئن بسطت يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك إني أخاف الله رب العالمين" أنه كان يقول، أخاف أن أنقض الناموس وسنة الله وانقض العهد والميثاق وأعبد الطاغوت الذي في داخل الإنسان فيتملكني الطاغوت الذي في داخل الآخر. إن سورة العلق، أول سورة نزلت، ذُكرت فيها ثلاث مبادئ كبيرة: أولا، أن القراءة وسيلة الفهم، لولا القراءة ما عرفنا الفلك ولما وصل إلينا العلم، لهذا آدم فقط الذي علمه الله الأسماء وجهلتها الملائكة، أي أن الإنسان تميز بقدرة التسمية. والفكرة الثانية، إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى إن إلى ربك الرجعى. إن الطغيان موجود في قلوبنا وفي داخل كل واحد منا. ولكن الطغيان ليس مكتوبا علينا، وإنما هو داخل في قانون "ألهمها فجورها وتقواها"، أي أن التنشئة هي التي تجعل الإنسان يختار الفجور أو التقوى، الطغيان أو السواء.

إن المجتمع الذي بشر به الأنبياء هو مجتمع القانون ومجتمع السواء وأن لا يكون فوق القانون أحد من البشر. هذا هو التوحيد الذي جاء به الأنبياء جميعاً ضد مجتمع الشرك الذي يجعل بعض الناس أرباباً فوق بعضهم، القوي فوق القانون، حتى يأتي قوي آخر ويتغلب عليه ويأخذ مكانه. فكر الاعتماد على القوة في فرض القانون هو الشرك، ولقد جاء الأنبياء ليقلبوا هذه الفكرة. ليست القوة والغلبة هي التي تفرض القانون. هذا المفهوم هو الشرك وهو عبادة الأقوياء وهو شريعة الغاب. والذي يعيش في مجتمع شريعة الغاب والشرك يجب أن لا يغير هذا الوضع بالقوة، لأن الاعتماد على القوة يلقيه في الحلقة المفرغة مرة أخرى، ويلغي الشرعية. ينبغي أن يحمي المجتمع أفراده من عدوان بعضهم على بعض، فإذا كان كل فرد يحمي نفسه فهذا يعني شريعة الغاب ومجتمع الشرك ومجتمع الطاغوت. لهذا منع الأنبياء الدفاع عن النفس حين يعتدي عليك ممثل المجتمع لأجل أفكارك، لأن

دفاعك عن أفكارك بالعنف يعني أن تريد إثباتها بالقوة وهذا يعني أنك عدت إلى ملة الغاب. والأنبياء هم وحدهم الذي بدؤوا بتغيير مجتمع الغاب والإكراه بالإقناع والصبر على الأذى، أي مجتمع الرشد بالرشد. فالفرد في المجتمع الراشد ليس في حاجة إلى أن يدافع عن نفسه، لأن المجتمع يحميه. هناك قانون، وهناك قاضي، وهناك سلطة تنفيذية.

إن الخروج على المجتمع لا يكون إلا بالفكر والدعوة، ويجب أن يشعر الإنسان إذا ظُلم خارج القانون، حسب مفاهيم القرآن، كأن الناس جميعاً ظلموا، وينبغي أن نبين هذا للناس ولهذا يقول القرآن: "ومن قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات ثم إن كثيراً منهم بعد ذلك في الأرض لمسرفون...". عدم تطبيق القانون على كل الناس هو الشرك، هو الذنب الذي لا يغتفر. لما يصبح شخص واحد فوق القانون يفسد المجتمع وتهلك الأقوام. وهذا ما أوحي إلى جميع الأنبياء: "لقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين". إن الامتيازات هو الشرك، ولهذا أقول وألح إن ما جاء به الأنبياء هو للناس جميعاً، أي رب العالمين أرسل رسالة عالمية للعالمين. ومن هنا فإن حق الفيتو هو الشرك العالمي الذي يعيق نمو العالم، وليس من رجل رشيد ينكر هذا بالفكر والبحث واستقراء التاريخ. كانت الأمم تهلك ولكن العالم جميعاً في مشكلة الآن. يجب على الناس أن يرفضوا أن يكون أحد فوق القانون، بحيث تصبح قرارات الأمم المتحدة متخذة بكلمة السواء وشريعة السواء من غير أن يكون من لأحد امتيازات. ينبغي أن يطرح هذا للاستفتاء في المجتمع العالمي وكل المجتمعات المحلية. فحين يصنع البشر مثل هذا المجتمع، فهناك يدافع الله عن هذا المجتمع الذي آمن بالسواء، ويحميه ويحمي فيه الأفراد. إن الله يحمي الأفراد والمجتمعات التي تغير ما بأنفسها في فهم الطاغوت والشرك وشريعة الغاب والامتيازات. إن القبول النفسي لهذا الوضع هو الذي يجعل الناس معرضين للعدوان عليهم. يقول الله "يا أيها الناس إنما يفيكم على أنفسكم"، ويقول "من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها"، ويقول "ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس". إن هذا كله يحكمه قانون: "إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم". إن الصلاح والفساد يأتيان من تغيير ما بالأنفس. فالذين يغيرون ما بأنفسهم يدافع الله عنهم ويحميهم. يقول الله: "الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم المهتدون".

83. القرآن يهدي ويبشر

أكثر من مليار من البشر يؤمنون بأن هذا الكتاب من عند الله، يقدسونه، ويتبركون بتلاوته، وفي كل عام تعرض المسابقات على حفظه وتجويده في الأقنية الفضائية. وأطفال المسلمين يحفظونه غيباً ويكثر الحفاظ للقرآن ومدارس تحفيظ القرآن. وهذا الكتاب ليس كبير الحجم، بل يكدس في صفحة واحدة ويعلق على جدران المنازل والمساجد.

فما شأن هذا الكتاب؟

كيف يمكن أن نتفهم هذا الكتاب؟ وكيف يمكن أن ندخل إليه؟ كيف يمكن أن نفتح بابه، أو كيف يمكن أن نجد المفتاح للدخول إليه؟ نعم إنهم يحفظونه كلمات، ولكن كيف يمكن الدخول إلى هذه الكلمات لنفهم النظام الذي يحكمه والمنطلقات التي ينطلق منها؟ وكيف يمكن أن نكشف أن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم، وكيف يبشر المؤمنين، وكيف أن هذا القرآن يقول عنه الذي أنزله أنه روح: "أوحينا إليك روحاً من أمرينا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم". إننا لا نفهم من هذا الكتاب إلا أنه "يضل من يشاء ويهدي من يشاء"، "ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً". منذ أسبوع كنت في جنازة وبينما كنا ننتظر الدفن اقترب مني شخص بأدب وحياء وقال أنه يريد أن

يسألني منذ وقت طويل عن آية معينة. قال إنه يشعر بحرج كبير حين يقرأ "يضل من يشاء ويهدي من يشاء ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشدا" وكذلك، "قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتزل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير".

إننا نعيش مأساة حقيقية عالمية، بعضهم يرى المشكلة في الشمال الغني والجنوب الفقير وسوء توزيع الموارد وأن ستة من البلاد العربية تعدادهم 150 مليون دخلهم لا يساوي إلا دخل هولندا الذي تعداده 15 مليون إنسان فقط، والبعض يرى أن الأرزاق بيد الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر لمن يشاء، وكأن الله هو المسؤول عنها وأن الآجال والأرزاق محددة إذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون. ولكن لماذا آجال وأعمار الذين يعيشون في الشمال أطول وآجال من يعيشون في الجنوب أقصر؟ هل الله يوزع الأرزاق على أساس الجغرافيا؟ أو يهديهم أو يضلهم اعتباطا؟

لا يستطيع الناس أن يتخيلوا أن العالم تحكمه سنن وقوانين، حتى الذين يكفرون بالله لا يستطيعون أن يكفروا بالسنن والقوانين لأنها فطرة في الناس، إلا أن بعض القوانين خفية لابد من إظهارها. فكما أن قوانين الكهرباء كانت موجودة في الطبيعة ولكنها كانت خفية على البشر، كذلك كانت الأمراض والجراثيم خفية. ولكن البشر تعلموا وزادت الأعمار، وقلت الآلام، ولكن بقيت أرزاق وأعمار الناس حسب مكان ولادتهم. ففي الشمال الأرزاق مبسوطة بينما في الجنوب مقترة. هذا لأن أهل الشمال يفسرون العالم بشكل وأهل الجنوب يفسرون العالم بشكل آخر. إن ما بالأنفس هو الذي يختلف وبناءا عليه يختلف ما بالأقوام من نعمة أو نقمة. "ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم. هذه هي فلسفة القرآن.

وكنت كتبت عن هذا في مقال سابق تحت عنوان: "قراءتان للقرآن قراءة بشرية وقراءة إلهية". وهذا الموضوع في حاجة إلى بيان وبلاغ مبين. كثير من الناس العاديين الطيبين في العالم الإسلامي يشعرون بغموض وإشكالية في هذا الموضوع، وأنا كنت ذكرت آية مفتاحية في تلك المقالة: "إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم". ومثل هذه الآية فيها تغييران وفاعلان. التغيير الأول فاعله الله، أي لا يغير الله النعم ولا يغير النقم حتى يغير الأقوام ما بأنفسهم من التصورات والمفاهيم والأفكار عن الله والكون والإنسان. والله يقول أنا لا أغير النعم والنقم حتى تغيروا أنتم ما بأنفسكم، ونحن فهمنا أن الله هو الذي يغير ما بالأنفس. إن تغير ما بالأنفس وظيفة بشرية. الناس هم الذين يقومون بها. يقول الرسول (ص) كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه ويمجسانه ...إلخ. وهذا يشمل كل الملك، المؤمنة وغير المؤمنة، والرسول (ص) حين يقول "يولد على الفطرة" فهذا ليس معناه أنه يخلق مسلماً أو يهودياً بل يخلقه ملهما الفجور والتقوى، وهذه القدرة المزدوجة يرجع تحويلها إلى أحد الأبوين وإلى المجتمع، أي إلى البشر. والدليل على هذا آية مفتاحية أخرى تقول "ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقوها قد أفلح من زكها وقد خاب من دساها". هذه الآية لها جرى ونغم ووزن، كلماتها موزونة فهي ليست بشعر ولكن فيها سهولة في النطق والترتيب. في هذه الآية تتحدد طبيعة النفس وإمكاناتها، فهي مسواة تسوية عجيبة، تحتوي على طبيعة رائعة. إمكانية بديعة. فالنفس مسواة من صنع الله وهذه التسوية هي الإلهام بالفجور والتقوى.

الكون كله مسوى باتجاه واحد، إلا الإنسان مسوى باتجاهين، أي فيه القدرة على الفجور والتقوى. هذه القدرة من الله ولكن تحويلها إلى الفجور أو التقوى فهو من البشر، لأن فاعل "أفلح من زكاها" هو الإنسان نفسه، فهو خرج من بطن أمه لا يعلم شيئا، خرج خلقا خاماً قابلاً للتحويل والتحويل إلى التدسية أو التزكية. والبشر بدءوا يكشفون التمكن من هذه المهمة التحويلية إلى التزكية والتدسية شيئا فشيئا. وأن أشعر بضرورة خدمة هذا الموضوع لأن القرآن أحيانا يذكر ما يفعله الله وأحيانا يذكر ما يفعله الإنسان. الإنسان يتزوج ولكن الله بقوانينه وسننه يخلق من هذا الفعل إنسانا آخر، لهذا قال الله: "أفرأيتم ما تمنون أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون". كذلك الزرع، الإنسان يزرع ولكن قانون الإنبات من سنن الله وصنعه. الله خلق التربة والشجرة ولكن الإنسان هو الذي صنع البستان من رأس مال الله. فالقرآن لا يذكر في كل آية وفي كل حدث بشري الفاعلين أو العملين، عمل الله وعمل الإنسان. الله يخلق النتائج والإنسان يمارس الأسباب والآيات التي تُشكل على الناس يذكر الله فيها عمل الله والنتائج والأسباب، ولكن الإنسان هو الذي يتدخل في الأسباب والتسخير ويتسبب في الحدث. فيا حبذا لو أننا نعلم الأطفال هذا الموضوع كما نعلمهم الحروف والكلمات حتى يكونوا على بينة من ربهم ومن أنفسهم ويعرفوا نعمة الله واستخلافهم في الأرض. لو فهموا هذا لزكوا الأنفس بدل تدسيتها وزكوا الأرض بدل إفسادها. لو أن المسلم أخذ آية التغيير أو آية

التزكية والتدسية ليميز عمل الله وعمل الإنسان فسوف يجد الانسجام والنور والهدى، فحيث يذكر القرآن "يضل" يذكر أنه لا يضل إلا الفاسقين، والناس يجدون ما كسبت أيدهم ولا يجزون إلا ما كانوا يعملون.

ولو أن إنسانا قرأ القرآن كله وهو يطبق قانون عمل الله وعمل الإنسان لفهم القرآن بشكل أوضح. ولقد تبينت لي أهمية هذا الموضوع حين زارني رجل وسيدة من تونس يعملون لتلفزيون فرنسي. فكان من حديثهما معي أنهما أطلعا على المقال الذي يتحدث عن قراءة القرآن وأن هذا حل لهما الإشكالية، فشعرت أن بعض الناس يتمكنون من التقاط ما أهدف إليه وأسعى له من الدخول إلى القرآن من جديد وفق آيات الآفاق والأنفس التي ستشهد بأن هذا الكتاب حق وأن الناس جميعاً سيضطرون إلى قبول هذا النور الذي يخرج الناس من الظلمات إلى النور والحمد لله رب العالمين.

84. ويخلق ما لا تعلمون

هذا العصر زمن مختلف، دخل فيه الإنسان ولم يتكيف معه بعد، ولم يدرك أبعاده وما سيترتب على وعي الإنسان. لقد توسعت مجالات العلوم والتسخير وتطلب ذلك التخصص، ولكن أمام الإنسان مشكلات للتكيف مع العهد الجديد وأبعاده. وما يزال الإنسان، رغم التغيرات التي حوله، يتمسك بنظم فكرية تناسب القرون الخالية. فكأن الإنسان، حين يتناول العالم ولم يعرف كيف تطور وزاد الله فيه من الخلق، يعجز عن فهم ما حدث، وكأنه يعجز أيضا عن التغير والتطور.

لما كتب توماس كون، العالم الأمريكي، كتابه، (The Structure of Scientific Revolutions) (بنية الثورات العلمية) تنبه إلى صعوبة تقبل الأفكار العلمية الجديدة. وحاول أن يكشف العوامل التي تمنع الناس من قبول الأفكار والعجز عن فهمها، فبحث الموضوع في الكشوف الجديدة مثل الفلك والنظريات الفيزيائية بل والنظريات الاجتماعية وقوانين الاجتماع والمعرفة. وشرح كيف أن بنية معرفية معينة تحمي نفسها من إمكان فهم ما يتعارض معها، لأن دخول شيء جديد يهدد النظام القديم. فكأن الإنسان يشعر بأن العالم الذي كان يعرفه قد تهدم، فيقاوم التطور الجديد. فمثلا فلك كوبرنيكوس مختلف ومنقلب عن فلك بطليموس، وفيزياء نيوتن مختلفة عن فيزياء إنيشتاين، وكذلك فهم الناس للطب الجسدي مختلف خلال العصور.

إن الصورة الثابتة للكون لها مبرراتها أيضاً، لأن السنة ينبغي أن تكون ثابتة وهذا الشيء يؤكده القرآن بأسلوب قوي، "ولن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلا". فثبات السنن شيء أساسي، ولكن فهم الإنسان للسنن غير ثابت، حيث يظل يضيف ويحذف ويصحح محاولا الاقتراب من الفهم الأصح، وهكذا يكشف الإنسان سنناً جديدة في الفلك والفيزياء والخلية والجهاز العصبي ويسخرها.

الجسد المادي والتركيب الحيوي ونظام الفكر، كلها أنظمة تحمي نفسها. فكما تحمي الأجساد نفسها فإن النظم الفكرية تحمي نفسها أيضا، ولذلك سار النظام الاجتماعي الملكي مع البشرية مدة طويلة، وأصبح منظومة مقبولة، ثم جاءت أفكار تعارض هذه المنظومة وأدت إلى زوال الملكيات وملكية البشر بعضهم لبعض. وفي كل عصر يحرص قادة الفكر والسياسة على رفض أي فكرة جديدة لمنع الناس من التفكير بالمنظومة المفروضة بتحريم الفهم المغاير. وهذا يؤدي إلى خضوع الناس لهذه المسلمات، بسبب منع المعلومات من الوصول إلى الناس وعجز الناس عن طلب المعلومات. والنظم الفكرية تقوم بنوع من قمع حب الاستطلاع عند الإنسان بآليات مختلفة، بل وتصيغ الإنسان على قالب لا يتمكن فيه من قبول الفكر الجديد.

والآن حين يبحث الناس الدين –أي التصور المقبول للوجود– وفكرة البنيوية –أي الأفكار الأساسية التي ترجع إليها كل التصورات الأخرى– ويناقشون الحقول المعرفية ويقسمون العصور إلى عصور معرفية كلاسيكية وحداثة وما بعد حداثة فهم يقومون بنوع من حفريات المعرفة أو (أركيولوجيا المعرفة)،

حسب ما يسميها المفكر الفرنسي الراحل ميشيل فوكو. ونحن علينا أن نمارس النظام المعرفي للقرآن في تصور العالم ونظامه وماضيه ومستقبله ومسلماته والمجالات التي يفتحها. فإذا كان للفكر عصور في تطور فهم ما في السماوات من أجرام، فعلينا أن نرجع إلى القرآن لنقوم بالانتقال بين عصوره خلال تقدم المعرفة. فمثلاً نرى التصور التقليدي حين نفتح أبصارنا على هذا العالم كما فهمه الناس قديماً، ولكن التصور الذي يعرضه القرآن، والمرتبط بالسير في الأرض والنظر في كيف بدأ الخلق، تصور جديد كل الجدة، حتى أنه لم يكن في مقدور الذين نزل عليهم القرآن إدراكه، أو تصوره. ونرى هذا التفاوت التاريخي لما نقرأ قوله تعالى في سورة النحل من أنه "خلق السماوات والأرض بالحق تعالى عما يشركون. خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين. والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون. ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون. وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرؤوف رحيم. والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون". هذه الآيات تذكر خلق السماوات والأرض بالحق، نظام حق لا باطل والإنسان خلق من نطفة، فإذا هو خصيم مبين مجادل يريد البيان والوضوح. ثم يذكر الأنعام وفي وقت نزول الآية لم يكن المسلمون الأوائل يعرفون أن الأنعام يوماً ما لم تكن داخلة في حياة الإنسان إلا كصيد، وأنها تحولت إلى وسائل حمل واستخدام لنقل الأثقال والحرث بعد أن استأنسها الإنسان. وعندما ختمت الآية بذكر "ويخلق ما لا تعلمون" لم يكن لأحد قدرة على تصور ماذا سيخلق الله من المراكب وحمل الأثقال. وحتى المفسرون العظام كان مغلقاً أمامهم هذا الموضوع، بينما نحن الآن نرى مصداق هذا الخلق الموعود في عضرنا، وكيف أبدع الإنسان بقدرته على التسخير لنظام الكون وسائل للنقل والركوب. ولكن قانون "ويخلق ما لا تعلمون" مفتوح بابه لا يمكن أن يغلقه أحد وهذا شيء بسيط وقريب وسهل الوصول إليه. وآية "ويخلق ما لا تعلمون" تحمل في طياتها تصورا جديدا لحركة الكون والمجتمع.

وأنا سقت المثال المتعلق بوسائل النقل ليساعدنا على الانتقال إلى مجال أصعب وأبعد، فمثلاً كان المفسرون يقفون أمام آيات سورة النحل ولم يتصوروا أن الإنسان سيصنع الوسائل الأخرى من رأس مال الله الذي أعطاه من العقل والكون القابل للتسخير بالسنن. وعلماء زماننا لا يزالون يقفون نفس الموقف المظلم الذي لا يتمكن من الفهم والتصور المبدع حين يختم الله آية خلق الإنسان الذي اتهم بالفساد بالأرض وسفك الدماء بأنه سيخلق ما لا يعلم الملائكة. لا قدرة للمعاصرين على تصور ما ختم الله به آية استخلاف الإنسان في الأرض، التي تقول: "وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال: إني أعلم ما لا تعلمون". أي أننا لم نستطع أن نستوعب الفكرة الجديدة في القرآن عن الإنسان، لأن الله قدم تنبؤا مختلفا للإنسان عما قدمته الملائكة.

لما نضع (إني أعلم ما لا تعلمون) مع قوله تعالى (ويخلق ما لا تعلمون) فسنعرف أو على الأقل سنتمكن من معرفة إمكانات الإنسان وإمكانات التغيير، حتى لا نتنكر للذين يدعون إلى علم الله في الإنسان بالخروج من الفساد في الأرض وسفك الدماء. والذين يظنون ضرورة بقاء الفساد في الأرض وسفك الدماء إنما يؤخرون تحقق القضاء على الفساد في الأرض وسفك الدماء مع أن إمكانات القضاء على الفساد وسفك الدماء صارت ملامحها الآن واضحة.

حان الوقت لمنظومة فكرية جديدة. حان الوقت لنحقق علم الله في الإنسان. "ويخلق الله ما لا تعلمون".

85. كيف أضعنا نواة الشورى

إن الله لما ذكر في القرآن وسائل النقل التي كانت معروفة إلى عهد قريب ذكر الخيل والبغال، ثم قال "ويخلق ما لا تعلمون"، ونحن رأينا وسائل جديدة للنقل في عصرنا لم تكن لتخطر على بال أحد من البشر. بل حتى أن وسائل نقل الأفكار والمعلومات تطورت في العقود الماضية بسرعة عجيبة. أما وسائل نقل الحكم خلال التاريخ البشري فقد كانت تتم بالعنف والقتل والوراثة، إلا أن البشر طوروا أيضا وسائل انتقال الحكم في الغرب بإدخال مفاهيم الشورى والعدل والمساواة. وهي أمور يصعب على كثير من المجتمعات اقتباسها والتكيف معها لطول المدد التي عاشها الناس على الطرائق القديمة. أي أن المجتمع الذي لا يمارس الديمقراطية الآن هو كالفرد الذي يركب الخيل والبغال والحمير في عصر السيارات والطائرات. ولا يتمكن الناس من التكيف مع الطرق الحديثة، لأن التغلب على المواريث التي ترسخت في نفوس الناس صعب وخاصة أن رصيد تحصيل هذه الطرق الحديثة جاء بتطور بطيء وبمعاناة شديدة، ودُفعت أثمان باهظة من الحروب والفتن التي كانت تبدد الموارد البشرية. وهذا الوعي التجريبي التاريخي المتعمق والممتد هو الرصيد الذي أوصل البشر إلى إبداع وسائل الحكم بين الناس بالعدل والمساواة والخروج من العنف والوراثة الأبدية للحكم.

والعصر الإسلامي الأول كان متكيفاً وقدم نموذجاً ولو كان فلتة تمت لمدة قصيرة، ولكن الله وقى شرها باعتراف عمر ثم جعلها شورى بين الستة أشخاص الذين مات رسول الله وهو عنهم راض. ذكرت في مقال سابق كيف كان الرسول (ص) وأصحابه ينفذون الشورى في اتخاذ قرارات الحرب بطلب من الرسول وبمبادرة من أصحابه. وسأسوق لكم مقطعا مطولا عن موضوع الشورى في انتخاب الخليفة كما ورد في البخاري: "عن ابن عباس قال ...قدمنا المدينة في عقب ذي الحجة فلما كان يوم الجمعة عجلت الرواح حين زاغت الشمس حتى أجد سعيد بن زيد جالساً إلى ركن المنبر فجلست حوله تمس ركبتي ركبته فلم أنشب أن خرج عمر فلما رأيته مقبلاً قلت لسعيد ليقولن العشية مقالة لم يقلها منذ استخلف فأنكر علي وقال ما عسيت أن يقول: ما لم يقل قبله فجلس عمر على المنبر فلما سكت المؤذن قام فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال أما بعد فإني قائل لكم مقالة قد قدر لي أن أقولها لا أدري لعلها بين يدي أجلي فمن عقلها ووعاها فليحدث بها حيث انتهت راحلته ومن خشي أن لا يعقلها فلا أحل أن يكذب علي، إن محمداً (ص) بالحق وأنزل عليه الكتاب ... فذكر أموراً... ثم قال إنه بلغني أن قائلاً منكم يقول: والله لو قد مات عمر بايعت فلاناً فلا يفترن امرؤ أن يقول: إنما كانت بيعة أبي بكر فلتة وتمت ألا وأنها قد كانت كذلك ولكن الله وقى شرها وليس فيكم من تقطع الأعناق إليه مثل أبي بكر من بايع رجلاً من غير مشورةٍ من المسلمين فلا يبايع هو ولا الذي بايعه تَغِرَّةً أن يقتلا وإنه قد كان من خيرنا حين توفى الله نبيه (ص) أن الأنصار خالفونا واجتمعوا بأَسْرِهم في سقيفة بني ساعدة وخالف عنا علي والزبير ومن معهما واجتمع المهاجرون إلى أبي بكر فقلت لأبي بكر: يا أبا بكر انطلق بنا إلى إخواننا هؤلاء الأنصار فانطلقنا نريدهم فلما دنونا منهم لقينا منهم رجلان صالحان فذكرا ما تمالأ عليه القوم فقالا: أين تريدون يا معشر المهاجرين؟ فقلنا نريد إخواننا هؤلاء من الأنصار فقالا لا عليكم أن لا تقربوهم اقضوا أمركم فقلت والله لنأتينهم فانطلقنا حتى أتيناهم في سقيفة بني ساعدة... فلما جلسنا قليلا تشهد خطيبهم فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال أما بعد فنحن أنصار الله وكتيبة الإسلام وأنتم معشر المهاجرين رهط وقد دفت دافة من قومكم فإذا هم يريدون أن يختزلونا من أصلنا وأن يحضنونا من الأمر فلما سكت أردت أن أتكلم وكنت قد زورت مقالة أعجبتني أريد أن أقدمها بين يدي أبي بكر وكنت أداري منه بعض الحد فلما أردت أن أتكلم قال أبو بكر على رسلك فكرهت أن أغضبه فتكلم أبو بكر فكان هو أحلم مني وأوقر والله ما ترك من كلمة أعجبتني في تزويري إلا قال في بديهته مثلها أو أفضل منها حتى سكت فقال ما ذكرتم فيكم من خير فأنتم له أهل ولن يعرف هذا الأمر إلا لهذا الحي من قريش هم أوسط العرب نسبا ودارا وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين فبايعوا أيهما شئتم فأخذ بيدي وبيد أبي عبيدة بن الجراح... فقال قائل من الأنصار أنا جذيلها المحكك وعذيقها المرجب منا أمير ومنكم أمير يا معشر قريش فكثر اللغط وارتفعت الأصوات حتى فرقت من الاختلاف فقلت ابسط يدك يا أبا بكر فبسط يده فبايعته وبايعه المهاجرون ثم بايعته الأنصار... قال عمر وإنا والله ما وجدنا فيما حضرنا من أمر أقوى من مبايعة أبي

بكر خشينا إن فارقنا القوم ولم تكن بيعة أن يبايعوا رجلا منهم بعدنا فإما بايعناهم على ما لا نرضى وإما نخالفهم فيكون فساد فمن بايع رجلا على غير مشورة من المسلمين فلا يتابع هو ولا الذي بايعه تغرة أن يقتلا".

وفي مسند أحمد: "أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قام على المنبر يوم الجمعة... ثم قال رأيت رؤيا لا أراها إلا لحضور أجلي ... وإن الناس يأمرونني أن أستخلف وإن الله لم يكن ليضيع دينه وخلافته التي بعث بها نبيه وإن يعجل بي أمر فإن الشورى في هؤلاء الستة الذين مات نبي الله وهو عنهم راض فمن بايعتم منهم فاسمعوا له وأطيعوا ...وإني أشهد الله على أمراء الأمصار إني إنما بعثتهم ليعلموا الناس دينهم ويبينوا لهم سنة نبيهم ويرفعوا إلي ما عمي عليهم ... قال فخطب الناس يوم الجمعة وأصيب يوم الأربعاء".

كانت هذه الخطوات تطوراً نوعيا ونواة وكان يمكن أن تتطور إلى مجلس شورى حقيقي. إلا أن المسلمين فقدوا هذا. ولكن البشر تطوروا وعانوا حتى ظهرت نماذج من الحكم الشوري في اتحادات مثل الاتحاد الأوربي، أي أن الديمقراطية الحديثة نموذج جديد متطور أصله ثابت في الإسلام وفي الكتاب والسنة، وفرعه في تطور العالم باسق.

ونحن الآن حين نحلل هذا الفهم الذي به فهم المعاصرون لنزول القرآن، وأضفنا إليه فهم آيات الآفاق والأنفس، فيمكن أن نفهم منه أمرين مهمين في مشكلة الحكم والسياسة، وهذان الأمران المهمان جداً هما: أولاً أن يكون الحكم برضى الناس واستشارتهم، أي أن لا يكون بالقوة والعنف، وثانياً أن الملك ليس بالوراثة.

هذان الأمران ثابتان، وإن حصل قصور في تحقيق ذلك. وحين سمى المسلمون عهد الخلفاء الراشدين بالرشد فهذا لأن الخلفاء الأربعة الأوائل لم يأتوا بالإكراه ولا جعلوها وراثة في أبناءهم. "لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي"، فالذي يأتي بالإكراه لا يكون رشداً. وهذان الأمران واضحان جداً في هذا الحديث الطويل الذي سقناه ويكفي أن لا يضيع الأصل في الإسلام، "وأمرهم شورى بينهم". وعلينا أن نسرع في نشر هذا الوعي وإدانة العنف والصبر على تعليم الناس وتحمل ميثاق الله في تبليغ ما أنزل الله وأرانا في الأفاق والأنفس بتصميم لا عودة عنه.

86. الشورى في أحد والخندق

أريد أن أتابع وأحلل موضوع الشورى. فنحن حين نستهين بالشورى التي قرنها الله بالصلاة، فإننا نستهين بذكر الله الذي هو ذكر سننه. إن الشورى من صفات المؤمنين: "الذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم".

إن الشيء الذي ينبغي أن ننتبه إليه في أمر الدين كله وشأن الحياة هو أن لا يُكره الناس على شيء لا يؤمنون به. هذا شيء أساسي في حياة الناس، به يتبين الرشد من الغي والهدى من الضلال. إن المجتهد في الرأي له أجر وإن أخطأ وله أجران إن أصاب. وأجر الخطأ يكون بقدرة الناس على تصحيح الخطأ، لأن الذين لا يجتهدون لا يمكنهم أن يتراجعوا عن الخطأ ومرجع الأمر كله أن الإنسان يعطي على الإقناع ما لا يعطي على الإكراه. فهذا الذي قال عنه الرسول (ص): "ما كان العنف في شيء إلا شانه وما كان الرفق في شيء إلا زانه، وإن الله ليعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف. هذا ملاك الأمر كله، لأن الهداية بالبينات والهدى. والله ألهم النفوس الفجور والتقوى إلا أن المجتمع هو الذي يستثمر هذا بتزكية النفوس فيفلح من يزكيها ويخاب من يدسيها، وإذا ربطنا هذا بأوضاع البشر خلال التاريخ، فإننا سنرى أن الإكراه كان هو الوقود الذي يحرك التاريخ الماضي، فلهذا استمر الفساد وسفك الدماء حتى عند المسلمين.

ولكن ليس من الإنصاف أن نحمّل المسلمين الأوائل إدراك ما وصل إليه البشر خلال التاريخ من ترشيد في أساليب اتخاذ القرارات الحاسمة في حياة المجتمع وتحقيق علم الله في البشر من أنهم سيخرجون من الفساد في الأرض وسفك الدماء، لأن الأسبقيات التاريخية لم تكن تقدم نماذج يمكن الاستفادة منها. فكيف نؤاخذ الماضين في ضياع الرشد والشورى في تلك الأيام الغابرة ونحن إلى الآن لا نتمكن من فهم وتحصيل ما وصل إليه الناس في العصر الحاضر الذي نعيش فيه، وربما لا قدرة لنا على فهم ما عاناه الناس من العذابات الأليمة، لأن العذابات الأليمة هي التي توقظ الناس وتضطرهم إلى تغيير ما بأنفسهم من الأفكار المسيطرة المتحكمة فيهم فتمنعهم من التحول بيسر وسهولة. فهذا يحتاج إلى التخلي عن مسلمات طال عليها الأمد، نشأ فيها الصغار، وهرم عليها الكبار، وتوارثتها الأجيال، وألبسوها الحلل المثالية، وحقروا ما وصل إليه الناس من أساليب لحل المشكلات التي فيها صلاح العباد والبلاد، وتجنب الفساد في تضييع الأموال وحقن الدماء التي تهدر سدى ولا يعقبها إلا الحسرات والأحقاد. فنحن نتحدث عن الشورى واتخاذ القرارات الهامة للأمة جميعا وعن المواضيع التي هي رأس قائمة الأمور التي ينبغي فيها استنفاد الجهد في العلم والخبرة، ويجب أن تكون أساليب تحديد أهل الشورى مبنية على الكفاءات العلمية والعملية.

في المواجهة مع المشركين في أحد، الذين جاؤوا ليثأروا من خسائرهم في بدر، قال رسول الله لأصحابه: "فإن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم حيث نزلوا، فإن أقاموا أقاموا بشر مقام وإن دخلوا علينا قاتلناهم فيها–وكان هذا رأي بعض الناس – وكان رسول الله يكره الخروج لكن رجالا من المسلمين ممن كان فاته مشهد بدر قالوا يا رسول الله اخرج بنا إلى أعدائنا لا يرون أننا جبنا عنهم وضعفنا وقال آخرون أقم بالمدينة ولكن لم يزل الناس برسول الله (ص) الذين كان من أمرهم حب لقاء القوم فخرج رسول الله استجابة لرغبة الناس الذين يريدون الخروج.

إن القرار يرجع إلى المجاهدين فهم الذين سيقاتلون ومن مبادئ القرآن أن لا يخرج للقتال من لا يؤمن بالقتال فإن خروجهم فيه ضرر وليس فيه نفع ويقول الله عنهم، "لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم، "حتى أن ثلث الجيش رجع ومع ذلك قبل رسول الله طلب أغلبية الناس بالخروج وخطط للمعركة من جديد وكان فيه النجاح أيضا لولا حدث ما حدث من عدم التزام بالأمر.

والبشرية حين تلمست الديمقراطية والإقناع والخروج من الإكراه باسم الحرية وحقوق الإنسان استطاعت أن تفعل هذا بشكل محدود، ولم تظهر إلا في بقع قليلة من العالم وبمعانات شديدة. ولكن لا تراجع عنها، ويجب ترسيخها وتوسيعها. ورصيد الديمقراطية العلم والمعرفة ووعي الناس. والناس بدؤوا يشعرون أنهم يدخلون عصر المعلومات وسيعم هذا وسنكشف ذلك في واقع حياة الناس وفيما تركه لنا الأنبياء، وفي موقف ابن أدم الأول الذي رفض الدخول إلى العنف وقال لأخيه: "لئن بسطت إلي يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك". هذا يعني أن ابن آدم الأول خرج من شريعة الغاب بدءا وختاما، لأنه شعر بأنه خلق آخر، يلتزم الصواب ويسخّر العالم. علينا أن نكتشف القرآن وسيرة الأنبياء من جديد مع آيات الآفاق والأنفس، وما كان من أمر الشورى في حياة الرسول (ص). والأمر العجيب الذي حدث في الخندق أن الأحزاب جاءت من أنحاء الجزيرة العربية وحاصروا المدينة وبلغت القلوب الحناجر وظنوا بالله الظنون، ويصف القرآن الشدة الشديدة التي وقع فيها أهل المدينة وهنا ورد في السيرة: أنه لما اشتد على الناس البلاء بعث رسول الله إلى عيينة والحارث قائدي غطفان على أن يعطيهما ثلث ثمار المدينة على أن يرجعا بمن معهما عنه وعن أصحابه فجرى بينه وبينهما الصلح حتى كتبوا الكتاب ولم تقع الشهادة والتوقيع على عزيمة الصلح إلا المراوضة في ذلك ولم يوقع على الاتفاق ولم يرد الرسول أن يفعل ذلك إلا بمشورة الناس على ما يفكر فيه الرسول (ص) فلما أراد الرسول (ص) أن يفعل بعث إلى سعد بن معاذ وسعد بن عبادة فذكر لهما واستشارهما فيه فقالا له: يا رسول الله أأمرا تحبه فنصنعه؟ أم شيئا أمرك الله به لا بد لنا من العمل به؟ أم شيئا تصنعه لنا ؟ قال بل شيئا أصنعه لكم والله ما أصنع ذلك إلا لأني رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة وكالبوكم واشتدوا عليكم من كل جانب فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمر ما، فقال له سعد بن معاذ: يارسول الله، قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان لا نعبد الله ولا نعرفه وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها تمرة إلا قرى أو بيعا،

أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا إليه وأعزنا بك وبه نعطيهم أموالنا، والله ما لنا بهذا من حاجة والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم. قال رسول الله (ص) فأنتم وذلك، فتناول سعد بن معاذ الصحيفة فمحا ما فيها من الكتاب ثم قال: ليجهدوا علينا.

هذه هي الشورى ابتداء من الرسول، وهذا معنى "وشاورهم في الأمر"، "وأمرهم شورى بينهم". ولهذا كان يشاورهم وهم يشيرون عليه ابتداء من غير طلب منه كما فعل الحباب في بدر، وكما فعل سلمان الفارسي في الخندق. ونحن علينا أن نكشف ديننا في الكتاب وفي سنة الرسول والأنبياء جميعا وفي آيات الآفاق والأنفس التي تشهد لآيات الكتاب بأنه الحق. "يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين. قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون".

87. "أشيروا علي أيها الناس"

إن الظواهر خادعة. فأوضح شيء في الوجود الشمس، السراج الوهاج، ودليل ظاهرة الليل والنهار، خدعت الناس. ظل الناس يفهمون حركة الفلك خطأ، حيث كان الناس يظنون أن الشمس تدور حولنا إلى درجة أن من فهم سبب حدوث الليل والنهار بأنه دورة الأرض وليس دورة الشمس أُجبر على التراجع.

والحركة خادعة، لأن الإنسان يخيل إليه حين يركب مركباً متحركاً أن العالم هو المتحرك وأنه هو الثابت، كما يحدث في حركة قطارين، حين يشتبه على راكب أحدهما أيهما المتحرك، ويحتاج لمراقبة شيء ثالث حتى يتمكن من إعادة الوعي وإلى إزالة الالتباس.

لما أشار القرآن إلى حركة الظل، ولو شاء لجعله ساكنا، قال إنه جعل الشمس عليه دليلا، وقال لو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض. حقا لو أن الشمس كانت تدور حول الأرض لترتب عليه فساد نظام الكون وهذا دليل الوهم المركزي وثبات الراصد. إن أوضح شيء في الوجود كان أخفى شيء في الوجود. الوضوح والخفاء في الظواهر الفلكية والاجتماعية تتشابه في خداع الإنسان ويخيل للإنسان أن الثابت يتحرك. والذي يجعلني أعيد هذه القواعد الأولية الأساسية هو أني أريد بحث موضوع الشورى.

لم أكن أفهم قول الرسول (ص) في أول حرب قام بها المسلمون: "أشيروا على أيها الناس"، تحقيقا للأمر الإلهي: "فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين". لماذا ألح الرسول (ص) في طلب المشورة وقال للناس قبيل اتخاذ قرار الحرب "أشيروا علي أيها الناس"، وتحدث كل من أبي بكر وعمر؟ ثم تحدث المقداد وقال: يا رسول الله، امض لما أراك الله فنحن معك لا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون. ولم يكتف الرسول، بل ظل يكرر "أشيروا علي أيها الناس"، يريد رأي الأطراف المختلفة من المهاجرين والأنصار، خشية أن يكون لهم رأي آخر في تفسير المواقف. فتحدث سعد بن معاذ فقال: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله. قال: أجل. قال: فقد آمنا بك وصدقناك ... وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك فوا الذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك وما تخلف منا رجل واحد، إنا لصُبر في الحرب صدق في اللقاء، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك فسر على بركة الله: فلما سمع رسول الله ذلك سرَّ بقول سعد ونشطه ذلك ثم قال: سيروا وأبشروا، فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين. بل من كان عنده ملاحظة يبين رأيه بمبادرة منه ويشعر أنه واجب مقدس وعليه أن يدلي برأيه لمصلحة المجتمع، ويسمع له رسول الله ويغير من قراره الذي اتخذه في نفسه ليأخذ بما أشار به الحباب بن المنذر وهو أحد الجنود. هذه الحوادث كلها تفقد قيمتها ومعناها عندنا الآن لأننا نغفل عن شيء أساسي وهو قانون الله وقانون الوجود الإنساني وهو أن الإنسان يعطي أفضل ما عنده بالإقناع وليس بالإكراه والتجاهل وإشعاره بأنه آلة مسلوبة الإرادة. وأفضل ما نزل من السماء هو التعاون على البر والتقوى وعدم التعاون على الإثم والعدوان

على الإنسان النبوي والمسارعة في الخيرات والكف عن المنكرات. يطلب الرسول المشورة ويلح في ذلك لأنه يعلم أن هؤلاء الجنود هم الذين سيقاتلون وينبغي أن يكون القرار صادرا عنهم وليس مفروضا عليهم. وهذا الموقف هو تزكية للإنسان بينما اتخاذه آلة تدسية له. هذا هو شأن الدين في المجتمع النبوي والمجتمع الراشد. وبعد أن طلب الرسول المشورة ومبادرة المسلمين بالنصيحة لله ولرسول وللناس عامة بما يرونه السداد والرشاد، ورأى الرسول استجاباتهم الصادقة وأنهم يطرحون أراءهم بصدق وإيمان، عند ذلك استبشر رسول الله.

فهل نحن نشم رائحة الشورى في السلم والحرب؟ أم أننا على رأي القائل: ويقضى الأمر حين تغيب تيم ولا يستأمرون وهم شهود.

الشورى عند المسلمين في موضع الاحتقار والازدجار، ويحيط به الغموض والنفي والإبعاد والإنكار أن يكون له وجود في حركة التاريخ. حتى لما كشف التاريخ أهمية الشورى وتحول إلى مؤسسة لها قواعدها تتسع وتتعمق كل مرة وكل يوم في حياة البشر بقينا نحن المسلمين نستخف بالشورى، بحيث بقيت قزما مشوها وولدا معاقا غير قابل للنمو لا يزيد في خلقه بعكس نظام الوجود. ونظام الحكم عندنا معاق أيضا وحياتنا الاجتماعية معاقة، وكأن العالم لا يحصل فيه شيء، ونظن أن العالم في آخر الزمان وأن التاريخ في نهايته وليس في بدايته. حتى لما استعار العالم الإسلامي البرلمان أتى به مفرغا من المعنى، مشوها، وهيكلا بلا روح ولا حياة، وإنما زينة وخرزا للإيهام بأنه على شيء، ويعلن المسلمون أن نتائج الشورى ليست ملزمة وإنما معلمة فقط، وأنه يمكن أن تلقى بها كسقط المتاع، بل الأمر أبعد من ذلك، حيث وصل الأمر إلى أن ليس لأحد أن يبدي رأيه وتصوره أمام "التصور الأوحد"، ولا يجوز الإيمان بشيء ولا فهمه ولا بحثه إلا بإذن منه. نعم لا علم ولا فهم ولا تصور إلا بإذنه. هذا إعلان لاغتيال العقل والفهم. هذا ما قاله الذي حاج إبراهيم في ربه لما قال إبراهيم: "ربي الذي يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت". وكما قال الذي حاج موسى عليه السلام في ربه للذين آمنوا برب موسى وهارون: "آمنتم له قبل أن آذن لكم – إنه لكبيركم الذي علمكم السحر . لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم في جذوع النخل ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى". لا يسلبك رأيا معينا وإنما يسلبك أن يكون لك رأي وتصور . يسمح لك فقط بالتبعية المطلقة. والمجتمعات لها قدرة على سلب قوى الإدراك والفهم وتعطيل السمع والبصر . علينا أن نكدح ونقوم بالبلاغ المبين لأنباء المرسلين، "وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين".

والعجيب أن المفاهيم تنطمر وينسى الناس ما ذكروا به. وإلا فما معنى أن يكون في القرآن سورة اسمها "سورة الشورى" وما معنى أن يوصف المؤمنون الذين استجابوا لربهم من أنهم "استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم"، بينما يحرص العالم الإسلامي مستنفرا على تفريغ الشورى من معناها، ويجتهد أن لا تصل الشورى إلى هدفها في معرفة ما يريده الناس؟ لماذا نصادر إرادة الناس؟ لماذا ضاع مجلس أهل الذكر في العالم الإسلامي؟

إننا نستخف بالإنسان لهذا يستخف الناس بنا. إن العواقب ستفرض علينا أن نستيقظ وعلينا أن نبذل الجهد لفهم سنن الله في الآفاق والأنفس، ونبلغ رسالاته ولا نخشى أحدا إلا الله وكفى بالله حسيبا.

88. الديمقراطية أصعب من التحرر من الاستعمار

الديمقراطية أبعد منالاً من دحر الاستعمار . أقول هذا وآيات الأنفس تدعمني في أكثر من موقع. يمكن التغلب على الاستعمار ولكن التغلب على القابلية للاستعمار يحتاج إلى وعي أكبر ويحتاج إلى مراجعة الذات. أحداث التاريخ تؤيدني، وبالذات تاريخ المسلمين. إن الجزائر البلد الإسلامي والعربي العريق الذي أُبتلي لأكثر من مائة عام بأشد أنواع الاستعمار الاستيطاني والاستلحاق بفرنسا قاوم الاستعمار وتخلص منه بتضحيات جسام، مليون ونصف مليون شهيد. ولكن مضى على استقلالهم نحو أربعين عاماً ولا يبدو أنهم اقتربوا إلى الدخول إلى عالم الديمقراطية. ومأساتهم منذ عشر

سنوات تدمي قلوبنا، ولا تلوح في الأفق أي مبشرات لتثبت أن الأطراف في طريقها إلى الاقتراب لقبول الديمقراطية حيث الكل يرى الآخر أخطر من قبول الديمقراطية. ومع ذلك، فإني أشعر في الجزائر مع كل المآسي أملاً واعداً، فهناك رجالات وكوادر ديمقراطية تترسخ جذورها في أرض الجزائر.

وهنا ينبغي أن نذكر عسر ولادة الديمقراطية في العالم الإسلامي. الديمقراطية كلمة مرعبة يحمل العالم الإسلامي لها عداءاً كبيراً إلى الأعماق. إيران دخلت عالم الديمقراطية من باب واسع وخطت فيها خطوات مبشرة في انتخابات الرئاسة والبرلمان إلا أن إيران أيضاً استطاعت أن تلف على الديمقراطية مستعملة حق الفيتو على البرلمان أو مجلس الشورى. فالنظام الاستبدادي له أيد كثيرة لسلب الديمقراطية روحها. أليس ملفتاً للنظر أن العالم الإسلامي مع كل تبادل الأطراف من اليمين إلى اليسار والقومية والإسلامية، كل هؤلاء، لم يتمكن أحد منهم من الدخول إلى الديمقراطية من بابها الواسع؟ الجميع تراجعوا أمام الديمقراطية حيث لم يقبل أحد في العالم الإسلامي الثقة بالديمقراطية وهذا معناه كبير. يمكن أن نقول إن أحداً من هؤلاء جميعاً لا يثق باختيار الشعب بل يرون أن شعوبهم لا رأي لها ولا يمكن أن يعرفوا مصلحتهم فلهذا لا بد من أن يفكر عنهم وتحدد لهم مواقفهم مع أن وقائع التاريخ تثبت أن الشعوب لها قدرة على المبادرة وابتكار وسائل جديدة وناجعة لحل مشكلاتها، بل وكأن الشعوب تسبق مثقفيها في فهم القضايا، وتستطيع أن تحمي نفسها. ولكن الذين يتولون التفكير بدلاً عن شعوبهم لا قدرة لهم على حماية شعوبهم. إن الديمقراطية ليست احتراما للإنسان العادي ورفعا لكرامته بل اعتراف أيضا بالعقل البشري. الديمقراطية مصارحة ووضوح.

موضوع الديمقراطية أبعد غوراً مما نتصور. إن الديمقراطية مدخل كبير للكفر بالطاغوت. فمن هنا كان محمد إقبال يقول إن العالم الغربي كفر بالطواغيت ولكن بقي أن يؤمن بالله، لأنهم في داخل ديارهم كفروا بالطاغوت ولن يتمكن طاغوت من أن يسيطر عليهم ولكن مع ذلك فإنهم جعلوا من أنفسهم طاغوتاً على سائر البشر. إن هذه الميزة التي حصلوا عليها تمكنوا بها من السيطرة على الناس. إن المسلمين يضيقون ذرعا بكلمة الديمقراطية ولا يستطيعون أن يكشفوا أن الديمقراطية هي كلمة السواء أي أن يكون الجميع أمام القانون سواء، وأن لا يكون أحد فوق القانون. والأعمق من هذا أن الديمقراطية لا يمكن أن تتحقق إلا برفض الناس جميعا حل مشكلاتهم بالعنف. لهذا فإن الذين لا يقبلون الديمقراطية لا يثقون بأفكارهم ويشعرون أنهم لم يتمكنوا من إقناع الناس. إن الديمقراطية إعطاء الآخر مثل الحق الذي لك بل أكثر، حيث تتمكن من إعطاء الآخر حق إظهار نقائصنا، وهذا شيء لا يمكن أن تتحمله النفوس، إلا النفوس الكبيرة. بل إن هذه النفوس تكون متواضعة وموقنة بالخروج من الإكراه إلى الإقناع وبأن مثل هذا المجتمع جدير بالعيش فيه لأنه هو الذي يعطي الكرامة لمن ينتمي إليه. إن الله منح الكرامة لبني آدم إلا أن تحقيق ذلك في حياة الناس من جهد البشر الذين تمكنوا من رفض الإكراه.

ظاهرة الديمقراطية ظاهرة حديثة في تاريخ البشر، وهي الرشد الذي جاء به الإسلام وفُقد مبكرا. الديمقراطية هي نبذ العنف والإكراه. ولهذا لن تدخل الديمقراطية ولا الحكم الراشد إلى مجتمع يؤمن بالعنف كأسلوب لحل المشكلات وخاصة السياسية. ينبغي أن نفهم أن نبذ العنف دخول إلى عالم الرشاد والوعي ودخول إلى عالم العقل وعالم ربط النتائج بالأسباب، وخروج من عالم الإكراه والعنف، لأن الأرضية التي تنبت فيها الديمقراطية ينبغي أن تخلو من الإكراه والعنف والغي في فرض الآراء. والذي يجعل المسلمين يخافون من الديمقراطية هو أنهم يظنون أنهم سيفقدون الشريعة الإسلامية إذا أخذوا بالديمقراطية، وهذا وهم كبير يقع فيه المسلمون غالبا ولا يفهم المسلمون أن الشريعة الإسلامية ستتألق أكثر، لأن الشريعة الإسلامية هي شريعة الله وهي العدل بين الناس. والغالبية العظمى من الناس تحن إلى العدل والمساواة ولا يخاف من العدل والمساواة إلا أصحاب الامتيازات، الذين هم فوق القانون وفوق العدل والمساواة وهم قلة من الناس المترفين. لهذا إذا فهم الناس شريعة العدل فسوف لن يعادوا الديمقراطية ولن يتمكن أحد من خداع الناس إذا انتشر الوعي بين الناس وصدق الله حيث يقول: "بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون". ولهذا كان كتم العلم والهدى والبينات من الكبائر في القرآن. "إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد مابيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون ... ولا يأكلون في

بطونهم إلا النار". ومن انتشار هذه الأوهام يترسخ الاستبداد، وحكم الفرد، وتستلب إرادة الأمة التي تتوق إلى الوحدة والتضامن والعدل، ويتمكن عالم الاستكبار من التسلط على العالم الإسلامي. وهكذا يلغى العقل والمنطق ويقبل الناس العيش في التمزق والاستلاب.

إنها لمأساة كبرى هذه الأوهام التي يعيشها العالم الإسلامي. ورأس كل الخطايا في العالم الإسلامي الإيمان بالعنف والإكراه والخوف من العقل والمنطق وعواقب التاريخ. إن الذي يؤمن بالعنف والقوة يكون إلهه العنف وشريعته العنف وحياته العنف ولن يقف أمام من يؤمن بالعنف شيء محرم أو منكر إذا صار متمكنا. وما لم نغير مفهوم الحنين إلى البطل الذي سيوحد العالم الإسلامي بالقوة لن يتغير شيء في عالمنا العربي والإسلامي.

ألم تروا كيف تتحد أوربا بالعلم والمنطق والتفاهم والتشاور، بعد أن شبعت حروبا دينية وقومية. إنهم غيروا أولوياتهم ونبذوا البطولات الحربية، ولجأوا إلى البطولات العقلية. لهذا اهتدوا إلى حلول لا يخسر فيها أحد ويربح الجميع. وهذا الحدث ليس في مجرة غير مجرتنا التي نعيش فيها. إنهم جيراننا! فاعتبروا يا أولي الأبصار! إنهم يتحِدون أمام أعيننا خطوة خطوة كل سنة، يحدثون تضامنا وتعاونا جديدا ويقتربون من الاتحاد الكامل بعمل ثابت راسخ في نموه وازدياد إمكاناته، وذلك بفضل الديمقراطية التي كفرت باللجوء إلى القوة والإكراه وآمنت بالعقل والإقناع وآمنت بنبذ العنف في الحكم والسياسة وتفهمت المصالح والأهداف الكبيرة والسبل الرشيدة إلى الخروج من المآسي. ألا فليفهم العرب والمسلمون أن لا نجاة في هذا العالم إذا لم نؤمن بالعقل الذي ميز الله به الإنسان، وأن لا نخاف من العقل ومن الديمقراطية التي هي الاعتراف بالعقل والإقناع، وأن لا نخاف من الأوهام وأن لا نضاعف من الخسائر. إن العالم الغربي اعتبر بالحربين العالميتين وتعلم كيف يحل مشكلاته من غير أن يخسر أحد شيئا ويربح الجميع وعلينا نحن أن نتعلم من حربي الخليج العالميتين، وذلك بأن نتعلم حل مشكلاتنا بالأسلوب الجديد من غير أن يخسر أحد شيئا ويربح الجميع. وقد ظهر هذا في آيات الآفاق والأنفس وفي أوربا بالذات. وهذا ما جاء به الأنبياء قديما حين دعوا العالم جميعا: "تعالوا إلى كلمة سواء". أما آن لنا أن نفهم؟ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر". نعم إننا سنكشف القرآن من جديد وسنفهم أيضا قوله تعالى: "وذكر بالقرآن من يخاف وعيد".

89. مالك بن نبي والقابلية للاستعمار

لما تعرفت على أفكار مالك بن نبي في أواسط الخمسينات من القرن الماضي في كتابه (شروط النهضة) أصابني بصدمة فكرية حين طرح فكرة "القابلية للاستعمار". وكانت هذه الفكرة صدمة لأنها تقلب تفسير الأحداث مائة وثمانين درجة. كنا حينها غارقين في العداء للاستعمار وكراهية الاستعمار وتحميله كل المصائب التي نعانيها، فجاء هذا الرجل وطرح تصوراً آخر للمشكلات وسماه مصلح "القابلية للاستعمار"، ضد المصطلح المقابل "الاستعمار" الذي شغل الناس كلهم. لما اطلعت على كتابه (شروط النهضة) لم أفهم جيداً أبعاد أفكاره، ولكن أطلعني على تفسير مخالف لما هو دارج. وبما أنني مرتبط بالقرآن فلم أستغرب فكرته وإن كان الأسلوب الذي يبحث به المشكلات جديدا علي كل الجدة، فصار معي الأمر كما صار مع جلال الدين الرومي حين التقى بشمس الدين التبريزي، كيف قلب هذا الأخير أفكار الرومي فقال الرومي: هذه النار فما قصتها| أحرقت ما عندنا وقدتها. هكذا تعلقت بأفكار مالك. ووجدت منطلقاته الفكرية في غاية العمق والانسجام مع القرآن وإن كانت المصطلحات مختلفة.

والآن حين أقيم أفكار مالك بن نبي بعد خمسين سنة أشعر بالحزن. كنت أتمنى أن يكون العالم الإسلامي فهم أفكار مالك بن نبي وتجاوزها، ولكن لم يحدث هذا. ولكنني أتفاءل عندما أرى بعض الرجالات المتعمقين يطرحون فكرة "القابلية للاستعمار" بأساليب جديدة. فمثلاً أسمع الدكتور عبد الوهاب المسيري في حوار معه في إحدى الفضائيات وهو المتخصص في مشكلة اليهود والصهيونية يقول بكل الثقة وبكل الإدانة أن الذي لا يتمكن من تفسير

الظاهرة الصهيونية منفصلة عن الظاهرة الإمبريالية الاستعمارية لا يكون مدركاً أبعاد المشكلة، وسيظن أن الصهيونية هي التي تسخر الاستعمار وليس العكس. وما يدعو إلى التفاؤل أن أمثال الدكتور المسيري بدؤوا يظهرون ويتحدثون بأن المشكلة ليست اليهود ولا الاستعمار، المشكلة عندنا.

والذي نراه الآن أن الفكرة الانقلابية التي طرحها مالك بن نبي قد بدأت تبرز إلى الساحة وتتداولها الأقلام بكل الاعتداد. يطرحون الفكرة التي تزداد قوة على مر الزمن ولو بدون شعور منهم. كان مالك بن نبي يتحدث عن "الأفكار المجردة" و"الأفكار المشخصنة"، وكان بن نبي يتمنى أن تتجرد الأفكار من أصحابها لأن الأفكار تظل ضعيفة ما دامت متعلقة بالأشخاص مستمدة قوتها من الشخص لا من الموضوع، وكأنها تحتاج إلى سند شخصي ومتكأ لاستمداد القوة. والآن أشعر أن أفكار بن نبي بدأت تتجرد حتى من شخصه ومن الدائرة الأولية التي تفهمت أفكار مالك بن نبي لتكتسب قوة الأفكار المجردة التي تحولت إلى قوانين اجتماعية وسنن تاريخية، "سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا". كان مالك بن نبي يرى أن الإنسان لا يمكن أن يُذل ولا يمكن أن يُستعمر إلا بخضوعه الذاتي وليس لقوة أعدائه. إن مالك بن نبي مثل محمد إقبال في قصيدته الشكوى وجواب الشكوى حيث شكى محمد إقبال إلى رب العالمين حال المسلمين في هذه الأرض وكيف سخرت منهم الأعداء وإن سخرية الأعداء مريرة وأين وعدك يارب وأنت أهل الوفاء ونحن الذين حملنا أرواحنا على أكفنا ليكون اسمك الأعلى في هذا الوجود، فكانت القصيدة الأخرى جواب الشكوى جواب رب العالمين على شكوى إقبال: يا هذا لقد أثبت شكواك فأثبت قدرة الخالق فيك.

كل هذه الأفكار العميقة هي إثبات لسلطان الإنسان وخلافته على هذه الأرض وأنه ليس لقوى الشر سلطان على الإنسان إن لم يستسلم الإنسان لقوى الشر. "إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إنما سلطانه على الذين يتبعونه. وفي الواقع أطرب وأشعر بالسعادة من أفكار إقبال ومالك رغم أن المعجبين بها والفاهمون لها أقلة، وأمثلهم طريقة يحذر منهما ويرون السلبية في أفكارهم، شطحات من إقبال وغموض في تحليلات مالك، إلا أن أفكار مالك وإقبال صارت الآن مدعومة بآيات الآفاق والأنفس وسنن التاريخ من قبل الذين يدرسون التاريخ البشري ويرون الكون ينطق. ووعد الله يظهر في أكثر من مجال وهي إرهاصات لمستقبل الإنسان على هذه الأرض، وبدأت تلوح للمفكرين الذين يكثرون كل يوم ويبرزون بثبات قدم وعلو همم وشموخ يقين بأن الروح التي نفخها الله في الإنسان لن تستسلم للذل. إن الله لم يكن له ولي من الذل، "ولا يذل من واليت ولا يعز من عاديت".

إن الفكرة التي أبرزها مالك بن نبي وبشر بها محمد إقبال وتنبأ بها جلال نوري هي التي رأيتها تمثل لب القرآن. فالقرآن يقلب تصور الناس بفكرة "ظالمي أنفسهم". إن القرآن يهتم بالظلم الذي يلحقه الإنسان بنفسه أكثر من اهتمامه بالظلم الذي يلحق الإنسان من الآخرين. فهذا ما كان عمر يفهمه جيدا وذلك حين كتب إلى المجاهدين قائلا لهم: "وأنا أخوف عليكم من ذنوبكم أكثر من قوة أعدائكم عليكم". إن القرآن لما أطلق مفهوم ظلم النفس في "ظالمي أنفسهم" و"ما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون". وقد قال لأهل أحد حين أصابهم القرح وقالوا: "أنى هذا" فقال الله لهم: "قل هو من عند أنفسكم. ولم يقل لهم إن ما أصابكم هو من قوة أعدائكم وحذقهم، وإنما قال لهم: هو من خطئكم. هذا قانون الله الذي بدأ يظهر في أحاديث المفكرين الآن. يبدؤون حديثهم ويختتمونه بهذه الفكرة القرآنية بشعور منهم أو بدون شعور. وهذا تقدم في العالم الإسلامي والعربي ولكل مستضعفي الأرض. والرسول (ص) يؤكد هذا في الحديث القدسي حين يقول: "يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيرا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه".

هذا قانون الله وقول خاتم الأنبياء والمبشر بآيات الآفاق والأنفس في تحقيق علم الله في الإنسان بالتخلص من الفساد في الأرض. وإن كنا نحن لا نزال نلوم كل أحد ما عدا أنفسنا. فمن هنا أستبشر حين أسمع المفكرين الذين يؤكدون هذه الظاهرة التاريخية التي غفل عنها بنو آدم عموما. إن آدم أبو البشر جميعا لم يقل خدعني الشيطان حين أخطأ وأكل من الشجرة وإنما قال هو وزوجه: ربنا ظلمنا أنفسنا. وبهذا الاعتراف المبين استأهلا الخلافة في الأرض والاجتباء، واستحق إبليس الذي لم يعترف بعصيانه الطرد والدحر، وسيتبرأ هذا الشيطان يوم القيامة من الناس وسيقول لهم: "ما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم".

إذن ما المشكلة؟ المشكلة أننا نحن العرب والمسلمين لا نزال نؤمن بقوة الشر والباطل والإكراه ولا نؤمن بقوة الخير والحق واللاإكراه، ولا نزال نظن أن الإكراه هو قانون الله. هذا الوهم هو الذي يفسد علينا الحياة. ولكن روح الله الغلابة في الإنسان ستتغلب على كل الصعوبات وسيعترف الناس بالعقل الذي يميز الخير من الشر ويكشف الأسباب والعواقب وسيدركون أن المشكلة ليست لا في الاستعمار ولا في اليهود ولا في أمريكا ولا في الشيطان. وسيتخلص الإنسان من القابلية للاستعمار والخداع والإيمان بالسحر. وسنكشف قدرة الإنسان وسلطانه وقدرته على العلم والتسخير. وعند ذلك فسوف لن يتمكن أحد من أن يذلنا، لا الاستعمار ولا المستكبرين في الأرض، وسنكتشف التوحيد من جديد وسوف لن يتمكن أحد من أن يفرض علينا عبادته من دون الله رب العالمين.

90. جراثيم خفية

هناك شيء مجهول مخبأ ليس في متناول البشر وغير قابل للإمساك به ويتحكم فينا ضدنا. هناك جراثيم فكرية غير مرئية تقضي علينا، لأن مجاهرنا الفكرية ما تزال عاجزة.

كانت الجراثيم العضوية الضارة مخبأة وبعيدة عن وعي الإنسان وغير مرئية. ولم يكن الإنسان يفهمها أو يراها ولم يستطع التعامل معها بوعي معرفي إلى وقت قريب. نحن كذلك في المشكلة الإنسانية. فالإنسان يكابد الآلام من الجراثيم الفكرية المخبأة عالمياً. حين يحاول الإنسان فهم الموضوعات الشائكة يشعر أنه عاجز عن إدراكها وكشفها، ولغموض الموضوع وخفاء الجراثيم الفكرية لا يتمكن الإنسان من القبض عليها وحتى لغته تعجز عن التعبير عنها. ويصطدم علماء الاجتماع والمفكرون بهذه المشكلة ويواجهون الجدار المسدود. وأنا أحاول أن أبحث المشكلة الإنسانية من جانبين: جانب الفكرة التي جاء بها الأنبياء، وجانب الفكر الذي بدأ المفكر الإنساني يصل إليه. أحاول أن أتابع الفكر الإنساني وما وصل إليه أهل البحث، ولكن في الوقت نفسه عيني الأخرى تنظر إلى ما جاء به الأنبياء في هذا الموضوع. وبعبارة أخرى، أحاول قراءة آيات الكتاب المنزل وقراءة آيات الآفاق والأنفس التي لها علاقة كبيرة بآيات الكتاب. أقرأ وأنا أقلب فكري في سماء المعرفة.

وجدت أن بعض الفلاسفة الغربيين بدءوا بتحسس المشكلة الإنسانية. كان فوكو مهتما بموضوع الجنون، واعتبر أن من يخرج عن خطاب الإكراه والقوة يقوم بالجنون الأعظم وبنوع من المعارضة الجذرية للثقافة الغربية. ويشعر بيير بورديو بالحاجة إلى دعم في هذا الموضوع الخفي، الصعب التناول، ولهذا يلجأ إلى ديفيد هيوم وينقل عنه أن "لا شيء يبعث على الدهشة الأكبر لمن ينظرون إلى الشؤون الإنسانية بعين فلسفية من رؤية السهولة التي يحكم بها العدد الأكبر من العدد الأقل وملاحظة الخضوع الضمني الذي به يلجم الناس عواطفهم الخاصة وأهوائهم لصالح حكامهم". ويقول بورديو إن الدولة لا تحتاج إلى إصدار أوامر وإلى ممارسة قسر جسدي لتحقيق عالم اجتماعي منتظم، وأن الأمر يدوم ما بقيت قادرة على إنتاج بينات معرفية موضوعية، ويكون هذا بضمان الاعتقاد الذي كان هيوم يتحدث عنه: الخضوع المعتقدي للنظام القائم. كلا من هيوم وبيير بورديو يريدان أن يبحثا وراء أدوات القمع وعلاقات القوة المادية. هناك مسلمات رمزية معرفية تجعل الخضوع ممكناً. كيف يفرض المهيمنون هيمنتهم؟ كيف يمكن رؤية السهولة التي يحكم بها العدد الأكبر من قبل العدد الأقل؟ وملاحظة الخضوع الضمني الذي يلجم الناس عواطفهم الخاصة وأهوائهم لصالح حكامهم؟ لا بد من كشف الآليات الفكرية السابقة على استخدام أدوات القمع، لأن هناك مسلمات نفسية واعتقادات وتصورات للعالم والنفس الإنسانية.

إن ظن أن الإنسان يعطي على الإكراه أكثر مما يعطي على الإقناع نوع من الجراثيم الخفية التي تدمر المجتمعات. إن فرض الرأي بالإكراه إلغاء للإنسان ولروح الإنسان وخيانة للميثاق ونبذ العهد. إنه رفض للأمانة وللرشد وقبول بالخيانة ونقض الميثاق "وإذا أخذ الله ميثاق الذين أوتو الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً فبئس ما يشترون"، "إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن

يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً". نبذ الإنسان الأمانة لجهله وزين له سوء عمله فرآه حسناً، واليوم حين تنعقد القمم العربية والإسلامية ودول عدم الانحياز فإن خلفيتهم الفكرية مبنية على فكرة مفادها أن الإنسان ينتصر بالإكراه. إن العالم الإنساني في مرحلة جهالة ولا نقول طفولة، لأنه لا يوجد فيهم من يقبل بكلمة السواء ويلتزم بها. وبمجرد أن يشعر أنه بالقوة يمكن تخويف الناس ينبذ العهد والميثاق والأمانة. ولقد قال إبراهيم عليه السلام: "وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون". هذه ملة إبراهيم وملة الذين قبلوا عهد الله وميثاقه وأبوا أن يفتروا على الله الكذب.

ولقد انتبه هبرماس، الفيلسوف الألماني، في كتابه (خطاب الحداثة الفلسفي) إلى مفهوم الميثاق عند الأنبياء فقال: " نجد في فكرة الميثاق الديني بذرة جدلية الخيانة والقدرة المنتقمة ... احترام الميثاق مع الله رمز الأمانة وتحطيم هذا الميثاق رمز الخيانة ... الوفاء لله يعني الوفاء عبر الذات والآخرين وفي جميع ميادين الكائن وإنكاره في أي ميدان يعني فسخ الميثاق مع الله وخيانة أساسه ذاته...ولذلك فإن خيانة الآخرين ذاته...ولذلك فإن خيانة الآخرين هي في الوقت نفسه خيانة للذات ولذلك فإن احتجاج المرء على الخيانة ليس فقط احتجاجاً باسمه الخاص بل هو أيضاً احتجاج باسم الآخرين...وفي فكرة أن كل كائن حليف بالقوة في النضال ضد الخيانة–وفي جميع ميادين الكائن– وإنكاره في أي ميدان يعني فسخ الميثاق مع الله وخيانة أساسه ذاته...ولذلك فإن خيانة الآخرين هي في الوقت نفسه خيانة للذات ولذلك فإن احتجاج المرء على خيانة ليس فقط احتجاجاً باسمه الخاص بل هو أيضاً احتجاج باسم الآخرين...وفي فكرة أن كل كائن حليف بالقوة في النضال ضد الخيانة–بمن فيهم من يخونني ويخون نفسه– إنه يفرق بذلك بين الذين يعلمون وجمهور الجهلة إن مفهوم الأنوار المألوف لدينا لا يمكن التفكير فيه دون ميثاق شامل بالقوة ضد الخيانة". لم يتجرأ فوكو ولا بورديو أن يشيروا إلى ميثاق الله مع الإنسان كما دعا إليه الأنبياء ولكن هابرماس تمكن من الإشارة إلى هذا واستطاع أن يلمح الميثاق ضد الخيانة ويلمح معنى الأمانة وكيف نبذنا الأمانة والميثاق، ميثاق الأمانة في ضوء هذه المعاناة الفلسفية المعرفية، والتاريخ الذي يطلب فاتورة خيانة الميثاق.

لعلنا نكشف مكان الخلل. لعلنا نكشف الجراثيم الفكرية.

نعم إننا لم نختبر إيماننا ولم نجرب عليه التجارب الدقيقة. وما دمنا لم نتوضح باقتناع فاضح بأن الإنسان يعطي على الإقناع ما لا يعطى على الإكراه ومادمنا مترددين في هذا والأمر مشتبه علينا فإننا لن ندخل إلى سنة تغيير الإنسان ولن نكون عرفنا معنى تزكية الإنسان ولا دخلنا عالم التربية ولا فتحنا باب العلم والمعرفة، لأننا نكون خسرنا الرأسمال الأولي في العالم كله. ألا إنه الإنسان المودع فيه سر الله في العطاء والكرم، ومن خسر هذا خسر كل شيء. ونحن في العالم العربي الإسلامي لا قدرة لنا على فهم هذا الموضوع وتناوله، ولا مجرد إمكان فهمه. إني أعاني من محاولة لفت الأنظار إلى عالم آخر غير الإكراه فأبوء بالفشل والاستنكار والريبة فأنقلب وكأني المخطئ الجاهل العاجز الذي لا يكاد يبين. وأحسنهم طريقة ينظر إلي بأني لا أفهم سنة الله ولا قانون الوجود وأن الأمر مشتبه علي. إن الإكراه ثمرة الكراهية، ولا يمكن أن تدخل إلى الإنسان وأنت تكرهه. إن الكراهية عقيدة وتصور لشيء مكروه مضر لا نفع فيه ولا يمكن تغيره. يا أخي العزيز القارئ إن التغيير ليس عند الآخر. التغيير عندي، ولكننا نعجز عن كشف السنة والقانون البشري. وحين نخرج من ملة الاستضعاف سنفهم صنع مجتمع اللاإكراه بدون إكراه. إن بلدا عربيا واحدا يفهم هذا ويصنع مجتمع اللاإكراه يمكن أن يصل إلى قمة العالم فيصنع عالماً لا إكراه فيه، يتنافسون على الإحسان وعلى أيهم أحسن عملاً. عالم آخر أحلم به، إن ملكوت الله لا يصنعه ملة الاستكبار والاستضعاف وقد افترينا على الله كذبا إن عدنا في ملتهم.

91. سنة الله وسنة التاريخ

سأظل ألح وأدور حول موضوع سنة الله في الإنسان وأعيد النظر فيه، استوضحه أتأكد منه ارسخه وأزداد إيمانا ووضوحاً. وسأظل استحضره وأخاف أن أغفل عنه. وكأني بالقارئ ينظر إلي مشفقا علي في عدم فهم الأولويات ونحن مشغولون بالقدس وفلسطين قلب العرب والانتفاضة والعدو الذي لا يرحم ويقابل الكراهية بكراهية أكبر، يقابل "النقيفة" بالصاروخ المدمر، يخرجنا من ديارنا ويشردنا، ويقول لي في نفسه: فيم تفكر أنت وأين تشرد عن الرشاد، عن الجهاد المقدس في قدس الأقداس.

نعم يا أخي! نعم! معك كل الحق ولكن أنا صرت أفكر في المشكلة من زاوية أخرى ومنطلق آخر. هب أننا حررنا الأرض كما تحررت أراض أخرى كثيرة، فماذا نفعل بعد ذلك؟ المشكلة عندنا. والعقبة الكبرى ليست هلاك العدو، "عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون". إن روح الكراهية والاستكبار هي مشكلتنا ومشكلة أمريكا ومشكلة إسرائيل ومشكلة العالم جميعاً، الكراهية والخوف المتبادل، لأننا لم نخرج بعد من ملة الاستكبار والاستضعاف، هذه الملة التي لها عقائدها وتصوراتها بحث يتبادل المتصارعون المواقع ولا يغير من نظام هذه الملة ظهور مستضعف استكبر. مشكلتنا هي أننا لم نعرف بعد الملة الأخرى، ملة الأنبياء وملة الرحمة، ملة السواء، لا ملة الاستكبار والاستضعاف. مشكلتنا أننا لم نعرف بعد سنة الإنسان.

إلى الآن ينشد الإنسان الرؤية الواضحة وتختلط عليه الأمور ولا يتمكن من التغلب على العقبات من الإغراءات التي تحتاج إلى نظرات عميقة ونافذة وتلتبس عليه الأمور فيغتر وتشتبه عليه السبل فيؤخره التردد. إنه امتحان صعب لذكائه في اقتحام العقبات والعقبة الكبرى التي أضلته أنه لم يتأكد بعد من كشف وفهم سنة النفس الإنسانية. لقد كشف وتفهم سنة النار وما ترتب عليها بعد معاناة، إلى أن كشف البخار، ثم كشف المحرك. وهكذا سخر الإنسان بعقله المكتشف وكبّر قوة عضلاته. وكشف سنة القراءة والكتابة فرفع من قدرة الإنسان في معرفة تاريخه، كيف كان وكيف صار. وسخر الإنسان النار والكهرباء، ولكنه وقف محتارا أمام كشف قانون نفسه. إلى الآن لم يعرف كيف يستخدم الإنسان طاقة الإنسان. إن الإنسان مسخر الطاقات بقي أمام ذاته عاجزاً منغلقاً محتاراً خائفا حاقداً مراوغاً يفتقر إلى اليقين في كشف طبيعة الإنسان، وكيف أنه يعطي على الإقناع مالا يعطي على الإكراه.

إن الإكراه المغري يستيقظ في الإنسان حين يتوقف عقله في الحوار فيفقد صبره ويلجأ إلى الإكراه في لحظة غيبة عن الوعي فينتج عنه الفساد في الأرض وسفك الدماء. إن الإكراه والعنف لا يكون في شيء إلا أساء إليه وأفسده وإن الرفق لا يكون في شيء إلا زينه وأحسن إليه. إن السر الأعظم في الإنسان أنه يتحول إلى ولي حميم بمقابلة السيئة بالحسنة. إن الظلام الموجود في العالم كله من غيبة هذا الاكتشاف لطبيعة الإنسان. إن قوانا الفكرية والتأملية تفقد حدتها فتنقلب حسيرة كئيبة عند هذه العقبة. وننشغل بالأشياء البعيدة، يخدعنا الأعداء الأباعد عن المشكلات القريبة عند الأقارب فنقف عاجزين ملومين محسورين كأننا من عالم آخر.

يصف الله سنته في القرآن بأنها لا تتغير ولاتتبدل ولا تتحول. فكما قوانين الله وسننه في الوجود المادي ثابتة كذلك سنة الله في الوجود الإنساني ثابتة. هذا الكائن الآخر الذي فيه من روح الله، إنه صار قريباً من الله والله قريب منه بهذه الروح "وإذا سألك عبادي عني فإني قريب". وهذا القرب من الله الخالق إلى الوجود على أساس السنن الثابتة تظهر بوضوح في قدرة الإنسان على فهم السنن وتسخيرها مجانا، ونرى هذا التفويض الإلهي حين يقول له: "سخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون". لقد دخل الإنسان عالم التسخير حين تعرف على النار. كانت النار ظاهرة طبيعية، فرآها الإنسان وتأملها وعرف سننها وسخرها وأمسك بها. كانت النار ظاهرة طبيعية مثل الرعد والبرق فأمسك بها الإنسان. حين يفهم الإنسان سنن الظواهر الطبيعية ويفهم كيف يتعامل معها يعرف كيف يتفادى شرورها وكيف يستفيد من منافعها.

لهذا لما فكر المسلمون في أول الواجبات على الإنسان، قالوا إن أول الواجبات هو النظر والرؤية. إن النظر والرؤية ليس لأخذ مجرد صورة بل ينطوي على التفكير والفهم. لهذا تحول النظر إلى الفكر والتفكر في ما ينطوي عليه الوجود من سنن وقوانين فتحول النظر والرؤية إلى التفكر والتدبر والتعقل. والقرآن أعتبر النظر الذي ليس وراءه تفكر وتدبر ليس نظرا ولا رؤية، "لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور". فمن هنا كان مدح التفكر والتدبر والتعقل في القرآن والحث عليه وعدم الوقوف عند الظواهر، لأن هذا الكون خلق من أجل الإنسان، خلق مسخراً للإنسان ذي النجدين، الخير والشر، والخطأ والصواب، النافع والضار، الفجور والتقوى والقابلية للتحول. وقد جعل الله في الإنسان قدرة كشف الضار والنافع، والخير والشر بالعواقب الضارة والنافعة. فمن هنا إمتحان قدرة الإنسان على الإختيار الصحيح. وفي كل مرة يرتقي الإنسان إلى توسيع قدراته في تحقيق المصالح النافعة العامة وتجنب المضار يزداد الإنسان رشادا ورشدا وترشيدا. في سورة الجن آية تقول "سمعنا قرآنا عجباً يهدي إلى الرشد".

كيف سيخرج هذا الإنسان الخلق الآخر، الذي يسعى بجهد لا يتوقف، من نفسه الإمكانات اللانهائية غير القابلة للإحصاء والعد؟ "وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها". إن الإنسان مشروع في سنة الكون. هو مشروع كوني بمعنى مشروع الوجود من الجلال والجمال. إنه إرادة معنى الخلق الظاهر والباطن المحتجب الظاهر والباطن ذي الجلال والإكرام. إن هذا الكون لا معنى له بدون فهم مغزاه. هذا الكون كله يسبح بحمد مبدعه بديع السماوات والأرض. عندما يتعرف الإنسان على جوانب الكون يتعرف على جوانب من مبدع الكون. وهذه القدرة في الإنسان هي التي نسعى لتوسيعها في أنفسنا وفي الآخرين. ولهذا أمانة في عنق كل إنسان اقتحم العقبات أن يبذل جهده ليأخذ بيد الآخرين. إن كشف سنة الله التي تتجلى في التاريخ أمانة في أعناق البشر الآمرين بالقسط من الناس والفلاسفة الباحثين عن مغزى الكون المتصوفة الذين يكدحون إلى ربهم كدحا، المؤرخون الذين يريدون أن يكشفوا سنة الله في الإنسان والمجتمعات البشرية. انظروا تأملوا نظام سير البشر! اكشفوا القانون! اكشفوا سنة الله. وضع توينبي، المؤرخ البريطاني الراحل، جهده في تأمل الحضارات والحركات البشرية الكبرى، وتساءل، ما الذي يحمل مجموعة بشرية على التعاون في إبداع حضارة عمران. والحضارة هي محاولة تسخير جهد الإنسان في إبراز إمكانيات التعاون. هذا الإنسان مودع فيه الشوق إلى درجة الفناء والإنتحار حين يشعر أنه فشل في إبراز إمكاناته. إن الرسل جاءت، وإن الكتب نزلت لتأخذ بيد الإنسان في مسيرته وكدحه إلى الله، إلى من يسبح الرعد بحمده. ولن يهدأ الإنسان أو يرتاح وسيظل يكدح لأن روحه لا تشبع. وكلما اقترب ازداد شوقا، وازداد تصميماً، وكلما اقترب صار كدحه أيسر وأسهل، لأنه تعلم من العواقب والنجاحات والإخفاقات.

92. خاتمي وإدوارد سعيد

لما ألقى خاتمي خطابه في القمة التاسعة للمسلمين عام ألفين قال عن مشكلة فلسطين أو القدس كلاَماً لينا بسيطاً، ولم يعلن الجهاد ولا إرسال الجيوش ولا دعا إلى صنع قنبلة أقوى، وإنما قال: نريد دولة فلسطينية لكل الفلسطينيين من مسلمين ومسيحيين ويهود (وأنا أضيف إليه كل الملل الأخرى) وينشئوا دولتهم وتكون عاصمتها القدس. هكذا قال خاتمي بكل الهدوء والثبات. وقبل أسابيع قال إدوارد سعيد، المفكر الفلسطيني–الأمريكي والمقدسي أبا عن جد، في قناة فضائية عربية، أن حل مشكلة فلسطين يكون بإنشاء دولة علمانية ديمقراطية فلسطينية، وأنه لا يحبذ هذه الدعوات الدينية المختلفة وإقحام الأديان في مشكلة سياسية. وأنا يخيل لي أن مقولة الرجلين واحدة رغم الاختلاف الظاهري، لأن الذين يفهمون التاريخ البشري وما حصل من مآسي في هذا التاريخ وما حدث من تطورات سيتفقون. وما يجمع بين إدوارد سعيد وخاتمي هو أنهما يقبلان كلمة "السواء" ويدعوان إليها. ولكن المشكلة في الذي لا يقبل كلمة السواء ويريد أن يتخذ الناس عبيداً لا يأوون الأسياد.

علينا أن نفهم أكثر مشكلة خاتمي ومشكلة إدوارد سعيد. فكلاهما يعاني من المحيط الذي يعيش فيه ومع ذلك فهما يمثلان الجرأة في إعلان ما يدعوان إليه. أنا لا أنظر إلى خاتمي كرئيس جمهورية إسلامية وإنما كعالم ومثقف ديني يعرف عصره ويعرف اتجاه التاريخ. وكذلك إدوارد سعيد، أنظر إليه كمثقف حداثة ومثقف مناضل، ولكن من الصعب أن يضيف إلى أحماله الثقيلة وكفاحه اكتشاف ما جاء به الأنبياء. وعلى كل نحن في حاجة ماسة

إلى كلا النموذجين وسيلتقيان عند كلمة السواء لأنه لا يرفض ولن يرفض كلمة السواء إلا الذي يرى نفسه شيئاً آخر غير البشر. وبدأ عصر زوال من يرى نفسه فوق البشر. وختمت الرسالات وبدأ العلم والدين يلتقيان وإن كانت العقبات كثيرة أمام إزالة الشبهات ونسيان مآسي التاريخ، وما ارتكبه المتدينون باسم الله وما يرتكبه العلمانيون باسم العلم. إن خاتمي وإدوارد سعيد نموذجان متقدمان نحو لقاء العلم والإيمان.

ولكن لما أتحدث اليوم عن خاتمي وإدوارد سعيد؟

أنا لما أتحدث عن بلال الحبشي وأبي ذر الغفاري ومحمد إقبال وبيير بورديو وخاتمي وسعيد فإن همي وهدفي من كل هذا أن أجد عند هؤلاء مايساعدني على تقريب المشكلة الإنسانية الكبرى، التي من أجل حلها أرسل الأنبياء جميعاً. قال الناس للرسل أنكم مجانين وسحرة، "كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون أتواصوا به أم هم قوم طاغون". ما هذا الذي جاء به الأنبياء؟ نريد أن نحشر هذه الدعوة الكبرى الأبدية في كلمة واحدة مثلما كان الكون كله مضغوطاً قبل الإنفجار الأعظم في جزء صغير جداً كالذرة. إن الرسالة النبوية مضغوطة أيضا في كلمة واحدة: كلمة "السواء"، ويمكن أن نقول بتعبير آخر "عدل". في اللغة العربية وفي كل لغات العالم توجد كلمات مقابل كلمة واحدة وأحيانا يرمز إلى هذا برمز رياضي (=) لإعطاء مفهوم المعادلة بين كلمتين. ورسول الله خاتم النبيين كتب معادلات لزعماء العالم المعاصر له، كسرى الفرس وعظيم الروم وأفريقيا ضمن رسالته: تعالوا إلى كلمة (سواء) = (عدل). وشرح ما يعادلها بجمل: "أن لا نعبد إلا الله"، "أن لا نشرك به شيئا"، "أن لا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا أشهدوا بأنا مسلمون". ومعنى هذه الرسالة أن يكون للكل ما للكل، أن يساوي كل إنسان أي إنسان آخر. هذا هو العدل وهو أن الحق المحرم على أحد محرم على الجميع، والمباح لأحد مباح للجميع. ويطبق هذا على مستوى الأفكار والتصورات والاعتقادات. فكل الأفكار مباحة لكل البشر والمحرم فقط هو فرض الفكر بالقوة، وفرض الامتياز بالقوة. وهذا هو الذي يشرخ ويشق العدل والمساواة. وهذا هو الشرك في لغة الأنبياء. والوقوع في هذا يحبط جميع الأعمال "لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين".

إنني أشعر بحرج شديد في أني لا أتمكن من توضيح ما أريد من كلمة السواء الذي هو التوحيد في الأديان، وكيف أن مشكلة التوحيد ليست مشكلة إلهية غيبية بمعنى ثيولوجي ميتافيزيقي، وإنما هي مشكلة اجتماعية سياسية سوسيولوجية سيكولوجية. إن إدوارد سعيد كغيره من العالم الغربي لم يستطع أن يفهم إمكانية أن يكون الدين ديمقراطياً وأن ماجاء به الأنبياء جميعاً هو الإحتكام إلى العلم "هل عندكم من علم فتخرجوه لنا"، "ويرى الذين أوتوا العلم الذي انزل إليك هو الحق ويهدي إلى صراط العزيز الحميد". نعم إن ما جاء به الأنبياء جميعاً هو العدل والإحسان. وإذا كانت حقوق الإنسان والديمقراطية من دعوة العلمانية الغربية، فإن العلمانية الغربية تقصر حقوق الإنسان على الإنسان الغربي. وإذا كانت الديمقراطية من أركان الديانة الحديثة فإني كمسلم أقبل حق الإنسان في كلمة السواء وأقبل الديمقراطية أيضاً كأسلوب لتبادل السلطة. ولكن أستطيع أن أفرق بين الكنيسة ورسالة المسيح وأستطيع أن أفرق بين الأوضاع السياسية للمسلمين وما جاء به الإسلام من إلغاء وراثة الملك وأن يكون الحاكم باختيار الناس. وكذلك علينا أن نتمكن من التفريق بين العالم الغربي ودعواه وبين سلوكه مع العالم، حيث لا يقبل الغربيون أن تكون لكل الأمم المتحدة نفس الحقوق الإنسانية، وأن لا يكون هناك حق الفيتو الذي هو ضد حقوق الإنسان وضد الديمقراطية. ولكن يمكن أن أقول إني متفائل مع كل السوءات والمآسي الغربية واحتفاظهم بالربوبية على العالم. كلنا نعيش في هذا العالم الذي لم يبلغ الرشد بعد، وأن أمثلهم طريقة وأقربهم إلى الرشد لا يخجل أن تناقض دعواه سلوكه. وهذا الإحساس وإن كان لا يصرح به فهو موجود ومكبوت عند الغربيين. وهنا ينبغي أن أذكر فرانسوا ميتيران الرئيس السابق لفرنسا. فهو شعر بهذا التناقض الذي يعيشه العالم وقال أن الأمم المتحدة ينبغي أن يكون لها شيء من المصداقية في تنفيذ قراراتها. وعلى كل فإن العالم حبلى بالرشد، وسيولد الرشد رغما عن الجميع. يريدون ليطفئوا نور الله ويأبى الله إلا أن يتم نور والله متم نوره ولو كره الكافرون. ونور الله هو كلمة السواء وكلمة العدل ومحمد أركون، المفكر الجزائري المقيم في فرنسا، يحاول أن يدخل في هذا الموضوع الشائك المحير ليس كفكرة ولكن كشيء جديد في الحياة البشرية.

إن العلم سيرغم العلماني أن يقبل بكلمة السواء ولكن قانون الله أنه يتوجه بالخطاب إلى العبد ليخرج من عبادة المستكبر أكثر مما يتوجه إلى المستكبر، لأن المستكبر لا يمكن أن يستكبر ما لم يكن حوله من يعبده. لهذا لا بد من التوجه إلى الناس حتى لا يعبدوا الطغيان، لأن من شأن الإنسان أن يطغى حين يؤمن به الناس. ومشكلتنا لن تحل بدون أن ينتشر الوعي بين الناس بالتاريخ وسننه. ولا جدوى من الأعمال لأنها تتكر وفق قانون ما بالأنفس ولن يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.

إنني أعيش في خيالي في عالم العلم والإيمان، وأتفاءل أنه في المستقبل سنرى الإمكانات والوسائل الجديدة للوصول إلى المعلومة. وستتسارع الحلول وسنصل خلال جيل واحد ما كان يحتاج إلى أزمان جيولوجية.

93. ويأتينا فردا

الفرد أساس المجتمع الإسلامي وأمة النبوة. الإنسان الذي يحس بالمسؤولية الفردية وأنه يأتي إلى الله يوم القيامة فرداً: "وكلهم آتيه يوم القيامة فردا"، "لقد جئتمونا فرادى كما خلقنا كم أول مرة". ويرسخ القرآن هذه الفكرة بأساليب مختلفة: "ولا تزر وازرة وزر أخرى". والحساب على مثاقيل الذرة: "فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره". ولن يقبل من الإنسان في اليوم الآخر أن يقول أطعنا سادتنا وكبراءنا. وسيطلب الإنسان من الله أن يؤتى هؤلاء السادة والكبراء ضعفين من العذاب وأن يلعنوا لعنا كبيرا. "وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلولنا السبيلا ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا". وهناك سيتبرأ السادة والكبراء الذين اتبعهم الناس. والقرآن يعرض هذا الحوار وتبرؤ كل منهم من الآخر: "إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرؤوا منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وماهم بخارجين من النار". وسيقولون لسادتهم وكبرائهم: "أنتم قدمتموه لنا فبئس القرار قالوا ربنا من قدم لنا هذا فزده عذاباً ضعفاً في النار". لما يلتقي الأتباع والمتبوعين في النار سيتحاجون في النار: "حتى إذا اداركوا فيها قالت أخرهم لأولهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاب ضعف من النار قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون". إن حجة الإنسان بأن سادته وكبرائه وآباءه هم الذين زينوا له الضلال لن تقبل منه يوم القيامة، وسيكون للجميع عذاب الضعف من النار.

إن المسؤولية الفردية شيء مؤكد في الكتب السماوية. نرى في الإنجيل: "هناك يوم القيامة يكون العويل وصرير الأسنان". وحسب القرآن سيفر الإنسان من أخيه وأمه وأبيه وكل الأقارب ومن البشر جميعاً ولا يجديه: "يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه لكل امرء منهم يومئذ شأن يغنيه". وهناك سيتمنى المذنب أن يفتدي نفسه بكل أهل الأرض: "يود المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذ ببنيه وصاحبته وأخيه وفصيلته التي تؤويه ومن في الأرض جميعاً ثم ينجيه كلا إنها لظى". ويذكر القرآن أن الضعفاء سيقولون للمستكبرين: "إنا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا نصيب من النار قال الذين إستكبروا إنا كل فيها إن الله قد حكم بين العباد". ولا يذكر القرآن ولا مرة واحدة ما يدل على أن طاعة أحد من البشر في معصية الله ذنب يعفى.

وموضوع المسؤولية الفردية مرتبط باليوم الآخر. فالذين يؤمنون باليوم الآخر لهم أعظم الميزة. يقول الله عنهم ولهم: "إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون". فلو تساوى الناس في كل شيء فإن الذين يؤمنون بالآخرة لهم الراجح الأكبر، لأن إيمانهم بيوم القيامة يعطيهم ماليس لغيرهم. فالمؤمنون في الأزمات الشديدة يجدون الأمن والسلوى ويصبرون على ما لا يصبر عليه غيرهم ويجدون القرآن مؤنساً لهم في وحشتهم يمدهم بقوة عجيبة تثبتهم. وهذه القوة فعالة جداً. إن آيات القرآن تشعر الإنسان أنها تتوجه إلى أعماق نفسه حين يفقد السند من الدنيا، وأنه هناك تنفتح له أبواب من القوة والسند والحياة. إن في قصص الأنبياء السلوى عند البلوى، "كذلك نقص عليك من أنباء الرسل ما يثبت به فؤادك". ولهذا يتلى القرآن

في السجون، ويخرج الحفاظ منها. فحتى ما عند البسطاء من المفاهيم القليلة من القرآن تعطيهم مناعة ضد غسيل الدماغ. ولقد ذكر عباس محمود العقاد أن أسرى الحرب في كوريا حينما أجروا عليهم التجارب في غسيل الدماغ إستعصى عليهم غسيل دماغ الجنود الأتراك المسلمين الذين أسروا في تلك الحرب. ويعتبر محمد إقبال إيمان المرء بالآخرة- يسميها "ثورة المحشر"- من أعظم الطاقات التي تساعده في أشد الأزمات، وهذا الإيمان يحرر الإنسان أعظم التحرير. بل إن الأسلوب الذي يعرض القرآن فيه المسؤلية الفردية في ذلك اليوم المشهود يظهر أن هذا الشعور يثير في الإنسان أعظم الطاقات في مواجهة باطل الآباء المقربين والأعداء المبعدين. وإذا كان الناس يعطلون هذه الطاقات بالإلتفاف عليها والتلاعب فيها فإن الحق لن يضيع. إن الذي جرأ السحرة على التمرد على فرعون وأعلنوا إيمانهم أمام جبروته كان إيمانهم الداخلي، حيث استخفوا بفرعون وكل علوه وجبروته وقدرته على أشد العذاب. فلما هددهم وقال "لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم في جذوع النخل ولتعلمن أينا أشد عذاب وأبقى قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا فقض ما أنت قاض إنما تقضي هذه الحياة الدنيا إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى إنه من يأت ربه مجرماً فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى". ويكرر الله قصة هؤلاء السحرة الذين كانوا مسخرين لفرعون ويقولون: "بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون". إنهم يتحولون أمام لحظة الاستنارة، "فألقى السحرة ساجدين قالوا آمنا برب العالمين ...قال آمنهم له قبل أن آذن لكم...فلسوف تعلمون لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم أجمعين. قالوا لاضير إنا إلى ربنا منقلبون إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا أول المؤمنين". إن هذه المواجهة الباردة بقولهم الأخير إزاء هذه التهديدات الملتهبة دليل فعالية الإيمان بالله واليوم الآخر في تحويل الإنسان يهدوء وبرود إلى أكبر متحدي بغير جزع ولا تردد. وكان أصحاب الرسول (ص) يعذبون في حمارة قيظ مكة والرسول يبشرهم بأن الجنة موعدهم. هذا الذي جعل المؤمنين يصبرون خلال التاريخ إلى يومنا هذا.

وحين يتحرر هذا الإيمان من الشوائب التي تحيط بأساليب المؤمنين من لوثة أفعال المشركين فلن يقف أمامهم أحد في العالم أجمع وسيحققون وصف الله من أنهم "وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد". ينبغي أن يتحرر ويتخلص موقع النقمة. وهذا أمر مهم، وعدم انتباهنا إليه يجعل المقدّس يختلط بالمدنس. لهذا سحرة فرعون لما واجهوا تهديد فرعون بدم بارد برد اليقين، حتى لما هدد فرعون بالقطع والصلب، قالوا بيقين وإصرار: "إنا إلى ربنا منقلبون وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين". إن قصة فرعون أطول قصة في القرآن وأكثرها تفصيلاً وتصريفاً.

نرجو أن نتمكن من إظهار الحق الذي إذا جاء يزهق الباطل بنعشه ويموت موتاً طبيعياً. متى سنكشف هذا؟ متى سنتمكن من جعل الحق يجيء ببهائه وجلاله؟ متى سنجعل في واقع الأرض قول الله: "فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون". لقد ضيعنا المسؤلية الفردية وأوحينا للناس أنه لا بأس أن يكونوا أداة بأيدي الذين يأمرون بقتل الناس بغير حق. إني أقول وسأظل أقول وأكثر من أني لا أريد للشباب الإسلامي أن يسجنوا أو يحاكموا أو يعدموا لأنهم حاولوا أن يقتلوا أو قتلوا زعماء العرب والمسلمين وجنودهم. وإنما أطلب وأريد من الشباب أن يسجنوا ويحاكموا ويقتلوا لأنهم رفضوا أن يقتلوا عربياً مسلماً آخر إطاعة لسادتهم وكبرائهم. أرجو من الشباب حيثما كانوا مجندين أن لا يكونوا بنادق بأيدي زعماء العرب والمسلمين الذين يأمرون بقتل إخوانهم العرب والمسلمين. يا مسلم! إنك إذا صرت بندقية فسيوجد في كل مكان من يشد الزناد. أرفض أن تكون بندقية! وكن مثل بلال وسمية وياسر. فإذا رفضت قتل أخيك العربي المسلم الذي مثلك فسوف لن يتمكن أحد أن يشد زنادك. أرجو من علماء المسلمين أن يوضحوا معنى المسؤولية لنخرج من الظلمات إلى النور.

94. روما ويثرب

تحولت روما إلى المسيحية في أربعة قرون، وتحولت يثرب إلى الإسلام في النصف الأول من الدعوة المحمدية.

لماذا أقارن بين روما ويثرب، وما الهاجس الذي يسيطر علي؟

نرى في قصتي روما ويثرب وحدة النبوات ووحدة الشرعية. "شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا نه إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه". "ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن أعبدوا الله وإجتنبوا الطاغوت"، "ولقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط". والذي أدندن حوله دائماً وأغدو وأروح وأبدأ وأعيد من أمر النبوات هو أن الدين بالاقتناع وليس بالإكراه، وهذا ما حدث في روما والمدينة. وهذا شيء أساسي تشهد له آيات الآفاق والأنفس وربما كان يمكن تجاهله في سابق الزمان، ولكن اليوم أرانا الله من الزيادة في الخلق وأن الرشد قد تبين من الغي وأن لا إكراه في الدين وأن الدين الذي يأتي بالإكراه لا يكون رشداً. وهذا تستوي فيه الأديان جميعاً، دين الرسل كلهم. وهو عكس دين فرعون الذي قال أخاف أن يبدل دينكم. فالإيمان بالإكراه دين والإيمان باللاإكراه دين. والشيء الذي يتبين به الرشد من الغي هو الاكراه واللاإكراه. إن موقف الإنسان من الإكراه هو الذي يجعله إما على دين الرسل أو على دين فرعون. وصنع المجتمع النبوي لا يمكن أن يكون بالإكراه وإنما بالإقناع، وهذا الموضوع مهما إستخف به الناس أو لم يعيروه اهتماماً فإنه يفرض نفسه خلال التاريخ.

يقول الله موجهاً الخطاب إلى أمة محمد أن يكونوا مثل الحواريين: "يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصاري إلى الله قال الحواريين نحن أنصار الله فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة فأيدنا الذين أمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين". لماذا هذا الأمر، وماذا فعل الحواريون، وكيف تصرفوا؟ كانت فلسطين في ذلك الوقت تابعة لروما وللإمبراطورية الرومانية، وكان الحاكم الروماني بيلاطس هو الذي يحكم فلسطين في زمن عيسى عليه السلام وهو الذي حاكم عيسى عليه السلام بإيعاز من الكتبة والفريسيين. ولكن الذي أريد أن ألفت النظر إليه هو كيف توجه الحواريون إلى قلب الإمبراطورية وذهبوا إلى روما وبشروا هناك ولقوا كثيراً من العذاب وهم يصبرون على ما أوذوا. واستمر هذا الأمر أربعة قرون طويلة مملة ولكن انتصروا وصار أبناء الأرستقراطية الرومانية يتحولون إلى دين الحواريين. كان الرومان يتعجبون كيف يدخل أبناؤهم الشباب الذين لا ينقصهم الثراء والسلطة والكبرياء في الأرض إلى هذا الدين. كيف يصدقون هذا الهراء. إن متابعة هذه القرون وما حدث فيها لأمر شيق. انتصرت المسيحية بدون أن يلجأ أحد من أتباعها إلى العنف، وألزمهم كلمة التقوى وصبروا إلى أن تحول المجتمع الروماني إلى المسيحية. لاشك أنه لم يتحول الكل، ولكن ظلت دائرة الإيمان تتسع وتتحول إلى أن وصل الأمر إلى وعد الله لهم فأصبحوا ظاهرين وأعلن الإمبراطور بعد تأملات وحسابات أن القوة والظهور والقلوب صارت مع أتباع الحواريين فأعلن دخوله في دين الشعب.

هذا الحدث يدل على إمكانية التحول والتحويل بدون إكراه، وبالصبر على الإكراه أصبح الذين آمنوا ظاهرين. وهنا يبرز شيء جديد ودليل جديد على تغير المجتمع. إن المجتمع إذا تغير تتغير السياسة أيضا. وإذا كان الناس يقولون إن الناس على دين ملوكهم فقد ولد العكس، وهو أن الملوك على دين شعوبهم. فلاسفة علم الاجتماع أمثال بيير بورديو بدؤوا يكشفون هذا. وبدأ يبرز الفكر المقابل بأن الأمر "كما تكونوا يولى عليكم" وليس كما يولى عليكم تكونون. وهذا هو الانقلاب الاجتماعي الذي حدث في هذا العصر من أن وعي الشعوب هو الرصيد الحق لتحرر الشعوب من سادتها وملوكها وكبرائها. علينا تتبع ودراسة التاريخ. سيروا في الأرض فانظروا وافهموا القوة التي تحرك التاريخ والاتجاه الذي يتحرك إليه البشر. لقد بدأت قوانين الله تبرز الآن في هذا العصر كعلم ومعرفة ووعي من أن الذين استضعفوا في الأرض يتحولون إلى أئمة وإلى الوارثين للسيطرة على مصير التاريخ.

هذا هو تحول روما، ولكن ما شأن يثرب التي تحولت إلى المدينة؟ إن جزيرة العرب في تلك الأيام لم تكن تابعة لإمبراطور ولا لدولة مركزية. فمكة والطائف ويثرب كانت بقعا مستقلة، وحتى كل قبيلة لها استقلالها. كان الرسول (ص) يعرض نفسه على القبائل في المواسم. ذهب إلى الطائف ورماه

الأولاد بالحجارة. ولكن التحول والإقبال جاءا من يثرب، وتحقق ذلك بالإقناع والهداية وليس بالحرب والإكراه والعنف. لم يدافع أحد عن نفسه من أصحابه (ص)، وهو لما ذهب إلى هناك كانت يثرب قد تحولت بالدعوة إلى الإسلام. لم يصل الرسول إليها كفاتح عسكري وإنما استقبله أهل يثرب رجالا ونساء ينشدون:

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع| وجب الشكر علينا ما دع لله داع|

أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع. هذا الاختزال في الزمن قد يرجع إلى ظروف الزمان والمكان والحياة الاجتماعية (والله أعلم حيث يجعل رسالته). من المثير أن نفهم ما حدث بسننه وقوانينه. إن المجتمع النبوي هو المجتمع الذي يتكون بدون إكراه وهذا شيء أساسي مهما تفلت من الناس خلال التاريخ. إن وعد الله حق وآت ولا يخلف الميعاد.

هذا ما يقوله التاريخ وهذا ما يقوله القرآن عن الطاغوت معتمداً على التاريخ، "فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد إستمسك بالعروة الوثقى لا إنفصام لها". ويؤكد هذا خلال التاريخ فيقول مقرراً المبدأ وأنه رسالة كل الرسل، "ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن إعبدوا الله وإجتنبوا الطاغوت"، وبعد هذا يقول مباشرة: "فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة"، والإنسان هو المسؤول عن ضلالته: "قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها"، لأن هذا من عمل البشر وسعيهم. يقول الله: "فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين". هذا هو الأمر بالإستفادة من التاريخ والتعويل عليه: أن الهداية هي طاعة الله في أمره باللاإكراه وأن الضلالة والغي تكون بطاعة الطاغوت وعدم الكفر به، وأنه لا إكراه في الدين الحق ودين الرسل جميعاً، لا في بدء الدعوة ولا بعد نجاحها. إن الإكراه ووسائل الإكراه مبعدة من دين الرسل جميعاً، حيث للآخرين حق في أن يبقوا على دينهم وعلى رأيهم وأفكارهم وتصوراتهم. والله ورسله لا يجيزون استخدام الإكراه في تغيير الأفكار وإقناع الناس. وأي اختلاط في هذا الموضوع هو الغي وهو الطاغوت. وأريد أن أشير هنا إلى أن عهد الرشد كان سريع الزوال في التاريخ لطول الأمد على عبادة الملوك. ولكن وعد الله في تحقق نور الرسالات يتحقق خلال التاريخ.

والغريب أن الذين يتأخرون في فهم هذا التحول الجديد هم أتباع الأنبياء الذين بشروا بالتوحيد والخروج من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد وإخراج من شاء من العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد. إن تحول الجهاد من تحرير العباد إلى استعباد العباد هو الذي أوقف وأخر ظهور دعوة النبوات في العالم. وكان الإسلام سينتقل مرة أخرى إلى روما من جديد كما انتقلت المسيحية إلى روما، ويمكن أن يحصل هذا التحول وأن يعقد العالم من جديد صلحاً مثل صلح الحديبية، الذي كان في مكان ناء وبلد غير ذي زرع عند البيت المحرم. كان صلحا لإيقاف الحروب وترك الناس ينضمون إلى أي حلف يريدون.

95. شبح هارون الرشيد

قصص هارون الرشيد وألف ليلة وليلة ما زالت تتحكم فينا بدون رشد. هارون الرشيد وبلد الرشيد وبغداد الرشيد تغلغلوا في أعماقنا متلبسين بكل الأبهة الأسطورية. لم تعد كلمة "الرشيد" اسما عَلَمَاً لشخص وإنما اسطورة عصر وحُكم يخاطب السحاب غير مبالٍ، أنى ينزل المطر فإن الخراج سيأتي إليه. لم يعد هذا ملكا ولا خليفة وإنما اختلط الخيال والترف والتنسك بدون وعي. تراث شعبي تجسد في قصص ألف ليلة وليلة. القصور، الخدم، الحشم، الجواري، المغنيات، وما شئت من خيالات من الحج سنة والغزو سنة أخرى. ما شأن هذا كله وارتباطه بمؤتمرات القمم العربية والإسلامية؟ وما العلاقة بين هذه الأحداث الخالية والمآسي الحالية؟

أصبحت قصة هارون الرشيد في خيال وأعماق كل عربي ومسلم. أصبحت عنوان المجد الغابر والحنين الدائم. كنا ونحن أطفالا نتغنى ببغداد، يا بلد الرشيد ومنارة المجد التليد. إن هارون الرشيد الخيال يقبع في قلب كل مسلم، سواء شعر بذلك أم لم يشعر. فهذه البذرة والجينة حاملة الوراثة الثقافية في تخيل العز والمجد والوفاء والغدر تقبع في الذاكرة الجمعية. ولكن لهارون الرشيد جهة مظلمة مهمّشة في ذاكرتنا. هارون الرشيد نفسه أمر بقتل صديق طفولته وشبابه جعفر بن يحيى البرمكي، ولما بلغ يحيى البرمكي خبر إعدام ابنه جعفر بن يحيى بأمر هارون، وقع القلم من يده وقال: هكذا تقوم الساعة. وهكذا كان الغدر في تاريخنا. إن بغداد ودمشق تحملان خيالات المجد والغنى والسلطة والسعة والبسط، لأن هاتين المدينتين كانتا عاصمتي العصر الذهبي في خيال المسلمين، رغم أن هذا العصر الذهبي كان عصرا قد غاب الرشد عنه، حيث بدأ الانكسار للذمم وضياع الوفاء بالعهود من بعد معركة صفين. إن كل هذا المجد المتخيل الذي طال خلال أجيال طويلة كان نتيجة جيل واحد من الذين استناروا بالرشد والأمانة وبقي عهد الرشد مقصورا عليهم، وإن تمسح به من تلاهم وتسموا بالرشيد. فالمسلمون لم يضيعوا معنى الرشد حين لم يطلقوا لقب الرشد على أحد بعد الخلفاء الأربعة الأوائل، رغم أنهم فقدوا إلى يومنا هذا سبيل إعادة الرشد.

إن عصرنا الذهبي كان فاقدا للرشد، كان على سنة هرقل ولم يكن على سنة الرشد. وسنة هرقل تتحكم فينا من خلال أبهة هارون الرشيد، وكل حاكم في العالم العربي والإسلامي يحمل أمنية أن يكون مثل هارون الرشيد يخاطب السحاب ويوحد الأمة. ووحدة الأمة أمل عميق، ولكن وحدة الأمة لا يمكن أن تتحقق اليوم على سنة هارن الرشيد، ولا ببابل وهاروت وماروت. إن كل بلدٍ عربي يخاطب زعيمه بأنه زعيم العرب وقائد الأمة ومعقد آمالها، وللأسف إن المثقف هو الذي يبتدع هذه الألقاب في كل بلد للأمير أو الملك أو الرئيس. قد يكون هذا مألوفا في الزمن السالف حيث لم يكن الحضور السمعي والبصري يصل إلى كل مكان، أما الآن لا يستطيع الناس وهم يرون ويسمعون أن يفسروا هذا الفخر والعجز. لا بد من تحليل الأمور وتسمية الأفكار الخفية غير المنطوقة، ولقد بدأت الأحداث والمواقف بالبروز إلى السطح وإلى العلن. فوزير خارجية قطر، أثناء حواره في مقابلة تلفزيونية، وضح بلا مبالاة أن سبب معاهدتهم مع أمريكا هو الخوف من العرب، لأنه من الممكن إذا تغيرت الظروف أن يحدث لهم مثل ماحدث للكويت. بكل الصراحة يعلن وزير خارجية قطر أنه يخاف من إخوانه العرب والمسلمين وأن أمريكا هي التي تحميهم، وهذه الحقيقة الجلية الخفية التي لم يكن يمكن التفوه بها طفت وبرزت إلى السطح. وهذا سببه لأن العرب يؤمنون بأن القوة هي التي ستزيل هذا الذل والعار والتمزق العربي العربي والإسلامي الإسلامي. لقد أصبحنا نخاف من غدر كل هارون رشيد. إن وزير خارجية قطر عرف هذا وأعلنها على الملأ، وكل العرب يعرفون هذا، وإلا لماذا حدثت حرب الخليج الثانية؟ إن الفهم يتقدم ببطء، ولكنه يتقدم. ما زلنا نعيش عصر هارون الرشيد رغم أنها أمة قد خلت من قبلنا. علينا أن نخرج من الأحلام ونفهم الأوضاع.

إن أمريكا تفهمنا، كتب رونالد ريغان، رئيس أمريكي سابق في مذكراته: لما ضربنا بيت القذافي أعلن بعض العرب استنكارهم ولكن فيما بينهم قالوا إن القذافي يستحق هذا. إن كل هذا الاختلاط سببه أننا لانعيش هذا العصر. والمشكلة الكبيرة هي أننا نتصرف تصرف ما قبل الرشد وما بعد الرشد، ونعيش مفاهيم غير راشدة، وأننا إذا تمكننا بالقوة – بناء على عصرسابق – نشعر أنه لا قيمة لشيء ولا يقف أمامنا أحد. يمكن أن نزيل آباءنا ونستعدي على أبنائنا ونقتل أصهارنا. إن أيدينا لا تستقبح أي دم ولا يحول بيننا وبين مانريد لا الله ولاالبشر ولا إلّ ولا ذمة. أنا قوي، أنا ربكم الأعلى، لا يوجد إلا البتر.

فكرت في هذا الموضوع طويلا وكثيرا وفكرت في التاريخ وفكرت في القرآن فوجدت وصفا دقيقا للمشكلة في أول سورة نزلت. "إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى". فتبين لي أن الإنسان ما دام الذين حوله يطيعونه ويرونه سيد الأقدار سيتحول إلى فرعون وطاغوت. هذا الذي جعل فرعون يطغى "فحشر فنادى فقال أنا ربكم الأعلى"، وقال: "ما علمت لكم من إله غيري"، وقال: "لئن اتخذت إلها غيري لأجعلنك من المسجونين". وقال للذين آمنوا بموسى: "آمنتم له قبل أن آذن لكم000 لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم في جذوع النخل ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى". وأجد الخلاص من ربوبية

وألوهية البشر بأن نخرج من طاعتهم، وأن نتعاون مع الطاغوت على البر والتقوى وأن لانتعاون معه على الإثم والعدوان. هذا معنى قوله تعالى لموسى وأخيه: "وقولا له قولا لينا". هذا هو القول اللين والهين، وهذا هو معنى قول موسى لفرعون: "هل لك إلى أن تزكى وأهديك إلى ربك فتخشى". إن المثل الشعبي الشائع الذي يقول: قيل لفرعون ما الذي فرعنك، قال: لم يردني أحد. إن كلمة الله في التعاون على البر والتقوى وعدم التعاون معه على الأثم والعدوان سيحل المشكلة الانسانية كلها لا العربية والإسلامية فقط. فإذا خرجنا أن نكون أداة بيد الطاغوت فلن يستطيع أن يفعل شيئا، لأن الذين يرفضون أن يتعاونوا على الإثم والعدوان لايمكن أن يكونوا أداة بيد الآثم المعتدي. وأنا أومن وأطمع أن أنقل إيماني إلى آخرين لأنه إذا وجد هذا النوع من البشر –وهو ما أراد الأنبياء إيجاده – يمكن لهذا النموذج أن يحول الأمة إلى الرشد. وإن بلدا واحدا من العرب يبلغ الرشد ويتعاون على البر والتقوى لا يمكن أن يهجم على جاره. إن مثل هذا المجتمع بدأ يتكون في النموذج الأوربي. فالأوربيون لا يحتاجون أن يرسلوا قوات إلى جيرانهم ليضموهم وإنما جارهم يقول خذوني وضموني إليكم. أليس هذا الذي تتمناه تركيا ويتمناه المغرب؟ أن يُقبلوا في الاتحاد الأوربي على كلمة سواء وأليس خوف ياسر عرفات من إمكان رفض الشعب الفلسطيني له إن تنازل عن القدس هو الذي جعله يرفض ذلك؟ واستقبله الفلسطينيون، لأن من يمثل رغبة شعبه لن يهزم ولن يفشل. إن العالم يتغير، وإن بلدا عربيا واحدا إذا تحول إلى بلد راشد سيكون سببا لتحول جميع العرب. وإن غدا لناظره قريب. ولعله يتولد من مأساة فلسطين تضامن حقيقي بين الشعب وممثليه، فتحل مشكلة العرب ونصير نتعجب كيف لم نكن نفهم ذلك. إنهم يرونه بعيدا ونراه قريبا.

96. التحدي الديمقراطي أصعب

هناك شيئ مجهول مخبأ ليس في متناول البشر وغير قابل للإمساك به ويتحكم فينا، وضدنا إن هذه الموضوعات حين يصل إليها الإنسان يشعر أنه عاجز عن فهمه وكشفه وهناك لغموض الموضوع وخفائه لايمكن تشابك الفكر القبض عليه وحتى لغته تعجز عن التعبير عنه علماء الإجتماع والمفكرون في هذه المشكلة يصطدمون بهذه المشكلة والجدار المسدود وأنا أحاول أن أبحث هذه المشكلة من جانبين جانب الفكرة التي جاءبها الأنبياء والمفكر التي بدء المفكر الإنساني الوصول إليها كم كانت الجراثيم الضارة مخبأة وبعيدة عن وعي الإنسان وفهمه وإمكان رؤيته والتعامل معه برؤية ووعي معرفي نحن كذلك في المشكلة الإنسانية الإنسان الذي يكابد الآلام من الجراثيم الفكرية المخبأة عالمياً إنني أحاول أن أتابع الفكر الإنساني وما وصل إليه أهل البحث في هذا الموضوع ولكن في الوقت نفسه عيني الأخرى على ما جاء به الأنبياء في هذا الموضوع وبعباءة أخرى أحاول قراءة آيات الكتاب المنزل وقراءة آيات الآفاق والأنفس التي لها علاقة كبيرة بآيات الكتاب كنت أقرأ مالك بن نبي ثم بعد ذلك قرأت أركون وقرأت ميشيل فوكو وأنا أقلب فكري في سماء المعرفة فمثلاً أقرأ في كتاب ميشيل فوكو مسيرة فلسفية مايلي:"يذهب فوكو إلى حد القول إن قدرة المحلل النفسي على فهم المرض العقلي لمريضه محددة:فالتحليل النفسي يستطيع أن يفك عقدة بعض أشكال المجنون لكنه يظل غريباً عن عمل الجنون الأعظم...وينتهي تاريخ الجنون بعدد معين من الإشارات إلى شكل أساسي من الغيرية يخرج عن متناول العقل والعلم ويبدو خفية أنه سبب إمكانيتهما فهو يلمح إلى (لمعان) شعراء مثل أرثو وهو لدرلين نيروفال الذين نجوا بطريقة ما من هذا السجن المعنوي الهائل واستشفوا تلك التجربة الأصلية للغباوة التي تستجوبنا أبعد من حدود المجتمع يتسائل فوكو ماإذا كانت هذه الغيرية بداية معارضة جذرية للثقافة الغربية إن هذه الإشارة إلى غيرية عميقة تفتح التاريخ وتتجنبه...فهو يتصور حينئذ هذا البحث عن تجربة أصلية تقع خارج التاريخ " هذا النص يمثل تسلق الجدار الأملس في فهم المشكلة الإنسانية في الفكر الحديث ولما أقرأ لعالم الإجتماع بيير بورديو حين يصل إلى هذه المشكلة التي يتناولها فوكو وكلمات فوكو كنت أستشهدت بها في مقال سابق والآن أضيف إليه تطلعات عالم الإجتماع الذي يصطدم بهذه المشكلة فيعبر عنها ولكن دليل عمق المشكلة أن بيير بورديو يشعر بالحاجة إلى دعم في هذا الموضوع الخفي الصعب التناول فلهذا يلجأ إلى ديفيد هيوم فينقل عنه (لا شيئ يبعث على الدهشة الأكبر لمن ينظرون إلى الشؤون الإنسانية بعين فلسفية من رؤية السهولة التي يحكم بها العدد الأكبر من العدد الأقل وملاحظة الخضوع الضمني الذي به يلجم الناس عواطفهم الخاصة وأهوائهم لصالح حكامهم

وعندما نتسائل بأي الوسائل يتحقق هذا الشيء المدهش نجد أن ليس للحكام –بما أن القوة تجثم دائماً إلى جانب المحكومين ليس لهم– لسندهم إلى الرأي ولذا فأن الحكومة تستند إلى الرأي وحده وأن هذا الأساس يمتد إلى أكثر الحكومات إستبداداً وأكثرها عسكرية إمتداداً إلى أكثرها حرية وأكثرها شعبية) يعلق بورديو على هيوم فيقول: إن دهشه هيوم تثير سؤالاً أساسياً في كل فلسفة سياسية سؤالاً نعتم عليه تعتيماً مفارقة حين نطرح مشكلة لا تطرح حقاً كمشكلة في الحياة العادية مشكلة الشرعية ثلاث نقاط إن مسألة شرعية الدولة والنظام الذي تقيمه لا تطرح خارج أحوال الأزمة والدولة لا تحتاج إلى إصدار أوامر وإلى ممارسة قسر جسدي لتحقيق عالم إجتماعي منتظم ويدوم الأمر ما بقيت قادرة على إنتاج بينات معرفية موضوعية وكذلك ضمان الإعتقاد الذي كان هيوم يتحدث عنه الخضوع المعتقدي للنظام القائم حين يناقش بورديو هذا الموضوع في كتابه العقلانية العملية تحت عنوان بناء الدولة للعقول هنا هيوم وبيير بورديو يريدان أن يبحثا وراء أدوات القمع وعلاقات القوة المادية هناك مسلمات رمزية معرفية تجعل الخضوع ممكناً بندهاش كيف يفرض المهيمنون هيمنتهم كيف يمكن رؤية السهولة التي يحكم بها العدد الأكبر من قبل العدد الأقل وملاحظة الخضوع الضمني الذي يلجم الناس عواطفهم الخاصة وأهوائهم لصالح حكامهم لا بد من كشف آليات فكرية سابقة على إستخدام أدوات القمع مسلمات نفسية إعتقادات وتصورات للعالم والنفس الإنسانية، يذكر أركون في كتابه نافذة على الإسلام حين يذكر الحداثة وأنها تجري ومرتبطة بالغرب برهانات فلسفية يقول عن "هاير ماس" أنه ميز وهو يحلل تيارات الفكر المعاصر بين ما يدخل من الحداثة في نطاق الجائز والمحلي والإيديولوجي والأسطوري وبين ما يستمر في فرض نفسه على كل فكر حي كتحدي الذي يتحدى به العقل أبداً ذاته ونقل عن هير ماس مقطعاًَ قال عنه أركون أنه يتجاوز شمولية عقلانية الغرب الوضعية والعلمانية وهي شمولية زائفة ويسمح في الوقت نفسه بتجاوز إضفاء التعالي والقداسة على الإسلام الحالي يقول هير ماس في كتابه خطاب الحداثة الفلسفي " نجد في فكرة الميثاق الديني بذرة جدلية الخيانة والقدرة المنتقمة ... احترام الميثاق مع الله رمز الأمانة وتحطيم هذا الميثاق رمز الخيانة ... الوفاء لله يعني الوفاء عبر الذات والآخرين وفي جميع ميادين الكائن وإنكاره في أي ميدان يعني فسخ الميثاق مع الله وخيانة أساسه ذاته...ولذلك فإن خيانة الأخرين ذاته...ولذلك فإن خيانة الأخرين هي في الوقت نفسه خيانة للذات ولذلك فإن إحتجاج المرء على الخيانة ليس فقط إحتجاجاً باسمه الخاص بل هو أيضاً إحتجاج بأسم الآخرين...وفي فكرة أن كل كائن حليف بالقوة في النضال ضد الخيانة–وفي جميع ميادين الكائن– وإنكاره في أي ميدان يعني فسخ الميثاق مع الله وخيانة أساسه ذاته...ولذلك فإن خيانة الآخرين هي في الوقت نفسه خيانة للذات ولذلك فإن إحتجاج المرء على خيانة ليس فقط إحتجاجاً باسمه الخاص بل هو أيضاً إحتجاج باسم الآخرين...وفي فكرة أن كل كائن حليف بالقوة في النضال ضد الخيانة– بمن فيهم من يخونني ويخون نفسه– إنه يفرق بذلك بين الذين يعلمون وجمهور الجهلة إن مفهوم الأنوار المألوف لدينا لا يمكن التفكير فيه دون ميثاق شامل بالقوة ضد الخيانة) لم يتجرأ فوكو ولا بورديو أن يشيروا إلى ميثاق الله مع الإنسان كما دعا إليه الأنبياء ولكن هاير ماس تمكن من الإشارة ومن القدرة على تمييز الطفل من ماء غسيله إن هاير ماس إستطاع أن يلمح الميثاق ضد الخيانة ويلمح معنى الأمانة وكيف نبذنا الأمانة والميثاق ميثاق الأمانة في ضوء هذه المعاناة الفلسفية المعرفية والتاريخ الذي يطلب فاتورة خيانة الميثاق إن ظن أن الإنسان يعطي على الاكراه أكثر مما يعطي على الإقناع خيانة للميثاق ونبذ العهد إن فرض الرأي بالاكراه إلغاء للإنسان ولروح الإنسان إنه رفض لأمانة وللرشد وقبول بالخيانة ونقض الميثاق (وإذا أخذ الله ميثاق الذين أوتو الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً فبئس ما يشترون) (إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً) إنه نبذ الأمانة لجهله وزين له سوء عمله فرآه حسناً واليوم حين تنعقد القمم العربية والإسلامية ودول عدم الإنحياز إن الخلفية الفكرية التي عندهم مبنية على فكرة وليس على سلاح وقوة وحرب وهو أن الأنسان ينتصر بالإكراه إن العالم الإنساني في مرحلة جهالة ولانقول طفولة لا يوجد فيهم من يقبل كلمة السواء ويلتزم بها بمجرد أن يشعر أنه بالقوة يمكن تخويف الناس ينبذ العهد والميثاق والأمانة إن ابراهيم لما قال: (وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعملون) إنه ملة إبراهيم وملة الذين قبلوا عهد الله وميثاقه وأبوا أن يفتروا على الكذب لعلنا نكشف مكان الخلل.

97. الخروج من الأوهام

منذ أكثر من شهر وأنا أعيد قراءة كتاب (العقلانية العلمية) لبيير بورديو الذي يحاول أن يؤسس أعمال الإنسان على العقلانية، وفي كل مرة يُرجِع بورديو المشكلات إلى تصورنا للعالم والأوهام والفرضيات الخاطئة التي ننطلق منها. ولكن القارئ لن يخرج من الكتاب بطائل لأن مؤلفه يوحي بالعدمية. وربما أنا أيضا لا أتمكن من إقناع قرائي بأفكاري ويرون أنني أحرث في العدمية حين أركز على إيماني بعقل الإنسان لا بعضلاته.

لقد آمنت بمذهب ابن آدم الذي لم يبسط يده لقتل أخيه، وكانت ثقته في الروح التي نفخ الله فيها من المعرفة. وثقة ابن آدم في التسخير هي التي جعلته يقف هذا الموقف المتحدي أمام أخيه. لقد آمن ابن آدم الأول بالحق وكفر بالباطل ولم يشرك بربه أحداً. كان هذا الموقف نتيجة تصوره للعالم. أريد أن أؤسس الفكرة على بديهيات أولية، ثم يكون التقدم وترسيخ المراحل حتى لا نقطع ما أمر الله به أن يوصل. إن الانقطاع في مرحلة ما ودخول الأمور الوهمية أودخول الشرك مهما كان خفياً أوقليلاً يحبط الأعمال والمساعي. ينبغي أن يكون البناء على التقوى وينبغي أن يبنى التقوى على أساس متين، لا على شفا جرف كمثل القرآن ولا على الرمل كمثل الإنجيل، لأن الذي يبني على الرمل يسقط بناءه حين تأتي الرياح والسيول ويكون سقوطه عظيما. "أم من تأسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم".

الإنسان هو الأساس، وسأظل أقول إن قانون الإنسان الإحسان لا الإساءة. "لا تستوي الحسنة ولا السيئة إدفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم". ينبغي أن نكشف قانون الإنسان ونتقدم به خطوة خطوة بحيث لا نميل عن الهدف ولا نتوقف إلا لنتأكد من صلابة الانتقال من أساس إلى أساس. فكما يعطي الإنسان بالإقناع والإحسان فهو أيضا لا يعطي على الإكراه والإساءة إلا أقل ما يمكن، ويظل مستعداً للإنتقام في أول لحظة يتمكن فيها، لأن الإكراه كالبناء على الرمل وعلى الهاوية، كالذي ليس له قرار. إن أي خطأ في نقطة الإنطلاق ينتج الفساد، وأي بناء على الخراب سينتهي إلى الخراب. ولابد أن نتذكر هذا ونلتزم في تذكره لأن خراب القلوب في نسيانه.

كثيراً ما أشعر أننا نفقد المنطق ونتقاتل ونستقتل في غير مكانه ولانسلك الصراط المستقيم. إن عدم فهم قانون الإنسان وأفضل الطرق لاستثماره يؤدي إلى سلك الطرق الطويلة الملتوية المليئة بالفساد وسفك الدماء، ويملأ القلب بالغل والكراهية الناشئين عن الوهم والجهل والخطأ وظن السوء والمكر والخداع "ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله"، "يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم". وكون الأوهام والأخطاء منتشرة لا تعني أنها طرق مستقيمة قصيرة. إن الذين يحتقرون الإنسان ويستخفون به يخادعون القانون الإلهي في الكون، ويخادعون أنفسهم. إن ظنهم أن الإساءة إلى الإنسان هي الحل يمثل مرحلة فكرية خاطئة عن الإنسان عند الإنسان الذي يجهل قانون الوجود ويجهل نفسه، ويجهل أن الكون كله مسخر له على أساس القوانين الثابتة، "وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون". الكون كله مسخر للإنسان الذي يكشف القانون. ولقد قلت في مقال سابق من أن عقل الإنسان رفع قدرة عضلاته، بل كشف الإنسان وسائل لرفع قدرة عقله حين جعل المعرفة ميسرة في عصر المعلومات. ومع ذلك لا نزال نعيش الأوهام لأن المنطلق هو الإكراه ولم يحل السلام في القلب بعد ويرونه بعيداً. من هنا ألح على ضرورة أن يكون منطلقنا الفكري مبنيا على الإيمان بنظام الوجود، لأن حياة الإنسان كلها تستوي أو تلتوي حسب تصوره لنظام العالم.

إن البشرية في مرحلة الطفولة، عاجزة لا تقدر أن تخدم نفسها، وعمر وعيها قصير جداً. لم ينته خلق العالم بعد، وإنما لا يزال يخلق، والآن يتسارع ويتسارع. إنهم يرونه بعيداً ونراه قريباً. إن ما جاء به الأنبياء نزل من السماء وصار في الأرض إلا أنه لم ينزل على القلوب بعد. وليس معنى هذا أن ذلك ليس ممكنا بل هو قريب من الإمكان أكثر من أي عصر مضى، ونحن نتقدم إليه بخطئٍ أسرع. وأنا أرى هذا التقدم يوميا. كنت أقول عن حق الفيتو أنه الشرك الأكبر في العالم لأنه ضد التوحيد وضد المساواة وضد كلمة السواء وضد رسالة الأنبياء جميعاً. وأنا كنت أقول عن حق الفيتو إنه ينبغي أن ينتهي من العالم حتى يتساوى الناس، وكنت أقول إن الخمسة الكبار الذين لهم حق الفيتو في العالم يتساقطون، سقطت بريطانيا أولاً ثم

الاتحاد السوفيتي أخيراً، ولم يبق في الميدان إلا القطب الواحد وكانت الصين تمتنع عن التصويت والآن بدأ القطب الواحد أيضا بالامتناع عن التصويت واستخدام حق الفيتو. هذا تقدم ونمو مهما كان بطيئاً، ويمكن تجاهله، ولكن أن يصل إلى قمة العالم فهذه ظاهرة جديدة. إن معنى القانون أن يطبق على كل مخلوقات الله من البشر وأن لا يبقى آلهة بشر.

لم تصل رسالة الأنبياء إلى القلوب ولم يؤمن بها الناس. ولا نزال نستهزئ بما جاء به الأنبياء، "يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون". إن التاريخ لم يبدأ من عندنا ولن ينتهي بنا، نحن الذين نعيش الآن على الأرض. فإذا كنا لانتحمس للشيئ الذي لن ندركه في حياتنا الدنيا القصيرة فإن هذا نقص في فهمنا للعالم. لم يخلق العالم في لحظة واحدة مكتملاً. هو كالجنين يلتحم في لحظة واحدة، ولكنه يمتد في مرحلة رحمية وطفولة طويلة.

إلى الآن لم نتفهم اليابان، ولا تهدم الإتحاد السوفيتي، ولا تقدم أوربا إلى الاتحاد، ولا السبب الحقيقي في عدم قدرة العرب على لقاء عربي بعد حرب الخليج الثانية إلا بعد عقد كامل. كل هذه تدل على بطء حركة المعلومات في عالمنا العربي. ومع ذلك فقد نضجت أفكار أجنة حمل في هذا العقد الطويل وستولد. إن امتناع أمريكا عن استخدام حق الفيتو واعتراف اللقاء العربي بوجود رغبات للشعوب أشياء جديدة تدل على التغير البطيء. ينبغي أن تزول ألوهية البشر، ولن تزول الألوهية من قمة العالم مالم تخرج من قلوبنا نحن أولاً. عندها ستصل إلى القمة أيضا فيصير معنى للقانون ويطبق على الجميع. ينبغي أن يكون هناك قانون وسلطة تشريعية وسلطة قضائية في العالم، وهذه معطلة في العالم ومحكمة العدل الدولية غائبة لا يترافع إليها أحد، وميؤس منها، تماما كما يقبل الناس الظلم ولا يذهبون إلى المحاكم لأن السلطة التنفيذية هي الأعلى، حيث القوة في اليد القوية وليست في العقول الراشدة. لم يولد الرشد بعد، لأنه ينبغي أن يولد ليس بشكل متردد خجول وإنما بإيمان راسخ لا مبالي مثل بلال الذي كان يقول أحد أحد ومثل سحرة موسى الذين قالوا "آمنا برب موسى وهارون وأقضي ما أنت قاض".

تبدأ الأمور بما بالأنفس، وبتصورنا للعالم، وهذا التصور هو الذي يحكمنا، فإذا غيرنا ما بأنفسنا يتغير ما حولنا فوراً طبقاً لسنة الله، "ولن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلا"، و"إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغييروا ما بأنفسهم". ولكشف هذه القوانين "فليتنافس المتنافسون" "ولمثل هذا فليعمل العاملون".

98. الشعوب تستطيع أن تحمي نفسها

تستطيع الشعوب أن تحمي نفسها. فالشعوب عندها قوة داخلية، ولا تحتاج إلى السلاح. لقد تمكنت ثلاث شعوب من طرد أمريكا من أراضيها: فيتنام، لبنان والصومال، ثلاث شعوب فقيرة مستضعفة.

أحداث كبيرة تقع أمام أعيننا ولا قدرة لنا على فهمها وتفسيرها على الوجه الصحيح، كما لا قدرة لنا على فهم الجوانب الإيجابية والسلبية منها. الصومال هذا البلد العربي الأفريقي الذي عاش حرب أهلية مأساوية جاءت إليها أمريكا والأمم المتحدة ووضعت أمريكا مكافأة وجعلاً لمن يقضي على فرح عيديد بالملايين من الدولارات، ولكن الشعب الفقير المبتلى بالحرب الأهلية العشائرية القبلية استطاع أن يطرد أمريكا وجرجر جثث جنود أمريكية في شوارع مقاديشو، فلم تتمكن لا أمريكا ولا ربيبتها الأمم المتحدة من السيطرة على الصومال وخرجتا منها مطرودتين. ولكن الصوماليون قتلوا أيضا فرح عيديد مجاناً من غير أن يأخذوا مكافأة من أمريكا. وظلوا أيضا شعبا فقيرا ضعيفا.

كيف نحلل هذه الإختلاطات المأساوية؟ كيف يختلط الضعف مع القوة والنصر مع الهزيمة؟ إنه زمن تغير الأهداف والوسائل والدوافع والعلاقات العضوية الداخلية والعلاقات الاتصالية مع الآخرين. نرى قوة وضعف الشعوب في نفس الوقت. نرى قدرتهم على طرد المستعمرين وعجزهم أمام حكوماتهم وضعفهم واستسلامهم. نرى سد منافذ التفاهم والتواصل فيما بين الحكومات والشعوب. ونرى كذلك ضعف الحكومات أمام القوى الإستعمارية وقوتهم على شعوبهم. ولكن المتغيرات غير المستقرة تسنح لحدوث حالات نتمكن من خلالها ملاحظة القوة وأنواع الضعف في الشعوب والحكومات ونقاط القوة المجهولة التي لا نعرف كيف نستفيد منها والضعف المزري الذي لا نجد سبيلاً للتخلص منه. ولكن الناس سيكشفون قوانين المجتمعات ويدركون الأشياء التي فات أوانها والأساليب الجديدة التي ينبغي أن يتكيفوا معها. وما حدث في لبنان لعبرة في وسط البلاد العربية، كيف تدمر هذا البلد الوديع في حرب أهلية طويلة مملة مؤلمة أكلت الأخضر واليابس وتلاطمت فيها الأمواج والمذاهب والأديان والقوى المحلية والعالمية سبعة عشر عاماً متواصلة. جاءت إسرائيل وحاصرت بيروت، وجاءت أمريكا بحرا بالمارينز ونزلت إلى أرض لبنان، وجاءت فرنسا ودخلت بعسكرها. ولكن اللبنانيون تمكنوا من طرد أمريكا، وتراجعت إسرائيل عن حصار بيروت ولم تكن تنفع لا قوة إسرائيل ولا قوة أمريكا، ولم يكن هناك مكان ولا استخدام لحق الفيتو. وهناك بدأ العد التنازلي لإسرائيل وانتقضت المعاهدة التي كانت من غير شروط ومفاوضات ومعاهدات. كان بعض اللبنانيين يقول في ذلك الوقت، نحن نريد دستور مثل دستور فرنسا لا نريد دستورا طوائفيا. هذه لأحداث في غاية الأهمية لمن يريد دراسة الأصالة والحداثة والقوى الظاهرة والخفية والضعف الشديد والتمزق. ولكن بدأ الناس يتعلمون الدرس الذي كان مالك بن نبي أراد أن يعلمه لأهل محور طنجة جاكرتا –محور الشعوب المستضعفة القاطنة على خط العرض الممتد من طنجة إلى جاكرتا–- من أن المشكلة ليست في الاستعمار وإنما في القابلية للاستعمار، لأن القابلية للإستعمار يمكن أن تبقى بعد ذهاب المستعمر. والقابلية للاستعمار تكونت عندنا قبل أن يخطر في بال المستعمرين أن يستعمرونا، وهو نتاج محلي انحدرنا إليه في وقت مبكر منذ معركة صفين.

إن الشعوب حين تستيقظ ستتعلم كيف تحمي نفسها وكيف تحمي سلطاتها أيضا من أن يقعوا فريسة سهلة في أيدي سادة وكبراء العالم.

بدأنا نلمح بوادر يمكن أن يدركها من يحدق في الأحداث والتطورات التي تجري حولنا. فإذا كنا نتحدث عن الصومال ولبنان فإن الحديث عن العراق غير ممكن لعمق المأساة. وهي ليست مأساة الشعب العراقي فقط كما يحلوا للبعض أن يقول، ولكنها مأساة العالم الإسلامي، وانتقام الأفكار المخذولة. لقد كانت مأساة العراق قاصمة الظهر التي حيرت العقول من إختلاطاتها التي تجسدت فيها كل عيوبنا، وتخلفنا، ونقائصنا، وأحلامنا التي فات أوانها وأشواقنا المكبوتة في الوحدة. كانت مأساة متصلة بأمراضنا الأساسية التي على أساسها تمخضت القابلية للاستعمار وتفجرت. إن الخصومات والنزاعات مع المستعمرين لم تعد مؤلمة، لأن التي بيننا تجلت كما لم يحدث من قبل خلال التاريخ. ونرى في الانتفاضة الثانية في فلسطين الغضب على توطن المأساة الإنسانية في الاستسلام المهين للسادة والكبراء. هناك مثل عند بعض الشعوب حين تريد التعبير عن الخلل والذل الذي يصيب الإنسان فتقول: لقد تسرب الماء إلى قبره. وهكذا تسرب الماء إلى قبر الشعوب المستضعفة عندما اختلت العلاقة بين السلطات والشعوب. إن الخلل أصاب العالم جميعاً ولم يعد محتملاً وهو يتسارع.

كنت أتحدث مع صاحب لي عن إنهيار الإتحاد السوفيتي، كيف سقط وكيف كان سقوطه عظيماً وكيف فاجأ العالم جميعا، حتى أشد المتفائلين لم يكن يتوقع هذا السقوط. فقال لي عندها، إن أمريكا ستسقط أيضاً وإن بشكل آخر. العالم في حاجة إلى قيادة رشيدة. أثناء حرب الخليج إستقال وزير الدفاع الفرنسي احتجاجا. وكان الرئيس الفرنسي ميتيران يقول كمناجاة، لم يعد يليق بالعالم هذا العجز والتفاوت في التعامل مع قرارات الأمم المتحدة. وكان أحد الطلاب العرب يناقش زملاءه في الدراسة في الولايات المتحدة على أساس الأفكار التي أطرحها من أن الزبد سيذهب جفاء ويمكث في الأرض ما ينفع الناس، فقال له زملاءه، ها نحن العاقبة لنا، سيطرنا على العالم. فرد عليهم: إذا كان الأمر كما تقولون، فلم تطلب حكومتكم الأمريكية العتيدة من

رعاياها الانسحاب، حين تضطرب الأمور في بلد معين وتفقد الحكومة المحلية السيطرة على شعبها؟ هل يعني هذا أن الشعوب خضعت لأمريكا وأن العاقبة لها، أم يعني أنها تكره الزعامة الأمريكية وأساليبها في قيادة العالم؟

حين تعلن أمريكا لسفاراتها وقواتها الحذر الأقصى بعد حادث المدمرة الأمريكية في ميناء عدن وإحراق الأعلام الأمريكية في عواصم العالم الإسلامي، فهذا لا يدل على الإعجاب بقيادة أمريكا وإنما على إعلان الكراهية للإكراه الذي تمارسه أمريكا في العالم. ربما هذه المشاغبات والأعمال التخريبية لن تزعج أمريكا ولكن الإزعاج الحقيقي سيأتي عندما تأخذ الشعوب القرار بيدها وحين يفهم قادة هذه الشعوب أن شعوبها هي القادرة على حمايتها، وليس نظام العالم القديم الذي يسمونه جديداً هو الذي سيحميهم. وهو نظام ليس بجديد وإنما استمرار لاستعباد البشر. وعلى الشعوب المستضعفة أن تتطلع إلى نظام عالمي جديد بحيث لا يكون هناك قطب ولا أقطاب وإنما خضوع الجميع لكلمة السواء. هذا الذي كان رئيس فرنسا السابق ميتيران يناجي به نفسه. ويجب أن يصبح هذا مطلب مستضعفي العالم. لابد من ترشيد هذه الشعوب حتى لا تقع فريسة قطبي الاستكبار والاستضعاف، المرض البشري خلال التاريخ.

إن هذه المآسي التي نعيشها ينبغي أن لاتتحكم فينا فتتسلط علينا الكراهية. العالم ليس في حاجة إلى الكراهية. كفى ما فعلت الكراهية والإكراه في العالم. علينا أن نهيئ لتصور جديد عن العالم المليء بالأحقاد والكراهية والكبرياء المقيتة، فإن هذا ما حذر منه الأنبياء. لقد قال بنو إسرائيل لموسى: "يا موسى أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا". كأنهم يقولون له، لم نستفد من مجيئك شيئاً. فقال لهم موسى: "عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون". كأنه يقول لهم، ستكون لكم فرصة، سيأتيكم التحدي في المستقبل ونرى ما تفعلون. وفي القرآن يوجه الله هذا التحدي لأمة محمد: "فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم. أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم. أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوبهم أقفالها".

99. الناس والشارع

تحدث التحولات الاجتماعية في الشارع. ويتغير التاريخ أمام الناس في الشارع. هكذا حدثت التحولات أيضا وقت النبي (ص). كان أصحاب محمد (ص) يعذبون أمام أعين الناس، ويمر ورقة بن نوفل ببلال وهو يعذب ويقول أحد أحد يا بلال، ويقول لقريش: "والله لئن قتلتموه على ذلك لأتخذن مكانه حنانا"، يقصد أنه سيتخذ هذا المكان الذي عذب فيه المؤمن بدون ذنب اقترفه. "وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد". أي أن ابن نوفل سيتخذ هذا المكان حنانا يأتي إليه استنكاراً لما لحق ببلال وذكرى للظلم الذي حدث فيه حتى لا يقع مثله. أي أنه يريد أن يضع علامة في الشارع كاعتبار بالظلم الذي ارتكب فيه وإحياء وتعظيماً لموقف المؤمنين الشهداء بالحق للحق. وإحياء الذكرى طبيعة في البشر، ذكرى كفاح الإنسان لرفض الإكراه في فرض الدين والإيمان.

ونرى في قصص القرآن كيف تحدث الأمور أمام الجموع في الشارع. لما تحدى موسى فرعون كان موعدهم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحىً حيث يتمكن الجم الغفير من مشاهدة الأمر بوضوح. ونرى أهمية الشارع وحضور الناس في قصة الغلام وأصحاب الأخدود الذين قُتلوا بالنار ذات الوقود. قال الغلام للملك لا يمكن أن تقتلني إلا إذا حشرت الناس على صعيد واحد وأخذت سهماً من كنانتي وقلت باسم الله رب هذا الغلام، ورميتني بالسهم،

عند ذلك ستتمكن من قتلي. ففعل الملك ذلك وقتل الغلام فقال الناس عند مشاهدة ذلك: آمنا برب الغلام. فحرق الملك الذين آمنوا برب الغلام، كما يشير لهم بأصحاب الأخدود. آمنوا كما آمن السحرة الذين جمعهم فرعون برب موسى وهارون. وردة فعل الجمع المتواجد تتكرر في قصة فرعون عندما هدد فرعون السحرة بأنهم متواطئون مع موسى وأنه ليس لهم الحق في إعلان إيمانهم قبل أن يأذن لهم وقال للسحرة الذين ألقوا ساجدين "آمنتم له قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم الذي علمكم السحر فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم في جذوع النخل".

ماذا يحدث الآن في الشارع العربي الذي بدأ يتململ وربما في طريقه للتحرك؟ إنه لأمر جد خطير أن يقتل الناس أو يخطئوا في كيفية الدخول إلى الشارع. لابد من الوضوح في الأهداف والوسائل، وأي غموض أو إلتباس في المقاصد والوسائل يخرج الإنسان من أن يكون سيد الشهداء إلى النزاع الجاهلي، وخاصة في هذا الزمان، لأنه لابد أن تتحد المطالب والأساليب في إظهار المطالب والأمنيات. إن الشارع العربي يمكن أن يقمع وينتكس ويبقى التمزق العربي والحيرة والأسف والغيظ. لهذا لابد من تحديد الأماني التي يرددها الناس والوسائل التي يستخدمها في سبيل ذلك. العرب الآن في مرحلة خطيرة في إتخاذ القرار، وقراراتهم تحتاج إلى دقة وحذق الأطباء الذين يجرون عملية القلب المفتوح. ويحتاج الجو العربي المحيط إلى تعقيم كامل وتحتاج أدواتنا إلى تعقيم كامل.

إن دخول العالم العربي إلى الشارع يشير إلى نوع من الانتقال إلى جو الديمقراطية. وهذا سيؤدي إلى الاستجابة لمطالب الجماهير، لأن العلاقة بين الحاكم والمحكوم في الجو الديمقراطي هي علاقة قانون وليس علاقة أنا أقوى وأنت أضعف. ينبغي أن يكون هذا واضحاً، أي أن اتخاذ القرار يجب أن يتم بالقانون والاستفتاء والاقتراع بالأساليب التي تظهر فيها بوضوح إرادة الجماهير وإرادة الشارع. ومادامت الكراهية والغضب في أذهان الذين يلجؤون إلى الشارع فإن هذا الشارع سيسقط ويكون سقوطه عظيماً ومأساوياً والأمثلة كثيرة حديثاً وقديماً. ومثل الجزائر المأساوي يفقأ العين. إن الذي يلجأ إلى الغضب والكراهية والكسر والحرق في الشارع يجني على نفسه. وحتى لو انتصر بهذه الطريقة لا يتغير الوضع، بل يكون قد استبدل بالقوة والإكراه شخصا بشخص فقط أو مجموعة بمجموعة أخرى.

يا مسلمون، إن لم تصدقوا هذا "فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين". لابد من الانتصار على القوة المادية، على الجيش والسلاح، بقوة الإيمان فقط وإعلان الرأي. والرأي الذي ينبغي أن يعلنه الناس في الشارع هو أن يحكم القانون لا القوة، لأن من يلجأ إلى القوة والكسر والتدمير لايكون سبب الاعتراض عليه إيمانه وإنما إيذاؤه وقتله الناس. يجب أن لا يكون هناك ضرب من طرف المؤمنين في الشارع أمام مشهد الجميع ولا دفاع عن النفس وإنما قبول بمواجهة السلاح والجيش بالورود لا بالحجر والسلاح. وفي إيران المثل الحديث. هكذا انتصر الإيرانيون على أسلحة وجيوش الشاه من غير أن يطلقوا النار.

لا بد من تحليل هذه الأمور وعلى العلماء أن يوضحوا هذا إذا كانوا يريدون تغيير الأوضاع جذرياً، أما إذا كانوا يريدون إستبدال طاغوت القوة بطاغوت قوة أخرى، وكانوا يرفضون الانتخابات النزيهة ويقتلون الناس الذين يخرجون بمظاهرات سلمية فهم لم يقبلوا بكلمة السواء ويكونوا أباحوا لأنفسهم ما ينكرونه على الغير. وما لم يوضح المثقفون هذه الأمور فلن يستطيعوا أن يدخلوا إلى الشارع ولا أن يقودوا الناس ولا أن يغيروا ما بأنفس الناس. وبالتالي لا يمكن أن يغيروا الواقع. ولابد من أن يعودوا لكلمة لا إكراه في الدين الحق، ولا إكراه في السياسة الراشدة. وما لم نؤسس أفكارنا على المحجة البيضاء التي ليلها كنهارها وعلى كلمة السواء فإننا سنظل مغموسين في ثقافة الإكراه. يجب أن نعطي للآخر ما نعطيه لأنفسنا وأن لا نعطي لأنفسنا وإن هو أعطى لنفسه ما ننكره. حين نفهم هذا بوضوح ويقين سنفهم أن هذا الطريق ليس عسراً وإنما هو اليسر والسهل القليل التكاليف الكثير العوائد الراسخ الجذور. ومن يفهم هذا لايبقى في قلبه غل ولا حقد ولا كراهية لأحد، وعند ذلك سيستطيع المسلمون والمؤمنون والآمرون بالقسط من الناس أن يقيموا كلمة السواء، لأن القسط هو دين الأنبياء والرسل جميعاً. والذين يرفضون القسط بين الناس لم يتذوقوا طعم الإيمان ولا العدل وإنما

آمنوا بالطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به. وليس هذا فقط بل علينا أن نفهم دعوة الرسل وأن الإسلام يجّب ما قبله. ينبغي لأهل كلمة السواء ولأهل كلمة التقوى والذين يلتزمون بها أن يعلنوا العفو العام.

وينبغي أن تضاف للديمقراطية عبارة "الإسلام يجّب ما قبله". وإذا جاء الحق يجّب ما قبله، حيث هو رحمة للجميع وليس حقداً وكراهية. ينبغي أن نفهم معنى "عفا الله عما سلف"، ومعنى "اذهبوا فأنتم الطلقاء". كثير من المسلمين لا يستطيعون أن يقولوا هذا لأعدائهم عند لحظة النصر. يسفكون دماء معارضيهم بلا شفقة أو رحمة. ولكن سيأتي المؤمنون الذين سيحيوا سنن الإسلام الذي يريد للناس جميعاً الرحمة وأن يربح الجميع ولا يخسر أحد شيئا. وسيكون الجميع سواء إلا الذي يخرج على القانون، إلا الذي يخرج على "لا إكراه في الدين" لأن أمة "لا إكراه في الدين" تمنع أمة الإكراه في الدين. هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا أنما هو إله واحد.

100. أين الشارع العربي؟

كثر الحديث عن الشارع العربي منذ إنتفاضة القدس، ويخشى البعض أن تتطور الأمور إلى ما لا يحمد عقباه. ما معنى مصطلح "الشارع العربي"، وإلى أين ستتطور الأمور، وما الذي لن تحمد عقباه؟

الجميع يخافون من الشعب الذي في الشارع، الشارع العربي الذي يحيط به الغموض والجهالة والظلام. والخلاصة أن الشارع العربي موضع شد وجذب من كل الأطراف. كان صدام يراهن على الشارع العربي أثناء أزمة الخليج فكان يقول موجهاً خطابه إلى رئيس مصر "الشارع العربي معي وليس معك"، وهذا الكلام ظل نكتة في قلب رئيس مصر حتى كان قصف أمريكا للعراق بعد ذلك ببضع سنين في رمضان، وخرجت المظاهرات في البلاد العربية فلم ينس الرئيس المصري، حسني مبارك، الذي يدعى الأخ الأكبر للعرب جميعاً، أن يقول في هذه المناسبة موجهاً الخطاب للرئيس العراقي: "لا تظن أن هذه المظاهرات خرجت من أجلك فهي ليست من أجلك وإنما من أجل الشعب العراقي".

وحتى عندما يستجيب حاكم عربي للشارع العربي لا ترضى القوى الكبرى. فقد صرح سلمان بن عبد العزيز في زيارة له في واشنطن بأن للشعوب رغبات لا يمكن تجاهلها إلى ما لانهاية. وكان ولي عهد الأردن أثناء حرب الخليج يقول: لماذا حين تنفذ أمريكا والعالم الغربي رغبات شعوبها تكون استجابتها تحرراً وإنسانية وديمقراطية وعالماً حراً...؟ ونحن إذا استجبنا لرغبات شعوبنا نكون رجعيين وضد كل القيم الإنسانية التي يمثلها الغرب؟ إن مثل هذا التصريح داخل في الصراع العالمي بين المستكبرين والمستضعفين.

والآن يطرح شعار "الشارع العربي"، فما هذا الشارع العربي؟ وما هي حقيقة أمره؟ وهذا يذكرني بالقصة التي نقلتها فاطمة المرنيسي، الكاتبة المغربية، عن عمتها التي سألت وهي تسمع نشرة الأخبار في التلفزيون: ما هذه الديمقراطية التي يتحدثون عنها؟ هل هي جزيرة في المحيط أوجبل في الأرض أومضيق بين بحرين؟

إن الحداثة الحقيقية حدثت في العالم منذ أربعمائة سنة وأكثر وربما منذ أن عبر المستكشفون المحيط الأطلسي إلى العالم الجديد، أمريكا، في محاولة للتأكد الفعلي من كروية الأرض وإمكانية الذهاب من إسبانيا إلى الهند غرباً. هذه المغامرة كانت نتيجة لمغامرات سابقة بأربعمائة سنة على هذا العبور للأطلسي. فبعد الحروب الصليبية وهزيمتهم في معركة حطين عقد الأوربيون مؤتمرا وتساءلوا، لماذا انهزمنا وطردنا من مهد المسيح، وقرروا أنه لا قدرة لهم على الإجابة على هذا، ولكنهم اتخذوا قراراً بأن يوجهوا شبابهم الأذكياء إلى دراسة لغات العالم وعلومها. فكان هذا التوجه بدء الحداثة والإعتراف بقيمة المعرفة. ونتج عن هذا الحركة الإصلاحية التي وصلت إلى الثورة الفرنسية، التي انتهت إلى الديمقراطية.

كان التحول الاجتماعي أكبر من التحول الفلكي. فكما حصل إنقلاب في تصور الأرض والشمس وإنتقال المركزية من الأرض إلى الشمس كذلك حصل إنقلاب في إنتقال المركزية من الملوك والزعماء إلى الشعوب التي أصبحت تتخذ القرار وهي تمسك بزمام الذين يتخذون القرار. ولكن الانقلاب السياسي والاجتماعي الذي أدى إلى الديمقراطية عندما تحولت الإرادة الإنسانية إلى الشعوب لم يكن انقلابا وتحولا من شخص إلى آخر، وإنما كان انقلابا من مفهوم قديم للإنسان إلى مفهوم آخر جديد، كان تحولاً من تصور إلى آخر. وإذا أردنا أن نكون دقيقين أكثر فإن التحول الذي حدث كان هو الإنتقال من تقويم الإنسان بالإكراه إلى استخدام إمكانات الجهاز العصبي الذي عند الإنسان بالإقناع. وهنا نكشف القانون الإنساني الأكبر وهو أن الإنسان يعطي أفضل ما عنده بإقناعه وليس بإكراهه سواء كانت أداة الإكراه كبيرة أو صغيرة. إني تيقنت من أن ابن آدم الذي لجأ إلى العنف هو الفاشل والذي تقبل ونجح في عمله هو الذي قال: "لئن بسطت إلي يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك". هذه الرواية هي التي تشهد لمستقبل الإنسان الذي سيخرج من الفساد وسفك الدماء. هذا علم الله في الإنسان، وليس في العرب أو المسلمين أو اليهود أو النصارى.

الشارع العربي الآن يعبر عن تصوراته ورغباته في المكالمات الهاتفية عندما يتصل الناس بالفضائيات ليقولوا كلمتهم مع المفكرين والمحللين للأحداث الآنية. ونرى في هذه الاتصالات أخطاء تصورات الشارع العربي. فالعرب ما يزالون يتصورون أن المشكلة في الزعماء فقط. نحن لا نزال في مرحلة ما قبل الديمقراطية وما قبل الثورة الفرنسية. ما يزال الشارع في مرحلة الحقد الأسود والكراهية الحمراء للزعماء ولا قدرة لنا على تصور الموضوع بشكل أعمق. هذا كله مبني على فكرة الكراهية والإكراه. الكراهية هي الغيظ في القلب عند تصور المشكلة، والإكراه هو ظن أن الحل بالعنف، بمذهب ابن آدم الفاشل. أما الخروج من هذا التصور فيجب أن يتم في مراحل، أن نخرج من الإكراه والكراهية، أن نخرج من التصور الأولي في القلب، وأن نخرج من حل المشكلة بالعنف وبالإكراه، لأن الكلام يعبر عن هذا التصور، فالذي في القلب يتكلم به اللسان، ولأنه وفق هذا التصور تتصرف اليد وتتحرك الوسائل الأخرى للبطش.

إن الفضائيات تنقل الأحداث في حينها بالصورة الملونة وتتابعها بالتحليلات. والشارع العربي عين وأذن، يسمع ويرى. وإذا وعى الإنسان يكون سيد الموقف كما يقول إقبال عن المؤمن بسنن الله أنه (*جارحة*) القدرة الإلهية لتنفيذ إرادة الله. فهو الذي أوكل الله إليه قدرة تغيير ما بنفسه حتى يغير الله بعد ذلك السلوك، فإذا غير الإنسان ما بنفسه يتغير سلوكه تلقائيا. ونصر الله وتأييده متعلق بقدرة البشر على رؤية وتحليل الإنسان لما يراه. ما يزال العرب يؤمنون بالقوة وما يزال الغربيون يستغلون هذا الإيمان بالقوة عندما يبيعون السلاح للشعوب العربية بأثمان باهظة، ويتهمونهم بالإرهاب بينما هم يمارسون الإرهاب بطريقة أخرى.

إن ابني آدم كانا يمثلان الفكر البشري بنوعيه خلال التاريخ: الذي يحل المشكلات بالعنف، والذي لا يحل المشكلات بالعنف. إن قول ابن آدم "لئن بسطت إلي يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك" يساوي "لا إكراه في الدين". يعني أنا متدين وديني لا إكراه فيه لا باليد ولا باللسان ولا بالقلب، إني بريء مما تشركون، أؤمن بعقل الانسان وبفكر الانسان وبتدبر الانسان ولا أشرك بالله أحدا. هذا معنى "لا إكراه في الدين.

القوة أبطلت نفسها بنفسها حين بلغت إمكانية الدمار فناء البشرية، ولم يبق إلا العقل الإنساني الذي لا يستقيم بالإكراه. وسأختم كلمتي بضرورة التمكن من قراءة العالم الذي آمن بعقل الإنسان ودخل عهد "لا إكراه في الدين"، وصار مطلباً بشرياً في كل دساتير العالم.

في هذا الشهر قتل نحو مئة وخمسين إنساناً في فلسطين على أيدي اليهود، وفي الجزائر قتل عدد مساو لذلك. المشكلة ليست في الاستعمار الطارئ. المشكلة هي في تصورنا للعالم. مائة ألف جزائري قتلوا بأيدي الجزائريين بعد أن طردوا المستعمرين والمستوطنين الفرنسيين. كيف نفهم هذا؟ ليس فينا من يتمكن من فهم مشكلة الشارع العربي، أعني من فهم مشكلة الانسان العربي.

101. وعلمتني من تأويل الأحاديث

أتمنى أن نتعلم تأويل الأحداث التي أمامنا، والتأويل هو فهم الحدث، أي ربط الحدث بسببه الحقيقي، لأن الحدث نتيجة لما قبله، وسبب لما بعده.

إني أريد أن يتمكن العربي والمسلم من تأويل الأحداث وفهم ما فيها من سنن واعتبار، وكشف هذه السنن والاستعانة بها على حل مشكلاتهم ونزاعاتهم وتدابرهم وتخاصمهم. أتمنى أن نتمكن من فهم هذه السنن بشكل واضح مبين بحيث نتمكن من إيصال فهم وتأويل الأحداث الكثيرة التي تحدث أمامنا وتحت أسماعنا وأبصارنا وأمام أعيننا.

ويكون التأويل بمعنى ما ستؤول إليه الأمور أي بفهم العاقبة والمصير وبفهم السنة. وفهم السنة يخرج من الجهل إلى العلم ومن الظن إلى اليقين والسنة ثابتة لا تتغير، "ولن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلاً". ويقصد الله سنة التاريخ وسنة المجتمعات البشرية لما يقول: "سنة الله في الذين خلوا من قبل". عندما يفهم الناس سنن المجتمعات وقوانينها وأن الله خلق الإنسان وصنعه على قدرة معينة سيتأملون الأسباب والنتائج ويتمكنون من تسخير سنن المادة والحياة وقدرات الإنسان وإمكاناته. وبهذه القدرات صار الكون كله قابلا للتسخير. وطاقات الكون كلها قابلة للتسخير ولكن الإنسان هو أعظم الطاقات التي خلقها الله، حيث طاقات الكون كلها مسخرة له.

نحن نرى بأعيننا في هذا العصر كيف أن باب التسخير انفتح بشكل لم يسبق له مثيل فيما سبق من التاريخ، لا أن الباب انفتح فقط بل تدفقت إمكانات التسخير. وإن لم يتسخر للإنسان الكون فلا يلومن إلا نفسه. نحن نرى هذه الأمور، ولكن لا نحسن تأويلها ولا نعرف مصيرها، والأمر ملتبس وضبابي ولا بد من الوصول إلى وضوح بحيث لا يستطيع أحد أن يضحك علينا ويشككنا ويصرفنا عن الصواب إلى الضلال ويغمم علينا تأويل الحركة الاجتماعية. إن الذين يقودون العالم ويهيمنون عليه يمثلون جزءا صغيرا مترفا ومستكبرا منه. فنحن نعيش في عالم يستهلك 20% من سكانه أكثر من 80% من دخل العالم، و20% من سكانه لا ينالهم إلا 1%. ومواجهة هذا الوضع لا يكون بالحرب وإنما بالعلم، ليس المهم أن نطردهم من بلدنا، لقد طردناهم بالحرب من الجزائر وطردنا الأمم المتحدة والولايات المتحدة من الصومال وطردناهم من حصار بيروت.

هناك حقيقة كبيرة: الشعوب تستطيع أن تحرر نفسها من الاستعمار بالقوة المادية ويمكنهم أن يكتشفوا الوسائل المتاحة لذلك، وقد طردت شعوب لبنان والصومال المستعمر من دون أن تكون لها حكومات وجيوش وأسلحة متطورة. ولكن هذه الشعوب لم يكن لديها العلم في كيفية صنع مجتمع لا أرباب فيه أي مجتمع عادل بدون مستكبرين ومترفين. طردوا العدو الخارجي وأصبحوا رهائن لمستكبري بلادهم. المشكلة أن العالم جميعاً على مذهب واحد، على مجتمع واحد، مجتمع الاستكبار والاستضعاف، لأن المستكبر فيه يخاف أن يصير مستضعفاً والمستضعف فيه يتمنى أن يصير مستكبراً. فهما نموذج واحد لا يتغير شيء عندما يتبادلان المواقف. ولهذا أكرر كثيراً أنه ليس هناك من ينتقد حق الفيتو بإيمان وجدية. وليس عند الشعوب وعي واضح في إمكان صنع مجتمع ليس فيه حق الفيتو، لهذا لا يوجد من ينكر حق الفيتو كما لا يوجد بالأولى من يتنازل عن حق الفيتو. وامتلاك هذا الحق لم يعد له قيمة كما هو الحال في فرنسا وبريطانيا وقد لحقت بهم روسيا والصين أيضاً. ولكن يتمنى البعض في أن يصير للمستضعفين حق الفيتو، ومن هنا أقول إن ما جاء به الأنبياء لم ينزل بعد إلى الأرض كفكرة واضحة واعية شفافة. إن الناس لا يستطيعون فهم "تعالوا إلى كلمة سواء...أن لا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً". ولا يفهمون "ما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكن عنه" ولا يفهمون أيضاً "أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم...أفلا تعقلون" وأيضاً "لم تقولون ما لا تفعلون كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون". بل ويظن البعض أن الأنبياء قالوا ما لم يفعلوا لأنه لم يكن عندهم سلطة وقوة –حسب الذين لم يفهموا ولم يتذوقوا دعوة النبوات– كانوا سلميين عند الضعف ولما صار لهم قوة تحولوا إلى جبابرة. هكذا يقيّم كتّاب كبار الموضوع. ولكن هكذا فهم أتباع الأنبياء أيضاً الموضوع، حيث تحولوا في وقت مبكر جداً إلى مستكبرين وضاع الرشد منهم ولم يعرفوا كيف يعيدون الرشد بالرشد، وظنوا أنه يمكن إعادة الرشد بالغي. وظن من ظن أن وضع الرسول وصنعه للرشد بدون أن يلجأ إلى الغي والبطش كان

معجزة وإكراماً للنبي. ولم يفهموا أنه سنة وقانون. إن لم يكن البشر قادرين على كشف سنة الأنبياء واتباع سبيلهم فإن الأنبياء ليسوا قدوة. وما جاء به الأنبياء وإن كان لا يزال غير واضح بعد فإن التاريخ وما ينتج عن مجتمع الاستكبار والاستضعاف من فساد وعذاب ودمار سيرغم الناس على اكتشاف ما جاء به الأنبياء من مجتمع السواء، الذين تتكافؤ دماؤهم. فمجتمع الأنبياء يعيش فيه كل الذين يقبلون العدل والسلم ويتركون القتل والتهجير. ومجتمع الأنبياء لا يحاسب الناس عند الاختلاف في الفهم على فهمهم ولكن يحاسب الناس على القتل والتهجير لمخالفيهم.

سيكشف البشر في المستقبل ما جاء به الأنبياء رغماً عنهم بعد أن يذوقوا العذاب الأليم وسوف يدركوا معنى قوله تعالى "لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون". وأول ظاهرة في التاريخ البشري على كلمة السواء هي ظاهرة الاتحاد الأوربي. إنهم يتَّحِدون على كلمة السواء وليس على أساس الاستكبار والاستضعاف. وحتى لو كان السواء فيما بينهم فإن هذا تقدم في التاريخ، أي في آيات الأنفس. هذه ظاهرة جديدة قد لا نستطيع فهمها، وقد يحملنا بغضنا لهم وعلاقاتنا القديمة والتنافس الكبير بيننا وبينهم أن نبخس قيمة ما يعملون ونحقر ما يعملون، ولكنني أتمنى من كل أعماق قلبي أن يتمكن العرب والمسلمون أن يعملوا مثل ما يعمل الناس في أوربا من اتحاد دون إكراه وعلى كلمة السواء، على الأقل لن تذهب أموالنا ومصالحنا سدىً. كثير من المسلمين لا قدرة لهم على تأويل الوحدة الأوربية، يعيبونه ويقولون أنهم يتحدون على المصالح. فهل الاتحاد على المصالح عيب؟ يا ليت العرب والمسلمين يتحدون على مصالحهم وعلى كلمة السواء فيخرجون من الذلة والصغار الذي يعيشون فيه.

يقص الله علينا في سور القرآن أخبار القرون الماضية وخاصة في سورة الشعراء ويذكر مآل الأمم التي كذّبت الأنبياء وكذّبت المساواة والعدل بين الناس حيث وظيفة الأنبياء والرسل والآمرين بالقسط من الناس هو شيء واحد يقول الله: "ولقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط" والله يقول في نهاية كل قصة في سورة الشعراء، "إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم". وإني لأقول إن في اليابان آية في أنهم صاروا قوة من نوع فريد في مقدمة العالم الصناعي. وإن في الاتحاد السوفييتي لعبرة في أنهم كانوا يقولون، من أشد منا قوة، فأتى بنيانيهم من القواعد فخروا وتمزق اتحادهم لأنه كان على أساس الاستكبار. وإن في الاتحاد الأوربي آية في أنهم يتحدون على كلمة سواء من غير أن يخسر أحد منهم شيئاً ويربح الجميع، وليسوا في حاجة إلى أن يفتحوا جيرانهم بالعسكر والحرب، بل جيرانهم يقولون لهم ضمّونا إليكم. وإن في العالم الإسلامي آية في عجزهم عن فهم وتأويل ما يحدث في العالم. "وكأي من آية في السماوات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضين".

اللهم علمنا تأويل الأحداث وعلمنا كيف نعلم الناس تأويل الأحداث.

102. وتلك الأيام نداولها بين الناس

تداول الأيام بين الناس قانون بشري اجتماعي يتم خلال التاريخ تلقائيا سواء كانت المداولة للسلطة أو للمعرفة. والعالم الآن مشغول في دراسة المعرفة والسلطة. كيف تفهم المعرفة والسلطة في العصر الحديث؟ كيف يمكن كشف قوانينهما؟ إن السلطة هي نتيجة المعرفة، "تعرفون الحق والحق يحرركم"، "وهل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون". إن الذين يدرسون التاريخ يتعمقون في فهم سنن الله وتداول السلطة أو تداول الأيام وتاريخ تحولات المعرفة والسلطة في الأسر الحاكمة أو المجتمعات التي تطلق عليها الحضارات. لم يخلق الله العالم في يوم واحد بل خلقه في ستة أيام، حيث حدثت التحولات الكبيرة في تهيئة الظروف المادية، الفلكية، البيئية، المناخية في توليد الحياة. وبعد تكون البيئة المناخية التي ولدت الماء الذي جعل الله منه كل شئ حي جعل الله من الإنسان الذي أصله الماء والطين خليفته في الأرض. وكان هذا في مشهد يوم عظيم حيث كان وجود الإنسان من أيام الله

المشهودة التي دارت عنها الحوارات في إمكانات هذا الإنسان الخليفة. ولقد علم الله في هذا الخليفة المتهم بالفساد وسفك الدماء بأن له دوراً في تحقيق أمر الله وعلمه وفق سنن وقوانين المادة والحياة والمجتمع. ولا بد من تصور صحيح لهذه الكائنات الثلاث لمعرفة قوانينها وسننها والارتباط بينها: المادة والحياة والمجتمع. قوانين المادة في الذرة والكهرباء. وقوانين الحياة في الصحة والمرض. وقوانين المجتمع وسننه في الصحة النفسية الفكرية، وفي فجورها وتقواها. وكانت رسالة الأنبياء في الاهتمام بهذا القسم الأخير. ونحن رأينا كيف أن القدرة المعرفية عند الإنسان سخرت له الطاقات المادية والمعرفة لقوانين الحياة ففتحت له أبواب صحة الأجساد وقوانين مرضها.

ولكن الإنسان يتلكأ في التقدم للاعتراف بسنن وقوانين المجتمع. والقرآن يقول لنا إن قوانين المجتمعات يمكن الاهتداء إليها بالسير في الأرض والنظر إلى العواقب. ليس على أساس الغيب وإنما على أساس الشهادة. لهذا يقول الله في تداول الأيام بين الناس "قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين. هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين. ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين. إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا منكم ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين". جاءت هذه الآيات بعد غزوة أحد في سورة آل عمران بعد يوم من أيام المسلمين ولكن القرآن يسوق هذا التعقيب على ذلك الحدث ضمن قانون المجتمعات والتاريخ والعواقب التي تمحص السنن والقوانين الاجتماعية، ومكان هذه السنن في الأرض في تاريخ المجتمعات ليس غيبا لا يمكن الاطلاع عليه، بل إنها في الأرض، في التاريخ، في الأحداث الاجتماعية البشرية. وهذا الأسلوب في فهم الحياة الاجتماعية في صحتها ومرضها هو الأسلوب الذي ليس هناك أسلوب غيره. "هذا بيان للناس لكل الناس"، وهذا هداية ليس غيرها هداية وموعظة للمتقين، أي الذين يحذرون الوقوع في العذابات الاجتماعية وهلاكها. بعد أن تفهموا هذه السنة والقانون لا تهنوا ولا تذلوا وتمسكوا بهذه السنن وسوف لن تحزنوا، بل إذا تمسكتم بهذه السنن فأنتم الأعلون إن كنتم تؤمنون بثبات سنن الله التي لا تتبدل ولا تتحول. وبهذا القانون يداول الله الأيام بين الناس فيظهر الذين فهموا السنن وتمسكوا بها وكانوا شهداء على صحتها وثباتها، وليعلم الناس أن الظلم هو سبب الهلاك وابتعاد عما يحبه الله.

هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين. إننا نشعر أننا على بينة ورحمة وهداية. والذين لا يمكنهم أن يفهموا هذا، يقول الله لهم إن العذاب الأليم الذي ينتج عن الاستمرار في الخطأ وعدم الاعتبار بالتاريخ سيضطركم إلى الإيمان بصدق سنن تاريخ المجتمعات. فالذين لا قدرة لهم على كشف هذه القوانين أو يرونها غير معقولة سيظل ينزل عليهم العذاب ويحيق بهم. يقول الله: "إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم". يقول الله لنا عن عاد وثمود وفرعون ذي الأوتاد أنهم طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد فصب عليهم ربك سوط عذاب. إن ربك لبالمرصاد وقانونه الآن بين المجتمعات هو نفس القانون والمصير الذي كان في المجتمعات الغابرة، فمن لم يصدق فلينظر إلى الاتحاد السوفيتي، وماذا حدث لها وإلى شاه إيران، ماذا حل به، وإلى البلاد العربية، كيف لا قدرة لهم على التلاقي لبحث مشكلاتهم. ولن يغير الله سننه وقوانينه "ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم".

والذي كان بنفسي لما بدأت هذه المقالة هي الفكرة التي عولجت في كتاب (فجر العلم الحديث: الإسلام، الصين، الغرب)--الطبعة الثانية وبترجمة جديدة في سلسلة عالم المعرفة الكويتية-- ويتساءل المؤلف بعد أن يقرر أن الإسلام والصين هما اللذان كانا مؤهلين لكشف عصر العلم الحديث فلم تتمكن الصين ولا الإسلام وتمكن الغرب من ذلك. هذا سؤال مهم وقد كنت قرأت بحث هذا الموضوع عند المؤرخ أرنولد توينبي حين وضع قانونه في العلاقة بين الحضارات من أن الذي ينجح في التحدي في سباق الحضارات يترك النجاح لخصومه في الجولة القادمة، لأن الذين ينجحون ينامون على السكر الذي يصيبهم من النجاح الذي أحرزوه، وضرب المثل بالمتسابقين في تسلق المرتفعات أو العبور إلى الشواطئ الجديدة عندما يلقون بمجاذيفهم ويستلقون على الشاطئ ويتركون الفرصة للنجاح التالي لخصومهم. ربما هذا هو الذي جعل الصينيين والمسلمين ينامون على أمجادهم وتركوا الجولة للغربيين. والقرآن يعرض هذه المشكلة وهذا الداء في عبادة الأسلاف الذين يسميهم القرآن الآباء، لأن الفخر بالآباء وإنجازاتهم يحول بينهم وبين أن

يتمكنوا من رؤية الجولة القادمة أو اليوم الجديد الذي يداوله الله بين الناس. وتوينبي سمي يحيى عليه السلام لما يبحث هذا الموضوع في تداول الأيام ويطرح الأحداث ويتساءل من الذي سيقوم بالجولة القادمة، حيث الغرب تسنم الدولة الأخيرة وهو يشعر بأن الغرب بدأ ينام على أمجاده، ولكنه يتساءل أيضا عن الذين سينجحون لأن الذين يقومون بالإبداع في السباق هم المضطهدون في العالم وفي هذا بذكر السود في أمريكا كإمكانية على القيام بدور جديد ويتساءل، هل يمكن أن يتوقف التداول بين الناس في الأيام، وهل يستطيع الغرب يستطيع أن يستيقظ ويتدارك الأمر. إن توينبي يبحث هذا الموضوع بأسلوب شيق ولكنه يرى الطريق مظلما ويقول كل الحضارات تواضعت قليلا أو كثيرا ما عدا الحضارة الغربية فإنها لا تزال تنشد نشيد أنهم أبناء الله وحدهم فقط من بين مخلوقاته.

ولكني أرى أن العالم في مرحلة مدهشة الآن. لقد صار العالم موحدا والصين لم يعد وراء سد السور العظيم الذي بنته ضد الغزاة، والعالم الغربي ليس في طريق الفناء بل عنده استعداد كامل للتكيف مع الأوضاع الجديدة إذا استيقظ خصومه التقليديون الذين هم مستضعفوا الأرض، والعالم لم يعد التداول فيه للسلطة والمعرفة تلقائيا بل البشر بوعي منهم سيطروا على أسلوب التداول. والغرب –وربما أكثر في أوربا من أمريكا—بدأ يتهيأ، وسكرة أمريكا ليس استغراقا في النوم وإنما تمسكا لآخر لحظة باستكبارها. إن العالم يتهيأ لقبول كلمة السواء وإلغاء حق الفيتو وحان قطاف العالم للتوحيد الذي قتل الأنبياء من أجله. وعلى العرب أن يفهموا ذلك، ويخرجوا من الحنين إلى سلطان هارون الرشيد الذي كان يخاطب السحاب مطالبا بالخراج. هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين. متى نفهم أن محمدا بعث هاديا وليس جابيا؟

103. المظاهرات الغاضبة

لما قامت انتفاضة القدس هب العالم العربي ومن وراءه العالم الإسلامي، ومن ورائهم تعاطف مستضعفوا الأرض جميعا. وهذه الانتفاضة تنقل بالصوت والصورة إلى جميع أنحاء العالم، وهي ميزة الأحداث المعاصرة. ومع وصول أخبار الانتفاضة إلى البيوت العربية خرجت المظاهرات الغاضبة تطالب بالجهاد واستعمال السلاح.

ينبغي أن لا تشككني هذه الانفعالات الهائجة في سنن الله في المجتمعات. في سنة 1956م لما أُممت قناة السويس عند الإعداد للعدوان الثلاثي كانت الإنفعالات في أوجها في العالم العربي، وكنت أراقب الأحداث من موقف متأمل بارد، وقد لاحظ أحد أصدقائي أنني غير متفاعل مع الأحداث الكبار التي تتعرض لها الأمة العربية، فقلت له: إن هذه الأحداث من كثرة ما مررنا بمثلها لم تعد تشغلني عن تأمل المشكلات بشكل آخر. وقلت له إن شخصاً يبحث في مكان ناء لكشف ما جاء به الإسلام والأنبياء وفق آيات الآفاق والأنفس يقوم بمهمة أكبر من إشغال نفسه بالأحداث المأساوية التي نكررها ويكررها العالم أجمع. وقد قال أحد المراقبين لسيرة الرسول، أن شخصين خرجا في الليل في مكان ناء من هذا العالم وقلبا نظام الأرض من ذاك التاريخ إلى يومنا هذا. وكان هذا يشير إلى هجرة الرسول (ص) من مكة إلى المدينة مع أبي بكر.

هكذا يعمل العلماء أيضا. يعملون في مكان ناء وسط الأحداث لاكتشاف آيات الآفاق والأنفس. كان عالم النفس السلوكي الروسي بافلوف يقوم في مخبره بمراقبة إمكانية استبدال المثير الطبيعي بمثير صناعي عند الحيوانات. وأثناء الحرب تأخر أحد مساعديه في وصوله إلى المخبر فسأله عن سبب تأخره فقال له إنه كان يسمع خبراً مهماً عن جبهة القتال. فقال له بافلوف، هل هناك ما هو أهم مما نعمل فيه. كأنه يقول، نحن نبحث عن عوامل سلوك الإنسان وكشف قوانينه لأننا إن كشفنا ذلك فبإمكاننا أن نجعل سلوك الإنسان خاضعاً للعلم ويمكن أن نقضي على سلوك الحرب عند البشر. ولما كان باستور الفرنسي يبحث في مخبره عن كشف قانون التخمر وكيفية عمل وإنتقال الكائنات الدقيقة كان الناس يموتون بداء الكلب والجدري من حوله، ولم يخرج في مظاهرة غاضبة ويترك مخبره ولكن العالم جميعا تعافى من الموت من داء الكلب وجرثومة الجدري. إن المظاهرات

الغاضبة التي تلجأ إلى الكسر والحرق والقتل لن تغير الواقع لأنها شبيهة بانقلابات الليل وإن كانت تحدث في النهار. إن اعتماد المتظاهرين على القوة وإزالة الآخر بدون إزالة تصوره للمشكلة الاجتماعية الإنسانية كالذي يأتي بالانقلاب ويعتمد على قوة التغيير بالكسر والحرق والقتل. وهذا يكون على ملة الأقوام المعارضين للأنبياء والذين يغيرون بالقتل خلال التاريخ يتبادلون السلطة مع المستكبرين، ولا يتغير شيء، لأن الأمر مبني على الإعتماد على عضلات الإنسان وليس على عقله في فهم سنن الكون. وهؤلاء يظنون أن أفضل إستخدام للإنسان يكون بتخويفه وإكراهه وليس بإقناعه. هناك السنن التي تسخر المادة والإنسان بدون تدميره وقتله وبدون تلويث البر والبحر وبدون تعريض الكائنات الحية للموت والفناء، وبدون تعريض الإنسان للمسخ بإخضاعه للوهم والسحر والتخيل بأن الحبال والعصي أنها تسعى.

إن التخيل بأن سبب الفساد كله هم زعماء العرب وهم الذين يحولون دون توجيه طاقة الشعوب إلى الأعداء وأنه بإزالتهم تزول المشكلات العربية من الوجود يشل التفكير ويعمق الوهم. رحم الله مالك بن نبي الذي قال إن الكفاح ضد الأجنبي المستعمر يمكن أن يساهم فيه كل الأفراد والأدوات حتى القش ولكن بناء الأمة لايمكن أن يكون من القش والغضب والكراهية. ولا يمكن أن يكون بالإنتفاضات الغاضبة والإغتيالات وإنما بالفهم العميق للمشكلة. ألا من كان له أذنان للسمع فليسمع! إن الانتصار بالحرب والسلاح وبالإكراه والإذلال ليس إنتصاراً وإنما تبادل للمواقع المبنية على نموذج واحد من الإيمان والتصور لنظام العالم المادي والإنساني. إن الذين لايستطيعون أن يفهموا الواقع العالمي وحق الفيتو للقوي لم يدخلوا العالم الإنساني، ولا ينظرون إلى الإنسان على أساس إمكانيات جهازه العصبي المعجز وإنما على أساس ما يملك من أموال وقوة (جند وعتاد). لقد نسينا "وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى"، وآمنا بالذي قال لصاحبه وهو يحاوره: "أنا أكثر منك مالاً وأعز نفرا". إن بلالاً وسمية وعماراً كانوا متظاهرين ولكن لم يكسروا ولم يحرقوا شيئاً ولم يغتالوا رجلاً ولا إمرأة وإنما كانوا يتظاهرون وهم يحملون فكرة للعالم. كانوا يحملون فكرة أتى بها إبن عبد الله وفكرة إن فهمناها وقبلناها نملك بها العرب وتدين لنا بها العجم. فكرة. كلمة. وليست سيفاً ولا قوساً. إن المظاهرة الفكرية ليس فيها بطش باليد ولابالحديد وإنما فيها فكرة تصدع قلب الإنسان. فمتى سنتعلم إمكان القيام بمظاهرة لاصياح فيها ولاتنويح بقبضة الأيدي؟ لا كسر ولا حرق ولا بسط لليد بالبطش ولاللسان بالإيذاء؟ هنا أشعر أننا ضعنا عن معنى الكلمة وشردت الكلمة عن معناها عندنا. إن الفكرة الجديدة، فكرة السواء، فكرة الله، أكبر فكرة، لأنها تعني أن لا يكون السيف فوق القانون وأن لا تكون اليد فوق العقل. الإيمان بقوة الإيمان تسرب من بين جوانحنا. فسيد الشهداء ليس سيد المعركة وإنما شهيد الفكرة. وقريش كانت تنكر أن بلال مثل سادة قريش. إن هذا الإزدراء للإنسان بسبب جنسه ومذهبه يناقض التوحيد. وكان رفض هذا الازدراء للإنسان خارجاً عما يحمل من فكر هو ما أنكر على نوح في قديم الزمان "فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر".

إن فكرة التوحيد ليست مشكلة سماوية إلهية وإنما مشكلة أرضية اجتماعية. وحلها يكون ب"تعالوا إلى كلمة سواء"، أي أن لا يتخذ بعضنا بعضاً أربابا، أن لا يطاع غير الله في معصية الله "ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه إني لكم نذير مبين أن لاتعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم فقال الملأ الذين كفروا من قومه مانراك إلا بشراً مثلنا وما نراك إتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي ...قال ياقوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون".إن الأنبياء جاءوا بالرحمة ونوح يقول لقومه: "أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده فعميت عليكم" ويقول الله لمحمد "وماأرسلناك إلا رحمة للعالمين" أي للمؤمنين والكافرين الذين عميت عليهم الرحمة. لقد عميت علينا الرحمة فلم نعد نستطيع أن نظهر إيماننا على أساس الرحمة بل بالكسر والإحراق والبطش. متى سنفهم ونتمكن من ضبط الناس بحيث لايكسرون ولايحرقون ولا يقتلون وانما يقبلون التحدي مثل بلال وسمية وأبو ذر الذين قال الله عنهم وعن أمثالهم "وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد "؟

هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله؟ إذا كسرنا وحرقنا وقتلنا لانكون أوذينا لأجل إيماننا، وإنما لأجل كسرنا وحرقنا. فمتى يتمكن العالم أو المثقف من ضبط الناس الغاضبين الذين ضاع صوابهم من الغل والكراهية ولايرون حلاً إلا البطش والكسر والإحراق؟ هذا هو إنكار المنكر باليد، ونحن نريد هذا النموذج من المثقف الذي يضبط الناس ويقودهم بحيث يدربهم على قبول الموت ببرودة أعصاب.

المشكلة ليس الاستعمار ولا أدواته. المشكلة فينا نحن. لما نحل المشكلة التي بيننا ستحل المشكلات كلها وليس الانتصار على الاستعمار هو الذي سيحل مشاكلنا. إن الجزائر انتصرت على الاستعمار ولكن لم تنتصر على نفسها في قبول كلمة السواء، ولم تصبر على كلمة السواء بدون قتل.

104. مواجهات سلمية في وجه الطاغوت

أكتب هذه المقالة بعد سماعي أن رئيس يوغوسلافيا غادر مع أسرته إلى موسكو. أطاح المجتمع اليوغسلافي بالدكتاتور، سلوبودان ميلوزوفيتش، بثورة سلمية بعد أن حاول تغيير نتائج الانتخابات لصالحه. ونادى رئيس المعارضة بالعصيان المدني، وأضرب عمال المناجم ولحق بهم الآخرون، وأقفلت الحوانيت وعلق بعضهم على أبوابها "مقفل بسبب السرقة"، يقصدون سرقة أصواتهم في الانتخابات.

أريد أن أقارن بين شارع بلغراد وشارع إيران وشارع الجزائر لنكشف قانون الفلك الذي حرك هذه الشوارع. نحن ننظر إلى هذه الأحداث وكأنه لا تنظمها قوانين، كأن الظلام يحيط بها، وكأن نهارها ليل دامس. لا قدرة لنا على فهم سنة الله التي لا تتغير ولا تتبدل. إن سنة الله في الليل والنهار قانون ثابت كذلك قانون وعي الناس وتغيير ما بأنفسهم ثابت. لما أدندن حول بلال كنموذج وحول أبو ذر الغفاري وعلي بن أبي طالب فإن هدفي هو كشف القوانين التي تجعل نظام المجتمع يخضع لقانون كما الفلك يخضع لقانون.

حين نمرر المغناطيس على برادة الحديد تنتظم هذه البرادات بشكل منتظم دقيق كما تتجه إبرة المغناطيس إلى الشمال. ومثل وضوح قانون المغناطيس فإني أحس أن مفاهيم النبوات واضحة المعالم أيضا تضيؤها آيات الأفاق والأنفس. وأنا أزعم أني أرى وأسمع الأحداث بالقانون الذي جاء به الأنبياء. إن احتجاجات المعارضة اليوغوسلافية على تزوير الانتخابات يمكن فهمها على أساس قانون الأنبياء، وعلى أساس كلمة السواء وكلمة الله وكلمة التقوى وكلمة أن لايتخذ بعضنا بعضاً أرباباً. إن قانون المجتمعات أو قانون الأقوام مثل قانون الفلك. كم خدع سير الفلك الناس والتبست عليهم حركة الشمس. إن قانون الفلك لم يتغير، والشمس لم تكن تدور حولنا كما انكشف للناس. لما أقول إن قانون الفلك مثل قانون المجتمعات فإني أعتمد على قانون "إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم". ليس الفلك الذي يغير نظامه وإنما ما بنفس البشر هو الذي يتغير. لم أكن أفهم الحوار الإبراهيمي مع النمرود ولا حوار إبراهيم مع أبيه. فإبراهيم تحدث مع الذي آتاه الله الملك إذ قال ربي الذي يحيي ويميت قال النمرود أنا أحيي وأميت قال إبراهيم إن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر. عندها فهمت أنه كما أن قانون الله واحد في حركة الفلك، في الشمس والأرض، كذلك قانون المجتمع واحد سواء إعترفنا أم لم نعترف. يا أيها الإنسان إن كنت لاتعترف بقانون الفلك فأتي بالشمس من المغرب وإن كنت لاتعترف بقانون الأقوام غيِّر الواقع البشري من غير أن تغير ما بأنفس البشر من تصورات وإيمان وفكر. إن الالتباس العظيم في فهم الفلك يشبه الالتباس المعاصر في فهم المجتمع. فميلوزوفيتش لم يتنازل عن طيب خاطر، كما أن أمريكا لن تتنازل عن حق الفيتو. وكلينتون أمر بأن ينفض مجلس الأمن ولا يتخذ قرار في شأن انتفاضة القدس، أي (ينبغي أن لا تقرروا شيئاً من دون موافقتي ولاتضطروني لإستعمال حقي في إلغاء الرأي العالمي). إن كلينتون الآن في مكان الكنيسة التي حكمت على برونو وجاليلو بالهرطقة. ميلوزوفيتش لم يغير ما بنفسه حتى تغير الشارع اليوغوسلافي ولن يغير كلينتون حتى يتغير شارع الكرة الأرضية، ويغير الناس ما بأنفسهم ويدركوا بأن حق الفيتو عار على البشرية كلها، كما أن ميلوزوفيش عار على يوغوسلافيا وكما كان الشاه شاه إيران عار على إيران حتى غير الشارع الإيراني ما بنفسه.

في الشهر الأول من عام 1978 م نشر الشاه مقالاً يستخف فيه بعلماء الإسلام بعنوان (إيران والإستعماران الأسود والأحمر) يعني الشيوعية والإسلام. في ذلك اليوم قامت مظاهرات في مدينة قم في إيران قتل فيها 200 شخص وبعد أربعين يوم من ذاك التاريخ قامت مظاهرات في مدن إيران على أثر ذكرى الأربعين لشهداء قم وقتل في تبريز 500 شخص وتصاعدت المظاهرات حتى كان يوم 8–9–1978 في طهران فقتل مايزيد على 4000

شخص وكان ذلك بعد رمضان في ساحة الإجتماع التي سميت بعد ذلك ساحة الشهداء حتى إذا جاء شهر محرم إمتلأت شوارع طهران ومدن آخرى بالجماهير المصممة على الشهادة لأنهم يشهدون للحق لايخافون في أداء الشهادة لومة لائم. وخرج الناس وهم يرتدون الأكفان إستعداداً للموت في سبيل الشهادة للحق بالحق فتقدم الناس رجالاً ونساءً في صفوف متراصة نحو فوهات البنادق الرشاشة الموجهة نحوهم وأدت إلى مذبحة كبيرة. وبعد مرور عام على مظاهرات مدينة قم إضطر الشاه أن يغادر البلاد في منتصف الشهر الأول في عام 1979م كما اضطر ميلوزوفيتش أن يغادر.

إن مثل هذه المواجهات السلمية مع الطغاة تذكر بقصة السحرة الذين تحدوا فرعون فهددهم بقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف وصلبهم في جزوع النخل حيث إتخذوا قرار الإيمان بالحق دون إذن فرعون (أمنتم له قبل أن آذن لكم ......قالوا لاضير إنا إلى ربنا منقلبون إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا إن كنا أول المؤمنين). إن ما حدث قبل أيام في يوغسلافيا من آيات الله في الآفاق والأنفس ومن آيات الله في إنتصار اللاعنف على العنف. عندما نادى رئيس المعارضة اليوغسلافي، كوستونيكا، بالإضراب قال للشعب اليوغسلافي أنه يستطيع أن يعمل ثورة ديمقراطية، متحضرة، حكيمة، لاعنفية. المواجهة السلمية من طرف واحد تقلب الأمور، وتعيد احترام العالم. فدول الناتو (NATO) تعد الآن يوغسلافيا بالمساعدات والدعم وهي التي قصفت العاصمة اليوغسلافية من عامين. واضطرت أمريكا أيضا إلى الاعتذار من الشعب الإيراني بعد عشرين عاما من دعمهم للشاه بعد أن أيقنت أن عليها أن تتعامل مع إرادة الأمة.

وأريد أن أقارن هذه الأحداث مع نموذج الجزائر الجريحة التي دفعت ما يزيد على 100 ألف من الضحايا من الطرفين ولم يلح في الأفق الخروج من المأزق، بينما قتل في إيران خلال عشرين سنة نحو ستين ألف من الشهداء في الحق دون أن يلجأوا إلى مواجهة العنف بالعنف، وأقل من هذا بكثير في يوغسلافيا حتى الآن. إن رصيد المواجهة السليمة في الخروج من عبادة الإستكبار هو تحدي العنف باللاعنف. خروج أحد الطرفين من لعبة العنف المتبادل يهيئ لميلاد الشرعية في الحكم ولن يترسخ الحكم الشرعي إلا بتسليم الأطراف جميعاً في أن لا يلجأوا إلى العنف وإنما إلى إقناع الناس لاإلى إكراههم. إن الله يعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف. إن القانون الفلكي الأول في الحياة الإنسانية هو أن البشر يعطون على الإقناع ما لا يعطون على الإكراه ومن لايفهم هذا لايمكن أن يدخل إلى إستثمار الإنسان.

يا عالم عربي! اعتبروا بأحداث العالم! اعتبروا باليابان التي تحررت بدون حرب تحرير لطرد المستعمر المحتل، وبدون مواجهة مسلحة، وصارت قوة عظمى في العالم تحت سمعنا وبصرنا. وكل الذين من جيلي يذكرون إستسلام اليابان ثم كيف صارت قوة عظمى، ليس بقوة الإكراه وإنما بقوة الفهم والتفاهم. وإن في إتحاد أوربا لعبرة يا عرب! يمكن اختزال التاريخ. أوربا تتحد من غير أن يخسر أحد شيئا ويربح الجميع، ونحن يمكن أن نفعل هذا إذا فهمنا أنه ليس من الضروري أن ندفع قرابين بشرية وخسائر في الأموال. إذا فهمنا إمكانية ذلك وأنه يحدث في الأرض أمام أعيننا تغييرات سلمية، فعندها لن نفرح بالذي سيوحد العرب بالقوة والإكراه والابتلاع كما كان ميلوزوفيتش يريد توحيد منطقة البلقان بالعنف والقرابين البشرية.

إن الحل في الدماغ وليس في العضلات.

105. اخلع عنك الأوثان

كيف يمكن أن أمسك بعنق العنقاء؟ كيف يمكن أن أفهم ماذا كان يقصد الصحابي حين يقول للمشرك "اخلع عنك الأوثان"؟ ما هذه الأوثان التي نلبسها أو تتلبسنا؟ وما هو الوثن؟ ما معنى قول الله في القرآن "واجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور حنفاء"؟ ما معنى هذه الكلمات؟ كيف يكون الاجتناب؟ هل أن نضعه في جنبنا أو نجعله في سويداء قلوبنا؟ وما هو الرجس؟ وما هو الوثن؟ وما هو الزور؟ وما معنى حنفاء؟ هل لهذه الكلمات وجود حقيقي في واقع الحياة؟

لا يمكن فهم معنى الوثن إلا إذا فهمنا قوة الوهم على عقل الإنسان. ولا يمكن السيطرة على الناس إلا إذا كانوا جاهلين بالسنن ويؤمنون بالأوهام، وصدق الله "بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون".

إن كلمتي الأرض والسماء مكررتان كثيرا في القرآن، ولكن ماذا كان يفهم الناس الذين نزل عليهم القرآن من هاتين الكلمتين؟ وماذا كان يوجد في ذهنهم أو تصورهم عن الأرض؟ الأرض حقيقة نقف عليها ونمشي في مناكبها ولها صورة في ذهننا أو عقلنا ولها صورة على الورق حين نرسمها، نرسم شكلها أو نكتب اسمها الألف والراء والضاد. هذه الأرض التي منها خرجنا وإليها نعود ومنها نخرج تارة أخرى. لقد بقيت كلمة الأرض كما هي، الألف والراء والضاد، وبقيت الأرض التي نقف عليها ونمشي في مناكبها، ولكن تغير شيء آخر، تغيرت الصورة التي كانت في أذهاننا عن الأرض والشمس والسماء ذات البروج، لأنه حين ننطق "أرض" بألسنتنا ونكتب أو نرسم شكل الأرض بأيدينا نشير إلى صورة في ذهن الإنسان عن الشيء. والاسم يختلف عن الصورة الذهنية والصورة الذهنية تختلف عن الحقيقة الخارجية. والكلمة المكتوبة تختلف عن الاسم. فهذه مراحل أربع وفي كل نقلة تحصل تشويهات. يتحدث القرآن عن الرياح الذاريات والسحب الموقرة بالمياه والسماء ذات الحبك ويتحدث عن الإنسان والآخرة ويقول "وفي الأرض آيات للموقنين وفي أنفسكم أفلا تبصرون فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون". أي أن السماء والأرض وما بينهما والإنسان ومصيره وقدرته على الفهم، كل هذه الأشياء حق مثل ما تتكلمون، تنطقون، تتحدثون، تطلقون الأسماء على الأشياء. ولكن ما وجه الشبه بين المشبه والمشبه به في هذه الآية؟ يقول الله "إنه لحق"، أي حقيقة هذا مثل حقيقة هذا.

ما هذا الحق الموجود في السماء والأرض والإنسان في مبتدئه ومآله؟ وما هو ميزة الإنسان؟ إنها إمكانية انتقال ما في ذهن الإنسان إلى ذهن إنسان آخر. هذه هي روح الله المنفوخة في الإنسان. إنه الحق. إن إطلاق الاسم على الشيء والمتكلم والمتكلم إليه والمتكلم عنه والمتكلم به والسماء والأرض تخضع لقوانين ثابتة. ونفس الإنسان التي يقول الله عنها "ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها" تحكمها قوانين مثل ما تحكم السماوات والأرض القوانين. هذه هي المثلية في تشبيه قانون السماوات والأرض وقوانين الحياة وقوانين وسنن النفس الإنسانية الفردية والاجتماعية. إن القرآن يؤكد على السنن النفسية الفردية والاجتماعية. "فورب السماء والأرض إنه لحق مثلما أنكم تنطقون"، إنه لحق مثل ما يقول الله "سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق " ولما يقول الله "إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم" فهو يقرر سنة ومن لم يصدق فليرجع إلى وقائع التاريخ، "سنة الله في الذين خلو من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا". والمجتمع الذي لا عدل فيه بين الناس سيهلك. هذه دعوى مكان كشفها التاريخ وأحداث البشر منذ أن صاروا يوقدون النار ويستأنسون الحيوان ويزرعون الأرض وينقلون ما يصلون إليه من كشف لسنن الله إلى الآخرين بالنطق، بالحروف، بالكتاب " ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين". المتقون هم الذين يكشفون السنن، سنن الهلاك الاجتماعي ولا يقعون فيها ولا يقعون في الظلم وذلك ينقل بالكلام والكتاب والحروف " اقرأ باسم ربك اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم".

إن الإنسان يمكن أن تخطئ عينه فلا تفهم العين ما ترى. لقد أخطأت العين البشرية في فهم حركة الشمس ولكن الشمس لم تخطئ في حركتها. إن نظام الفلك هو الذي صحح خطأ الإنسان، خطأ فهمه، خطأ تصوره، خطأ صوره الذهنية. لما يقول الله "سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق" فهو يشير إلى آلية تصحيح الخطأ الواقع العملي بالرجوع إلى الآفاق، إلى الفلك الدوار لنفهم سننه. وكذلك إذا أخطأنا في فهم وتصور المجتمع نرجع إلى المجتمع لنكشف قوانينه، وندرك أن في مخالفة هذه القوانين العذاب الأليم الذي سيرغم الجميع على الرجوع إلى الحق وقبول النور والخروج من الظلمات.

علينا أن نفهم الحق في السماوات والأرض والآفاق والأنفس "ما خلقنا السماوات والأرض إلا بالحق" والكون خلق على الحق والنطق حق وتصحيح الخطأ الذي يقع في فهم النطق أو في فهم النص يكون بالرجوع إلى العواقب. الحداثة بدأت تحلل نفسها وتحلل تصوراتها ووسائل نقل التصورات.

وميشيل فوكو، الفيلسوف الفرنسي الراحل، يتحدث عن نظام الخطاب ويتساءل: "ما هو هذا الشيء الخطير جدا في كون الناس يتحدثون وفي أن خطاباتهم تتكاثر بلا حدود؟ أين هو الخطر إذن؟" هكذا يتساءل فوكو وهو الذي كتب كتاب بعنوان: "الكلمات والأشياء". إن الخطر هو أن تتقطع العلاقة بين الواقع والكلمات. والشيء الذي يملأ هذه الفجوة هي العاقبة، لأن الكلام إن دخله النقص أو الخطأ فالعاقبة هي التي تصحح النقص والخطأ في الفهم. فمن هنا كان إلحاح القرآن في النظر إلى العواقب. وبدون الاطمئنان إلى هذا التكامل تظل الوقائع والنصوص خرساء لا تدل على شيء، وقد يحل مكان النصوص الآباء وتصورات الآباء. والخطر الذي يخاف منه فوكو هو عدم وجود الصلة الواضحة الجلية بين التصورات والعواقب فلهذا يتشكك فوكو ويقول ربما الحقيقة تكمن في البراغماتية.

ومصطلح "البراغماتي" يقابله في القرآن آية "ما ينفع الناس يمكث في الأرض"، ولكن يمكن أن يفهم المفكر الحداثي أن ما ينفع الناس هو ما ينفع 20% من الناس المسيطرين على العالم. ولكن ليس هذا هو النفع. والحاصل مهما تلاعب المتلاعبون في الكلمات ومعانيها والأحداث وتأويلها فإن العواقب هي التي تظهر درجة نفعها. ولقد أدت فلسفة الحداثة إلى أخطار الضلال وضياع الحقيقة والوصول إلى العدمية السوفسطائية ونظرية اللايقين ودعمت هذه الأفكار العبثية التي هي ضد الإنسان. ويمكن أن يؤمن الإنسان بالعبثية ولكن لا يمكن أن يمنع من وقوع نتائج العبث.

والصحابي حين كان يقول للمشرك اخلع عنك الأوثان كان يعني اخلع عنك الأوهام والسراب الذي يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاء لم يجده شيئا. كيف نخرج من التلبس والتمسك بالأوثان والأوهام والخرافات؟ كيف نكشف الزيف العالمي، ووثن العنف، وخرافة أن الإنسان يعطي على الإكراه والتخويف ما لا يعطي على الإقناع؟ نحن الآن محاطين بأوثان مختلفة، فالإكراه وثن وخوف الإنسان من الوهم وثن، وضياع حبل الحق الموجود في الكون المادي والحياتي وثن. إن الشرك يفسد الإنسان ويدسي نفسه وينمي فجورها، بينما التقوى يؤدي إلى الالتزام بالسنن والقوانين.

106. الصادق الوعد الأمين

في الاحتفالات الشعبية بذكرى الرسول (ص) يصفه المسلمون بأنه الصادق الوعد الأمين. ونحن لما نكشف أزمة المجتمعات الإنسانية حاليا سنكشف أهمية هذا الوصف للرسول:

في سورة الشعراء لازمة متكررة خمس مرات مع قصص الأنبياء نوح وهود وصالح ولوط وشعيب.

أ. كذبت قوم نوح المرسلين

ب. إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون

ج. إني لكم رسول أمين

د. فاتقوا الله وأطيعون

هـ. وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين

أ. كذبت عاد المرسلين ب. إذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون ج. إني لكم رسول أمين د. فاتقوا الله وأطيعون هـ. وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين

أ. كذبت ثمود المرسلين ب. إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون ج. إني لكم رسول أمين د. فاتقوا الله وأطيعون هـ. وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين

أ. كذبت قوم لوط المرسلين ب. إذ قال لهم أخوهم لوط ألا تتقون ج. إني لكم رسول أمين د. فاتقوا الله وأطيعون هـ. وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين

أ. كذبت أصحاب الأيكة المرسلين ب. إذ قال لهم شعيب ألا تتقون ج. إني لكم رسول أمين د. فاتقوا الله وأطيعون هـ. وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين

ويختم القرآن كل قصة منها بلازمة موحدة أيضا كما يبدأ بلازمة موحدة، فيذكر غرقهم أو هلاكهم بالعذاب أو تدميرهم ثم يقول: "إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم."

أريد أن أنبه أن الأرضية الأساسية التي تبنى عليها النبوة هي الأمانة. فسلامة الإنسان والمجتمع لا تقوم إلا على أساس الأمانة والصدق. ولن يكون للإنسان قلب سليم لا غش فيه ولا غل إلا إذا آمن بالأمانة والصدق. إن قانون الكون المادي لا كذب فيه. الكهرباء لا تكذب. قانونها واحد ولا قدرة لها على غير ذلك. ولكن الإنسان هو الكائن الوحيد القادر على الصدق والكذب، والأمانة والخيانة، والفجور والتقوى. هذه القدرة المبتكرة قمة الكون والمخلوقات، ولكن تحقيقها في الحياة يعود للإنسان. الله ألهم الفجور والتقوى والإنسان هو الذي يحول هذه الإمكانية إلى واقع، والبشر الذين يلتزمون تحويل هذه الإمكانية إلى التقوى هم المتقون، والمؤمنون الذين قال الله عنهم "وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها"

وأما الذين يحولون هذه الإمكانية وهذا الإلهام إلى الفجور فهم الذين قال الله عنهم "أولئك هم الكفرة الفجرة". كلمتا الفجور والتقوى في "ألهمها فجورها وتقواها" ينبغي أن تتحددا بوضوح لا التباس فيه، ولهذا يقول الله في بداهة أولية "أم نجعل المتقين كالفجار"، ويقول "إن الأبرار لفي نعيم وإن الفجار لفي جحيم". والرسول إمام الرسل جميعا وحامل لرسالات جميع الرسل، وهو صدق الرسل وأنقذ رسالاتهم وجددها. وأريد أن أنبه إلى أن محمد (ص) كان صادقا وأمينا قبل أن يصير رسولا، فالرسالة بنيت على هذا الأساس المتين الذي تفتقده البشرية إلى الآن. ونحن ينبغي أن نقف طويلا عند الصدق والأمانة. كيف يكون الإنسان صادقا أمينا؟ هل نحن مجبرون على الكذب والخيانة؟ أنا بحسب فهمي للقرآن الصدق يتغلب على الكذب والأمانة تتغلب على الخيانة، ومن لم يصدق هذا لا يمكن أن يدخل إلى عالم الأنبياء، ولا يمكن أن يفهم رسالة الأنبياء.

قف وتأمل أيها القارئ! لأنه إذا تجاوزنا هذه النقطة من غير أن نصل فيها إلى قول فصل ليس بالهزل فلن يستقيم لنا شيء وسيحبط كل عملنا. هذا ما جاء به الأنبياء جميعا وهذا ما قال الله عنه "ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين". التوحيد أن لا يكون أحد من البشر إلها على الآخر، وهذا معناه أن تعطي للآخر ما تعطيه من حق لنفسك، وإلا تكون وقعت في المقت الكبير عند الله "لم تقولون ما لا تفعلون كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون". ويقول الله: "أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون". ويقول على لسان الرسل: "وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه". إن لم يلتزم النبي بما يدعو إليه لا يكون صادقا ولا أمينا. كان صدق الرسول وأمانته واضحا للناس قبل أن يكون رسولا وكانوا يلقبونه بالصادق الأمين. فهذه الأرضية وهذا الرأسمال وهذا الأساس. ويفلت كل هذا من العالم. لقد صار اكتشاف هذا والالتزام به صعبا. بل أشعر أننا محكومون بأرضية غير أرضية الصدق والأمانة. رأسمال العالم حاليا الكذب والخيانة. إننا لم نصنع بعد أرضية الصدق والأمانة.

إذا ظننا أنه، كما نعطي أنفسنا الحق في الدعوة إلى الصدق والأمانة، إذا أعطينا الحق للكذب في الدعوة إلى الباطل فإنه سينتصر على الصدق والأمانة نكون ظننا بدين الله وبالله ظن السوء، ونكون افترينا على الله الكذب، ونكون آمنا بقوة الكذب والخيانة. هناك شعور عند الناس أنه إذا أعطينا

فرص السواء وتكافؤ الفرص لكل من الصدق والكذب فإن الكذب سيفوز. وهذا عكس القانون القرآني، الذي يركز دائما على أن غياب الحق هو الذي ينصر الكذب، وأن الحق عندما يأتي فإن الباطل يزهق كنتيجة طبيعية. وما لم نقلب التصور الشائع الخاطئ عن قوة الصدق لا نكون وضعنا أساسا للانطلاق ولا أساسا للإيمان والإسلام أو الله والأنبياء. وإنما نكون في أعماقنا على اعتقاد ملة الأقوام الذين يؤمنون أنهم لا ينجحون إلا إذا كبتوا وكبلوا الآخرين، ومنعوهم من حق الكلام وإبداء الرأي. بينما الأنبياء لم يلجأوا إلى الإكراه في صراع الأفكار والعقائد، ليهلك من هلك عن بينة وليحيى من يحيى عن بينة. إن الإيمان بقوة الحق تخلق هذه الطمأنينة النبوية، وتؤدي إلى إعطاء الناس جميعا فرصا متكافئة في التعبير عن آرائهم وأفكارهم وعقائدهم.

يريدون أن نكتم الحق في الفهم لسنة الله، ونحن علينا أن نلتزم عدم كتمان الشهادة لله ورسله بأن الحق إذا جاء يموت الباطل موتا حقيقيا. إذا أدركنا قوة الحق فعندها سنفهم معنى "لا إكراه في الدين". ولما نصنع مجتمع اللاإكراه لا يحق لأحد استعمال القوة لإثبات الحق، وإلا رجعنا لقانون الغاب وليس لقانون الحق. فذنبي يجب أن يكون محصورا في بيان رأيي، لا لأني أتآمر أو استخدم أدوات القوة، أي أن لا ينقم أحد مني إلا لأني أقول الحق. "وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد". فنحن إذا عدنا إلى ملة القوة، فقد لغينا قوة الحق، لأنه هناك ينتصر الأقوى بالعنف، أما حين نلتزم بقوة الأفكار فهنا ينتصر الفكر الأقوى.

فهل يمكن أن نفهم معنى الصادق الأمين؟

إنه الالتزام بفكرة معينة: أن ندرك أن الفكر هو الذي ينتصر في النهاية ويبقى، وأن الزبد يذهب جفاءا وأن ما ينفع الناس يمكث في الأرض. اللهم إني آمنت وصدقت الصادق الأمين، وآمنت بك وبكلماتك ورسلك الأمناء، عليها نحيا وعليها نلقاك مع الآمنين.

107. على منهج من نحن؟ علي بن أبي طالب، أم الخوارج؟

ما زلت في الحديث عن الشرعية. وأريد في هذه المقالة أن أركز على منهج علي بن أبي طالب (رض) في تعامله مع الخوارج، لأني أجد فيه آية على الشرعية التي نعجز عنها اليوم بعد أن اختلطت الشرعية باللاشرعية عند المسلمين. وعلي بن أبي طالب شخصية عجيبة في تاريخنا ومعلم من معالم الحق والشرعية، ولكن تداخلت عند الناس الحقائق والخوارق في تصور حياته.

إن تاريخنا دخل حقبة جديدة في الصراع الذي حدث بين الخوارج وعلي بن أبي طالب. كان علي (رض) خليفة المسلمين بالشورى والبيعة، وبعد أن صار في الحكم بطريق شرعي خرج عليه الخوارج. ولكن عليا قال لأصحابه: "لا تبدؤوهم حتى يسفكوا دما حراما". هذه مقولة مهمة، وستظل مهمة وستظهر في المستقبل أنها الحق وأنها الشرعية. فالأفكار تغير بالأفكار، وليس بالقتل. ومقولة علي معناها عميق، أي لا يقاتل الناس من أجل أفكارهم وعقائدهم، وإنما من أجل ممارساتهم العملية، حين يبدؤون بقتل الناس وسفك الدماء. والسلطة الشرعية هي التي توقف هذا العدوان كائنا من كان مرتكبه بصرف النظر عن عقيدته، حيث لا يؤاخذ الناس على عقائدهم ما لم يلجأوا إلى سفك الدماء واستلاب الأموال بالقوة. هذان فقط المحرمان في المجتمعات النبوية التي تصنع المجتمع بالشرعية وبالصبر على الأذى.

يقال أن علي بن أبي طالب قال: "لا تقاتلوا الخوارج بعدي". ما أدري هل قال هذا أم لا، ولكن نحن يمكن أن نفهم هذا القول على ضوء معطيات التاريخ وتغيير الأقوام لما بالأنفس. ففعلا لم يحدث قتال شرعي بعد علي بن أبي طالب، لأن الذين جاؤوا من بعده كانوا يقاتلون الباغي بالبغي من غير أن يصنعوا مجتمع الرشد بالرشد. ولم يتحول قتال البغي إلى قتال جهاد شرعي.

إن تطور البشر في فهم آيات الآفاق والأنفس فرض الشرعية. فالذي يخرج على الشرعية بشريعة الغاب يُطبق عليه القانون بغض النظر عن إخلاصه والقيم التي ينادي بفرضها بالإكراه. وفي تاريخنا كان الذين يخرجون على القانون ويصلون إلى الحكم من غير شرعية هم الذين يقاتلون غير الشرعية. أي لاشرعي يقاتل لاشرعيا. وهذا ما ظل عليه المسلمون إلى يومنا هذا. والمسلمون الآن مضطرون أن يفكروا مليا وبوضوح للخروج من المأزق الذي هم فيه حتى يكشفوا الشرعية النبوية.

إن الشرعية النبوية التي جاء بها الأنبياء قاطبة ليست بارزة إلى الآن، لأن الناس إما يرونها كنتيجة لتدخل إلهي وكمعجزة أو يرونها كأسطورة حلوة مثالية غير قابلة للتطبيق، بل يرونها جنونا "كذلك ما أتى الذين من قبلهم إلا قالوا ساحر أو مجنون أتواصوا به بل هم قوم طاغون". لقد جاء الأنبياء جميعا ليعلموا الناس الكفر بالطاغوت وليخرجوهم من ملة الطغيان. "يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به". ويصف الله الأنبياء والذين آمنوا بالأنبياء أنهم هم "الذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأنابوا إلى ربهم لهم البشرى فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب". ويصف الله الفاسقين بأنهم "من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبدة الطاغوت أولئك شر مكانا وأضل عن سواء السبيل". ويصف الله الذين كفروا بأنهم يقاتلون في سبيل الطاغوت "والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفا".

الطاغوت --كلمة مشتقة من فعل طغى-- هو الذي يعتمد على الإكراه في مولده واستمراره. وبما أنه لا إكراه في دين الأنبياء الذين أرسلهم الله فقد صار تضاد بين هاتين الملتين: ملة الأنبياء التي تنبذ الإكراه وتدعو إلى الكفر بالطاغوت، وملة الكفر أوليائهم الطاغوت، التي تعتمد الإكراه في تثبيت نفسها. فمن هنا كانت إزالة الطاغوت ليست بالدخول إلى ملته وأسلوبه، بل كان موقف الأنبياء أن قالوا: "قد افترينا على الله كذبا إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها".

لقد قدم الأنبياء البديل لمنظومة الطاغوت التي تعتمد الإكراه. فالشرعية النبوية تتأسس عن طريق تغيير ما بأنفس الناس، أي تغيير القناعات، وتغيير ما يؤمنون به. وهذا هو قانون التغيير الإلهي، وما جاء به الأنبياء. ولكن الطواغيت لا يعطون قيمة لتغيير ما بالأنفس، وإنما يقهرون الناس ويجعلونهم يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، ويحولونهم إلى منافقين، ولسان حالهم يقول: لقد أجلك من يرضيك ظاهره، وقد أطاعك من يعصيك مستترا. هذا الانفصال بين دعوة الله إلى كلمة سواء وبين دعوة الطواغيت الذين يريدون العلو في الأرض والفساد وجعل أهلها شيعا هو ما يركز عليه القرآن.

إن تاريخ علي بن أبي طالب يظهر أزمة الشرعية في تاريخنا، حيث قتله المسلمون وهو حاكم راشد أتى بطوع الناس، وهذا يدل أن التغيير ليس بتغيير الحاكم وإنما بتغيير ما بأنفس الناس. وعلي التزم الشرعية وكان مدركا أن الحكم برضا الناس وبيعتهم، ولهذا لم يخرج عليها حتى عندما خرج الآخرون، وظل ملتزما كلمة التقوى وكلمة السواء من طرفه. وهناك نقطة مهمة أخرى في حياة علي. فعندما بايعه الناس اعتبر أن هذا هو الطريق الشرعي، وأن التغيير يكون بتغيير ما بأنفس الناس وليس بقهرهم، وأن ما يأتي برضا الناس ينبغي أن يذهب برضاهم أيضا، وهي نقطة غابت عن عثمان: من يعطي السلطة للحاكم؟

وهذه العقبة اشتبهت على الناس، كما حصل في قضية عثمان. إن الناس هم يعطون الملك، وهم الذين ينزعونه، ليس بالقتل والإكراه، وإنما بالشورى. فكما يُختار الحاكم بالشورى، يغير أيضا بالشورى.

إن الخروج على الشرعية خطأ كما فعل المسلمون مع عثمان. ولكن الاختلاط حدث من جانبين: من جانب الذين أجازوا تغيير الشرعية بغير الشرعية، من قتل الأنفس واغتيالها، ومن جانب عثمان الذي كان يشعر أن السلطة ثوب من الله، ولا يخلعها إلا الله. ونحن يجب أن نفهم بوضوح هذا الاختلاط

أكثر من الذين كانوا يحيونها في تلك الأيام. إن عثمان كان مصيبا في عدم قتال الذين خرجوا عليه. والذين خرجوا عليه انزلقوا في الغي حين قتلوه ولم يصبروا على حل المشكلة.

إني أقول مطمئنا أن علي بن أبي طالب معلم للشرعية، حسب ما جاء به الأنبياء الذين لم يخرجوا على مجتمعاتهم باستعمال القوة، وإنما بتغيير ما بأنفس الناس، من غير إكراه وحتى من غير دفاع عن النفس إذا اعتدى عليهم مجتمع الطاغوت، حتى يغيروا الناس برضاهم. لقد ظل الأنبياء صابرين على الأذى، حتى آتاهم نصر الله بالإقناع، وليس بالإكراه.

إن في حياة علي بن أبي طالب عبر كثيرة، وهو الذي فهم منهج الخوارج على حقيقته. فعندما سئل عنهم: أكفار هم؟ قال: بل من الكفر فروا. فسُئل: أمنافقون هم؟ قال لا. قيل: فمن هم إذا؟ قال (رض) القول الفصل الذي يشتبه على كثير من الناس: "ليس من طلب الباطل فأدركه كمن طلب الحق فأخطأه. هذا الكلام معلم من معالم الحق والنزاهة واللاإكراه في الأفكار. لقد شخص علي المرض بوضوح ووضع إصبعه على خطأ المنهجية في السلوك اللاشرعي. وحين اغتاله الخوارج، قال في وصيته عن قاتله: إن أعش فالأمر لي وإن مت من هذه الضربة فالأمر إليكم، فإن أبيتم القصاص فضربة، إن تعفوا أقرب للتقوى. عليك سلام الله يا إمام المتقين الذين يعيشون في هذه الأرض، ومع النبيين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا في يوم الدين.

108. منهج الشرعية النبوية

يمكن القول أنه لا يوجد عندنا نحن المسلمون من يقبل تحدي الديمقراطية. ولا يوجد عندنا إلى الآن من يقبل الحكم بالإقناع سواء كانوا متدينين أو علمانيين. الكل يثقون بالعنف، والإكراه، ولا يثقون بالرشد وإقناع الناس. لا يوجد عندنا من يقبل تحدي الرشد بدون اللجوء إلى الإكراه أو التزوير.

بدأت حديثي عن الشرعية الإسلامية في مقالات سابقة وسأتابع الموضوع مرة أخرى في هذه المقالة. فحسب ما أرى، الشرعية مبنية على آية: "تعالوا إلى كلمة سواء". أي يجوز لك من الحق مثل ما يجوز لي، ولا أعطي لنفسي حقا لا أعطيه لك. هذه هي كلمة السواء، وكلمة التقوى، إلا أن الشرعية الإسلامية، التي هي الشرعية النبوية، تتقدم إلى درجة أعلى حتى من هذا. فالطريقة النبوية تلتزم كلمة السواء من طرف واحد، حتى لو لم يلتزم بها الطرف الآخر. أي أنه إذا أنت أعطيت لنفسك حق نقض كلمة السواء، فأنا لا أعطي لنفسي حق نقضها. "ما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه". وكذلك يقول الله: "أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون". والقرآن شرح لنا كلمة السواء بأن لا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله. فإذا قبل المجتمع مثلا أن يتخذ من بعض أفراد المجتمع أربابا فإننا لا نشاركهم، لا في الربوبية، ولا في العبودية للناس، ونبقى على كلمة السواء من طرف واحد. نقبل التعاون على البر ونرفض التعاون على الإثم. هذا ما فعله بلال في مجتمع قريش، وهذا ما فعله أبو ذر في مجتمع ما بعد الرسول، الذي خرج من كلمة السواء، كما كتبت في مقالاتي السابقة. فالمجتمع بعد الرسول بدأ يتحول عن الرشد، ولم يتمكن من حل المشكلة والعودة إلى كلمة السواء، وإنما فتحت أبواب القتل، وأُستخدم العنف بدل التفكير.

هذا التوجه المختلف الذي حدث بعد فترة النبوة في تاريخ المسلمين يجب أن يراجع. ففي فترة التحول، وقع المنكرون أيضا في نفس الشيء عندما حاولوا إصلاح الأمور بالعنف، بينما شخص مثل أبي ذر استطاع أن يرى المشكلة وأنكر الطرفين، وأنكر مواجهة الانحراف بالانحراف، لأن منهج الشرعية النبوية كان واضحا لديه. لم تختلط الأمور عليه ولم يستطع أحد أن يجره إلى دخول الغي والفتن، فهم البر والتزمه، وفهم الإثم وتجنبه، بل وأنكر الإثم. ويجب أن نفهم أن إنكاره بدون خروج وعنف ومحاولة إظهاره الحق تمثل معارضة مشروعة (واجبة).

إن الدخول في الأسلوب اللاشرعي لحل الأمور هو عودة إلى الوراء وخروج عن نهج النبوة وخروج من الرشد إلى الغي، وإلى تحكيم القوة. ويمكن أن نقول إنه كان فتحا لباب جهنم الذي إلى الآن نتلظى بناره والذي أفقدنا قدرة العودة إلى الرشد.

إن تطور البشر أدى إلى فهم جديد في حل المشكلات. أصبح من الواضح الآن أن حل المشكلات بالعنف يوصل إلى عواقب ونتائج خاسرة. لقد ذاقت البشرية العذابات الأليمة في تبادل السلطة بالعنف، وكان آخرها عنف الحرب العالمية الثانية التي دفع البشر فيها 54 مليون ضحية من القتلى، عدا الخسائر المالية والاجتماعية والثقافية الفادحة. إن تطور الحرب وأساليبها التدميرية الشنيعة، وتطور العذاب في التسلط المتبادل أقنع الناس بأهمية ابتكار أسلوب جديد يمكنهم من حل المشكلات بدون هذه الخسائر. ويمكن أن نفهم أن هذا هو الذي دعى إليه الأنبياء، من أولهم إلى آخرهم، وهو أن (أي الأنبياء) يلتزمون عدم اللجوء إلى العنف في تغيير أفكار المجتمع، ويلتزمون الدعوة والخطاب إلى الناس ويعطون للناس الحق في أن يستمعوا إلى القول وقبول ما يرونه حسنا. ونجد هذا المعنى في سورة الزمر، التي هي سورة مكية: "والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأنابوا إلى الله لهم البشرى فبشر عباد. الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب". هذا ما جاء به الأنبياء، من دعوة نوح "واتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه يا قوم إن كان كبر عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله فعلى الله توكلت فاجمعوا أمركم وشركائكم ثم اقضوا إلى ولا تنظرون". وهذا ما أوحي أيضا إلى آخر الأنبياء "فاصدع بما تؤمر به وأعرض عن المشركين". إن التطور البشري دفع الناس رغما عنهم إلى هذا النهج من التحاكم إلى العقل والإقناع وعدم اللجوء إلى الإكراه. ولن تدخل الديمقراطية إلى مجتمع لا يقبل فيه الناس نتائج اختيار الأغلبية فيما تراه الأفضل من الأقوال.
فأولئك الذين هداهم الله وهؤلاء هم أولو الألباب، هم الذين تحاكموا إلى ألباب الناس ووجهوا خطابهم إلى الناس من دون إكراه. هذا هو الرشد وهذه هي الشرعية وهو التقوى وهي كلمة السواء. إن أولي الألباب الذين يثقون بأن أفكارهم حسنة وأن الناس يمكن أن يتبعوا هذا الحسن يظهرون ثقتهم بأفكارهم. فالحق لا يفرض بالقوة، وإنما يتقبله الناس بالفهم الراشد.

إيران ظاهرة جديدة في العالم الإسلامي، لا تتناول بما يكفي من التحليل والتحديق. المتابع لأخبار إيران سيرى أن الصراع ليس بين المتدينين والعلمانيين ولكن بين نوعين من المتدينين، بين الذين يرون العالم جامدا لا يزداد إلى الأفضل وبين الذين يرون التاريخ كحركة إلى الأفضل، وأنه يزيد في الخلق ما يشاء ويخلق ما لا تعلمون. ولن يبقى في العالم الإسلامي حين يرفع عنه الإكراه والإرغام والقسر إلا النزاع بين هذين الطرفين، الطرف الذي يرى التاريخ متوقفا والحق ضعيفا لا ينتشر إلا بالإكراه، والطرف الذي يؤمن بأنه إذا جاء الحق يزهق الباطل مدحورا، ويؤمن بالقانون القرآني في أن الزبد يذهب جفاء وأن ما ينفع الناس يمكث في الأرض.

إن رياح كلمة السواء تهب في كل أنحاء العالم، بحيث تترسخ جذورها عمقا وتتمدد فروعها علوا وتتسع ظلالها إنتشارا، "تأتي الأرض ننقصها من أطرافها". هذا هو علم الله في أن الفساد وسفك الدماء يتقلص، وإن كان المستكبرون يريدون استمرار دوام الاستكبار والاستضعاف. ولكن وعي المستضعفين هو رصيد النمو والحركة لمن شاء أن يتقدم أو يتأخر. التزام كلمة السواء والتقوى أمر ينبغي أن لا يسكت عليه الربانيون، وعليهم أن يصدعوا بها، ويعلنونها ولا يكتمونها. هذا ما ينبغي أن يفعله المهاجرون إلى ربهم في كل زمان ومكان.

على الآمرين بالقسط وعلى الآمرين بكلمة السواء من الناس أن يوقدوا وينشروا ضياء المعرفة ويبرزوا تطور التاريخ. "ملكوت الله قادم"، و"أتى أمر الله فلا تستعجلوه". وكان الإنسان عجولا وقنوطا حين يجهل سنة الله التي لن تجد لها تبديلا ولن تجد لها تحويلا. ولكن الإنسان سيدرك بأن نظام الكون لن يتراجع إلى جعل الغثاء المر يمكث، وسيعرف أيضا أن ما ينفع الناس لن يتحول إلى غثاء زائل. هذا ما ينبغي أن نبشر به المستضعفين في الأرض، وهذا ما ينبغي أن ننزل به قوما لداً.

إن غنى الأموال وكثرة عتاد الحرب ليس المقرب إلى الحق، والقرآن يقول بصراحة: "وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى". كان عيسى عليه السلام، الوديع، يغضب ويقول بكل قوة: "أيها القادة العميان" وكان يقصد بالقادة العميان الكتبة والفريسيين. فالكتبة هم مثقفو مجتمعهم، الذين يوحون

أن لا مخرج للعقل من اعتقال القوة والفريسيون هم الذين يمثلون الدين ويوحون أن لا قوة للروح في مواجهة من يحصدون الجسد. إن الكتبة والفريسيين، أي ممثلي العقل والروح في أي مجتمع متقبلون ساكتون لا يصرخون مثل يحيى عليه السلام الذي أوحي إليه بأخذ الكتاب بقوة، والذي كان يصرخ مكبرا بأن ملكوت الله قادم.

109. اعرف الحق تعرف أهله

كيف نفهم شرعية نشأة الأمة من الصفر؟ علينا أن نفهم كيف نبدأ من الصفر، ومقابلة الأخطاء بأسلوب شرعي، وعلينا أن نفهم كيف يتم الاستمرار في هذا، وكيف تتم إعادة بدئه بعد أن نفقد الأسس. وهذا ما يشير إليه ما قيل في أن آخر هذه الأمة لا يصلح إلا بما صلح به أولها. وهذا كلام يمكن تأويله والتلاعب به، ولكن سنة الله لا يمكن التلاعب بها، لأنها تعطي نتائج وعواقب واضحة. إن الذين يتلاعبون مع سنن الله هم الذين يخسرون. والمسلمون فقدوا الرشد والشرعية في الحكم، وفقدوا القدرة على إعادة صنع الأمة الراشدة، لأن الأمة الراشدة هي الأساس في استمرار الشرعية والحفاظ عليها. ونحن حين نفهم هذا القانون وسنة الله في نشأة الأمم وفسادها وهلاكها ونفهم قانون إعادة بناء الأمة الراشدة ستتغير أحوالنا. وسنة الله لن تجد لها تبديلا ولا تحويلا ولا لفا ولا دورانا.لا بد من البدء من الأساس الذي تبنى عليه الشرعية ولا قيام لشرعية ولا بنيان إلا على أساس واضح متين يتحمل كل الضغوط لأن البنيان الظاهر قاعدته هي الأساس ولما يقول الله تعالى: "أفمن أسس بنيانه على تقوى الله ورضوان خيرا أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم والله لا يهدي القوم الظالمين".

الأساس هنا تقوى الله ورضوانه، وأنا ألح على فهم تقوى الله باتقاء الخطأ في التعامل من سنن الله في المادة والحياة والفكر. فنحن عندما نخطأ في التعامل مع قوانين الطبيعة بأسلوب خارج عن السنن التي فطرها الله عليها فإنها تصعقنا وتدمرنا. كذلك التعامل مع جسد الكائن الحي، فأي خطأ يؤدي إلى الموت. والخطأ في التعامل مع سنن طاقة الإنسان الذي سخر له ما في السموات وما في الأرض يكون مدمرا أكثر. يقول الله: "وكذلك أخذ ربك إذ أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد". ويوضح القرآن كثيرا كيف يدمر الله القرى، "وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح". أي يتم التدمير وفق سنن وقوانين معينة. هكذا قانون الله، وسنة الله، وعلى الإنسان أن يتعرف على سنة الله في الأمم، كيف تهلك، فيتفاداها، فهذا هو معنى التقوى، "يا أيها الناس اتقوا ربكم". أي احذروا من مخالفة قوانينه. وهذا أيضا معنى الاعتبار، "فاعتبروا يا أولي الأبصار".

إن الذين لا يتفهمون معنى التقوى وأبعاده هم الذين يؤول أمرهم إلى أن يكونوا عبرة لأولي الأبصار وأولي الألباب. وسنن الله وتقوى الله في تأسيس الأمم من أكبر سننه، فلهذا بناء الأمم، إن لم تتأسس على تقوى من الله على القوانين المتينة، ستنهار في نار جهنم في الآخرة، وستتحول في الدنيا إلى عبرة لأولي النهى.

أرجو من الشباب أن يتمكنوا من تأمل هذا وتفهمه. فإذا فهموه ستكون إعادة الرشد أهون من صنعها آنفا. لهذا يقول الله عن إعادة الله لخلق الناس في الآخرة من أنه أهون عليه "كما بدأنا أول خلق نعيده".

عندما نكشف السنة نفهم الشخصيات التاريخية ودورها، لأننا إذا عرفنا الحق سنعرف من الذي على الحق ولو كان فردا واحدا أو أسرة واحدة. يقول الله في مثل هذا "فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين". وهنا نكشف القانون الذي تكلم به علي بن أبي طالب حين رأى الناس وقد اختلطت عليهم الأمور: "اعرف الحق تعرف أهله". الحق سنة الله ولكن الناس يمكن أن يصيبوا ويخطئوا ولكن سنة الله لا تخطئ ولا تتحول. ونحن حين نكتشف سنن

الله في بناء شرعية الأمة الراشدة، سنكشف أيضا من هم الأشخاص الذين كانوا مع سنة الله. فأبو ذر الغفاري كان مع سنة الله، ولكن الذين قتلوا عثمانا، وإن كانوا أكثر عددا منه لم يكونوا مع سنة الله.

ويلكم! لا تعرفوا الحق بالرجال. اعرفوا الحق تعرفوا أهله.

نقرأ في سنن أبي داوود أن أبا ذر قال: قال رسول الله (ص) يا أبا ذر، قلت لبيك وسعديك. قال في الحديث: كيف أنت إذا أحباب الناس موت يكون البيت فيه بالوصيف؟ قلت الله ورسوله أعلم أو قال ما خار الله لي ورسوله، قال: عليك بالصبر أو قال تصبر، ثم قال: يا أبا ذر قلت لبيك وسعديك، قال: كيف أنت إذا رأيت أحجار الزيت قد غرقت بالدم؟ قلت ما خار الله لي ورسوله، قال: عليك بمن أنت منه، قلت يا رسول الله أفلا آخذ سيفي فأضعه على عاتقي؟ قال شاركت القوم إذن. فقلت: فما تأمرني، قال: تلزم بيتك، قلت فإن دخل على بيتي؟ قال: فإن خشيت أن يبهرك شعاع السيف فألق ثوبك على وجهك يبؤ بإثمك وإثمه.

لما يروي أبو ذر هذا التوجيه النبوي، كثير من المسلمين لا يقدرون على أن يفهموا هذا الحديث، بل ويسخرون منه، لأن سنة صنع شرعية الأمة قد ضاعت منهم ومن الأمة الإسلامية منذ وقت مبكر. وأمثال هذا الحديث كثيرة في عدم اللجوء إلى العنف في بدء الدعوة وكذلك عدم اللجوء إلى العنف حين يبدأ الرشد بالتسرب، وهذه الأحاديث تبين أن واجب المسلم في الحالتين أن يقول الحق ويبين الصواب والخطأ. وعند فهم سنة صنع المجتمع سنفهم هذه الأحاديث وسندرك بأن تغيير ما في النفوس يكون بتوضيح الحق والباطل وليس باللجوء إلى العنف. ولهذا شهد الرسول (ص) لأبي ذر بأنه ما تحت أديم السماء أصدق لهجة من أبي ذر. فأبو ذر لم يسكت حين بدأ الرشد ينحرف وإنما أنكر المنكر وأمر بالمعروف حتى نفي وأبعد، ولم يكّف لا قبل أن ينفى ولا بعد أن نفي عن التزام قول الحق.

ونقرأ رواية تقول أن أبا ذر لما كان منفيا إلى الربدة في زمن عثمان أتاه نفر من العراق فقالوا: يا أبا ذر فعل بك هذا وفعل فهل أنت ناصب لنا راية، فنكمل برجال ما شئت؟ (يعرضون عليه المعارضة المسلحة) فقال لهم: يا أهل الإسلام وتعرضوا على ذاكم، والله لو أن عثمان صلبني لسمعت وأطعت وصبرت واحتسبت ورأيت أن ذلك خير لي.

هذه قصص من التاريخ سنعرف قيمتها ومعناها حين نعرف منهج تغيير الأقوام الذي جاء به القرآن، وأساسه التعاون على البر والتقوى، وليس التعاون على الإثم والعدوان. إن منهج القرآن يدلنا بوضوح على الطاعة في المعروف وعدم الطاعة في المنكر، أي أن ننفذ المعروف ولا نطيع في المنكر. والمسلمون يظنون أنه وجب عليهم الطاعة في كل ما يقوله الحاكم، أو يتخذون الطريق الثاني ويخرجون عليه بالسيف، ولكن عدم الطاعة خيار غائب.

ألا من كان له أذنان للسمع فليسمع: "لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق". إنما الطاعة في المعروف، وعند المنكر لا تخرج عليه بالسيف، وإنما ترفض طاعته. والناس يظنون أن يجب طاعة الحاكم في المنكر، وأساءوا فهم ما جاء في الصحيح من الحديث من أنه تسمع وتطيع وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك. فهذا ليس معناه أنك تطيع في المنكر، وإنما تبين الحق، لأن عهد الله وعهد رسوله أن نقول بالحق حيثما كنا لا نخاف في الله لومة لائم، ولا نخرج بالسيف.

هذا منهج القرآن، والأنبياء، وهذه هي شهادة أبي ذر.

اللهم إني أشهد أن أبا ذر كان على الحق وبالحق، وليس الخوارج الذين قتلوا عثمان وعلي.

110. أبو ذر نموذجا

في المقالة السابقة تحدثت عن بلال كنموذج للإنسان الذي تحرر. وفي هذه المقالة أريد أن أسلط الضوء على نموذج أبي ذر الغفاري، الشخص الذي نقد ما عليه المسلمون عندما فقدوا الرشد.

كان أبو ذر يرى أن الوجود ينطوي على سر كبير وأن هذا الكون ليس العبث الذي يعيشه الناس فلما سمع بدعوة محمد أوصى أبو ذر أخاه أن يأتي له بخبر هذا الرسول الجديد، ولكن ما أتاه به أخوه لم يشف غليله حتى ذهب هو بنفسه إلى مكة وقصته مشوقة جدا. فعندما وصل مكة خشي أن يسأل عن الإسلام صراحة حتى التقى بعلي ابن أبي طالب فأوصله خفية بالرسول (ص) فكان أن أعلن إسلامه، وكان من وصية رسول الله (ص) له أن يرجع إلى أهله فإذا بلغه أن الإسلام ظهر يأتي ويلتحق به، ولكن أبا ذر أبى وقد استنار قلبه ببشاشة الإيمان. إنه صار عبدا لله، وليس عبدا لمحمد. إن محمدا كان يوصل الناس بالله الذي خلقهم وجعل لهم السمع والأبصار والأفئدة، الله الذي يعلم السر وأخفى، ومحمد نفسه هو عبد لله ورسوله فأبو ذر لم يأخذ بما أمره به رسول الله من العودة إلى أهله وإنما قال: والله لأعلنتها على رؤوس قريش، ومضى إلى الكعبة وأعلن بأعلى صوته إنه يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله، فقامت قريش إليه وطرحوه يضربونه حتى استنقذه منهم العباس وذكّرهم أن قبيلة غفار على طريقهم في التجارة.

إن أبا ذر تعلم الصدق والحق حتى نال شهادة أن ليس تحت أديم السماء من هو أصدق منه لهجة، وشهد له الرسول بذلك، وقال عنه أنه يعيش وحده ويموت وحده ويبعث يوم القيامة أمة وحده. نعم إن أبا ذر حقق نبوءة رسول الله فيه، فقد عاش وحده حين بدأت المودة في القربى تداخل الرشد في الحكم. كان أبو ذر يذكر الحاكم بمن قبله في أن مودته لم تكن على القربى، فكان يرد عليه أنه إذا كان هو قطع رحمه لله فأنا أصل رحمي لله. إن أبا ذر الذي نور الله بصيرته لم يكن ليسكت على هذا، وكان عليه أن يعيش الوحدة في إنكار ما يراه منكرا والجهر بما يراه حقا حتى نفي من الشام حيث كان رابطا، ونفي من المدينة ومات في منفاه. إن إنكاره على عثمان وأقرانه لم يكن مثل إنكار من ثأروا على عثمان وقتلوه. إن القتل لم يكن أسلوب التغيير في بدء الدعوة كما كان بلال وآل ياسر وعبد الرحمن بن عوف الذين شهدوا شهادة الحق وكفوا أيديهم وأقاموا الصلاة وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر، حتى جاءهم نصر الله والفتح من غير أن يقتلوا شخصا واحدا.

إذا كانت السنة أو القانون تتدعم بالأمثلة فإن الأمثلة تستنبط منها القوانين، ونجد نماذج عميقة واضحة لفهم الإسلام ونشوئه في نموذجي بلال وأبي ذر. فبلال رضي الله عنه كان مثالا فاقعا في تحرير الإنسان بالإسلام حيث كان وهو الرجل الغريب عن مكة وليس له فيها أهل ولا عشيرة يختار موقعه ويمارس حريته. لم يقل بلال ماذا يعنيني نزاع أهل مكة وأنا شخص طارئ فاقد الحرية يبيعني الناس ويشترونني ولا قوة لي ولا مال، وإنما فهم شأن رسالة الإسلام وهو يملك أن يشهد بما يراه حقا، وهذا ما كان يتعلمه المسلم حين يشهد لله بالوحدانية ولمحمد بالرسالة ويصدق ويلتزم أركان الإسلام. كان يؤخذ من المسلم العهد على أن يقول بالحق ولا يخاف في ذلك لومة لائم، فإن ما كان يقوم به أي مسلم جديد هو أن يشهد للحق ويقول به ولا يخاف لومة لائم. إن التوحيد والأحدية دخلت أعماق بلال، ودخلت أبا ذر. لقد فهم كلاهما أن أكرم الناس عند الله أتقاهم ولا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى، وأن الناس لا يتفاضلون بالأنساب والألوان، وهذا الذي أكد عليه رسول الله في حجة الوداع، وهو يودع المسلمين. هذا هو بالذات ما كان فهمه بلال من الإسلام، إنه آمن به هو أما الآخرون فليس من شأنه أن يبالي بهم، قبلوا هذا أو رفضوه. هذا نموذج بلال الذي اخترقه سحر محمد حسب رأي قريش. ولكن الإسلام هو الذي اخترق بلال وحوله من إنسان يملكه رجل من أهل مكة إلى إنسان يملكه رب العالمين، فلا يبالي بملكية الناس لأنه صار مملوكا للخالق الأعظم رب العالمين. يمكنهم أن يعذبوه ولكن لا يمكنهم أن يجعلوه يكتم شهادة الله وأن يكتم الحق الذي أنار جوانحه، تماما كما حصل مع أبي ذر أيضا، الذي رفض أن يكتم الحق عندما بدأ المسلمون يفقدون الرشد. إن هذا الالتزام هو الذي نسخه المسلمون. إن تغيير معتقدات الناس ونشر الإيمان لا يكون بالقتل وبالإكراه. فهذا الذي التزمه المسلمون، لا لضعفهم، وإنما للتغيير الذي حدث في إنشاء المجتمع والالتزام

به والامتناع عن ممارسة شريعة الغاب، شريعة المجتمع الجاهلي. إن مجتمع الرشد لا يمكن إنشاؤه بعقيدة مجتمع الغي والبغي والإكراه، ومن لم يصدق هذا فلينظر إلى التاريخ. هل الثورات الدموية جاءت بمجتمع الرشد ومجتمع اللاإكراه. إذا كان الذين من قبلنا لم يشاهدوا حدثا تاريخيا في أسلوب إنشاء مجتمع الرشد بالرشد، والحكم الشرعي بالأسلوب الشرعي، فما عذرنا نحن الذين نعرف التاريخ. لقد أوّلنا أن ما حدث في بداية ونشأة الإسلام واستعمال الأسلوب الشرعي كان ناشئا عن ضعف المسلمين. هذا التفسير لكف اليد الذي حدث والصبر على الأذى في الدعوة هو الذي سبب الخراب إلى يومنا هذا في العالم الإسلامي. إن الذين لم يتبين لهم هذا الالتزام الصارم باللاإكراه وبالرشد والإقناع أضاعوا الرشد. إن هذا الاختلاط، أي اختلاط الدنس بالمقدس في العالم الإسلامي هو الذي يحرم المسلمين اليوم من أن يقبلوا الديمقراطية التي ساق التاريخ الناس إلى اتباعها في هذا العصر. إن المسلمين يعجزون عن فهم مغزى الديمقراطية. فكما شوه المسلمون السعي الأول في الإسلام للطاهر المقدس والرشد والتزام سبيل الرشاد فهم يشوهون الآن معنى الديمقراطية. لقد علم الرسول (ص) أتباعه أنهم لا يحمون أنفسهم حتى يصنعوا مجتمع الرشد الذي لا يحمي الفرد فيه بالدفاع عن نفسه، وإنما المجتمع يحميه ويحمي عقيدته، وماله ودمه ما لم يمارس المحرمين عند الأنبياء جميعا (القتل والتهجير لأجل الأفكار)، فكل من مارس هذا فهو مجتمع شريعة الغاب، ومجتمع مضاد للأنبياء جميعا. قال آزر لابنه إبراهيم، "لئن لم تنته لأرجمنك واهجرني مليا"، وأصحاب الكهف قالوا عن قومهم، "إنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم ويعيدوكم في ملتهم ولن تفلحوا إذن أبدا". هذه هي ملة الأنبياء وتلك ملة معارضيهم. هذه هي ملة إبراهيم الأواه الحليم وملة آزر الذي يهدد بالرجم والتهجير. هاتان الكلمتان، "القتل" و"التهجير" للمخالف في الرأي مبثوثتان في القرآن. وإذا وجد مجتمع الرشد عليه أن يكف المجتمع الجاهلي الذي يقتل ويهجر الناس لأفكارهم، لتحرير الناس من القتل والتهجير. هذان العملان هما المنكران في القرآن بصرف النظر عن دين وأفكار المجتمع. فمجتمع الرشد هو الذي يحمي عقائد الناس وبهذه الحماية يترك أمر الأفكار لقانون التاريخ ببقاء النافع في الأرض وانتشاره وذهاب الأفكار الغثة. فحسب القرآن، الزبد يذهب جفاء وغثاءا، أي تموت الأفكار الخاطئة موتا طبيعيا، ولا يجب أن نحرص على قتلها.

هل لكم قدرة يا مسلمون على تفهم هذا الموضوع؟ يا مسلمون لا تخطئوا. إن المشكلة ليست في غياب الحاكم الراشد، ولكن المشكلة هي في غياب الأمة الراشدة. كان على بن أبي طالب راشدا، ولكن الأمة كانت فقدت الرشد فخذلته واغتالته.

يا أبا ذر لا تزال وحيدا في فهمك للإسلام وستظل وحيدا حتى يفهم المسلمون قانون المجتمع الراشد.

111. بلال نموذجا

ماذا كان يقصد بلال بن رباح، العبد الحبشي المملوك الذي يباع ويشترى في مكة حين كان يقول: أحد! أحد! وهو يعذب من قبل قريش لأنه صبأ إلى دين محمد؟

لقد فشل المسلمون في فهم بلال بن رباح وصبره على تعذيب قريش، وفسروا هذا الصبر على أنه ضعف. وفسروا كل قصص صبر المعذبين في مكة كنتيجة لهوان المسلمين وقلتهم، وهذا يشوه أقدس ما في الإنسان إلى أسوأ ما يمكن أن يكون عليه الإنسان. الإنسان أكرم ما خلقه الله (ولقد كرمنا بني آدم) للإمكانات التي عند هذا الإنسان، وللقانون الذي يحكم هذا الإنسان. وقصة بلال تعطينا المثال وتبين سنة وقانون الإنسان الذي يعطي على الإقناع ما لا يعطي على الإكراه. فبلال بن رباح نموذج للإنسان الذي أعطى بالإقناع نفسه وماله ولكن كسب إنسانيته ولم يزيف ذاته ولم يسفه نفسه "ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه". بلال كشف نفسه ولم يسفها، بينما المسلمون سفهوا قصته ومسخوها عندما فسروا صبره ضعفا.

أريد أن أزيل التزييف الذي لحق بقصة بلال وقصة آل ياسر وقصة محمد وقصة الأنبياء جميعا، الذين قال الله لنا أنهم قالوا: "ولنصبرن على ما آذيتمونا". أريد أن أرفع التشويه الذي لحق بقصة بلال وإخوانه وآل ياسر من أنهم لم يدافعوا عن أنفسهم لكونهم ضعاف لا قوة لهم في المقامة. إن هذا

من أعظم التشويه، ويظهر هؤلاء الصابرين أن لا قدرة لهم على الشجاعة المعرفية. وسبب هذا أن المسلمين ربطوا الشجاعة بالغي والإكراه. فعندما خسروا الرشاد تقبلوا منظومة الغي وفسروا كل تاريخهم وتراثهم حسب قيم الغي والقوة، ودخلوا إلى مذهب الخوارج بدون شعور منهم، يجيزون تغيير الحكم وصنعه بالإكراه. ولقد حبست منظومة الإكراه هذه تفكير المسلمين، وفقدوا القدرة على الخروج من الإكراه والبغي إلى الإقناع والرشد. ولذلك فقد فشلوا حتى في فهم قوة الإقناع التي جعلت من بلال أقوى متحد للشرك، وأصبحوا يظنون أن استخراج أفضل ما في الإنسان يكون بإكراهه، تماما كما كان أهل قريش يفعلون مع بلال، إلا أني أعلن أن الذي آمن بهذه الطريقة لتغيير عقول الناس قد خرج من الدين الذي لا إكراه فيه ودخل في الغي والبغي. أريد أن أنبه وأفتح ثقبا على تفسير المسلمين التقليدي لموقف بلال بأنه كان ناشئا عن ضعف المسلمين وافتقارهم للقوة.

إن ثقافتنا التي دخلت البغي من قرون طويلة فسرت القرآن والحدث وسيرة رسول الرسول من خلال هذه المنظومة، وحذفت المواقف الراشدة، لأنها قبلت رهان الغي والبغي. وهذه الثقافة كتبت بعد أن فقد المسلمون الرشد وتكيفوا مع الغي، ولهذا سهل عليهم أن يفسروا أعظم ما أتانا من السيرة بالضعف والعجز، وسهل عليهم أن يعظموا لحظات الزلة والعودة إلى الغي. وهكذا جاءت تفاسير المسلمين بإخفاء قوة الإقناع، بل وجعلوها مستبعدا إلى درجة لم تعد لنا قدرة لأن نتصور غير الضعف في اختيار المسلمين لعدم الدفاع عن أنفسهم. لقد فهمنا قوة بلال الداخلية على أنها عجز بينما بلال بن رباح ضرب المثل الأعلى في حريته لأحرار العالم إلى يوم الدين. لقد مارس بلال الحرية الفكرية ولم يطلب من قريش أن يعطوها له. لم ينتظر بلال حريته من قريش في أن يختار ما يشاء من عقيدة، وإنما قال وشهد بأن ما جاء به محمد هو الحق وأن ما عليه قريش باطل، وأنه لن يكتم هذه الحقيقة والشهادة. تمسك بلال بعقيدته ورفض الدفاع عن نفسه، وكأنه يقول لقريش: يمكن أن تعذبوني، وتقتلوني، ولكن لا يمكنكم أن تجعلوني أشهد زورا في الشيء الذي أشهد أنه باطل بأنه حق. لقد أرانا بلال كيف تكون الحرية. لقد أرانا أن الحرية لا تُعطى، وإنما تمُارس ويتحمل الإنسان كل تبعات عصيانه اللاعنفي. فبلال مارس حريته وتمسك بها بقوة بدون أن يمد يده على أحد. وهو عندما تحرر فكريا عرف أنه لا توجد قوة في الأرض تستطيع تغييره بالإكراه. إن هذا نموذج جديد في الكفاح.

ألا أيها الشباب المسلم، اكشفوا هذه الأمور في تاريخنا. لقد آن الأوان للتخلص من الخضوع للقوة والإكراه. إن بلالا لم يدافع عن نفسه، ولكنه دافع عن عقيدته بأعظم ما يمكن أن يدافع الإنسان عن إنسانيته. لقد دافع بلال عن عقيدته بأن تمسك بإنسانيته، لأن عقيدته أقنعته بإنسانيته.

إن بلالا لم يكن خائفا ولا جبانا ولا ضعيفا، بل كان قويا يحسده أمية بن خلف وأبو جهل على قوته واستعلائه عليهم. كان بلال يشعر بالعلو وهو يعَذب، ومعذبوه يشعرون بالذل والهوان. كيف يتمرد عليهم هذا العبد؟ من أين يستمد طاقته على الصبر؟

وأريد أن أختم مقالتي لهذا الأسبوع بما رواه ابن عباس من أنه عبد الرحمن بن عوف وأصحاب له أتوا الرسول (ص) بمكة فقالوا يا نبي الله: كنا في عزة ونحن مشركون فلما آمنا صرنا أذلة. قال الرسول (ص): إني أمرت بالعفو فلا تقاتلوا القوم.

ماذا نقول عن موقف عبد الرحمن بن عوف؟ هل كان عدم دفاعه عن نفسه ناشئا عن ضعفه؟ أم أن الرسول كان يعلمهم موقفا استراتيجيا مختلف النوعية في ضرورة تحييد عالم الأفكار عن عالم الأجساد: لا إكراه في الدين، لا إكراه في الأفكار، لا إكراه في السياسة، لا إكراه في الرأي، لا إكراه في المذهب. يجب أن نفكر مليا بآية "لا إكراه في الدين". فإذا كان الله تعالى يقول لنا: "لا إكراه في الدين"، ففي أي شيء نتجرأ أن يكون لنا إكراه فيه؟

كثير من المسلمين لا يفهمون الحروب التي قام بها الرسول. وقد تختلط عليهم الأمور ويقولون أن الرسول مارس الإكراه في سبيل تثبيت الدين. ولكن الرسول صنع مجتمع اللاإكراه باللاإكراه. ويجب أن يبدأ المسلمون في فهم ما فعله الرسول (ص)، فهو كان يحارب بعد أن صنع مجتمعا شرعيا بالإقناع لإزالة الإكراه. فالرسول (ص) لم يعد ويكرر تجربة قريش، ولم يرد أن يعيد تكوين مدينة يعذب فيها الناس لعقيدتهم، كما كانت قريش تفعل مع بلال.

إن مجتمعا يأتي بالإكراه لا يزيل الإكراه، وإن لم تتمكنوا من فهم هذا فانظرا إلى التاريخ كله، بما فيه تاريخ المسلمين. هل أمكن لأحد من المسلمين بعد الراشدين بصنع مجتمع اللاإكراه؟ هل تمكن أحد من إعادة الرشد بالإكراه؟ أليس كل الذين أرادوا أن يصنعوا مجتمع الرشد بالإكراه باءوا بالفشل الذريع؟

لقد عظم المسلمون الإكراه وساروا في طريق الغي، وآخر حلقات هذا الطريق ما حدث في السودان والانقلاب الذي اعتمدوا فيه على العسكر والإكراه. انظروا ماذا حل بهم، وكيف تكررت الدوامة من جديد، وكيف جاء العسكر مرة أخرى في جنح الظلام وقلبوا الأمور بالإكراه. انظروا إلى الباكستان وانقلابهم. انظروا إلى الجزائر ودمائها. انظروا إلى كل خراب الغي الذي يحيط بنا باسم إعادة الرشد. فهل يتمكن الشباب من فهم هذا ويكفوا عن الإكراه، ويفهموا بأن مجتمع الرشد لا يأتي بالإكراه؟ هل يمكنهم أن يروا النموذج في بلال؟

112. انقلابات في الظلام

إذا قامت مجموعة من العسكر بتدبير انقلاب في الليل ونجحوا، ألغوا الدستور والبرلمان أو مجلس الشورى وتحولوا إلى آلهة مع شروق الشمس. وإذا لم تنجح، أُعتبروا خونة الخونة وصدر عليهم حكم الإعدام في الصباح التالي.

إن مجتمعا يحدث فيه مثل هذا لا أعتبره شرعيا أو معقولا أو إنسانيا. انظروا إلى الباكستان، البلد الذي قدم ملايين القتلى والمهجرين لينشئوا دولة إسلامية. انظروا إلى الانقلاب القميء الذي حدث فيه. إنه يشعرنا بالخجل، فهو انقلاب شبيه بقنبلتهم السخيفة. هل علينا أن نسكت ونشهد أن هذا عالم إنساني، فضلا عن أن يكون عالما إسلاميا؟

يروى عن الرسول (ص) أنه قال وهو يتحدث عن الدجال أنه إذا خرج وأنا فيكم فأنا حجيجه وإن خرج فيكم بعدي فكل حجيج نفسه. فأنا حجيج نفسي إذا الدجل في العالم الإسلامي والعالم الإنساني. إذا كان مفروضا علينا أن نشهد لمثل هذه الانقلابات بأنها الإسلام والكرامة الآدمية، فأنت كفرد مسلم يجب أن ترفض هذا، وتنجو بنفسك. فإن شهد الآخرون لا تشهد معهم. كن حجيج نفسك، لأنه يجب أن نكون قوامين لله شهداء بالقسط ولو على أنفسنا. وإذا كتمنا أن هذا ليس هو دين الله الذي سيظهره على الدين كله فسيبقى كتابه مهجورا. أما آن لنا أن نخرج من هذا؟

تكتب فاطمة المرنيسي، عالمة الاجتماع المغربية، نقلا عن هشام جعيط: "أشعر بأنني ذليل لانتمائي إلى دولة بلا أفق ولا طموح، لا علم ولا عقل، يقمعني زعماء جهلة معدومي الثقافة. إني أعيش حالة عصاب".

إن لم نخرج من كل تصوراتنا الخاطئة للعالم وبنائه ونعدل من تصورنا لله والكون الذي خلقه على سنن لن تجد لها تبديلا ولن تجد لها تحويلا سنظل نعيش هذا الذل. فتصورات المجتمع وعقائده هي التي تحكمه وتحدد مصيره، ولذلك لن يغير الله أوضاع هذه المجتمعات حتى تغير هذه المجتمعات ما بأنفسها. "ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم".

إن عملية التغيير لا تكون بكتم العلم وكتم سنن الله. لن نتمكن من نشر العلم إلا إذا خرجنا من ملة المستكبرين والمستضعفين. وجوار المستكبرين والمستضعفين في القرآن واضح. يقول الله "ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين. قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين. وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أندادا وأسروا الندامة لما رأوا العذاب... هل يجزون إلا ما كانوا يعملون". وهكذا نجد أن القرآن يضع فصيلتي الاستكبار والاستضعاف في طائفة واحدة، وإن كانتا تبدوان في الظاهر أنهما ملتين. فالمستكبر يخاف أن يفقد استكباره والمستضعف يتمنى أن يصير في مكان المستكبر. أي أن منظومة فكرية واحدة تحكم هذه الملة بطرفيها. وهذا ما يحصل في الانقلابات: تبادل غير

شرعي للسلطة من أطراف غير شرعية. وفي الواقع إن رصيد الانقلابيين هو استعداد الناس لقبول الذين يقومون بالانقلابات كمخلصين. والذين يقومون بالانقلابات يكررون الخطأ ويرسخونه. ونحن إذا فهمنا وخرجنا من ملة الاستكبار والاستضعاف المدانتين عند الله نكون خرجنا من خدعة الانقلابات. وفي الوقت الذي لا نظهر قبولنا للمغامرين وطرقهم الفجة سيتوقفون عن محاولات اصطياد السلطة في أنصاف الليالي المظلمة.

لماذا نعيش ونحن نكبت في أنفسنا إنسانية الآخر؟

لم يعد بإمكاننا تأييد الانقلابات واتباع ملة المستكبرين والمستضعفين. يجب أن نخرج من كليهما معا. سيتبرأ يوم القيامة المتبعون عن أتباعهم. "إذا تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرؤوا منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم". إن مثل هذه الآيات ترينا اختلاف المنهج القرآني في التعامل مع الظلم. فرغم أن الناس يبرئون المستضعفين إلا أن هناك الكثير في القرآن في لوم المستضعفين وأنه لن يقبل منهم يوم القيامة أن يقولوا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا. هذا المنهج القرآني يركز على مسؤولية الإنسان الفردية. "لقد جئتمونا فرادا كما خلقناكم أول مرة". "وكلهم آتيه يوم القيامة فردى". إن حساب الله في الدنيا على أساس المجتمع. "واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة"، لأن حظ الفرد مرتبط بمجتمعه في الدنيا، ولكن الحساب الأخروي حساب فردي: "ولا تزر وازرة وزر أخرى".

تحمي الثقافات نفسها، حسب الدراسات الحديثة، بعمي العيون والقلوب بطريقة تمنع الناس من الحديث عن المشكلات العميقة. إني أشعر أن الله يدعمني بقوة علمية وعالمية عندما لا أشهد للزور الذي يعيشه العالم الإسلامي والإنساني الذين لا يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون. يا أيها الناس! هل علي من حرج أن أمتنع عن شهادة الزور؟

اللهم إني أشهدك وأشهد ملائكتك وحملة عرشك والصالحين من عبادك أني لا أشهد الزور لمن يقومون بالغدر. وأنا كل همي أن أبين أن طريق الله ليس هو هذا الطريق، طريق المستكبرين الذين يخافون أن يفقدوا استكبارهم وطريق المستضعفين الذين يتمنون أن يصيروا مكان المستكبرين. فمن لم يصدق فليرجع إلى التاريخ وسنن الذين خلوا من قبلنا في تاريخنا الذي لن تجد فيه من أعاد الرشد وأخرج الناس من الغي. لقد فقد المسلمون الرشد في ليلة مظلمة وجهلوا كيف يعيدوها لقرون طويلة. لا يعرف المسلمون كيف يأتي الرشد، ولا يعرفون أن الرشد هو الشرعي الذي يأتي بطريق شرعي إقناعي تنويري. لم يفهم المسلمون نموذج الرسول محمد (ص) بعد، ويرون ما بناه منة إلهية خارج سنن وقوانين التاريخ. إن إخراج الناس من ظلمات الغي والبغي المتتابع والمتوالي إلى نور العلم والحل الميسر القليل التكاليف الكثير النتائج هو ما قام به الرسول من غير أن يقوم بانقلاب عسكري. فالرسول (ص) ظل صابرا على تحدي القوة بالعقل والعلم والدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة وبالجدال بالتي هي أحسن وبكف اليد وإقامة الصلاة حتى استقبله أهل المدينة، ليس بالجنود والعساكر وإنما فتيات المدينة ينشدن طلع البدر علينا. وسيظل هذا الحدث، الذي لا قدرة لنا على تفهمه وتحليله وإظهاره نورا مبينا وسراجا وهاجا وسنكتشفه رغما عنا بعد أن نشعر أن كل طريق غير هذا الطريق هو خطأ شروره أكثر بكثير من منافعه الموهومة.

وكما لم نفهم سيرة الرسول (ص) كذلك لم نفهم أن الديمقراطية لن تحل ديار قوم يمكنهم أن يتقبلوا من يأتي إليهم بانقلاب في ليلة ظلماء.

يذكر عالم الاجتماع بوردو الفرنسي في كتابه عن (العقلانية العملية) أن المسؤول الأساسي عن بناء المقولات الرسمية التي تهدف إلى الامتنان المنطقي والأخلاقي هو اتفاق حول منظومة إدراك العالم وبناءه. ويقول بأن هذا الاتفاق هو المسؤول الأساسي بلا ريب وهو حجر الزاوية.

وأنا كفرد مسلم أشعر أني مسؤول أمام رب العالمين بحسب المنظومة الإدراكية للعالم الذي خلقه. وحسب ما أفهم من القرآن وحسب ما يعرض من تصور للنبوات فإني أشعر بالمسؤولية الخاصة. وأنا حجيج نفسي في أن أخرج من الزيف.

إن الانقلاب يوطن الخطأ سواء كان أحمرا أم أبيضا، لأنه طريق يعتمد على قوة الإكراه. كله فساد وشرك. والتوحيد هو الإيمان بقوة الإقناع وقانون الله بأن الزبد سيذهب جفاء وأن ما ينفع الناس سيمكث في الأرض. إنهم يرونه بعيدا ونراه قريبا. لقد جاءت أشراطها وبدأ يظهر أن العنف ما كان في شيء إلا شانه.

113. أحبوا أعداءكم

حين يمرض أحد نحبه نتفانى في بذل كل الرفق والرعاية، ويبقى حبنا للمريض بينما نكره مرضه ونحاول كل ما يمكننا لإزالته عنه. فالمرض الجسدي لا يزحزح مشاعرنا، بل يزيدنا حبا للمريض الذي يعاني أمامنا، ونزيد خدمة له. كذلك ينبغي أن نحب المريض فكريا بينما نكره أفكاره. نحن نجد أن محبة المريض جسديا ممكنة ومعقولة وواجبة علينا، ولكننا لا نفهم كيف نقوم بمحبة المريض فكريا. فهذا صعب بدرجات ولكنه ليس مستحيل الفهم. ينبغي أن نحب المريض فكريا، ونكره أفكاره. وينبغي أن نبذل كل الجهد لإزالة مرضه الفكري. علينا أن نتمكن من فهم هذا حتى نتمكن من فهم الأنبياء، لأنهم هم الذين تمكنوا من رؤية الإنسان منفصلا عن مرضه، ولم يختلط عليهم الإنسان بالمرض فيكرهوا الإنسان.

عنوان المقالة هذا الأسبوع جملة من الإنجيل من موعظة الجبل التي يقول فيها عيسى عليه السلام لحواريه: "سمعتم أنه قيل للقدماء لا تقتل... وسمعتم أنه قيل تحب قريبك وتبغض عدوك، أما أنا فأقول لكم أحبوا أعداءكم وباركوا لاعنيكم وأحسنوا إلى مبغضيكم... فإن الله يشرق شمسه على الأشرار والصالحين ويمطر على الأبرار والظالمين لأنه إن أحببتم الذين يحبونكم فأي أجر لكم... أليس العشارون أيضا يفعلون ذلك... فكونوا أنتم كاملين كما أن الذي في السموات هو كامل..."

كثير من الناس يظنون أن هذه الموعظة غير منطقية، ولا يمكن أن يستقيم عليها أمر الناس اليوم. ولعله من هنا قالت كل الأقوام لكل الرسل أنهم مجانين، "كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون". ومعظم الناس يظن أن الإحسان إلى المسيء يزيده علوا وعتوا وسوءا. كيف نفهم الإحسان؟ كيف ندرك أنه ليس مناقضا للعقل والمنطق؟ وكيف نرتفع لنعرف أن هذا هو الصواب؟

سنضطر أن نتحول إلى الإحسان الذي يهمله الناس. وسنتحول إلى هذا الذي قال عنه عيسى عليه السلام "الحجر الذي رفضه البناءون صار حجر الزاوية". والفكرة التي يستهزأ الناس بها الآن ستصير الفكرة المقدسة، ولكن لا يصل إليها ولا يرتفع إلى مستواها إلا الصابرون على رؤية العواقب.

والمسلمون اليوم لما يسمعوا مثل هذه المواعظ لا يمكنهم أن يتصوروا أن يكون في الإسلام مثل هذه التعاليم، ولا يتذكرون قول الله: "ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم". كنت أقرأ مثنوي جلال الدين الرومي ووجدت أنه يقول: إذا أردت أن تعرف الفرق بين موسى ومحمد اقرأ قوله تعالى عن دعاء موسى "رب اشرح لي صدري" وقول الله لمحمد "ألم نشرح لك صدرك". لما قرأت ما قاله جلال الدين الرومي في هذه المقارنة خطر لي أيضا قول عيسى في الإنجيل "أحبوا أعداءكم" وقول الله في القرآن عن أصحاب الرسول (ص): "ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم". فإذا كان عيسى عليه السلام يطلب من أصحابه أن يتحولوا إلى حب أعدائهم فإن الله يقول لأصحاب محمد: "ها أنتم أولاء تحبونهم"، أي أن أصحاب محمد قد حققوا هذا الحب.

والموضوع ليس مفاخرة ومقارنة، فالأنبياء كلهم جاؤوا ليحولوا الناس بالعلم والفهم إلى الحب، ولكن هذه الاختلافات تؤشر إلى تطور البشرية. ومن هنا كان الرسول (ص) يقول: رحم الله أخي موسى فإنه أوذي أكثر من هذا فصبر. ولما جاء أصحاب الرسول (ص) يشكون إليه ما يلقونه من أذى قريش، قال لهم: إن من كان قبلكم من كشط لحمه عن عظمه بأمشاط من حديد، ولم يكن ذلك يرده عن دينه. إن وسائل التعذيب قد تتطور، ولكن أخبار

التعذيب والقتل صارت مقززة أكثر في هذا العصر. والبشرية في سعي حثيث لتحويل التعذيب إلى منكر. وهو يتحول إلى شيء لا يصبر عليه الذين يسمعون عنه من دون أن يبذلوا جهودا لرفع العنت عن الناس.

جاء الأنبياء ليغيروا الناس بالعلم والفهم لا بالخوارق والمغالطات، ونحن يمكن أن نفهم على أساس السنن والقوانين والعلم ما فهمه الأقدمون على أساس الخوارق. وعلينا أن نفهم أيضا الحب على أساس قوانين وسنن لا على أنه أمر إلهي خارق يأتي بدون أن يكون لنا دخل فيه، ويذهب دون أن تكون لنا سيطرة عليه. الحب هو مصلحة وتبادل خدمات، ولا يوجد "أحبني مجانا" ولا "أحبني غصبا". فحيث تكون مصلحتك يميل قلبك ويتولد الحب. وأعظم الحب بين الزوجين حيث المصالح المتبادلة، ويكون الحب قويا ويستمر حين يكون بالعدل والإحسان. وجميع العلاقات البشرية تنجح عندما يتبادل الجميع المصالح ويربح الكل، ولكن حين يدخل الخداع والغش في العلاقات بين الناس يدخل الفساد إليها ويموت الحب، بل وتظهر العداوة والبغضاء. وهذا قانون الله في الزمان الغابر. فمن يوم بدأ الناس بالاختصاص في الأعمال يتبادلون المصالح والمنتجات والسلع، بدأ مفهوم الربح المتبادل والخدمات المتبادلة. والبشر ابتكروا النقود المعدنية لتسهيل هذا التبادل، ولكن العواطف التي تنتج عن التبادل هي نوع من العملة أيضا. وإذا فهم الناس قيمة هذه العملة فيمكنهم أن يزيلوا الظلم ويحكموا بالعدل والإحسان.

أيها القارئ العزيز الكريم، ابذل معي جهدا لفهم هذا ورؤية إمكانية شفاء الناس من أمراضهم الفكرية حتى نخرج من الذين يكرهون الإنسان المريض فكريا. إن الجهل هو المرض، والعلم هو الصحة الفكرية. علينا أن نطلب العلم في الصحة الفكرية كما نطلبه في الصحة الجسدية. وعند ذلك سندخل عالما مختلفا كليا، عالم القلب السليم، عالم النفوس التي لا تحمل ضغينة ولا حقدا ولا كراهية لأحد، عالم الذين لا يحملون الناس على ما يكرهون. علينا أن نسارع في الدخول إلى هذا العالم الجديد الذي بشر به الأنبياء، وبدا الآن أنه صار يمكن فهمه علميا وفق آيات الآفاق والأنفس. علينا أن نتحدث في هذا وأن نزيد من معارفنا ونزيل أفكارنا الخاطئة. كل الناس في حاجة للحب والرفق، والخطوة الأولى إلى ذلك هو التعاون مع كل الناس على البر والتقوى، وأن لا نتعاون معهم على الخطأ. هذه مرحلة مهمة وطريق الأخوة العالمية أيضا للسلام والعدل والإحسان.

الناس ينتظرون من الآخرين أن يقدموا لهم الحب، فلنكن السباقين. أليس في رئيس فنزويلا الذي زار العراق متحديا العالم وأمريكا عبرة لكم يا عرب، يا مسلمون، يا مستضعفوا الأرض في العالم؟

"رب اشرح لي صدري واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي".

114. ألا بذكر الله تطمئن القلوب

إن الرعد مرعب ولكن الذي يعرف سننه يشعر بالأمن والطمأنينة. إي أنه كلما ازدادت معرفتنا عن شيء نقص خوفنا منه وازددنا اطمئنانا. إذن فنحن عندما نعلم سنة الله في خلقه، سنفهم كيف سخر الله للإنسان ما في السموات وما في الأرض جميعا منه إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون. إن طاقة الكهرباء كانت مبثوثة في الكون، يراها الإنسان في صورة الرعد المرعب المدمر، ولكن الإنسان تمكن من تسخير هذه الطاقة المدمرة، بل وأصبحت عصب الحياة العصرية. فجميع أعمالنا الآن متوقفة على هذه الطاقة، ونشعر بالضياع عندما ينقطع التيار عنا. إن دخول هذا التسخير إلى حياتنا شيء يستدعي التوقف. وأنا أكرر في كتاباتي من ذكر مثال الكهرباء، لأنه يظهر لنا إمكانيات الإنسان في تسخير الكون. فقد قضى الإنسان الآلاف من السنين معتمدا على النار، ومنذ قرن فقط تمكن الإنسان من كشف طاقة الكهرباء المبثوثة في الكون. فالإنسان رفع من قوة عضلاته عندما بدأ باستعمال عضلات الحيوانات، ثم اخترع العجلة، والمحرك البخاري، ولكن الإنسان الآن يرفع بطاقة الرعد قوة عقله، حيث صنع الآلات التي تخزن

المعلومات التي تعد بالملايين والبلايين وتقدمها بسرعة لا يمكن لعقل الإنسان الذي أبدع هذه الآلات أن يستحضرها بهذا الشكل. وبواسطة هذه الأجهزة الحديثة أبصر الإنسان الخفايا في السماء والأرض.

يقول الله تعالى: "اذكروا نعمة الله عليكم" مرات كثيرة في القرآن، ويقول: "اذكر نعمتي عليك"، ويقول: "واذكر أخا عاد" إشارة إلى أحداث التاريخ، "كذلك نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك". وهذا ليعلمنا أن تذكر أحداث التاريخ، وسنة الذين خلوا من قبل تثبت القلوب وتطمئن القلوب.

لا يمكن أن يكون للكون معنى بدون معرفة الإبداع الذي يخشع له عقل الإنسان كلما تعمق في فهم سنن الكون. ومع زيادة العلم يشعر الإنسان بالخشوع ويدرك معنى الحق ومغزى الوجود ويشعر بمعنى العلو ورفع الدرجات. "إنما يخشى الله من عباده العلماء". إن الروح التي نفخها الله في الإنسان هي ما يمكن الإنسان من فهم نظام الكون وعظيم إبداعه. والله الذي أوجد الكون وأوجد هذا الكائن القادر على الفهم أعطاه إمكانية التسخير أيضا.

فالإنسان كان يعيش في ظلام الكهف، ويعيش الآن مع طاقة الكهرباء. هذه رحلة قطعها الإنسان في تسخير سنن الكون المادية، ولكن رحلة الإنسان لم تنته بعد، وسيتمكن أيضا من توسيع التسخير إلى مجالات أخرى.

كان الإنسان ضعيفا واستطاع، بما نفخ الله فيه من روحه، أن يكشف سنن الله في هذا الكون، وتعلم الزراعة، واستأنس الحيوان، وسخر الطاقات المبثوثة في الكون، ومن ثم سخر الإنسان البرق والرعد بعد أن كانت الصواعق تبث الرعب في القلوب وتصيب من تشاء وتخطف الأبصار وتدمر وتحرق. وتمكن الإنسان بما أعطي من قدرة الفهم والتسخير بأن يمسك هذا البرق المارد، فأنزله بأمن وأمان إلى الأرض بدون أن يدمر، ووصل إلى تعبئته في بطارية يعيد استخدامها. لقد أمسك الإنسان بهذه الطاقة وسخرها بمعرفة قوانينها وسننها. ويتمتع الإنسان الآن بنعم كثيرة بعد أن تمكن من كشف سنن تسخير المادة، واستفاد أيضا من فهمه لسنن نظام الجسد الحي وتخلص من كثير من الأمراض. كان الناس يموتون بأنواع الوباء المختلفة وبأعداد كبيرة، ولا يعرفون كيف جاء الوباء ولا كيف ذهب. فكشف الإنسان أسباب الأمراض، ورأى الكائنات الدقيقة التي كانت تسبب هذه الأمراض، فقضى على كثير منها، وارتاح الناس من الآلام وأطال الأعمار. وكل هذه التغيرات في طريقها إلى التسارع، ليسخر الإنسان أكثر وأكثر وليرتاح من الجوع والألم.

أنا أتحدث عن إنجازات الإنسان المادية لشيء آخر، وهو أن الإنسان في طريقه أيضا إلى نوع مختلف من التسخير، غير التسخير المادي. فالإنسان سيتعافى من مرض آخر غير مرض الجوع والأجساد. فكما تعرف الإنسان على سنن إنتاج الغذاء وسنن المحافظة على صحة جسد الإنسان، سيكشف أيضا سنن صحة عقله وقلبه ونفسه. والله تعالى عندما يتحدث في القرآن عن مرض القلب لا يقصد المرض الجسدي والعضوي الذي يصيب القلب ويقضي على الناس بغتة، وإنما يقصد مرض الفهم، ومرض العقائد والتصورات التي نتمسك بها عن الكون والإنسان. فنحن نعيش في عصر تُنفق فيه الأموال الطائلة ويستنفر العلماء لكشف أمراض القلب الجسدية، بينما ما زلنا نعيش في جهل أمراض القلب العقائدية. نحن نؤمن بالله ولكننا لا نعرف الله. وما عندنا من تصورات عن الله خاطئة. يقول الله في هذا: "يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية". ويقول "ذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرادكم فأصبحتم من الخاسرين". ونفتري على الله الكذب من غير أن نشعر، ونصد عن سبيل الله، لأننا لا نعرف سننه في نفس الإنسان.

حين نعرف سنن الله في الوجود المادي تزداد قلوبنا اطمئنانا، فبعد أن عرفنا سنة طاقة الكهرباء اطمأنت قلوبنا ووضعنا صورة الجمجمة للتحذير من التوتر العالي. والإنسان الذي يجهل سنن هذه الطاقة ويقترب منها ستصعقه، أو سيؤدي جهله إلى إتلاف الآلة وإشعال الحرائق والتسبب بالحوادث والأذية. ولهذا يتفنن الناس في وضع مقاييس أمان أعلى وأعلى تحول دون تحول النعمة إلى نقمة. وكما تصعق الطاقة الكهربائية من يجهل سننها،

سنصاب بالدمار والخراب حين نجهل سنن التعامل مع الإنسان. فالنفس الإنسانية طاقة لا توجد مثلها طاقة إن سخرت، وجهل سنن النفس الإنسانية يؤدي إلى تدسيتها بتدل تزكيتها. "ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار جهنم يصلونها وبئس القرار".

قصدي في كل ما أكتب أن نكشف سنن النفس الإنسانية وطاقاتها وكيفية التعامل معها. ولأجل هذا بعث الله الرسل وأنزل الكتب وقدم العظات وأمر بالنظر إلى العواقب. وكل همي حاليا هو توضيح هذا، وإذا كنت عاجزا عن تفصيل الموضوع، فأريد أن أقرب إمكانية فهمه، وخاصة للشباب الإسلامي المتحرق والمحترق والذي ينطح الجدار. أريد أن يدرك الشباب أن هذا الكون كله، بما فيه الإنسان، مسخر له، يقول له كن فيكون.

آه! لقد فرغت من المقالة وأنا أبحث في المقدمات. ما أريد أن أقول ليس هجرا وإنما هو النبأ العظيم واليقظة الكبرى والسلام الأكبر. فحين نعرف أن الكون مسخر لنا بما فيه الإنسان سوف لن يبقى في قلوبنا غل لأحد من البشر. فهل يكون في قلبنا غل للكهرباء إذا أصبنا منها بضرر حين نكون نحن الذين أخطأنا في سنن التعامل مع هذه الطاقة؟ كذلك الإنسان يتحول إلى طاقة خلاقة بناءة حين نعرف سنن التعامل معه. وهذا ما جاء به الأنبياء، ولكننا ما زلنا نعجز عن فهمه وكشفه. ما زلنا نعيش حالة الرعد والرعب على المستوى الإنساني وتصعقنا الحروب والخلافات ونشقى تحت وطأة الجهل، بينما القرآن يوحي لنا بغير ذلك: "طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى". حين نفهم سنن الله وندرك أن الكون كله مسخر لنا سندخل عالما آخر، عالم "القلب السليم" الذي سيعطينا طمأنينة القلوب. "ألا بذكر ذلك تطمئن القلوب".

115. بدأ موعد التحول الكبير

لقد كانت مفاجأة تشرح صدور الناس عندما قامت المحكمة الدستورية المصرية بإدانة أساليب الانحراف وإدانة القوانين التي لا تساعد على تحقيق إرادة الناس في التمثيل. وهذا يعيد إلى نفوس الناس الثقة في المثقفين في أن تكون لهم الكلمة واللغة التي تمثل العدالة والمعرفة. ويشير هذا التوجه إلى ارتفاع في احترام إرادة الإنسان الفرد وحقه في المشاركة في صنع القرار. وهذا التوجه نتيجة لحضور الوعي العام في نفوس الناس. ينبغي أن يحدث هذا بوعي، وينبغي أن نبارك التحول إلى الأساليب الشرعية النقية لتحقيق الأهداف الكبيرة. وعلى كل الذين يحترمون الإنسان أن يستقبلوا هذا التوجه بخشوع وأمل، لأن هذا سيكون له دوره الكبير في العالم العربي الذي ينتظر يقظة المثقف.

إن العالم العربي يمر بمرحلة تغييرية كبيرة ولكن بدون وعي وشعور. وبدأ هذا التغير في الربع الأخير من القرن الماضي. وبشكل عام فإن التحول في التوجه السياسي بدأ في العالم جميعا منذ بدأت الأسلحة النارية تتطور بسرعة كبيرة. هذا النظر الجديد تسرب إلى النفوس وبدأ العنف يبدو قبيحا ومنفرا ومجردا من أي كسب. وبدأ هذا النظر يتغلغل في أعماق النفوس في المنطقة العربية نتيجة الأحداث التي مرت بنا في الربع الأخير من القرن الماضي. فالعنف اللبناني الذي استمر أكثر من عقد ونصف كان بلاء عظيما أكل الأخضر واليابس بأشنع الطرق. وهذا الوباء العنيف اشتعل في الجزائر واستمر خلال العقد الأخير كله من القرن الماضي ولا يزال مشتعلا، لم يتخلص من لهيبه بعد. إن مشاهدة الناس لهذه الأحداث بالوسائل المرئية والسمعية خلقت آثارا معينة في النفوس الناس، بحيث تغلغلت في الأعماق. وقبل ذلك كانت حرب العراق وإيران، استمرت ثماني سنوات عجاف لم تبق أيضا على خضراء أو صفراء، لهيب أتى على النفوس والأموال، وامتدت آثاره خارج المتحاربين، فجلل القتام فرحة الناس بالثورة الإيرانية وبهت الناس ولم يعرفوا كيف سيفسرون ما يرون. ولم تعقب هذه الحرب من فائدة لأحد من المشاركين والمشاهدين –إلا لمموليها– واشمئز جميع الأطراف مما حدث وتمنوا أن ينسوا هذه المآسي وأن لا يتكرر مثل هذا الدمار الشامل مرة أخرى. ثم كانت الطامة الكبرى والزلزال الذي أذهل كل مرضعة عما أرضعت في الحرب الخليجية الثانية التي أتت بصاعقة احتلال الكويت فأشعلت المنطقة واشترك العالم جميعا فيها. كانت هذه مأساة عظيمة من أحداث التاريخ البشري الكبرى في الفضيحة. وهذه لم تكن عذابا أليما فقط، بل كانت عذابا مهينا في القبح والفظاعة بما جرت من هوان إلى الآن. ولم

يقدر الناس على بحثها وتحليلها، وعجزنا نحن العرب جميعا عن تجاوزها وتلافيها، ولم يتمكن أحد ممن شارك فيها من التخلص من مآسيها بعد، بل ولم يتمكن أحد من أن يمارس النقد الذاتي أو التوبة بالمصطلح الديني. وكان المثقف من أولى الناس بالمبادرة إلى النقد الذاتي والتوبة من كل ما حدث قبل كل أحد، حيث أن كل العجز عن التكيف مع العالم الذي تغير كان نتيجة عجز المثقف (أستاذ الجامعة والجامع). فهذه الأحداث من غرس يدي المثقف وكسب لسانه. ومن هنا كان الإعلان الذي ولد كالجنين في حرب 1967 م في أن الهزيمة أكبر من أن يتحملها طرف واحد. فقد كانت هذه هزيمة الثقافة والمناخ الفكري.

والآن في هذا الزمن نرى في الظلمات بصيص الأمل عندما نجد أن العنف صار قبيحا في نفوس الناس، وهذه الأرضية بدأت تتكون وتترسخ، ويمكن أن تنبت البدائل والحلول. إن العنف والقتل والحرب باتوا لا يجلبون الإعجاب والسعادة. وقد تأخذ ولادة البدائل بعض الوقت، ولن تنبت هذه البدائل ما دام هناك حنين إلى العنف والبطولات والنزاعات الدموية. حقا، إن أي حل داخل قطر عربي أو بين قطر وآخر بالعنف بات قبيحا ومؤذيا ومحيرا، وبدأت ملامح التوجهات الجديدة لتفادي العنف والدماء، وهناك أمثلة مشجعة تترسخ يوما بعد يوم. وحين تتراجع لغة العنف والحرب ستبدأ لغة العقل والحوار وعند ذلك ستنسحب من الساحة مشاعر الهيمنة والعلو والاستكبار وقصص البطولات الكاذبة والنظرات القصيرة. وسيبدأ العرب التحول إلى التصرفات الراشدة، لأن الكبر والاستكبار يفسد العلاقات. إن سكوت لغة العنف يولد لغة العقل، بدل عنجهيات عبادة الذات الفانية، ويولد لغة التواضع بدل لغة التعالي. علينا أن نستبشر بكل تقدم في هذا المجال.

إن التغيرات التي تحدث في العالم العربي تشير إلى وجهة جديدة. وسيكون للإنسان العربي دوره في عصر التغيير بالنضج وتحكيم المعرفة. وهذه ستكون ظاهرة جديرة بالتقدير لأنها ستحول العرب من الشرود إلى الرشاد، فكما أن عصر الديمقراطية نتيجة لإجماع عام بنبذ العنف –وإن حدث هذا من غير إعلان– فإن أساس ولب وجوهر الديمقراطية هو الخروج من العنف من كل الفرقاء، ليتحاكموا إلى الناس بإقناعهم لا بإكراههم. وهذا سيولد في العالم العربي كله عقد اجتماعي صامت ولكنه سيكون راسخا، وسيؤدي إلى انتقال من لغة الإكراه إلى لغة العقل والإقناع والرشد والرشاد. وسيعود الرشد مرة أخرى بأزكى وأزهى مما كان من قبل. لقد ولدت الديمقراطية في العالم الإسلامي لأول مرة في الانتخابات الإيرانية. عاد الرشد من جديد. وإن ما يحدث في إيران لعبرة وتطور في تاريخ المسلمين. وتحسين العلاقات المصرية الإيرانية ضرورة، وكل الأحداث تشير إلى ضرورة الدخول إلى عالم حل المشكلات من دون أن يخسر أحد شيئا ويربح الجميع كما يحدث في أوربا.

هذه الأفكار ولدت منذ زمن بعيد كشعور إنساني في نفوس بعض القلائل من الأفراد. وكان (إرازموس) يدرك هذه الأمور في تحليله للإصلاح الديني، وكذلك دخلت هذه الأفكار في وعي الفيلسوف الألماني (كانت) حين عرف الثورة بأنها ليست بالأشخاص الذين قاموا بالثورة، وإنما الثورة هي إيمان الناس بضرورة تغيير الأوضاع. أي أن الشعور ينزل على الناس قبل أن يكون له اسم، وقبل أن يحدث له وضوح، ويتسرب سرا ولا شعوريا في نفوس الناس. وهذا اللاشعور هو الذي انتبه إليه ابن خلدون وسماه داءا دويا لا يفطن إليه إلا آحاد الناس، لأنه يتكون ببطء وبدون شعور. وهكذا نجد اليوم تغير في النظر يتسرب إلى نفوس العرب، تغير في النظر إلى الأحداث ونفور من كل الطرق القديمة في معالجة المشكلات.

ويتسرب هذا الشعور إلى العالم الإسلامي كله، وعلينا أن نكون المبشرين والمستبشرين بهذا الذي يتقدم إلينا دون أن نشعر به. علينا أن نكون واعيين ومدركين بكل الوضوح لنعيد الثقة في نفوس الناس، ويومئذ سيفرح العرب قاطبة، والمسلمون كلهم، والمستضعفين في الأرض، لنتخلص من الفساد وسفك الدماء نهائيا، تحقيقا لعلم الله في الإنسان.

116. كيف بدأ الخلق

هناك تصورات ومسلمات تترسخ وتتحكم في سير الإنسان. هذه التصورات تكون في البدء هشة غير راسخة ثم تثبت ببطء من خلال الزمن وينساها المرء، ولا يتذكرها، ولكنها تتحكم بقوة في سلوك الإنسان.

والمسلمات الراسخة عند أي إنسان يمكن أن تكون نتيجة أفكار خاطئة. وهذه تجعل مسيرة الإنسان في مشقة وتودي به هذه الأفكار إلى خسارة ومردود قليل. ويحدث هذا بشكل غير واع، بل وتكون قدرة التخلص من الأخطاء واكتساب التصورات الصحيحة صعبة. ويأخذ التحرر من الخطأ وقتا طويلا وجهدا كبيرا، وأحيانا تؤدي المسلمات الخاطئة إلى خسائر جسيمة قبل أن يتمكن الإنسان من التخلص منها.

وعندما تكون المسلمات الراسخة مبنية على أفكار صحيحة، فإنها تعطي الإنسان سلطانا وتزوده بالحلول اليسيرة غير المكلفة، وتأتي في النهاية بعواقب جيدة.

ولا يمكن أن يكون للإنسان تصورات صحيحة بدون أن يكون عنده وضوح في كيفية سير التاريخ. ولا يمكن أن يفهم الإنسان الوجود بدون أن يفهم حركة التاريخ. وحركة التاريخ هي أن نعرف كيف بدأ الخلق. كيف كان وكيف صار وكيف يمكن أن يصير. ويمكن أن نرى حركة التاريخ في الوجود كله، في الوجود المادي ثم في الوجود العضوي، ثم في ولادة الحياة الفكرية (القدرة الإنسانية على التسخير). فالكون المادي نشأ من الهيدروجين، أول عناصر المادة التي منها تتكون بقية العناصر مع الضغط والحرارة. كان الناس يجهلون تركيب الكون المادي إلى وقت قريب، حين كانوا يظنون أن عناصر الكون هي التراب والماء والهواء والنار. وفي القرون القليلة الماضية، وبالأخص في القرن الماضي زاد علم الإنسان بالوجود المادي للكون، وزاد علمه بكيف بدأت الحياة. لذلك يمكن أن نقول إن معرفة "كيف بدأ الخلق" ترينا كيف بدأ الخلق بسيطا متجانسا، وكيف تطور هذا الخلق البسيط المتجانس من نوعية واحدة إلى تنوع ونمو، وكيف أدى هذا إلى ظهور خلق جديد. لقد فهم الإنسان أن الحياة العضوية بدأت وتطورت إلى أن وجد الإنسان. وفهم الإنسان أيضا كيف بدأ ضعيفا مطاردا من الحيوانات، قليل الحيلة أمام قوى الطبيعة من حوله ثم بدأ بالتسخير وبدأ بفهم الكون من حوله.

إن تصورا أوليا لكيف بدأ الخلق، وكيف نمى، وكيف لا يزال ينمو يعطي تصورا إيجابيا وتفاؤلا وأملا. وخفاء هذا التصور ينتج تصورا سلبيا وتشاؤما ويأسا معقدا. ومن هنا نستطيع أن نقول إن معرفة كيف بدأ الخلق نقطة أساسية، لأنها تعطي تصورا إيجابيا عن سير الوجود وتطوره. فهذا التصور التاريخي ربما يبدو بسيطا، لكنه يحدد اتجاه الإنسان وسلوكه. فعلى قدر وضوح هذا تتفتح أمام الإنسان آفاق وتصير لديه فعالية وعلى قدر خفائها وغموضها يقع الإنسان فريسة الحصار النفسي والعجز السلوكي. إن الإنسان، الخلق الآخر المكرم، أودعت فيه قدرة الفهم في ارتباط الأسباب بالنتائج، وهذه القدرة تعطيه إمكانية التسخير والإبداع والمساهمة في صنع الأفضل.

إن معرفة كيف بدأ الخلق تعني فهم تسلسل الخلق من المادة الميتة إلى الوجود الحي، ثم إلى المفكر القادر. لقد عرفنا كيف بدأت الحياة من الطحالب، ثم كيف وصل الإنسان الأول الذي لم يكن يعلم كيف يزرع ولا كيف يتعامل مع الحيوان، وكيف تجاوز هذا وتعلم تسخير الأرض والحيوان والمادة. إن إبداع مبدع الوجود انتهى إلى الإنسان الذي صار له سلطان بالقدرة المعرفية. ولكن مع كل الذي حققه الإنسان فإن الإمكانات المودعة فيه لا تزال في بدئها، كما كانت العناصر المختلفة كامنة في العنصر الأول، وكما كانت الحياة كامنة في الكائنات الحية الأولى. فقدرة الإنسان المعرفية في زيادة مستمرة، لأن الذي يعرف كيف بدأ الخلق، يدرك أن الخلق هو الاستمرار في النمو، وإلا فإن التوقف يعني الموت. وهذا النمو وإن كان بطيئا فيما سبق إلا أنه بدأ يتسارع. لقد كانت قدرة الإنسان المعرفية بسيطة، ولكنها هي أيضا تراكمت ونمت وتعقدت. عندما يعرف الإنسان نظام الكون القابل للتسخير تصير عنده قدرة معرفية إيجابية، حيث يدرك أنه قادر على القيام بالوظيفة التسخيرية للكون المادي في مظاهر الطاقة، والكون الحياتي في معرفة

قوانين سلامة الجسد من الأمراض. وهذه القدرة التسخيرية تزداد، وتتسارع أيضا مع الوقت. ومن هنا نصنع تصورا جديدا لكيف بدأ الخلق عندما ندخل عنصر الزمن الذي يجري خلاله الخلق المستمر.

وهذا المعرفة تحدث عندنا تصورا مختلفا للكون، فلا نراه أنه شيء بطيء ممل يدعو إلى اليأس والحيرة. فالتصور الخاطئ عن الكون ونظامه يدعو إلى اليأس، الذي هو الكفر، لأنه بالجهل والخفاء والظلام يحل اليأس والتشاؤم "إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون". فالكافر هو الذي خفي عليه كيف بدأ الخلق، فأدى به إلى الخمول أو الإنفجار اليائس المنتحر، ليتخلص من الضيق والظلام. فمن هنا نعلم كيف يلتقي الجهل بالخفاء والظلام، وكيف يلتقي العلم بكيف بدأ الخلق بالوضوح والنور والعدل والسواء.

يقول الله "الذين يقطعون ما أمر الله به أن يوصل"، لأن في الكون سنن وقوانين متصلة متدرجة. فالانقطاع يقطع تسلسل المعرفة وانقطاع المعرفة يؤدي إلى الضياع والخواء والتيه. إن التائه يفقد التوازن كأن الريح تهوي به في مكان سحيق. ولهذا فإن الإنقاذ من التيه بالمعرفة يعيد التوازن إلى الإنسان. فالذي يعرف أين هو وكيف كان وكيف سيصير يحدث عنده نور وبيان وطمأنينة.

لقد أدى تراكم المعرفة إلا أن يسير الإنسان في الأرض ويبحث كيف بدأ الخلق، وللأسف لم يفهم المسلمون معنى آية "سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق"، ولا ساروا في الأرض ودرسوا بداية الخلق. فمعرفة كيف بدأ الخلق تعلم الإنسان السنن والقوانين التي تتحكم في الوجود، وإذا عرف الإنسان قوانين الوجود صارت له القدرة على أن يتحرك على بينة. وكلما ترسخت هذه المعرفة تحصن الإنسان ضد أمراض الجهل والحيرة والظلام واليأس، وبل والكفر أيضا، لأن الكفر غطاء وحجاب وخفاء وعدم وضوح. والإيمان يكشف الكفر ويزيل غطاء الغموض والجهل. ولهذا كان الخروج من الجهل خروجا من الجاهلية ودخولا إلى العلم، كان دخولا إلى السننية والقوانين التسخيرية.

كانت ولادة العقل البشري هي الميلاد الأكبر حين استخلف الله آدم، حامل هذه الإمكانية في يوم مشهود عندما لم يكن أحد ليتمكن من فهم القدرات الكامنة في هذا الخلق. وربما نستطيع الآن أن نفهم رد الله على الملائكة، "إني أعلم ملا تعلمون"، وإن لم يتمكن الإنسان بعد من تقدير مكانته بهذه القدرة المعرفية، وكيف أنه سيخرج من الظلمات إلى النور، وكيف أنه سيخرج من الفساد. سيخرج من محاولة الخداع والأنانية وسيكشف الجهالات التي يتمرغ فيها، وسيخرج من توقعات الملائكة إلى علم الله فيه.

وبمجرد أن نعرف هذه المعارف الأولية بوضوح واتصال، سنخرج نحن العرب المستضعفين من الذل والهوان والظلام واليأس من إصلاح أحوالنا. يا أيها الناس إن الغربيين كانوا قوما مثلنا وأسوأ منا، ولكنهم فهموا أنه بالعلم وإدراك السنن يستطيعون حل المشكلات، بدون قذارة سفك الدماء.

لقد أعطي الإنسان عقلا واعتبارا وقدرة لمعرفة كيف بدأ الخلق ليزكي نفسه. ألا من كانت له أذنان للسمع فليسمع. إن من يطلب المعرفة، ويزيدها ويوصلها سيخرج من الظلمات إلى النور، وهذا النور سيتحقق ولو كره الكافرون الذين لم يتبين لهم كيف بدأ الخلق.

117. يأبى الله إلا أن يتم نوره

كان البحر الأبيض المتوسط بمثابة بحيرة رومانية من الشمال والجنوب قبل ألفي عام. هكذا كان التاريخ. كانت هناك إمبراطوريات واسعة، وكانت القوات المسلحة هي التي تفتح البلاد، وكان الناس فيها طبقات من السادة والعبيد.

إن الأدوات والوسائل التي كانت تصنع مثل هذه الإمبراطوريات مختلفة نوعيا عما تحولت إليه البشرية الآن. والمفاهيم المسيطرة على الأوربيين تغيرت كثيرا. ونحن نشهد الآن تغير مفاهيمهم وظهور وحدة دولية في نفس المنطقة التي خرج منها الرومان. وهذه الوحدة الأوربية الجديدة مختلفة كليا عن كل ما عهدته أوربا، لأنها غير مفروضة من دولة فاتحة. فأوربة قامت بحربين عالميتين في النصف الأول من القرن الماضي ووصل الألمان في الحرب العالمية الثانية إلى روسيا وإلى غربي أفريقيا، ولكن لم يكن لينتج عن هذه الحروب توحيد أوربا فتحا بالقوة كما حاول ذلك أيضا نابليون فرنسا قبل قرنين من الزمان. لقد تغير العصر وتغيرت أدواته. مات نابليون منفيا ومات الألماني هتلر منتحرا مدحورا. كانت هناك مفاهيم معينة تسيطر على الناس، ولكن تغيرت هذه المفاهيم وبدأ الأوربيون يتكيفون مع عصرهم ويستعملون أدوات جديدة للتعامل فيما بينهم. وهكذا نرى الآن الألمان والفرنسيين العدوين اللدودين يتحدان بدون حرب وبدون انتصارات عسكرية وبدون أن تكون ألمانيا فوق الجميع –كما كان في نشيدها الوطني– إن الذين يخططون لهذه الوحدة منذ نصف قرن يتقدمون بخطى ثابتة وتخطيط دقيق.

فالأوربيون يتحدون الآن على كلمة السواء وعلى المساواة، وفق الآية التي بعثها رسول الله إلى العالم المعاصر له، حين كتب إليهم قوله تعالى: "تعالوا إلى كلمة سواء". أي ليس على أساس مستكبرين ومستضعفين، وإنما على أساس قانون واتفاق على شروط من قبل جميع الأطراف، وأن لا يكون البعض للبعض أربابا. وما نراه في أوربا يعني أيضا أن الزعماء ليس لهم حق اتخاذ القرارات بدون تفويض وموافقة أغلبية الشعوب. وهذا الذي يجعل هذه الوحدة حدثا جديدا في تاريخ البشري قاطبة. فلأول مرة تتحد دول على كلمة السواء. لم يحدث في التاريخ من قبل أن توسع اتحاد بدون فتح وضم عسكري. لم يحدث من قبل أن توحدت دول بموافقة الأطراف جميعا دون ضغط من أحد على أحد. إنه ليس فتحا عسكريا وإنما فتح طوعي. وما يحدث يتم بتبيين الفوائد والمكاسب التي سيكسبها الذي ينضم إليهم. فالبلاد المجاورة تقول، اقبلوني عضوا معكم وسألتزم بكل شروطكم. إن هذا يحدث أمامنا بدون حروب وبدون فتوحات عسكرية. هذا هو الفتح المبين. وهذا النوع من الاتحاد أقرب إلى الإنسانية وإلى ما جاء به الرسل وإلى ما أنزل الله من كتاب. لقد خرجت المجتمعات الغربية من عبادة الطاغوت، ويهيئون أنفسهم لما أمر الله به من العدل فيما بينهم. ما زالوا يطبقون هذا فيما بينهم فقط، ولكن لا شك في أن هذا أفضل بما لا يقارن بما عليه وضعنا نحن العرب والمسلمون.

يستفيد هذا الاتحاد من كل التاريخ البشري ويضيف إليه أشياء جديدة وجديدة جدا. وهذا الحدث يدلنا على التطورات الجديدة ويقف شاهدا على عصرنا. فالأوربيون هم الذين ابتدعوا القوميات التي لا تعترف بإنسانية الأقوام الأخرى. ولكن هؤلاء الذين ولدت عندهم العنصريات الفرعونية، وتعالت في الأرض جاعلة الناس شيعا يذبحون أبناءهم ويستحيون نساؤهم، يتحدون الآن وقد تجاوزوا القوميات فيما بينهم. فهم أكثر من عشر قوميات ولكل قومية لغتها، ومع ذلك يتحدون بحقوق متساوية للنساء والرجال والأقوام. وهذا في طريقه للترسخ، لأنهم يستفيدون من سنن الله في الأقوام ومن سنن الله في تغيير ما بالأنفس.

ونحن يجب أن نستفيد من التاريخ ومن هذا الحدث الجديد. علينا أن نفكر سريعا وباستنفار وأن نقوم بالحديث الدائم المتكرر عن اتحاد عربي اسلامي على أساس كلمة السواء. وعلى المفكرين أن يوقظوا في نفوس الناس الأمل واليقين بأن هذا ممكن وممكن جدا. إن رؤية تسلسل التنوير الذي حدث للإنسان وكيف خرج من الظلمات إلى النور تعطي للإنسان فهما جديدا عن الكون. (الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور). وهذا الفهم مبني على أن خلق الكون لم ينته بعد، وإنما يزيد وينمو وإلى الأفضل دائما، ويحكمه قانون الأنفع الذي يمكث والزبد الذي يذهب جفاءا. ولتصور هذا الكون وكيف يتم فيه نظام سير حركة الحق والباطل أثر كبير في تنوير الإنسان وإخراجه من الظلمات إلى النور، ومن الحيرة والخوف والجبن إلى برد اليقين والبصيرة النافذة والأمل. فهذا الكون يحكمه القانون الإلهي الراسخ كما نجده موضحا في القرآن: "كذلك يضرب الله الحق بالباطل فأما الزبد فيذهب جفاءا وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض".

ونحن لن نفهم ما يحدث في أوربا الآن إن لم نفهم هذا القانون الإلهي الذي يتجلى في آيات الأنفس. هذا حكم الله وينبغي أن نبصره في واقع الخلق – –أي أدلة هذا التصور من الآفاق والأنفس–– لأن العلاقة بين آيات الآفاق والأنفس مع آيات الكتاب علاقة محكمة، وهي التي تعطي التنوير لفهم آيات الكتاب. وفهم آيات الكتاب يعطي قوة زائدة ليزداد الذين أوتوا الكتاب طمأنينة وأمنا وتفاؤلا.

إن الاتحاد الأوربي الذي نراه الآن خطوة تاريخية جديدة لرحلة الإنسان الطويلة. نلتقي مع معظم الناس ونراهم حيارى فاقدين للأمل لا يرون بصيصا من النور الذي يبعث فيهم الحياة. فهؤلاء الحيارى لا يستطيعون أن يتصوروا كيف كان الإنسان عريانا يعيش في الطبيعة قبل أن يبني البيوت ويتعلم الزراعة، وكيف تعلم ببطء شديد التكيف مع الطبيعة وإمكانية الحفاظ على النار أو إعادة إيقادها، وزرع البذور والاستفادة من ثمارها. هذه أيضا أحداث كبيرة. وفهمها لها يعلمنا كيف يمكن للإنسان أن يتجاوز المشكلات الحالية كما تجاوز المشكلات الماضية.

وبقدر الجهد الذي نبذله في توعية الناس سنخرج من الفساد في الأرض وسفك الدماء. يجب أن نكثر من الحديث عن هذه المواضيع التي لا يتحدث عنها الناس. إن تقديم وصف صادق ودقيق للمشكلات التي عانى منها الإنسان بأمثلة قريبة ومبسطة تبهج نفسية الإنسان، لأنه يكتشف قانون الزيادة في الخلق، ويكتشف إمكانية حل المشكلات وتقليل المعاناة. فاكتشاف الزراعة كان حدثا كبيرا في تاريخ البشرية، وبها توسعت حياة الإنسان فبنى القرى وبدأ التخصص في الأعمال يزيد من مهاراته ويتقن أدواته. والإنسانية الآن تزيد من نمو الإنسان وقدرته على حل المشكلات والحكم بالمساواة، لأن الاكتشافات تبدأ من الأفراد ولكن تعم الناس ويتفهمون صنعها وشروطها. والحدث الأوربي إكتشاف إنساني في قارة معينة ولكنه بذرة كامنة لكل البشرية كأي اكتشاف نافع. لقد وضعت الوحدة الأوربية أساسا جديدا وعلينا أن نسير في الأرض ونستفيد من سنن الذين خلوا من قبلنا لنخرج من الظلمات التي نحن فيها. صحيح أن الأوربيين لم يوحدوا العالم، ولكنهم يضعون أسسا جديدة يمكن أن يتحد على أساسها العالم. وهذه الأسس مبنية على كلمة السواء وعلى أن لا يكون هناك مستكبر ومستضعف. يجب توضيح هذه الأمور وهذا ما سندأب عليه، وكل يوم نزداد إيمانا ويقينا أن علم الله في الإنسان سيتم، وعندئذ ستنفتح أبواب لا نهائية من الآمال المشرقة التي تبعث الحياة في النفوس.

118. لو كان الدين بالعقل

إننا في العالم الإسلامي نقوم بالمواعظ الجليلة في تقديس العلم ومدح العلم وتعظيمه واحترامه، ونسوق الآيات والأحاديث والحكم والأشعار في رفع شأن العلم، ونرفع أصواتنا ونحن نردد "الإسلام دين العلم والعقل"، ثم بعد ذلك وفي الوقت نفسه تجدنا ندين العلم ونحتقره ونستبعد العلم والعقل وننبذهما وكأنهما عدوان للدين والإيمان وينبغي أن نتخلى عنهما حتى نكون مؤمنين. بل ويساق الكلام لنفي العقلانية عن الدين، فيقال مثلا: لو كان الدين بالعقل لكان مسح الخف أولى من أعلى الخف.

هكذا بكل بساطة نفصل العقل عن الدين. وهذا الخلط يراد به إغلاق باب الفهم والتفكر وملاحظة العواقب، وبهذا الأسلوب السهل ننفي العقل ونزيحه، لأن بعض الناس يتمسك بشريعة الله لإسكات الناس وإغلاق عقولهم بينما يقولون نحن نريد شريعة الله. نعم، نريد جميعا طاعة الله وقبول شريعته ولكن علينا أن نعلم من غير تردد أن شريعة الله لا تنافي العقل والعلم.

بعض الناس لا يرى جانبا عقليا في الأمور العبادية. ولكن الأمور التي لا يراها البعض كأمور عقلانية قد يكون لها جانبها العقلي العميق. فالأمور العبادية أمور رمزية تحمل معاني مختلفة وتؤدي وظائف مختلفة وإن كنا ظاهريا لا ندرك هذا. ولكل أمة شعائرها وطقوسها كما لكل دولة أعلامها المختلفة وعملاتها المختلفة. ولكل أمة مناسكها، "وجعلنا لكل أمة منسكا". وتكون الأمور العبادية والمناسك بالاتباع لأنها رموز تأسست في تاريخ كل ثقافة، "صلوا كما رأيتموني أصلي"، "وخذوا عني مناسككم".

إن حياة الإنسان رموز واللغات التي يتحدث بها رموز، ولا يمكن أن يتفاهم الناس بدون هذه الرموز التي قد تبدو غير عقلية. ولكن الرموز العبادية نوع من اللغة المحتومة على كل ثقافة، "كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم"، وقد يختلف شكل العبادات الدينية، والطقوس الثقافية من أمة إلى أخرى، ولكن الدراسات الحديثة في علم الاجتماع والأنثربولوجيا كشفت دقة وارتباط هذه الأمور بخلق التجانس الثقافي والوحدة الروحية بين أفراد الأمة.

في مقال سابق، حاولت أن أضع بعض الملاحظات عن الإيمان والإسلام والشريعة. وكنت أريد توضيح الفرق بين أركان الإيمان والإسلام وبين الشريعة. فالأركان من إيمان بالله واليوم الآخر والرسل والكتب والشهادة بوحدانية الله والصلاة والزكاة والصوم والحج أمور عقائدية وعبادية، وأساس العقيدة بالإقناع وأساس العبادات بالإتباع كما وضحت. أما الشريعة فهي المعاملات بين الناس وأساسها العدل. "وإذا حكمتم بين الناس فاحكموا بالعدل". وإذا تنازعنا في تحديد ما هو العدل، فيجب أن نأخذ برأي الجمهور، وأهل الذكر والاستنباط، وأهل الاختصاص. وعلينا أن نعلم من غير تردد أن شريعة الله هي العدل بين الناس، ولكن بما أن تفاصيل العدل بين الناس تختلف من زمن إلى زمن فيجب علينا الرجوع إلى أهل الذكر. وأهل الذكر قد يختلفون فيما بينهم أيضا. ولكن حين تتعدد الآراء يجب أن نأخذ برأي جمهور أهل الذكر فيما يبقى لأصحاب الآراء المختلفة الحق في الدعوة إلى وجهات نظرهم. ولكن في النظام الصحيح لا تصير هذه الدعاوي نافذة إلا إذا قبل بها جمهور أهل الذكر. وفي الواقع نحن فقدنا هذا النوع من اتخاذ القرارات وتطبيق الشريعة. ومنذ أن فقد المسلمون الشورى والأخذ برأي الجمهور في اتخاذ القرارات فقد المسلمون الرشد والرشاد أيضا، ولم يعد للعقل والمعقولية مكان في حياتهم، بينما الرسول (ص) لم يتخذ قرار الحرب في غزوة بدر إلا بعد أن أوضح الذين معه موقفهم. ولم يفرض الرسول (ص) على أصحابه قرارا باسم الله، بل كانوا يناقشون الأمور بمعقولية وينزل الرسول على رأيهم. وفي غزوة أحد عارض الأكثرية جعل المعركة في المدينة فتنازل الرسول عن رأيه موافقة لرأي الأغلبية. وهناك مواقف أخرى كثيرة تبين كيف كانت تتم مناقشة الأمور واتخاذ القرارات بالرجوع إلى أهل الذكر والأخذ برأي الجمهور. وبهذه الطريقة نكون سلكنا طريق الرشد.

وما دامت هذه المواضيع مختلطة علينا وتُتخذ القرارات دون موافقة الجمهور ومن دون تقليب وجهات النظر نكون احتكمنا إلى القوة لا إلى الفكر والعلم. فعند الخضوع لرأي معين دون أن يمر بمصفاة أهل الذكر نكون أبعدنا العقل والعدل. وما دام الإنسان يذعن للإكراه والقوة ولا يشهد للفكر ولا للذي يراه صوابا يكون دخل إلى العالم الذي لا منطق فيه ولا عقل. وعند ذلك يتحول الدين والحكم إلى قضايا غير قابلة للتفكير، ويكون ذلك بعزل العقل والعلم والخضوع للقوة. ولكن العلم والعقل اللذين يخضعان للقوة، من غير وسيلة لتقييد القوة بالعلم والعقل، ليسا بعلم ولا بعقل. ويسبب هذا شللا في التفكير ويؤدي إلى الهوان والضياع، لأن ضياع العقل والعلم والسنة ضياع للإنسان. وليس عجيبا أن يكون العالم الإسلامي في ضياع في هذا العصر. إن الهوان والضياع يرجع إلى التخلي عن السمع والبصر. ويكثر القرآن من ذكر وصول الإنسان إلى درجة العجز عن السمع والبصر: "ما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم إذ كانوا يجحدون بآيات الله". حينما يترك الإنسان الرجوع إلى آيات الله ويغلق عقله عن فهم آيات الآفاق والأنفس، يحق عليه القول فيذل ويخزى.

لماذا مشكلة العالم الإسلامي معقدة إلى هذه الدرجة؟ وكيف لا نجد مخرجا من أزمتنا، ولا قدرة لنا على فهم المشكلات؟

إني دائما أحاول أن أحوم حول مشكلتنا، ولكن لا أتمكن جيدا من الإمساك بها. نحن في العالم الإسلامي عظمنا الآباء وعظمنا الأشياء وألغينا آيات الله في الآفاق والأنفس، ونفينا قانون الأشياء المادية، وقانون الوعي الإنساني، ولم نؤمن بسنة الله في الوجود المادي والوجود النفسي، وإمكانية تسخيرهما. نحن عندنا استعداد للتمسك بما ألفينا عليه آباءنا دون الرجوع إلى سنة الله في الآفاق والأنفس. لقد أعطينا القداسة لفهم عصر معين، فألغيت دلالة الكتاب. والكتاب لا يجدي ولا ينفع حين لا يدعم بآيات الآفاق والأنفس. فمن هنا قال الرسول (ص) لزياد بن لبيد ثكلتك أمك يا ابن لبيد، كنت أظنك أفقه أهل المدينة، أوليست هذه اليهود والنصارى وبأيديهما التوراة والإنجيل ولا ينتفعون منهما بشيء.

متى نصير نفهم معنى "لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير"؟ أصابنا الهوان والذل والخذي في هذه الحياة بينما الرسول (ص) قال: ولا يذل من واليت. ويقول الله "وليس له ولي من الذل". هذه الآيات والأحاديث لا معنى لها عندنا لأننا ألغينا آيات الآفاق والأنفس التي تشهد لآيات الكتاب. متى سنتعلم تغيير ما بالأنفس، ومتى نصير نفهم آيات الآفاق والأنفس، ولا نستبعد العقل والعلم من إيماننا؟ إن جوهر الإنسان وما نفخ الله فيه من الروح يعني أن يتسخر له ما في السموات وما في الأرض، والإنسان الذي يسمع ويعقل لا يمكن أن يذل في هذا العالم الذي نعيش فيه الآن، ولا في العالم الآخر الذي لا يخذى فيه أهل السمع والتعقل. "لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير". يبدو أننا لن نفهم ذلك إلا إذا دفعنا أثمانا باهظة من العذاب الأليم. "إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم". "إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين، وإن ربك لهو العزيز الرحيم".

119. بين التصور الخوارقي والتصور السنني

في نهاية الثلاثينات من القرن الماضي، كنت طفلا أستمع لأحاديث الكبار، وأتذكر أنني سمعت عمي الذي كان طالب علم شرعي يقول إنه في آخر الزمان ستتعطل الأسلحة النارية وستعود الأمور كما كانت من قبل، وسيعود القتال بالسيوف والرماح. وأتذكر أنه كان يقول: "عندها سينتصر المسلمون على أعدائهم!"

من أين جاء هذا التصور للعالم وكيف نفسر هذا التصور الساذج ومتى وأين تكونت هذه الفكرة؟

كان ذلك في آخر الثلاثينات من القرن الماضي، حين كان الفرنسيون يستعمرون جغرافية سوريا الحالية. ولفهم هذا التصور لا بد من التمييز الذي ألح عليه كثيرا في كتاباتي بين الخارق والسنني، أي بين التفكير الذي يعتمد على الخوارق والخرافة والتفكير الذي يعتمد على القانون والسنة الكونية. فقد كان الخارق في زمن قبل أن يصير للعلم السنني تصور واضح. يقول محمد إقبال إن الإسلام وإن كان نشأ في عصر ما قبل العلم إلا أنه بشّر بعصر العلم. وأنا أفهم هذا من خلال القرآن الذي عرض الخارق والسنني بشكل واضح. ونحن ينبغي أن نلح على السنني ونستوضحه لأننا ما زلنا مقيدين بالعصور الخوارقية. فالعصور الماضية كانت عصور معجزات وكان الأنبياء يأتون بالخوارق والمعجزات فيؤمن الناس على أساسها. والقرشيون الذين عارضوا الرسول (ص) ذهبوا إلى أهل الكتاب وطلبوا منهم إستيضاحات في هذا الموضوع فذكروا لهم معجزات عيسى وموسى، فجاءوا بذلك وطلبوا من الرسول (ص) معجزات خارقة مثل إزالة الجبال وتفجير الأنهار في الحجاز أو أن يكون معه حرس من الملائكة ونحو ذلك. وسجل القرآن هذا الطلب بوضوح لما قال: "فليأتنا بآية كما أرسل الأولون"، ونقرأ أيضا: "وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون".

حين كنت في أول طلبي للعلم في الأزهر وكنت أقرأ قصة موسى وفرعون وقصة عصى موسى التي وردت بتفصيل في القرآن مثل سؤال الله لموسى في جبل طور، ما تلك بيمينك، وتدريب موسى على التعامل مع الخارق الذي حتى موسى كان يرتعب منه، كنت أقول في نفسي، ولكن محمدا (ص) لم يأت بمثل هذه الخوارق، وإنما جاء بالكتاب، وهذه هي معجزته، وهذا الكتاب معي أنا أيضا مثل ما كان مع محمد (ص) ولم يذهب بوفاة محمد (ص) كما ذهبت عصى موسى أو الميت الذي أحياه عيسى.

إن هذا القرآن لا تنقص عجائبه وهو حجة علمية سننية تنقلنا من الخوارق إلى السننية، وتنقلنا من خوارق الأنبياء السابقين إلى آيات الآفاق والأنفس. فهذا الكتاب قابل للفهم والدرس والاستشهاد على صدق ما فيه بآيات الآفاق. ونعيش في عصر التكنولوجيا (التقنية) والذي يعني تسخير المادة بسننها والتقنية من الإتقان في صنع الشيء، وإن الله يحب من العبد إذا عمل عملا أن يتقنه. هذا في آيات الآفاق، أما آيات الأنفس فهي سنة الأنفس البشرية

وقوانينها التي تحكمها، ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها. والإنسان حوّل، من سنن المادة، وظيفة الخيل والبغال إلى السيارات والطائرات وهناك قابلية خلق ما لا نعلم. وكما كشف الناس الآن ما لم يكن ليعلمه الذين من قبلنا كذلك سيكشف الذين من بعدنا ما لا يمكن أن نعلمه نحن الآن. ونرى هذا أكثر وضوحا في آيات الآفاق، فالعلوم الطبيعية والتكنولوجية تطورت بسرعة كبيرة في العقود القليلة الماضية، أما آيات الأنفس فتأتي متأخرة أكثر لأن قوانينها ذا اتجاهين (التدسية والتزكية) وليست اتجاها واحدا كما في قوانين الآفاق، أي قوانين المادة والذرة والمجرة، "لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار". هذا هو الاتجاه الواحد، أي المادة تسير بقدر محسوب معلوم في قانون ذي اتجاه واحد.

ولكن آيات الأنفس ذو اتجاهين: ألهمها فجورها وتقواها، أي قانون الإنسان فيه الاتجاهين، وعنده استعداد لهذا وهذا. ولكن تحويله إلى التقوى والفجور من وظيفة البشر. ففي مقال سابق كتبت عن قراءة القرآن على وجهين، قراءة إلهية وقراءة بشرية. ويحسن العودة إلى تلك المقالة لأنني وضعت فيها قواعد وقوانين وسنن يمكن التدرب عليها. إن فهم القواعد القرآنية تحل مشكلات كثيرة وتدخل الإنسان إلى عالم آخر، فيخرج من عالم الخوارق إلى عالم العلم والسنن والقوانين. وكان علماء المسلمين يقولون "التزم هذا فإنه ينقذك عند الشبهات" حين يذكرون القواعد والقوانين. ولكن يدلهم الظلام في عصرنا وتلتبس الأمور ويحتار الذي يفقد النور، وثبات سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة تحويلا. فهم الثبات في السنة نسخ للخوارق ودخول إلى عالم الأسباب والمسببات. وثبات السنة واضح في الكون، فإذا أخطأنا نحن بجهلنا فإن السنن لا تخطأ في إحداث العواقب لأفعالنا. وإذا توفرت الشروط جاءت العواقب طبقا للقوانين.

لقد أشار بعض علمائنا على نقل القرآن للإنسان من التصور الخوارقي إلى التصور السنني. فنجد مثلا في القرن الخامس الهجري أن أبا حامد الغزالي أحس بهذا الانتقال وذكر في كتابه، (المنقذ من الضلال)، أن العلم لا يُنسخ بالخوارق، وشرح كيف لو إنسانا قال إن الواحد أكثر من الثلاثة ودليله على ذلك أنه سيقلب العصا حية، لما تغير يقين الغزالي بأن الواحد أقل من الثلاثة، ولكنه سيتعجب كيف قلب العصا حية. هذا الموقف وهذا الفهم يشير إلى خروج من الخوارق وخروج من انفصال الأسباب عن العواقب، فالدليل ينبغي أن يكون ضمن الدعوى لا خارجها.

حين يقول نبي، أنا جئت بنظام للمجتمع من تمسك به يسعد في الدنيا والآخرة، فيكون دليل النبي الحق أن يتحقق المجتمع السعيد عند تطبيق القواعد التي أتى بها والوصايا التي نقلها عن الله، لا أن يقلب العصا حية.

آيات الآفاق والأنفس وعواقب التاريخ غيرت مفهوم الناس عن الله والكون والإنسان، ومن غير أن نفهم هذا لن نخرج من التيه ولن ندخل العصر الحديث على علم وبصيرة. يجب علينا أن نتحول إلى عالمين ومبصرين "قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني".

حين أكتب أنه لن يحدث تغير إلا إذا غيرنا نحن ما بأنفسنا من الإيمان بالخوارق وغيرنا جهلنا بقوانين الله وسننه التي لا تتغير ولا تتبدل ولا تتحول، أجد أقواما يرتعبون من هذا الاتجاه، لأن ما ورثوه هو الخارق. لقد تشربوا عجز الإنسان وعدم قدرته على التسخير وعجزه عن تغيير ما بالأنفس. نعم، بعض الناس يرتعبون ويتصورون أن من يريد أن يفهم آيات الله في الآفاق والأنفس خارج عن الإيمان. لقد تعودوا أن يطلقوا عليه أنه مادي لا يؤمن بالدين. ولكن إلى جانب هذا أجد آخرين يشعرون بالطمأنينة حين يفهمون دينهم على أساس العلم والعقل وليس على أساس الخارق الذي يقمع العقل، وهؤلاء يزدادون مع الزمن، وعليهم أن يجتهدوا ليوسعوا مداركهم ويكونوا على بصيرة في دينهم وليخرجوا من الخوارق والمعجزات إلى التسخير والسننية والعلم بالعاقبة وبالاعتبار بسنن الله في الذين خلوا من قبل، وسيتم نور الله ويظهر دينه الحق على الدين كله، ومن يعرف التاريخ يعرف هذا. والعالم رغما عنه مسوق للاستجابة لسنن الله، لأن عواقب مخالفة سنن الله تنتج من العذابات ما ترغم الناس على الإيمان بآيات الله في الآفاق والأنفس حتى يتبين لهم أنه الحق. فهذا شهادة الله والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط.

120. طاقات الإنسان

إن في الكهرباء مثلا عجيبا لنا. ربما لم نعد نفكر بهذه الطاقة بعد أن أصبحت جزءا من حياتنا اليومية، ولكن الكهرباء شيء جديد نسبيا في حياة الناس وآية من آيات الله الخفية والجلية في آن واحد، وهي ظاهرة شاهدها الإنسان في البرق والرعد بالسمع والبصر قبل أن يعرف تسخيرها. ثم تعرف البشر، الخلق الذي كرمه الله ونفخ فيه من روحه على هذه الظاهرة ببطء. وبعد أن كانت مصدر رعب وفزع تحولت إلى مصدر أمن وطمأنينة وسعادة وتمكن الإنسان من وضع ترتيبات أمن لإزالة أخطارها وجعلها أمنا تاما، فأنزل الصاعقة بأمن وأمان وسخر طاقتها. ووضع الإنسان صورة الجمجمة أو الهيكل العظمي كشعارات للموت على أماكن التوتر العالي تحذيرا من الخطر الذي فيه، لأن أي خطأ في التعامل مع الكهرباء فوري النتائج والعواقب.

وأنا أردت أن أقدم مثل الكهرباء لأن الجهل والخطأ والغي والظلم يؤدي إلى الخوف والقلق وعدم الطمأنينة، بل ويؤدي إلى الاحتراق بالتوتر العالي. وفي المقابل يؤدي العلم والصواب والرشد إلى الأمن والسلام والطمأنينة واليقين. "وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون". ويوصف عيسى عليه السلام بأنه كان يكلمهم بالأمثال ولم يكن يكلمهم بغير أمثال. ومثال الكهرباء يصور لنا كيف يحل العلم المشكلات ويحول الخوف إلى أمن كامل. ونرى أيضا أنه بزيادة العلم يزداد الأمان، لأن الطاقة مضبوطة بسنن لا تتغير ولا تتبدل. فالإنسان يخاف من الشيء الذي يجهله، ويشعر بالأمن مع العلم. ولكن ما يهمنا في مثل الكهرباء هنا هو أن هذه الطاقة كانت صاعقة حارقة للإنسان فذللها وتحولت إلى الخادم الأمين الذي لا يغدر ولا يخون، لأنه يسلك سبل ربه زللا. وهذه الطاقة لا تكذب ولا تغدر ولكن الإنسان هو الذي يخطئ في التعامل معها. ومن أخطأ فلا يلومن إلا نفسه. فالخطأ منا وليس من الطاقة. فلنحمد الله الذي سخر لنا بالسنن الثابتة هذه الطاقة وجعلها زللا لنا ولنلم أنفسنا إذا أخطأنا في التعامل معها. ومن وجد خيرا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه وعلينا أن لا نكتم قوانين الله أو نجهلها. علينا أن نضاعف من وسائل الأمان بنشر المعرفة وعدم كتم العلم، بل جعله مشاعا للجميع وجعل سبله ميسرة للجميع حتى لا يبقى من يجهل فيؤذي نفسه ويؤذي الآخرين.

ويمكن أن يقّرب لنا مثال الكهرباء الطاقة الكبرى والعظمى في الإنسان. فبمعرفة قوانين الطاقة المادية في الكون يستطيع الإنسان تسخيرها وبمعرفة قوانين الطاقة الإنسانية يستطيع توجيه قدرات الإنسان نحو الأفضل. وكل الكون قابل للتحول إلى طاقة بيسر ونظافة وأمن. وهناك يكون الإنسان بدأ بتحقيق ما خلق له، من أن الكون كله مسخر له. والإنسان هو أعظم طاقة وله قانونه الأعلى. هو الطاقة العليا، والكائن الوحيد الذي نفخ الله فيه من روحه، روح العلم والمعرفة والقدرة على التسخير. الكون مُسخَّر (اسم مفعول) والإنسان مُسخِّر (اسم فاعل)، ولكن ميزة الإنسان هي قابليته للسير في طريقين بينما بقية الكون تسير في طريق واحد فقط. فالكهرباء ذات اتجاه واحد، لا قدرة لها على الخيانة أو السير باتجاه آخر. ولكن الإنسان هو الكائن الذي يقدر على الخيانة، والكذب. فالإنسان يقدر أن يصدق وأن يكذب، أن يكون أمينا وأن يكون خائنا. وقدرة الإنسان على المعرفة ستدله على أن حياته لن تصلح إلا إذا صدق، وسيتعلم الإنسان هذا بالعواقب. وسيكتشف الإنسان طاقته كما كشف طاقة المادة والكهرباء. وسيكتشف الإنسان أن أفضل استخدام وتعامل مع الإنسان ليس بتخويفه وإذلاله وإكراهه، بل بإقناعه بالعلم والتعليم، بحيث لا يبقى إنسان لم تتح له وسائل الوصول إلى العلم.

إن قدرتنا على التعامل مع الكهرباء تأخرت إلى القرن المنصرم، بل وحتى لم تتوسع إلى جميع الناس في الأرض بعد. ومعرفتنا بسنن التعامل مع الناس متأخرة أكثر. فنحن لم نلمس قانون الإنسان إلا كاحتمال وتخيل وما زلنا نراها كمثل عليا غير قابلة للتطبيق. ولكن الآلام والعواقب ستفرض على الناس كشف سنن التعامل مع الإنسان. فالإنسان عنده استعداد ليقدم نفسه وماله عند تعليمه وإقناعه وكشف سنن التسخير له. وهذا بدأ يظهر ويمكن أن يفهمه الناس كما أزين لنفسي، وإن لم يصر تحويل الإنسان إلى ذلك سهلا بعد. والسبب يعود إلى التاريخ الطويل الذي عاشه فيه الإنسان في الظلام حيث كان يجهل سنن توفير النور الكهربائي المادي، وسنن نور التعامل الإنساني. فلم يعلم الإنسان أن هذه الطاقة وسيلة لتوفير المعرفة كما نرى الآن في العلوم الجديدة ووسائل الوصول إلى المعرفة في اللحظة التي نريدها. وأنا أفهم أن قوانين التعامل مع الإنسان صعبة وسهلة. فكما كان

الإمساك بالكهرباء صعبا قبل أن يصبح عندنا علم بها، وصارت الآن سهلة، فكذلك توجيه طاقة الإنسان وتحويلها إلى الإيجاب ما يزال صعبا، ولكن بالعلم سيصير سهلا. والقرآن يتحدث عن نفس الإنسان العجيبة، الخلق الآخر، أبدع ما خلق الله تبارك الله أحسن الخالقين. "ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها".

لا بد من كشف سنن تسخير طاقة الإنسان للتقوى ومعرفة سنن ما يلهمها للفجور، لأن كلا من التقوى والفجور في مقدور الإنسان. وليس أحدهما حتمي على الإنسان، لأن الإنسان عنده الإمكانية المزدوجة. ولكن تحويل هذه الإمكانية من وظيفة البشر. فالله قدم الإمكانات ورأس المال والإنسان هو الذي يخلق، وإذا كانت هذه الكلمة صعبة لا حرج أن أستعمل أخرى مثل "يكشف". فالله يقول لنا ويخلق ما لا تعلمون عندما يتحدث عن الخيل والبغال والحمير كوسائل نقل، والإنسان يكشف باستخدام سنن الله من وسائل المواصلات ما لم يخطر في بال. وكذلك سيكشف الإنسان من سنن الله فيه وسائل لتسخير إمكاناته وجعله في أحسن تقويم. ولن يصير الإنسان في أحسن تقويم ما دام يظن أن استخراج أفضل ما عند الإنسان بتخويفه، لأن الإنسان مصنوع أنه لا يعطي بإكراهه إلا أقل ما يمكن. هل يمكن أن نفهم هذا القانون البسيط؟

نحن لا نستطيع أن نرى أو نفهم هذه الطريقة من التعامل مع الإنسان لأننا نظن أن تخويف الإنسان أسهل الطرق للحصول على ما نريده منه. ولكن إذا تعلمنا قانون الله في أن الإنسان بالإحسان إليه –وأعظم الإحسان أن نقدم له المعرفة– يعطي أحسن ما عنده، سيتحول الذي كنا نراه عدوا إلى ولي حميم.

أيها القارئ، إني أحاول أن أقرب إليك البعيد. أريد أن أجعل الذي يراه الناس بعيدا، أريد أن أجعلهم يرونه قريبا، وقريبا جدا، وأقرب من حبل الوريد، لأنه أسهل وأقل كلفة على الذي يسلك هذا الطريق، وأقل كلفة على المعلم وعلى المتعلم. ويجب أن نتذكر دائما أننا لا نستطيع الدخول في الحوار مع الآخرين عندما يكون بياننا قاصرا وتسلسل أفكارنا غير مبين. فهل يستطيع القراء أن يتلمسوا حقا وصدقا وأمنا وإيمانا هذا النوع من التعامل مع الإنسان؟

ربما لم أنته إلى ما أريد توضيحه، ولكن سيأتي الذي ينظف بأحسن من الماء. سيأتي الذي ينظف القلب بالعلم، ويخرج الغل والخوف ليحل الأمن والسلام والطمأنينة. ألا بذكر الله تطمئن القلوب، لأن الله خلق الإنسان والكون على أساس الحق. "ما خلقنا السموات والأرض إلا بالحق". لعلنا نتذكر ولعلنا نتدبر.

121. الوصاية على القاصر

كل المجتمعات لها تقاليدها في رعاية القصر (وأبرز ما يكون ذلك في اليتامى الصغار) حيث يتولى شؤونهم أقرباؤهم أو يعين لهم القاضي من يشرف على إدارة أموالهم إن كان لهم أموال، وكنت ذكرت في مقال سابق قصة القاصر الذي كان يسجل على أموال القاصر نعالا للجمال فلما سأل القاصر: وهل للجمال نعال؟ فقال الولي: إذا صرت تفهم هذا فخذ أموالك وتول رعاية نفسك، وما تملك. وخص القرآن في أول سورة النساء عدم ترك القاصر يبعثر ماله وبشكل أعم عدم ترك السفهاء يبذرون أموالهم لأنها أموال الأمة فقال تعالى: "ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياما وارزقوهم فيها واكسوهم وقولوا معروفا. وابتلوا اليتامى (أي اختبروهم) حتى إذا بلغوا النكاح (أي وصلوا إلى مرحلة البلوغ البيولوجي والنضج) فإن أنستم منهم رشدا فادفعوا إليهم أموالهم ولا تأكلوها إسرافا وبداراً أن يكبروا ومن كان غنيا فليستعفف (كأن يقوم مجانا بالوصاية والرعاية) ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف (بالأجر المناسب) فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم وكفي بالله حسيبا."

وفي هذه الآية نرى قواعد للعلاقات التي يجب أن تراعى في رعاية القصر من الأفراد ولكن هذه القواعد تنطبق أيضا على مستوى جمعي، حيث توجد المجتمعات القاصرة التي لم ترشد، أي لم تبلغ الوعي والقدرة على حل المشكلات. ومثل وصاية اليتيم فإن على المجتمعات الواعية والراشدة أن تساعد المجتمعات القاصرة في بلوغ الرشد وإدراك كيف تجري الأمور في هذا العالم الذي نعيش فيه. وإذا كان يحدث مخالفات من الأفراد في مجتمع معين في رعاية القصر فإن المخالفات فيما بين المجتمعات ورعاية المجتمعات القصر أكبر وأوسع وهذا يحدث في الزمن الذي تقل فيه المعرفة وينتشر الجهل خاصة في الأمم القاصرة، وتنهب الأمم والمجتمعات في أموالها ويستعجل الناهبون ويبادرون في استغلال الجهالة قبل أن يبلغوا الرشد. وأحيانا يتعاون الذين يديرون ويستغلون المجتمعات المحلية مع مديري الشؤون العالمية في نهب الشعوب الجاهلة نهبا مزدوجا. فالشعوب القاصرة منهوبة مرتين، مرة من قبل الأوصياء المحليين، ومرة من قبل الأوصياء العالميين. ويحدث هذا النهب بسرقة المواد الخام، ثروة القاصرين، لأن المواد المصنعة سلعة الأوصياء العالميين. وزيادة على ذلك، فإن المجتمعات القاصرة غارقة في الديون إلى درجة تعجز فيها عن دفع فوائد الديون، فضلا عن رد الديون بعينها.

إن القاصر هو المجتمع الذي لا يعرف التاريخ، غائب عن العالم ولا يعرف ماذا يحدث فيه. والمشكلة في الجهالة والغياب عن العالم ليست فقط في النهب المزدوج ولا النهب عند التبادل والأخذ والعطاء ولا في الديون على القاصرين ولا في أموال القاصرين المودعة في بنوك الأوصياء، وإنما أن ما يبقى بعد كل هذا النهب والهلاك تشترى به أسلحة باهظة التكاليف معدومة الفائدة إلا لمن يبيعها من الأوصياء.

نحن في حاجة إلى حذق في كشف أسباب الحيف الكبير الذي يقع على هؤلاء الفقراء في الفهم والفقراء المعوزون في المعلومات وأخبار تغيرات القرون. ونحن في غيبوبة عن العالم الذي يجدر بنا أن نكون شهداء عليه، لا يفوتنا شيء مما يحدث. ولكن بدل أن نكون كذلك أصبحنا نسعى لتغييب أنفسنا عن العالم. بل إننا أردنا أن نحمي أنفسنا بالتغييب شأن النعامة، هذا الطائر الضخم الذي عجزت أجنحته القاصرة عن التمكن من الطيران فاستبدل بالطيران تغييب نفسه بدفن رأسه في الرمال. إن الشعوب القاصرة تآمر عليها الأقرباء المغفلون والمستغلون الماكرون الذين يخافون من بلوغ هذه الشعوب مرحلة الرشد، فهم يخافون تحضرها بمعنى حضور العالم ومعرفة السنن والقوانين التي تحكم الإنسان خلال الحضارة المعاصرة كما قيل قديما

ومن رعى غنما في أرض مأسدةونام عنها تولى رعيها الأسد

أذكر في كتاباتي "المثقف المنسحب والمختبئ"، لأن المثقف هو الذي عجز أن يتكيف مع العالم المعاصر. فمشكلتنا ليست في السياسي ولا الشعب العادي وإنما في فشل المثقف في كشف قصورنا. لكن المشكلة الأعمق والأبعد غورا والتي لم نسمع بها ولم نفكر فيها إلى الآن هي أننا لم نفهم طبيعة الإنسان الذي هو موضوع المشكلة وأداة الحل للمشكلة في نفس الوقت. ونحن كثيرا ما نتحدث عن السياسيين المحليين والعالميين كثيرا وكثيرا جدا، ولا نتحدث عن الشعوب والمثقفين كثيرا ولا قليلا لأننا لم ندخل بعد عالم الأفكار. نحن ما زلنا نعيش عالم الأشياء والأشخاص أما عالم الأفكار فلم يصبح سلعة قابلة للتداول بعد. الأفكار المسلمة والمسيطرة أفكار فات أوانها ونحن لا نزال تحت سيطرتها ونعيش أسفل منها ولا قدرة لنا أن نمد رؤوسنا فوق بحر المواريث التي فات أوانها. وهنا نقطة بدء المشكلة. الإنسان يساوي قدر المعلومات التي يحملها. والإنسان صفر بدون معلومات ولا قدرة له أن يتخذ أي قرار بدون معلومات. فالإنسان ضاعف قدرة جسده إلى قدرة جسد الحصان وأبعد بحصول الإنسان على علم استئناس الحيوان ثم بصناعة البلدوزرات، وبحصوله على علم ميكانيكيا البخار والمحرك الانفجاري والقنبلة النووية يعلم الإنسان قانون المادة والطاقة. وبقي على الإنسان أن يكشف قانون الإنسان وقانون استخراج أفضل ما في الإنسان.

لقد عاش الإنسان طويلا وليس له قدرة على إلا على تسخير عضلاته ولم يكن عقله يتدخل في رفع قدرة عضلاته كما نرى الآن في عصرنا. وهو إلى الآن ليس له تصور عن الإنسان وعن كيفية استخراج أفضل وأكثر ما فيه إلا بإكراهه وتخويفه. ولم نفهم بوضوح أن الإنسان لا يعطي بإكراهه وتخويفه

إلا أقل ما يمكن أن يعطي وأنه بإقناعه وهدايته يعطي نفسه وماله بل ويستقل ما يقدمه لك، وهذا ما جاء به الأنبياء: الإقناع. واعتبر الأقوام الذين بعثوا إليهم أنهم سحرةِ ومجانين. "كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون أتواصوا به أم هم قوم طاغون."

عمر الحضارة واكتشاف الإنسان ودخوله عصر الزراعة منذ نحو عشرة آلاف عام ما هو إلا جزء واحد من مئة جزءِ من عمر الإنسان. وإذا عرضنا ماضي الإنسان، كيف كان وكيف صار، فيمكن عندها أن نتخيل كيف يمكن أن يصير. فكما قلنا سابقا من أن الإنسان تعلم كيف يضاعف من طاقة عضلاته فإنه كذلك بدأ يدخل إلى تقنيات جديدة ليضاعف من قدرات عقله. فتقنية الزراعة ضاعفت من قدرات عقله حيث دخل الإنسان إلى عالم الاختصاص وتقسيم العمل ولكن بعد أن تعلم تقنية القراءة والكتابة ابتكر بذلك ذاكرة غير قابلة للفناء، أي تقنية تحفظ ما يحصله الإنسان، حيث كانت الخبرات تموت مع موت الإنسان. وفي عصر الكمبيوتر والانترنيت ابتدع الإنسان تقنية مكافئة لحب الاستطلاع الذي لا يشبع عنده وهذه التقنية وضعت أمام الإنسان كل خبرات البشرية السابقة، وكل خبرة جديدة توضع أمام كل الناس الآن في لحظة واحدة.

مالم نعرف الماضي لا يمكن أن نحل مشكلة الحاضر وما لم نحل مشكلة الحاضر لا يمكن أن نتصور جمال وكمال المستقبل، وما لم نعرف الماضي والحاضر فسنظل قاصرين تحت وصاية الذين لا يبالون بأذنة المستقبل وسينشدون بلا مبالاة مع الذي قال:

ما مضى فات والمؤمن غيب ولك الساعة التي أنت فيها

ما مضى لم يفت وهو حاضر وهو أساس الحاضر وما لم نعرف كيف ولد الماضي والحاضر سيكون المستقبل غيبا ولا يمكن أن يدخل إليه التقدير والتخطيط وسنظل تحت الوصاية.

122. قد افترينا على الله كذبا إن عدنا في ملتكم

رغم كل الحروب والصراعات بين جهات مختلفة من الناس عبر التاريخ إلا أن القرآن يعرضهم كفصيلة واحدة. يقول القرآن: "كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين..." أي أن الناس كانوا صنفا واحدا فجاء الأنبياء بشيء جديد. ولذا نجد أن القرآن يفصل بين نموذجين: 1. ملة الأقوام المبنية على دورة الاستكبار والاستضعاف، 2. وملة الأنبياء المبنية على الخروج من هذه الدورة. ويبين لنا القرآن أن التحدي الذي يواجهنا كبشر، والتحدي الذي يواجهنا كمستضعفين هو كيف نقتحم هذه العقبة، أي كيف نتحرر من سجن الاستكبار والاستضعاف الذي أنهك البشرية عبر القرون. هل يمكن أن يكون الله في عوننا في اقتحام هذه العقبة؟ هل يمكن أن نكشف القانون الذي يحكم العلاقة بين المستكبرين والمستضعفين في الأرض؟

الحل ليس مستحيلا، حسب القرآن، والمشكلة ليست أبدية ويمكن تحليل العلاقة بين المستكبرين والمستضعفين وتجزئتها وتناولها جزءا جزءا. فالجزء الأول من الحل هو أن نفهم ما هي ملة الاستكبار والاستضعاف. والجزء الثاني هو أن نخرج من هذه الملة إلى موقف آخر مختلف كليا. وهناك صعوبة في فهم ملة الاستكبار والاستضعاف لأن الناس يقعون في الشبهة عند تصنيف هذه الملة المزدوجة حيث أن الأطراف المتنازعة على القوة تبدو للأعين وكأنها تمثل جهتين بينما يضع القرآن الجهتين في ملة واحدة. فالمستكبرون يخافون أن يتحولوا إلى مستضعفين والمستضعفون يتمنون أن يصيروا في مكان المستكبرين وأن ينتقموا منهم ويحولوهم إلى مستضعفين. هذا الهاجس للطرفين ظاهر وخفي في آن واحد وما لم نخرج من قلوبنا القضاء على هذه العلاقة المعيبة سواء للمستكبرين الذين يقبلون أن يذلوا إخوانهم في بنوة آدم أو الذين يقبلون الذل من بعض إخوانهم من أبناء آدم فلن نستطيع الخروج منها.

يقدم القرآن الحل من خلال قصص الأنبياء الذين خرجوا من ملة الاستكبار والاستضعاف ومن خلال حواراتهم مع أقوامهم. ويذكر القرآن أمثلة عديدة ليثبت هذا الانفصال بين الملتين، ملة الأنبياء وملة الأقوام ليقدم لنا منهجا للخروج من ملة القوة بطرفيها المستكبر والمستضعف. ونجد أن مصطلح "ملة" يرد كثيرا في الحوارات بين الأقوام والأنبياء. فعندما يهدد الأقوام الأنبياء بالقتل والتهجير يرد الأنبياء: "قد افترينا على الله كذبا إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها". ويمكن أن نرى هذا الحوار بين إبراهيم وأبيه ونوح وابنه في افتراق الملتين، ملة القتل والتهجير وملة العدل والإحسان، وكذلك نراها في نهج يوسف النبوي تجاه من آذاه. فإبراهيم الذي خرج من ملة آزر لما حاور أباه ودعاه للخروج من ملة الاستكبار والاستضعاف أجابه: "أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم، لئن لم تنته لأرجمنك واهجرني مليا". ونرى مصطلح "ملة" في قصة فتية أهل الكهف مع قومهم: "إنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم في ملتهم ولن تفلحوا إذن أبدا".

ونرى نهج الأنبياء المختلف في لحظة النصر في قصة يوسف الذي لم ينتقم لنفسه لما صار عزيز مصر وجاء أخوته وكشفوا أنه هو يوسف و"قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين قال لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين". وكذلك قال الرسول (ص) لأهل مكة بعد حواره معهم، ما أقول لكم إلا كما قال أخي يوسف "لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين".

رغم وضوح الانفصال بين ملة الأقوام وملة الأنبياء إلا أن هناك قبول ضمني لملة الأقوام، لأن الناس ظنوا أن علاقة الاستكبار والاستضعاف بين بعضهم أبدية وضربة لازب على أبناء آدم وأنهم سيظلون مفسدين في الأرض وسافكين للدماء. والمتشائمين لا يمكنهم أن يتصوروا علاقات غير الاستكبار والاستضعاف تحكم البشر في المستقبل، أي علاقات سوية غير مرضية، لأن علاقة الاستكبار والاستضعاف علاقة مرضية وغير سوية، وهي مرض نفسي ومرض اعتقادي. ومعنى المرض النفسي هو التصور الخاطئ والفهم الخاطئ للظاهرة وسأظل أذّكر بالشمس كدليل على إمكان الوقوع في التصور والوهم الخاطئ لأنها تدل على إمكانية الإجماع البشري على الخطأ لفترة من الزمن قبل اكتشافنا وفهمنا للحقائق. فقد كان الناس يتوهمون أننا مركز الكون والعالم كله يدور حولنا، ثم كشفنا أن هذه المنظومة التي تمسكنا بها كل هذه القرون كانت خاطئة. وأنا أظل أشير إلى الظاهرة الفلكية لأنها تساعدنا على فهم الظاهرة الاجتماعية. فإمكانية الخطأ في فهم الظاهرة الفلكية يظهر لنا إمكانية الخطأ في فهم الظاهرة الاجتماعية. وإن الفهم الخاطئ للظاهرة الفلكية كان يترتب عليه فساد نظام هذا الكون. لهذا يقول الله: "لو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض". ونحن الآن نتوهم أهواء وخيالات يترتب عليها فساد ومرض حياتنا الاجتماعية في التردد بين الاستكبار والاستضعاف.

وأنا أقول أن هذا المرض النفسي يعم الطرفين بدليل تبادل المواقع والمواقف خلال التاريخ وإلا لما حدث استكبار ولا استضعاف. ولهذا جاء الأنبياء للخروج من هذه الملة إلى ملة أخرى لا استكبار فيها ولا استضعاف. والحوار الذي جرى بين موسى وقومه يشير إلى هذا التبادل في المواقع: "قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون". إن هذا النظر البعيد الذي كان عند موسى لم يكن ليتفهمه الناس في ذلك الوقت وموسى كان يشير بهذا إلى أن المستكبرين والمستضعفين من ملة واحدة لأن النماذج السابقة في التاريخ كانت تتبادل المواقع والمواقف فيتحول المستضعفون إلى مستكبرين وينتقمون من المستكبرين، بينما الأنبياء لا يقعون في هذا التحول المعيب وهذا ما يقول عنه القرآن: "أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون".

والقرآن يقدم ملة الأنبياء على أنها الحل لهذا التبادل المعيب في الأدوار. ونستشف من قول الأنبياء وأتباعهم أنهم لن يعودوا إلى هذه الملة. ولهذا قال الذين كفروا بالمساواة: لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا العنصرية التي لا يتساوى فيها الناس. تماما مثل الأرض التي نعيش عليها اليوم، حيث فيها الذين لهم حق الفيتو والذين ليس لهم حق، وكأنهم ليسوا بشرا، أي عليهم أن يموتوا أو يُهجّروا من الأرض. وإذا فهمنا هذا يمكن أن نفهم دعوة الأنبياء جميعا وأقوامهم جميعا، حيث قال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو من قريتنا أو لتعودن في ملتنا. ونحن اليوم يصعب علينا أن نكشف ملة الأنبياء وملة معارضيهم، لأن منهج الأنبياء في معالجة المشكلة والأسلوب الذي جاءوا به للخروج من مأزق الاستكبار والاستضعاف

مختلف عن كل الذي نحن عليه الآن. ونحن بعد أن فقدنا الرشد ورجعنا إلى ملة الأقوام وخطاب "أنا ربكم الأعلى" ضيعنا دعوة الأنبياء كفكرة وضيعنا سلوك الأنبياء كمنهج للتغيير وعدنا مثل الآخرين الذين حذرنا الله منهم وقال: "فهل عسيتم أن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها". هكذا يتكرر في القرآن ما قاله موسى لقومه وما قاله محمد لقومه أن لا يرجعوا مثل الأقوام الآخرين يضربون بعضهم رقاب بعض. ونحن أصابنا الصمم وعمى الأبصار فلم نفهم نور الله الذي جاء به الأنبياء، ولكن البشرية لمدفوعة رغما عنها إلى تقبل ما جاء به الأنبياء وإن كان الناس نبذوه وراء ظهورهم واعتبروه جنونا. وسأظل أدندن حول العودة إلى ملة الأنبياء وحلهم للمشكلة البشرية. وكشف الحل النبوي قادم لا محالة. "ملكوت الله قادم! هيئوا دروب الرب واجعلوا سبله مستقيمة".

123. النصوص الخرساء

لم يتمكن الصحابة من فهم كلام رسول الله لما قال: يوشك أن تتداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة إلى القصعة، وقالوا: أمن قلة يا رسول الله؟ فقال لهم: لا أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل. نحن أيضا لم نفهم ولا يمكن أن نفهم هذه النصوص إن لم نغير منظومتنا الفكرية التي نفهم بها العالم. ولقد عبر الرسول (ص) عن هذا الوضع الاجتماعي وهذه العلاقة مع النصوص في حديث له مع ابن لبيد. وقد أخرج أحمد حديث زياد ابن لبيد وصححه ابن كثير. قال: "ذكر النبي (ص) شيئا فقال: وذاك عند ذهاب العلم. قلنا يا رسول الله: وكيف يذهب العلم ونحن قرأنا القرآن ونقرأه أبناءنا وأبناءنا يقرئون أبناءهم؟ فقال: ثكلتك أمك يا ابن لبيد إن كنت لأراك من أفقه رجل بالمدينة. أوليست هذه اليهود والنصارى يقرؤون التوراة والإنجيل ولا ينتفعون مما فيهما بشيء؟"

نفهم من هذه الإجابة أنه عند ذهاب العلم لا تعود النصوص تجدي شيئا. ولفهم هذا الحديث نحتاج إلى فهم معنى العلم والعلم ليس شيئا قارا ساكنا وإنما هو شيء نام متحرك قابل للزيادة والتوسع "وقل رب زدني علما". "قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفذ البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي". ونحن لا يمكن من أن نفهم النص الذي لا علم لنا بموضوعه. لهذا ذكر سكينر، عالم النفس الأمريكي الراحل، من أن الكتاب الذي تعرف موضوعه جيدا بشكل أفضل من الكاتب لا يمكنك أن تقرأه إلا كما يقرأ الأستاذ وظيفة الطالب، وكذلك لا يمكن أن تقرأ كتابا لا تدخل موضوعاته ضمن مفاهيمك التي تعرفها. ولهذا قال في مقدمة كتابه، (Beyond Freedom & Dignity) الذي ترجم بعنوان (تكنولوجيا السلوك الإنساني) "ليس للفيزياء والبيولوجيا اليونانية الآن سوى قيمة تاريخية فما نحسب أن عالما معاصرا في البيولوجيا أو الفيزياء يتوجه إلى أرسطو طالبا العون ولكن محاورات أفلاطون لا تزال مقررة على الطلاب ويستشهد بها كما لو أنها تلقي ضوءا على السلوك البشري. وما نحسب أن بمقدور أرسطو أن يفهم صفحة واحدة من الفيزياء والبيولوجيا الحديثة..."

ونحن لا يمكننا فهم هذا الحديث النبوي الشريف كما لم يفهمه الصحابي زياد بن لبيد ولكن كان جواب رسول الله على تصور ابن لبيد موثقا بالتاريخ، فهو لم يقل له أنا لا أنطق عن الهوى ولا قال له هذا من عند الله وإنما لجأ إلى واقع اجتماعي مشاهد من تاريخ اليهود والنصارى. إنهم بيدهم التوراة والإنجيل ولا ينتفعون مما فيهما بشيء.

والآن العالم الإسلامي حزين كسير الجناح لا يجد مخرجا من الظلام الذي يعيش فيه، جرى له ما جرى للأمم من قبله، دأب الذي سبقوا من قبل. لقد تساءل مع أول المتسائلين شكيب أرسلان في كتابه (لماذا تأخر المسلمون) وشوقي عبر بحيرة عن هذا الوضع بقوله:

بأيديهم نوران ذكر وسنة فما بالهم في حالك الظلمات

وأريد أن أسوق مثلين من السيرة النبوية لأبين كيف يمكن تصبح النصوص خرساء حين نفقد العلم، حين نفقد آيات الله في الآفاق والأنفس وكيف يتحول الدواء إلى داء. يذكر في الأحاديث الصحاح مقابلة بين رسول الله وعدي بن حاتم الطائي في حجرة رسول الله وكان عدي بن حاتم تنصر في الجاهلية وكان في عنقه صليبا وجرت بينهم محادثة وكان من إكرام رسول الله لضيفه عدي ابن أجود العرب كرما أن قدم لضيفه الوسادة وجلس (ص) على الرمل وبعد حوار عن مذهبه النصراني قال له الرسول (ص): لعل الذي يمنعك يا عدي من الإسلام ما ترى من قلة أهله وضيق ذات يدهم. لئن طال بك زمان يا عدي لترين كنوز كسرى وقيصر غنيمة توزع بين المسلمين. فظن عدي أن كسرى وقيصر غير الإمبراطورين المعروفين في عالم ذلك العصر. فقال عدي مستوضحا ما يعنيه الرسول (ص): تعني كسرى هرمز؟ فقال الرسول (ص): نعم كسرى هرمز، ثم قال رسول الله متابعا حديثه لعدي الذي يبحث معه أعمق المشكلات البشرية، فقال (ص) لئن طال بك زمان يا عدي لترين الظعينة تخرج من صنعاء إلى حضرموت لا تخشى على نفسها إلا الله والذئب على غنمها. فقال عدي يحدث بعد ذلك عن هذه المحادثة مع رسول الله: فقلت في نفسي أين سيكون شطار طيء في ذاك الزمان؟ (أي أين سيكون اللصوص وقطاع الطرق من قبائل طيء؟) تابع رسول الله (ص) حديثه فقال يا عدي لئن طال بك زمان لترين المتصدق يخرج بصدقته فلا يجد من يأخذ منه صدقته.

ولعل عدي لم يتمكن من تفهم نوع هذا المجتمع المستقبلي، ومثل هذا الحديث يليق أن يوجه إلى عدي بن حاتم الذي لم يكن يدرك مدى ما يمكن أن يصنع المشروع الإلهي النبوي بالبشر في عملية تغييرهم فكان من الحق والصواب أن يتحدث (ص) إلى عدي ويفتح أمامه آفاق مستقبل الإيمان والإسلام وتحقق علم الله في الإنسان وإمكانية خروج البشر من الفساد في الأرض وسفك الدماء.

ربما صعب على عدي تصور مثل هذا المجتمع، ولكن أعلم أننا نحن أيضا نفتقد العلم في إمكانية تفهم العالم الذي كان يدعو إليه رسول الله، لأننا لا يمكن أن نتصور عالما تسافر فيه المرأة وحدها من غير خوف من البشر الذين لا علم لنا نحن أيضا بمثلهم، ولا قدرة لنا على تصور إمكانية خروج حب حطام الدنيا من قلوب الناس. وبعد زمن كان عدي بن حاتم يتحدث عن جلسته مع رسول الله ويقول لقد كنت مع الذين أخذوا كنوز كسرى وقيصر، ولئن طال بكم زمان لترون يتحقق ما حدثني به رسول الله (ص). هذا الحديث العدوي يمكن أن يفتح آفاق المستقبل أمامنا نحن أيضا.

سأسرد حديثا آخر ومع شخص آخر في نفس الحجرة النبوية وذلك أن عمر بن الخطاب كان في العوالي خارج المدينة يتناوبون الذهاب إلى مدينة الرسول ليكونوا دائما على صلة بأخبار المدينة وذهب عمر إلى المدينة فاستأذن على رسول الله فأذن له فلما دخل عليه قال يا رسول الله أنت رسول وقد أثر الحصير على جنبك وكسرى وقيصر ينامون على الدمسق والحرير فتغير وجه رسول الله وقال أفي شك أنت يا ابن الخطاب؟ أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة. هكذا كان كلام رسول الله مع عمر الذي كان إسلامه فاروقا وعمر فهم الدرس ولم يفهم أن يترك الدنيا لكسرى وقيصر بل هو نفسه الذي انتزع ملك كسرى وقيصر ولكن لم ينم على الحرير وظل ثوبه مرقعا. هكذا ربى رسول الله عديا وهكذا ربى عمرا. وقال لكل قولا يناسبه، ولكن لما نقول في مواعظنا: "لهم الدنيا ولنا الآخرة"،نكون افترينا على رسول الله وعلى أصحابه ولا نكون فهمنا معنى كل نص وسياقه. ولكننا سنتعلم فهم النصوص بالعلم وسندرك مغزاها بمعرفة آيات الآفاق والأنفس.

124. كلمة حق عند سلطان

هذه الكلمات وردت في كتاب للكاتب تيري ميسان الذي بعنوان ((11 يلول 2001 الخديعة الكبرى))، يشكك فيه بالرواية بالرسمية الأمريكية، ويعتبر ما حدث مسرحية دموية أخرجت لأهداف.. ليس الذي يهمني متابعة هذا الموضوع، وكيفية إخراج الأحداث، حيث بالإمكان ترتيب الأمور.

إن (الظروف والطوارئ) حسب تعبير عالم النفس السلوكي (ب.ف.سكينر) يمكن بترتيبها أن تجعل الإنسان ينفذ إرادتك بإرادته وفق فهم تكنلوجيا السلوك الإنساني، وكما يقول روسو:

((دع الطفل يعتقد أنه دائماً المتحكم مع أنك أنت من يسيطر، في الواقع ليس ثمة إخضاع كامل كالإخضاع الذي يحفظ مظهر الحرية لأن المرء بتلك الطريقة يأسر الإرادة نفسها فالطفل المسكين الذي هو لا يعرف شيئاً، ولا يستطيع عمل شيء هو تحت رحمتك ألا يمكنك أن ترتب كل شيء في العالم الذي يحيط به.. كل ذلك بيديك وبدون أن يعرف. مامن شك أنه يجب أن لا يعمل إلا ما يريد ولكن ينبغي أن لا يريد إلا ما تريده أنت أن يعمله، وينبغي أن لا يتخذ أية خطوة لا تتوقعها أنت وينبغي أن لا يفتح فمه دون أن تكون على علم بما سيقوله)).

ولما يتناول روجيه جارودي هذه التقنية التربوية يقول عن المسلمين أنهم يقدمون لخصمهم ما يتمناه على طبق من ذهب. وحتى في الحروب الخليجية المأساوية التي لم تنته بعد مآسيها كانت هذه الآليات النفسية مطبقة.

ليس هذا ما أريد البحث فيه، فالجملة التي جعلتها عنواناً للمقالة وردت في كتاب (الخديعة الكبرى) وذلك في آخر الكتاب، حيث دون عرض لمحتويات شريط فيديو يسجل محادثة لأسامة بن لادن مع شيخ اسمه عبد الله البحراني، وهذا الشيخ هو الذي نطق بعنوان المقالة ((كلمة حق عند سلطان)) كما جاء في كتاب ميسان حيث يقول البحراني: ((أنتم تطلبون شهادة فابحثوا عنها.. اذهبوا إلى حيث الشهادة ماكان سبحان الله ما يحث إلا على الذهاب. وأنا أسأل الله أن يعطيني الشهادة كلمة حق عند سلطان جائر سلطان كافر يقول أنا أدعو الله هكذا وأسأل الله ليعطيني)).

وأنا كقارئ وباحث لمشكلة المسلمين يهمني أن أسمع كلاماً كهذا من شيخ مسلم وُصف في الشريط كأنه مشلول الساقين. ربما لهذا طلب شهادة من نوع آخر. لكن إحياء هذه الشهادة هو الذي يهمني جداً ولكن كأن هذه الشهادة شهادة العاجزين، بينما يعتبر الرسول (ص) هذه الشهادة سيدة الشهادات، يقول (سيد الشهداء حمزة، ورجل قام إلى إمام جائر فأمره بالمعروف ونهاه عن المنكر فقتله على ذلك) والحديث الآخر الذي يقول: (إن من أعظم الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر)، وكذلك حديث (الدين النصيحة لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم)، إن كلمة الحق أو كلمة العدل أو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتعاون على البر والتقوى وعدم التعاون على الإثم والعدوان هذه الكلمات تعكس معان كبيرة تدخل في تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله، وهذا هو القول اللين الذي أمر الله موسى أن يقوله لفرعون فكيف يمكن تحويل دوافع هذا القول لتصير تصدر عن حب وحرص على الاهتداء لحل للمشكلة من دون أن يخسر أحد شيئاً ويربح الجميع، هذه هي التزكية التي هي تزكية لجميع الأطراف ليس أن يزول منه الحكم وإنما أن يزول عنه الظلم.

وأنا أعتبر من كلمة الحق وكلمة العدل ومن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتعاون على البر والتقوى وعدم التعاون على الإثم والعدوان، وعرض أسلوب لحل المشكلة من غير أن يخسر أحد لا ملكاً ولا مالاً ولا أرضاً بل يكسب عزاً ويزداد ملكه ثباتاً ويزداد مالاً ولايخسر أرضه بل يتمكن منها أكثر، وهذا الأمر يمكن التعبير عنه بآيات الآفاق والأنفس، وقد أرانا الله تعالى في واقع المجتمعات وصولهم إلى مثل هذا الحل فنحن نرى الدول الأوربية التي تتحد من غير أن يخسر أحد شيئاً بل يربح الجميع ويتحدون على كلمة السواء التي أمر الله أن ندعو الناس إليها وأرسلها رسول الله دعوة إلى جميع زعماء العالم المعاصر له (تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم) إن أوربا الآن تتحد على كلمة السواء ولا تريد أن ترسل جيشاً ليضموا البلاد المجاورة لهم وإنما بالمساواة التام ولم يصلوا إلى هذا إلا بعد أن رأوا عاقبة الحروب والاستكبار والتفاخر والتكاثر فهم قد شبعوا حروباً دينية وحروباً قومية وحروباً عالمية إن العالم كانوا يخرون من الأنبياء الذين يدعون إلى كلمة السواء وكلمة العدل وكلمة الحق وكلمة التقوى وكلمة التوحيدوإلى كلمة أن لا يكون أحد فوق القانون إن العالم كانوا يسخرون من الأنبياء الذين يدعون إلى العدل والإحسان ولكن الأثمان الباهظة البي دفعها المستكبرون فيما بينهم علمهم كيف يتحدون من غير أن يخسر أحد شيئاً ويربح الجميع وينقلب الدعاة بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله.

إن قول كلمة العدل والحق والنصيحة والمعروف لا يحتاج إلى بغضاء وإيذاء وإنما إرشاد واكتشاف لمله الأنبياء التي صار لها واقع عملي اضطراري بواسطة آيات الآفاق والأنفس التي ظهرت على أيدي بشر، إن الاتحاد الأوربي آية من آيات الله التي وعد الله أن يظهرها ويريها للناس في الآفاق وفي الأنفس، هذه الكلمة كلمة العدل والسواء والتقوى تعني (اتقاء الخراب الذي نعيشه نحن كما عاشه الأوربيون سابقاً). هذا الشيخ الذي يطلب الشهادة بكلمة حق عند سلطان جائر يريد أن يحيي شهادة العاجزين لا شهادة الأبطال. علينا أن نحرر هذا الأسلوب في الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن وأن نجليه ونزيل من نفوسنا الأحقاد والكراهيات، علينا أن نخرج من أنفسنا أن الآخر ينبغي أن يخسر نفسه وماله، فلنتذكر سحرة فرعون والحوار الذي جرى بينهم وبين فرعون، إنهم لم يطمحوا إلى إزالة فرعون بل إلى أزالة الظلم والإيمان الذي يعم الجميع بالظلم، ونحن علينا أن نكشف دين الله وأن لا نلبس إيماننا بظلم ((الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون)).

إننا عندما نكشف ملة إبراهيم وملة الأنبياء جميعاً ونخرج من ملة الكافرين بالأنبياء وما جاؤوا به؛ يصير لنا الأمن والهداية، هذه قوانين ثابتة مثل قوانين الفيزياء، إن الله ينجي المؤمنين، وإبراهيم لما حاج قومه ((كيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون، الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون، وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء، إن ربك حكيم عليم)) أنعام 83. وفي هذا قال الله عن إبراهيم أنه رفع قواعد البيت ودعا أن يبعث من يعلم الكتاب والحكمة والتزكية قال: ((ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلم الكتاب والحكمة وزيكيهم إنك أنت العزيز الحكيم، ومن يرغب عن سنة إبراهيم إلا من سفه نفسه، ولقد اصطفيناه في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين)) بقرة 130.

إن معنى الشورى هو أن يعرض الإنسان حلاً أفضل للمشكلات، إن من يمتلك حلولاً مقتصدة اقتصادية بحيث لا يخسر أحد شيئاً ويربح الجميع لابد أن يشير للناس إليها، وأن لا يكتم العلم الذي عنده، والله يأمرنا أن لا نكتم الشهادة ((ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه آثم قلبه)) بقرة 283، ونحن علينا أن نرى آيات الله التي يريها لنا وأ، نكون من الذين قال الله عنهم ((والذين آذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صماً وعميانا)) وأننكون من الذين قال فيهم ((والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغوا مروا كراماً)) ونكون من ((الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله وكفى بالله حسيباً)).

علينا أن نتداعى إلى حل عربي مثل الحل الأوربي، هذا خلق جديد من خلق الله الذي يزيد في الخلق ما يشاء، علينا أن نفكر ونبحث ونتعاون على تحقيق شيء صار له وجود وليس خيالاً يمكن أن نفهم هذا حين نخرج من الاستكبار والاستضعاف إلى كلمة العدل والسواء.

125. البدء من الصفر

يقول الفيزيائيون أن الكون كله انبثق من نقطة في غاية الصغر بدل أن يقولوا نشأ من العدم من القوة التي تحولت إلى مادة ويقولون إن المجرات نشأت من السحب الهيدروجينية التي نشأت من تجمعها الأجرام التي كونت بقية العناصر بالضغط ومن الهيدروجين والأوكسجين تولّد الماء الذي منه تبدأ الحياة التي تصل إلى الإنسان، فالماء منه كل شيء حي ((وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون)) إن الشيء الذي ولد من ارتباط الهيدروجين بالأوكسجين ليس مادة وإنما شيء زائد عن المادة إنه وظيفة، وهذه الوظيفة ليست مادة وإنما شيء جديد، خلق جديد لاوزن له ولاحجم وإنما وظيفة وأداء إلى أن وصل إلى الإنسان الذي يتمتع بوظيفة جديدة سلطة قدرة تسخيرية فهذا من مخلوقات الله التي ليست مادة، يسميه القرآن الحياة والأحياء ولكن الإنسان فوق الأحياء، والوظيفة التي في داخل الإنسان غير الوظيفة التي في سائر الكائنات الحية، قال الله ((جعلنا من الماء كل شيء حي)) ولكن الإنسان خلق آخر من الأحياء يحمل وظيفة خليفة الله وهو من روح الله الذي ليس كمثله شيء ولم يكن له كفوا أحد.

يقول الفيزيائيون عن المادة التي هي طاقة أنها تخضع لقانون التبديد كلما تحولت تخسر ولكن الحياة ضد هذا القانون فهي قابلة للزيادة كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مئة حبة، والإنسان وإن كان يحمل خصائص الحيوان في التوالد إلا أن جهازه العصبي وما تولد من هذا التركيب يشكل وظيفة أرقى وقدرة أدائية وسلطان وإحسان على سنن المادة وسنن الحياة وسنن النفس الإنسانية القادرة، فكما الطاقة الكهربائية لها سنن كذلك الحياة، ولكن السنن النفسية لها قدرة الإحسان والتحسين والتغيير إلى الأحسن والنمو خلا ل الزمن حسب العواقب، وحين نفهم هذا نفهم أن الأخطاء والشرور إلى فناء وزوال وأن الصواب والخيرات إلى دوام وزيادة وبقاء لأن العواقب تثبت الخير والأبقى أي الخير الدائم. هذا قانون الرحمة لأن قانون الإنسان أنه يتخلى عن الشر وما يعقب الشر ويتمسك بالنافع وينميه ويثبته ولا يتخلى عن النافع إلا إلى ما هو أكثر نفعاً. هذا قانون النسخ وهو قانون الرحمة، فالأخطاء والشرور لحظية زائلة والصواب والنافع ثابت ودائم ويتقدم إلى الأفضل وهذا الفهم ينتج خلال الزمن، والزمن يحفظ المنافع ويزيدها، لهذا أمرنا الله أن نسير في الأرض وننظر كيف بدأ الخلق من الذرة إلى المجرة ومن أولى الكائنات الحية إلى الإنسان القابل لأن يكون في أحسن تقويم وأن يكون في أسفل سافلين ولكن قانون الزبد يذهب جفاء وما ينفع الناس يمكث في الأرض، واستمرار النمو يقضي على على ما هو أسفل ويبقى كل ما هو أرفع وأنفع، وكلما تفكر الإنسان فيما يخلق الله وكلما تأمل مسيرة هذا الخلق ازداد إيمانا ونقص ريبا ورسخ علما، والراسخ في العلم يزداد إيمانا ((والراسخون في العلم يقولون آمنا)) ((ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هو الحق)) والإيمان علم متطور وثمرة لعلم سابق ومقدمة لزيادة في العلم اللاحق.

كان الإنسان يأكل لحم الإنسان ولكنه ترقى فصار أكل لحم الإنسان شيئا مقززا وهذا زيادة في الخلق وزيادة في الرحمة، ولايزال الإنسان يقتل الإنسان وهذا ليس من مفاخره بل من قصوره ونقائصه التي ينبغي أن يتغلب عليها فهو يعجز عن إصلاحه فيقتله ولكن إصلاحه أهم بكثير من قتله وإمكان إصلاح الأنسان يعد من أكبر مانزل من السماء ((إن الله لايغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم)).

الإنسان يولدى ضعيفا وعاجزا عن أن يخدم نفسه أو ينظف نفسه، فهو في حاجة إلى معونة ورحمة لا إلى قتل وعقوبات. ينبغي أن نتمكن من تفهم هذه الأمور التي صارت قابلة للفهم لأن معدن الإنسان إلهي وأوكل الله تحويله إلى الرحمة، والرسل كلهم رحمة وما أرسلوا إلا رحمة للعالمين فقانون الزبد رحمة يقول الله ((كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال)) الرعد 17.

هذا هو قانون الحق والباطل، الباطل يزول ويذهب حفاء والحق يمكث في الأرض ويبقى ويترسخ، هذا القانون قانون رحمة ضد الباطل ضد اليأس ضد التشاؤم ومع التفاؤل ومع الأمل والنجاح، ومن لا يفهم هذا القانون يتولاه اليأس والقنوط وهما من صفات الكافرين وليسا من صفات المؤمنين ومن هنا نكشف أن رحمة الله وسعت كل شيء فالذي يكشف قانون تغيير ما بالأنفس وأن البشر هم الذي يقومون بهذه الوظيفة إن من يتمكن من فهم هذا سيشعر كم نحن مقصرون ولا نزال في مرحلة الجهل والإيذاء والأحقاد ولا نعيش الرحمة والنور وطمأنينة القلب، وبتذكر هذه السنن والقوانين تطمئن النفوس هكذا ينبغي أن نفهم سنن الله وهكذا ينبغي أن نذكر الله ونذكر أيامه ((ألا بذكر الله تطمئن القلوب)) حين نفهم هذه الأمور نفهم كيف نصنع النفس المطمئنة وهناك نخرج من الظلمات إلى النور، فمن هنا نفهم قول المسيح إذا كان النور الذي فيك ظلام فالظلام كم يكون، إننا لم نتمكن من رؤية النور، إلى الآن نعيش في الظلام ونحن في شوق وحنين لرؤية النفوس المطمئنة إلى قوانين الله وسننه التي تتحرك دائماً في إزالة الشرور والأضرار وترسيخ وتثبيت السنن التي تنفع الناس هذا واضح في آيات الله في الآفاق والأنفس.

ولكن، أريد أن أقول أيها القارئ الكريم إننا مع إله الحرب ولسنا مع إله السلام الذي يدعو إلى دار السلام ودار الإحسان الذي يحول الأعداء إلى أولياء حميمين كأن هذا ليس في كتاب الله ونحن حين نبدأ نكشف سنن النفوس، سنن روح الله المنفوخة في الإنسان، سنكشف كيف سنتعامل مع روح الرحمة والإحسان، إذا كان الإنسان كان يأكل لحم الإنسان وإذا كان الآن لايزال يقتل الإنسان ويفكر في كيف يزيد من أدوات تدمير الإنسان علينا أن نتوجه

إلى أدوات تحويله إلى ولي حميم ينبغي أن نخرج من ملة القتلة إلى ملة الذين يرفضون القتل. عند ذلك نتمكن من فهم قول الرسول لمن أراد أن يقتص من قاتل أخيه قال عنه: (إن قتله فهو مثله) إن هذا الكلام لا يدخل في قواميسنا الفكرية ولكن بذهاب أكوام الزبد جفاء وبقاء ما ينفع الناس سنصير عند ذلك نفهم معنى هذا الكلام. وعند ذلك نفهم أن من أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً.

كل الذي أريد أن أصل إليه هو أن نفهم معنى ما يقوله القرآن لنا عن الذي يغتاب الناس أي يذكر سيآتهم كيف أنه كالذي يأكل لحم أخيه ميتاً ((ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه واتقوا الله إن الله تواب رحيم)) إن الإنسان قابل أن يتحول ويبرتفع إلى أن يبلغ إلى درجة أن يصير الذي يذكر سيئات الإنسان مثل الذي يأكل لحم الإنسان ميتاً في كراهيتنا لهذه السيئات، إن القضاء على السيئات بإخراجها من أيدينا وألسنتنا وقلوبنا وبذكر الله تطمئن قلوبنا وهذا صار يمكن فهمه من التاريخ ومن التجارب وإنما نحن في حاجة إلى التذكير ((وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين)) ولقد تراكمت لدي الأدلة من طول بحثي فيها أن الإنسان يمكن أن يصل إلى هذا، وينبغي أن نستمسك بها ونعض عليها بالنواجذ وينبغي أن نعلم أن السابقين لهم ثواب اللاحقين أيضاً وينبغي أن نعلم أن روح الله في الإنسان تأبى الشرك كما يأبى الله الشرك ويترك المشرك إلى الشريك ويتخلى عنه الله عنه كذلك روح الله في الإنسان الذي يعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف ويحول الإنسان العدو إلى ولي حميم وأن الكراهية والإكراه عدو للإنسان عدو لروح الله في الإنسان، ولنعلم أننا في بداية التاريخ لا في نهايته علينا أن نتذكر أن البشرية لم تتعامل مع الإنسان بالإحسان إلا من قبل أنبياء الله الذين اتهمهم الناس بالجنون والسحر وأنه خلال التاريخ كله كان التعامل مع الإنسان بإكراهه وتخويفه، وسنة الله في الإنسان أنه لا يعطى على الإكراه إلا أقل ما يمكن وقد ينتقم إن تمكن وأنه بالإحسان إليه يقدم روحه وماله بدون مقابل، نعم هناك مقابل يجده في نفسه تسامياً وتكاملاً وحباً وبثاً وإشاعة ليكشف الإنسان ذاته وكرامته ونعمة الله عليه والتي لا تعد ولا تحصى لكثرتها ونحن نتعامى عنها، فمن هنا نعلم أن التاريخ لايزال في بدايته الجنينية، لم يولد الإنسان بعد، لهذا لما أقول إن ما جاء به الانبياء لم ينزل بعد من السماء وإن كان في الكتب في الأرض، لأن ما جاء به الأنبياء هو أن يتنافس الناس في فعل الخيرات والحسنات لا التنافس في فعل السيئات، ونطمع أن يغفر الله لنا وأن نتقرب إليهم ولو بقرون الاستشعار.

126. رب السجن أحب إلي

القرآن في آياته كالكائن الحي، كل خلية تحتوي في داخلها على جينات الكائن الحي بكاملها. لما يقول يوسف عليه السلام رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه ويقول مؤمن آل يا سين ((إني آمنت بربكم فاسمعون))، ((وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه إتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله))، ويقول بلال وهو تحت التعذيب أحد أحد، ولما ((ألقي السحرة ساجدين قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهارون، قال آمنتم له قبل أن آذن لكم، إنه لكبيركم الذي علمكم السحر فلسوف تعلمون، لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم أجمعين، قالوا لاضير إنا إلى ربنا منقلبون إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا أول المؤمنين)) ولما يقول الله: ((ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت)) ولما يقول أيضاً: ((لاإكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها)) ولما يقول: ((قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون)) آل عمران 64.

ولما يقول ((وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها))، التقوى التي هي كلمة السواء وكلمة قل هو الله أحد، وهي الكلمة الواحدة التي طالب بها رسول الله قريشاً قائلاً كلمة واحدة تعطونيها تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم كلمة لا إله إلا الله، وهي كلمة الشهادة، وكلمة الحق، وكلمة العهد،

وكلمة الميثاق، وكلمة القوامة بالقسط، وهي العروة الوثقى، وهي رسالة الأنبياء جميعاً التي أمرنا أن نبلغها ((الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله وكفى بالله حسيبا))، ((لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط)).

هذه الأسس الراسخة القوية تتحدى العقل الإنساني ليثبت للذين يستخفون بالعقل بروح الله في الإنسان، إن الله والروح الذي نفخه في الإنسان هو الذي سيغلب وسيحقق علم الله في آخر خلق الله والخلق الآخر المكرم والمستخلف في الأرض والذي سخر له ما في السماوات وما في الأرض جميعاً والعقل الإنساني يتقدم بخطى ثابتة إلى إثبات كفاءته في التغلب على الفساد في الأرض وسفك الدماء والله تعالى لم يخلق الكون مكتملاً وإنما يخلقه خلقاً من بعد خلق يزيد في الخلق ما يشاء ويخلق ما لا تعلمون، وليس هذا فقط بل الخلق في بدايته وفي مرحلة الطفولة ونحن نعجز في تقديم ما حقق الإنسان من التقدم بشكل متراص متماسك متتال هذا الإنسان الذي كان يأكل لحم الإنسان ويقدم القرابين البشرية سيكشف أنه قادر على تسخير الكون كما أمسك بالكهرباء وسخرها في مجالات لا نهائية وهو قادر أيضاً على تصنيع الإنسان لأن تصنيع الإنسان وإعادة صياغة المصنع إلى صناعة أفضل تلك هي وظيفة الإنسان تغيير ما بالأنفس وحين نرى قلة معلومات الإنسان التي تمكنه من الخلافة في الأرض وتطهير أرض الله من الفساد وسفك الدماء، إن البطولة في خليفة الله في الأرض ليس في قتل الإنسان وإنما في كسب المعرفة التي تعافي الإنسان من الجهل والظلم وهذا هو تغيير ما بالأنفس ليتغير حال البشر من النقمة إلى النعمة وذلك بتزكية النفس وليس بتدسيتها ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ((قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها)) نحن يمكن أن نكشف سنن الله التي نتعرف على الله بواسطتها لأن التعرف على الله بكشف السنن التي خلق الله الوجود عليها وبمعرفة هذه السنن وكشفها يتسخر لنا الكون كله وبذلك نقضي على الفساد في الأرض ونقضي على سفك الدماء بتزكية النفوس التي أُفسدت والبشر الذين فيهم القدرة على كشف السنن وتسخيرها إن فهم حب الاستطلاع ذلك النور الوهاج المتأجج في الإنسان، الشوق إلى المعرفة، عشق العلم، عشق النور، وكراهية الظلام، طوبى لمن كشف للإنسان النور الذي سيمشي به في الظلمات، علينا أن نتعرف سنن الله الثابتة التي لا تتحول ولا تتبدل وحتى إن من عرف هذه السنن يتسخر له الكون سواء آمن بالله أو لم يؤمن لأن سنن الله تطيع كل من عمل بها ((كلاً نمد من عطاء ربك هؤلاء وهؤلاء وما كان عطاء ربك محظورها))إسراء 20.

هذا قانون وسنة إلهية عامة عالمية ما كان عطاء ربك محظورا، وكذلك كل من عمل السوء يجد عاقبته السيئة ((ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب)) من يعمل سوء يجز به ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً)) نساء 123.

هذا الإنسان الذي كان يعيش في ظلام الكهف وأتى عليه حين من الدهر لم يكن يعرف كيف يوقت النار، تعلم إبقاء النار وأضاء به كهفه وتعلم إيقاد الكهرباء فأضاء به منزله وهذا شيء حديث في تاريخ البشرية حين نعرف كم قضى الإنسان حتى تنوربالكهرباء ستعرف أننا نتقدم ليس فقط في تسخير الكهرباء بل إن الاتحاد الأوروبي خلق جديد لم يمضي جيل واحد على قيامه بحربين عالميتين قتل في ثانيتهما 54 مليون إنسان، إن هؤلاء اليوم يعملون اتحاداً ليس بالسلاح وإنما بالعقل، وليس بالاستكبار بل بكلمة السواء يتحدون، وهل تعلم يا عزيزي أن هؤلاء ألغوا حكم الإعدام ولا يرسلون جيوشاً ليضموا جيرانهم وإنما يشترطون عليهم أن يلغوا حكم الإعدام للإنسان مهما كان سيئاً ومفسداً لأنهم آمنوا بإمكان إصلاح الإنسان، وهم أقرب إلى فهم إمكان تحويل العدو إلى ولي حميم بالإحسان إليه، والذين لا يقدرون على التفكر في هذا الحدث الأوربي والاتحاد الأوربي الذي تجاوزوا فيه القوميات حيث يوجد في أوربا أكثر من عشر قوميات ولغات مختلفة، إنهم يتحدون على كلمة سواء من دون أن يخسر أحد شيئاً ويربح الجميع، ونحن في جنوب هذا البحر الأبيض الذي بيننا أمة واحدة ولغة واحدة وأكثر من عشرين دولة ولا يثق أحد بأحد إن ما عليه الوضع في أوربا لا شك أفضل مما نحن عليه عند الله وعند رسوله وعند المؤمنين وعند الناس أجميعن، يا عرب يا مسلمون هؤلاء هم الذين عملوا الحرب العالمية وتقاتلوا الآن تعلموا من العذاب الأليم والدماء التي سفكت فألغوا حكم الإعدام للإنسان ونحن حين نبحث عن عيوبهم وما ينقصهم نكون من الذين زين لهم سوء عملهم فرأوه حسنا والله يأمرنا أن لا تؤثر فينا العداوات القديمة ((ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا)) أليس عاراً وشناراً أن يقتل مسلمون بيد مسلمين في

المساجد وهم يصلون كم محن غائبون عن العالم إن أوربا تتحد على كلمة سواء ونحن لا نستطيع أن نشم رائحة السواء وكل قطر يسخر من القطر الآخر والساخر والمسخور منه ملة واحدة تتصدع جماعتهم.

إنني لست يائساً بل أنا متفائل، وإن كنا لا نجد بيننا رجلاً رشيداً فقد كان القوم كذلك، إن الله يأمرنا بالاعتبار فاعتبروا يا أولي الأبصار، إن الفهم الحق يولد في دماغ الإنسان حين يرى العواقب وعلينا واجب مقدس أن نقول بالحق حيثما كنا لا نخاف في الله لومة لائم، وكيف أخاف علينا أن نكشف ملة إبراهيم حين خوفوه قال لهم ((وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم ما ينزل به عليكم سلطانا فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون)) أنعام 81

ينبغي أن نقول بالحق حتى لا يقول قائل ما سمعنا بهذا، علينا أن نسمعهم ما لم يسمعوا وعلينا أن نتكلم بما هو مسكوت عنه ومحرم الكلام فيه علينا أن نتتبع الخطأ حتى نصل إلى نقطة بدئه فسنجده في النهاية يصل إلينا ويقف عندنا إذن البدء من عندنا علينا أن نبصر كيف يتحرك الحق في العالم، الحق هو الله الذي خلق السماوات والأرض بالحق، الحق هو الذي سخر الكون للإنسان والإنسان معه أدوات التسخير وقدرة كشف السنن وقدرة تسخير الوجود هذا خلقه الله وأرسل رسله وأنزل كتبه وختم الله الرسل والكتب بأن عواقب التاريخ صار دليلاً على الحق والإنسان يرى سير التاريخ لهذا صارت آيات الآفاق والأنفس هي التي تشهد للكتاب وللرسل وآيات الآفاق والأنفس تتنزل علينا كل مرة أوضح وأعمق مما سبق ويرينا آياته إن الاتحاد الأوربي آية حديثة أمام أعيننا علينا أن نتأمله علينا أن نكشف المعوقات التي تحول بيننا وبين فهم الآيات والله تعالى يقول ((وكأي من آية في السماوات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون)) إن اليابان آية، إن الاتحاد السوفيتي آية، إن اتحاد أوربا آية، إن الثورة الإيرانية آية، ونحن نعجز آن نقرأ هذه الآيات ولهذا لا نستفيد منها، ولكن هناك آية أخيرة خطيرة ستوقظنا وهي أية العذاب الأليم:

لايؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم يونس 97

127. مستويات وجود الإنسان

إن الإنسان يساوي الفكر، والفكر يتولد في ذهن الإنسان أو قلبه، المهم أنه يصير عنده رؤية وهذه الرؤية تتولد من النظر فيما حوله. الإنسان رأى البرق وسمع الرعد ولكن ما هو التصور الذي حدث في فكر الإنسان خلال التاريخ عن هذه الظاهرة. لقد شاهد الإنسان البرق منذ أن كان في الكهف ولكن الصورة الذهنية التي مكنت الإنسان من تسخير البرق تأخرت كثيراً، كما تأخر فهم الإنسان لسبب ظاهرة الليل والنهار، حيث كان يظن أن الشمس تدور حولنا ولسنا نحن الذين ندور أمام الشمس وحولها أيضاً، وأنا الآن أشعر أن فهمنا لظاهرة المجتمع شبيه بهذه الظاهرة الفلكية في حركة الشمس والأرض وكذلك في فهم ظاهرة البرق حيث لم يتسخر لنا البرق إلا مؤخراً جداً هذه التسخيرات اللانهائية. والناس في فهمهم للظاهرة الاجتماعية شبيه في فهمهم قديماً للظاهرة الفكلية من ظنهم أن الشمس تدور حولنا كل 24 ساعة، ولو كان هذا الظن الفلكي صحيحاً لترتب عليه فساد نظام الكون، يقول الله في هذا الموضوع ((أفلم يدبروا القول أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون أم يقولون به جنة بل جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون. ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن بل اتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون)) المؤمنون 71. السماوات والأرض لم تفسدا لأن أهواء الناس لا تؤثر في نظام الفلك ولكن أهواء الناس تؤثر في الظاهرة الإجتماعية لأنها مرتبطة بأفكارالناس وفهمهم لها وهي تتغير إذا تغير ما بأنفس الناس.

إنني لما أضع عنوان (مستويات وجود الإنسان) فإنني أريد توضيح مستويات فكر الناس وما بأنفسهم عن الكون وعن الله الذي خلق الكون، ونحن لم نكشف إلا مؤخراً أن أهواء الناس وما كانوا يظنون عليه حركة الفلك أنه يترتب على هذا فساد نظام الكون وكذلك إلى الآن لم نكشف أن تصورنا عن

الله وعن نظامه في المجتمع هو الذي عقد مشكلاتنا، وفي هذا يقول الله في سورة فصلت التي قرأها الرسول على عتبة بن ربيعة ((كتاب فصلت آياته قرآنا عربياً لقوم يعلمون بشيراً ونذيراً فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه..)) إلى أن وصل إلى قوله ((فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود إذ جاءتهم الرسل)) ثم يذكر قصة عاد وثمود وهلاكهم ثم يقول ((ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون ذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين)) فصلت 23 ولما سمع عتبة ((فإن أعرضوا فقل أنذرتكم)) قال ناشدتك الرحم من هذا الإنذار، ولما رجع إلى قومه قالوا والله لقد رجع بغير الوجه الذي ذهب به.

إن تغير الأفكار له درجات ومستويات، والإنسان قد يدرك من سنن الله كميات قليلة تزن ميليغراماً أو تزن غراماً أو كيلوغراماً أو طناً أو جرماً سماوياً أو مجرة، والأفكار الراسخة يصير لها وزن ثقيل ونحن علينا أن نحيي مصطلح كلمة (الرسوخ في العلم) يقول الله: ((والراسخون في العلم يقولون آمنا به)) هنا علاقة بين العلم والرسوخ والإيمان ويقول الله ((لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك)) نساء 162.

ونحن حينما نرجع إلى واقع آيات الأنفس نكشف قانون العلم والإيمان والرسوخ من رؤية العواقب النافعة أو الضارة فكما العلم يحدث عند الإنسان يحصل الجهل أيضاً ويترسخ ويمكن أن نقول الراسخون في الجهل، والإيمان يمكن أن يكون بالحق وبالباطل يقول الله ((والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون)) عنكبوت 52 ويقول الله ((أفبالباطل يؤمنون))99.

ورسوخ العلم أو الجهل إنما يتحقق بسماعه كثيراً ولمدة طويلة فيصل الإنسان إلى درجة يفقد عندها القدرة على تغيير ما بنفسه إلا بشروط كبيرة تكون على قدر الرسوخ والثبوت والتمكن والقساوة، كما أن قلة أو كثرة عدد الناس الذين يعلمون له دخل في رسوخ الحق أو الباطل، وعدم سماع الفكرة مطلقاً يجعلها غريبة، لهذا فحجة من قالوا ما سمعنا بهذا في آباءنا الأولين حجة قوية بنظر القائلين بها. وهذا هو موضوع سنن تغيير ما بالانفس، فالعواقب النافعة هي التي تمكث وتترسخ وتعم، وفي هذا ما يدعوا إلى التفاؤل في انتصار الحق على الباطل ليس في معركة حربية بل في الصراع الفكري حيث لا دور لوسائل الإكراه، ولكن هذه الفكرة لم تترسخ عندنا بل ترسخ عندنا وتعمق الاعتماد على وسائل الإكراه وعن ذلك يتحدث الجميع الآن وخلال التاريخ البشري، ونحن في العالم العربي نرى هذا الخنوع والاستسلام من قبل الشعوب لسادتها واستسلام سادة الشعوب للأقوياء استسلاماً مريعاً مرده أننا لم نعط للأفكار والعلم قيمة مطلقاً وأعطينا لأدوات الإكراه كل القيمة، ويمكن أن أقول: إننا آمنا بالباطل كل الإيمان، وكفرنا بالحق كل الكفر ولهذا خسرنا كل شيء ونعيش في استسلام كامل وشامل وعام، وهذا ما تعتمد عليه أمريكا حين تعلن أن شارون يتعامل مع الفلسطينيين معاملة إنسانية، نعم، إنسانيةً الإنسان الذي يؤمن بدور القوة ولا يؤمن بدور الفكر أو العقل الإنساني، وهذا ما لا يمكن أن نفهمه، إن إعطاء دور لوسائل الإكراه في تغيير ما بالأنفس أصاب بالحيرة كل العقول العربية، ومن ثم يتعجبون كيف تخرج المظاهرة المعارضة لأمريكا في كل مكان إلا في البلاد الإسلامية، وهذا ما حير المراقبين ودعاهم للتعجب.

إن الذي يؤمن بوسائل الإكراه أن لها دوراً على أفكار الإنسان يكون أنكر الإنسان أو أنكر ما يجعل الإنسان إنساناً وهو التمييز بين الخطأ والصواب لم يعد هناك خطأ وصواب وإنما هناك قوة وضعف ليس في الفهم وإنما في وسائل الإكراه.

لماذا ينزعون الأسلحة؟! وهل يمكن نزع العقل بالسلاح؟؟ هذا ما نعيشه في العالم الإسلامي حتى وصل نزع العقل الذي كان 99% إلى 100% هذا معناه أنا قوي إذن أنا موجود، وإذا صرت أنت قوياً فلن يعود لي وجود، شريعة الغاب، ولقد صار عندنا رسوخ في الإيمان بالقتل، فقدسنا السلاح وحقرنا العقل وسلبنا منه قيمته، وهذا الفهم الذي ترسخ عندنا جعلنا نخسركل شيء على الإطلاق.

هل هذا يساعدنا على فهم أن الشرك هو الذي يحبط جميع الأعمال، فكيف يمكن أن نكشف أن من جعل للقوة سلطاناً على العقل أنه ألغى الإنسان كلياً. إن قوانين الله لا تتبدل ولا تتحول ولم يكن له شريك في صنع سنن للكون، ولم يشارك اللّه أحد في خلق قوانين الكهرباء فهو وحده الذي سن سنن المادة والحياة والفكر ومن خالف سنن الكهرباء يصعق ومن عارض قوانين الحياة يهلك أما من عارض قوانين الفكرفقد خسر نفسه كإنسان.

إن خسارة النفس مصطلح قرآني لا يقصد منه خسارة الحياة يقول الله ((الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون)) لا يؤمنون بربط الأسباب بالنتائج. من أخف منا وزناً في عالم اليوم يقول الله ((ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون)) أعراف 9. وإن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا.

وأنا لست يائساً مع كل هذه الظلمات بل كلما انحدرنا اقتربنا من اليقظة نحن لا زلنا نحسب أنفسنا أننا على شيء وحين نكشف أننا لسنا على شيء عند ذلك سنبدأ من جديد من الصفر لنعترف بالإنسان ونعترف بقدرته على الفهم فهذا هو رأس المال. إن الإنسان إذا أشرك مع الله شريكاً فإن الله يتركه للشريك، وكذلك عقل الإنسان الذي من روح الله إذا قبل أن يشرك به شيء يترك كل شيء للشريك الذي هو القوة والإكراه الذي لم يجعل الله له سلطاناً على الإنسان.

إن العذابات المهينة الكبيرة هي سبيل الرجوع ((ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون)).

128. تطور مفهوم الرحمة

الكون ليس خلق وانتهى وإنما لا يزال يخلق ويزاد في خلقه والزيادة إلى الأحسن والقانون الذي يحكم الوجود أن النافع يبقى أما الزبد فينسخ ويذهب جفاء ولما يقول الله لنا سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق هذا الخطاب موجه إلى المخلوق الأخير في الوجود وهو الإنسان الذي أمر الله الملائكة أن يقعوا له ساجدين وقال الله عنه: ((ولقد كرمنا بني آدم)) وقال للملائكة ((فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين)) الحجر 29 والذي أبى أن يسجد قيل له اخرج إنك من الصاغرين فخرج منها مذموماً مدحوراً.

إن الإنسان في هذا المقام الكريم أنشأه الله خلقاً أخر فتبارك أحسن الخالقين، ثم توج هذا الخلق المكرم بأن جعله خليفة له في الأرض وسخر الله له ما فيها وما في السماوات جميعاً. إننا لما نسير في الأرض سنجد إن الإنسان بدأ خلقه من طين ولكن الله نفخ فيه من روحه أيضاً القدرة على الفهم والتسخير وحمل الأمانة التي أبت السماوات والأرض والجبال حملها ((وأشفقن منها وحملها الإنسان)) لهذا من حمل الأمانة ((التي هي روح الله في الإنسان)) من الناس يتسخر له ما في السماوات وما في الأرض جميعاً من الله تعالى وهذا التكريم الكبير للإنسان من روح الله في الإنسان الذي جعله الله بهذه الروح قادراً على تزكية نفسه أو تدسيتها وقابلاً أن يكون في أحسن تقويم وان ينحدر إلى أسفل سافلين ولكنه يتعلم من عواقب الأحداث فيمكث النافع ويذهب الضار والذي لا نفع فيه غثاء منسوخاً وهذا القانون يتقدم بثبات خلال التاريخ كان الإنسان عارياً لا ينتج غذاءه فتعلم الزراعة واستأنس الحيوان وابتكر الكتابة والقراءة التي بها حفظت التجارب وعواقب الأحداث فتفجر عالم المعرفة والمعلومات واكتسب العلم المخلد وتراكم المعرفة وزيادة التسخير وزيادة الرحمة لأن التسخير رحمة لهذا كما قال نوح أن الله أتاه الرحمة وقال لقومه ((ياقوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون)) هود 28 ولنعرف تطور مفهوم الرحمة أن نوحاً وإن كان آتاه الله الرحمة من عنده إلا أنه كان متقدماً في حياة الإنسانية والرحمة كانت في طريقها إلى النمو، لهذا ليس عجيباً أن يجد نوح صعوبة في الدعوة وإعراضاً وعجزاً عن الفهم فيقول نوح لربه رب إنهم عصوني واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خسارا ومكروا مكراً كبارا وقالوا لا تذرن وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً ثم قال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً. إن دعوة نوح هذه على قومه دليل المعاناة وصعوبة فهم الناس

عبر التاريخ وكان الهلاك ديدن الأمم ((كل كذب الرسل فحق وعيد)) وقص الله هذه القصص لتكون دعماً للنبي والدعاة والمصلحين خلال التاريخ وبعد أن قص الله قصة نوح مع قومه في سورة هود وبشكل مطول قال الله ((وكلاً نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرة للمؤمنين وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم إنا عاملون وانتظروا إنا منتظرون)) هود 122. وكان الرسول (ص) يقول عن سورة هود شيبتني هود وأخواتها.

في غزوة بدر لما استشار الرسول (ص) أصحابه في شأن الأسرى أشار عمر بقتل الأرسى بيد أقاربهم حتى يعلم الله أنهم بريؤون من اعداء الله، لكن أبا بكر أشار أن يؤخذ منهم الفداء ويتركهم لعل الله أن يهديهم، وقال الرسول (ص) في ذلك عن عمر، إنك يا عمر مثل نوح الذي قال رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا، وأنت يا أبا بكر مثل عيسى عليه السلام الذي قال حين قال له الله: ((ياعيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم)). وهكذا قال رسول الله لأهل مكة، ما أقول لكم إلا ما قال أخي يوسف لأخوته الذين ألقوه في غيابة الجب، وذلك حين جاؤوا إليه فقالوا: ((تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين، قال لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين))، والله يقول للرسول: ((وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين)) ليس رحمة لقومه فقط وإنما رحمة للعالمين جميعاً لأن الكون مبني على الرحمة لأن العالم مبني على سنن ثابتة لا تتغير ولا تتحول ولا تتبدل والإنسان قادر على تسخير هذه السنن والرحمة تتولد مع الحياة المتطورة حتى في الحيوانات التي بالغريزة تحمل الرحمة لذريتها ولكن الإنسان قمة الرحمة التي خلقها الله، إن الله رحمن رحيم وقد سبقت رحمته غضبه ووسعت رحمته كل شيء ((ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون)) أعراف 156 وللرسول يقول ((فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فهذه هي الرحمة التي قال عنها المسيح أنها أثقل شيء في الناموس قال (وبل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون لأنكم تعشرون النعنع والشبث والكمون وتركتم أثقل شيء في الناموس الحق والرحمة والإيمان)) متى 23–23.

رحمة الأم بها استمرت الحياة، وحب الطفل للأم يتحول حين يكبر الطفل إلى حب أبعد، فيتعلم الإنسان توسيع دائرة الحب والرحمة، يترك أباه وأمه ويلتصق بامرأته كما جاء في التوراة، وهو استمرار وتطور وتوسع رحمة الأم ورحمة الزوج والزوجة فيما بينهما وهذا الذي يقول الله عنه ((ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون)) الروم 21 إن المودة والرحمة التي بين الزوجين خصوصاً في مرحلة الشباب وبناء الأسرة تجربة بشرية فريدة كم كتب حولها من قصص الحب الذي لا ينقطع مع الزمن وإنما يتطور دائماً وسيكشف أن هذه المرحلة التي تحكمها المودة والرحمة يمكن جعلها دائمة وعامة إنها خبرة الإيثار إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون في صنع القيم وترسيخها ورعايتها إنها تجربة فريدة وعامة لك البشر وعلى البشر جميعاً التفكير فيها وتوسيعها لتشمل الحياة كلها هذا هو القلب السليم القلب الذي ليس فيه غل لأحد لأن الكون كله مسخر للإنسان، وكلما بحثنا القيم الإنسانية نفهم قدرة البشر على تزكية النفس والقضاء على البغضاء نحن الذين نقدر على صناعة القلب السليم وإزالة الغل من القلوب ونحن القادرون على رؤية الرحمة إن الأحقاد والكراهيات التي تملأ القلوب هذه الآصار والأغلال التي ترهقنا وتكبلنا إننا يمكن أن نتغلب عليها وأنا كلما بحثت هذه المواضيع الإنسانية لا يمكن إلا أن أفكر في الأوضاع العربية من العجز والشعور بأن الطرق مسدودة أمامنا. إن الأبواب ليست مغلقة ولكن نحن الذين عجزنا عن فهم التاريخ والأحداث نحن تمزقنا من زمن طويل وفقدنا الرشد والرحمة والعدل والإحسان وعلقنا أملنا على الغي والقسوة والكراهية والبغي ولكن استحقاقات النظرات الخاطئة ورؤية العالم مظلماً غير قابل لإضاءته إن الله يرينا آياته فنعرض عنها وننكرها ونظن أننا لا يمكن أن نستفيد من هذه الآيات ويريكم آياته فأي آيات الله تنكرون، فكم مرة ذكر الله الحدث الفرعوني في القرآن في جعل الناس شيعاً منهم من هو للذبح والاستضعاف وينتج عنه الفساد ولو كان سينزل آيات لتحدث عن الوحدة الأوروبية التي لم يخلق مثلها في التاريخ الذي سبق في حياة الناس إنهم تجاوزوا العصبية القومية وسلطوا طريقا إلى الإنسانية إنهم كشفوا قوانين الله في الرحمة في التفاهم على

أسلوب لا يخسر منهم أحد ويربح الجميع ومن لا يفكر في هذا إلا من سفه نفسه وخسر عقله. إن هذا الذي اشتهاه الأنبياء ألم يقل الرسول لأصحابه أ يهاجروا إلى الحبشة لأن هناك نظاماً لا يظلم فيه من ليس على دينهم إن أوروبا مولود جديد متطور لم يسبق له مثيل ويمكن أن نصنع مثله ولكن نحن نعجز عن كشف هذا الحدث للناس لنعمل مثله نحن العرب، ومن أعرض عن ذكر ذلك فإن له معيشة ضنكا. علينا أن نذكر هذا كثيراً لأن هذا من أحدث ما خلق الله علينا أن نذكر أحدث ما خلق الله من المجتمعات ونحن أحوج ما نكون لنفهم هذا الحدث الذي يتم على أساس الرحمة والربح بدون خسائر.

129. رؤية تاريخية

لتكون لنا رؤية قريبة من الصواب لابد من أن نمتلك رؤية تاريخية والرؤية التاريخية صحة نفسية، وشفاء من الخطأ التصوري وهومتصل بموضوع مرض القلب في القرآن طبيعة وسنن النفس، والقانون الذي نفهم منه صدق ما في أنفسنا أو خطئها هو النظر إلى العواقب، ونحن إن لم نفهم تسلسل هذه الأمور ودخل أي خطإ يجعل السلسة منقطعة أو يكون أي جزء منها في الظلام والغموض هناك تختبئ الجراثيم الفكرية واللاسننية وما شئت من حيرة تؤدي إلى العطالة فمن هناقانون الرؤية التاريخيةالمتصلةغيرالمنقطعة هوما يأمرنا الله أن يوصل وهو الاعتبار بوصل السابق باللاحق وأن لانقض عهد الله فيقول " الذين ينقضون عهد الله ويقطعون ما أمر الله أن يوصل ويفسدن في الأرض أولئك هم الخاسرون " بقرة 27 هؤلاء الذين لايصلون الأسباب بالعواقب ولايعتبرون بالأحداث ويصفهم الله بأنهم " يفسدون في الأرض أولئك لهم اللعنة وسوء الدار " الرعد 25 ولما يأمرنا الله أن نسير في الأرض وننظر كيف بدأ الخلق ويقول " سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة " العنكبوت 20 هنا يأمر بالسير في الأرض والنظر كيف بدأ الخلق وتحقيق هذا الأمر يؤدي إلى تحقيق علم الله في الإنسان من تجاوز الفساد في الأرض وسفك الدماء هذه النشأة الآخرة في سلسلة كيف بدأ الخلق والزيادة في الخلق وهذا هو الخلق الآخر والأخير في الدنيا وخالصة يوم القيامة هذه الرؤية التاريخية التي تتطور دائما إلى الأفضل لأن الذي يحكم قانون حركة الخلق أن الزبد يذهب جفاء وماينفع الناس يمكث في الأرض"والإنسان لم يكن يعرف من بدء الخلق شيئا حين نزلت هذه الآية إلا لمسافة قصيرة واعتبر الناس تعلم القراءة بدأ للتاريخ وماقبله سمي ماقبل التاريخ وبدء الخلق موغلة في القدم وحين سار الإنسان في الأرض ونظر كيف بدأ الخلق كشف لغة جديدة تتحدث بها الكائنات تخبر بها عن زمن حدوثها محددة لم يكن إمكان فهمها وإدراك السابقين أبعادها في الماضي والمستقبل ولكن نحن نفهم أكثر بكثيرمما كان يمكن أن يفهمه السابقون وآية السير في الأرض والنظركيف بدأ الخلق يذكرهاالله في قصة إبراهيم وحواره مع قومه ويقول " وإن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم وما على الرسول إلا البلاغ المبين أولم يروا كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده إن ذلك على الله يسير قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الله الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة إن الله على كل شيئ قدير " وكيفية بدء الخلق وإعادته موضع تطور في القرآن حتى إبراهيم نفسه طلب من ربه وقال " رب أرني كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي " والإنسان في شوق دائم إلى أدلة أقوى، ويذكر الله لنا قصة شوق الإنسان إلى أدلة حتى للإيمان بالبعث في المستقبل، والآية التي قبل الآية التي طلب فيها إبراهيم أن يريه كيف يحي الموتى، هي آية الذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها حيث خطر في باله وقال متسائلا أنى يحي الله هذه بعد موتها فأماته الله مئة عام ثم بعثه قدم الله لهذا المتسائل عن إحياء الموتى الدليل من نفسه ولم يكتف بموته وبعثه بل أقام له الدليل بأن أراه حماره الذي تحول إلى عظام كيف نشزها الله ثم كساها لحما فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شيئ قدير، ونحن يمكن أن نفهم في تتبع تناول القرآن لموضوع البعث والقيامة كيف تطور خلال التاريخ هذا الموضوع، فالقصة التي قبل قصة إبراهيم أماته ثم بعثه وجعل له من نفسه دليلا على أنه كان ميتا فأحياه ورأى ذلك عيانا في عظام حماره، ولكن في قصة إبراهيم لم يمته وإنما أراه في قصة الطير الدليل ولكن التطور الأكبر في هذا الموضوع هوفي القصة التي في سورة ياسين ردا على الذي جاء الرسول (ص) ومعه العظم الرميم متسائلا. " من يحي العظام وهي رميم " ولكن جواب

المتسائل لم يكن بإماته وإحيائه أو بإحياء العظم الرميم الذي كان يفته بيده وإنما كان أسلوبا موجزا متطورا جدا كقانون رياضي في إيجازه قال: " وضرب لنا مثلا ونسي خلقه " مما يدل على أن القرآن انتقل من عصر الخوارق إلى السننية وصار الدليل على البعث والقيامة ، إن الكون كله خلق من كن فكان فتكون من كلمة كن انبثاق الكون الذي يقول عنه الفيزيائيون أنه الانفجار الأعظم ومنه نشأت السحب الهيدروجينية ومنه نشأت العناصر الأخرى التي استمر خلقها حتى وصل إلى الإنسان الذي نفخ فيه الله من روحه وأسجد الكون له وسخرله ما في المساوات وما في الأرض جميعا منه والإنسان يكدح إلى ربه وسيلاقيه "يأأيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه " انشقاق 6 ونحن نؤمن بالآخرة وإن كان غيبا مستقبليا إلاأن أدلتنا من عالم الشهادة ولم يأمرنا الله أن نؤمن بشيئ لايمكن أن يفهمه من فيه روح الله إن العواقب هي التي تدل على صحة الأفكار إن عواقب من يؤمن بالآخرة أعلى وأرفع ممن لايؤمن بها " إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لايرجون" نساء 104 وبإيجاز " قل فإتوا بكتاب من عندالله هو أهدى منهما أتبعه إن كنتم صادقين " قصص 49 هاتوا أهدى وأفضل عواقب نكن معكم ، " أم اتخذوا من دونه آلهة قل هاتوا برهانكم هذا ذكرمن معي وذكر من قبلي بل أكثرهم لايعلمون الحق فهم معرضون " أنبياء 24 والقرآن يقول لنا إن آيات الآفاق والأنفس ستشهد في المستقبل على صدق هذا القرآن ليس هذا فقط بل هذا القرآن سيكشف صدق الذكر الذي من قبل إن آيات الآفاق والأنفس هي المرجع الأخير لكل الكتب بما فيه القرآن ولايستطيع أن ينكر آيات الآفاق والأنفس إلا من سفّه نفسه وأنكر عقله وآيات الآفاق والأنفس سنن ثابتة وثبات السنن ليس في الطبيعة والحياة وأنما في المجتمعات أيضا سننها ثابتة. وأنا لما أبحث هذه المواضيع التي ربما لاأتمكن من ربطها بجلاء بمشكلاتنا الملحة الآن في هذه الأيام التي ارتفعت فيها المشكلات العربية والإسلاميةإلى مستوى مرتفع من الإغلاق والحيرة والعجز والاستسلام والظلمات المدلهمة التي لايمكن أن نسلط عليها أي ضوء مهما كان خافتا، إن حروب الخليج تتطورونحن في العد التنازلي للحرب الثالثة إن هذه الأوضاع لن تتغير ولايمكننا أن ندفعها عن أنفسناإلا إذا كشفنا قانون الله: " ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا مابأنفسهم " أنفال 53 ذكرالله هذا القانون الاجتماعي الأنفسي بعدآية قال فيها " كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كفروا بآيات الله فأخذهم الله بذنوبهم إن الله شديد العقاب ذلك بان الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا مابأنفسهم ذلك إشارة إلى الأقوام السابقة والمعاصرة والقادمة وفرعون ليس اسم شخص وإنما اسم لنظام ورؤية " ألم تركيف فعل ربك بعاد وثمودوفرعون ذي الأوتادالذين طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد فصب عليهم ربك سوط عذاب إن ربك لبالمرصاد " لكل من ظلم نحن لسنا أبناء الله بل نحن بشرممن خلق ليس بأمانيكم ولاأماني أهل الكتاب من يعمل سوء يجزبه ولايجد له من دون الله وليا ولانصيرا من أين نبدأ من التاريخ من أيام الله من معرفة سبب هلاك الهالكين والرؤية القرآنية الظلم هوسبب الهلاك ولكن في العمق المشكلة ظلم النفس بالذات وليس الظلم الذي يأتي من الآخر حيث لن يتمكن الآخر من الظلم إلا إذاوجد من يقبلون الظلم ولم يكتشفوا قانون الله من أن الإنسان الذي كرمه الله لايتمكن أحد من أن يظلمه إن تفهم قانون الله نحن علينا أن نبدأمن جديد من الصفر لنكشف سنن الله وهذه السنن أهم من التسليم للماضين من آبائنا ومن أن نستسلم للذين يخيل إلينا أن مصيرنا بيدهم إننا نعيش في عالم السحر والخيال يخيل الينا أن لامخرج ممانحن فيه بينما طريق هذا المخرج واسع جدا ولكن الضيق هو في رؤيتنا لسنة الله في التاريخ " ذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين " هذه هي رؤيتنا التاريخية وأوضاعنا هي عاقبتها.

130. بل أكثرهم لايعلمون الحق فهم معرضون

هذا سنة من سنن الله في المجتمعات ونحن البشر الذين خلقهم الله ولهم قدرة على كشف السنن، سنن المادة التي تحتوي على لآفاق الجامدة والحية ، والله تعالى لما قال: " سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم " جمع الله فيه الكون المادي والحياة النباتية والحيوانية ثم الأنفس البشرية التي عندها قدرة فهم السنن الإلهية وبذلك يتسخر الكون المادي والحياة والأنفس البشرية التي نفخ الله فيهم من روحه روح المعرفة والتسخير لهذا قال الله للناس " سخر لكم ما في السماوات وما في الارض جميعا منه إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون" الإنسان وحده هو الذي له القدرة على التسخيروهذه القدرة على

المعرفة تولد معه ولكن حصول الإنسان على المعرفة وتحويل هذه القدرة الكامنة إلى واقع بالفعل هذا من جهد البشر، وإلى الآن لاقدرة لناعلى عرض السنن الإلهيةالاجتماعية بوضوح وبلاغ مبين وبدون الوضوح والبلاغ المبين لايتمكن الناس من تحقيق الخير ودفع الشرور والفساد ويظهر الفسادفي البر والبحر بما كسبت أيدي الناس هذا الفسادنتيجةالجهل بسنن الله ومن هذه السنن الآية التي جعلناها عنوانا للبحث (بل أكثرهم لايعلمون الحق فهم معرضون) معرضون عن نصرة الحق بسبب عدم وصول العلم إليهم لأن العلم حين يعم الناس لايمكن أن يعرض الأكثر عن الحق الذي هو صلاح العالم وعدم إفساده وعدم سفك الدماء لأن الإنسان من طبيعته أنه يمكن تغيير جهله إلى علم. فمن هنا كان من الآيات المفتاحية لحل المشكلات المادية والحياتية والإنسانية الوعيد على كتمُ العلم كتم الشهادة كتم الأدلة وعدم إظهارها ومعارضتها إذن من القوانين والسنن الاجتماعية الهامة وجوب نشر المعرفة والتبليغ المبين للحق لأن الفساد وسفك الدماء يكون نتيجة للجهل فمن هنا صار طلب العلم فريضة وتعليم العلم فريضة لتحقيق السلام في المجتمع وصنع دار السلام في هذا العالم وهذا الذي جعل كتم العلم والأدلة والآيات والبراهين من الذنوب الشديدة ومن كبائر الذنوب المهلكة للأمم " إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم" بقرة 160 ويؤكد الله على وجوب نشر العلم وعدم كتمانه فيقول: " إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمنا قليلا أولئك ما يأكلون في بطونهم إلا النار ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولايزكيهم ولهم عذاب أليم " بقرة 174 كتم العلم وكتم الحق من أكبر أنواع الظلم الذي يؤدي إلى الظلمات يقول الله (ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله وما الله بغافل عما تعملون) بقرة 140 والكتمان للعلم والحق والبرهان والآيات لايجعل المجتمع مريضا فحسب بل الذي يكتم العلم لايكون قلبه سليما بل مريضا، ومكافحة مرض القلب وصناعة القلب السليم من مهمة الأنبياء، والعلم صحة نفسية لهذا يقول الله: (ولاتكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه آثم قلبه) بقرة 283 والله أخذ ميثاق الذين أوتوا الكتاب أن يبينوا فقال (وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولاتكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلا فبئس ما يشترون) عمران 187وأنا حين ألح على السنن في مستوى المادة والحياة والإنسان وألح على ذكر آيات الكتاب المتصلة بقوانين المجتمعات وتغيير ما بالأنفس حتى لانكون من الذين يكتمون ماخلق الله من السنن الكونية والا جتماعية في آيات الآفاق والأنفس وفي آيات الكتاب أريد أن أجمع بين آيات الآفاق والأنفس التي يمكن استنباطها من التاريخ البشري وكذلك أذكر آيات الكتاب البينات والهدى التي بينها الله للناس في آيات الكتاب وفي آيات الآفاق والأنفس، والله يقول: (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك أنه على كل شيئ شهيد) فصلت 53 وقدرأينا كيف تعلم الناس من النظرإلى ما خلق الله من مادة وحياة وعقل مُسخِرومصلح للكون المادي والحياة والمجتمع، إن الإنسان سخر الرعد والبرق الذي كان صاعقة فحولها الإنسان إلى أعظم خادم مسخرٍ للإنسان ولم يصل إلى ذلك إلا منذوقت قريب وعاش الناس في الظلام بينما البرق صار خادما أمينا بدونه سيظلم العالم ولايمكن الرجوع عنه وكذلك كَشَفَ الإنسان سنن سلامة الجسد الحي فقضى على كثير من الأمراض فطالت الأعمار وقلت الآلام والحبل على الجرار وكل يوم في تقدم مستمر ولكن الأنبياء جاؤوا لشيئ أكبر من هذا وهو صناعة القلب السليم ومجتمع السلام والله يدعو إلى دار السلام والخروج من دار الفساد وسفك الدماء فهذا الذي لم نكشف بعد علمه فهو في حاجة إلى كشف وتبليغ وعدم كتمان وبشكل ملح وعاجل ونحن نظن أن الإنسان لايمكن تغييره بالعلم وإنما بالقتل هذا الذي جهلناه ومن علمه يكتمه عن الناس ونحن الآن عند هذا المأزق الذي ترك العالِم النحرير حيرانا وأنا وأمثالي من الذين يؤمنون بإمكان صنع المجتمع السليم من الصفرإلى إبرازه بشكل كامل مسجل في التاريخ بأحداث مسيرته يوما بيوم لايتمكنون من إبرازه بوضوح كما جاء في السيرة حتى جاء نصر الله والفتح من غير أن يسفك دم إنسان واحد وتم صنع المجتمع بالسلم المبين على أسس التقوى حدث هذا التغيير الشرعي للمجتمع هذا مانسيه المسلمون من دينهم حين أجازوا صنع السلطة بالإكراه ونبذوا لاإكراه في الدين ولاإكراه في الحكم الراشد كان ختام حياته (ص) حين نزل عليه " اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا " مائدة 3 نزلت هذه الآية في جبل عرفات في حجة الوداع وقال للمسلمين في خطابه أيها الناس كلكم لآدم وآدم من تراب ليس لعربي فضل على أعجمي إلابالتقوى ألا لا ترجعوا بعدي ضلالا يضرب بعضكم رقاب بعض واستوصى بالنساء خيرا واليوم العالم الإسلامي كثير عددهم واسع أرضهم والعالم ينتظر رسالة السلام ونحن مطاردون ضاقت علينا الأرض يقولون لنا ينبغي أن تغيروا مفاهيمكم وأفكاركم وتعاليمكم وتعليمكم وإن لم تفعلوا سنغيركم. إن الله عاقبنا كما وعد من أعرض عن

ذكر الله يقول الله لآدم حين أهبط إلى الأرض " فإما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولايشقى ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى وكذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى أفلم يهد لهم كم أهلكنا قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم إن في ذلك لآيات لأولي النهى " طه 128، لما يقول الله من أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا علينا أن نفهم أن ذكرالله هوذكر سنن الله التي لا تتبدل ولاتتغير ويقول الله (قد خلت من قبلكم سنن) ويقول (وذكرهم بأيام الله) ماذا حدث للناس، هذه العذابات التي نحن فيها لنرجع من الخرافات إلى الآيات التي فيها عبرة لأولي النهى ولأولي الألباب، يقول الله " ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون " وكلما أعرض الناس عن ذكر سنن الله زادالله لهم من العذاب ويكبر الله العذاب إلى أكبر ألما وإهانة في فتن يرقق بعضها بعضا ونحن في حيرة من أمرنا والحليم فينا أشد حيرة كأنه ليس له من دون الله كاشفة ، بل هناك أسلوب للنجاة والفلاح والنجاح من غير أن يخسر أحد شيئا ويربح الجميع الذين يعرفون هذاهم الذين كان موقفه حين " قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم " عمران 174 يا أيها الناس يا أيها العرب ويامسلمون انظروا ماذا يحدث في أوربا إنهم يتحدون بعدأن شبعوا حروبا دينية وقومية ومذهبية وعالمية والآن يعملون تجمعا واتحادا وتعاونا بدون حرب ومن دون أن يخسر أحد شيئا ويربح الجميع ونحن إذا أصلحنا وأعني بنحن ليس السلطة وإنما أصحاب المعرفةالذين هم أصحاب السلطة الحقيقية سلطة المعرفة سلطان العلم كل شيئ يحدث مرة يصير علما وسنة وقانونا يمكن كشفه ونقله إن الحدث الأوربي يمكن فهمه لنعمل السلم العربي البيني لننقلب بنعمة من الله وفضل من غيرأن يمسنا سوء هذا الذي أراه عيانا وصار قريبا فهمه ليس بالخارق ولابالحرب بل بالعلم إني على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده وإن عمي عنه الناس، ولنصبرن على رفع الجهل للخروج من الجهل إلى نور الله الذي سيتمه الله رغم كل الظلمات.

131. أنلزمكموها وأنتم لها كارهون

هذه آية من القرآن أنطق الله بها رسوله نوح عليه السلام في حواره مع قومه وهي خاتمة آية يقول فيها نوح: (يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون) هود28 إن نوحا على بينة من ربه وآتاه رحمة من عنده فعميت هذه الرحمة على قومه. ماهذه البينة التي كان نوح عليها وما هذه الرحمة من عند الله؟ لم يكن هناك أمثلة سابقة من التاريخ يمكن أن يفهم الناس بوضوح تام لحل المشكلات بالرحمة، ولهذا يقول الله عن الأمور التي لا سابقة لها ويمكن الاستدلال بها أن ذلك سيحدث في المستقبل فيقول مثلا: (ولتعلمن نبأه بعد حين) (ويخلق ما لا تعلمون) و(إني أعلم ما لا تعلمون). قال ذلك حين ذكر وسائل النقل وقال ذلك في الرد على الملائكة الذين اتهموا آدم وزوجه بالفساد في الأرض وسفك الدماء قال لهم إني أعلم ما لاتعلمون ونوح نبي الله لما يقول: (أرأيتم إن كنت على بينة من ربي) على بينة وعلم بسنن الله وأن الله آتاه رحمة من عنده؛ أسلوب لصناعة المجتمع على أساس الرحمة، والعلم رحمة وتسخير مجانا، فالإنسان لما يكشف سنن الله يحل المشكلات بالرحمة والإحسان، والحسنة بعشر أمثالها، كمثل الحبة تعطي سبعمئة والله يضاعف لمن يشاء.

قد لا يتيسر لكل الناس فهم هذه الرحمة وهذا العلم ولا اكتشاف قدرة الإنسان على التسخير أو حل المشكلات من غير أن يخسر أحد شيئا ويربح الجميع. إن علاقة تبادل المصالح بدءاً من تقسيم العمل وانتهاء بتبادل نتائجه تؤمن الربح للأطراف جميعاً. وأول وأكبر علاقة بشرية هي العلاقة الزوجية في بناء الأسرة وفيها تبادل لأعظم المصالح، وهي مبنية على المودة والرحمة بحيث لا يخسر أحد من الزوجين شيئا ويربح الاثنان (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة). هذا إن قبلوا العدل والإحسان وأما إن رفضوا كلمة السواء ولجأ القوي إلى

الاستكبار فهذا هو الفساد في العلاقات ويؤدي إلى الخسران للطرفين، لهذا علينا أن نفهم أن العلاقات يمكن أن تبنى على الرحمة والربح لكل الأطراف من غير أن يخسر أحد شيئا إلا من أثم وظلم واستكبر.

إن نوحا من أوائل الأنبياء في التاريخ وفي ذلك الزمن لم يكن التاريخ متراكما واضح المثلات والعبر، لأن الإنسان يتعلم بالمثلات والاعتبار من أجل إنشاء علاقات بدون خسائر، والاعتبار معناه أن الأول يكون دفع الثمن لكن الآخر يأخذ ذلك بالمجان، وعيسى عليه السلام يقول: أخذتم مجانا وتعطون مجانا، لأن غيرنا دفع الثمن، وأول من أخطأ وتاب عن الخطأ حولت سيئته إلى حسنة واستخلف في الأرض، هكذا خلق الله المجتمع الذي له القدرة على الاعتبار من الأخطاء والخسائر في الأموال والأرواح وتفادي تكرارها، ولهذا فالمؤمن لا يلدغ من جحر واحد مرتين، لأن أمر المؤمن مبني على الرحمة وعدم تكرار الأخطاء، وكل من أخطأ وخسر يكون موضع اعتبار ليتفادى من بعده الخطأ هذا إذا كان له قدرة على الاعتبار، والله يقول: (فاعتبروا يا أولي الأبصار) ويقول: (إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار) وفي قصص القرآن لأولي الألباب ولمن يخشى العواقب الخاسرة في الدنيا والآخرة.

إن سبب ختم النبوة لأن آيات الآفاق والأنفس صارت دليلا على صدق الكتاب، وآيات الآفاق والأنفس هي التي تشهد على صدق وحقية آيات الكتاب لأننا نحن البشر نتبين أن القرآن حق من آيات الآفاق والأنفس "سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم انه الحق " وآيات الآفاق والأنفس تزدادكل يوم جلاء ووضوحا وتواترا وتكاثرا بحيث يتقدم إلى أن لايتمكن أحدمن إنكارها (إلا من سفه نفسه) وأنكرعقله وسمعه وبصره، ونوح عليه السلام لما يقول آتاني رحمة من عنده معناه حل المشكلات بالرحمة من غير أن يخسر أحد شيئا ويربح الجميع وعطاء الله لانفاد له لمن يسير على صراط الله المستقيم ولكن المثلات التي تأتي منها العبر كانت قليلة ونادرة إلاأن الزمن يراكمه بقانون: (الزبد يذهب جفاء ومابنفع الناس يمكث في الأرض)

ونحن في عصرنا هذا نجد أحداثاً وأمثالاً لم يكن ليتمكن أحد أن يراها في واقع الحياة ولا عجب أن لا يصير في دعوة نوح قومه وأن لا يروا الرحمة في دعوته، ولكن نحن نشاهدا قوماً كشفوا شيئاً من الرحمة في العلاقات في هذا العصر ويحلون مشكلات كبيرة يعجز الآخرون عن أن يروها أو يفهموها. إن الوحدة الأوربية والاتحاد الأوروبي خلق جديد في عالم العلاقات حتى مستوى فوق القومية ليس دعاوى وكلمات وإنما وقائع على الأرض تحدث أمام العالم جميعاً يرونها ولا يستطيعون أن يفهموها ولا يكشفوا قوانينها وكيف أنها رحمة إنهم يحلون المشكلات من غير أن يخسر أحد ممن دخل معهم شيئاً بل يربح الجميع وهم ليسوا في حاجة إلى أن يفرضوا علاقاتهم بالقوة والجيوش ليفتحوا البلاد بالحروب إنهم شبعوا حروباً مذهبية ودينية وقومية وحروب محلية وقاموا بحروب عالمية ودفعوا من الأموال ما لا يحصيه إلا الله ودفعوا من قتلى الأنفس البشرية وبعد هذا كله الآن يحلون المشكلة بقانون الرحمة والعدل والمساواة لأن العدل والمساواة رحمة، تركوا الحروب فيما بينهم بل يطلبون ممن يريد أن ينضم إليهم شروطاً حتى يقبل معهم أن يلغي حكم الإعدام.

ليس بالقتل تحل المشكلات إن هذا الحدث الأوروبي حدث حديث، سنة حديثة لمن يتذكر هذا النموذج المحدث المبتكر المبني على العلم وعدم الإكراه وبرضا الشعوب وإقرارهم والتشاور المتروي الذي يأتي بعد تكفر وتدبر ويفهمون أنهم سيربحون ولا يخسر أحد منهم شيئاً بل يزاد فيما عندهم لأن كل تعاون على الإثم والعدوان خسارة ونقصان وهذا لم يبلغ حد الكمال بل لا يزال في البدء وهذا الاتحاد يمكن أن يكون نواة لوحدة عالمية مبنية على كلمة السواء وكلمة التقوى وأن لا يكون بينهم أرباب وعبيد، هذا حدث محدث إننا لا قدرة لنا على تأمله بل نسخر منهم أو نعتبر ذلك مستحيلاً لكنه ممكن عندهم وأمر واقع بعد أن دفعوا ثمنه أموالا لا تحصى ودماء لا تقدر بثمن ويمكن أخذ هذا مجانا بشط واحد أن نقبل أن لا يخسر أحد شيئاً ويربح الجميع ونحن لا نقبل أو لا نتصور أو لا يمكن أن نرى ونبصر ونحن صم عن هذا الحدث وعمي لأنه عمي علينا كما قال نوح (وعميت عليكم) وهذا لا يفرض بالقوى لأن الدين والسياسة لا تفرض بالقوة فما يفرض بالقوة والإكراه لا يكون دينا ولا سياسة راشدة لأن الإكراه ضد الرشد لا يوجد فينا من يتمكن من عرض هذا الموضوع، فنظن أن التاريخ كله فشل وخسارة، لهذا يذكر القرآن الأقوام الذين هلكوا لأنهم لم يعتبروا ولم يكونوا أولي أبصار بل

عميت عليه الأنباء يقول الله (كل كذب الرسل فحق وعيد) وفي القرآن استثناء واحد للهالكين وثم قوم يونس (فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين) يونس 98.

لقد نفع أوروبا إيمانها بكلمة السواء، والمسلم يقول إن هؤلاء يتحدون على المصالح لا على أساس إخلاص العمل لله.

يا قوم أقول لكم إن من يعمل بسنن الله ولو لم يؤمن بالله يعطيه عواقب سنن الله وإن شئتم اقرؤوا سورة الإسراء (كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا) حين نفهم الوحدة الأوربية على اساس علم نستطيع أن نقول نحن نريد اتحاد مثل الاتحاد الأوروبي من غير أن يخسر أحد شيئاً ويربح الجميع إن من يفهم هذا يمكنه أن يتكلم به ولكن إن لم يفهم هذا ولم يسمع أحداً يتكلم به فكيف سيغير ما بنفسه، وكيف سيفهم أن الاتحاد الأوربي أفضل مما عليه العرب الذين لا يقدرون على أن يفكروا بعقولهم أن حل المشكلة ممكن من غير أن يخسر أحد شيئاً ويربح الجميع.

أرجو من العرب ومن المسلمين والمستضعفين في الأرض الذي نلم يصابوا بالعمى أن يفكروا في إمكان الحل من غيرأن يخسر أحد شيئاً ويربح الجميع هذا الذي أريد أن يتكلم به الجميع ويستعملوا أسماعهم وأبصارهم وأفئدتهم في فهمه والإيمان به، والبدء بالدعوى إليه بالبيان والحكمة وتوضيح أن هذا ممكن وواجب وليس منكراً ولا مستحيلاً اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون.. وسنظل نتكلم بهذا حتى يتحول إلى عمل واقعي ولا يرفضه إلا منس سفه نفسه، ولما نعلم نحن هذا نكون غيرنا ما بأنفسنا وبعد ذلك فوراً سيغير الله واقعنا وإذا رأيناه مستحيلاً فسيأتي من يخدعنا ويحاول أن يحقق ذلك بالإلزام وهو غير ممكن.. أنلزمكموها وأنتم لها كارهون...

132. - موعدكم يوم الزينة 27-11-2002

في مقدمة ما نريد بهذا الكلام علينا أن نذكّر بقاعدة قرآنية وهي أن القرآن قام بدور الانتقال من المرحلة الخوارقية إلى المرحلة السننية، وهذه فكرة أساسية لفهم أن الكون ليس خلق وانتهى وإنما لا يزال يخلق ويزاد في خلقه وهذه الزيادة في الخلق للأحسن والأنفع للناس، وهذا قانون تفاؤلي يؤدي إلى فعالية الإنسان، لأن قانون الزبد – الذي لا يرحم أحداً – يذهب بالزبد جفاءً وما ينفع الناس (كل الناس) يمكث في الأرض. وكون القرآن انتقل بالناس من الخارق إلى السننية شيء هام، فالقرشيين طالبوا بالخوارق كما حدث للأنبياء والأمم السابقة وقالوا ((فليأتنا بآية كما أرسل الأولون)) أنبياء 5, ((وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين، أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون)) عنكبوت 51.

كان الجواب على هذه المطالب بأن الكتاب كاف وأن آيات الآفاق والأنفس ستشهد على صدق آيات الكتاب, فانتقل الدليل والمرجع إلى آيات الآفاق والأنفس, ((سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق))، نحن نؤمن بالغيب ولكن الدليل صار من عالم الشهادة, آيات الآفاق والأنفس وينبغي أن يتوسع في هذا الموضوع حتى يترسخ.

إن قانوني النسخ والزبد متشابهان ((ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها)) فإذا جاء الخير والأبقى نُسخ الأقل خيراً ودواماً.

أما يوم الزينة الذي كان موعد التحدي على صدق موسى ونبوته التي حدث فيها الخارق حين ألقي السحرة ساجدين فقد تحول إلى (سننية) وإلى خيار الناس، لقد تحول إلى (يوم الاقتراع العام) حيث تحول تكذيب فرعون بكل الآيات وتحدي السحر بالخارق في موعد محدد يدعى يوم الزينة يحشر فيه الناس ضحى إلى آخره؛ تحول هذا في أيامنا إلى الاقتراع العام الذي يتوافد فيه الناس ليظهروا خيارهم، وهذا تحول كبير يشكل آلية لمعرفة عاقبة

الشورى وليتبين الرشد من الغي وينفى فيه الإكراه ويتحقق ((لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها)).

في أيامنا هذه وفي ما يأتي من الأيام تحدث تغيرات كبيرة في هذا الموضوع فانتقلنا إلى السننية لمعرفة خيار الناس ونفي الإكراه عنهم، وهذا أمر مهم بدأ العالم الإسلامي يتفهمه فلا يخاف من استبعاد الإكراه في الدين. لقد بدأنا نفهم أن دين الله لن ينهزم إذا رفع عن الناس الإكراه، وبعبارة أخرى أن الحق والباطل إذا أعطيا فرصاً متكافئة لن ينهزم الحق، ففي ذلك فيه سوء ظن بالحق وبالله، وهذا الظن يؤدي إلى التردي والخسران يقول الله ((ذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين)) وعلى المسلمين أن يرفعوا ثقتهم بالحق وبالرشد وبرفع الإكراه عن الناس فهذا لا يوهن موقفهم بل يجعل عروتهم وثقى لا انفصام لها.

إن عدم تناول هذا الموضوع بتفصيل دقيق واضح يجعل كثيراً من الأمور في غموض لا قدرة لنا على تفسيرها، وعلى المسلمين أن يتقبلوا عدم الإكراه في الدين والسياسة إذا كانوا يريدون أن يستمسكوا بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها، وهذا الخوف الذي يسكن المسلمين في هذا الموضوع يجعل سعيهم بائساً وموقفهم شكاً وارتياباً، ونحن نرى في العالم الإسلامي ظهور تجارب جديدة تضيء الطريق فتركيا مثلاً, هذا البلد الذي تنكر للإسلام في وقت مبكر فألغوا الخلافة غير الراشدة، الملك العضوض، وتمسكوا بالعلمانية بسذاجة شديدة، ولكن بعد نحو سبعين سنة تعلم المسلمون في تركيا كيف يتحدون الديمقراطية والعلمانية بعد معاناة شديدة، حيث الذي نجح في الانتخابات أيام عدنان مندريس قام عليه انقلاب وأعدم بعد محاكمة مثل محاكم التفتيش ولكن هذه المرة, الذي كان يحكم هو العلمانية ثم بعد ذلك في عهد أربكان حدث عليه انقلاب وأودع السجن ومنع من ممارسة النشاط السياسي. ولكن الآن نجحوا بشكل أقوى وهم يريدون أن يرسخوا فكرة الديمقراطية والشورى ومحاربة الفساد والامتيازات وإعطاء الحرية للناس ورفع الإكراه عنهم ويتحدون العلمانية والديمقراطية دون خوف من أن ينهزم الحق أمام الباطل الفاسد. وفي الواقع إنهم أظهروا وعياً متقدماً فإنهم بذلك يرسخون فكرة لا إكراه في الدين ولا في السياسة وفهموا الديمقراطية على أنها إبعاد للعنف والعسكر وتحاكم إلى العقل وقد يغدر بهم، وربما يسلب منهم كما حدث في الجزائر ولكن قد بلغ الأتراك درجة من الوعي أثبتوا أنهم لن يلجؤوا إلى العنف، إنهم قد بلغوا الرشد، ووثقوا بالعقل، وهذه ظاهرة جديرة بالتقدير والتقييم وكذلك فإن إيران تقدمت هي الأخرى من طريق آخر إلى الديمقراطية، بالرفض السلمي للحاكم الطاغي، فقدموا للبشرية نموذجاً جديداً في تاريخ البشرية قاطبة. بالسلم ثبتوا على الحق وقدموا الورود للجنود وتقبلوا تحدي الموت بالآلاف تحت نيران الطائرات الحربية وقذائف الدبابات الأرضية، وطردوا أعظم قوة مدعمة من أمريكا من غير أن يطلقوا على الشاه أو على جنوده رصاصة واحدة. علينا أن نقدر ونثمن هذا الحدث الذي لم يحدث مثله في التاريخ البشري، ينتصر الإنسان الأعزل والمرأة العزلاء على الطائرات والدبابات. إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم.

علينا أن نقول للناس أن هذا الحدث من آيات الله الكبرى التي يريها الله لعباده ليعتبروا بها ويستفيدوا منها, نعم انتصروا على الجنود المجندة والمدججة بالسلاح الحديث والمتطور، ولكن بقيت عندهم مشكلة لا في صورة العسكر والجنرالات فقد تغلبوا عليها بنصر مبين وجعلها الله آية للعالمين، ذلك أن الاعتراض والإعاقة جاءت في إيران بشكل مختلف عما حدث في تركيا بواسطة الجيش فقد انتصر الإيرانيون على الجيش بأجسادهم المفتوحة الصدور للنيران ولكن الالتفاف على الرشد وعلى اللاإكراه جاء في صورة نزاع داخلي بين الدعاة المسلمين أنفسهم، وهذا النزاع أهم وأخطر وأصعب وإن كان الأتراك ربما تجاوزوه وأملنا فيهم كبير.

إن هذه المشكلة التي برزت في إيران يمكن أن تبرز في كل بلد إسلامي بين المحافظين والإصلاحيين بالمصطلح الذي أطلق على المتنازعين في إيران، والذي يطلق القرآن على هذا النوع من النزاع مصطلح الآبائيين مقابل من يرون آيات الآفاق والأنفس التي وعد الله أن يريها عباده حتى يتبين لهم أنه الحق.

نحن لا نخاف على شريعة الله أن تنهزم، فنحن الذين ننهزم ونحن الذين نصد عن سبيل الله من غير أن نشعر ونفتري على الله الكذب حين نتنكر لآيات الله في الآفاق والأنفس، والعالم في تعمقه لآيات الله في الآفاق والأنفس تمكن من إحداث وسائل نقل من آيات الآفاق غير الوسائل القديمة التي وعد الله أنه سيخلقها وفعلاً قد خلقها عباده الذين تمكنوا من تسخير سنن الله فرأينا من وسائل النقل ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على بال السابقين ((والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق مالا تعلمون)) وكذلك أرانا من آيات الله في الأنفس وسيلة جديدة في انتقال أو تداول السلطة غير القتل والاغتيال والغدر التي جعلت أحدنا لا يثق بأحد. هذه الوسيلة الجديدة التي ابتكرها العالم بعد أن دفع ثمنها غالياً دماءً ودموعاً هي الانتخابات بالاقتراع, الديمقراطية, الرشد, السلم الذي أمرنا الله أن ندخل إليه كافة وهذا تطور أمني وسلمي من دون أن يخسر أحد شيئاً ويربح الجميع, الخاسر فيه رابح لمن يتأمل.

بفضل هذا التطور والاهتداء إلى حل جديد سلمي تتحد أوروبا الآن من غير أن يخسر أحد شيئاً لا مالاً ولا ملكاً ولا أرضاً، وهذا خلق جديد أعجب من وسائل النقل. علينا فوراً أن نفكر بدون انقطاع لنقيس هذا التوحد والتوحيد والاتحاد السنني بدون تأخير وهذا ما نددندن حوله, إنهم يرونه بعيداً ونراه قريباً والأحداث تدفعنا إلى ذلك دفعاً شديداً لا خيار لنا فيه غير الاستجابة لنداء الحق، ومن يعرض عن هذا إلا من سفه نفسه ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ((ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا)).

133. إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف

المبدأ الأساسي في القرآن ((لا إكراه في الدين)) معنى هذا أن الإنسان لا يُكره على الإيمان بفهم أو الرأي مهما كان ما في ذهنه من خطأً، فقد أعطت فكرة ((لا إكراه في الدين)) حق البقاء للدين الخطأ، ولا يقال لأحد: آمن بكذا وإلا سأقتلك. إن غموض هذه الفكرة جلب على المسلمين أخطاء وبلاءات لا نهاية لها، ومما يدخل في هذا الموضوع صنع الحكم بالقوة والإكراه.

علينا أن نحدد بوضوح أن الإيمان والكفر لا يغيران بالإكراه واستخدام التهديد بالقتل والتعذيب الجسدي، وأنا لي حق أن أفهم كتاب الله ودينه ولست مسؤولاً أمام الله عن السادة والكبراء، ولن يقبل مني أن أقول ((إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا)) وأنا لما أدخل في دين الله ينبغي أن أفهم دين الله، ودين الله خلال الزمن يتوضح أكثر ويتبين لنا ما لم يتبين للذين من قبلنا من صدق أحكام الله، وأن التمسك بدين الله يعصم من يتمسك به، وهذه العصمة والحماية تزداد على مر الزمن، ونرى مصداق ذلك في آيات الآفاق والأنفس وتطور مفاهيم البشر خلال الزمن إلى ظهور صدق آيات الله وأحكامه بوضوح أكثر وأن اللاإكراه صار مبدءاً عالمياً، وإن كان بدأ بشكل محدد في مكان محدد من العالم إلا أنه يتوسع على مدى الزمن ويترسخ في النظام البشري وينتشر ويحكم هذا التحول قانون الله الكبير لبيان الحق والباطل في قوله تعالى ((فأما الزبد فيذهب جفاءً وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض)) الرعد 17. وهذا مبدأ تفاؤلي وطريق ذو اتجاه واحد لا يتراجع في عموم البشر فإن تراجع في مكان يتقدم في مكان آخر على سنة الله في مداولة الأيام بين الناس, كان يحدث ذلك تلقائياً دون تدخل وعي البشر ولكن وعي البشر بدأ يدخل إلى هذا الميدان.

من دون فهم أبعاد هذه العقائد والأحكام بوضوح لا يمكن أن يخرج الناس من الظلمات إلى النور، ومهما كان أثرنا نحن ضئيلاً وصوتنا خافتاً وحججنا تشكو القصور، إلا أن الزمن يتسارع في إرغام الناس على قبول أحكامه واحترام عقل الإنسان وما أودع الله في الإنسان حين نفخ الله فيه من روحه روح الفهم والعلم والإدراك. إن تمكن جيل من الأجيال من تحدي هذه الحقائق فإن الأجيال التالية ستفهم، والأفكار النافعة ستمكث في الأرض وكذلك الوسائل النافعة التي تعطي المردود الأكثر والأكبر ستفرض نفسها رغماً عن الجميع، وفي العالم الإسلامي الأتراك يمكن أن نقول أنهم سبقوا في التنكر للإسلام ولكن هذا البلد السابق في التنكر للإسلام، يسبق العالم الإسلامي في العودة إلى المبادئ والمنطلقات الكبرى في دين الله، وهم يقبلون الفكرة

العظمى في الإسلام ((لا إكراه في الدين)) وهذا عودة إلى احترام روح الله في الإنسان. إن عقل الإنسان هو روح الله فيه لا يعطي العطاء الكبير إلا بالإقناع، وهذا بدأ في العالم الإسلامي من جديد، فعندما يتقبل الأتراك فكرة عدم الإكراه في الدين يكونون دخلوا إلى الباب الواسع لكل النجاحات، فإذا كان اللاإكراه في الدين الذي هو أهم شيء في حياة الإنسان فسوف لن يكون هناك إكراه في السياسة.

إن فكرة لا إكراه في الدين صارت مطلباً عالمياً، ودلت آيات الآفاق على صدق هذه الفكرة، كما أن تردد البعض وخوفهم من قبول هذه الفكرة لا يدل على وعيهم وإنما على جهلهم لأحكام الله ووقائع التاريخ. فالاتحاد السوفييتي سقط لأنه كان يمارس الإكراه في الدين. وكما انتشرت فكرة لا إكراه في الدين في عبارة حرية العقيدة، كذلك انتشرت فكرة لا إكراه في السياسة في عبارة الديمقراطية (التي معناها نبذ العنف والتحاكم إلى العقل في إقناع الناس وتقديم حلول أفضل) فمن يقنع الناس يقودهم. هذه الأفكار لا يرفضها إلا الذين لا يفهمون دين الله الذي أرسل به رسله وأنزل به كتبه و– سفه نفسه – وأنا حين ألح على هذه الأفكار فذلك لأنها لم تترسخ عندنا نحن المسلمين حين نرى في العالم الإسلامي صدور أحكام الإعدام على الناس لأجل أفكارهم ومفاهيمهم وعقائدهم.

إن الأتراك بحسب ما أتصور من التجارب التي عندهم لقد آمنوا بلا إكراه في الدين ولاإكراه في السياسة، وأنهم لن يلجؤوا إلى العنف في صنع الدين ولا السياسة وهذا الإيمان عندهم أصل كبير نرجو أن يتعمق ويتوسع، بذلك سيكونون قدوة للمسلمين في العودة إلى الإسلام الذي هو دين كل الأنبياء وهدف كل الكتب، وهذه المقدمة أكتبها لأنها الأرضية التي بواسطتها نفهم عنوان المقالة من سورة الأنفال ((قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف وإن يعودوا فقد مضت سنة الأولين)) الأنفال 38. هذه الفكرة كبيرة أيضاً تساعد على زوال الباطل والكفر بما ينفع الناس لأن هذا دليل على علو الفكر الإنساني وعلو روح الله في الإنسان لهذا فكرة العفو عن المخطئين هدف أساسي ويتجلى هذا في فتح الباب ليس للعدل فقط بل للإحسان، إن كان العدل حقاً فإن الإحسان أعلى من العدل، لهذا يقول الله ((إن الله يأمر بالعدل والإحسان)) والإحسان أعلى درجة من العدل, العدل واجب القاضي ولكن الإحسان هو العفو والتنازل عن الحق لشيء عميق وكبير يأسر الإنسان ويحوله إلى ولي حميم، ولا يتمكن منه إلا أصحاب العقول الكبيرة والهمم العالية والذين ينظرون إلى المقامات العليا، لهذا علينا أن نبحث هذه المواضيع بتعمق ونتخذ من التاريخ وعواقب الأفعال الأدلة والشواهد على أن هذه الأهداف أدلتها ليست من عالم الغيب وإنما صارت أدلتها من عالم الشهادة، وعلى المسلمين أن تتسع صدورهم عن الأحقاد والأغلال والآصار وحب الانتقام ويكون شفاء قلوبهم وحصولهم على القلب السليم الذي لا شيء غيره ينفع الإنسان يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم إننا صرنا نرى أدلة صدق هذا في عالم الشهادة في الدنيا قبل الآخرة، قد يكون الذين يؤمنون باليوم الآخر أقدر على ذلك حيث عندهم دافع أغلى لأنهم ينبغي أن يعلموا ويروا أدلة ذلك من عالم الشهادة وأن يفهموا معنى العفو والغفران, ((وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين)) آل عمران 134 والذي دعاني لتناول هذا الموضوع قول الرسول وفق هذا المفهوم (الإسلام يجب ما قبله) والدخول إلى العدل والسلم ينبغي أن يجب ما قبله والديمقراطية ينبغي أن ترتفع إلى مستوى أن تجب ما قبلها وعلى الشباب في العالم الإسلامي الذين امتلأت قلوبهم سخطاً ويقومون بتجارب مؤلمة أن يتذكروا هذا وأن ينتقلوا إلى التفقه في فهم سيد الشهداء وموقفه المبني على المعرفة المبنية على الصراع الفكري وقوانين لفكر ، وأن لا نخلط قوانين الفكر بقوانين الجسد والأمثلة القديمة والحديثة في العالم الإسلامي والتاريخ البشري تدلنا على صدق أحكام الله وسننه في المجتمعات البشرية، وعلينا أن لا تؤثر على نفوسنا الأخطاء العالمية وخطايا العالم الإسلامي التي أوصلتهم إلى ما هم عليه الآن كل ذلك لأننا لم نفهم روح الله في الإنسان فإذا فهمنا تسخر لنا الكون وسنفهم كلمة رسول الله لقريش كلمة واحدة تعطونيها تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم والمستقبل مشرق وقادم.

134. جاء دور المثقف في تحميل المسؤولية

وإن كان جاء متأخراً والموضوع في بدايته الأولية إلا أنه جاء دوره. كنت أقول المثقف المختبئ الذي لا يحمله أحد مسؤولية تدهور العالم حيث كان ينظر إليه أنه أعزل وعاجز ليس معه قوة حيث القوة محصورة في العضلات والعصي والسيوف والقنابل أما العقل والجهاز العصبي التي هي أضعف الخلايا مقاومة فلا حيلة لها، إن الدماغ هش لولا حماية الجمجمة إلا أن روح الله المنفوخ في الإنسان هناك مستقرة.

لقد تجاوزت الإدانة السياسيين إلى المثقفين على اختلاف أنواعهم وتخصصاتهم، إن البحث عن العلماء في العراق لاستجوابهم، وإدانة المناهج التربوية على مختلف أنواعها، وبدء توجه الإدانة إلى الذين يضعون المناهج التربوية ويفسرون العالم ويفسرون الإنسان وكيفية تصنيعه سواء نسبت هذه الرؤية والتفسير إلى الله أو البشر فإن البحث عن المشكلات بدأ يأخذ مكاناً أو يتوجه إلى مستوى أخر من الرجال الذين كانوا في الظل إن لم نقل في الظلام. إن هذا التطور تقدم جيد وهو موافق لقانون الله الأبدي وسنته التي لا تتبدل ولا تتحول إلا إلى الأفضل والأعم نفعاً حيث يذهب الأقل نفعاً جفاء ويسخ لان قانون الله: ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها.

وقانون الله في أن الأنفع للناس هو الذي سيبقى ((كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال)) رعد 17.

إنني لما أستشهد بآيات من القرآن لايخفى علي أن هذا الاستشهاد بآي القرآن بضاعة لكثير من الناس حتى أن الذي لا خبرة له يضيع بين المتناقضات والتفاسير المختلفة. إن النزاع بين الآديان والمذاهب الأصلية والفرعية عام طاغ يدعي كلٌ ما يريد، ليسو من الذين لهم بصر في مراتب الوجود ومراتب الآيات المكتوبة على الورق وآيات الله في الآفاق والأنفس، إنهم يجهلون العلاقة بين آيات الكتاب وآيات الآفاق والأنفس، فالتفريق بين آيات الآفاق والأنفس خفي إلا عند من رحم ربك. إن آيات الآفاق هي سنن الكون المادية أما آيات الأنفس فهي خلق آخر ولها قوانينها وسننها النفسية. إن قوانين الفلك والكهرباء والجاذبية قوانين كونية مادية وقد تنازع البشر فيها وأخطأوا في فهم أوضح شيء في الوجود الكوني الفلكي حول شمسنا التي نعيش في ضوءها، لم يكن ذلك التنازع على أساس آيات الكتاب وإنما آيات الآفاق والرؤية البصرية الخادعة حتى كان الناس عندهم استعداد للموت من أجل رؤيتهم وإرسال المخالفين لهذه الرؤية إلى الموت، فهذا الاختلاف لما بدأ يزول بين الناس لم يكن النزاع في الكتاب وتفسيره وإنما كان النزاع في حركة الفلك والذي حل المشكلة هو الرجوع إلى الفلك الدوار، وكذلك الآن حين يكون النزاع على الكفر والإيمان وتنزل عقوبة الموت على الذي يفهم الإيمان على شكل مختلف من النموذج نفسه. فمن هنا كان لا إكراه في الدين (= في الفهم في الرؤية الاعتقادية في التفسير) سواء كان الفهم متعلقاًً بالفلك أو بقواعد الإيمان. لا إكراه في في فرض رؤية معينة على الناس في مجال الأفكار. الله حمى مجال الأفكار ليكون موت الأفكار موتاً طبيعياً فالله أوجب أن لا يكون تغيير الأفكار بالأكراه وإنما بالإقناع أي بالدليل والبرهان (= التي هي العواقب بحسب القرآن والتاريخ). إنني أذكر هذه الأفكار التي لم تكن تطرح لأني أشعر أن يوم الصراحة أو يوم الفضيحة أو يوم الزينة (لاقتراع على الأفكار وحمايتها من العدوان عليها بدون إقناع) أشعر أن هذا فكرة أولية وإن جاءت متأخرة.

إن الإكراه في الدين والأفكار يناقض الواقع البشري، فهو لا يصنع إيماناً ولا كفراً وليس له أي دور في تقويم الأفكار، شأنه شأن تقويم العملات والسلع في الاقتصاد، ليعلم من خفت موازينه ومن ثقلت موازينه.

إن أصابع الاتهام بدأت الآن تتوجه إلى مثقفي العالم العربي والإسلامي وعلى الذين يوجهون هذا الاتهام أن يعملوا حساب أن لا تتوجه إليهم أو تعود إليهم هذه الاتهامات ولكن هيهات هيهات أن يقبل الناس أو أن يقبل العقل أو الجهاز العصبي الذي خلقه الله ونفخه في الإنسان أن يبقى محصوراً في حمل الآصار والأغلال التي تحول دون أن يفهم الناس آيات الآفاق والأنفس، وبعد أن يفهموا آيات الأفاق وآيات الأنفس سيفهمون بعد ذلك آيات

الكتاب بشكل يطابق ما خلق الله في الوجود الكوني والإنساني مع ما أنزل من الكتاب، وأنا أشعر بكمال تواطؤ ما خلق الله في الآفاق من كون مادي وما خلق الله في الأنفس من مخلوق بشري سُخر له ما في السماوات والأرض، أشعر بتواطؤ وتوافق بين ما خلق الله من واقع مادي ونفسي بشري مع ما أنزل الله من كتاب على من اصطفاهم من البشر، ويمكن تعليم ذلك للأطفال من أن انتهاء عهد النبوات لم يحصل في تاريخ البشر إلا بعد أن فتح الله عهداً جديداً من كشف صدق آياته في الآفاق والأنفس وأن الذي سيشهد على صدق آيات الكتاب هي آيات الآفاق والأنفس وهنا تحول البرهان والشهادة من آيات الكتاب إلى آيات الآفاق والأنفس ولهذا من لا يعرف آيات الآفاق والأنفس لا تقبل شهادته في هذا الزمان الذي ظهرت فيه آيات الله في الآفاق والأنفس، وسيتأمل المسلمون عند ذلك كثيراً قول الله تعالى:

((سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد)) فصلت53.

إن بالإمكان تعليم الأطفال آيات مفتاحية من كتاب الله بحيث لا يمكن أن يتلاعب عليهم لا أستاذ الجامع ولا أستاذ الجامعة، ويمكن فهم الإيمان وفهم نظام الكون والإنسان مثلما نفهم الفيزياء والرياضيات والاقتصاد والله لما يقول: ((أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ولو كره الكافرون)) وسنفهم الشرك والكفر بشكل جديد من أن من لا يقبل سنن الكهرباء لن تتسخر له ومن لا يفهم سنن النفس لا يمكن أن تخضع له الأنفس.

إن ظهور دين الله وعلم الله في الإنسان من أنه سيقضي على الفساد في الأرض وسفك الدماء سيتحقق، وأدلت ذلك أتت من آيات الآفاق والأنفس وحين يفهم الأطفال لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي سوف لن يصعب عليهم أن يفهموا أن حق الفيتو في مؤسسة الأمم المتحدة الخاص بالخمسة الكبار والذي اختزل في الكبير الواحد كرس وجود بعض البشر فوق القانون وهذا هو الشرك الذي يحبط جميع أعمال البشر، يقول الله: ((لقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك، ولتكونن من الخاسرين)) لا بد أن يخرج الناس من عبادة ما ينحتون وسيأتي نصر الله والفتح وسنرى دخول الناس في دين الله أفواجا، والذين يريدون الآن أن يغيروا حكام العرب ويغيروا مناهج التعليم ويدخلوا إلى حرم المقدسات عليهم أن يتذكروا أن حرمهم المقدس ليس آمنا فالتقدم إلى فكرة لا إكراه في الدين وحرية الناس فيما يعتقدون ستصل إلى الأمم المتحدة الصنم الذي لا طهر له وأن الصواريخ والرؤوس النظيفة أو القذرة لن تحل المشكلات البشرية.

ألا فليعلم العالم المتخلف وكذا الذين يزعمون أنهم عالم متقدم أن الأفكار لا تنشر بالإكراه ((أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون))، وأن الشرعية لا تأتي إلى الأرض ولا تنزل من السماء بالاعتماد على القوة التي تقهر الناس سواء تحت اسم الأمم المتحدة أو الولايات المتحدة، وكل الصغار الذين يحمون أنفسهم بالقهر عليهم أن يعيدو حساباتهم، إننا المسؤولون عن توضيح الخرافات الصغيرة والكبيرة التي نعيشها ويخيلون إلينا أن الحبال والعصي تسعى أو تؤدي دوراً في حياة الناس، إن الله ليس له أبناء أو آباء لا يخضعون للقانون، وتقول أمريكا أنها ابن الله الوحيد الموكل بكل البشر والمخلص الوحيد في هذا العالم.

((وقالوا اتخذ الله ولداً، لقد جئتم شيئاً إذا تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا أن دعوا للرحمن ولدا وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا إن كل من في السماوات والأرض إلا أتى الرحمن عبدا)) مريم 93.

135. قل هو الله احد

وفي الإنجيل أول كل الوصايا (الرب إلهنا واحد) وفي التوراة (أنا الرب إلهك لا يكن له آلهة أخرى أمامي).

عيسى عليه السلام صدق موسى والتوراة وكذب اليهود، ومحمد عليه صلوات الله صدق موسى وعيسى وصدق التوراة والإنجيل وكذب اليهود والنصارى، ولو أن نبياً كان سيأتي لكان صدق موسى وعيسى ومحمداً وكذب اليهود والنصارى والمسلمين.

وبما أن عهد الأنبياء ختم فلا يعود يأتي نبي، لذلك على أهل العلم أن يقوموا بهذا الدور في فهم ماذا كان يريد الأنبياء من البشر ولماذا أرسل الله الرسل وأنزل الكتب، وما معنى الله واحد؟ لما كان يقول أرنولد توينبي الحضارات كلها تواضعت ما عدا الحضارة الغربية التي ترى نفسها ابن الله الوحيد، كنت أقول في نفسي ألم يتأمل توينبي المسلمين أنهم لن يقبلوا أن يكون أحد غيرهم ابن الله الوحيد.

ولكن ما علينا من هذا الجدل إن الله قال عن الذين قالوا: ((نحن أبناء الله وأحباؤه)) قال لهم ((قل فلم يعذبكم الله بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق)) مائدة 18 وقال الله للذين قالوا لن يدخل الجنة إلا نحن قال عنهم ((تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين)) بقرة 111 وقال الله للذين قالوا عن الآخرين أنهم ليسوا على شيء قال لهم ((كذلك قال الذين لايعلمون مثل قولهم فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون)) بقرة113 ولما أقول: إن على أهل العلم أن يكشفوا كيف ضيع الناس ما جاء به الأنبياء وعليهم أن يكشفوا ما جاء به الأنبياء فكأن أهل اللم لم يأتوا بعد وإن كانوا سيأتون في المستقبل لأن الله الواحد سيظهر دينه الواحد للناس في خلال التاريخ وعواقب رفض ما جاء به الأنبياء، وقال الله عن ذلك مخاطبا أهل الكتاب – ومن أهل الكتاب المسلمون– قال لهم ((ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب من يعمل سوءا يجز به ولا يجد من دون الله وليا ولا نصيرا)) 123 ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا)) نساء123.

في هذا الظرف بالذات في أول العام الثالث من الألف الثالثة من ميلاد المسيح هل يمكننا أن نقارب الفكرة التي جاء بها الأنبياء، الفكرة الأساسية في مشروعهم لبني البشر ليفهموا كيف يسلكون في الحياة الدنيا التي يعيشونها. إنني أتعجب كيف لا قدرة لنا على تفهيم ما نفهم، والتفهيم أصعب من الفهم، ولنقرب الموضوع أقول جاء الأنبياء ليتنافسوا في فعل الخيرات ((استبقوا الخيرات)) بقرة 148 ونحن نتسابق في فعل السيآت، وكيف نتسابق في فعل الأذيات.

أسأل الله أن يسهل علينا البحث. إن الإيمان بالله خالق الكون أنه واحد لا شريك له ربما ليس صعبا بل فطري بدهي في الجهاز العصبي الذي عند الإنسان ولكن الصعب هو التعرف على الله خالق الكون لأن الناس يفترون على الله الكذب ويصدون عن سبيل الله وهذا الموضوع هو الصعب وهو الذي يجعل أكثر الناس يعرضون لأن من قوانين الله ((بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون)). كيف نفهم الله، إن الله يفهم من قوانينه في مخلوقاته ولا يمكن فهم الله في ذاته لأن ((لم يكن له كفواً أحد)) وليس كمثله شيء ولكن نرى مخلوقاته أمام أبصارنا ولنا قدرة على فهم سنن الله في خلقه، ولنا قدرة على فهم قوانين الله في الوجود، فهذا مكان جهد أهل العلم، والله يرينا من آياته في الآفاق والأنفس ما لم ير الذين من قبلنا وما لم يره الأنبياء، حتى أن سبب انقطاع النبوات هو أن آيات الآفاق والأنفس تشهد وتقيم الدليل على أن ما جاء به الأنبياء حق وصدق وسنة ثابتة لا تتغير ولا تتبدل ونراه بأبصارنا، ونحن يمكن أن نرى آيات الله المادية في قوانين المادة والأفلاك ونرى قوانين في الحياة النباتية والحيوانية والله تعالى لما قال ((سنريهم آياتنا في الآفاق)) جَمع الكون المادي والكون الحياتي من نبات وحيوان، والناس يشتركون في قوانين أجسادهم مع سائر الحيوانات ولكن الأنفس البشرية خلق آخر غير الكون المادي والحياتي، لهذا قال عن الإنسان أنشأناه خلق آخر ونفخ الله فيه من روحه فجهاز الإنسان العصبي فيه قوة من الله في تسخير الكون المادي وقوانين الجسد الحي وكذلك قوانين النفس الإنسانية، فهذا الكون ذي أبعاد، فالكون المادي يحتوي على أربعة أبعاد الطول والعرض والارتفاع ولكن البعد الرابع لم يفهم البشر أن الزمن بعد رابع للوجود إلا مؤخراً فكانوا يظنون أن الزمن خارج عن الكون المادي، وقال في هذا أينشتاين حين سئل، كيف نقرب النظرية النسبية إلى الناس؟ قال: الناس يظنون أن الزمان والمكان يبقيان بعد فناء المادة فإذا فهموا أن الزمان والمكان مخلوقان يزول أحدهما بزوال الآخر يفهمون النظرية النسبة، والناس الآن حين يقيسون الأبعاد الفلكية بالسنين الضوئية يبينون كيف تداخل في الكون بعدا الزمان والمكان. وقال توينبي أن هناك بعد خامس وهو الحياة، وبعده بعد سادس هو الإنسان، الذي هو خلق آخر وبعد جديد في الخلق

((أنشأناه خلقاً آخر)) وأمر الكون كله بالسجود له في تسخيره له ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون. ومما ينسب إلى علي رضي الله عنه أنه سئل أين الله؟ فأجاب: أين سؤالٌ عن مكان، وكان الله ولامكان. الزمان والمكان من مخلوقات الله وسننه في الوجود والقرآن يضم في كلمة الآفاق الكون المادي والحيواني ويجعل الأنفس البشرية خارجة عن الكون المادي وحين يذكر الله الكون المادي في قوله ((ومن آياته خلق السماوات والأرض وما بث فيهما من دابة)) قد يدخل الإنسان في قوانينه الحياتية مع الكائنات الحية ولكن قوله ومن آياته متعلق بالإنسان فقط لأن الآيات للبشر فقط، الخلق الآخر البعد السادس قدرة المعرفة والتمييز أو القدرة على أن يتوجه إليه الأمر والنهي أو القدرة على المعصية والتوبة، القدرة على الخطأ والتصحيح، فهذا شيء مهم ورفيع أعلى ما خلق الله وأكرم ما سواه ورفع مستواه.

وللتعرف على الله علينا أن نعرف سنن الله في الكون المادي وسننه في الحياة النباتية والحيوانية وسننه في الأنفس الإنسانية، والأنبياء لم يأتوا لعلموا الناس سنن الكون المادي، ولكن البشر لهم قدرة على التعرف على سنن الكون المادي فتعرف الناس على سنن الله في الرعد والبرق ولم يتعرف الإنسان على هذه السنن المادية إلا من قريب جداً، وكذلك من سنن المادة أن يسخر الإنسان النار في صنع المحركات الآلية عرف الإنسان سنن الله في الكهرباء فسخرها بدل أن تكون صاعقة فأنزلها بأمان وعرف كيف يولدها ويستخدمها في مجالات لا نهائية، فإن المحركات الآلية عظمت من قوة عضلات الإنسان ولكن الطاقة الكهربائية في تسخيراتها ساعدت الإنسان على القدرة على المعرفة فحفظها وإيصالها أمور لم تكن لتخطر على بال السابقين ولو رأوها لظنوها خوارق ويحتاج إلى أن يعرف لهم سننها حتى يتمكنوا من فهمها، هذا كله يدخل في قوله تعالى ((وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون)) هذه آية مفتاحية لفهم كرامة الله للإنسان وسيطرة الإنسان بقدرته على معرفة الأسباب والنتائج وتسخيرها، فقوانين الكهرباء قوانين كونية ثابتة لا تتغير ولا تتبدل، والإنسان يسخرها بمعرفة سنن الله الثابتة في الكهرباء، والناس يدرسون في المدارس هذه القوانين والسنن في المختبرات، بقي أن نلفت نظر الناس من هذا الذي يتعلمونه نعم الله التي لا تعد ولاتحصى ((وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها)) وهذه النعم كلها مصدرها القدرة التي صارت عند الإنسان في كشف سنن الله في الوجود، هذا الإنسان عرف بقدرة المعرفة كيف كان الإنسان قبل عشرة آلاف سنة وهذه مدة زمنية قصيرة جداً قبل هذه المدة لم يكن الناس يعرفون كيف ينتجون غذاءهم ولم يكونوا تعلموا الزراعة ولا استأنسوا الحيوان، وعلينا أن نتعرف بقدرة المعرفة التي نفخها لله فينا على ما يمكن أن يتعلمه الإنسان ليخرج من الفساد في الأرض وسفك الدماء.

136. - الرب إلهنا واحد

لنفهم الوحدانية علينا أن نفهم أنه لا توجد قوانين في الكون غير قوانين الله. وسنن الله عامة تشمل سنن الوجود المادي من الذرة إلى المجرة في القوانين المادية، كما تشمل سنن الحياة من أولى الكائنات الحية إلى الإنسان سنن الكائنات الحية في أصلهم المادي كون الحياة كلها من الماء (وجعلنا من الماء كل شيء حي)، إلى الإنسان الذي هو خلق آخر فيه روح الله والذي به صار للإنسان سلطان على الوجود, فالسنن الثلاث من المادة والحياة والنفس الإنسانية (ونفس وما سواها فألهما فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها) لا بد من أخذ معلومات صحيحة عن هذه السنن الثلاث، وكل واحدة منها أساس متطور عن الآخر وصولا إلى الخلق الآخر والأخير الإنسان, فالبشر صار لهم معرفة بقوانين الطبيعة المادية من الذرة إلى أفلاك المجرات وهذه المعرفة في توسع مستمر وفتوحات ومجالات من الإبداع والتسخير فالله تعالى وحده هو خالق السنن، سنن الوجود الثلاثة الطبيعة والبيولوجيا والسيكولوجيا ليس له شريك وليس أحد يشاركه في الخلق، والخروج عن سنن الله في المجالات الثلاثة له عقوباته الحتمية وهذا هو الشرك الذي هو الذنب الذي لا يغتفر.

لما يقول الله اتقوا الله معناه اتقوا الخروج عن سنن الله، احذروا أن تتعاملوا مع سنن الله بأهوائكم فتصيبكم المصائب والخسائر. إن قوانين الله صارمة والعلم بها رحمة وجهلها ومخالفتها نقمة وعذاب وخسران. قوانين الكهرباء دقيقة وثابتة في الكون لا تتغير ولا تتبدل وهي كانت صاعقة ولا تزال صاعقة برق ورعد، ولكن الإنسان الذي كان يرتعب من البرق والرعد خوفا وطمعاً لاحتوائه على النعمة والنقمة.

إن الإنسان كان يجهل سنن الله في الكهرباء ولم يكن يعلم إلا كصاعقة ومبشرة بالمطر أو أنها تصاحب السحب والمطر، ولكن الإنسان لما علم سنن الكهرباء أمسكها وأنزلها بأمان بدون أن يدمر الأبنية، وتعلم الإنسان كيف يتجنبها ولا يتعرض لها في الأماكن التي يمكن أن يتعرض لصعقها، وعدا عن ذلك اكتشف الطاقة الموجودة في الكهرباء وكيفية تولدها وكيفية التحكم بها وذلك بمعرفة سنن استخدامها وعرف الإنسان أن مخالفة سنن الكهرباء مدمرة وصاعقة قاتلة وأن التعامل معها بسننها رحمة ونعمة عظمى دخلت من قريب إلى حياة الإنسان بواسطة قدرة الفهم والتسخير الذي عند الإنسان ووضع الإنسان أمانات من الوقوع في أخطاء مع هذه الطاقة لتتحول إلى نعمة فقط ويتحاشى النقم، فلهذا في جميع أنحاء العالم توضع على التوتر العالي إشارة الجمجمة الهيكل العظمي. محذرا الناس. من الاقتراب منها وأن يتقوا أخطارها وهذه الطاقة آية من آيات الله الكبرى التي تسبح بحمد الله ولسان حالها يقول أنا رحمة مهداة إليك أيها الإنسان إذا تعاملت معي بحسب قوانيني وإذا تعاملت معي وخرجت عن قوانيني فلا تلومن إلا نفسك إن فهم معنى التقوى يمكن أن يتجلى في مجال الكهرباء الطاقة التي صارت في كل منزل وحيث يكون الإنسان ينتج الكهرباء ويتعامل بحذر لتكون رحمة فقط ويمكن أن تكون رحمة بمعرفة سنن الله في الكهرباء السنن التي لاتتغير ولاتتبدل فهذا خلق من خلق الله. لما يقول الله((يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها)) نساء.

اتقوا احذروا من أن تخرجوا على قوانين الله وتعرفوا عليها ولاتخرجوا عليها فإذا جرتم على قوانين الله في المادة مثل الكهرباء تصعقكم وإذا خرجتم على قوانين الله في سنن الحياة الجسدية تمرضون وتتألمون وتموتون وإذا خرجتم على قوانين الله في سنن الحياة النفسية السيكولوجية تعيشون الآلام النفسية والأمراض الفكرية القلبية المفاهيم الخاطئة وتعيشون العلاقات المتوترة من الخوف لجهلكم فتتحولون إلى مواجهات دامية إلى كراهيات وفساد في العلاقات وسفك الدماء في مواجهات تضيع النعم وتصنع النقم وأنا حين أتحدث عن المادة والحياة والنفس الإنسانية القابلة للتزكية والتدسية بواسطة البشر وبواسطة القدرة التي نفخها الله في الإنسان من كشف السنن برؤية العواقب النافعة والضارة إن النفس الإنسانية ملهمة الفجور والتقوى ملهمة للنقمة والنعمة والرحمة للشر والخير مثل الكهرباء تحمل الرحمة وتحمل النقمة ويستخدمها البعض وسيلة للإعدام بالصعق ونحن يمكن أن نستخدم النفس البشرية بالفجور أو التقوى بالتزكية أو التدسية نحن الذين نكشف قوانين الكهرباء لنحولها إلى الرحمة ونضع الحواجز التي تؤدي إلى النقمة فعلى أهل العلم أن يكشفوا سنن الله في المادة وسنن الله في الحياة الحيوانية وسنن الله في الحياة النفسية البشرية ويمكن أن نفهم أن سنن الله في الوجودات الثلاثة سنن ثابتة بدون صعوبة وأن هذه السنن لا تتحول ولا تتبدل ولن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا. والناس إلى حد كبير فهموا سنن الله ف الآفاق والمادية والحياتية فكبروا حجم الإنسان بتسخير المادة فقد سخر الإنسان النار قبل الكهرباء بالآلاف السنين فقد كشف الإنسان النار كما كشف الكهرباء ولم يخلق الإنسان ومعه أدوات إيقاد النار وإنما ولد ومعه قدرة على كشف سنن الله في الوجود ولكن علمنا بالسير في الأرض والنظر كيف بدأ الخلق، ولكن كشف النار موغل في القدم قبل الزراعة وقبل استئناس الحيوان كانت النار موجودة كحرائق في الغابات تتولد من عوامل طبيعية صواعق احتكاك براكين تقذف النار، فتعلم الإنسان قوانين النار وسننها ثم أخيراً تحولت النار إلى محركات آلية لخدمة الإنسان هذا كله في المجالات المادية ولخدمة الإنسان وراحته وإمكان عيشه في الأماكن الباردة من الأرض النار صديق الإنسان في أسفاره إلى درجة أن الإنسان عبد النار وسهر عليها حتى لا تنطفئ وقدسها كمصدر للنور والطاقة. وهذا الذي تنامى في تقديس الإنسان النار وتسخيره لها وحتى إن التنافس في تملك الطاقة سبب في أزماتنا الحالية بين المستكبرين في الأرض والمستضعفين بين المستكبرين في الأرض الذين يقولون من أشد منا قوة وسبب تملك القوة والطاقة وجشع الإنسان وشنه الحروب ولاستلاب هذه الطاقات من أهلها الجاهلين المستضعفين الذين لا يجدون حيلة ولا يهتدون سبيلاً للخروج من أزمات نفوسهم المدساة، وقد خاب من دساها.

إنني متألم جداً لأنني لا أتمكن من عرض الوجود، من عرض سنن الوجود، مترابطاً بوضوح يؤدي إلى إيقاظ الإنسان حتى لا يرى العالم ممزقاً. العالم يحكمه قانون واحد من مصدر واحد، الكون مسخر بقوانين، إن الرب خالق الكون وخالقنا رب واحد لا شريك له هو وحده خالق سنن المادة والحياة وسنن المادة سخرها كما قال الله لنا حين ذكر الخيل والبغال والحمير قال ((ويخلق مالا تعلمون)) إن المفسرين الكبار كانوا عاجزين عن إمكان تصور ماذا سيخلق إننا نرى أمام أعيننا ما صنع الإنسان من وسائل النقل غير الوسائل التي كان يعرفها الإنسان فبقدرة الإنسان على تسخير السنن الثابتة لصالحه ولتكون نعمة ولا تكون نقمة، سخر الإنسان النار والكهرباء والأنهار والمعادن ثم تحول الإنسان بتسخير النار إلى الأسلحة النارية ليقتل الناس بعضهم بعضا ثم وصل التسخير إلى محاكات ابتكار طاقة النجوم ووقود النجوم في استخراج طاقة وتحويل المادة إلى طاقة وقد قرب أن يصل إلى إنتاج الطاقة مجانا، وكل ذلك بمعرفة سنن المادة ومعرفة أن المادة طاقة مكثفة قابلة لإطلاقها بسنن التسخير وبمعرفة السنن وتسخيرها، كل ذلك في مجال التسخير للمادة وتعلم الإنسان من تسخير المادة تسخير سنن الحياة وكشف سنن الحياة كما كشف سنن المادة التي ساعدت على وفرة إنتاج الغذاء فتكاثر البشر لوفرة الغذاء، وهذا عالم آخر عجيب فكما دخل الإنسان إلى لب الخلية وعرف سننها وتركيبها ولكن كما أن الخروج عن سنن الكهرباء يصعق كذلك الخروج عن سنن الحياة يفسد الحياة ويقضي عليها ولكن الإنسان سيتعلم كيف يسخر سنن الحياة كما عرف كيف يسخر سنن الحياة كما عرف كيف يسخر سنن الكهرباء والنار فيضع الحدود ويتعامل معها بقوانينها النافعة وليست الضارة ((كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض)) وهذا قانون وسنة ورحمة في أن هذا الإنسان سيضطر أن يخرج من الفساد في الأرض وسفك الدماء وأن الذين يشكون في هذا ما عرفوا قانون الزبد ولا قانون لا ييأس من روح الله إلا الذين لم يتضح لهم كيف بدأ الخلق وكيف تحدث الزيادة في الخلق.

137. 184 وجعلنا من الماء كل شيء حي 2002/12/28

تختلف قوانين المادة عن قوانين الحياة، بل إنها أحياناً متناقضة، إن قانون الحياة يتجه إلى الزيادة والرقي. لكل عنصر من العناصر المادية خواصه وسننه، ولكن حين تبدأ العناصر في التركيب تخلق سنن جديدة، فمن الهيدروجين والأوكسجين يتشكل الماء، ومن الماء يبدأ أصل الحياة، من الماء كل شيء حي.

إن صفة الماء ليست مادة، وإنما هي وظيفة لا حجم لها ولا مادة وإن كانت تتولد من المادة، لهذا عنصر الحياة الأساسي ليس مادة وإنما وظيفة جديدة لا وزن لها ولا كتلة، وهذا من خلق الله وسننه الثابتة التي لا تتبدل ولا تتحول.

إن التنوع في الخلق وصل إلى خلق آخر غير النماء والتناسل والزيادة وهذا الخلق الآخر هو الإنسان الذي يحمل وظيفة جديدة وظيفة التسخير والتصحيح الواعي من خلال النظر إلى العواقب، فصار الإنسان بذلك يحمل سلطانا لتسخير المادة والحياة، ولقد ذكرنا نموذجا لثبات سنن المادة وتسخير الإنسان لها في صنع النار والكهرباء والمحرك الآلي إلخ.

والآن أريد أن أذكر كيف يمكن تسخير الحياة بكشف سننها، كيف تعلم الإنسان الزراعة بعد أن تعلم إيقاد النار. فبالنظر والمراقبة تعلم كيف يمكن زراعة البذور والحصول على محصول كبير، وتعتبر الزراعة تطورا جديدا في حياة الإنسان، إذ صار عنده فائض إنتاج، تولّد منه وقت فراغ، ونتج عن هذا الأخير تقسيم العمل والتخصصات، كما عرف الإنسان سنن النبات؛ كذلك عرف سنن الحيوانات فاستأنس منها ما استأنس بدل الصيد، وهذا الحدث آية من آيات الله في قدرة الإنسان على التسخير والتطوير والتحسين في حياته، لأن قانون التسخير شيء كبير فيه الزيادة في الإبداع والزيادة في التسخير حسب قانون التسخير والنسخ، لأن التسخير الأعلى ينسخ التسخير الأدنى، والتسخير الأعلى قانونه البقاء والاستمرار حتى يأتي ما هو

أكثر تسخيرا وبقاء منه، وكلما جاء تسخير أفضل نسخ الأقل عاقبة، حيث يخضع التطور إلى الوصول إلى عواقب نافعة بزمن أقل وجهد أقل وإنتاج أكثر. ولما تدخل الإنسان في إنتاج النباتات بالزراعة والحيوانات بالرعاية؛ تنوع الإنتاج وزاد، ويمكن أن نلاحظ كيف تطور تسخير الإنسان لقوانين الحياة وكيف كشف السنن التي يخضع لها نمو النباتات فأكثر من إنتاجها وكذلك في تربية الحيوانات بل وصل الأمر إلى كشف عوامل صحة النبات وأمراضها وعوامل صحة الحيوانات والأوبئة التي تصيبها وصار الإنسان ينقل التجارب في قوانين الحياة الحيوانية الجسدية من الحيوان إلى الإنسان، فكما وصل الإنسان إلى النار والكهرباء والمحرك الآلي والكتابة وصل أيضا إلى كشف عوامل الصحة والمرض في الأجساد الحية من المياة النقية والأغذية الوافرة النافعة إلى أن كشف الإنسان عوامل المرض والأوبئة من الكائنات الدقيقة التي كانت تنقل الأمراض. إن قصة باستور شبيهة بأول إنسان تنبه إلى كشف الزراعة من بذور النباتات إذ كذلك لاحظ باستور العدوى وبدأ يراقب التخمر وكيف تتولد ذبابة الخل، وهو يقوم في مختبره بتنويع ظروف تولد ونمو الكائنات الدقيقة الحية والظروف التي لا تساعد على النمو إلى أن وصل إلى التعقيم والتطعيم ضد الأمراض. إن باستور دخل إلى عالم جديد، إنه كان يبحث عن الأسباب، يراقب وينظر ويكشف الأسباب والسنن، إنه كان يعكف على كشف الأسباب وقوانين الحياة وسننها، إنه لم يذهب ليبكي على الذين يموتون بالأوبئة، ولكن كان يبحث عن السنن التي من عرفها يدخل إلى عالم التسخير، وما ينفع الناس يمكث في الأرض ويتراكم ولا يتراجع وإنما دائم التقدم والرسوخ، ووصول ذلك إلى كل البشر كما دخلت النار والزراعة وتربية الحيوان إلى كل المجتمعات كذلك يتقدم التسخير بخطى ثابتة لتعم هذه المنافع إلى كل الناس في العالم، وإن كان هناك جياع ومرضى وعمي ومشلولين فإن بقاء ذلك أو بطء تعميم المنافع على كل البشر يرجع إلى العادات البشرية الانعزالية التي نشأت لما لم يكن البشر يعرفون طرف الأرض. إن هذه العادات الانعزالية التي ينبغي أن يتخلص منها الناس لا ترجع إلى سنن مادية في النار والمحرك الآلي ولا في الزراعة وتربية الحيوان، لأن هذه كلها من (آيات الآفاق) ولكن العادات البشرية وكيفية تغييرها بوعي هي التي تقف عقبة أمام التحدي الذي يواجه البشرية وهي من (آيات الأنفس).

أريد أن أوضح (آيات الآفاق والأنفس) وأن أربط الصلة بينها، وكيف من آيات الآفاق قوانين المادة القابلة للتسخير، وهي آيات علامات وبراهين سنن قوانين ثابتة لا تتغير ولا تتبدل ولا بد من ربط آيات الآفاق والأنفس ربطا محكما مع معرفة الاختلاف بين المادة والحياة، وكذلك الاختلاف بين الحياة الحيوانية والإنسان، وأنا أظن أنني ربطت بين آيات المادة والحياة في سننها القابلة للتسخير والزيادة والتطور، في التسخير كيف سخر المادة، ثم كيف سخر قوانين الحياة وسننها، حيث عرف الناس سنن صحة الأجساد البشرية وعللها وكيفية المحافظة على صحة الحيوانات والبشر بمعرفة قوانين الحياة الحيوانية الجسدية، إلى أن وصل البشر إلى أن يبعثوا النمو والحياة في خلية واحدة من الكائن الحي، وإخراج نسخة من الأصل بتوفير الظروف التي تساعد على النماء، واليوم الذي أكتب فيه هذه المقالة سمعنا بالطفلة الأولى التي ولدت من استنبات خلية بشرية، ونشرت الصورة، ليس هذا الذي أهدف إليه، وإنما الذي أهدف إليه هو انتقال التسخير من تسخير المادة إلى تسخير الحياة، للدخول إلى عالم الأنفس البشرية وإلى أن نكشف سنن النفس الإنسانية كما كشفنا سنن المادة الكونية وكيفية تسخيرها.

إن الأقمار الصناعية التي تنقل الأصوات والصور إلى كل أنحاء العالم إن هذه الأقمار الصناعية نتيجة كشف سنن الأقمار والكواكب والشموس والقوانين التي تحكم تجاذبها وواضع هذه القوانين هو الله الواحد وسننه في الكون واحدة ثابتة ليس له شريك في وضع هذه السنن، ولا أحد يمكن أن يقول أنا الذي وضعت سنة الأفلاك ولا سنة الماء ولا سنن الحياة. البشر يمكن أن يسخروا سنن الله، البشر نفخ فيهم روح جديدة لا وجود لها في المادة والحياة والكائنات الحية، هناك ماهو أضخم حجما وقوة من عضلات البشر ولكن الإنسان سيد الكون المستخلف من خالق الكون المسخر له ما في السماوات وما في الأرض، هذا الذي ينبغي أن نبدأ التعرف عليه والإمكانات الكامنة فيه. إن طاقات الكون مسخرة للإنسان إن الإنسان ليس هو الذي صنع سنن الكون ولكنه مستخلف فيه، الكون كله يسجد للإنسان ولكن الإنسان محرم عليه أن يسجد للكون أو لإنسان آخر، هذا هو النزاع الذي كان بين إبراهيم والنمرود لما قال إبراهيم للنمرود الذي آتاه الله الملك: ((ربي الذي يحيي ويميت، قال النمرود: أنا أحيي وأميت، فقال إبراهيم: إن الله يأتي بالشمس من المشرق فات بها من المغرب، فبهت الذي كفر)) ليتنا نكشف كيف أننا لسنا نحن الذين وضعنا قوانين الآفاق والأنفس ولكن نحن لنا قدرة

على تسخيرها، الله أعطانا سلطان المعرفة لنتصرف في هذا الرأسمال الواسع الكبير. في حين أن الإنسان لا زال يتعامل مع آيات الآفاق والأنفس مخالفا لسننها وهو قادر على التسخير للخير والشر، لكن العواقب تفرض عليه العودة إلى التسخير للخير لا للشر، ولهذا لما يقول الناس إن قوانين العلم حيادية يتغافلون عن هذا الجانب العاقبي: فإذا لاحظنا الجانب العاقبي وتأثُّر الإنسان بالعواقب لا يمكن أن نطلق هذا الحكم بحيادية العلم، فكونه يصلح لهذا ويصلح لذاك ليس معناه أنه حيادي بل هو يفرض بحسب العواقب وطبيعة الإنسان في الاحتفاظ بما ينفع الناس يفرض في النهاية البقاء للخير النافع والفناء للشر الضار، ومهما حاول الإنسان أن يسخر السنن للشر فإن العواقب ستفرض على الإنسان الرجوع إلى الخير. وأنا أقول كما كان ديدن العلماء في قولهم:

احرص على هذه الفكرة فإنها تخرجك من اليأس والتشاؤم والحيرة، إلى الأمل والتفاؤل واليقين بأن البقاء للنافع والزوال للضار احرص على تذكر هذا فإنه يعصمك من الحيرة والعدمية واليأس، وهو يمكن فهمه بالتأمل، والتاريخ يساعدك والقرآن يدعمك ولا يغرنك كثرة الناس الذين يقبلون ما يقوله الآخرون دون أن يضعوه في الميزان، إن الله رفع السماء ووضع الميزان.

138. آيات الأنفس

قلنا سابقا أن هناك فرقا بين آيات الآفاق المادية وآيات الآفاق الحية، الآيات المادية تخضع للتبديد أما الحياة فقوانينها النماء، كحبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مئة حبة، وكذلك الحياة الحيوانية في لتوالد والتكاثر. ومع ذلك فإن هناك فرقا بين آيات الآفاق المادية والحيوية، وبين آيات الأنفس البشرية مهما تشابهت الحيوانات مع الإنسان في الحياة الجسدية فإن الإنسان كائن آخر يتمتع بآية تسخير الكون بما أودع في جهازه العصبي من قدرة ربط الأسباب بالعواقب.

آيات الآفاق ذات اتجاه واحد لا قدرة فيه على الخيار، ليس له خيار ولا قدرة له على الكذب ولا يوجه إليه أمر ولا نهى، وكون الأنفس البشرية لها اتجاهان خلق جديد لاوجود له في سائر المخلوقات الذرات والأفلاك وسائر الكائنات الحية. الأنفس البشرية ذت اتجاهين أمامها خيار بين طريقين ((وهديناه النجدين)) الكون كله (ماعدا الأنفس) تخلق وهي تعرف كيف تسلك، الأفلاك وسائر الحيوانات تسلك بالغريزة ليس بالفكر والخيار أما الأنفس البشرية تخلق ملهمة الفجور والتقوى، الكذب والصدق، أما الكائنات الأخرى المادية والحيوانية لا قدرة لها على الكذب ليس لها خيار، الإنسان وحده الذي له القدرة على الكذب والصدق، على الفجور والتقوى، والقدرة على الوفاء والغدر. إنه خلق من المادة ولكن مادة لها القدرة على أداء وظيفة راقية وهو قادر على أن يكون في أحسن تقويم وأن يكون في أسفل السافلين ((قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها)). كل الأطفال يولدون وعندهم القدرة على التعلم بينما الحيوانات كلها تخرج من بطون أمهاتها وهي تعلم كيف تسلك في الحياة.

الإنسان لا يولد وهو يعرف لغة يتكلم بها ولكن كل البشر يولدون وعندهم القدرة على تعلم لغات أقوامهم وليس بين الحيوانات من عنده قدرة على تعلم لغة. الإنسان منفصل عن سائر المخلوقات بالقدرة على اكتساب اللغة والمعرفة وكشف السنن وتسخيرها، فالإنسان الذي كان يولد قبل عشرين ألف سنة كان يملك قدرة على تعلم لغة والتحدث بها وأن يكتسبها من مجتمعه ولكن ذلك الإنسان لم يكن قادرا على تعلم القراءة والكتابة لأن مجتمعه لم يكتشف بعدُ القراءة والكتابة حيث لم تكن المجتمعات البشرية تعلم القراءة والكتابة، فهذا ابتكار بشري من قدرة الجهاز العصبي عند الإنسان، وينبغي أن نعرف ونكشف تاريخ الإنسان وكيف بدأ خلقه وفقا لقوله تعالى ((سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة)). مصدر المعرفة السير في الأرض والنظر كيف بدأ الخلق هذا أساس متين وعروة وثقى من تمسك بها سار على الطريق الصحيح المستقيم ومن أعرض عن هذا وأنكر أن يكون مصدر المعرفة هاهنا فقد ضل سواء السبيل، سواء كان متدينا أم لم يكن متدينا فلا بد أن يعطى له ما كسبته البشرية كلها من الكشوف

النافعة وعليه أن يعرف تاريخ الإنسان لأن تاريخ الإنسان هو الذي يعطي التصور الصحيح عن الإنسان، ولما نعرف تاريخ الإنسان نكون عرفنا كيف كانت سنة خلق الإنسان وكيف أنه أتى عليه حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا، وإلى الآن لم يتحول المسلمون إلى مصدر المعرفة التي يعتمدها القرآن من السير في الأرض والنظر كيف بدأ الخلق، والمراحل التي مر بها الإنسان (الأطوار) بلغة القرآن الأرض تتحدث بأخبارها فإذا تعلمنا اللغة التي يتحدث بها الكون نأخذ صورة صحيحة أو على الأقل نكون قد اقتربنا من الصورة الصحيحة التي ينبغي أن نكدح للوصول إليها.

الإنسان خلق جديد وحديث ويتغير بتغير التصورات عن الكون وكشف سننه وقوانينه فإذا كشف الإنسان القدرات الكامنة فإن وضعه يتغير وسلطانه يزداد وليس غير الإنسان له القدرة على سرعة الزيادة في تغيير وضعه ولا يمكن فهمم هذا إن لم نأخذ صورة صحيحة عن قدرات الإنسان وكيفية استثمار هذه القدرة إن الله علم آدم الأسماء (= القدرة على الكلام نقل أفكاري إلى شخص آخر بالكلام) ولم يقل أنه أنزل عليه كتابا ولكن القرآن أخبر أن لإبراهيم وموسى صحفا. وكيف تعلم الإنسان بعد ذلك قراءة كتاب الكون فهذا هو الكتاب الحقيقي الذي بواسطته نصحح فهمنا للكتاب المنزل بلسان الأقوام البشرية والانتقال من قراءة الكتاب اللساني المكتوب إلى قراءة الكتاب الكوني شيء جديد في حياة البشر، ونحن المسلمون لم ننتقل إليه بعد.

فمن هنا نعاني مشكلة المعقول والمنقول ومشكلة النصوص، وبما أن الدخول إلى عالم قراءة آيات الآفاق والأنفس لم نعترف به مع أن الله يقول ((سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد)) إن الذي لم يعترف بآيات الآفاق والأنفس لا يمكن أن يستفيد من آيات الكتاب بل إن تمسكه بآيات الكتاب يكون تمسكا بنظام فكري قديم قد نسخه الله وختم على بابه بأنه لن يتحدث إلى البشر من ذاك التاريخ بهذا الأسلوب القديم (الكتب والرسل) وإنما سينتقل مصدر المعرفة إلى آيات الآفاق والأنفس، والأطوار التي مرت على آيات الآفاق والأنفس وكيفية بدء خلقها وإلا كيف يمكن فهم تخلف العالم الإسلامي هذا العالم الضخم الكبير الذي لا يوازي ضخامته وغناه إلا عجزه الذي يراه القاصي والداني وهو يعرف عجزه، ولكن لا قدرة له على التكيف والدخول إلى العالم الجديد عالم آيات الآفاق والأنفس إنه يعيش عالم آبائه السابقين ولا يتمكن من فهم أن آباءه لم يكونوا نهاية ما خلق الله، والله تحدث إلينا في القرآن بأن كل الذين كذبوا الرسل كانوا يعتمدون في تكذيبهم على ما وجدوا عليه آباءهم، وكذلك المسلمون لا يزالون متمسكين بما وجدوا عليه آباءهم في تقديس العنف واحتقار قدرة الإنسان، قدرة الفهم بالعواقب. وستظل المصائب تلاحق العالم الإسلامي وتتفاقم كل مرة إلى درجة أكبر، وعلينا ألا نيأس من هذه المصائب التي تكبر في حجمها وتنزل بنا إلى أسفل السافلين لأن مضاعفة حجم المصائب هي التي إذا وصلت إلى درجة الإشباع أو التركيز المعين هناك سنعلم أن الله هو الحق المبين وليس آباؤنا الأقدمين الذين لم يعرفوا إلا سفك دماء بعضهم البعض حتى لما تعلم البشر كيف يحلّون المشكلات بدون خسائر وبدون سفك الدماء احتقرنا هذا الذي وصلوا إليه وسفهنا أحلامهم ولم نقدر الثمن الذي دفعوه حتى وصلوا إلى ذلك، إن هذا الإبداع الذي لم يهتد إليه آباؤنا ولم نهتد إليه نحن، هذا الأسلوب النافع للإنسان الذي يمارسونه يرفع الله الذين فهموه فوق الذين لا يتمكنون من فهمه أو الاقتراب من ممارسته، حتى الوثنيون والبدائيون بدؤوا يقتبسون هذا ولكن العالم الإسلامي الذي يعظم آباءه أكثر من تعظيم أي مجتمع آخر في العالم لآباءه يتأخر نتيجة ذلك عن جميع شعوب الأرض الذين يتمكنون من الدخول إلى حل المشكلات السياسية بدون فساد وسفك للدماء وبالتخلي عن العنف والإكراه ويتركون أدوات الإكراه ويلجؤون إلى أدوات الإقناع ويعرضون أساليب الخروج من الفساد وسفك الدماء وجلد بعضهم بعضا في السجون حتى الموت.

أنا لست بليغا في عرض هذه المشكلة، ولكن ربما أضع أسسا عقلية آفاقية أنفسية لإمكان فهمه وأنا ألوم نفسي في أني ضعيف البيان ولكن سيأتي شباب يحترمون عقل الإنسان ويحترمون الله الذي كرم هذا الإنسان بالفهم والإبداع والتسخير وابتكار الأفضل والأنفع وعند ذلك سيجدون أن العالم الإسلامي سيخرج من الحرب وسيدخلون دار السلام يا أيها المؤمنون ادخلوا في السلم كافة فإذا دخلتم السلم فيما بينكم وأصلحتم ذات بينكم وخرجتم من الاعتماد لحماية أنفسكم من هؤلاء الذين يستبيحون أموالكم ودياركم هناك يمكن أن تشعروا في أنفسكم بالكرامة والاحترام بينما تشعرون الآن بالمهانة والذل الذي لا يمكن أن يكون صاحبه وليا لله تعالى، فالله ليس له ولي من الذل، وعلينا أن نغير كثيرا من فهمنا للأمور وتصورنا للأشياء لأن واقعنا

السيء العاجز المكبل لا يمكن أن يتغير إلا إذا غيرنا فهمنا وتصورنا وفق سنة الله التي لا تتغير ولا تتبدل ((إن الله لا يغير مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم)) وعملية تغيير ما بالأنفس وظيفة البشر بما يملكون من قدرة على كشف الأسباب والنتائج وهذا التغيير ليس فاعله الله وإنما فاعله البشر وعمل الله في هذا يأتي متأخرا عن عمل الناس فإذا غير البشر ما بأنفسهم أولا بكشف سنن الله بعد ذلك يغير الله ما بالبشر من نعم أو نقم وفق التغيير الذي أحدثه البشر ((ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم)).

139. وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر

ليس في الكون من له قدرة وخيار على قبول الحق أو رفضه إلا الإنسان، وهذا ليس من نقائصه بل من مزاياه ومن تكريمه ومن السلطان الذي ملكه، هو قادر على أن يخطئ ولكن عظمة الإنسان تكمن في قدرته على تصحيح الخطأ. البشرية هي خليفة الله في الكون القابل للتسخير والإنسان هو القادر على التسخير للخير، وهو يتعلم من خطئه فيكف عنه ويتحول إلى الصواب. إن مصير الإنسان في النهاية يتجه إلى الصواب وإلى الحق، هذا علم الله في الإنسان، وإن لم يفهم ذلك الملائكة فقالوا (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء)، وإن تردد في ذلك الجن فقالوا ((وانا لا ندري أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا)) ولكن علم الله في الإنسان أنه سيتعلم من أخطائه وسيؤمن بالحق، لأن في ترك الحق العذاب والعقاب، والبشر يكشفون الحق والرشد، لأن قدرة الإنسان على فهم العواقب رصيد يرده إلى الحق وخلال التاريخ يتقدم الإنسان إلى الحق ويعرض عن الباطل بقانون (الزبد يذهب جفاء وما ينفع الناس يمكث في الأرض) وبيان هذا الواقع الذي يدعو إلى التفاؤل واجب علينا أن نتواصى به وندعو إليه ونذكر به كلما شعرنا بأننا غفلنا عنه، علينا أن يوصي بعضنا بعضا لأن الإنسان لحبه الشديد للخير قد يستعجل الخير وإذا لم يتمكن من تحقيقه بسرعة قد يصيبه شيء من الإحباط والحيرة، لهذا علينا أن نتواصى بالحق لأن الحق هو النافع الذي يمكث في الأرض ويعم الناس، وهذا الفهم دواء كبير لبقاء الإنسان فعالا دائما مستمرا في القول والعمل حتى لا يمر وقت بدون جهد مثمر، علينا أن نصبر مع الحق بعد أن نكشفه وفي هذه الأيام العصيبة التي ارتفع فيها مستوى التهديد للعالم الإسلامي علينا أن نتذكر قوى الحق وأن الكون كله خلق على الحق والإنسان أعطي القدرة على تسخير الكون كله والقدرة على التغلب على كل العقبات.

إن كشف الحق الموجود في الكون كله وكشف سلطان الإنسان هو الذي سيعلمنا التغلب على المشكلات، إن المشكلات هي امتحان لقدرة الإنسان فإذا كنا في مأزق لا نجد مخرجا منه لا قدرة لنا على تغيير مواقفنا لنكشف الحق المكتوب له البقاء والباطل المكتوب له الفناء، وحتى أن الأمر تفاؤل كله، كل الأزمات نماء للحق وفناء للباطل، فإذا كشفنا الحق وطبيعته الغلابة القاهرة شعرنا بالطمأنينة فإذا تذكرنا سنن الله تطمئن قلوبنا ((ألا بذكر الله تطمئن القلوب)) بذكر سننه تطمئن القلوب، لأن من سنن الرحمن الرحيم الثابتة التي لا تتغير ولا تتبدل في موضوع الحق أن الحق إذا جاء زهق الباطل إن الباطل كان زهوقا، على البشر جميعا أن يتذكروا التاريخ كيف كان الإنسان يكتسب المعرفة بالمعاناة..

يا ليتنا نملك القدرة على عرض تاريخ الإنسان بتبسيط كيف أن الإنسان تغلب بما أعطي من قدرة على الفهم على المشكلات كيف تغلب على تسخير الطاقة وكيف تغلب على قلة الغذاء وكيف كشف الأدوية وعرف علل الأمراض والآن أمام الإنسان تحدي سفك الدماء وقتل الناس بعضهم بعضا، فإذا كانت الأوبئة تأتي من غير أن يعرف الناس أسبابها وتحصد الناس وهم لا يعرفون كيف يواجهون هذا البلاء إلا بالتسليم على أنه بلاء ولا دافع له، والآن نحن نملك تاريخا يوضح لنا كيف تغلب الإنسان على ذلك، وهذا واضح وعلينا أن نتذكره كثيرا ليعطى لنا موقفا سليما من المشكلات فلا نقف حيارى مستسلمين؛ فلما كشف الناس أسباب الأوبئة وأوقفوا الأوبئة ولا يقال عن البلد الذي تنتشر فيه الأوبئة أنه قضاؤه وقدره وإنما يقال بلد جاهل أو أنه قذر ولو انتقلنا الآن من موت الناس في حروب أهلية أو حروب استكبارية فسوف لن يقال عن هذا الحدث أنه قدر لازب لا دافع له بل يقال إن

هؤلاء القوم يحملون أفكارا خاطئة ويمكن أن نقول إنهم يحملون جراثيم فكرية تسبب الكراهية والقتل والقتل المضاد بل أفكار قذرة تبعث على الاشمئزاز وذلك كله لجهلهم في كشف سنن الله.

لقد تطورت الأمور فكما التاريخ يذكر لنا الأوبئة التي كانت تجتاح الناس وتتركها خلاء خواء ونرى أن ذلك صار في قدرة البشر التغلب عليها بل وتطعيم الناس ضد المرض حتى إذا جاء المرض لا يصابون به، كذلك علينا الآن أن نحدق النظر إلى عالمنا الذي نرى فيه أحداثا عجيبة وسننا جديدة للتغلب على المشكلات التي كان الناس يظنون أنها غير قابلة للتغلب عليها بل هي أمور حتمية لا يمكن تفاديها ولا بديل لها ولاعلاج علينا أن نذكر ونتذكر ونذكر الآخرين الذين لا يقدرون أن يفهموا وجود بديل لحل مشكلاتنا الكبيرة التي نواجهها من الحروب الأهلية والحروب الاستكبارية، إن الله رحمن رحيم ((الرحمن خلق الإنسان علمه البيان)) قادر على الفهم علينا ألا نغلق أسماعنا وأبصارنا لنرى كيف تعلم الناس الآخرون تفادي الحروب وخسارة الأنفس والأموال إن هذه النماذج الجديدة آيات من الله لم تنزل من السماء وإنما تكونت أمامنا وتحت أسماعنا وأبصارنا فكما تعلمنا تسخير الطاقة لخدمة الإنسان بدل قتل الإنسان وكما قضينا على الأوبئة المميتة بالفهم والعلم بأسبابها وأساليب علاجها كذلك تحدث في عالم الأنفس كشوفات مذهلة عجيبة، ولكن يظهر أنها أحداث جديدة لم نتمكن من فهمها وهضمها والإنسان من قوانينه وسننه في غرس الأفكار فيه وتغيير هذه الأفكار حين تظهر أفكار جديدة أنفع للناس وربما غرس الأفكار ابتداء أيسر من تغييرها ويصعب على الناس ترك الأشياء والأفكار التي اعتادوا عليها ورسخوها خلال التاريخ وطال عليها الأمد وعاش عليها الناس الأزمان الطويلة يصعب عليهم تركها إلا بمعاناة أو زوال الأجيال وحتى الأجيال تورث الأجيال التي تعدها والعالم الذي نعيش فيه ودخلنا إليه عالم ماتت فيه الحروب بين الناس الذين عندهم معرفة بالتاريخ، ولا يمارس الحرب الآن إلا الخبثاء الذين يستغلون جهل الآخرين فيستولون عليهم بالطرائق القديمة التي فات أوانها، فالخبث والجهل سبب للحروب، وهم المغضوب عليهم والضالون، أما أهل العلم الذين يأخذون بيد الآخرين ليعلموهم فهذا لم يوجد بعد، ولكن الذي وجد أن أقواما تعلموا كيف يحلون المشكلات بدون حروب فأمامنا نموذجان كبيران وإن لمن يتمكنوا بعد من إيقاظ الآخرين وتعليمهم؛ إن اليابان آية من آيات الله الكبرى في عالم الأنفس إن هذا البلد الذي ألقيت عليه القنبلة النووية لأول مرة في التاريخ ولآخر مرة أيضا وتفاجؤوا بشيء جديد، نزلت عليهم عذابا شديدا واستسلموا للمهاجمين، ولكنهم لم يحلوا المشكلة على الطريقة القديمة التي يقال عنها حروب التحرير، ولم يقتلوا أعداءهم ولم يقتل منهم أيضا، لم يعالجوا الأمر بالحرب بل بالعلم والفهم فصارت قوة اقتصادية عظمى ثالثة في العالم بعد أمريكا وأوروبا فهذا حدث جديد وآية جديدة وخلق جديد وأسلوب جديد جدا لم يحدث في التاريخ حدث مثله. إذا كان الله يذكر الأمم التي هلكت في القرآن كثيرا ويكررها تكرارا قد يراه الذي لا يعرف السنن الإنسانية تكرارا مملا؛ فإننا في حاجة إلى أن نكرر ونبحث ونفهم هذا الحدث العجيب العجاب الذي لم نتمكن من فهمه ولا الاقتراب من فهمه، إذن اليابان آية وألمانيا آية أخرى، ولكن الآية الثالثة التي هي جديدة في العالم (الاتحاد الأوروبي) إن هؤلاء الذين شبعوا من الحروب الدينية والقومية والعالمية الآن يخلقون مجتمعا جديدا لم يسبق له مثيل في التاريخ البشري إنهم لا يرسلون جيوشا ليفتحوا بلاد جيرانهم وإنما يتقدم إليهم جيرانهم برجاء أن يقبلوهم في اتحادهم هذا هو الفتح المبين، وليس على أساس استغلالهم واستعبادهم وإنما على أساس مساواة الجميع والعدل بينهم هذا آية كبرى، ونحن العرب والمسلمين علينا أن نذكر هذا لنفعل مثله إن أوروبا تجاوزت الوحدة القومية علينا أن نذكر ها من غير ملل حتى يقال عنا مثل ما قال الأقوام لأنبيائهم مجانين، علينا أن نعرف الآيات هذا ليس بسحر ولا جنون ولا شعوذة. على أهل الفكر أن يشرحوا ويوضحوا كيف حدث هذا أمام أعيننا، على أهل الفكر أن يقنعوا الناس، فإذا فهمنا هذا وتكلمنا بذلك كثيرا فسوف يبدأ الناس بتفهمه وبعد ذلك سيزول التبلد من السياسي أيضا وسيبصر البديل عن الاستسلام، علينا إذن أن نتواصى بفهم الحق وأن نتواصى بالصبر على التعمق في الفهم والتفهيم.

140. الحرب بما بالأنفس

الحرب جذورها مما بالأنفس من تصورات، من رؤية الأنفس للعالم. العقيدة والإيمان هي تصور الإنسان للعالم كيف يرى الإنسان العالم المرئي وكيف يتخيل ما وراء هذا العالم من قبل ومن بعد، من أين أتى إلى أين وكيف؟ هذه التصورات هي التي تتحارب وتتقاتل، يقال أنه في الألفي سنة الماضية حدثت أكثر من خمسة آلاف حرب، والناس من الرجال والنساء في المؤسسات التي تذلهم وتسحقهم بدل تحريرهم – وبحسب رؤية القائل – يوجد ناس في كل مكان ينفصلون عن نفسانية القطيع البشري المنقاد إلى الهاوية وأن عددهم في عام 1920 في حدود مئة ألف إنسان وأنهم سيبلغون مئة مليون عند عتبة الألف الثالثة ولسوف يرفضون القيام بدور اللعبة الوحشية هذا التيار كان قائما لدى حكماء الشرق وتوضح على يد المعاصرين)) هكذا قال المتنبئ عن تصوره للعالم حسب تصوره للعالم، من أين أتى وكيف؟

تغيير ما بالأنفس يتحرك ببطء ممل وبأزمان طويلة لمن لا يعلم كيف بدأت مسيرة الخلق، ومن يعلم ويتذكر كيف بدأ الخلق يمكن أن نراه وأن الزمن بدأ يتسارع وحدث في زمننا تصورات هائلة وجديدة جدا إذا تذكرنا وفق قوله تعالى ((قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدا الخلق)) إن هذه الآية القرآنية تدلنا على المصدر الصحيح للتصور الصحيح للعالم كيف بدأ ومن أين وإلى أين هذه الآية حداثة مستمرة وهذا المتنبئ الذي استشهدنا بتوقعاته في تحرر الناس من سلطة المؤسسات التي تذلهم وتسحقهم بدل تحريرهم.

الحميمين الذين أصلي معهم الفجر لما نتناول الحديث عن الأوضاع العالمية التي نحن العرب في بؤرتها ونرى البؤس الذي نعيشه حين أضرب لهم المثل بأوروبا التي شبعت من الحروب الدينية والقومية والعالمية تجاوزت الآن تصور العالم على أساس القومية ويتحدون بدون حرب الآلام قد علمتهم المذلات والسحق الذي عاشوه تعلموا منه كيف يصنعون السلام بينهم وأنهم بلغوا في تصورهم للعالم ((تعالوا إلى كلمة سواء)) وأن هذا حدث كبير وأننا سنبلغ هذه المرحلة من النضج في أتون هذه المآسي التي نعيشها والناس يعدون العد التنازلي للبدء بالحرب الخليجية الثالثة ولكن تغيير تصورنا للعالم لم يصل إلى النضج بعد وأنا لما أريد أن أرفع من مستوى الذين أتحدث إليهم يقولون لي ما الفائدة إننا سوف لن نرى نحن ذلك اليوم الذي سنستيقظ فيه من الموات الذي نعيش فيه أشعر أن هذا التصور مناقض للتصور الإبراهيمي حين كان يبني الكعبة البيت الحرام ويدعو الله قائلاً للذين سيأتون من بعد أكثر من ألفين سنة: ((ربنا وابعث فيهم رسولاً يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه في الدنيا وإنه في الآخر لمن الصالحين ووصى بها إبراهيم بنيه)) إن هذا الموقف الإبراهيمي والرؤية الإبراهيمية للعالم يختلف عن موقف لويس الخامس عشر حين كان يقول: ليبقى الملك ما بقيت وبعدي فليكن الطوفان، هذا المتنبئ الذي بدأنا حديثنا عنده قال: إن الناس يعيشون نفسية القطيع والذين تخلصوا من هذه النفسية قليل وأن هذه اليقظة الفكرية والرؤية للعالم كانت قائمةً لدى حكماء الشرق وتوضحت على يد المعاصرين، مع كل عسر المخاض إن الانتقال من الرؤية الخوارقية للعالم إلى الرؤية السننية نقلة نوعية كظهور الحيوانات اللبونة وانتقال الإنسان من عصور الجمع والالتقاط والصيد إلى زراعة الأرض واستئناس الحيوان (زيادة في الخلق) نموذج مختلف منظور إن الذين يظنون أن الحرب ضربة لازب لا بد من تعليمهم كيف بدأ الخلق وأن الذين يتمكنون من عرض كيفية بدء الخلق بالنظر إلى آيات الله في الآفاق والأنفس بأسلوب سهل مبسط مقنع ومتسلسل هو الذي يدخل الإنسان إلى رؤية كونية جديدة رؤية إبراهيمية ملة إبراهيم ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه إن آيات الآفاق والأنفس بدأت تخرج الناس عن رحم الآباء وعن التصورات القديمة وعن اليأس الذي يقعد الناس عن العمل. إن الذي يدفع الناس للعمل هو الأمل، فإذا توضح هذا يكون دخل في ملة إبراهيم.

ما أحوجنا إلى تحديد ملة إبراهيم وملة آزر وما أحوجنا إلى فهم ملة إبراهيم من جديد على أساس آيات الأفاق والأنفس، هذه الملة الجديدة التي تحمل تصوراً جديداً للعالم.

يتخيل جلال الدين الرومي امرأة تطبخ حمصاً، وبعد أن توقد النار تحت القدر تخاطب حبات الحمص التي فيه كما تخاطب الأم وتناغي طفلها في السرير فتقول للحمص في القدر أيتها الحبات كنتن تراباً فتحولتن إلى نبات أخضر ثم إلى حبات صفراء كما أنتن، والآن.. أنتن في تحول جديد، فحين تنضجون ستتحولون إلى إنسان،، ويتابع جلال الدين الرومي تصوراته فينطق الحبات بالقول: أسرعي أيتها المرأة العزيزة في إيقاد النار وأججيها حتى ننضج فنتحول إلى إنسان.

العالم الإسلامي الآن في القدر الذي يغلي ليضج، وكان يمكن أن ننضج من غير هذه النيران التي صبت علينا وستصب علينا، لكننا لا نزال غير قادرين على الاعتبار ولا نفهم كيف بدأ الخلق وكيف تحول هذا الخلق إلى خلق آخر، إن النضج والوعي والاعتبار يوفر العرق والدموع والدماء، أما الذين يقدسون العالم المنسوخ ولا يفهمون كيف تحولت الخيل والبغال والحمير إلى السيارات والطائرات والمركبات الفضائية لا يمكن أن يفهموا كيف سيخرجون من الانقلابات ومن جلد إخوانهم وسوقهم إلى الموت في الأقبية فيعيشون في رعب دائم مستمر من أن يحدث عليهم انقلاب عسكري يقوم به الضباط، إن هؤلاء لا يمكنهم أن يفهموا معنى الانتخابات والصناديق التي توضع فيها أوراق، كيف أن هذا الصندوق الفارغ، وهذه الورقة التافهة، هذه التعويذة ستكون طريقة انتقال للسلطة دون انتقال إلى القبر.

نعم إننا نعيش عصر (لنا الصدر دون العالمين أو القبر)، فهل نقول على طريقة حبات الحمص أيتها النيران توهجي حتى ننضج، لأننا لم ندخل إلى عصر فهم كيف بدا الخلق. إن الناس لم يكونوا يعرفون من تاريخ الإنسان إلا القليل نحو أربعة آلاف سنة فقط، ولكن الذين ساروا في الأرض ونظروا كيف بدا الخلق وصلوا في تقدير عمر الإنسان المنتصب الواقف على قدميه إلى الملايين ووصلوا في بدأ خلق الأرض إلى مليارات السنين إلى أن تخيلوا كيف انبثق العالم من رحم العدم إلى الوجود الذي نعيش فيه إلى أضعاف عمر الأرض.

إن الذين لم يدركوا لماذا توقف الوحي ولماذا لا يعود ينزل كتاب ولا يأتي نبي، إن هذا حدث من خلال تطور وعي الإنسان، كان الإنسان يعيش الخوارق ولكن تحول العالم الخارقي إلى سنني هذا عالم جديد لم نستطع أن نتكيف معه، سنن الله ثابتة لن تجد لسنة الله تحويلا ولن تجد لسنة الله تبديلا والإنسان لا يمكن أن ينكر السننية إلا إذا أنكر عقله وإنسانيته وهو الذي يرغب عن ملة إبراهيم وملة الأنبياء ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه، إن الأنبياء وضعوا قانون العلم والمعرفة (من ثمارهم تعرفونهم) من العواقب تعرف السنن الثابتة، تغيير ما بالأنفس علم وسنة ثابتة لا نهاية له، وتغيير ما بالأنفس علم وهو وظيفة البشر، فإذا تغير ما بالأنفس من تصورهم لآيات الآفاق وآيات الأنفس سوف تتغير حتماً مواقفهم من العالم ستتغير رؤيتهم للعالم بفهم السنن. على الأقل ينبغي أن نفهم أن العالم ليس خلق وانتهى وأنه في انحدار إلى الفساد، إن العالم لا يزال يخلق وهو لا يزال في بداية الخلق، لا يزال يقدم القرابين البشرية، هذا الذي سماه المتنبئ أنه الذين يرفضون القيام بدور اللعبة الوحشية، الحرب. إن الحرب وضعت أوزارها منذ انفجار القنبلة النووية، ودخل العالم إلى عالم جديد، عالم إبراهيم الذي قال لأبيه ((يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطاً سوياً)) فما كان جواب أبيه إلا أن ((قال أراغب أنت عن ألهتي يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجرني ملياً))، قال له إبراهيم ((سلام عليك سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفيا واعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربي عسى ألا أكون بدعاء ربي شقيا)) الآن العالم بعيد عن ملة إبراهيم، ولو أن هناك إرهاصات اجتماعية، اليوم 2003/1/18 ستخرج مظاهرات في جميع أنحاء العالم استنكاراً للحرب وعبادة مولوخ إله الحرب، ونحن نعيش في بظن آبائنا ولا نعلم ماذا حدث في العالم إن صوت إبراهيم ضعيف وسيزداد ونحن علينا أن نولد من رحم آبائنا الذين جعلناهم بداية التاريخ ونهايته، علينا أن ننظر إليهم أنهم بشر ممن خلق نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم هذا هو قانون التقدم البشري، آباؤنا ذبح بعضهم بعضاً، علينا أن نخرج من عالم الوحشية التي نرجو أن تكون خاتمتهم الحرب الثالثة ونتبع قانون نتقبل أحسن ما عمل هؤلاء الذين يستغلون جهلنا علينا أن نتفهم الديمقراطية التي وصلوا إليها ونتجاوز بل ونعمل هدفاً ليس تجاوز حق الفيتو حق النقض فقط بل نعمل بجد حتى يزول من العالم من يملك حق الفيتو الذي هو الطاغوت الأكبر.

141. في الجسد مضغة

في الإنسان قدرة، قدرة الفهم، وفيه التسخير وفيه قدرة تغيير الفهم الخاطئ إلى الفهم الصحيح بالنظر إلى العواقب. يقول الرسول: في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدة فسد القلب كله، وأن هذه المضغة هي القلب، والذين يقدسون النصوص أو الكلمات ولا ينظرون إلى كلمة الله الحقيقية؛ لن يفهموا معنى الكلمات فهذا نحن لا قدرة لنا على فهم معنى قوله تعالى (لا إكراه في الدين) من دون أن نرجع إلى الإنسان المكره الذي سلبت منه القدرة على الفهم والقدرة على تغيير الفهم بالنظر إلى العواقب، فلو أصررنا على أن المراد بالمضغة التي في الإنسان القلب التي في صدر الإنسان وتمسكا بالنص الواضح الجلي في القرآن والحديث حين يقول الله ((لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون)) أعراف 179.

سنقع في مشكلة، إن وظيفة الفهم ليس في القلب إنه في الدماغ ونقل القلب من شخص إلى آخر لا يغير ولا ينتقل الفهم الذي عند هذا إإلى الذي نقل إليه القلب ولما يقول الله ((من كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سليلاً)) إسراء 72.

ليس المراد بالأعمى الأعمى الفيزيائي بل الذي ليس عنده القدرة على الفهم، والعالم الإسلامي والعالم العربي بالذات نحن عميان بهذا المعنى النفسي، بمعنى الفهم، فلا قدرة لنا على الرؤية ولا على الفهم، لهذا لا نفهم معنى (لاإكراه في الدين) ولهذا لم يتبين لنا الرشد من الغي، لم نفهم معنى الكفر بالطاغوت والإيمان بالله، ولهذا لم نستمسك بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها بل استمسكنا بأوهن العرى فلا قدرة لنا على التعاون فيما بيننا، ولا قدرة لنا على رؤية هذا المرض الواضح الفاضح، ذلك لأننا آمنا بالإكراه وأنه بدون إكراه لا يمكن أن يقاد الإنسان ولا يمكن أن يستفاد منه وأن من يملك أدوات الإكراه لا يمكن أن يعارض ولا أن يعصى ولا بد من طاعته لأنه لا بديل عن الإكراه، فهذا الاستسلام للشعوب العربية والإسلامية وهذا الاستسلام للقادة العرب لأمريكا الآن لا قدرة لنا أن نفسره ولا أن نفهمه في أعماقنا نحن ولا نجد له حلاً ولا مدخلاً للحل ونحن لا نفهم معنى المضغة التي في الإنسان والتي إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب ونحن إذا لم تكن لنا إلا الكلمات للفهم لا يمكن أن نفهم من الكلمات شيئاً فمثلاً هل يمكن أن نفهم أن القلب العضلة المضخة فقط ليس لها دور الفهم أو وظيفة الفهم.

وإذا قمنا بعملية تشبيه للجسد الإنساني الفرد وشبهنا المجتمع بالفرد وفكرنا في المضغة التي في المجتمع من هم وسيلة الفهم والإدراك والقدرة على تغيير الفهم تغيير ما بالأنفس نعم، إنهم العلماء المثقفون الشهداء على الناس الذين يفهمون لماذا سيطر المجتمع الغربي لماذا سيطرت أمريكا على العالم قد نعذر القادة السياسيين ونعذر الشعوب التي توصف بأنهم المغلوب على أمرهم ولكن أين المثقفون إن المشكلة ليست في الكلمة ليست في كلمة العالم والمثقف ولكن المشكلة في الفهم والتفهيم الذين هم علماء الأمة، إن العطالة ليست في السياسي والقائد العسكري ولا في الشعب العادي ولكن المشكلة في وظيفة العلماء وظيفة المراجع وظيفة الفهم وعلى هذا الأساس فمن المسؤول عن هذا العجز العربي والعجز الإسلامي والاستسلام الإسلامي نعم الإسلام من الاستسلام وفهمنا للإسلام أن نستسلم لقوة الإكراه لمن بيده العصى والسيف والبندقية والقنبلة بأنواعها إننا آمنا بالعضلة عضلة القلب وليس فهم الدماغ بأن العصى لمن عصى، وآمنا بالقوة المادية بدل القوة العقلية قوة الفهم حقرنا قوة الفهم قوة العقل وعظمنا قوة العضلات وما ناب عنها غرسنا في أعماق الأطفال أن المرجع هو القوة وليس الفهم وشاعرنا القديم يقول:

السيف أصدق إنباء من الكتب   في حده الحد بين الجد واللعب

والشاعر الأحدث يقول:

حتى رجعت وأقلامي قوائل لي   المجد للسيف ليس المجد للقلم

إن النص لا يجدي شيئاً إذا كان فهمنا للواقع خاطئاً، وإلا فهل لقول الله تعالى من معنى حين قال: ((علّم بالقلم علّم الإنسان ما لم يعلم)) كلمة الله العربية لا يمكن أن يكون لها معنى ما لم نفهم كلمة الله الواقعية، ونحن نفهم الواقع على أساس (علم بالسيف) وليس بالقلم، كما أن نظرنا انخدع بحركة الشمس ولم يكن النص ليحل المشكلة لأننا أهملنا مرجع النص الذي هو الواقع (آيات الآفاق والأنفس) ونحن لا معنى عندنا لآيات الآفاق والأنفس، نحن لا قدرة لنا على فهم اليابان كيف صار قوة عظمى بدون القوى التي نؤمن بها ونحن لا قدر لنا على فهم كيف تهدم الاتحاد السوفييتي وهو يملك من القوة ما يدمر الكرة الأرضية مرات كثيرة، ونحن لا نفهم كيف تتحد أوربا بغير قوة وبالإقناع ولا يرسل جيوشاً لعمل هذا الاتحاد ونحن ألعوبة تتلاعب أمريكا بنا كأننا عميان عنا آيات الله.

إن رصيد أمريكا في تسلطها علينا بهذا الوضع المدهش المحير ليس أسلحتها وجيوشها وإنما الرصيد هو أننا عميان عمىً حقيقياً عما حدث في العالم من تطورات هي الاعتراف بعقل الإنسان. أن أمريكا لا تعترف بنا لأنها لا ترانا بشراً لهم عقول، إنها تتصرف معنا على قدر عقولنا التي لم نعترف بعد بأن للعقل دوراً في حياة البشر نحن الذين نكتب السحر ونرسخ الإيمان بالقوة المادية وليس بالقوة الفهمية نحن الذين سحرنا الآمة وأدهشنا العالم بعجزنا الفكري والعقلي، إذا أخذ ما وهب سقط ما وجب، لا قدرة لنا نحن الذين نزعم أننا عقل الأمة على أن نقنع الأمة أن لها عقلاً يجلب لها الكرامة الإنسانية إن عجزنا في إيقاظ عقل الأمة دليل على أننا لم نتمتع بهد بقوة العقل الذي يمكن إيقاظ الأمة به. إذا كانت النصوص لها أي معنى خارج ارتباطها بالواقع سنفهم معنى كلمة عيسى عليه السلام لما يكثر من ذكر مصطلح القادة العميان في الإنجيل وحين يقول ((إذا كان النور الذي فيك ظلاماً فالظلام كم يكون))، إذا كان الذي سينير لك الطريق ينشر الظلام فكيف سينتشر النور ويذهب الظلام إننا في الظلام الدامس المحير كما قال المعري:

يابصير القوم مثلي أعمى فهلموا في حندس نتصادم

يكتب بول كندي في كتابه (الاستعداد للقرن الحادي والعشرين) حين يتحدث عن المتخلفين في العالم تخلفاً عقلياً لا إعاقة طبيعية بل تخلفاً صناعياً ثقافياً يقول بول:

((إذا كانت الأوضاع مخيبة في أمريكا الوسطى والجنوبية فلهم عزاء من العالم الإسلامي.. فبعيداً عن الاستعداد للقرن الحادي والعشرين يبدو أن معظم العالم الإسلامي يجد صعوبة بالتعامل حتى مع التاسع عشر بمبدئه العلماني وديمقراطيته.. وأسئلته الفكرية، وإذا احتاج المرء إلى مثال على أهمية المواقف الثقافية لاستجابة مجتمع للتغيير فعليه بالإسلام المعاصر)) إننا لم نملك القوة الفكرية التي تبث أن الإنسان إنسان بما يملك من عقل مفكر وأنه إذا فقد الإنسان هذه القوة الفهمية يمكن أن يبقى إنساناً، نحن إذا رأينا إنساناً يتحدث ولا رابطة بين أفكاره نشعر أنه فقد الوعي الفهمي ونشعر بشعور مأساوي نحوه ونحن نشعر بهذا الشعور المأساوي نحو العالم الإسلامي ولكن لا قدرة للفكر الذي عندنا على توضيح أن العالم الإسلامي لا يملك الوعي المعاصر وإلا فلماذا لا نشم رائحة الاقتراب من الفكر الديمقراطي في العالم العربي إن الديمقراطية نبذ للقوة وإيمان بالعقل وبما أننا لا ثقة لنا بالعقل فلا أحد يؤمن بالديمقراطية وحتى نحن الذين نزعم أننا نقدر الديمقراطية لن نقبل الديمقراطية حكماً في مشكلاتنا، يا أيتها المصائب أسرعي في إنضاجنا حتى نعترف بأن للعقل الإنساني معنى.

142. سمعنا قرآنا عجبا يهدي إلى الرشد

هذا الكلام كلام الجن وسواء كان كلاما لله أو للجن فإن مصداقيته تعرف بالرجوع إلى الواقع، فالله لا يقبل بالتحاكم إلى الواقع وإلى التاريخ فحسب بل إنه يأمر بهِ، وهذا من أعظم ماجاء به القرآن، والقرآن يعتبر هذا التحول من آيات الكتاب إلى آيات الآفاق والأنفس يعتبر هذا تحولاً لتاريخ البشر، تحولاً

من الخوارق إلى السننية وبناء عليه كان ختم النبوة وختم إنزال الكتب، وتحول الدليل إلى الواقع في آيات الآفاق والأنفس لمعرفة الصواب من الخطأ والربح من الخسارة وذلك بالنظر إلى العواقب وهذا نحن في العالم الإسلامي لم نواجه هذا التحول مواجهة صريحة واضحة.

الرشد هو التحاكم إلى العواقب، ولنفهم معنى الرشد نرجع إلى آية أخرى حين يذكر القرآن اليتامى، حيث أن المجتمع يلي تدبير أمور وأموال هؤلاء اليتامى الذين لم يبلغوا الرشد، فيقول لنا بأن نختبر هؤلاء اليتامى بعد أن يبلغوا مرحلة النضج الجسدي، فنختبر بلوغهم الرشد أو بلوغهم الفكري، يقول الله: ((وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشدا فادفعوا إليهم أموالهم)) معنى هذا أن هؤلاء اليتامى الذين لم يبلغوا الرشد لا تسلم لهم أموالهم حتى لا يضيعوها بجهلهم، ومن هنا كان الحجر على السفيه، حيث يمنع من التصرف في أمواله، فالسفه ضد الرشد ((ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم فيها وارزقوهم فيها واكسوهم)). ونحن لم نصل إلى مرحلة الرشد.

نستطيع أن نطبق هذا الشيء على المجتمع كما على الفراد، فنقول عن مجتمع ما أنه غير راشد، وغير الراشد الذي لم يبلغ النضج الفكري حتى صفقاته التجارية لاتكون راشدة، حيث يشترى سلعاً ميتة. إنني أتحدث عن مجتمع العالم الإسلامي الذي لم يبلغ الرشد الفكري، كيف أنه يبدد أمواله في بيع سلع غالية بسعر رخيص، حيث أن قيمة العملة النقدية ليست في ذاتها وإنما تأتي من قيمة مالكها، ونحن في العالم الإسلامي غارقون في الديون التي نعجز عن دفع فوائدها فضلاً عن تسديدها، وليس هذا فقط، بل إننا نودع ما نملك من نقد أو مال عند الآخرين، وإذا نظرنا إلى الديون وإلى الأموال المودعة في بنوك الذين عندهم درجة أعلى من الرشد النضج الفكري؛ نجد أن حجم الديون لا تفترق كثيراً زيادة أو نقصاً عن الأموال المودعة عند الآخرين، وهذا ليس خاصا ببلد واحد وإنما هو مشكلة عامة طامة. هذا عدا عن الفساد والسلب والنهب، لهذا لايطمئن مواطنوا هذه البلدان على أيداع أموالهم في بلادهم خشية استلابها والاستيلاء عليها، وإن كان وارداً هذا الاستلاب على ودائعهم أيضا إلا أن الأمان حسب ظنهم أنه أفضل هناك من بلادهم.

إن هذه المأساة لو تعودنا أن نلاحق مصدرها وأين يبدأ الخلل وأين يتسرب الفساد، سنجد في النهاية أنه يصل إلى بدء خلق الإنسان الذي عنده شيء مختلف عن بقية الكائنات الحية وهو العقل، الفهم، التمييز، القدرة على تمييز الخطأ من الصواب, والشر من الخير، والضار من النافع، هذه ميزة الإنسان البشري أولاد آدم هؤلاء الذين أنشأهم الله خلقاً آخر ونفخ فيهم من روحه وأسجد لهم الملائكة وسخر لهم كل ما في السماوات وما في الأرض جميعاً بما عندهم من هذه الميزة في القدرة على تمييز والتسخير وفي هذا يقول الله عن النفس الإنسانية مبيناً طبيعتها في إمكانية إصلاحها أو إفسادها أنه ألهم هذه النفس الفجور والتقوى خلقها الله قادرة على الفجور والتقوى على الشر والخير ((ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها)) إذن هذه النفس من طبيعتها إمكانية الفجور والتقوى وهذا من صنع الله ومن خلقه، وفاعل هذه القدرة هو الله، ولكن التحويل إلى الفجور أو التقوى فاعله البشر، فاعلُ (ألهمها) هو الله، ولكن فاعلَ (أفلح) من زكاها فهو الإنسان لأنه هو الذي يزكي ويدسي، فالنفس كالأرض صالحة لزراعة الشوك والعنب ولكن تحول الأرض إلى حقل شوك أو عنب ينتج عن فعل الإنسان وجهده, والإنسان بما عنده من قدرة على فهم النتائج والعواقب يكشف خلال تعامله القواعد والسنن التي تؤدي إلى النافع والضار، فيتمسك بالنافع ويترك الضار, وهذا قانون وسنة إنسانية أيضاً، فالعواقب تبين النافع من الضار، والحق من الباطل، فأما الضار أو الذي لا ينفع يذهب جفاء، وما ينفع الناس يمكث في الأرض ويتراكم، وتزداد سلطة الإنسان وقدرته على تزكية النفس واجتناب تدسيتها، وهذا قانون عام ويؤدي إلى التفاؤل لأن الخطأ يُترك والصواب يبقى ويزداد.

إن جميع البشر يخرجون من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئاً لا فجوراً ولا تقوى وإنما القابلية للتعلم كما يُخلق الطفل لا يعلم لغة ولكنه قابل أن يتعلم أية لغة وقابل أن يتقبل المفاهيم والقيم الصالحة والطالحة والمقدس والدنس، يتعلم الطفل هذا قبل أن يتعلم الكلام يتعلم هذا من لغة السيمياء، ولغة لحن القول، لأن لغة السيمياء سحنة الوجه، وجه الأم بالذات ملاذ الطفل، فالطفل يصير يميز الوجه الباسم من الوجه الغاضب والوجه الحزين، ويتمكن من ربط الوجه الباسم المسرور المبتهج بأسبابه من قدوم أقارب الأم واستقبالها لهم بالبهجة والفرح، ويفهم الطفل الوجه الحزين الدامع العين من المصائب

والإساءات, وكذلك الوجه الغاضب المكفهر المتطاير شرراً, هذه لغة السيمياء وكذلك لغة لحن القول, نغمة الصوت الحزين أو الغاضب أو المسرور, يمكن للطفل أن يميز بين هذه الأصوات التي هي لحن القول, ومن هنا يكون الطفل قبل أن يتكلم قد تعلم المقدسات والمدنسات, وما يحسبه المجتمع مقدساً أو مدنساً سواء كان صواباً أو خطأ ولغة السيمياء ولغة لحن القول تغرس في الأعماق السحيقة برسوخ كأنها صارت طبيعة وغريزة, وهي ليست طبيعة ولا غريزة, وإنما من صنع الأبوين والمجتمع, ((أفلح من زكاها وقد خاب من دساها)), وما يتعلمه الطفل بعد أن يتعلم لغة الكلام لا يكون بعمق ما يتعلمه من لغة السيمياء ولغة لحن القول, هذا أسلوب عظيم وعميق إذا فهم الإنسان بوعي صحيح قيم المقدسات والمدنسات يخرج الإنسان سوياً كأنما زكيت نفسه بالفطرة، وهي ليست بالفطرة وإنما بالتحويل والتنشئة، أما لغة الكلام, فيكشف الطفل أن ليس كل ما يتكلم به المجتمع صدق وحق, هنا يكشف الطفل كيف يكذبون عليه, فمن هنا نعلم إلى أي حد بعيد تذهب أهمية لغة السيمياء ولغة لحن القول، وأهمية أن يكون المجتمع صادقاً والأم صادقة، لأن وجه الأم هو الذي يصنع مقدسات المجتمع ومدنساته، ومن هنا نكشف أيضاً إلى أي درجة وجه الأم له أهمية في التربية العميقة، وإلى أي درجة ضرورة رفع المستوى الفكري للأم أكثر من الرجل، ولكن حين نوحي للطفل دونية الأنثى ومجتمعنا ((إذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ألا ساء ما يحكمون)).

وقد أُجريت عملية استبيان اختياري على أطفال صغار . في بلد متطور أيضاً . وقيل لهم كيف ستشعر إذا استيقظت يوماً وقد تحولت إلى الجنس الآخر، فأجاب بعض الأطفال بأنهم سينتحرون! ما معنى هذا؟! وما هذه التزكية أو التدسية التي نقوم بها من غير شعور منا!؟

إن أسلوب تعاملنا مع الإنسان كإنسان مبني على الإكراه والعقاب، إن هذا الأسلوب راسخ، وكنت سمعت في إذاعة لندن أن الأطفال الناشئين في المدارس قد زاد تمردهم أو إهمالهم حين ألغيت العقوبات في المدارس, وأن المربين يفكرون فيما إذا كان هذا الأسلوب خاطئاً؟ هذا الأسلوب ليس خاطئاً ولكن البشرية خلال التاريخ كله تعامل مع الإنسان بإكراهه، ولكن التجارب البسيطة تدل على أن الإنسان لا يعطي بإكراهه إلا أقل ما يمكن والإنسان بإقناعه يعطيك روحه وماله، وأن أفضل استخدام للإنسان ليس بإكراهه وإنما بإقناعه، وسيضطر الإنسان أن يكشف هذا.

تاريخ الإنسان لايزال مبكراً، إنه لا يزال يفسد في الأرض ويسفك الدماء، ولانزال نعيش شريعة الغاب وأن الحق للقوة وليست القوة للحق، الله يقول إذا جاء الحق زهق الباطل إن الباطل كان زهوقا، ونحن نعتقد ونقول ونوحي بلغة الكلام ولغة السيمياء ولغة لحن القول ولغة الكتاب: جاء الباطل وزهق الحق إن الحق كان زهوقاً، كل الذين يلجؤون إلى الإكراه يمارسون شريعة الغاب وممارسة الإكراه في التعليم والتفهيم والإيمان هو الغي الذي يحبط جميع الأعمال ويفسد المجتمعات والبشرية كلها، وهو الظلم العظيم، وهو سبب هلاك المجتمعات السابقة واللاحقة، صدق الله ((لا إكراه في الدين)) لأن الإكراه لعقل الإنسان سلب أفضل ما بالإنسان، وما به الإنسان إنساناً قد تبين الرشد من الغي.